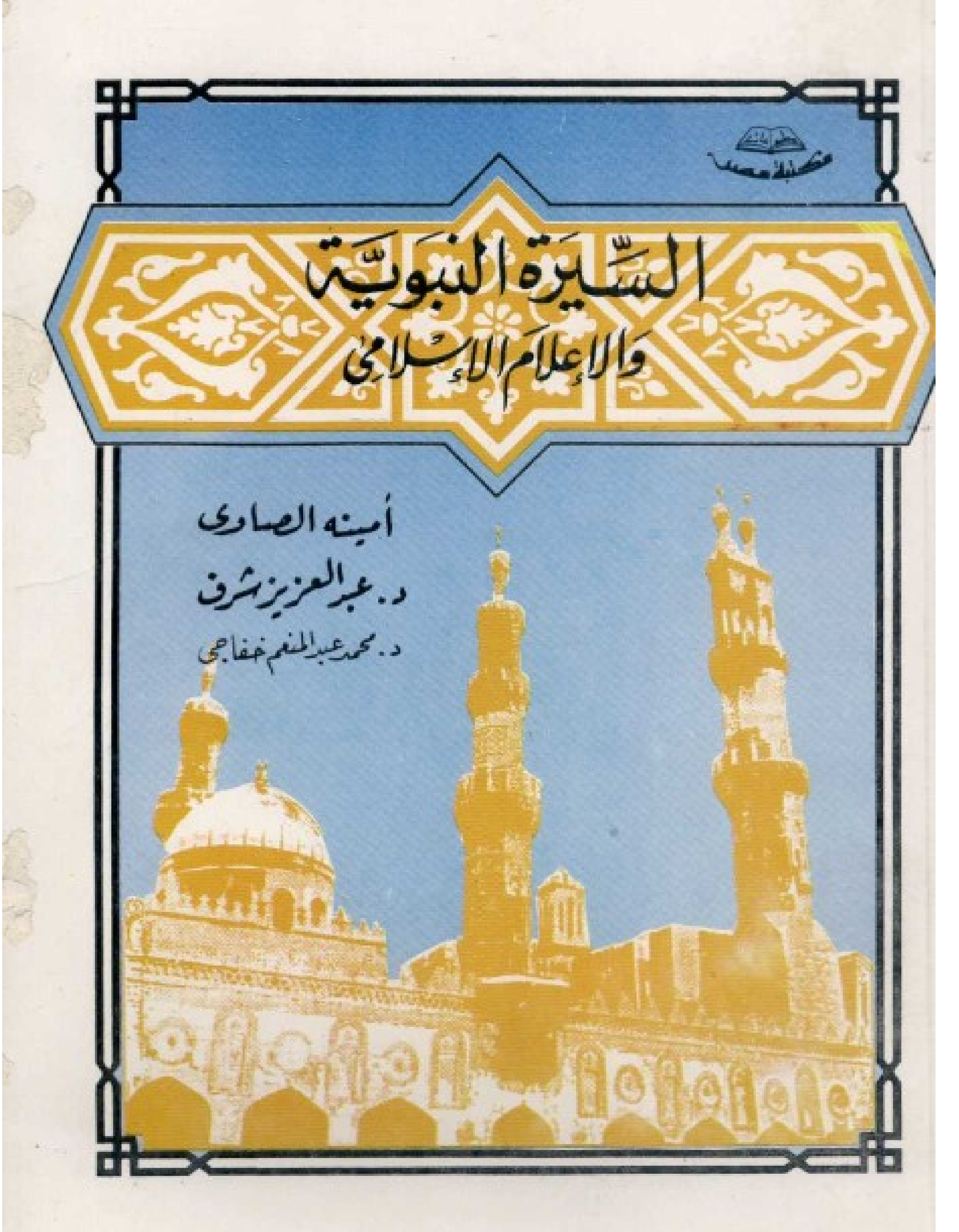

السيرة النبوية
والإعلام الإسلامي
أمينه الصاوي
د. عبد العزيز شرف
د. محمد عبد المنعم خفاجي



السيرة النبوية
والإعلام الإسلامي

د. عبد العزيز شرف — أمينه الصاوي

د. محمد عبد المنعم خفاجي

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

هذا كتابنا « السيرة النبوية والإعلام الإسلامى » الذى نرجو به أن يصاحب العقل العربى الحديث فى توثبه وطموحه ونهضته المعاصرة ، إيذانا بأن نهضة الأمم العربية والإسلامية تصاحب القيم الروحية للمجتمع الإسلامى الكبير ، وإعلاما بأن هذه النهضة لا بد أن تنبثق من روح الدين ، وأن يكون الدين فيها هو الرائد والقائد والمرشد الأمين .

وإذا كان هذا البحث غير مسبوق بشيء يماثله ، فإنا نتمنى أن يكون مقدمة لبحوث جديدة عن الإعلام الإسلامى ، الذى سوف يغذى الشباب العربى بدم جديد ، يجعل بناء الحاضر والمستقبل شيئا ميسورا وممكنا لهذا الجيل المتوثب الطموح .

وبين يدى القارئ العربى هذا الكتاب ، علامة على الطريق ، وبداية للرحلة إلى المستقبل المنشود ، ولوحة مضيئة تنير الطريق أمام الأجيال .

المؤلفون

محتويات الكتاب

الموضـــوع	الصفحة
المقـدمـة	١١

القسم الأول
ماهية الإعلام الإسلامى

الموضوع	الصفحة
الباب الأول :	
ماهية الإعلام الإسلامى	١٥
الباب الثانى :	
القرآن الكريم والإعجاز الإعلامى	٩٠
حلقات الإعلام الإسلامى	٩١
نزول القرآن	١٠٤
موضوعات سور القرآن	١٠٥
جمعه وكتابته	١٠٦
قراءات القرآن	١٠٧
نظم القرآن وأسلوبه	١٠٨
بلاغة الاتصال فى القرآن الكريم	١١١
إعجاز القرآن	١١٣
الصورة الأدبية والإعلامية فى القرآن الكريم	١٢٣

الموضوع الصفحة

القسم الثانى

التفسير الإعلامى للبعثة النبوية الشريفة

الباب الثالث :

التفسير الإعلامى للبعثة النبوية الشريفة ١٣٧
مرحلة الدعوة السرية ١٣٨
مرحلة الدعوة العلنية ١٤٣
مرحلة الاضطهاد الدينى فى مكة ١٤٨
إسلام حمزة عم رسول الله ١٥٣
مرحلة الهجرة ١٥٦
الإسراء والمعراج ١٦٤

الباب الرابع :

الاتصال الشخصى فى الدعوة الإسلامية ١٧٣
مؤاخاة مكة ١٧٣
إسلام عمر بن الخطاب ١٧٨
عرض الرسول نفسه على القبائل ١٨٢
نور على الطريق ١٨٥
بيعة العقبة الأولى ١٨٦
بيعة العقبة الثانية أو الكبرى ١٨٩

الباب الخامس :

الاتصال الإسلامى بين دعم الاتجاهات وتغييرها ١٩٨
انتقاء التعرض والإدراك والتذكر ١٩٨
دور الجماعات ومعاييرها ٢٠٤
ما بعد نقض الصحيفة ٢١٨

الموضوع	الصفحة

مواصلة الجهاد فى سبيل الله والرسالة ٢٢١
وفاة أبى طالب وخديجة ٢٢٣

الباب السادس :

الأساليب الإعلامية فى الدعوة الإسلامية فى المدينة ٢٢٨
بناء المسجد النبوى بعد قدوم الرسول المدينة ٢٣٦
أول خطبة للرسول بالمدينة ٢٣٩
خطبة ثانية ٢٤٠
موادعة رسول الله لليهود ٢٤٠
المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ٢٤٣
الأذان ٢٤٦
اليهود يظهرون العداوة للإسلام ٢٤٨
تحويل القبلة ٢٦٠
دعوة رسول الله الملوك والأمراء إلى الإسلام ٢٦٠
وفد ثقيف إلى رسول الله ﷺ ٢٦٧
حج أبى بكر بالناس سنة تسع ٢٦٨
الأنصار وجهادهم فى سبيل الله ٢٦٩
سنة الوفود ٢٧١
العرب يدخلون فى الدين أفواجا ٢٧١

القسم الثالث

الإعلام الإسلامى والحضارات الاتصالية

الباب السابع :

الإعلام الإسلامى فى الحضارة السمعية ٢٨٧
المبحث الأول : بلاغة الرسول والاتصال الشخصى ٢٩٨
المبحث الثانى : الخطابة الإسلامية والاتصال الجمعى ٣٠١

الموضوع	الصفحة

المبحث الثالث : الإعلام الشعرى ٣٢٦
المبحث الرابع : الشعر والحرب النفسية ٣٣٦
المبحث الخامس : المدائح النبوية فى التفسير الإعلامى ٣٤٩

الباب الثامن :

الإعلام الإسلامى وحضارة التدوين ٣٥٤
السيرة النبوية وحضارة التدوين ٣٥٥
السيرة النبوية والحضارات الإعلامية ٣٦٢

الباب التاسع :

الإعلام الإسلامى والحضارة الطباعية ٤٠٠
إحياء التراث والحضارة الطباعية ٤٠٠
كتاب الغرب والسيرة ٤٠٣
الكتّاب المسلمون والسيرة النبوية فى الحضارة الطباعية ٤٠٨
قضية التبشير فى الصحافة المصرية ٤٠٩
هيكل والسيرة النبوية ٤١٥
طه حسين والسيرة العطرة ٤١٩

الباب العاشر :

الإعلام الإسلامى والحضارة السمعية والمرئية ٤٢٤
السينما والسيرة العطرة ٤٢٦
الإذاعة والسيرة النبوية ٤٢٦
مسرح الحكيم وحياة محمد ٤٢٧
التليفزيون والسيرة النبوية ٤٣٦
أمينة الصاوى والإعلام الإسلامى ٤٣٦
فرسان الله والإعلام الإسلامى ٤٤١

مقدمة

« الإعلام الإسلامى » ليس جديدا فى موضوعه كما يتوهم الكثيرون ، وإن كان بابا جديدا يطرقه الدارسون بحثا عن الأصيل والمفيد الذى يثرى الدراسات الإعلامية المعاصرة فى الشرق والغرب على السواء ، ويضع الحلول الشافية لكثير من مشكلات الإعلام المعاصر التى حار فيها العلماء وحارت فى بحثها نظريات الإعلام جميعا .

وإنه لمن يمن الطالع أن تحتفى الجامعات العربية فى هذه الأيام بالإعلام الإسلامى ؛ فتنشىء له جامعة الأزهر قسما فى كلية اللغة العربية ، وآخر فى كلية الدعوة الإسلامية ، كما تنشئ له الجامعة الإسلامية فى المملكة العربية السعودية قسما فى المدينة المنورة ، وآخر فى مكة المكرمة ، إلى جانب اعتبار الإعلام الإسلامى علما قائما بذاته يدرس فى أقسام الإعلام وكلياته فى الجامعات المصرية والعربية . هذا الاحتفاء العلمى فى تقديرنا هو السير فى طريق الصواب من أجل إرساء دعائم نظرية إسلامية فى الإعلام تقف فى مواجهة نظريات الإعلام العالمية ، وتغذيها بالحلول الإسلامية التى يسير العصر كله فى الاتجاه إليها .

وهذا الكتاب محاولة متواضعة فى شق هذا الطريق الجديد — الأصيل فى دراسات الإعلام الإسلامى ، قسمناه إلى ثلاثة أقسام :

تناولنا فى القسم الأول منها .. ماهية الإعلام الإسلامى فى ضوء الدعوة الإسلامية ، ودراسات الاتصال الحديثة ، ذلك أن الاتصال هو حامل العملية الاجتماعية ، وهو الوسيلة التى يستخدمها الإنسان لتنظيم واستقرار حياته الاجتماعية . وحاولنا فى هذا القسم دراسة القرآن الكريم ونظرية الإعلام الإسلامى ، ذلك أن هذه النظرية الإعلامية تستمد منطلقاتها من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة .

أما القسم الثانى فقد خصصناه لدراسة التفسير الإعلامى للبعثة النبوية الشريفة ، والاتصال الشخصى فى الدعوة الإسلامية . كما تناولنا بالدراسة الاتصال الإسلامى بين دعم الاتجاهات وتغييرها ، وقدمنا دراسة تطبيقية للأساليب الإعلامية فى الدعوة الإسلامية بالمدينة المنورة ، مواصلين بذلك دراسة الإعلام الإسلامى في مراحل تطوره من مكة إلى المدينة .

ولقد خصصنا القسم الثالث لدراسة الإعلام الإسلامى والحضارات الاتصالية ، بهدف التعرف على الوسائل الإعلامية التى واكبت الإعلام الإسلامى فى مسيرته عبر العصور . فخصصنا بابا فى هذا القسم لدراسة الإعلام الإسلامى فى الحضارة السمعية ، درسنا فيه بالضرورة بلاغة الرسول ﷺ ، والاتصال الشخصى ، كما درسنا الخطابة الإسلامية ، والإعلام الجمعى ، والإعلام الشعرى ، والحرب النفسية ، والمدائح النبوية فى التفسير الإعلامى .

وخصصنا بابا آخر فى هذا القسم كذلك لدراسة الإعلام الإسلامى وحضارة التدوين ، درسنا فيه السيرة النبوية كنموذج تطبيقى من نماذج الإعلام الإسلامى فى هذه الحضارة الاتصالية ، ثم فى غيرها من الحضارات الأخرى التى واصلنا دراستها فى البابين الأخيرين عن الإعلام الإسلامى والحضارة الطباعية ، والإعلام الإسلامى والحضارة السمعية المرئية .

ونرجو أن نكون قد وفقنا فى هذا الكتاب فيما استهدفناه من تقديم مدخل للإعلام الإسلامى يتبعه — إن شاء الله — دراسات تطبيقية وأخرى نظرية فى هذا العلم الذى نعقد عليه الآمال فى تربية الأجيال . وجل من لا يخطئ تحيزا أو قصورا فى عالم البشر ،

(المؤلفون)

القسم الأول

ماهية الإعلام الإسلامى



الباب الأول

ماهية الإعلام الإسلامى

نحاول فى هذا الفصل التعرف على ماهية الإعلام الإسلامى فى ضوء الدعوة الإسلامية ودراسات الاتصال الحديثة ، ذلك أن الإعلام الإسلامى يرتبط بمفهوم الاتصال Communication ، والذى يعنى انتقال المعلومات أو الأفكار ، أو الاتجاهات ، أو العواطف من شخص أو جماعة إلى شخص أو جماعة أخرى من خلال الرموز . ويوصف الاتصال بأنه فعال حينما يكون المعنى الذى يقصده المرسل هو الذى يصل بالفعل إلى المستقبل . والاتصال هو أساس كل تفاعل اجتماعى ، فهو يمكننا من نقل معارفنا وييسر التفاهم بين الأفراد .

وبينما تختلف تعريفات الاتصال باختلاف الإطار المرجعى المستخدم ، والتأكيد على جوانب معينة من العملية الكلية ، إلا أن كل التعريفات تشتمل على خمسة عناصر هى : (أ) المرسل ، (ب) المستقبل ، (جـ) الدائرة ، (د) الرسالة ، (هـ) الأثر .

وإذن فالاتصال هو عملية يتم عن طريقها إرسال رسالة معينة — فى إطار دائرة — إلى المستقبل ، مع النتائج المترتبة على ذلك . هذا وتتضمن معظم التعريفات فكرة التفاعل ، حيث يتحول المرسل إلى مستقبل وعكس ذلك صحيح دائما . وتقصر بعض التعريفات الاتصال على الكائنات الإنسانية وحدها ، بينما توجد تعريفات أخرى حديثة ترى أن الاتصال يمكن أن يحدث بين أنساق فيزيقية . وهناك أيضا اختلافات بين الباحثين فيما يتعلق بطبيعة الرسالة أو معنى الاتصال ونطاق الظواهر التى تحملها الرسائل ، لكنها تجمع على أن الرموز ، والإشارات ، والسلوك ، هى محتويات هذه الرسائل . ويتضمن الاتصال دائما نتائج سلوكية بالنسبة للمستقبل والمرسل معا .

ويمكننا أن نميز بين ثلاثة مداخل فى تعريف ودراسة الاتصال فى العلوم الاجتماعية . المدخل الأول هو ذلك الذى تبناه علماء الاجتماع والنفس حينما درسوا الاتصال من خلال التحليل المقارن لسلوك الكائنات الإنسانية . وكان محور اهتمام هذه الدراسات هو مستويات تعقيد السلوك المتضمن فى عملية الاتصال ، لا مضمون الاتصالات

أو الرسائل . مثال ذلك التصنيف الذى قدمه كل من هيب D. O. Hebb وتومبسون W. R. Thompson للاتصالات وفقا لدرجة تعقيدها ، حيث أقاما تفرقة بين الاتصالات المنعكسة والاتصالات الهادفة غير اللفظية ، وأخيرا الاتصالات اللفظية . أما الاتجاه الثانى فهو ذلك الذى يتبناه بعض علماء النفس الاجتماعى والاجتماع ، حينما قصروا دراستهم للاتصال على اللغة ، وتحليل الرسائل ، والنتائج الوظيفية له . ويتفق مع هذا الاتجاه تعريف لندبرج ولارسن وشرام عندما ذهبوا إلى أن الاتصال هو نقل المعانى باستخدام الرموز . فحينما يدخل الأفراد فى تفاعل عن طريق الرموز فإنهم يمارسون الاتصال . إذن فالفكرة الرئيسية هنا الاشتراك فى المعانى[١] .

وهناك اتجاه ظهر حديثا فى دراسة الاتصال داخل نطاق العلوم الاجتماعية يعتمد فى أسسه ومفاهيمه على عمليات الاتصال الهندسية . ويحاول هذا الاتجاه أن يدرس الاتصال من منظور شامل يستوعب المعنى ، والوظيفة ، والهدف ، والنتائج السلوكية . ويطلق على هذا الاتجاه نظرية المعلومات ، ويؤكد أصحابها أنهم لا يدرسون فقط الاتصال بين الكائنات الإنسانية ، بل يدرسون أيضا اتصالات ذات طبيعة فيزيقية[٢] .

وتفسير الأدب على أساس إعلامى يقوم على أساس نظرية الاتصال Communication ذلك أن الاتصال هو حامل العملية الاجتماعية ، وهو الوسيلة التى يستخدمها الإنسان لتنظيم واستقرار وتغيير حياته الاجتماعية ، ونقل أشكالها ومعناها من جيل إلى جيل عن طريق التعليم والتسجيل والإعلام والتعبير الفنى والأدبى . وقد أوضح جون ديوى[٣]

---

(١) انظر تفاصيل ذلك فى :

Hebb & Thompson, the Social Significance of Animal Studies, in Lindzey (ed). Handbook of Social Psychology, Cambridge Mass, Addison Wesley, 1954, Vol. 1. pp. 534-40. Also Lundberg et. al, Sociology, N. Y. Harper, 1954, p. 360.

(٢) انظر :

G. A. Miller, Psycholinguistics, in Lindzey (ed). Handbook of Social Psychology, Vol. 11, p. 609. Shannon & Weaver, The Mathematical Theory of Communication, Urbana: University of Illinois Press, 1949, p. 90.

، د . محمد عاطف غيث قاموس علم الاجتماع ص ٧٢

(٣) Dewey; John; Democracy and Education, The Macmillan Company, N. Y. 1916, pp. I - II

أهمية الاتصال لحياة الجماعة لأسباب ثلاثة رئيسية هى :

١ — إن وجود المجتمع ، ومن ثم استمراره ، متوقف على نقل عادات العمل والتفكير والشعور من الكبار إلى الناشئين . ولا يمكن للحياة الاجتماعية أن تدوم بغير هذا النقل الشامل للمثل العليا والآمال ، والأمانى والقيم ، والآراء من الأفراد الراحلين عن حياة الجماعة إلى أولئك الوافدين عليها .

٢ — إن دوام المجتمع يتم بنقل الخبرة واتصال الأفراد ، ولكن وظيفتهما لا تقتصر على ذلك بل هما أساس وجوده ، فالناس يعيشون جماعة بفضل ما يشتركون فيه من أهداف وعقائد وأمانى ومعلومات ... إلخ والاتصال هو وسيلة اكتسابهم إياها .

٣ — إن الحياة الاجتماعية واتصال الأفراد صنوان ، يترتب عن طريقهما الناس بتغير خبرات الأطراف المشتركة فى عملية الاتصال ، ويرجع ذلك إلى الخبرة التى يود كل طرف منهم أن يشرك زميله فيها من زاوية جديدة ، وبذلك تتسع خبرة كل منهم .

ويقول جورج ميد[١] إن « عملية الاتصال لا يمكن أن تتحقق وأن تجذب فى حد ذاتها ، ولكنها تحدث كافتراض أساسى للعملية الاجتماعية ، وفى مقابل ذلك تعد العملية الاجتماعية افتراضا أساسيا للاتصال الممكن » .

ولقد حاول موريس جانوفيتز Morris Janwitz وهو من كبار العلماء المهتمين بدراسة الاتصال — أن يحدد فى مقاله The Study of Mass Communication أهم وظائف الاتصال الجماهيرى ، فذكر ثلاث وظائف أساسية هى : نقل تراث المجتمع من جيل لآخر ، وجمع المعلومات التى تساعد على مراقبة البيئة والإشراف عليها ، ثم المساعدة على ترابط مختلف أجزاء المجتمع فى وجه التغيرات الهائلة التى تطرأ على تلك البيئة . وقد تبدو هذه « الوظائف » غريبة بعض الشيء ، أو على الأقل غير مألوفة للكثيرين ممن يتصورون أن لوسائل الاتصال الجماهيرى وظائف وأهدافًا أخرى غير هذه ، مثل الدعاية السياسية والترويج للمذاهب والأيديولوجيات والأفكار المتعلقة بنظام الحكم القائم ، أو حتى الترويج لأنواع معينة من النشاط الاقتصادى عن طريق الإعلان ، وذلك فضلا عن توفير بعض مواد التسلية والترفيه الراقية المفيدة . وربما كانت هذه الوظائف الثلاث التى ذكرها جانوفيتز هى فى نظره « الوظائف النهائية » ، أو الوظائف « العليا » التى ينبغى لوسائل الاتصال الجماهيرى أن تعمل على تحقيقها فى

(١) G. H. Mead: Self and Society, University of Chicago Press, Chicago, 1943, p. 290.

آخر الأمر . إلا أن اختلاف وجهات النظر وتعددها حول هذا الموضوع خليق بأن يكشف لنا عن مدى أهمية الاتصال الجماهيرى فى حياة الفرد والمجتمع ، وتنوع .. بل وتغاير وتباين المجالات التى يمكن أن يفيد فيها . وهذا كله يعنى فى آخر الأمر أنَّ أية محاولة لدراسة الاتصال الجماهيرى يجب أن تعطى من الاهتمام لدراسة وفهم النظم التى تصوغ عمليات الاتصال ، والسياسات التى تهدف إليها ، والآثار المترتبة عليها ، ومدى اقتناع الجماهير بما يقدم لهم من مواد ومعلومات[١] .

ولا يمكن لجماعة أو منظمة أن تنشأ وتستمر دون اتصال يجرى بين أعضائها . ويكفى أن ننظر إلى المجتمع الحديث بشركاته وهيئاته ومنظماته ، وحكوماته وجيوشه ، لكى ندرك أن الاتصال هو الجهاز العصبى الذى يعمل على تماسك الأجزاء وتكاملها[٢] . ولكل مجتمع — مهما كانت درجة بداءته أو رقيه — نظام معين من الاتصال يساعد على تسيير أموره . وفى أى مجتمع بدائى — كالقبيلة مثلا — يقوم الاتصال بعدة وظائف أهمها : مراقبة البيئة ، والمشاركة بين الأفراد للوصول إلى استجابة جماعية ، ونقل الخبرات والمهارات والتراث الاجتماعى ، والإمتاع والمؤانسة ، والطقوس الدينية التى تجعل من القبيلة وحدة متسقة ذات سمات مشتركة .

فكان على القبيلة أن تعين ديدبانًا مهمته مراقبة الأفق والإبلاغ عن الأخطار والفرص ، فيبلغ مثلا بمجرد مشاهدته لقبيلة معادية أو لقطيع من الماشية على مدى الصيد . عندما كانت تصل معلومة كهذه إلى القبيلة ، كان لا بد من ترتيب معين لتقرير ما يتخذ من إجراء . قائد أو مجلس قيادة يقرر (عادة بعد مناقشة وأخذ ورد) يشرح الموقف ويصدر الأوامر ويخصص المسئوليات . وبالطبع لم تكن كل سياسة القبيلة تقرر عن طريق المجلس على أثر حالة طارئة ، كان البت فى الكثير منها مرهونا بنظام من المعتقدات والتقاليد والقوانين التى يبلغ بعضها من العمر ما يزيد على عمر أكبر الأحياء فى القبيلة سنا . لذلك كان من أهم الواجبات تعلم هذه المعتقدات والتقاليد والقوانين والمهارات الضرورية فى حياة القبيلة إلى الشباب ، وهم الأعضاء الجدد فى الجماعة . فالآباء والأمهات كانوا يعلّمون الأطفال ، والكاهن والشيوخ يعلمون الشباب . هذه الأدوار الإعلامية الثلاثة إذن كانت ترى بوضوح فى المجتمع الباكر : دور الديدبان —

---

(١) د . أحمد أبو زيد : الاتصال — فى عالم الفكر — الكويت ١٩٨٠ ، ص ٨

(٢) د . إبراهيم إمام : الإعلام والاتصال بالجماهير ، ص ٢٧

ـــ ليراقب الأفق ويبلغ ، ودور السياسة ـــ لتقرير السياسة والقيادة والتشريع ، ودور المعلم ـــ ليبصر الأعضاء الجدد بشئون المجتمع من مهارات ، ومعتقدات يقدرها المجتمع . هذه الوظائف الرسمية نسبيا ، ترتكز فوق طبقة من الإعلام اليومى لا عيش للقبيلة دونه ، وهو تبادل الصداقة والحب والتحديات والمجادلات ، والمناقشات والمبادلة والمتاجرة والرقص والغناء والحكايات ، وغير ذلك من الإعلام الودى الذى يكسب المجتمع اللون والتماسك[١] .

هذه الوظائف الإعلامية الجوهرية ظلت مستمرة فى كل العصور على الرغم من اتساع نطاق المجتمع وتعقده وبلوغه شأوا حضاريا كبيرا ، ولكن الذى حدث هو أن تبادل الإعلام أصبح أيسر عن ذى قبل ، وبعض وجوه النشاط التى كانت ودية عابرة أصبحت رسمية ، وبعض ما كان يقوم به الأفراد يتطلب الآن مؤسسات اجتماعية أدخلت الآلة فى عملية الإعلام لترى وتصغى وتتكلم وتكتب للإنسان ، وحول هذه الآلات نهض عدد من أكبر المؤسسات .

على أن التفسير الإعلامى للدعوة الإسلامية يواجه صعوبات خاصة ، ترجع إلى أن المواقف التاريخية تكون على النقيض من المواقف التى لا يمكن التحكم فيها بصورة صناعية ، كما يحدث فى إحدى العمليات أو أحد المختبرات الكيميائية ـــ ذلك أن المواقف التاريخية «لا تكرر نفسها بالضبط تماما ، بحيث تسمح بصياغة قوانين وصفية دقيقة يمكن بدلالتها تفسير أثر ما والتكهن به فى ثقة تامة . فمن المحال علينا أن نعاين الأحداث التاريخية الماضية معاينة مباشرة ، ذلك أن ما قد حدث وما أدى إلى حدوث تلك الأحداث لا بد من استنتاجه من أشتات أدلة وشواهد جزئية ، لا يمكن الاعتماد عليها فى كثير من الأحوال . ومن المحال إجراء التجارب على السلوك البشرى الشامل على أى نطاق واسع . أجل إن التجارب توضع موضع الاختبار كما يحدث فى نظام جديد للحكم ، أو أسلوب جديد من الفن ، ولكن ذلك لا يكاد يتم بأية حال تحت ظروف مقننة تسمح بالتحليل الموضوعى للأسباب والنتائج ، بالمقارنة مع مجموعة ضابطة . وإن ما تتسم به الأحداث الثقافية من تنوع هائل وتعقد جسيم ، يجعل من العسير تمييز ما فيها من تكرارات دقيقة . وتبدو الظاهرات الثقافية كأنما هى تغير سلوكها على الدوام . ثم إن تغايرات مجهولة لا يمكن التنبؤ بها ، لا تفتأ على الدوام تقلب تنبؤاتنا رأسًا على عقب .

---

(١) ولبور شرام (ترجمة محمد فتحى) أجهزة الإعلام والتنمية الوطنية ، ص ٥٩

ونظرًا لقلة ما لدينا من القوانين المفسرة الكافية ، ذهب بعض أصحاب النظريات من العلماء إلى أنّ التفسير الكامل الوحيد لحادثة معينة ، هو الوصف الكامل لجميع الأحداث السابقة ، وهو أمر محال بطبيعة الحال . وكثيرا ما حذرنا الفلاسفة من أن الحادثة أو الحالة لا يتم تفسيرها تماما بمحض تعقب تكوينها ، وخاصة عن طريق تتبع سلسلة مساعدة من الأحداث المؤدية إلى الحادثة أو الحالة الراهنة(١) .

وإذا كان من المتفق عليه أن « التفسيرات الكاملة والمؤكدة والنهائية » مستحيلة فى التاريخ — كما هى مستحيلة فى العلم والفلسفة — فإن التفسيرات « الجزئية والمؤقتة والاختبارية » ليست بمستحيلة ، وهى أشق فى نظريات التاريخ منها فى العلوم الدقيقة ، ومن ثم وجب أن تكون متواضعة فيما تدعيه من دعاوى . ومع هذا القدر من التحذير تصبح الفروض التفسيرية ممكنة فيما يتعلق بالتاريخ الثقافى ، بما فى ذلك تاريخ الفنون ، قدر ما هى ممكنة فى المواطن الأخرى من العلوم الاختبارية ، حيث يمكن اختبارها شيئا فشيئا على ضوء المعطيات الاختبارية ، ثم تدعيمها أو إضعافها أو تصحيحها . ذلك أن تفسيرا صادقا — وإن يكن جزئيا — على حد تعبير توماس مونرو(٢) — يعتبر خيرا من لا شىء ، إذا لم تعده خطأً أنه كل التفسير ، وأنه التفسير الضرورى والواف ، وإذا هو لم يعطنا صورة كاذبة ومشوهة لتتابع الأحداث بكامله . ترى ما هو التفسير ؟ وإلى أى حد يحتاج إلى إيضاح العلاقة العلية ؟

هناك — كما هو مألوف — معان وآراء مختلفة ، فلفظ « الفسر » (بفتح الفاء وسكون السين) فى اللغة البيان ، والتفسير مثله . والفسر : كشف المغطى ، وكل شىء يصرف به تفسير الشىء ومعناه فهو تفسرته ، واستفسرته كذا : سألته أن يفسره لى ، وتفسير القرآن الكريم هو بيان كلام الله عز وجل ، بذكر مفهومات الكلمات والعبارات الموجودة فى القرآن . ولكلمة « التفسير » فى اصطلاح العلماء معنيان : أولهما ما تقدم، والثانى قسم من أقسام علم « البديع » الراجع إلى المحسنات المعنوية،

---

(١) عن المقالات النقدية التى تبحث فى « المنهج التكوينى » فى تخييل الأشياء فى صورة تاريخية ، بقلم سدنى هووك وغيره ، انظر ما كتبه جـ . هـ . واندال « الطبيعة والتجربة التاريخية » Nature and History Experiment (كولومبيا ، نيويورك ، ١٩٥٨) ص ٦٤ ع ع . وانظر أيضا كتاب « نظريات التاريخ » Theories of History لباتريك جاردنر — فى — توماس مونرو : ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد وآخرين ، التطور فى الفنون جـ ٣ ، ص ١٨٨ ، وما بعدها .

(٢) توماس مونرو : المرجع السابق ، ص ١٩٠

وهو أن يأتى المتكلم بمعنى لا يستقل الفهم بإدراك فحواه ما لم يفسره كلام آخر بعده ، كما فى قول الشاعر :

آراؤهم ووجوههم وسيوفهم ... فى الحادثـــات إذا نجون نجوم
منها معالم للهدى ، ومصابح ... تجلو الدجى والأخريات نجوم

وقال بعضهم : التفسير فى الاصطلاح هو علم نزول الآيات وشئونها وأقاصيصها والأسباب النازلة فيها ، ثم ترتيب مكيّها ومدنيّها ، ومحكمها ومتشابهها ، وناسخها ومنسوخها ، وخاصها وعامها ، ومطلقها ومقيدها ، ومجملها ومفصلها ، وحلالها وحرامها ، ووعدها ووعيدها ، وأمرها ونهيها ، وعبرها وأمثالها .

ومن الواضح أن كلمة « تفسير » تدل بصفة خاصة فى الإسلام على تفاسير القرآن الكريم ، وعلى علم التفسير نفسه الذى يعرف باسم « علم القرآن والتفسير »[1]

ويرتبط بكلمة التفسير كلمة « التأويل » . و التأويل لفظ مأخوذ من « الأَوْل » (بفتح الهمزة وسكون الواو) وهو الرجوع ، فكأن المفسر صرف الآية وعاد بها إلى ما تحمله من المعانى . وقيل : إنه مأخوذ من « الإيالة » وهى السياسة ، فكأن المؤول للكلام ساس الكلام ووضع المعنى فيه موضعه . ولما استعملت كلمة « التأويل » مع كلمة « التفسير » اختلف العلماء فى العلاقة بينهما ، أهما متحدتان أم مختلفتان ؟ فقالت طائفة : هما بمعنى واحد . وقال الراغب الأصفهانى : التفسير أعم من التأويل ، وأكثر استعماله فى الألفاظ ومفرداتها ، وأكثر استعمال التأويل فى المعانى والجمل .

وقال غيره : التفسير بيان لفظ لا يحتمل إلا وجهًا واحدًا ، والتأويل توجيه لفظ متوجه إلى معان مختلفة إلى واحد منها بما ظهر من الأدلة . وذكر ابن منظور فى « اللسان » أن التفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل ، والتأويل رد أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهرة . وقال الماتريدى : التفسير القطع على أن المراد من اللفظ هذا ، والشهادة على الله تعالى أنه عنى باللفظ هذا . والتأويل ترجيح أحد المحتملات بدون القطع والشهادة . وقال أبو طالب التغلبى : التفسير بيان وضع اللفظ إما حقيقة أو مجازًا ، والتأويل تفسير باطن اللفظ .. فالتأويل إخبار عن حقيقة المراد ، والتفسير إخبار عن دليل المراد ، مثال قوله سبحانه وتعالى ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ « تفسيره » : إنه من الرصد .. وتأويله : التحذير من التهاون بأمر الله .

(١) أحمد الشرباصى : قصة التفسير . (القاهرة : وزارة الثقافة والإرشاد القومى ١٩٦٢) ، ص ٧

وقيل إن التفسير يتعلق بالرواية ، وأما التأويل فيتعلق بالدراية . ولذلك قال أبو نصر القشيرى : التفسير مقصور على السماع والاتباع ، والاستنباط فيما يتعلق بالتأويل .
وقال قوم : ما وقع بيننا فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ يسمى تفسيرا ، وليس لأحدٍ أن يتعرض إليه باجتهاد ، بل يحمل على المعنى الذى ورد فلا يتعداه . والتأويل ما استنبطه العلماء العالمون بمعنى الخطاب الماهرون فى آلات العلوم .

وفى اللغات الأوربية نجد أن لفظ « يفسر » بمعناه العادى « يعنى أن » يبسط المرء أو يوضح شيئا لنفسه ، أو أن يفهم سبب شيء أو أصله كما ورد فى المعاجم الأوربية . فكل طريقة تساعد على الاتجاه نحو الفهم يمكن وصفها بأنها تفسير فى حدود هذا المعنى الشائع . وفى بعض الأحيان يكون التركيز على السبب أو الأصل ، ويكون فى أحيان أخرى على تأويل مصطلح أو فكرة ، وفى أحيان أخرى على بيان للدافع أو الهدف وهكذا . ثم إن « القاموس الفلسفى » Philosophical Dictionary 1942 يعرف التفسير « بمعناه العام » بأنه « عملية أو فن أو وسيلة أو منهج لجعل حقيقة ما ، أو رواية ما ، واضحة جليه . وأنه النتيجة أو التعبير لما جعل واضحا » . وربما كان هذا المعنى المنسوب إلى شيء أو كان وصفه تكوينيا له .

على أن هناك أيضا مفهوما آخر للتفسير أشد صرامة وتشددا فى كل من المنطق والعلوم الرياضية والفيزيائية . ويورده معجم وبستر الأمريكى على النحو التالى : « إيضاح (ظاهرة) بوصف كونها قابلة للتحديد عن طريق ظروف وحوافز معروفة ، أو الاستدلال عليها من مقدمات مقبولة » . والتفسير بمعناه التقنى كما ورد فى القاموس الفلسفى هو « طريقة إظهار بصورة استطرادية منطقية أن ظاهرة أو مجموعة من الظواهر تتمثل لقانون بوساطة علاقات علية أو قرائن وصفية » . وهناك ثلاثة أنواع من التفسير العلمى حسبما يرى هذا المرجع : (١) تكوينى (على أساس الظروف المباشرة التى تنتج إحدى الظواهر) ، (٢) ووصفى (العناصر المادية للظاهرة) ، (٣) وغائى (الغاية المقصودة أو التى يراد بلوغها) . والتفسير لا يحتاج إلى تأكيد السبب ، وذلك لأنه يمكن أن يكون « البحث عن التعميمات التى ترتبط متغايراتها ارتباطا وظيفيا ، بحيث يصبح فى الإمكان حسبان قيمة أى متغاير مفرد وفصلها عن قيمة المتغايرات الأخرى ، سواء أكانت العلاقات العلية جديرة بالملاحظة ، أم متضمنة على نحو جوهرى ، أم لم تكن هذا ولا ذاك »

« والتفسير » الإعلامى للدعوة الإسلامية ، يرتبط بطريق العقل فى المنهج الإسلامى ، والذى يقصد به : استخدام منهج الاستدلال الذى يتيح للباحث أن يستخرج من النص القائم محتواه ، وذلك حين يكون ذلك المحتوى مضمرا فى الألفاظ وتركيبها ، بحيث يحتاج ظهوره إلى تحليل ، والتحليل عملية عقلية[(١)] ، كما يقصد به قراءة الشواهد الحسية قراءة تؤدى إلى فهمها وتعليلها ، على نحو يكون من شأنه حل المشكلة الطارئة »[(٢)] . ويقصد به كذلك « النظر إلى القيم — والقيم الأخلاقية بصفة خاصة — نظرة موضوعية مطلقة ، بمعنى لا يجعلها أمورًا ذاتية تتغير مع الأهواء ، كما لا يجعلها مرهونة بظروف الزمان والمكان . وما دام أمرها كذلك فإنه يصبح فى وسع الفقيه الموهوب ، أن يحكم على ما يعرض له من مواقف طارئة جديدة غير منصوص عليها نصا مباشرا صريحا ، حكما يميز فيه بين ما هو حق وما هو باطل »[(٣)] .

والإسلام فى تجدده وتجديده وانطلاقه وامتداده ، ليس إلا تفسيرًا حقيقيًا للطبيعة المتجددة والطبيعة الممتدة فى الحياة . فالله جل شأنه قد مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ، كما قال فى محكم آياته . والله لم يجعل الليل سرمدًا ، ولم يجعل النهار سرمدًا ، ولكن جعلهما موصولين امتدادا وانطلاقا إلى أبد الآبدين . ولو وقف الكون عند نهار دائم وحسب ، أو ليل دائم وحسب ، لكان ذلك جمودا لا تصح به الحياة ، ولا يصح عليه الأحياء .

والإسلام من طبيعته التجديد وليس من طبيعته الجمود ، وآية ذلك دعوته الدائمة إلى العلم وحثه عليه . وقد أعلى الإسلام من شأن العلم ، ولم يساو بين عالم وغير عالم ، لأنه يريد للناس والإنسانية أن يتجددوا مع الحياة ولا يقفوا بها عند حد معين .

ولعل إيراد بعض آيات من مادة (العلم) فى القرآن يساند هذه القضية ، فالقرآن يقول : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ ويقول : ﴿ بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ﴾ ويقول : ﴿ شهد الله أنه لا إلـه إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط ﴾ .

ويقول : ﴿ وزاده بسطة فى العلم ﴾ ويقول : ﴿ هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ . فالعلم متغير ، متجدد ، قابل للتطور والارتقاء ، وليس

---

(١) ، (٢) ، (٣) د . زكى نجيب محمود : « طريق العقل فى التراث الإسلامى » ، فى الهلال عدد يناير ١٩٨٠ ، ص ١٢

كذلك العبادات . ومن هنا كانت دعوة الإسلام إلى العلم لأنها دعوة إلى التجديد فى الحياة .

وليس المقصود بالعلم هنا هو علم الدين كما فهمه بعض الجامدين من الدارسين، وجاراهم فيه خبثاء المستشرقين والباحثين فى الإسلام من أمثال (سيكار) الفرنسى الذى ملأ مجلة (مراكش الكاثوليكية) فى الثلاثينات من هذا القرن بادعاءات وطعون فى الإسلام ، زعم فيها أن الإسلام لم يدع إلى العلم بمفهومه العام ، ولكنه دعا إلى علم الدين ، وذلك ليجرد الإسلام من فضيلة الدعوة إلى العلم مطلقا والحث عليه .. ونسى المسكين الحديث النبوى : (اطلبوا العلم ولو فى الصين) . فلو كان العلم هنا دينيا ما دعا النبى إلى طلبه فى الصين ، لأن أهلها من عباد الأوثان .. وهذا الحديث مما رواه العقيلى وابن عدى ، والبيهقى وابن عبد البر عن أنس .

والإسلام — فى دعوته إلى التجديد والانطلاق فى آفاق الكون ، والنظر فى ملكوت السموات والأرض ، وعدم الجمود عند حد معين — لم يجر على سنن غريب عليه ، وليس منه ... فهو فى ذاته مجدد مصلح منذ أن دعا النبى إلى سبيل ربه .. وهو أبو التجديد ورائده .. وخاصة فى كثير من شئون التشريع ، فقد أتى على نظم الجاهلية وأدخل عليها من التجديد والإصلاح ما جعله حريا بأن يوصف بالتجديد لا بالجمود ..

لقد قلل من تعدد الزوجات وكان مطلقا بلا قيود ، وجعل نظام الميراث يتسع ليقبل المرأة والصغار من أبناء الميت . فقد روى عن ابن عباس أنه قال : « لما نزلت الفرائض التى فرض الله فيها للولد الذكر والأنثى والأبوين كرهها الناس وقالوا : تعطى المرأة الربع والثمن ، وتعطى الابنة النصف ، ويعطى الغلام الصغير ، وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم ولا يحوز الغنيمة » . وهذا يدل على أنهم كانوا فى الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغار من أبناء الميت ، وإنما يورثون من يلاقى العدو ويقاتل فى الحروب ..

وإذا كان الإسلام قرينا للتجديد وداعيا له ، فما بال المسلمين قد تأخروا — وخاصة فى القرون الأخيرة إلى اليوم ؟ الحق أن هذا التأخر ليس من الإسلام ، ولكنه من المسلمين حين جمدوا وركنوا إلى التوقف، بل مالوا إلى معاداة العلم ومحاربة الإصلاح وسدوا على أنفسهم باب الاجتهاد . وإلا فكيف نعلل ازدهار الإسلام وقوة المسلمين وتقدمهم فى القرون الأولى للإسلام ، وتأخرهم وهوانهم على الناس وعلى أنفسهم فى العصور الأخيرة ، مع أن الدين واحد . والعبادات واحدة ؟ الحق أن طرائق

المسلمين الآن غير طرائق المسلمين السابقين ، فليس غريبا أن تتفرق بهم السبل عن سبيل الله ..

إن الإسلام الصحيح تجديد ، وهو يحض على التجديد ويدعو إليه . وإنه لمن الضرورى أن يكون المجدد فى الإسلام فقيها أو من الممارسين لعلوم الفقه والتشريع .. فقد يكون من القراء أو المحدثين ، أو الزهاد ، أو المتكلمين . وقد يكون من أصحاب العلم الطبيعى والرياضى والفلسفى ، وقد يكون من ولاة الأمور وأصحاب السلطان .

وإذا صحّ حديث : (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها) — ونترك تصحيحه لرجال الحديث — أو ادعى كل قوم فى إمامهم أنه المراد بهذا الحديث ، كما يقول الحافظ ابن كثير .. وإذا كانت (من) — بفتح الميم — تقع على المفرد والجمع ، فهل هناك ما يمنع أن يكون على رأس كل مئة من السنين رجل مجدد واحد أو أكثر على ما تقتضيه اللغة ؟

لقد نظم الإمام السيوطى المؤرخ أرجوزة سماها : « تحفة المهتدين ، بأخبار المجددين » ذكر فيها أسماء مجددى الأمة الإسلامية من القرن الأول الهجرى إلى القرن الثامن ، ولم يذكر مجددًا فى القرن التاسع لأنه رجا أن يكون هو المجدد المرجو المنتظر حيث قال :

وهـــــذه تاسعـــــة المئين قد … أتت، ولا يخلــف ما الهادى وعـــد
وقــد رجــوت أننـــى المجدد … فيها ، ففضل الله ليس يجحــد

وإذا كان صاحب كتاب « عون المعبود ، فى شرح سنن أبى داود » لم يجعل لعلماء الشيعة حق الانتظام فى سلك « المجددين » ، لأنهم — فى نظره — لا يستحقون هذه الرتبة وإن وصلوا إلى الاجتهاد ، وبلغوا أقصى العلوم ، واشتهروا غاية الاشتهار) فإننا نطمع أن يتسع صدر السماحة فى الإسلام لظهور إمام مجدد ، مصلح ، واسع الأفق ، مسموع الكلمة ، مقدور الرأى ، يؤكـد دعـوة الإسلام للتجديـد ، والإصلاح والاجتهاد ، والفكر والتفكير ، والعلم والتعليم ، وهى وسائلنا الفعالة إلى تجديد شباب الإسلام ، وإقصائه عن الغربة التى يعانيها فى عالم مختلط غريـب ...

والتجديد فى الإسلام لا يكون بداهة فى أمور العبادات ، لأن أمور العبادات لا تقبل التغيير فلا يجوز التجديد فيها . وهل يصح فى الأذان أن نجدد فى الأصول التى بنى عليها الإسلام ؟ وكيف يكون التجديد فى الشهادتين والصلاة والزكاة وصوم رمضان والحج ؟

لو أن الإسلام دين عبادة فقط ، لوقفنا عند العبادات الواردة وجمدنا عليها ، وبهذا ينتفى « التجديد » الذى نريده ويريده لنا الإسلام . ولكن الإسلام دين جاء لصلاح الدنيا والآخرة ، وملة جاءت لخيرى الدنيا والآخرة ، وعقيدة جاءت لمصلحة أصحابها — بل لمصلحة الناس جميعا — فى الدنيا والآخرة ، فكيف نقف عند العبادات ومصالح الناس وصلاحهم ممتد إلى يوم يبعثون ؟

لو أن الإسلام جاء لصلاح الآخرة فقط ، لانتهى بنا الأمر إلى أن نكون « دراويش » فى هذه الحياة الدنيا التى جعل الله الإنسان خليفته فيها . وما معنى الخلافة هنا ؟ أليس معناها أن الله استخلف الناس على صلاح الأرض وعمارتها والنهوض بأهلها فى كل مجالات النهوض التى لا تتعارض مع أصول الأديان ؟ ومن هنا كانت ملازمة التجدد للإسلام ، لأنهما مرتبطان على امتداد الزمان حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

لقد دعا الإسلام إلى التجديد والانطلاق فى آفاق الكون ، والنظر فى ملكوت السموات والأرض .. والإسلام فى ذاته مجدد مصلح منذ أن دعا النبى إلى سبيل ربه .. وهو أبو التجديد ورائده ، فقد أتى على ظلم الجاهلية ، وأدخل عليها من التجديد والإصلاح ما جعله حريًّا بأن يوصف بالتجديد لا بالجمود .. !

وتأسيسا على هذا الفهم يمكن القول أن « التفسير الإعلامى للدعوة الإسلامية » مرتبط بجوهر التجديد فى الإسلام ، كما أنه كمنهج يرتبط بطريق العقل الإسلامى . وإذا صحَّ هذا القول بالقياس إلى المنهج « التفسيرى » فإنه يصح كذلك على نحو أخص بالقياس إلى « التفسير الإعلامى » ، لأن الدين الإسلامى ، دينٌ إعلامى بطبيعته « فمن المقررات الشرعية فى الدلالات القرآنية أن كل مسلم مكلف بالإعلام عن دينه[1] ، ومسئول عن تبليغ رسالته . ورسولنا الكريم « محمد ﷺ » هو الإعلامى الأمثل الذى اصطفاه الله تعالى ليكون شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، وكذلك كانت مهمة الرسل جميعا الذين أرسلوا إلى الناس لهدايتهم إلى الإيمان بالله وحده ، وإفراده بالعبادة دون غيره . قال تعالى :

﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾

وهكذا كانت رسالة نوح إلى قومه ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلـٰه غيره ﴾ وعن صالح قال الله تعالى ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم

(١) د . إبراهيم إمام : الإعلام الإسلامى ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو ١٩٨٠ ؛ ص ٥

اعبدوا الله ما لكم من إلـه غيره ﴾ وإلى مَدْيَن أرسل الله شعيبا ليعبدوا الله الواحد القهار »[1]

ووفقا لما ورد بقاموس ويبستر عن تعريف الاتصال ، نجد أنه يمثل « عملية يتم فيها تبادل المفاهيم بين الأفراد ، وذلك باستخدام نظام الرموز المعروفة » . فالاتصال يتضمن تفاعلات متبادلة ، أولها يتمثل فى إرسال واستقبال الرسائل ، وثانيها فى تحرير وفهم تلك الرسائل ، والثالث فى المشاركة والتناغم مع أفكارها . وهذه التفاعلات يمكن تشبيهها بالمراحل المتداخلة التى تتضمنها الهندسة وعلما النفس والاجتماع ، فمن الناحية الهندسية تجد الوسائل يقصد بها إرسال واستقبال الإشارات وهكذا ، على نحو ما يفصله أرفنج لوج وغيره من العلماء .

وإذا حللنا عملية الإعلام فى الاتصال بالجماهير ، وجدنا أنها تشتمل على خمسة عناصر رئيسية هى : **المرسل** الذى يصوغ فكرته فى رموز معينة ، ويبعث بها إلى **المستقبل** الذى يفك هذه الرموز ويفسر معناها ، ثم يستجيب لها معبرا عن ردّه أو انطباعه برسالة جديدة يصوغها فى **رموز** ، ويبعث بها إلى المرسل الأول الذى يستقبلها ويحل رموزها ويستجيب لها . وهكذا يدور الاتصال وتشكل أهم خصائص المجتمع المتفاعل .

والواقع أن عملية الإعلام تجرى فى سلسلة ذات حلقات متماسكة ، ويؤدى ضعف أى حلقة فيها إلى ضعف السلسلة كلّها . فالمرسل والمستقبل والرسالة ووسيلة الإعلام حلقات متصلة متكاملة فى عملية الإعلام .

فالمصدر أو المرسل أو المحرر ، ينبغى — كما يقول ابن وهب[2] — أن يكونوا ، « أصح ديانة وأكمل أمانة ، وأظهر صيانة ، لأنهم مأمونون على الدماء ، والأموال » . وهو يقول هذا الكلام فى صدد حديثه عن « صاحب الخبر » فى الحضارة الإسلامية ، حيث يمثله بأنه « عين الوزير — أو المجتمع — التى ينظر بها فى رعيته ، ورائده فى مصالح من تحت يده . فليس ينبغى أن يتقدمه أحد فى الصدق والثقة والأمانة غير القضاة ومن جرى مجراهم ، « ومتى نصب الوزير لرفع الأخبار من يخالف هذه الصفة ، فقد غش نفسه ، وأضاع الحزم فى سياسته ، وخان الأمانة فى رعيته .. وعلى الوزير أن يوسع

---

(١) د . إبراهيم إمام : الإعلام الإسلامى ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو ١٩٨٠ ، ص ٥

(٢) ابن وهب (تحقيق الدكتور أحمد مطلوب) : البرهان فى وجوه البيان — بغداد ص ٤١٧ ، ٤٢٠

على صاحب الخبر فى رزقه ويشترى بذلك دينه وأمانته ، ويعلمه أنه إنما فعل ذلك به من بين نظرائه لئلا تشره نفسه إلى أموال الرعية ، ولا يحتاج إلى استكالها والتكسب منها » .

وقد عنى الباحثون المحدثون بدراسة هذا العنصر فى عملية الإعلام ، ويرجع الفضل إلى عالم النفس النمساوى الأصل الأمريكى الجنسية « كرت لوين » فى تطوير ما أصبح يعرف بنظرية ، **الحاجب الإعلامى**، حيث تصل المادة الإعلامية إلى الجمهور فى رحلتها الطويلة عبر نقاط أو « بوابات » يتم فيها اتخاذ قرارات بشأن ما يدخل وما يخرج . وكلما طالت مراحل رحلة الإخبار حتى تظهر فى إحدى وسائل الإعلام ، ازدادت المواقع التى يصبح فيها من سلطة فرد أو عدة أفراد تقرير ما إذا كانت الرسالة ستنقل بنفس الشكل أو بعد إدخال بعض التعديلات عليها . لذلك نؤثر تعريب هذا المصطلح « بالحاجب الإعلامى » وليس « بحارس البوابة » كما يحب بعض الفضلاء ، لأن الدلالة العربية لكلمة « الحاجب » تقربنا من المفهوم الحديث ، فالحاجب — كما يقول ابن وهب — « هو المؤتمن على الأعراض » ، وأداء الأمانة فى الأعراض أوجب منها فى الأموال ، لأن الأموال وقاية للأعراض ، « فكذلك ينبغى لوسائل الإعلام أن تجعل « حجابها » ممن « صحت عقولهم وغريزتهم ، وحسن خلقهم ، ولانت كلمتهم » وهؤلاء « الحجاب » هم الإعلاميون العاملون فى الوسائل المختلفة ، ذلك أن الرسالة تمر بمراحل كثيرة وهى تنتقل من المصدر إلى المستقبل ، ومن أجل ذلك عنيت الدراسات الحديثة بتناول تأثير الظروف المحيطة برجال الإعلام ، وتأثير النواحى المهنية عليهم ، والجوانب الفنية والمادية لعملهم .

والمرسل فى نموذج الإعلام الإسلامى يجب أن يختار بعناية — كما يقول ابن وهب[1] — حتى « يكون أفضل فى عقله وضبطه ، وأدبه ، وعارضته ودينه ومروءته . فقد كان يقال « ثلاثة تدل على أهلها : الهدية على المهدى ، والرسول على المرسل ، والكتاب على الكاتب » . وكان يقال : « رسول الرجل مكان رأيه ، وكتابه مكان عقله » . وكذلك جعل الله عز وجل — رسله أفضل خلقه ، وأخبر أنه اصطفاهم على العالمين ، فقال فى سورة الأنعام (الآية ١٢٤) : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ .

وعلى المرسل أو الرسول فى عملية الإعلام أن « يؤدى ما حمل — كما قال الله عز وجل — : ﴿ فإنما عليه ما حمل ﴾ سورة النور (٥٤) وكما قال : ﴿ فهل على الرسل

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٢٢٠

إلا البلاغ المبين ﴾ سورة النحل (٣٥) . وإنما وجب عليه البلاغ ، لأن الرسالة أمانة فعليه تأديتها ، لأن الله عز وجل يقول ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ سورة النساء (٥٨) . وليس للرسول أن يزيد فى الرسالة ولا أن ينقص منها لأن ذلك خيانة للأمانة ، إلا أن يكون المصدر فوض إليه أن يتكلم عنه بما يرى ، فقد قال الشاعر :

وإن كنت فى حاجـــة مرسلا   فأرسل حكيمـــــا ولا توصه

ويذهب ابن وهب إلى أن المرسل ــ المصدر « عليه أن يتخير من الرسل من لا يكون فيه من العيوب التى يذكرها وهى : الحدة والحسد والغفلة والعجلة » ، فإن صاحبها يضع الأشياء فى غير مواضعها ويسبق بها أوقات فرصتها ، وقد قيل : « رب عجلة تهب ريثا » .

وفى كتابنا الكريم آيات ينبغى أن يتمثلها المرسل فى الإعلام الحديث لما ترسمه من مثل عليا . قال تعالى ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ : سورة النحل (آية ١٢٥) . فالإعلام يقوم فى الأصل على الإقناع ، والنظرية الإسلامية فى الإعلام تنهى عن الإكراه . قال تعالى ﴿ وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب ۝ فلذلك فادْع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير ﴾ سورة الشورى (آية ١٤ ــ ١٥) .

﴿ وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ سورة آل عمران (آية ٢٠) .

﴿ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ۝ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ سورة آل عمران (آية ١٠٣ ــ ١٠٤) .

﴿ فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ ﴾ سورة الشورى (آية ٤٨) .

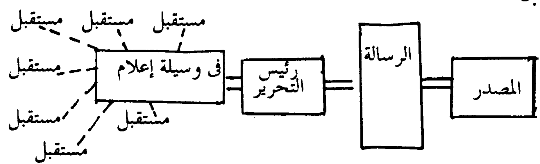
﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ﴾ سورة سبأ (آية ٢٨) .

كما نص القرآن الكريم فى آيات كثيرة على الأخلاق التى يجب أن يتميز بها رجل الإعلام بوجه عام ، والتى يتميز بها الرسول الكريم ﷺ بوجه خاص . ومن هذه

الأخلاق : الصبر وحسن المعاملة والجدل بالتى هى أحسن والإعراض عن الجاهلين والمنافقين والبعد عن الغلظة . قال تعالى :

﴿ فبما رحمة من الله لِنْت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ .

فإن تمتع المرسل فى عملية الإعلام بهذه الأخلاق الحميدة ، وكان إلى جانب ذلك متمتعا بمهارات اتصالية إعلامية ، بلغ لوسائل الإعلام مرادها فى الاتصال . حيث تنتقل الرسالة الإعلامية من المصدر إلى الجماهير خلال المرسل ، ووسيلة الاتصال التى يهيمن عليها المسئول كرئيس التحرير مثلا ، لكى يتلقاها بعض الناس مباشرة ، أو يتلقاها بعض القادة وحاملو المعلومات لنقلها إلى أصدقائهم أو أتباعهم على النحو التالى :



وتأسيسا على هذا الفهم فإن الإعلام الإسلامى يتضمن فى مفهومه هذه المفاهيم ، ويتوسل بوسائل الاتصال بالجماهير فى أداء مضمون إسلامى ، أو فى معالجة قضايا الحياة من منظور إسلامى ، ذلك أن الإسلام كما أنزله الله تعالى يستهدف « تصحيح مسارات المجتمعات البشرية ، وتقنين قيمها وأخلاقها ، وتشريع قوانينها ودساتيرها ، ولهذا فقد وضع الله أسس هذا الدين ومعالمه ومفاهيمه من خلال محك رئيسى .. هو مدى قدرة هذا الدين على التطبيق فى النظم الاجتماعية ، والسياسية ، والقانونية ، والاقتصادية »(١) .

وإذا كان الإعلام فى مفهومه الحديث يعنى « تزويد الجماهير بالمعلومات الدقيقة والأخبار الصحيحة والحقائق الثابتة والسليمة التى تساعدهم على تكوين رأى صائب فى واقعة من الوقائع أو مشكلة من المشكلات ، بحيث يعبر هذا الرأى تعبيرا موضوعيا عن عقلية الجماهير واتجاهاتهم وميولهم »(٢) فإن الإعلام الإسلامى هو الذى ينبع من

(١) د . مصطفى كمال وصفى : مصنفة النظم الإسلامية ، القاهرة ، مكتبة وهبة ، ١٩٧٨ ، ص ٥

(٢) د . إبراهيم إمام : الإعلام والاتصال بالجماهير ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو ١٩٦٩

رسالة السماء إلى محمد بن عبد الله ﷺ ، ومن الشريعة التى نزل بها كتاب كريم ، هو القرآن دستورها وناموسها الأكبر ، من الدين الذى نزل هدى ورحمة للعالمين ، وأحدث تطبيقه لأول مرة فى مكة ثم المدينة ثم جزيرة العرب نفسها على يدى الرسول الأطهر نهضة لم تشهدها الإنسانية من قبل ولا من بعد ، وإصلاحا لم يكن يحلم به بشر ، ولازلنا حتى اليوم لا نستطيع أن نصل إلى مداه الكبير ، ثم استمر فى مده العظيم فطبقه الخلفاء الراشدون فى البلاد التى دخلت فى ظلال الإسلام ، وانضوى تحت لوائه الملايين فى الشمال والجنوب والشرق والغرب فرحين مهللين مكبرين ، مستبشرين بعهد من الحرية والإخاء والتعاون والمساواة والعدالة والرفاهية لبنى البشر جميعا ، وعاملين على تأصيل حضارة ومدنية جديدة لم تشهدها البشرية من قبل .

فالإعلام الإسلامى ينبع من الدين الذى جارى التطور فى كل مكان وزمان ، وجابه الطغيان وانتصر عليه فى كل بيئة وعصر ، ولم تقف أمامه مشكلة من المشكلات ، ولم يزعم منصف فى أى جيل أن منطق الإسلام لا يجارى العقل والحياة ، ولم يستطع أصحاب الدعوات الجديدة أن يزعموا أن دعواتهم على ما هيئ لها أحيانا من دعاية وقوة ومساندة النفوذ أو الجاه أو المال قد نالت بعض ما ناله الإسلام فى سنوات معدودات ، من ثقة الجماهير وإيمانها به ، وإقبالها على اعتناقه والدخول فيه .

دين لازالت أصوله ودعواته حلم البشرية بعد ما وصلت إليه من تطور وتقدم وحضارة ، ولا زالت أصوله الفكرية والروحية تحمل إلى العالم الأمن والسلام والرخاء ، وهو بعد جديد فى كل وقت ، عظيم فى كل حين ، جليل فى كل عين ، رفيع فى كل عقل .

دين وضع أصولا خالدة لإصلاح جميع مجالات الحياة ونواحى النشاط الإنسانى ، وسبق « الديكارتيين » ، إلى تقديم الشك أمام كل بحث وترك التقليد ، وإلى الإيمان بما يؤدى إليه الدليل ، كما سبق « بيكون » إلى المذهب العلمى سبق فلاسفة الاجتماع إلى وضع أصوله ، ولم يجعل للمعرفة الإنسانية حدا ، من حيث وضع بعض المفكرين الغربيين حدا يمكن أن يصل إليه الإنسان من معارف ، وأقام مبادئه على سمو الغاية الأدبية فحسب دون النظر إلى التعديلات الاقتصادية والمادية للأشياء ، ووحد بين الأجناس والعناصر والألوان ، ودعا إلى أخوة بشرية عامة لا فضل فيها لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح ، وجمع الكثير من الأمم والشعوب تحت ظلاله ، مما عجز عن تحقيقه كل القواد والدول .. هذا مع العدالة فى الحكم ، ومع الإيمان بالحرية والشورى

والإخاء والمساواة وتطبيقها ، ومع العمل على نشر الأمن والرفاهية والوئام والسلام بين بنى البشر جميعا .

لم يقف الإعلام الإسلامى وأصوله ومبادئه الكريمة حائرا أمام أية مشكلة من مشكلات الحياة فى كل عصر وكل بيئة ، بل وجد الحلول العادلة لكل ما جد وما يجد على سطح الأرض من جديد .

كانت رسالته دائما التبشير بقيم إنسانية رفيعة . لم يقل أبدا وفى أحرج الأزمات والمحن « إن الغاية تبرر الوسيلة » ، ولم يزعم الإسلام أنه وصى على البشر وأنه مستعمر فى الأرض ، بل دعا دائما إلى الإيمان بأصوله كحل أساسى لجميع مشكلات المضطهدين والمستعبدين والذين وقف بهم التأخر عن متابعة سير الحياة . نادى بالحرية لكل الناس ولكل الشعوب . دعا إلى أن تتولى كل أمة أمور نفسها فى ظلال مبادئه ودعواته وأصوله . فلوم كل من وقف فى سبيل دعوته لأن من يفعل ذلك فهو يقف فى وجه الحياة نفسها ليؤخر سير الزمن .

حل جميع العصبيات وأبطلها ، وكل المشكلات وأزالها ، وجميع العقد النفسية والروحية عند جميع الناس ووضع مكانها حب الخير والتعاون والرحمة وحب الوئام والسلام والبر والشفقة .. وهذب العواطف والمشاعر الإنسانية وطهرها وسما بها ، وجمل الحياة أمام الناس وجعلها تعاونا ومشاركة وتبادلا للمنافع والخيرات . قابل الإسلام آلاف الدعوات والمبادئ والأفكار الجديدة ، ومع ذلك لم تستطع إحداها أن تجاريه فى حيويته وبساطته ومثاليته وعظمة مبادئه وأصوله ، وواجه آلاف الطغاة ومع ذلك لم يستطع واحد منهم أن يقف سيره المحتوم ، أو يعطل رسالته المنيرة ، أو ينتصر على مبادئ الإسلام الجليلة العظيمة .

وحملت شعوب الإسلام دائما إلى العالم وإلى الحياة فى كل العصور والأجيال ، وبفضل دينهم العظيم رسالة التقدم والحضارة ، رسالة الحرية والعدالة ، ورسالة المحبة والسلام والإخاء والشورى بين الناس جميعا . ودخل الناس فى دين الله أفواجا فى كل عصر وجيل وفى كل زمان ومكان .

وتتلخص أصول الإعلام الإسلامى فى العقيدة الإسلامية ، وفى المبادئ الأساسية للمجتمع الإسلامى ، وفى نظام العبادة للمسلم ، وفى الأسس التى يبنى عليها كيان الأمة الإسلامية ، وفى أفكار الإسلام الأساسية فى خدمة الحياة نفسها .

أما من حيث العقيدة فهى عقيدة إنسانية تؤمن بالله وبرسالة محمد ، وبرسل الله جميعا لا تفرق بين أحد منهم .

ومن حيث نظام العبادة للفرد المسلم ، فهو يتخلص فى الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج .. إلى وجوب اعتناقه للفضائل الإنسانية الأخرى من صدق ووفاء ورحمة وشفقة وإيثار وبر وأمانة إلخ ..

ومن حيث مبادئ المجتمع الأساسية فى الإسلام ، فهى تقوم على الشعور بالمسئولية ، والتعاون التام ، والعدالة الكاملة والتزامها ، والمساواة بين جميع أفراد المجتمع فى الحقوق والواجبات ، ونشر الرخاء بين جميع الناس ، ومساعدة الدولة لكل محتاج بقدر ما يسد حاجته دون ما تأخير ، والسهر على خدمة المجتمع وخدمة الأمن بكل وسيلة ، ومحاربة كل ألوان الفساد الاجتماعى والرذائل الاجتماعية والخلقية والقضاء عليها ، وإلى غير ذلك من مبادئ ليس هنا مكان شرحها .

ومن حيث الأسس التى يبنى عليها كيان الأمة الإسلامية فتتلخص فى :

الشورى ، السلام بين طبقات الأمة ، العدالة الاجتماعية والتكافل الاجتماعى ، نشر التعليم وجعله حقا لكل فرد ، إلى آخره .

أما أفكار الإسلام فى خدمة الحياة فهى ترجع إلى مبادئه فى تحرير الأرقاء والمستعبدين والمستضعفين ، وفى نشر السلام ، وفى تبادل التجارة بين أمم الأرض ، وفى نشر الثقافة والحضارة ، ومساعدة الأمم المتخلفة ، وفى الانتصار لكل ضعيف ومظلوم ، وفى العمل على تقدم الحياة وإثرائها بكل جديد نافع ومبتكر صالح .

ولهذا فقد جعل الله أمة محمد أمة مثلى ، تقوم بالإعلام عن دين الله الحق وبيانه للناس ، كما جعلها شهداء عليهم ، وجعل الرسول شاهدا عليهم ، وشهادتهم على الناس تقتضى الإعلام بالحق ، والرسول شاهد عليهم فى أنهم بينوا شريعته ، ووضحوا رسالته وبلغوا دعوته ، وقد صرح الله سبحانه وتعالى بهذه الشهادة القائمة المستمرة ﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾ ، ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ .

والدين الإسلامى دين إعلامى بطبيعته[1] لأنه يقوم على الإفصاح والبيان ، بعكس

(١) د . إبراهيم إمام : الإعلام الإسلامى ، القاهرة ، الأنجلو ١٩٨٠ ، ص ٩

بعض الأديان الأخرى كاليهودية مثلا التى لا تختص برسالة وتتذرع بالكتمان والسرية ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ۝ إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم ﴾ .

ولا شك أن الذين لا يدعون بدعاية الله لا يقومون بالإعلام عن هديه ورسالته ، يكتمون الحق الذى أنزله الله سبحانه وتعالى . وينبغى أن يتم الإعلام الإسلامى مهما كلف المرء ذلك من عنت أو هجرة من ظلم الشرك . ﴿ ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما ﴾ .

وقد جاء الأمر بالإعلام عن الدين وتبليغه للبشرية ، موجها إلى الرسول الكريم للدعوة فى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، فكان هذا أمرا للناس جميعا بعموم التكليف(١) والاقتداء بالرسول عليه الصلاة والسلام ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾ .

ولذلك يرتبط الإعلام الإسلامى بمفهوم الدعوة إلى الإسلام ، والتى تعنى بدورها المحاولة العملية أو القولية لإمالة الناس إليه . جاء فى معجم مقاييس اللغة : إن الدال والعين والحرف المعتل أصل واحد ، ومنه داعية اللبن وهو ما يترك فى الضرع ليطلب ما بعده ، ومنه تداعت الحيطان إذا سقط واحد وآخر بعده . فكأن الأول يدعو الثانى ، ودواعى الدهر صروفه لأنها تأتى متعاقبة ، وكأن الأول يدعو الثانى فيميله وهكذا(٢) . وجاء فى المصباح .. دعوت الله أدعو دعاء ، ابتهلت إليه بالسؤال ورغبت فيما عنده من الخير ، ودعوت زيدا ناديته وطلبت إقباله ، ودعا المؤذن الناس إلى الصلاة فهو داعى الله . والجمع دعاة وداعون ، والنبى داعى الخلق إلى التوحيد(٣) .

وجاء فى أساس البلاغة : ودعوت فلانا ناديته ، والنبى داعى الله ، وهم دعاة الحق ودعاة الباطل ودعاة الضلالة(٤) .

---

(١) د. إبراهيم إمام : الإعلام الإسلامى : القاهرة ، الأنجلو ، ١٩٨٠ ص ٩

(٢) معجم مقاييس اللغة جـ ٢ ص ٢٣٩ مادة (دعا) .

(٣) المصباح المنير . مادة (دعا)

(٤) أساس البلاغة : مادة (دعا)

ومن ذلك يتضح أن كلمة الدعوة هنا تفيد معنى الإعلام وتبليغ الناس ، ذلك أن الإعلام هو وسيلة الإنسان عن طريق الكلام والتفكير والقراءة والكتابة والسمع والبصر ، كل ذلك من أجل نقل آراء أو معلومات أو إرسال خبرات . وبدون عملية الإعلام أو الاتصال تنفصل العلاقات ، وتعيش الجماعات والمجتمعات كجزر منفصلة لا تتلاقى بالخبرة والفكرة ، فتنقطع الصلات وتنتهى الحضارات وتتوقف الثقافات[١] .

وقد أمر الله تعالى بتبليغ الدعوة فقال تعالى :

﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ سورة النحل (١٢٥) .

وهذا يشير ضمنا إلى أهمية هذا العلم لاشتماله على كافة وسائل الدعوة . حيث إنها جميعا تدور مع الحكمة والموعظة والمجادلة على النحو المذكور .

يقول العينى : الحكمة تدل على علم دقيق محكم ، وتعليمها كمال علمى ، والقضاء بها كمال عملى[٢] فإذا ما حدث أن عرّفت الحكمة بالإصابة أو بالعقل أو بالفهم أو بالفقه فهى كلها أوصاف متقاربة تشتمل الحكمة عليها ، وتحتويها بكمالها العلمى والعملى .

وتأسيسا على هذا الفهم يمكن تناول خصائص الإعلام فى ضوء المنهج الإسلامى ، ذلك أن الإعلام فى الإسلام يخاطب الكائن البشرى عقلا وجسما وروحا ، ماديا ومعنويا ، كما يعالج كل نشاطه على الأرض انطلاقا من المنهج الإسلامى الذى يأخذ الكائن البشرى كله ، بفطرته التى « خلقه الله عليها » لا يغفل شيئا من هذه الفطرة ، ولا يفرض عليها شيئا ليس فى تركيبها الأصيل .

« ويتناول هذه الفطرة فى دقة بالغة فيعالج كل وتر منها ، وكل نغمة تصدر عن هذا الوتر ، فيضبطها بضبطها الصحيح .

وفى الوقت ذاته يعالج الأوتار مجتمعة . لا يعالج كلا منها على حدة فتصبح النغمات نشازا لا تناسق فيها . ولا يعالج بعضها ويهمل البعض الآخر فتصبح النغمة ناقصة غير معبرة عن اللحن الجميل المتكامل ، الذى يصل فى جماله الأخاذ إلى درجة

---

(١) Smelser Neil., The Sociology of Economic life Printice-Hall, editor, Alex Inkeles; 1963. p. 85.

(٢) عمدة القارئ جـ ٢ ص ٢٤٩ — د . أحمد غلوش : الدعوة الإسلامية ، القاهرة ص ١٢ .

الإبداع .

فالإعلام الإسلامى فى توجهه إلى الكائن البشرى يتسم بالشمول الذى يتناول الجزئيات جميعا ، وفى وقت واحد ، كما يتسم بالدقة المعجزة التى لا تصدر إلا عن الخالق المدبر العظيم .

﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾ سورة الروم (٣٠) .

وعلى ذلك يمكن القول إن نظرية الإعلام الإسلامى تقوم على أساس من الفطرة الإنسانية ، ذلك — كما يقول الأستاذ محمد قطب[٢] — إن « الإسلام دين الفطرة .. فما من نظام يعالج الفطرة كما يعالجها الإسلام ، أو يستخلص من هذه الفطرة بعد تهذيبها وضبط إيقاعاتها ما يستخلصه الإسلام .

إنه لا يعطى كل جانب من الإنسان غذاءه فحسب ، بل يعطيه إياه كذلك بالقدر المضبوط الذى لا يجيعه ولا يتخمه ، ومن ثم ينطلق الإنسان وقد أخذ حظه من الغذاء الصالح ، بمقاديره الصالحة ، نشيطا منتجا متحركا على الدوام .

وما من نظام آخر يعالج النفس البشرية بهذه الدقة وذلك الشمول .

هناك نظم آمنت بجانب واحد من الكيان البشرى فراحت تعمل على تغذيته بما تراه صالحا له .

نظم آمنت بالجانب المحسوس من الإنسان والحياة .. كل ما تدركه الحواس فهو حقيقة ، وما لا تدركه فهو غير موجود أو ساقط من الحساب . ومن ثم راحت هذه النظم تهتم بكل محسوس على الأرض .. الزراعة والصناعة والبناء والتشييد والإنتاج المادى على أوسع نطاق . وتهتم بكل محسوس فى الكيان البشرى ، فحاولت أن تيسر له مأكله وملبسه ومسكنه ، ويسرت له قضاء الشهوات .

ثم أغفلت من كيانه جانب الروح .

أهملت كل ما لا تدركه الحواس ، أهملت الله والعقيدة ، وما يشع من العقيدة من مثل وأخلاق .

---

(١) محمد قطب : منهج التربية الإسلامية جـ ١ — القاهرة دار الشروق ، ط ٤ ١٩٨٠ ، ص ١٨

(٢) نفسه ، ص ١٩ وما بعدها .

وكانت النتيجة أن استمتع الناس بحياتهم الأرضية أعظم متاع ، واستفادوا بالتنظيمات من كل نوع .. التنظيمات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والمادية .. ثم .. انهار المتاع كله نتيجة خواء الروح من الإيمان وخواء الحياة من العقيدة . وانقلب المتاع السهل الحلو إلى تكالب على شهوات الأرض يقض المضجع ويكدر الحياة ويجعلها سباقا دائما لا ينقطع ولا يترك فرصة للراحة .. راحة الجسد أو النفس أو الضمير . تزايد الصراع فما عاد صراعا فى باطن النفس ، ولا صراعَ فرد مع أفراد ، أو صراع جماعة مع جماعة .. وإنما أصبح صراع نفوس وأفراد وجماعات .. دول وجيوش وطائرات وصواريخ .. ودمار رهيب يهدد وجه الأرض .

ونظم آمنت بالجانب الروحى من الإنسان

آمنت بأن هذا الجانب هو الجوهر الحق ، وكل ما عداه خداع لا يثبت على حقيقة . زبَد يذهب جفاء .

وراحت تغذى الروح بما ترى أنه غذاؤها الحق .

راحت تتعبد وتتنسك ، وترفع الإنسان على ضرورات جسده كلها ، وتقهر هذا الجسد لأنه دنس لا تنبغى إطاعته ، ورجس لا ينبغى له أن يكون .

واستمتع الناس بحياة الروح ... سبحوا فى ملكوتها الطليق من أوهاق الضرورة ، النظيف من أدران الشهوات ، وحلقوا فى آفاق عليا من الأفكار والمشاعر جميلة كالأحلام .. ثم .. تمرد الجسد المكبوت على خلق الفطرة ، وكفر الناس بمتاع الروح .. أو أصابتهم السلبية الخاملة التى لا تنتج شيئا فى واقع الأرض ، لا تنشىء ولا تعمر ، ولا تهدم ولا تبنى . ولا تغير الباطل ولا تقيم الصحيح من الأوضاع .

كلاهما انحراف عن السبل .

كلاهما ينحرف بالإنسان عن الخلافة الحقة التى أرادها له خالقه يوم قال ﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ . الخلافة الراشدة العاملة بفطرة الله ومنهج الله .

والإسلام يجمع هذه وتلك ، ولا ينحرف كما تنحرف هذه وتلك »[1]

والإعلام الإسلامى يؤمن من الكائن الإنسانى بما تدركه الحواس ، وبما يقع خارج نطاق الحواس .

يؤمن بكيانه المادى المحسوس وأنه قبضة من طين الأرض ﴿ إنى خالق بشرا من طين ﴾[2] .

---

(١) محمد قطب : السابق ص ٢٠ (٢) سورة ص (٧١) .

يؤمن بما لهذا الكيان المحسوس من مطالب ، ويؤمن بما فيه من طاقات .

ويعترف بهذا الكيان اعترافا كاملا لا يغض شيئا من قيمته ، ولا يهدر شيئا من طاقاته .

يستجيب لحاجاته ومطالبه ، ويجند طاقاته لتعمل فى تعمير الأرض وإنشاء النظم وتشييد الحضارات .

وفى الوقت ذاته يؤمن بالكيان الروحى للإنسان ، يؤمن بأن فيه نفخة من روح الله ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ﴾[1] .

يؤمن بما لهذا الكيان الروحى من مطالب ، وما يشتمل عليه من طاقات .

فيعطيه ما يطلبه من عقيدة ومثل وصعود وترفع ، ويجند طاقاته فى إصلاح كيان النفس وإصلاح شرور المجتمع ، وإقامة الحق والعدل الأزليين .. بأن يصله بالله ، يستمد وجوده ووحيه من مولاه .

وليس هذا فقط ولا ذاك .

ليست مزية الإسلام أنه يشمل الكيان البشرى كله ولا يترك شيئا من جوانبه المتعددة الطاقات .

وإنما المزية الحقة التى يفيد منها الإعلام الإسلامى هى أنه يساير الفطرة فيما هو أبعد من هذه الحقيقة .

إن كيان الإنسان من جسم وروح ، أو جسم وعقل وروح إذا اعتبرنا العقل كيانا متميزا عن هذين . هذا الكيان ليس منفصل الأجزاء .. إنه ليس جسما وحده مستقلا بذاته لا علاقة له بالروح أو العقل ، وليس عقلا منفصلا مستقلا بذاته لا يرتبط بجسم أو روح ، وليس روحا وحدها هائمة بلا رابط من عقل أو جسم . وإنما هو كيان واحد ممتزج مترابط الأجزاء .

ولقد أغرى الانفصال الظاهرى بعض النظم فتخصصت .. تخصصت لعبادة الجسد أو عبادة العقل أو عبادة الروح .. ونسيت الكيان المتكامل وأهملته من الحساب .

وقد أغرى البحث العلمى المتخصص بطبعه ، فقسم الإنسان جسما بلا عقل ، أو روحا بلا جسم ، أو عقلا بلا روح .. وراح يبحث كل واحد على حدة وهو يوهم

---

(١) سورة ص (٧٢) .

نفسه أن هذا هو الإنسان .

ولكن الواقع المشهود ليس كذلك .

نعم توجد لحظات كأنها لحظة جسد خالصة أو لحظة عقل خالصة أو لحظة روح . كأنها .. وليست كذلك فى الواقع .

واستغراق الإنسان فى لحظة من هذه اللحظات هو الذى يوهمه أن هذا الانفصال قائم ، وأنه فى حيز الإمكان[1] .

يقول الأستاذ محمد قطب :

« لحظة الروح الخالصة .. أروع لحظة على ظهر الأرض فى تاريخها كله .. أرفع إشراقة لأعظم روح .. لحظة الوحى الذى تنزل على محمد رسول الله ﷺ ، فأضاء روحه الصافية وأضاء وجه الأرض كله كما لم يضىء قط . هذه اللحظة لم تكن لحظة روح خالصة .

﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه ﴾[2]

حتى فى تلك اللحظة « الخالصة » تحرك اللسان وهتف هاتف من هواتف النفس ، حرصا على حفظ القرآن أن يذهب من الذاكرة .. تحرك الجسم وتحرك العقل فى أروع لحظة وأرفع إشراقة لأعظم روح .

ولحظة التفكير الخالصة التى يسهو فيها الإنسان عن جسمه وروحه ، لا تنسيه جسمه فى الواقع إلا نسيانا ظاهريا ، لأنه فى تلك اللحظة ساكن أو مستريح ، ولو أحس بالألم فى أى جزء من جسمه ، لو أحس بالصداع أو أحس بالجوع أو أحس بالعطش لجسمه المهجور .

ولحظة الجسد الخالصة التى ينسى فيها الإنسان عقله وتركبه الشهوة الجارفة ليست طويلة الأمد ، كما قد يخيل لصاحبها وهو منهمك فى طعام شهى أو شراب شهى أو متاع لذيذ . وهى فوق ذلك ليست خالصة إلا من الظاهر ، فالعقل ساكت لأنه ساكن أو مستريح . ولو خطرت للإنسان فكرة مزعجة أو ذكرى لأيقظته من متاعه « الخالص » ولتغير إحساسه فى متاعه لحظات .

كل ما يحدث أن لحظة من اللحظات يغلب عليها لون معين من المشاعر ، أو يبرز فيها جانب معين من الإنسان . ولكنه لا ينفصل قط عن ترابطه مع بقية الكيان البشرى ، ولا يستقل بعيدا عنها فى اتجاه .

(١) محمد قطب : السابق ، ص ٢١ . (٢) سورة القيامة (٢٦ ، ١٧) .

وكما يتصل الكيان النفسي الداخلي بعضه ببعض حتى مع غلبة جانب من الجوانب فى بعض اللحظات ، فكذلك يتصل الكيان الخارجى فى واقع الحياة . لا يوجد عمل واحد من أعمال الإنسان منفصلا فى حقيقته عن بقية الأعمال ، وإن بدا من الظاهر كذلك ، أو ظهر غالبا فى بعض الأحيان .

حياة الإنسان المادية لا تنفصل عن حياته العقلية وحياته الروحية .

ومشاعره الروحية لا تنفصل عن واقعه المادى .

وتفكيره العقلى مرتبط بالجميع .

تلك حقيقة الكيان البشرى . ولكن الذى يرى فى الظاهر حين تستغرق الناس مطالبهم المادية أو جهدهم المادى .. أو العقلى أو الروحى .. أن الجوانب الأخرى تتوارى مؤقتا فلا تبرز على السطح .

ولكنها لا تقطع الاتصال .

إن الكيان النفسى للإنسان كيان مرن متحرك لا يجمد على صورة واحدة .

إنه دائم البروز والانحسار ، يبرز منه جانب ويختفى وراءه جانب فى حركة دائمة لا تهدأ ، ولكن مزيته هى مرونته .. المرونة التى تسمح له بالتحول الدائم والتشكل المستمر دون أن يفقد ترابطه أو يتفكك . إنه — والتشبيه مع الفارق — كجسم الأمبيا دائم التشكل ولكنه هو هو فى المجموع .

وحين يحسب الإنسان أن بروز أحد جوانبه فى لحظة من اللحظات معناه انقطاعه عن بقية الكيان الداخلى .. أو حين تريد له عقيدة من العقائد أو نظام من النظم أن يحسب كذلك ، فالذى يحدث أن الجوانب الأخرى تكبت فى الداخل ، تكبت ولا تنفصل عن الكيان .

فحين توحى عقيدة من العقائد أو نظام من النظم بأنه ليس ثمة روح ، أو ليس ثم إلـٰه ، وأن الواقع المادى هو الحقيقة الوحيدة « حقيقة العالم تنحصر فى ماديته »[1] وأن الإنتاج المادى والتنظيم الاقتصادى هو كل حياة البشرية .. حين ذلك تكبت مؤقتا جوانب الإنسان الروحية والوجدانية والفكرية ، وقد تذبل وتنحسر ويصيبها الشلل فتعجز عن النشاط . ولكنها لا تبقى كذلك إلى الأبد ، وإلا مات الشعب وانقرض كما حدث لبعض الشعوب فى التاريخ .

---

(١) ذلك شعار المذهب المادى .

وكل النظم التى تأخذ جانبا واحدا من الإنسان وتفصله عن بقية الكيان تقع فى هذه الخطيئة ، وتؤدى بشعوبها إلى الهلاك فى النهاية بوسيلة من وسائل الهلاك .

والإسلام — كلمة الله إلى الأرض — قد سلم من هذه الخطيئة ونجا من ذلك الانحراف .

إنه فى الوقت الذى يؤمن فيه بكل جوانب الإنسان .. جسمه وعقله وروحه ومطالب كل جانب وطاقاته ، يؤمن كذلك بوحدة الكيان البشرى واتصاله ، واستحالة فصل جانب منه عن جانب فى الفطرة السوية التى تسير على نهجها الذى خلقه الله .

ومن ثم لا يفصل فى داخل النفس بين الجسم والعقل والروح ، ولا يفصل فى واقع الحياة بين هذه الطاقات بل يأخذها بفطرتها السوية ممتزجة مترابطة ، ويرسم لها دستورها على ذلك الأساس .

الروح والعقل والجسم كلها كيان واحد ممتزج مترابط اسمه الإنسان .

والروح والعقل والجسم كلها تعمل ممتزجة مترابطة فى واقع الحياة .

ولقد يغلب أحد جوانب الكيان فى لحظة ، وتتوارى بقية الجوانب أو تنحسر ولكنها لا تنفصل قط وإلا فإنها تموت .

اليد وحدها تعمل وتتحرك وتمسك وتدع ، ولكنها لا تعمل مستقلة عن بقية الجسم . إنها مرتبطة به بالعروق والدماء والأعصاب ، ولو انفصلت لحظة فقدت القدرة على الحياة . وكذلك الكيان كله ، كل جزء منه كاليد من الجسم .. جزء مستقل فى الظاهر ، وفى الواقع متصل أوثق اتصال .

والإسلام يجارى الفطرة فى تركيبها جميعه .

يجاريها فى السماح ببروز بعض الجوانب أحيانا وانحسار بعض ، فيجعل ساعة للعبادة ، وساعة للتفكر ، وساعة للعمل ، وساعة للاستمتاع .

ولكنه يجاريها كذلك فى ترابط الجوانب كلها وامتزاجها ، فلا يسمح بفصل جانب عن بقية الجوانب ، أو إبراز جانب بكبت الجوانب الأخرى فى أى وقت من الأوقات .

ساعة العبادة ليست تهويمة روح خالصة ، وإنما هى حركة جسم وحركة عقل وانطلاقه روح . والصلاة تظهر فيها بوضوح هذه الحقيقة ، فهى تشمل الجسم والعقل

والروح كلها فى آن(١) ، ثم كل عمل فى عرف الإسلام عبادة ما دام يتجه به الإنسان إلى الله .

وساعة التفكر — أيا كان لونه وهدفه — لا تنقطع عن الإحساس بالله والتفكير فيه .. لا تنقطع عن صلتها بالروح .

وساعة الجسد الخالصة لا يفصلها الإسلام عن الروح .

إن كانت طعاما أو شرابا فهى باسم الله .. والصلة بالله هى صلة الروح . وإن كانت متعة جنس — حلال — فهى كذلك يقرأ عليها اسم الله . ويقول فيها الرسول الكريم (إن فى بضع أحدكم لأجرا) . قالوا يا رسول الله أيأتى أحدنا شهوته ثم يكون له عليها أجر ؟ قال (أرأيت لو وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر ؟ فكذلك إذ وضعها فى حلال فله عليها أجر)(٢)

وكذلك نظم الاقتصاد والإنتاج المادى ووسائل الإعلام والتنظيمات « الأرضية » البحتة . لا يعالجها الإسلام منفصلة عن الكيان النفسى فى مجموعه ، فلا يعترف بأن هناك قوانين اقتصادية منقطعة عن الصلات النفسية والروحية ، أو أن هناك قوانين مادية لا تتصل بقوانين الروح .

ويقيم تنظيماته كلها على أساس هذه الحقيقة .. على أساس الفطرة البشرية الممتزجة المترابطة التى لا ينفصل فيها كيان عن كيان ، ولو غلب جانب من الجوانب فى بعض الأحيان .

تشريعاته « الأرضية الخالصة » من زواج وطلاق وإرث وتنظيم اقتصادى وسلام وحرب وسياسة .. إلخ ، كلها تقوم على أساس العقيدة ، مرتبطة بها ارتباط العقل والجسم بالروح ، وكلها تجىء فى القرآن ممتزجة بالتوجيه إلى الله وخشيته وتقواه .

وتوجيهاته « الروحية الخالصة » ليست مقصودة لذاتها . العبادة الخالصة التى هى غاية الخلق كلهم من جن وإنس ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾(٣) ليست مقصودة لذاتها ، فالله سبحانه لا ينفعه ولا يضيره أن يعبده الناس أو لا يعبدوه

---

(١) انظر فصل « العبادات الإسلامية » من كتاب « فى النفس والمجتمع » .. محمد قطب

(٢) رواه مسلم .

(٣) سورة الذاريات (٥٦) .

﴿ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ﴾[١] . ﴿ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنى عن العالمين ﴾[٢] . وإنما هو كرم الله سبحانه أن يجعل العبادة — التى هى غاية الخلق — هى الوسيلة لإصلاح النفوس وإصلاح الحياة فى الأرض . ثم كرمه السابغ سبحانه أن يثيب الناس على العبادة ، وهى عمل يعمله الإنسان لنفسه ، والله غنى عنه وعن العالمين »[٣] .

وهكذا يفيد الإعلام الإسلامى من المنهج القويم فى معالجة الإسلام النفس البشرية والحياة البشرية .. جسم وعقل وروح ممتزجة مترابطة فى كيان واحد ، وطاقة جسمية وطاقة عقلية وطاقة روحية عاملة فى الأرض ، ممتزجة مترابطة ، لا يفصل عمل هذه عن تلك ، ولا تنحسر واحدة انحسارا دائما لتبرز الأخريات .

وهو يصل من هذا المزج إلى نتائج معينة هى التى تحدد سمات « الإنسان الصالح » وتبرزه حقيقة ملموسة فى واقع الحياة . وحينما يذهب الإعلام الإسلامى إلى التوقيع على أوتار النفس كلها ، مجتمعة مترابطة ، فإنه يضمن شيئين معا وفى آن واحد[٤] :

الأول : هو استغلال طاقات الإنسان كلها ، فلا تهدر منها طاقة واحدة يمكن أن ينتفع بها الإنسان فى عمارة الأرض والخلافة عن الله . فهذه الثروة المتمثلة فى الكيان البشرى ثروة ثمينة متفردة فى نوعها ، عجيبة فى النتائج التى يمكن أن تصل إليها . ومن الكفران لنعمة الله — وهو بخس من الإنسان لنفسه فى ذات الوقت — أن يهمل شيئا منها فلا يستغله إلى آخر مداه .

من الكفر بأنعم الله ألا يستخدم الإنسان طاقته الحيوية فى عمارة الأرض ، بالتنقيب عن كنوزها ، والتعرف على رزق الله الواسع فيها ، واستغلال ذلك كله لترقية الحياة وتنميتها ، والوصول بها كل يوم إلى مستوى جديد .

---

(١) سورة الذاريات (٥٧) .

(٢) سورة العنكبوت (٦) .

(٣) انظر فصل « العبادات الإسلامية » من كتاب « فى النفس والمجتمع » للأستاذ محمد قطب ، القاهرة — دار الشروق .

(٤) محمد قطب : نفسه ، ص ٢٧ .

ومن الكفر بأنعم الله ألا يستخدم الإنسان طاقته الروحية فى التعرف على الله والاتصال به ، والاستمداد من قوته ، والاهتداء بهديه ، والعمل بمقتضى ذلك كله على ترقية الحياة النفسية وتنميتها ، والتعود على الخير ، والتعود على الحب ، والتعود على الشعور بترابط الإنسانية ، ومحاولة إيصال الخير المادى الذى يصل إليه الإنسان بطاقته المادية إلى جميع البشر .. الخلفاء لله فى مجموعهم ، الشركاء فى كل ثمار الحياة .

ومن الكفر بأنعم الله ألا يستخدم الإنسان طاقته العقلية فى التعرف على أسرار الكون وقوانينه ، والتعرف على سنن الله فى الكون المادى وفى حياة الإنسان ، واستغلال ذلك كله فى تنظيم الحياة البشرية وتقويمها ، والسير بها فى نهجها القويم .

ومن بخس الإنسان لقدر نفسه أن يجهل طاقاته أو يهدر بعضهما لحساب بعض . فهو يستطيع دائما أن يكون نفسه كلها ، وأن يعمل بطاقاته جميعا فى واقع الحياة . يستطيع أن يكون الإنسان العابد لله ، المستمد من هداه ، ويكون الإنسان المفكر المتعرف على أسرار الكون وقوانينه ، ويكون الإنسان العامل بجهده الحيوى لترقية الحياة وتنميتها . ولن يعطله جانب من هذه الجوانب — حين يسير على المنهج السوى — أن يشيع الجوانب الأخرى ، أو يستفيد منها إلى غايتها . فهكذا قد خلقه الله قادرا على هذا النشاط المتعدد ، محققا لكيانه فى الاتجاهات كلها ، وبهذه الطاقات المتعددة ذاتها منحه الخلافة فى هذه الحياة .

بل الأمر أبعد من ذلك .. فهو حين يستغل طاقاته كلها يكون أجود إنتاجا وأوفر حصيلة . فهذا المخلوق البشرى كالنبع الثر يفيض بقدر ما تتفتح منه العيون ، كلما فتحت عينا جديدة تدفق المجموع . وهذا واقع الحياة الإسلامية الأولى هو الشاهد على تلك الظاهرة البشرية الفذة ، فقد نشطت فى كل اتجاه فى العلم والعمل والفتح والتنظيم والتشييد ، فكان علماؤها هم العلماء ، وقادتها هم القادة ، ونظامها هو النظام ، وحضارتها هى الحضارة . ولم تشعر أن نشاطها المادى يمنعها من عبادة الله والاستمداد من هديه ، ولا أن عبادة الله تمنعها من الضرب فى مناكب الأرض ولا عمارتها ، ولا أن هذا وذلك يمنعانها من التفكير العلمى التجريبى . بل كانت هذه الجماعة — كما يقول « جب » وغيره من المستشرقين — هى التى أدخلت الطريقة التجريبية فى البحث العلمى .

والأمر الثانى أن استغلال هذه الطاقات مجتمعة يحدث توازنا فى داخل النفس وواقع الحياة سواء .

التوازن — وهو سمة من سمات الإعلام الإسلامى — معنى واسع شامل يشمل كل نشاط الإنسان .

توازن بين طاقة الجسم وطاقة العقل وطاقة الروح . توازن بين ماديات الإنسان ومعنوياته . توازن بين ضروراته وأشواقه . توازن بين الحياة فى الواقع والحياة فى الخيال . توازن بين الإيمان بالواقع المحسوس والإيمان بالغيب الذى لا تدركه الحواس . توازن بين النزعة الفردية والنزعة الجماعية . توازن فى النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . توازن فى كل شىء فى الحياة .

﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾[1] وسطا فى كل شىء ، متوازنين فى كل ما تقومون به من نشاط .

هذا التوازن هو فى الحقيقة سمة الكون كله الذى تتوازن فيه كل الأفلاك وكل الطاقات ، لا تختل منها واحدة فى الكون على اتساعه وهو كذلك سمة الإنسان الصالح الذى يفى بشروط الخلافة عن الله فى الأرض ، ويسير حسب منهج الله خالق الكون والإنسان .

والوصول إلى التوازن فى حياة الإنسان — المتعدد الطاقات والاتجاهات — ليس أمرا هينا فى الحقيقة . فهو جهد جاهد يستغرق حياة الإنسان كلها ، ويشمل كل لحظة من لحظات هذه الحياة . جهد التوفيق بين الضرورات القاهرة والأشواق الطائرة . جهد التوفيق بين ما يجب أن يكون وما يمكن أن يكون . جهد التوفيق بين مطالب الفرد الواحد المتعددة المتعارضة وبين مطالب المجموع . جهد التوفيق بين العمل للعاجلة والعمل للآجلة . جهد التوفيق بين هذه اللحظة وهذا الفرد وهذا الجيل وبين جميع اللحظات وجميع الأفراد وجميع الأجيال ... جهد جاهد يستغرق كل طاقة الحياة .

ومع ذلك فهو هدف يستحق كل ما يبذل فيه من جهد ، لأنه يحقق للإنسان فى الأرض أقصى ما يستطيعه من سلام وسعادة وإنتاج ، فى كل حقل من حقول الإنتاج المادى والمعنوى على السواء .

وكل ما يصيب الإنسان فى الحياة من شر . كل ما يصيبه من قلق أو جزع أو اضطراب . كل ما يصيبه من فساد وبوار وشقوة . هو نتيجة حتمية لفقدان التوازن فى داخل النفس ، وفقدانه من ثم فى واقع الحياة[2] .

حين تطغى على الإنسان شهوة من شهواته .. شهوة مال أو شهوة جنس أو شهوة

---

(١) سورة البقرة (١٤٣) .   (٢) محمد قطب : السابق ، ص ٢٨

قوة أو شهوة سلطان .. فذلك اختلال فى باطن نفسه ، لا يسعده فى الحقيقة وإن بدا له فى أول الأمر أنه مستمتع وراض وسعيد . إنما هو فى الواقع فى شقوة دائمة لأنه قلق على ما عنده وراغب فى المزيد . ثم هو اختلال فى واقع الحياة ، فكل شهوة زائدة عن الحد لا تجرف صاحبها وحده ، وإنما تصيب غيره من الناس فى الطريق . تصيبهم بعدوان يقع عليهم لا محالة من هذه الشهوة التى تجاوز الحدود .

وحين يجنح الإنسان بطاقة من طاقاته على حساب بقية الطاقات ، فذلك اختلال فى باطن النفس ينتج عنه اختلال فى واقع الحياة . حين يجنح بطاقته الحيوية فيسعى إلى المتاع الزائد عن الحد ، أو يجنح بطاقته العقلية فيعيش فى برج عاجى بعيدا عن واقع الحياة ، أو يجنح بطاقته الروحية فيهوم فى سبحات روحية سلبية لا تتحول إلى عمل وإنتاج فى عالم الحس ، فلن يكون سعيدا وهو فرد لأنه يظل يظلع فى مشيته وتختل مواقع أقدامه — لأن الثقل يقع عليها غير متوازن — ، ولن يكون سعيدا وهو مجموع ، فلا يمكن أن تستقيم حياة جماعة كل همها المتاع الحيوانى — وقد انهارت فرنسا حين وصلت إلى هذا المدى من المتاع . ولا جماعة يشتغل مفكروها بالفلسفة المنقطعة عن واقع الأرض — وقد تعرضت أوربا لأعنف الاضطرابات فى القرنين الأخيرين ، وانتهت إلى الشيوعية فى نهاية المطاف كرد فعل للفلسفة المثالية التى كانت تحلق فى أفكارها النظرية الخاوية ، وتترك جموع البشر يأكلهم الجوع والحرمان والمذلة المهينة لكرامة البشرية . ولا جماعة تعيش فى تهويمة الروح السالبة — وقد كانت الهند والصين ترزحان تحت وطأة التأخر والانكماش والضياع ، حتى بدأتا تتخلصان أخيرا من هذه التهويمة السالبة وتعيشان فى واقع الحياة .

لذلك يحرص الإعلام الإسلامى على التوازن ويجعله هدفا أساسيا فى مناهجه ، ويبذل فيه كل ما فى الطاقة من جهد . يسير فيه مع الإنسان فى جميع مراحل نموه ، ولا يتركه فى لحظة واحدة دون معاونة أو توجيه .

وطريقته هى تلك التى حددها الأستاذ قطب فى قوله[1] : التوقيع على أوتار النفس كلها ، مجتمعة مترابطة فى آن . فإن ذلك يؤدى إلى التوازن المنشود حين تتخذ له الوسائل الصحيحة التى يرسمها منهج الإسلام .

ومن خصائص الإعلام الإسلامى كذلك — وهى من سمات الإنسان الصالح فى

---

(١) محمد قطب السابق : ص ٢٩

ذات الوقت — الإيجابية السوية . فمن نتائج المزج بين طاقات الإنسان كلها وربطها بعضها ببعض ، أن يتحول المخلوق البشرى إلى طاقة إيجابية عاملة فى واقع الحياة ، ولكنها الإيجابية السوية التى لا تتنكب الطريق .

فى الكائن الإنسانى استعدادات مختلفة متباينة فيها الموجب وفيها السالب فى كل اتجاه . وإذا تركت هذه الاستعدادات وشأنها كل منها ينمو من ناحيته أو يتوقف عن النمو ، فالنتيجة هى اختلال التوازن من جهة ، واضطراب السمة التى يتصف بها الإنسان فى مجموعه ، فهو سلبى أحيانا وإيجابى أحيانا ، على غير منهج سوى أو هدف مرسوم .

والإنسان — كما يريده الله — قوة فاعلة موجهة مريدة ، ومن ثم فهو قوة موجبة فى واقع الحياة .. قوة دافعة إلى الإمام .. قوة تسيطر على القوى المادية وتستغلها فى عمارة الأرض .

﴿ وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعا منه ﴾[1] . قوة يغير الله واقع البشر عن طريقها ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[2] . قوة تنشئ واقعها حسب المنهج الذى تؤمن به ، فتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتقيم بنفسها نظامها ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾[3] .

قوة إيجابية .. ولكن بغير طغيان .

والطغيان — بكل أنواعه — هو المنزلق السهل أمام الإيجابية الفاعلة .

يطغى الإنسان على نفسه فيكبت بعض طاقاتها ليبرز بعضها الآخر . يكبت طاقة الروح ليبرز طاقة الجسم أو طاقة العقل . يكبت معنوياته ليبرز جوانبه المادية ، ويحقق كيانه عن طريق الإنتاج المادى .

ويطغى الإنسان على غيره فيعطى نفسه حقوقا لا يعطيها للآخرين . يعتبر نفسه — فردا أو شعبا — من عنصر ممتاز يحق له من أن يستعبد الآخرين ويخضعهم لسلطانه . يحق له أن يسلبهم كراماتهم وحرياتهم ومقومات حياتهم لينتفش بها وحده ويتضخم .. أو يحق له أن يصنع كما يشتهى ، يقرر حقوقه كما يتراءى له ، ويقرر واجباته بنفسه — إذا

---

(١) سورة الجاثية (١٣) .　　(٢) سورة الرعد (١١) .

(٣) سورة آل عمران (١١٠) .

رأى أن تكون عليه واجبات — ولا يعنيه ترابط المجتمع ولا الخلل الذى يطرأ عليه حين يصنع كل فرد فيه ما يريد حينما يريد .

تلك نماذج من الإيجابية المختلة .

وفى مقابلها .. سلبية مريضة .

يكون الإنسان سلبيا مع نفسه ، فيطلق لها عنان الشهوات ، لأنه لا يملك القوة الضابطة — القوة الموجبة — التى يضبط بها نوازع الشهوة .

ويكون سلبيا مع غيره . سلبيا إزاء القوى المادية والاقتصادية والاجتماعية . سلبيا إزاء العرف والعادات والتقاليد . سلبيا إزاء سطوة المجتمع أو جموده أو القوى المسيطرة عليه . ومن ثم يضيع كيانه الفردى وينسحق تحت ما يقع عليه من ضغوط .

كلاهما اختلال لا يليق بخليفة الله فى الأرض .

وكلاهما اختلال ينشأ من سوء التربية وسوء التوجيه ، ينشأ من التوقيع على بعض أوتار النفس دون بعضها الآخر ، أو ينشأ من التوقيع على بعضها بالنغمة النشاز .

فحين يكون التوقيع على النزعة الفردية وحدها أو النزعة الجماعية ..

أو حين يكون على الجانب المادى وحده أو الجانب الروحى ..

أو حين يكون على الطاقة المحركة وحدها أو الطاقة الضابطة ..

فالنتيجة هى الإيجابية المختلة هنا أو السلبية المختلة هناك .

وكذلك حين يكون التوقيع على إحدى هذه الطاقات بأكثر مما ينبغى لها ، بحيث تطغى على ما يقابلها من طاقات .

والإسلام يريد الإنسان قوة إيجابية فاعلة ، ولكنها سوية ، وطريقته هى ذاتها التى أسلفنا .. التوقيع على الأوتار كلها ، مجتمعة مترابطة فى آن «[1]

ومن خصائص الإعلام الإسلامى لذلك ، ومن سمات الإنسان الصالح فى ذات الوقت — الواقعية المثالية أو المثالية الواقعية .

الإسلام يأخذ الكائن البشرى بواقعه الذى هو عليه . يعرف حدود طاقاته ويعرف مطالبه وضروراته ، ويقدر هذه وتلك « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها »[2] . ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾[3] . ويعرف ضعفه إزاء المغريات ﴿ زين للناس حب

---

(١) محمد قطب : السابق ، ص ٣١

(٢) سورة البقرة (٢٨٦) . (٣) سورة التغابن (١٦) .

الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ﴾(١) . وضعفه إزاء التكاليف ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا ﴾(٢) .

يعرف كل ذلك فيساير فطرته فى واقعها ، ولا يفرض عليه من التكاليف ما ينوء به كاهله ويعجز عن أدائه ﴿ هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾(٣) . ويجعل التكليف الملزم فى حدود الطاقة الممكنة . ولكنه مع ذلك لا يتركه لفطرته الضعيفة دون تقويم ، فتظل تهبط وتتراجع عن موقفها إلى موقف دون .

كلا إنه فى واقعيته يأخذ الواقع الأكبر للإنسان ، الواقع الذى يشمل لحظة الضعف ولحظة القوة .. لحظة الهبوط ولحظة الارتفاع .

إن مزية الإنسان الكبرى هى هذا الاستعداد الدائم للصعود .. الاستعداد لأن يتفوق على نفسه ، ويرتفع على « الواقع » ليبلغ المثال . وقد لا يبلغه فى كل مرة ، بل قد لا يبلغه فى أية مرة ولكنه يظل يحاول — ما دام يوجه إلى الطريق — وفى محاولته تلك يرتقى ويرتفع فى الآفاق .

وتمر على هذا الإنسان لحظات معجزة يحقق فيها انتصارات رائعة على نفسه وعلى كل قوى الأرض المحيطة به ، ذلك حين يرتفع إيمانه بالطاقات التى وهبها له الله ، فيحاول أن يحقق كيانه كاملا كما أراده له الله .

وهذه اللحظات « واقع » وإن كانت هى « المثال » .

والإعلام الإسلامى — وهو يجارى واقع الفطرة بما فيه من ضعف وطاقة محدودة — لا يغفل عن تلك الطاقة المكنونة التى تحقق المثال .. ومن ثم يسير فى نهجه على واقعية تشمل المثال فى أطوائها ، ومثالية لا تغفل واقع الحياة »(٤) .

تلك أبرز الخصائص فى الإعلام الإسلامى ، وهى بذاتها أبرز سمات الإنسان الصالح الذى يسعى الإعلام الإسلامى لتحقيقه فى الأرض :

الشمول والتكامل .

التوازن .

الإيجابية السوية .

الواقعية المثالية .

---

(١) سورة آل عمران (١٤) .
(٢) سورة النساء (٢٨) .
(٣) سورة الحج (٧٨) .
(٤) محمد قطب : السابق ، ص ٣٢

وإذا كانت الدعوة ليست كائنا متحركا بذاته حتى تصل وحدها إلى الناس ، ولكنها مفهوم معنوى يطبقه مخلوق مكلف بعد أن يدركه ويحيط به ، فإن الإعلام الإسلامى مكلف اليوم بإبلاغها .

ولأنها هكذا أوجب الله تبليغها ، فأرسل بها رسول الله ﷺ وأمره بتبليغها حيث يقول الله له :

﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ﴾(١) .

ويقول له :

﴿ ما على الرسول إلا البلاغ ﴾(٢) .

وبذلك عرف الله رسوله أن تبليغ الدعوة واجب . بل أن واجبه كله ينحصر فى هذا التبليغ ، فإذا بلغ ما أرسل به فقد أدى ما عليه(٣) .

ومن هنا حرص رسول الله ﷺ الحرص كله على تبليغ الدعوة فى مكة وفى المدينة .

ففى مكة عرض دعوته على القاصى والدانى من أبنائها . وكان يركز فى البداية بصفة خاصة على الأشد قربا ، والأكثر لينا ، كزوجته خديجة رضى الله عنها وأصحابه أبى بكر وعثمان وعلى رضى الله عنهم أجمعين ، وتحمل كثيرا من الأذى حيث كذبه كفار مكة واتهموه بالسحر .. وحاولوا إغراءه بالمال والملك . وقد صبر لكل ذلك حتى هاجر المسلمون إلى المدينة .

وفى المدينة تأسست الدولة الإسلامية تحت قيادة النبى ﷺ ، وتحولت كافة الجهود لتبليغ الدعوة الإسلامية إلى كل الآفاق مع التدرج فى التبليغ من البعيد إلى الأبعد ، وهكذا حتى وصل خبرها إلى كل مكان بعد صلح الحديبية .

وخلال الفترة المكية والفترة المدنية وجدت الأدلة الكثيرة المثبتة لحكم تبليغ الدعوة . وقد حصرته فى الفرضية . وهذه الأدلة مبثوثة فى القرآن الكريم والسنة(٤) .

وردت آيات كثيرة تأمر بالدعوة صراحة وذلك كقوله تعالى :

﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾(٥)

---

(١) المائدة آية ٦٧ (٢) النور آية ٥٤

(٣) د. أحمد غلوش : السابق ، ص ٢٣٣

(٤) د. أحمد غلوش : السابق، ص ٢٣٤ وما بعدها .

(٥) النحل آية ١٢٥

وكقوله تعالى ﴿ فادع واستقم كما أمرت ﴾[١] .

وكقوله تعالى ﴿ وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين ﴾[٢] .

ومن الآيات ما ورد خبرا عن رسول الله مع الدعوة ، كقوله تعالى :

﴿ قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى ﴾[٣]

وهذه الآيات تفيد الفرضية لأن الأمر يفيد الفرضية إذا لم يوجد ما يصرف معناه عن ذلك ولا صارف له فى هذه الآيات ، كما أن هذه الآيات لا تحتمل إلا معنى واحدا ، ولذلك فهى قطعية الدلالة .

ومن الآيات الدالة على فرضية الدعوة قوله تعالى :

﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ﴾[٤] .

والأمر بتبليغ الدعوة إيجاب لما تضمنه الأمر .

ومن الآيات قوله تعالى :

﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾[٥]

والدعوة إلى الخير تعنى الدعوة إلى الإسلام . وهى هنا مأمور بها بواسطة لام الأمر الداخلة على الفعل المضارع . ومن الآيات الدالة على وجوب تبليغ الدعوة قوله تعالى ﴿ قم فأنذر ﴾[٦]

فإن الأمر بالإنذار هو تبليغ للدعوة بطريقة الترهيب ، كما أن التبشير تبليغ لها بطريقة الترغيب .

وفى القرآن أدلة كثيرة تدل على فرضية تبليغ الدعوة .

وقد دلت أحاديث كثيرة على وجوب الدعوة إلى الله تعالى . ومنها :

(ليبلغ الشاهد منكم الغائب) [٧]

(جاهدوا المشركين بأموالكم وأيديكم وألسنتكم)[٨]

---

(١) الشورى آية ١٥ (٢) القصص آية ٨٧ .

(٣) يوسف آية ١٠٨ (٤) المائدة آية ٦٧

(٥) آل عمران آية ١٠٤ .

(٦) المدثر آية ٢ .

(٧) صحيح البخارى جـ ١ ص ٣٧ كتاب العلم باب « ليبلغ الشاهد الغائب » .

(٨) نيل الأوطار جـ ص ٢٢٩

﴿ والذى نفسى بيده لتأمرنّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، وليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم ﴾[١]

وهذه الأحاديث تدل على الوجوب من صيغة الأمر الواردة فيها .

ووجوب الدعوة إلى الله مقرر بالعقل أيضا ، لأن الله سبحانه وتعالى حرم قتل الكافرين قبل بعث الرسول ﷺ لدعوتهم إلى الله لئلا تبقى لهم شبهة عذر تجعلهم يقولون ﴿ ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ﴾[٢] . وأيضا فإن القتال ما فرض لعينه بل للدعوة إلى الإسلام ، ومن المعلوم أن الدعوة باللسان أهون من الدعوة بالقتال ، لأن فى القتال مخاطرة بالروح والنفس والمال ، وليس فى دعوة التبليغ شىء من ذلك . فإذا احتمل حصول المقود بأهون الدعوتين لزم اللجوء إليها[٣] .

وقد اختلف العلماء فى نوع تبليغ الدعوة إلى فريقين :

حيث يرى الفريق الأول : أن تبليغ الدعوة فرضت على الجميع ابتداء ، ولكنه يسقط عنهم إذا أداه البعض منهم . ويستدل هذا الفريق بما يلى :

١ — يقول تعالى :

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس وتأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾[٤]

ففى هذه الآية أوجب الله الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على الأمة الإسلامية[٥] بهذه الآية .

٢ — يقول تعالى :

﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾[٦] .

ومعنى الآية كونوا أمة دعاة إلى الخير آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر . والوجوب مستفاد من لام الأمر الداخلة على الفعل المضارع ، ومن فى الآية للبيان لا للتبعيض .

---

(١) رياض الصالحين ص ١٥ (٢) سورة طه آية ١٣٤ .

(٣) د . أحمد غلوش : السابق ص ٢٣٥ . (٤) آل عمران آية ١١٠ .

(٥) هناك فروق بين أمة الإسلام وأمة الدعوة ، لأن أمة الإسلام هى التى آمنت . وأما أمة الدعوة فهى العالم كله الذى يجب أن تبلغه الدعوة ، والأمة إذا أطلقت وقعت على الأولى . د . أحمد غلوش : السابق ص ٢٣٦ .

(٦) آل عمران آية ١٠٤ .

وحتى لو سلمنا أنها للتبعيض فإن الخطاب فى الآية موجة للأمة كلها مما يجعلنا نشعر أن واجب تبليغ الدعوة واجبان ، وهو ما يكون دائما فى فرض الكفاية . يقول الشافعى : « فرض الكفاية يكون واجبا على العموم ، وواجبا على الخصوص . فوجوبه على الخصوص يختص بالقادرين الذين هيئوا لذلك العمل الخاص ، ووجوبه على العموم إنما يكون بإعداد هؤلاء القادرين وتربيتهم وإعدادهم »[١]

ويرى الفريق الثانى أن تبليغ الدعوة فرض عينى على المستطيع فقط ، كالحج والزكاة . ويستدلون على ذلك بما يلى :

١ — يقول تعالى :

﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾[٢]

والآية تدل على أن التبليغ واجب على طائفة من كل فرقة ابتداء ، لأن معناها لا ينبغى للمؤمنين أن يخرجوا جميعا للقتال بل على طائفة منهم البقاء للتفقه فى الدين ، وإنذار القوم بما تفقهوا .

٢ — لو وجبت الدعوة على الجميع للزمت الشيخ الفانى والمريض والمرأة ، وهم لا يقدرون عليها . ومن القواعد المقررة فى الشريعة أنه ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ . وهذا يدل على أنها واجبة على العلماء وحدهم .

والرأى الأول هو الراجح لاتجاه الخطاب فى سائر الآيات إلى الأمة ، مع تقرير إيجاب خاص على العلماء القادرين ، وإيجاب عام على الأمة . وأيضا فأن الرأى الأول يحتوى فى مفهومه على الرأى الثانى .

ومن هنا اختصت الدعوة بجماعة خاصة تميزت بالعلم والإخلاص ومحبة الدعوة ، لأنهم يأمرون بأشياء وينهون عن أخرى . وذلك يستلزم سبق العلم بما يدعى إليه بالوسيلة المناسبة للدعوة . لأن الجهل فى هذا المقام ربما يضر أكثر ، لأن الجاهل لا يفرق بين المعروف والمنكر . وربما يدعو إلى المنكر وهو لا يدرى ، وربما عرف الحكم فى مذهبه وجهله فى مذهب صاحبه . وأيضا فإنه لا يعرف الوسيلة المناسبة فيغلظ فى موضوع اللين ، ويلين فى موضع الشدة ، وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تماديا . فثبت أن هذا التكليف متوجه إلى العلماء وحدهم . يقول السيوطى : فى هذه الآية دليل

---

(١) د . أحمد غلوش : السابق ، ص ٢٣٦ .

(٢) التوبة آية ١٢٢ .

على أن الدعوة إلى الله فرض كفاية إذا أداها البعض سقطت عن الباقين[١] .

وبذلك يتبين أنه قد التقى التكليف العام وفرض الكفاية : فكل واحد من الأمة مطالب بالقيام بالدعوة بقدر طاقته من العلم والكفاية والبيان ، وهو مطالب ثانيا بالمعاونة على تخصيص طائفة من المؤمنين تكون أقدر بيانا ، وأعلم بالأحكام الشرعية ، وأقوى على الصمود فى مجال الحق والدعوة إلى الله ، والصبر على الأذى والكيد والبلاء ﴿ لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾ ، ومخاطبة الناس بأساليب متعددة تتفق مع ظروفهم المختلفة ، ولهم جلد على الضرب فى الأرض وتحمل المشاق والأسفار فى البر والبحر والجو ، فضلا عن دراية واسعة ومعرفة دقيقة بأحوال الناس وظروفهم السياسية والاجتماعية والمعيشية ، والعادات والتقاليد واللغات الأجنبية ، لأن الدين الإسلامى دين عالمى بطبيعته ، كما أن الإعلام الإسلامى فريضة على كل مؤمن ومؤمنة[٢] .

وفى العصر الحديث كان علم الاجتماع من أوائل العلوم التى اتخذت منهجا تطبيقيا نحو مشكلات الاتصال . وقد قام كثير من الباحثين من أمثال كولى (١٩٥٦) وميد (١٩٣٤) وبارك (١٩٢٥) بأبحاث عديدة اهتموا فيها بالتطور الجديد الذى أخذ يطرأ على المجتمع ، وذلك بتحديد معنى وسائل الاتصال وتفسيرها على أنها سبيل يعين الفرد على نقل المعلومة إلى أخيه الفرد ، ولذا فهى — أى وسائل الاتصال — سبيل أساسى لبقاء وتنظيم المجتمع . ومن هذا المنطلق أخذ هؤلاء الباحثون يحللون معنى وسائل الاتصال . ورغم أنهم لم ينظروا فى البداية إلى الوسائل المعروفة كالصحافة والإذاعة ، إلا أنهم اهتموا بالفكرة القائلة إن ثمة فكرة تنشأ فى وعى الفرد ، ومن خلالها يكون هذا الفرد صورة ذهنية له ولغيره .

وعلى هذا الأساس ، وعلى أساس اكتشافات نظرية أخرى ، نشأت الدراسات التطبيقية التى ألقت الضوء على كثير من نواحى الاتصال التى تختلف فى محتواها وفى ديناميكيتها وفى ما ينشأ عنها من علاقات ، وخاصة بعد أن انتشرت الوسائل المعروفة كالراديو والتليفزيون والصحف . وهناك العديد من هذه الدراسات والتحليلات التى لا نستطيع أن نوردها كلها هنا ، وإن كان باستطاعتنا أن نقول إن هناك ثلاثة أنماط

---

(١) الإكليل ص ٥٦ . د . أحمد غلوش : السابق ص ٢٣٧ .

(١) د . إبراهيم إمام : السابق ، ص ٢٠

رئيسية للمنهج الاتصالى :

الأول .. التداخل بين الموصل — أى الذى ينقل المعلومة — والمتلقى ، واعتماد الواحد على الثانى .

والثانى : الصلة الدائمة التى تجعل وسائل الاتصال تتحرك إلى الأمام وإلى الخلف على الدوام .

والثالث : أن هذه الوسائل جزء من شبكة كبيرة من التلاحم والتداخل لا تكف عن الحركة أبدا . وبسبب تنوع الأنماط النظرية ، رغم أهميتها ، فإن الصعوبة الكبرى تمثلت عن التطبيق عندما نريد أن نتتبع قنوات الاتصال المختلفة ، وخاصة إذا ما أريد التأثير من خلالها . ولكن كانت هذه فى ذات الوقت أهم مشكلة تولاها الباحثون ، وخاصة فى أيام ما قبل التليفزيون والأسطوانات والكتب رخيصة الثمن والكاسيتات .

وفى عام ١٩٧٧ أشار الباحث ميرتين إلى أنه يوجد على الأقل ١٦٠ تعريفا لمفهوم وسائل الاتصال . ورغم هذا لم تتوقف الأبحاث عن مفهوم وسائل الاتصال وعن أهميتها بعد أن أصبحت ظاهرة ، وعن تأثيرها على المجتمع من عدة نواح . وفى عام ١٩٤٨ اتجه الباحث لاسويل إلى الاقتصاد السياسى كقاعدة لبحثه . واهتم بالناحية السياسية والناحية التاريخية ، مستعينا فى ذلك بإعادة الوثائق والتحليل المنهجى للمحتوى ، أما لازار سفيلد (١٩٤٠ — ١٩٤٨ — ١٩٤٩) فقد اتخذ سبيلا آخر يقوم على أساس العلاقة الوثيقة المعترف بها الآن ، القائمة بين علم الاجتماع وبين علم النفس الاجتماعى . وقد ضمن هذا الأستاذ القدير أبحاثه هذه فى كتابه الذى صدر عام ١٩٣٣ ، فيه يبدو الاهتمام واضحا بالآثار القصيرة المدى التى تنجم عن وسائل الاتصال ، وأهمها وقتئذ الراديو والتى دلل بها الباحث بعد إجراء مقابلات مع المستمعين ، وبعد اختيار عينات وقطاعات منهم ، وبعد إجراء دراسات ميدانية تستهدف تحديد موقف المستمع من وسيلة الاتصال ومن المجتمع . والاتجاه الثالث تبناه الباحث لوين (١٩٤٧ — ١٩٤٨ — ١٩٥١) واتخذ فيه منهجا يتبعه فيه الكثيرون ممن أتوا بعده ، استخدم فيه علم النفس التجريبى وعلم النفس الاجتماعى معا . وهذا المنهج يقول إنه بمجرد أن يتركز الاهتمام على العلاقات الشخصية فى جماعات صغيرة ، فمن المحتم أن يصبح أثر وسائل الاتصال على هذه المجموعات محل اختبار . وعلى ذلك فقد أجريت التجارب التى تبحث فى السلوكيات الشخصية تحت ضغوط جماعية ، وفى القيادة الديمقراطية والأوتوقراطية والضغوط التى تنادى بألا يتصرف الفرد تصرفا

يخالف المألوف فى جماعته الصغيرة . وفى سنوات (١٩٤٩ — ١٩٥٢ — ١٩٥٤) اهتم هوفلاند وأتباعه بالأثر النفسى الذى تحدثه وسائل الاتصال ، من حيث محتواها ، ومن حيث خصائص الرسالة التى تبعث بها ، أى من حيث صدقها وجاذبيتها والأصل منها ، ونواحى التعصب فيها .. إلخ ، وكل هذه تمت دراستها تحت ظروف معملية خاصة ، وأصبحت منذ ذلك الوقت تعرف باسم الأثر النعاسى أى أن أثرها يأتى متأخرا على سلوك الفرد (هوفلاند ١٩٤٩) هو الأثر الذى أطلق عليه فيرتون (١٩٥١) فيما بعد بالأثر العكسى ، أى أنه يأتى بعكس ما يتوقع . كل هذه النظريات تقوم على دراسات هذه المدرسة .

ينبغى أن نلاحظ أن كل هذه الدراسات التى أوردناها باختصار تمت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية « للحصول على معلومات أوفى نستطيع اللجوء إلى دراسات برلسون ١٩٥٩) وأنها كانت المرجع لكل ما تمت دراسته فى ميدان الأثر الاجتماعى لوسائل الاتصال ، أو من بينها الدراسات التى تمت بها فى أعوام ١٩٦٦ و١٩٦٨ و١٩٧٣ و١٩٧٧ وهى جميعها تدين بالكثير لعلوم عديدة أخرى مثل علم خصائص الإنسان ، والاقتصاد السياسى ، وعلم النفس ، وعلم اللغة ، وعلم الظواهر الباثولوجية وغير كثير .. فمثلا كان لعلم التحليل النفسى الفضل فى إجراء تجارب بحثية عديدة وخاصة فى الخصائص النفسية للمعرفة مما كان له أكبر الأثر فى تحديد أثر وسائل الاتصال ورسالتها على الفرد .. بل وفى كيفية إعداد وبناء الرسالة المستهدفة إرسالها . وقد ظهر هذا بالأخص عند دراسة أثر التليفزيون على الأطفال والشباب . وقد قام به العديد من الباحثين من أمثال هايمان ١٩٦٤ ، وزيريس ١٩٦٣ ، وبرتولد ١٩٧٠ ، وهيرتاستورن ١٩٧٢ بأبحاث قيمة . وكانت أبحاث كلابر (١٩٦٠) التى اهتمت بأثر وسائل الاتصال اجتماعيا مدينة بالفضل للأبحاث التى قام بها علماء النفس الاجتماعيون فى ميدان نظريات التصرف ، وديناميكية الجماعات . قد أنشئ لها فى عام ١٩٥٤ مركز خاص بها فى آن اربر بميتشيجان بالولايات المتحدة الأمريكية ، وكان الفضل فى إنشائه يرجع إلى العالم (أوين) الذى توفى بعد إنشاء هذا المركز بقليل ، كما يرجع الفضل إلى الدراسات التى قام بها هوفلاند وزملاؤه فى جامعة ييل ، وكانت تهتم بدراسة الأثر الاجتماعى لوسائل الاتصال . وإن كانت تعمل على تخليص هذه الدراسات الأولى من آثار النمطية (سيلبرمان ١٩٧٧ — نقد لهذه النمطية) .

فعلم الاتصال إذن من أحدث العلوم الاجتماعية التى عرفها العالم الحديث ، وهو علم يبحث ظاهرة التأثير فى الناس بوسائل الاتصال المختلفة ، كالكلمة الشفهية المنطوقة والكلمة المدونة والكلمة المطبوعة والخطابة والرسائل والصحافة والإذاعة المسموعة والإذاعة المرئية والأفلام والأشرطة المرئية وغيرها . فالاتصال كلمة عامة شاملة تعبر عن التفاعل الاجتماعى المباشر عن طريق الاتصال الطبيعى الشخصى والجمعى ، وعن طريق الاتصال الصناعى غير المباشر والذى تستخدم فيه الوسائل التكنولوجية العصرية كوسائل للاتصال[1] .

ويشكل الاتصال قوة حضارية « تتمثل فى اتجاهات الأفراد والجماعات وتفاعلهم مع بعضهم البعض ، ويترتب على هذا التفاعل أبرز ظاهرة اجتماعية فى العصر الحديث . ومن هنا فإن النفوذ الذى يملكه هؤلاء الذين يتحكمون فى وسائل الاتصال الجماهيرية لا حدود لها ، مما يساعد على تحقيق الأهداف السياسية والاجتماعية ، كما أنه لا ينبغى ترك هذا النفوذ جامحا بلا قيود أو مسئولية ، لأن عملية الاتصال تنطوى على التنشئة الاجتماعية والتطبيع »[2] .

فإذا كان الاتصال قوة حضارية ، فإنه يقوم كذلك على أساس العلم المكتسب صاحبه وعيا بوجود عمرانى أرق وأتم ، وهذا المعنى قد نبه عليه القرآن الكريم بمثل قوله تعالى :

﴿ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه ﴾

فإن « إعلام الله الخلق بتسخير ما فى السموات وما فى الأرض تحريض لهم على أن يسخروا هم ما فيهما من أجزاء الطبيعة التسخير الخاص بهم المناسب لظروفهم الباعثة ، وحاجاتهم المستدفعة ، وذلك يستدعى تحصيلهم للعلم الذى يدلهم على مسالك تحقيق هذا التسخير »[3] .

وعلى هذا الأساس فإن الأفراد يحملون من خلال الاتصال كثيرا من سمات تراثهم الاجتماعى والحضارى ، ولا يمكن أن يفهم « الاتصال فهما تاما إلا فى ضوء المبادئ والمعتقدات التى تقوم عليها الأديان ، وما استقر فى أذهان الناس من خلال عملية

---

(١) د. عبد العزيز شرف : المدخل إلى وسائل الإعلام ، ط ١٩٨٠

(٢) د . إبراهيم إمام : المرجع السابق ، ص ٢٣

(٣) د . محمد سعاد جلال : الإسلام والتجديد ، فى الهلال — يناير ١٩٨٠ ، ص ٤٥

التنشئة الاجتماعية التى يمر بها أفراد المجتمع ، وخاصة القيم والمبادئ والمعايير والسنن الاجتماعية السائدة فى المجتمع »(١) .

وهذا المعنى قد نبه على اعتبار حكم الله بكون الإنسان خليفة عنه فى عمارة الكون . ولاشك أن لتحقيق هذه الخلافة من الإنسان وجوها متعددة ، أظهرها إنشاء الموجودات الحضارية(٢) وفى مقدمتها وسائل الاتصال المختلفة التى أصبحت فى العالم الحديث موضوعا لعلم مستقل هو « علم الاتصال » الذى يبحث ظاهرة التأثير فى الناس بوسائل الاتصال المختلفة كالكلمة الشفهية المنطوقة ، والكلمة المدونة ، والكلمة المطبوعة ، والخطابة والرسائل والصحافة والإذاعة والتليفزيون والسينما وغيرها . ذلك أن الاتصال « كلمة عامة شاملة تعبر عن التفاعل الاجتماعى المباشر عن طريق الاتصال الطبيعى الشخصى والجمعى ، وعن طريق الاتصال الصناعى غير المباشر والذى تستخدم فيه الوسائل التكنولوجية العصرية كوسائل للاتصال »(٣) .

وهذا التفسير الحضارى لوسائل الاتصال ، يجعل منها صورا من العمران المتقدم مبنية على أساس من المعرفة المتقدمة ، أى أن هذه الموجودات الحضارية « يسبقها مادة من الثقافة والفكر توحى لأصحابها بإمكان أوضاع من الحياة أفضل تستدعى سعى الإنسان لتحصيلها — بما يحفز أصحاب هذا الوعى إلى صنع الموجودات الحضارية . فالثقافة والمزيد من الثقافة(٤) وكذلك « الاتصال ، والمزيد من الاتصال » أمر سابق على الحضارة وعلى التقدم فى وسائل الاتصال ذاتها ، ولكنه لا ينقطع بوجودها بل يزداد حجما وكيفا بوجودها .

وتأسيسا على ما تقدم فإن « الاتصال » كمفهوم أو مصطلح يشير إلى العلاقة التى تكون بين الناس داخل نسق اجتماعى معين يختلف من حيث الحجم ومن حيث نوع النشاط السائد فيه ، بمعنى أن هذا النسق قد يكون مجرد علاقة ثنائية نمطية بين شخصين ، أو بين جماعة صغيرة أو مجتمع محلى أو مجتمع قومى ، ويمكن أن يكون على مستوى العالم كله . ولكى تعبر تلك العلاقة عن مفهوم الاتصال ، فإنه من الضرورى أن ينقل داخل تلك العلاقة بعض الخبرات أو المشاعر أو الأحاسيس أو المعلومات

---

(١) د . إبراهيم إمام : المرجع السابق ، ص ٢٣
(٢) د . محمد سعاد جلال : المرجع السابق ، ص ٤٥
(٣) د . عبد العزيز شرف : المرجع السابق ، ص ٢٣
(٤) د . محمد سعاد جلال : المرجع السابق ، ص ٤٤

أو التوجيهات أو الأخبار أو غيرها[١] .

ومن أهم النظريات الاتصالية تلك النظرية التى تقوم على أساس من التفسير الحضارى للإعلام ، من أجل فهم طبيعته وأثره فى العلاقات الإنسانية ، والعلاقات الدولية ، وما يمكن أن يتمخض عنه هذا النشاط الهام من سعادة للبشرية أو تعاسة لها .

ومن أهم المفكرين الذين أسهموا فى هذه النظرية مارشال ماكلوهان[٢] Marshal Mac Luhan الذى قدم نظريته عن وسائل الاتصال بالجماهير ، من حيث هى أدوات تكنولوجية بصرف النظر عن المضمون الذى تحتويه .. وملخص هذه النظرية أن الناس يتأثرون تأثرا لا شعوريا بوسائل الاتصال ، ولا يلبث هذا التأثر أن يصبح السر الحقيقى الكامن وراء السلوك الإنسانى . فقد كان الإنسان يعيش خبرته الكلية المتكاملة الشاملة قبل ظهور اللغة الحديثة بحروفها الصوتية ، وبعد ظهورها تفجرت الانطباعات الكلية والمدركات المتكاملة للأشياء إلى أجزاء مجردة لا صلة لها بالواقع الموضوعى . ثم ما لبثت الطباعة أن اخترعت لتضيف إلى اللغة المكتوبة بعدا آخر يؤكد النظرة الجزئية والإدراك المتجزئ للأشياء . وفى إطار هذه البيئة الجديدة كان الفكر يتخذ شكل التسلسل أو التتابع ، فلم يكن غريبا أن يظهر مفهوم العجلة والآلة وخط الإنتاج المتتابع ، وكلها أفكار ميكانيكية تتمشى تماما مع وسيلة الطباعة بحروفها المرصوصة جنبا إلى جنب فى شكل أسطر محتوية على كلمات متتالية .

وهكذا انتقلت الحضارات من الحضارة السمعية إلى الحضارة الكتابية ، إلى الحضارة الطباعية ، ثم حضارات التلغراف والتليفون والسينما والإذاعة والتليفزيون ، حتى حضارة الآلية الذاتية Automation التى نعيشها اليوم . مع ملاحظة أن كل حضارة لاحقة تحتوى على الحضارة السابقة لها : فالكتابة تحتوى على الكلام ، والطباعة تحتوى على الكتابة ، والتلغراف يحتوى على الطباعة ، والإذاعة تحتوى على التليفون ، والتليفزيون يحتوى على السينما وهكذا ، وفى كل شكل اتصالى جديد تنشأ حضارة تتأثر ثقافيا وحضاريا بالوسيلة التكنولوجية المستخدمة .

خذ مثلا استخدام النقود فى اليابان : لقد غيرت هذه الوسيلة أسس المجتمع اليابانى ، وحطمت النظام الإقطاعى القائم على التبادل العينى ، ولم تلبث اليابان أن أخذت تتفاعل

---

(١) د . إبراهيم إمام : المرجع السابق ، ص ٢٤

(٢) المرجع نفسه ، ص ٦٣ ، Marshal mac Luhan, Understanding Media The Extension of Man (New York), 1966.

مع النظم العصرية فى الغرب بعد أن ظلت أكثر من قرنين من الزمان منطوية على نفسها ، ومنعزلة عن العالم[١] . وإن مثل هذه التغييرات النابعة من التأثير المباشر للقوة الجديدة لا تحتمل الموافقة الشعورية أو عدم الموافقة ، لأنها لا تكون إضافة عادية ، بل هى قوة تدفع البيئة إلى مرحلة جديدة شاءت ذلك أو لم تشأ . فالمستحدثات التكنولوجية تحدث فى المجتمعات ثورة عارمة ، تغير اللافات الاجتماعية تغيرا جذريا .

ويضرب ماكلوهان لذلك بعض الأمثلة فيقول : إن الطباعة هى التى أنشأت روح الفردية وروح القومية فى القرن السادس عشر فى أوروبا . فاختراع جوتنبرج حروفه المتحركة وتنضيدها المعروف فى أسطر مكونة من كلمات متتابعة ، كان له هذا التأثير . فالحضارة تشتق طابعها من وسيلة الاتصال الجماهيرية . وليس ذلك غريبًا ، فالمجتمع القائم على الإنتاج الزراعى لسلعة معينة كالقطن أو على الإنتاج الحيوانى كالبقر مثلا ، لا يلبث أن تكون حضارته متأثرة بالقطن أو البقر ، فتنشأ حضارة قطنية وهكذا . والرومانى الذى كان يعيش سيدا بين العبيد ويخالطهم ، ويسوسهم ، ويحيا معهم لا بد أن يصبح لا شعوريا متأثرا بهم ، ولن يستطيع أن يحمى نفسه من جو العبودية الذى يعيش فيه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه . وهكذا وسائل الاتصال بالجماهير ، فإذا كانت الطباعة قد أدت إلى الفردية والقومية ، فإن الإذاعة على العكس من ذلك قد أدت إلى التجمع والقبلية مرة أخرى على حد قول ماكلوهان .

وإذا كانت الطباعة قد أدت إلى تفجيرات فى المجتمعات فأصبحت فردية ومجزأة ، فإن الكهرباء قد فعلت العكس تماما . فالكهرباء ليست عامل تفجير وتجزىء ولكنها عامل تجميع والتئام . ونحن نعيش فى عالم أقرب إلى التكتل والتكامل ، مثله فى ذلك مثل الدائرة الكهربية سواء بسواء . وقد انتعش الإحساس الجمعى والشعور بالعالمية . وبفضل التليفزيون عادت الصورة الأولى الفطرية إلى تكاملها فأصبحنا الآن نشهد الكلى بصوته وشكله ونحس به بآذاننا وأعيننا وحواسنا جميعا . فهى عودة إلى ما قبل الطباعة والكتابة ، بل إلى ما قبل اللغة الصوتية بحروفها المجردة التى أخذت تبتعد عن المدركات الكلية والانطباعات المتكاملة .

ولكن أشد ما يلفت النظر فى نظرية ماكلوهان أنها تقسم وسائل الاتصال إلى وسائل باردة ووسائل ساخنة . ويقصد بالوسائل الباردة تلك التى تتطلب من المستقبل جهدا

(١) راجع أيضا : Embree, J. F. A. Japanese Village, Suye Mura London. Kegan Paul, 1940.

إيجابيا فى المشاركة والمعايشة والاندماج فيها ، أما الوسائل الساخنة فهى — فى رأيه — تلك الوسائل الجاهزة المحددة نهائيا ، فلا تحتاج من المشاهد أو المستمع إلى جهد يبذل أو مشاركة أو معايشة ذات بال . فالكتابة والتليفون وسائل باردة ، أما الطباعة والإذاعة والسينما فهى وسائل ساخنة .

وفى رأى ماكلوهان أن الصورة التليفزيونية بطبيعتها المجزأة ، حيث تنقل نحو ٣٠٠٠ نقطة فى الثانية الواحدة يتلقاها المستقبل باختصار وعلى بعدين فقط — لأن عدسة التليفزيون لا تصور البعد الثالث طبعا — فتجعل المشاهد يستقبل الصورة ليكملها بنفسه ويضيف إليها عن طريق المعايشة والمعاناة .. هذه الوسيلة الجديدة قد خلقت إحساسا وجدانيا فى مجتمع التليفزيون . وفى رأيه أيضا أن إضرابات العمال ومظاهرات الطلبة وتجمعات النساء فى هذه السنين الأخيرة ليست إلا تعبيرا عن المشاركة المطلوبة ، فالناس لا يقنعون فى عصر التليفزيون إلا بالمشاركة الإيجابية والالتزام ، ويرفضون أن يكونوا مجرد متفرجين سلبيين . ولا بد للأنظمة الجديدة أن تتيح لهم ذلك . إن الناس فى هذا العصر يرفضون أن تكون لهم مجرد أدوار شكلية فى الحياة ، وإنما يريدون أن يلعبوا أدوارا فعالة .. وكل ذلك نتيجة الأثر المباشر لوسائل الاتصال الإلكترونية ، وخاصة التليفزيون .

وتمثل الآلية الذاتية Automation فى نظره قمة التغيير ، فالمعلومات التى تحتويها هذه الأجهزة معلومات مدروسة فى برامج ، ومنظمة وفق خطط معينة . وهى لا تشكل خطوط إنتاج وإنها تمثل تجمعات كلية ، تجرى بينها علاقات متجمعة بشكل دوائر متكاملة . وهذه تتمشى تماما مع مفهوم الدوائر الكهربية ، ومع المدركات الكلية ، ومع مفهوم المشاركة الكاملة ، فهى امتداد لنا ولعصرنا الذى نعيش فيه . فليست وسائل الاتصال فى نظر ماكلوهان سوى امتدادات لنا ، امتدادات لأجسامنا فى البداية ثم امتدادات لأعصابنا فى النهاية ، ولذلك تؤثر فينا وكأنها جزء منا ونحن جزء منها .

وفى الطبعات التالية من كتاب ماكلوهان « فهم الوسائل : امتدادت للإنسان .. » رد المؤلف على الانتقادات القائلة بأن ما أسماه بالوسائل الباردة كان ينبغى أن تسمى بالوسائل الساخنة ، وما أسماه بالوسائل الساخنة كان ينبغى أن تكون الباردة ، وأرجع ذلك إلى استخدامات اللغة وتغيرها ، وخاصة بالنسبة للغة العامية . والحقيقة أن المؤلف يسخر طول الوقت من الأدبيين الذين يفكرون دائما بمفهوم الكلمة المكتوبة أو الكلمة المطبوعة ، ولا يستطيعون فهم اللغة الحديثة .. لغة التليفزيون ، ولغة الآلية الذاتية مع أنها عوْد إلى

بدء ، عود إلى المدركات الكاملة ، والانطباعات الغنية التى نحسها ونلمسها ونراها ونسمعها ونعيشها ونشارك فيها . وهذه هى الحياة كما يريدها الوجوديون من أمثال سارتر Jean Paul Sartre وبيكيت Samuel Beckett وميللر Arthur Miller . فالإنسان لا بد أن يعيش هذا العصر بجماع إنسانيته ، ولا حياة مجزأة منقسمة على نفسها . وهذا كما يرى د. إمام موضوع العبث ، حيث نشاهد فى مسرح بيكيت مثلا أولئك المهرجين الذين لا يمكن أن نفهم مغزاهم إلا على أساس النظرة الكلية الشاملة للوجود الحقيقى فى الحياة . وربما كان شعر اليوت T. S. Eliot وخاصة فى الأرض الجدباء Waste Land ومسرحيات كامو Camus ترديدًا لهذه الأفكار .

وقد شهدت أوروبا نهضة كبيرة فى دراسات الاتصال الجماهيرى ، وظهرت مدارس فلسفية ونظريات علمية فى هذا المجال . ففى فرنسا مثلا شارك كل من جاك كايزر Jacques Kayser وجاك ليوتيه Jacques Leaute فى دراسات حرية الصحافة والصحافة والدولة ، وتحليل مضمون الإعلام . وفى إيطاليا عنى فاتوريللو F. Fatorello بدراسة العملية الاتصالية كقوة اجتماعية . ومن الدول الاشتراكية ساهم زاسورسكى السوفيتى ولافيل Lafel البولندى فى دراسات هامة حول إعداد المشتغلين بالإعلام والاتصال الجماهيرى .

غير أن المدرسة الألمانية كانت أكثر هذه المدارس عمقا ووضوحا فى دراستها لظاهرة الاتصال الجماهيرى . ومن المفيد أن نلخص نظرية ميونيخ كما عرضها مؤسسها اسفيروس[1] B. M. Aswerus . فيرى صاحب هذه النظرية أن المهم ليس هو دراسة وسائل الاتصال ، وهى مظاهر العملية الاتصالية وأدواتها كالإذاعة والتليفزيون والسينما ، وإنما المهم حقا هو دراسة الظاهرة الاجتماعية نفسها ، والتفاعل الذى يجرى بين الناس . وهنا تصبح الدراسة موضوعا إنسانيا بالمعنى العلمى للكلمة . فلقد كان الاتصال ولا يزال حقيقة اجتماعية واقعة قبل اختراع الطباعة والكتابة نفسها . فسواء كان التعبير الظاهرى كلاما أو أغانى أو مسرحيات وقرع طبول أو رسوم أو زخارف أو صور أو إذاعات أو أفلام ، فإن المهم هو الحقيقة الكامنة وراء هذه المظاهر ، ألا وهى عملية الاتصال الجماهيرى التى تربط أجزاء الجماعة وتجعلها وحدة متكاملة .

---

(١) Aswerus B. M. The General Theory of "Zeitung swissinens-chaft 2" According to the Munich School. Strusbourg Lectures (1959).

د . إبراهيم إمام : الإعلام والاتصال بالجماهير ، ص ٢٨

وبفضل الاتصال يكون المجتمع فى حالة تفاعل مستمر ، بمعنى التجدد والانبعاث والحركة .

ويحمل الأفراد ، من خلال الاتصال ، كثيرا من سمات تراثهم الاجتماعى والحضارى ، ولا يمكن أن يفهم الاتصال فهما تاما إلا فى ضوء المبادئ والمعتقدات التى تقوم عليها الأديان ، وما استقر فى أذهان الناس من خلال عملية التنشئة الاجتماعية التى يمر بها أفراد المجتمع ، وخاصة القيم والمبادئ والمعايير والسنن الاجتماعية السائدة فى المجتمع .

ولذلك ينبغى أن يبنى الإعلام الإسلامى على أسسه الحضارية المستمدة من القرآن والسنة .

وإذا كان مقياس المدنية الغربية هو التفوق المادى ، ومتوسط دخل الفرد سنويا . وقياس المدنية فى الدول الشيوعية يرتبط بالمذهب وعلاقات الإنتاج ومراحل التطور من المشاعية حيث الصيد إلى الرق ، والإقطاع حيث الزراعة ، إلى الرأسمالية حيث الصناعة ، وأخيرا يصل إلى أعلى مراحله فى الاشتراكية الماركسية ، فإن مقياس الحضارة الإسلامية هو تقوى الله وطاعته ، دون احتقار للمادة لأنها جزء من كيان الإنسان وبنية وجوده ، وهى موضوع الابتلاء وحقل الخلافة ﴿ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ﴾ .

والأمة الإسلامية لا تعتبر متحضرة إذا ما كانت فقيرة أو ذليلة ، وهى أيضا لا تعتبر متحضرة إذا تخلت عن منهج الإسلام وقيمه وأخلاقه . وأى مجتمع يؤمن بآلهة غير الله سواء أكانت هذه الآلهة أصناما أم طواغيت ، شفعاء أم أنبياء يزعمون ، فهو مجتمع رجعى مقيت . فإذا ما ألهنا دارون وفرويد وماركس وأينشتين ، أو الطواغيت من أمثال لينين وستالين وهتلر وموسولينى وغيرهم ، فإن ذلك شرك وبغى وتدهور .

والحضارة الإسلامية حضارة وسطى تشتمل على كل ما يسعد الإنسان من الجوانب المادية والفكرية والروحية دون إفراط أو تفريط . فلا هى ترد العالم إلى المادة وحدها كما يفعل الماركسيون والماديون من أمثال فورباخ ، ولا تردها إلى الروحانيات فقط كما يفعل بركلى ، ولا هى مسرفة فى الحتمية دون إرادة أو الحرية دون ضوابط كما تذهب الوجودية . بل هى كما يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى إحدى رسائله إلى أهل القصيم ، « فالفرقة الناجية وسط فى باب أفعاله تعالى بين القدرية والجبرية وهم

وسط فى باب وعيد الله بين المرجئة والمعيدية ، وهم وسط فى باب الإيمان والدين بين الحرورية والمعتزلة وبين المرجئة والجهمية ، وهم وسط فى باب أصحاب رسول الله بين الروافض والخوارج » .

وإذا ترك العقل الإنسانى وشأنه فإنه ينتقل من النقيض إلى النقيض كالذى يتخبطه الشيطان . والتطرف قاعدة مطردة فى تطور الفكر الإنسانى ، والاعتدال شيء نادر . ولقد فشل الفلاسفة فى إيجاد خط معتدل تسير عليه الإنسانية على مدى الأجيال فتصوروا أن الحركة الإنسانية تسير كلها فى هذه الذبذبات ، ومن ثم كانت فلسفة التناقض هى الحق المطلق عند الشيوعيين وهى أصل الحركة ، فالحقيقة عندهم لا تظهر كاملة إلا إذا مرت فى نقيضها[1] .

إن الاستعمار الذى وفد على العالمين العربى والإسلامى ثم رحل عنهما ، وطالت مدة إقامته أو قصرت فى بعض الدول والأمم والشعوب ، لم يكن وجوده عبثا فى بلاد الإسلام . إنه أدى مهمته كاملة .. قام بواجبه خير قيام .. نفذ كل مخططاته كما أرادها ورسمها .

لقد عمد الاستعمار خلال إقامته بيننا إلى تخريب العالم الإسلامى تخريبا كثيرا وكبيرا .. شكك فى الدين ، زعزع النفوس المؤمنة المطمئنة الواثقة بربها وإسلامها ، طعن فى العقيدة والأخلاق والآداب والتراث والنظم والشرائع الإسلامية ، نشر الموبقات فى العالم الإسلامى مما أدى إلى إفساد الأخلاق وانهيار القيم والمثل التى اعتز بها المسلمون عصورا طوالا ، نقل العرب والمسلمين من حياة الإسلام وحضارته إلى حياة الغرب ومدنيته ، وبذلك صار الإسلام غريبا فى بلاده ، دينا بلا دولة ولا مجتمع ولا دعاة ولا حملة له . إلى ما نهبه الغرب من ثروات المسلمين الفكرية والحضارية والاقتصادية .

وبذلك كله أصبحت حضارة الإسلام غريبة على المسلمين المعاصرين ، لأنهم لم يعيشوا فى ظلالها ولم يروا النموذج الفعلى الإنسانى لها .

هذا كله إلى ما صنعه الاستعمار من نشر ثقافاته وتخريج طبقات من المتعلمين تؤمن به أكثر مما تؤمن بنفسها وبلادها وتراثها وحضارتها .

وتبع ذلك ضعف نفوذ علماء الإسلام ومحاربتهم فى بلادهم ، وعجزهم عن

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٤٥

الوقوف موقف الصامد المدافع عن الشريعة ، لأن وسائل الإعلام كلها أصبحت ضدهم ، والشعوب الإسلامية جندت لمحاربتهم بأيدى أعوان المستعمرين وأذنابهم . وأدى ذلك كله إلى عدم استطاعة العقل الإسلامى المعاصر تقديم الثقافة الإسلامية فى ثوبها الصحيح الصادق العميق للشباب ، وإلى انتشار مبادئ الغرب ومذاهبه الهدامة بينهم ، وإلى كل ما يعيش فيه المسلمون اليوم من علل وأمراض وضعف وتأخر .

ولقد أصبح الذين يفاخرون بحضارة الإسلام غرباء عن الناس ، وكثر المتهجمون على شرائع الإسلام وحدوده ونظمه وتعاليمه ، فما السبيل إلى علاج ذلك ؟

إن استفحال الخطب ، واستشراء الداء وعزة الدواء .. لتوجب على المسلمين أن يعودوا إلى الإسلام ، وأن يعملوا به وأن يطبقوه وأن يتمسكوا به .. لأن ذلك هو أولا طريق النجاة ، وهو ثانيا الوسيلة لبناء حضارة إسلامية جديدة . وهو ثالثا السبيل إلى بعث القوة الذاتية فى نفوس المسلمين .. وهذه القوة هى التى تمكنهم من مقاومة الصهيونية والاستعمار وكل المبادئ الهدامة التى تنتشر اليوم فى صفوف المسلمين وشبابهم ، وهو رابعا الخطوة الأساسية اللازمة لبناء كيان إسلامى عظيم ومجد حضارى للمسلمين المعاصرين .. ولدعم مكانة العرب والشرق الإسلامى فى العالم من جديد .

لا سبيل أمامنا إلا العودة إلى الدين ، والتزامه ، والتمسك به ، والرجوع إليه ، والحرص عليه ، وتنفيذ كل ما جاء عن الله ، فذلك هو العروة الوثقى ، والصراط المستقيم ، والطريق السوى ..

ولماذا يعيب المسلمون المعاصرون حضارة أجدادهم المسلمين الأول ؟

إنهم لا يعيبونها عن فهم ودراسة وثقافة واسعة بتاريخهم .

بل إن ثقافة الغرب وأفكاره وتعاليمه هى التى تنطق من أفواههم ، وتصيح على ألسنتهم ، وتقول كذبا وتفترى على الله والدين والإسلام والحق باطلا .

هبوا أننا خيرنا بين أن نعيش فى حضارة إسلامية ، أو أن نعيش فى ظلال حضارة غربية ، حضارة القوم الذين عاشوا بالأمس فى بلادنا مستعمرين متكبرين متجبرين ، واستذلوا كبرياءنا وتاريخنا ، فماذا نختار ؟

تعالوا أيها المفكرون لنحكم بين الحضارتين .. ولنوازن بين المدنيتين ، ولنقول كلمة الحق فى الأمر .

لا جدال فى أن حضارة الإسلام تقوم أو ترتكز على التوحيد والإيمان والإسلام والطاعة لله رب العالمين ، وتلك حقيقة لا يمترى فيها مكابر .

أما حضارة الغرب فهى حضارة الإلحاد والكفر والشرك والزندقة والعقلانية والعلمانية ، حضارة المادية والوجودية والصهيونية ، وما إلى ذلك كله من مذاهب الإفك والضلال .

حضارة الإسلام تقوم على مبادئ منزلة من السماء ، أما حضارة الغرب فليست من المسيحية ولا اليهودية فى شىء ، إنما هى أخلاق مستمدة من الأرض والمصلحة ، ومن نظريات كافرة جاحدة مثل — الغاية تبرر الوسيلة — ومثل — القوة فوق الحق — إلى ما تتسم به فى أعماقها من أثرة وأنانية وحب صارخ للذات .. إنها مزيج من المكيافيلية والوجودية والمادية والصهيونية ، وغير ذلك من مختلف مذاهب الضلال .

إن حضارة الإسلام حضارة الطمأنينة النفسية والسعادة الروحية . أما حضارة الغرب فهى حضارة القلق والحيرة والانتحار والخبل العقلى ، حضارة السادية ، وحضارة الهيبية ، وحضارة الخارجين على كل عقل ومنطق وفكر .

نسبة الجرائم فى الغرب كبيرة وفى بلاد الإسلام قليلة ، لأن الدين يملأ الفراغ الروحى فى نفوس المسلمين مع ما هم عليه من بعد عن الدين ، أما الإسلام فيضمن السلام النفسى للمسلم ، وهو أعظم الشرائع صلاحية للتطبيق(١) .

حضارة الإسلام تجمع بين المبدأ والتطبيق ، أما حضارة الغرب فهى حضارة الدعاية والإعلان والكلام المنمق الذى يقال ، سواء صلح للتطبيق أم لا ، وسواء التزم دعاته به أم لا .

حضارة الإسلام حضارة الصدق والحقيقة والوضوح والصراحة ، أما حضارة الغرب فمبنية على الكذب والدعاية والإعلان لا غير ، وهى حضارة نفاق ومظاهر ، وحضارة أزياء وقوانين تقيد الإنسان وتحجر على حريته ولا يستفيد منها شيئا .

حضارة الإسلام حضارة الشرف والعفة والأنساب المصانة .. أما حضارة الغرب فهى حضارة الجسد والشهوات المباعة والأنساب المجهولة ، وهى العرى ، وهى اللذة الجنسية ، وهى الفتك بكل فضائل الإنسان المثالى ، وهى الموبقات كل الموبقات ما ظهر منها وما بطن .

حضارة الإسلام حضارة النظافة والطهر للفكر والروح والنفس والخلق والبدن ..

---

(١) فرنسا على سبيل المثال — تنفق ٤٧٪ من ميزانيتها الصحية على مكافحة الأمراض الناتجة عن الخمور كما نشرت ذلك جريدة « لوموند الفرنسية » .

أما حضارة الغرب فلا تمت إلى ذلك كله بسبب . إنها حضارة الربا ، حضارة الخمر ، حضارة العبث ، حضارة اللصوصية والسرقة والنهب ، حضارة الصهيونية والصهيونيين ، حضارة التدخين والأمراض الجنسية والأشلاء الممزقة للفضيلة ، حضارة حانات الليل وموائد القمار وعربدة المعربدين وسكرهم ، حضارة الجنس والشذوذ وكل ما يقشعر البدن من تصوره وذكره ، حضارة المصايف العابثة التى تدين بالعرى وتطبقه وتنفذه على أوسع نطاق .

حضارة الإسلام هى حضارة المسلم الكامل ، إنسان الأرض العظيم المتطلع دائما إلى نور السماء ، حضارة تقوم على المسئولية الكاملة ، وعلى الأمانة الحقيقية ، وعلى الصلابة فى الحق ، وعلى إيثار الخير والعمل به فى كل مجال ومكان ، هى حضارة السلام والأمان والتعاون بين الناس ، والحب المتبادل بين الغنى والفقير ، ووضع المال فى خدمة المجتمع .

أما حضارة الغرب فهى حضارة الاستعمار والحروب ، وسلب ثروات الأمم والشعوب ، وحضارة الصراع بين الطبقات والمجتمعات والناس والشعوب ، وحضارة الخلافات الدائمة بين الناس ، وحضارة المصارعة وصراع البقر وغير ذلك مما لا يخطر ببال .

حضارة الإسلام حضارة إنسانية ، الشعوب كلها تعيش فى ظلها أسرة واحدة متساوية فى الحقوق والواجبات ، والقانون الإسلامى هو الذى يدين له الناس جميعا بالطاعة ، أما حضارة الغرب فهى حضارة إنسانية قوامها الظلم والعدوان والباطل والشر وحب النفس وحدها .

حضارة الإسلام حضارة الروح والنور ، وحضارة الغرب حضارة المادة والظلام .

وحضارة الإسلام هى دعوة المساواة والإخاء فى جميع الالتزامات ، أما حضارة الغرب فهى حضارة المجتمعات الموزعة الأهواء والمشارب والنزعات والأفكار ، حضارة الطبقات المتفرقة المتشاحنة المتضاربة المتخالفة المتطاحنة على كل شىء ، وعلى لا شىء أيضا فى بعض الأحايين .

حضارة الإسلام حضارة الجامع والجامعة ، وحضارة الغرب حضارة السوق والسماسرة وحلقات المزايدة والمضاربة ، وحضارة رأس المال الذى لا يتورع عن كل الجرائم فى سبيل مصلحته ، وحضارة المجتمعات المادية التى تخرج على كل فطرة وعقل وقانون ونظام وعرف .

المنهج فى حضارة الإسلام يساوى الحقيقة ، والمناهج الغربية تعمل على تكوين مجتمعات لتعيش ، أما المنهج الإسلامى فيعمل على تكوين أمم لتحيا وتخلد وتصبح خليفة لله فى الأرض .

والقرآن الكريم هو دستور المسلمين وقانون حياتهم ووجودهم وحضارتهم ، أما الغرب فليس لحضارته قانون إلا القوانين الوضعية ، وهى لا تبلغ مبلغ الشريعة ، ولا تؤدى ما تؤديه الشريعة من أهداف وغايات .

حضارة الإسلام انتصرت بالحق وسادت وعملت للإنسانية ، أما حضارة الغرب فقد انتصرت بالباطل وسادت بالزور وعملت لنفسها وحدها .

حضارة الإسلام تفرض السلام وتدعو إليه ، وحضارة الغرب تؤمن بالحرب وتحبذها وتسعى لها ، وتفتن فى ابتكار آلاتها .

فروق بين الحضارتين لا حد لها ، ولا يمكن أن تكون معها موازنة ، ومن الذى يوازن بين السماء والأرض ، وبين النور والظلام ، وبين الحق والباطل ؟

الأساس الأيديولوجى لحضارة الإسلام هو العقيدة الإسلامية ، وهو القرآن الكريم ، وهو أساس — لو تعلمون — عظيم .

التزام الحق فى كل شيء والعمل به فى كل موطن ، والإيمان بأن الحق هو الله وهو الإسلام وهو القرآن وهو كل خطير وجليل من مثل الحياة وقيمها . والحق دائم وباق وخالد ، وكذلك الإسلام دائم وباق وخالد ما بقيت الحياة .

سؤال خطير والجواب عليه سهل بسيط .

إن حضارة الغرب انتصرت بالإسلام الذى عرفته فى الأندلس وصقلية وجنوب إيطاليا وقبرص ، يوم كان المسلمون سادة هذه البلاد ، وعرفته فى المغرب والمشرق الإسلاميين فى ظلال الحروب الصليبية ، وفى ظلال رحلات التجارة والسياحة فى بلاد المسلمين .

وحضارة الغرب قد سادت حين غاب المسلمون عن إدراك حقيقتهم وذاتهم وشريعتهم ، ونبذوا كل ذلك وراءهم ظهريا ، وأخلدوا إلى النوم العميق .

وحضارة الغرب قد بقيت فى ظل ضعف المسلمين وتركهم لمقوماتهم الإسلامية الحقيقية ، وذوبانهم فى الغرب وأفكاره ومثله وثقافته .

واليوم الذى يستعيد فيه المسلمون الإيمان بدينهم وتاريخهم وحضارتهم هو اليوم الذى سوف تركع حضارة الغرب ذليلة محطمة عاجزة عن السعى والحياة .

والغرب يدرك هذه الحقيقة ، وفلسفته ومنطلقه فى العمل هو أن يقول للشرق ، أو أن يقول للمسلم ما يقوله الشيطان له : نم ، نم ، نم ، إن عليك ليلا طويلا .

ولو استيقظ المسلمون وفتحوا عيونهم على حقيقة ذاتهم ، وعلموا أن الإسلام وحضارته هى ملاذهم الأوحد ، ولا ملاذ لهم سواه ، لو أنهم قد فعلوا ذلك لتغير حينئذ وجه الحياة .

وهذه الحضارة القائمة اليوم فى الغرب المتمثلة فى أضخم مظاهرها المادية ، من صواريخ وقنابل ذرية وهيدروجينية وفلكية ، ومركبات قمرية ، وغيرها ، لم يكن عجبا أن تقوم فى غير موطن الحضارات العالمية من قبل .

فإذا كانت الحضارة الغربية هى التى خلفت الحضارة الإسلامية وهى التى ورثتها ، فإن حضارة الإسلام إنما كانت منطقتها هى الشرق الأوسط ، بيئة الحضارات ، ومجتمع المدنيات العالمية القديمة ، فلقد نشأ الإسلام فى بيئة متصلة بمراكز الحضارة البشرية اتصالا وثيقا .. الرومية والفارسية والمصرية ، وفى بلاد الشرق الأوسط قامت كثير من الحضارات .. السبئية ، والآشورية والبابلية والفينيقية والفرعونية وغيرها ، وكانت كذلك على صلة كبيرة بالحضارة الهندية والصينية كما كانت على صلة بالحضارات الكسروية والقيصرية .

منطقة حية حافلة بمظاهر التطور الكبير الذى حققه التقاء الحضارات فيها ، وقد ازدهر الإسلام فى نفس المنطقة التى نشأت فيها أصول جميع الحضارات الكبرى ، وهى الشرق الأدنى الذى شاهد ثورة العصر الحجرى الحديث ، وعاين قيام أول حياة زراعية فى تاريخ الإنسان ، كما عاين تأسيس المدن ، وحكم الأسر الملكية الأولى ، وتصنيف الأدبيات . وإذا كانت المواليد الحضارية فى المنطقة قد انقطعت ، فإنها لم تفقد طاقتها الإبداعية التى ظهرت فى أحلى مظاهرها فى انبعاث الحضارة الإسلامية والإسلام .. أجل رسالة حضارية هزت العالم هزا عنيفا ، وجاء بها نبى عربى من مكة المكرمة الموطن الأول لهذه العقيدة السماوية الجليلة ، ذات الطابع الحضارى الإنسانى . ويتجنى كثير من الكتاب والمؤرخين الغربيين على الإسلام فيصفونه بكراهيته للمدنية عامة ، وبمناهضته للفنون ، وبقيامه فى بيئة ثقافية ضحلة ، ومن بين هؤلاء كروبر .... ويرد على ذلك مؤرخ غربى آخر هو توينبى — الذى أنصف الإسلام فى كتاباته إلى حد ما[1]

---

(١) راجع حضارة الإسلام فى دراسة : توينبى للتاريخ لفؤاد محمد شبل .

بأن العراق وقت ظهور الإسلام كان دعامة الإمبراطورية الساسانية سياسيا وثقافيا ، وأن سوريا ومصر كانتا كذلك العمود الفقرى للإمبراطورية البيزنطية ، وأن هذه البلدان الثلاثة سوريا ومصر والعراق ــ تجلت طاقاتها الحضارية على يد الإسلام حينما أعاد توحيدها سياسيا لأول مرة منذ أن تفككت الإمبراطورية الفارسية قبل ذلك بألف سنة على وجه التقريب . ففى ظلال الأمويين والعباسيين استعادت منطقة جنوب آسيا ومصر مركزيهما باعتبارهما قلب العالم الإسلامى النابض مثلما كانتا قبل الإسلام طوال ثلاثة آلاف سنة[١] .

ولم تفقد هذه المنطقة على أية حال قيمتها الحضارية لقيام الحضارة الغربية فى بيئة جديدة بعيدة عنها ، فإن بيئة الحضارة الغربية إنما كانت امتدادا لبيئة الحضارة الإسلامية من ناحية ، وكانت هذه الحضارة الغربية كذلك منبعثة بتأثير الحضارة الإسلامية وبفضلها من ناحية ثانية ، والإسلام وهو الذى منح الحضارة الإسلامية كل مقوماتها قد أعطى الحضارة الغربية قدرتها على القيام والانبعاث من ناحية ثالثة .

فلقد قام واستيقظ الفكر الأوربى من سباته الذى دام نحو عشرة قرون أو يزيد على صوت قدوم العلوم والآداب والفنون الإسلامية[٢] . وكل موجة علم أو معرفة قدمت لأوربا كان مصدرها البلدان الإسلامية ، وفى هذا ما يفسر للقارئ ما ذكرناه له من أن بيئة الحضارة الغربية هى امتداد لبيئة الحضارة الإسلامية لا غير .

والغرب أو المسلمون على أدق تعبير كانوا هم أعظم بناة للحضارة فى التاريخ البشرى كافة ، ولولا جهودهم الحضارية الرفيعة ما قامت الحضارة الغربية ، وهم على أية حال لم ينضب معين إبداعهم الحضارى ، فإن منطقتهم لم ولن تخمد فيها روح الإبداع أبدا . إنها منطقة التاريخ والثقافة والفكر ، وهى المنطقة التى شهدت جميع أحداث التاريخ الكبرى ، وجميع مظاهر التحولات الفاصلة ، فى حياة العالم والتى لم ترقد حياتها الحضارية فى يوم من الأيام ، وهى التى سوف تشهد بإذن الله تحولا حضاريا جديدا لن يسكن صداه ولن يعرف أحد مداه ، فى مستقبل الأيام .

كان المسلمون هم الذين ابتدعوا طريقة البحث العلمى الحق القائم على التجربة[٣] ، وكانت واقعيتهم العملية الشديدة تدفعهم دفعا ثابتا إلى القيام بتجارب واختبارات شخصية

---

(١) راجع للمؤلفين الإسلام وحضارة المستقبل ، مكتبة مصر ــ القاهرة .

(٢) شمس العرب تسطع على الغرب ، للمستشرقة الألمانية هونكة ، ص ٤٥١

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٠١

عديدة ، فكانوا يرون إجراء مئات التجارب والتحقيقات للهدف العلمى الذى يعملون له ، دون أن يسعوا إلى مكسب مادى[١] .

وكان نقلهم للأرقام الهندية[٢] عام ١٥٤ هـ — ٧٧٣ م فى عهد المنصور العباسى وعلى يد إبراهيم الفزارى من أهم مظاهر التحولات الفكرية العالمية ، كما كانت ترجمتهم للثقافات الفارسية واليونانية والهندية من أجل مآثرهم على الحياة البشرية والحضارية العالمية .

ولم يأخذ العرب المسلمون العلوم التى دونوها عن طريق الاقتباس ، وكذلك لم يأخذوا الآلات العلمية ومواد العلم الغريب من الأمم القديمة دون مناقشة أو تحقيق ، فلقد أدهشوا العالم بالحرية الموضوعية ، والشجاعة العلمية ، اللتين استقبلوا بهما نتائج السالفين وأقوالهم ليشبعوها بحثا ونقدا وتفنيدا وتحقيقا للأخطاء ودحضها ، وعملا دائبا فى الحقل الجديد لم يدخل الوجل إلى قلوبهم اسم كبير فيرهبهم . ولعل أبلغ برهان على هذه الصفة ما كانوا يؤمنون به من رفض لكل الآراء المنقولة عن السالفين باسم العلم ما لم تثبت لهم أنفسهم صحتها عن طريق التجارب العلمية الصحيحة . وقد ألفوا كتبا كثيرة فى نقد آراء أرسطو وفى نقد آراء بطليموس ، وبحسبنا ما ذكره الجاحظ أبو عثمان من نقد لكتاب — الحيوان — لأرسطو وذلك فى الكتاب العظيم الذى ألفه عمرو ابن بحر بعنوان « الحيوان » .

وقد امتازت المؤلفات العربية على ألوانها المختلفة العديدة بروحها العلمى الأصيل ، الذى عبر عن موهبة منهجية نظامية رائعة ، وعبقرية خلاقة ، وكانت تجاهد دائما من أجل توضيح ما استغلق ، أو تفسير ما غمض ، وتمعن فى الوصف الدقيق لكل العوارض وأشكالها وتطورها[٣] .

كل شىء واضح ، الحقائق واضحة قريبة للأفهام ، لمن شاء أن يثبتها أو يعارضها بالتجربة والخبرة والمشاهدة ، والجميع يعتزون بالمسئولية العلمية ويقدرونها حق قدرها ، ويعترفون مع ذلك بعجائب الطبيعة ماداموا يجدون تفسيرا لذلك ، وهم يستبعدون من العجائب ما لا يتفق مع العقل ، ويحلون محلها التفسيرات القائمة على

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ١٤٣ ، ١٤٤

(٢) كان ابتكار الهنود لها نحو عام ٣٠٠ ق . م — ما عدا الصفر — فقد أضافوه إليها عام ٤٠٠ م ، وعرفت الأرقام الهندية خارج الهند عام ٦٢٢ م أى عام وفاة الرسول .

(٣) شمس العرب تسطع على الغرب لِهونكة — ص ٢٨٥ ، ٢٨٦

المسببات والنتائج والتجارب .. فكل ما كتبوه كان ثمرة بحوثهم الخاصة .

وكانت الثقافة العربية الإسلامية هى الثقافة الوحيدة التى استظل العالم بظلها نحو عشرة قرون كاملة ، ومن أعلامها الجاحظ — ٢٥٥ هـ ، وثابت بن قرة ٢٢١ — ٢٨٨ هـ ، والبنانى ٣١٧ هـ ، ومحمد بن إبراهيم الفزارى ٨٠٠ م ، وأبوه إبراهيم ٧٩٦ م ، وحنين بن إسحاق ٨١٠ — ٨٧٣ م ، وإسحاق بن حنين ٢٩٦ هـ — ٩١١ م ، وعباس بن فرناس ٨١١ م ، وابن يونس ١٠٠٩ م ، وابن الهيثم ٩٦٥ — ١٠٣٩ ، والبوزجانى ٩٤٠ — ٩٩٨ م ، ومن مثل الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد ونصير الدين الطوسى ١٢٠١ — ١٢٧٤ م ، وابن البيطار وابن زهر وابن باجة وابن طفيل وسواهم . وكانت الثقافة العربية تستحوذ على اهتمام كل إنسان فى الشرق والغرب على حد سواء ، حتى لقد صاح بترارك الشاعر الإيطالى فى القرن الرابع عشر الميلادى متألما قائلا : لقد قدر علينا ألا نؤلف بعد العرب . وصاح كذلك بطريك قرطبة فى مطلع القرن السادس عشر الميلادى يقول : وا أسفاه إن كل الشبان المسيحيين الذين يريدون إظهار أنفسهم نجدهم لا يعرفون إلا لغة العرب وآدابهم . حتى لقد كان قهر الإسبان العسكرى للعرب غير منتقص من إعجابهم الفكرى بهم قيد شعرة .

واليوم عندما نجد الثراء عند الناس يقاس بمدى ما يملكون من سيارات فارهة مثلا ، نجد أن المسلمين فى عهد حضارتهم كان الثراء عندهم يقاس بمدى ما يقتنون من كتب أو مخطوطات .

ففى عام ٨٩١ م كان فى بغداد وحدها مائة دار كتب عامة .

ولا ننسى مكتبة العزيز الفاطمى وكانت تحتوى على أكثر من مليون ونصف من المجلدات المخطوطة ، وكان فى مكتبة الوزير المهلبى ١١٧ ألف مجلد ، وفى مكتبة الصاحب بن عباد ٢٠٦ ألف مجلد مخطوط . وكانت ميزانية مكتبة المدرسة النظامية فى بغداد المخصصة لشراء الكتب تبلغ مليونا ونصفا من الفرنكات الذهبية ، وكان قيام بيت الحكمة فى بغداد عام ٨٣٠ م حدثا من أهم الأحداث الثقافية العالمية الحضارية آنذاك .

وكان سكان إسبانيا فى عهد قمة الحضارة الإسلامية فى ربوعها عام ٩٥٠ م ، يقدرون بثلاثين مليونا من الأنفس . وإلى غير ذلك من مظاهر النهضة الثقافية التى كان عليها المجتمع الإسلامى الذى قام على أصول رفيعة من الثقافة والمعرفة والبحث والعلم .

ولقد انتقل العلم الإسلامى من مراكز الحضارة والثقافة العربية فى إسبانيا وصقلية

وجنوبى إيطاليا ، ومن الشرق العربى نفسه إلى أوربا ، فأحدث ذلك هزة جديدة فى مجتمعات الغرب مما جعلها تستعد لحمل مواريث الثقافة والعلوم العربية ، وتستعد كذلك لإنشاء حضارة جديدة فى بلادها . وكان معنى ذلك أن أوروبا استعارت الحضارة الإسلامية والثقافية العربية استعارة تامة لتكسو نفسها بحلل شرقية زاهية لم تكن من صنع يديها بحال من الأحوال .

وكان هناك طائفة من المثقفين الغربيين تعلموا فى جامعات العرب فى إسبانيا وفى غيرها تأثروا بطابع الثقافة العربية وبالمنهج العلمى الإسلامى تأثرا كاملا ، وكان فى مقدمة هؤلاء الإمبراطور الصقلى النورماندى فردريك الثانى الذى كان حلقة الاتصال ، وفى بلاطه فى صقلية التقى الفكر الغربى بالفكر العربى . وقد توفى فردريك الثانى عام ١٢٥٠ م ــ ٦٤٨ هـ ، وكان فردريك يسلك فى البحث العلمى كل مناهج العلماء المسلمين ، وكانت دولته تقوم على جهود العلماء والباحثين المسلمين فى شتى مجالات العلوم والحياة . وكان هو نفسه عالما تلقى علوم الإسلام ودرسها وأحاط بها وكان يقول : نحن نتتبع أرسطو حيث يجب أن نتتبعه ، ولكن فى حالات كثيرة ، وكما علمتنا الخبرة يبدو وقد بعد عن الحقيقة ، أن اليقين لا يصل إليه الإنسان بالسماع فحسب .

وهذا هو روح منهج العلماء المسلمين أنفسهم اقتبسه فردريك الثانى منهم ..

ويقول فردريك الثانى أيضا : واجب علم الطبيعة لا يقتصر على جمع المعلومات على السالفين ، بل هو تعليل أسباب الظواهر الطبيعية .

وذلك الكلام يمثل روح العلماء المسلمين أيضا تمام التمثيل .

لقد عبرت الثقافة الإسلامية البحر الأبيض المتوسط إلى أوربا ، فكان لذلك بدء نهضتها وحضارتها ، فالغرب مدين للإسلام وعلومه وعلمائه بأفدح الديون ، والعرب هم الممدنون الحقيقيون له . وكانت علوم العرب وكتبهم فى الطب والهندسة والتشريح والفلك والنجوم والصيدلة والكيمياء وسواها تدرس فى جامعات الغرب دون أن يستطيعوا مجاراتها ، أو تأليف مثيل لها .

إن المسلمين حقا هم بناة الحضارة فى تاريخ الإنسانية الطويل ، وهم الذين رفعوا على كاهلهم بناء الحضارة الإسلامية ، وهم كذلك السبب الجوهرى فى قيام الحضارة الغربية .

هم الذين قام سبعون عالما جغرافيا منهم برسم خريطة الأرض فى عهد المأمون

العباسى ، وقام عالم جغرافى مشهور منهم وهو الإدريسى برسم الخريطة الأرضية ، وقدمها إلى روجر الثانى النورماندى الصقلى .

١ — فلقد غير الإعلام الإسلامى من مجرى الحضارة ..

ونزل القرآن فحول من اتجاه الفكر .. وكان منهج القرآن الكريم فى الحجاج والحوار ، وفى الإثارة والإقناع ، وفى التمثيل والتعليل ، وفى الحجة والبرهان ، وفى الظن والحدس ، وفى الشك والتجربة والامتحان ، وفى الصدق والحق واليقين ، وفى ضرب المثل للغائب بالشاهد ، وللبعيد بالقريب ، وللغامض بالواضح ، وفى غير ذلك كله وكان هذا المنهج القرآنى الفريد الجديد المنقطع النظير ، هو منهج الحياة كلها ، ومنهج البشر أجمعين .

وكان هو المعلم الأكبر الذى تخرج على يديه أعلام الثقافة الإسلامية فى شتى فروع الدين والعلم من الصحابة والتابعين ، وهو النور الذى حملته العقول المسلمة الواعية الأمينة إلى كل مكان فى العالم فأضاء دياجير الحياة ، وأنار ظلمات الوجود ، وملأ الأرض كلها أمنا وعدلا وخيرا وسلاما .

٢ — وسار الزمن سيرته ، ودارت الأيام دورتها ومنهج القرآن فى المنطق والفكر والثقافة هو منهج المسلمين أجمعين ، ومنهج الدعاة من الصحابة والتابعين وتابعى التابعين .. وهو المنهج القريب إلى العقل ، إلى الحياة ، إلى طبيعة النفس الإنسانية ، إلى لغة الإقناع والإشارة والتأثير .

حجج القرآن فى التوحيد ، وفى الدعوة إلى إله واحد ، وإلى الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، هى حجج كل مسلم يتأملها ويرددها ، ويدعو بها وإليها فى كل لحظة وكل حين . وأدلة القرآن وبراهينه فى الأرض والسماء ، فى الهواء والماء ، فى الشمس والقمر والنجوم ، فى الليل والصبح والضحى والأصيل والعشى ، فى كل ما خلق الله من نار ونور ، وضياء وديجور ، ومن صفو وغيم ، ومن سبات ويقظة ، ومن سكون وحركة .. هى أدلة الإقناع عند كل مسلم يدعو إلى الله وإلى الحق وإلى طريق مستقيم .
وبهذا أصبح الإعلام الإسلامى يستند إلى القرآن كما يستند إلى السنة ، ويعبر عن روح الإسلام الحقيقية .

٣ — وانتشر الإسلام ودخلت فيه الأمم من الشرق والغرب ، وحملت كل أمة معها زادا من ثقافاتها وعلومها ، ونقلت إليه أشياء من فكرها وثقافاتها ومعارفها وفنونها .

وحمل المثقفون بفلسفة اليونان ومنطق أرسطو أشياء معهم من هذا المنطق ، ومن تلك الفلسفة .

وكان أرسطو الفيلسوف اليونانى القديم الذى ظهر قبل الإسلام بقرون كثيرة ، قد وضع المنطق الأرسطى فى قوانين عامة يحددها العقل ، ويرسمها منهجا للفكر الإنسانى ، لتعصمه من الزلل فى التفكير . واعتبر فلاسفة اليونان من بعده وحكماؤها هذه القوانين عامة صالحة للناس فى كل زمان ومكان ، لا يختص بها فريق منهم دون فريق ، ولا جماعة دون جماعة ، ولا أمة دون أمة ، وقوانين الفكر هى للفكر أينما كان ، وحيثما وجد ، وفى أية بيئة عاش .

حمل المثقفون بالثقافة اليونانية ممن دخلوا فى الإسلام معهم إذًا فلسفة اليونان وحكمتها ، ومنطق أرسطو أكبر فلاسفتها ، وترجمت هذه الفلسفة وذلك المنطق إلى اللغة العربية ترجمات عديدة منذ أوائل عصر الدولة العباسية ، وأقبلت مدارس المسلمين العقلية تدرس هذه الفلسفة وتدرس ذلك المنطق فى اهتمام بالغ ، وعناية شديدة ، وأقبل العلماء والمفكرون على تفسيرهما وشرحهما، وأقبلت جماعات أخرى على التوفيق بينهما وبين مبادئ الإسلام العظيم وأصوله ، وبدأ يظهر فى الثقافة الإسلامية تيار جديد بجوار التيار الإسلامى الخالص الذى وضع القرآن الكريم منهجه ، وأقام دعائمه وشيد أصوله ، هذا التيار هو التيار الإسلامى الجديد الذى يلبس ثيابا زاهية من منطق أرسطو ، ومن فلسفة اليونان .

لقد أراد بعض من العلماء المسلمين أن يكتبوا عقيدة التوحيد الإسلامية فى صياغة جديدة على ضوء ما عرفوا من صياغة المنطق اليونانى ، لتصبح هذه العقيدة بصياغتها الجديدة أقوى وأقدر على إقناع العلماء والحكماء بها ، وعلى إلزام الفلاسفة والمفكرين من غير المسلمين بمنطقها .

٤ — وانتقلت هذه الصياغة الجديدة إلى العقل الإسلامى عن طريق المدارس والمراكز المبثوثة فى الشرق والتى كانت لا تزال محافظة على صلاتها العقلية بالثقافة اليونانية ، كمدرسة حران وجنديسابور والإسكندرية ، ثم عن طريق المترجمين السريان والفرس، وعن طريق الترجمات العربية العديدة لأصول الثقافة والفلسفة الإغريقية . وشجع الرشيد ، وشجع المأمون ، حركة الترجمة من اليونانية إلى العربية ، وآزروها بكل طاقاتهم ، وطلبوا كتب الفلسفة اليونانية من كل مكان ، ودعوا المترجمين لترجمتها وأنشأوا دار الحكمة للعمل من أجل ذلك .

وكانت جماعات المعتزلة قد قامت فى البصرة وبغداد ، ودرسوا المنطق اليونانى وعنوا به عناية كبيرة ، واستمدوا منه ومن الفلسفة القوة على الحجاج والجدل والدفاع عن الإسلام وعلومه وثقافاته . ومن بينهم بشر بن المعتمر — ٢١٠ هـ ، والنظام ١٨٠ — ٢٢١ هـ ، وأبو الهذيل العلاف ١٣٤ — ٢٢٦ هـ ، والجاحظ ١٥٠ — ٢٥٥ هـ وسواهم ، كما استخدموا المنطق الأرسطى فى الدفاع عن مذهبهم فى الاعتزال . واتصل العلاف بالفلسفة اليونانية وقرأها مترجمة حتى ليقول النظام : خيل إلى أنه لم يكن متشاغلا قط إلا بها . وكان من أوائل المدرسة البصرية فى الاعتزال ، وكان قد تبحر فى الفلسفة واطلع على ما ترجم منها ، واستخدم المنطق اليونانى فى بحثه عن الحقائق . ويقول فيه الشهرستانى أنه طالع كثيرا من كتب الفلسفة ، وكان تأثر المعتزلة البغداديين بمنطق أرسطو أظهر من تأثر المعتزلة البصريين وأكثر ، وجاء الفلاسفة المسلمون من مثل الكندى والفارابى وغيرهما فاستخدموا المنطق والفلسفة فى كل شىء ودافعوا عنهما دفاعا حارا .

٥ — وهكذا دخلت الفلسفة اليونانية ودخل المنطق اليونانى إلى العقل العربى ، وبهما تأثر واصطبغت بهما طريقة الجدل والبحث والتعبير والإقناع والدفاع عن الدين ، والكلام فى عقيدة الإسلام عند العلماء المتكلمين .

وأصبح ذلك التيار الجديد يفرض نفسه على الفكر الإسلامى فرضا بحكم التجديد ، وبسبب ما أولاه إياه خلفاء بنى العباس من تأييد ، وبسبب ميل المعتزلة والفلاسفة المسلمين إلى المنطق اليونانى هذا الميل الواضح المتميز والبعيد ، إذ أيدوه وكانوا شراحا له ومدافعين عنه ، واعتبروه قانون الفكر الخالد ، وحاولوا صياغة العلوم الإسلامية على ضوئه ، والتوفيق بينه وبين الأصول والقواعد الموروثة عن السلف .

٦ — ولكن معظم مفكرى الإسلام رفضوا هذا المنطق ورفضوا هذه الفلسفة اليونانية ، ورفضوا أن يستعان بهما فى صياغة البراهين الإسلامية والأدلة الإسلامية على توحيد الله ورسالاته وأصول الدين جملة .

وقد كان للأشعرى والماتريدى وتلاميذهما أثر كبير فى ترويج المنطق اليونانى والدعوة إليه ، وصياغة القضايا الإسلامية صياغة متفقة مع أسلوبه .

ومذاهب الأشاعرة والماتريدية لا تمثل العقيدة الإسلامية الأولى تمثيلا صحيحا فى نظر كثيرين من الفقهاء والعلماء المسلمين الأصلاء ، ومن بينهم ابن تيمية على الرغم مما أسبغ عليها قدم العهد من جلالة وهالة ، وعلى الرغم من تلقى الناس لها بالقبول .

من أجل ذلك وضع الإمام الشافعي منطقا جديدا بكتابته لأول مرة فى رسالته فى علم الأصول ، حتى ليقول الإمام أحمد بن حنبل : « لم نكن نعرف العموم والخصوص حتى ورد الشافعي » . ويقول الجوينى إمام الحرمين : « لم يسبق الشافعي أحد فى تصنيف الأصول ومعرفتها » ، وفيه يرسم المناهج وينظمها لاستخراج الأحكام من أدلتها ، ويحرر طرق الاجتهاد والاستنباط .

والشافعي يعد بذلك فى العالم الإسلامى وفى الدراسات والعلوم الإسلامية وفى الفكر الاتصالى ، ندا لأرسطو الفيلسوف المتعمق فى الدراسات اليونانية . ويقول فيه أحمد بن حنبل أيضا : « الشافعي فيلسوف فى أربعة أشياء : فى اللغة ، واختلاف الناس ، والمعانى ، والفقه » .

وإذا كان منطق القرآن والسنة يعبر عن روح الإسلام وجوهره فى أصالة وعظمة وجلال ، فإن المنطق اليونانى — الذى حاول فريق من علماء الإسلام الاستعانة به فى الدفاع عن دين الله وفى الدراسات العربية الإسلامية — هذا المنطق إنما يقوم ويعبر عن خصائص اللغة اليونانية التى تخالف لغة القرآن ولغة المسلمين . ولما طبق المنطق اليونانى على الدراسات الإسلامية أدى هذا المنطق إلى تناقضات عدة .

إذا كان منطق أرسطو متصلا باللغة اليونانية وقائما على خصائصها مع مخالفة هذا للمنطق الإسلامى ، وقد ردد ذلك أبو سعيد السيرافى — ٣٦٨ هـ فى حواره مع متى بن يونس ، هذا الحوار الذى رواه أبو حيان فى كتابه « الإمتاع والمؤانسة » وأصبح القياس الأصولى هو الحجة عند الشافعي وعلماء الأصول المسلمين ، الذين رفضوا الميتافيزيقا اليونانية لأنها مخالفة لإلٰهيات المسلمين .

٧ — وإذا كان هذا الخلاف بين المنطق الإسلامى ومنطق اليونان قد ظهر واضحا فى الثقافة الإسلامية وعلومها ، فقد ظهر كذلك بشكل أوضح فى الأدب وعلوم العربية .

فقد كان فى المعتزلة وفى الفلاسفة المسلمين كتاب وأدباء وشعراء ، أخذ منهم المنطق اليونانى مواطن الإعجاب فى نفوسهم ، واحتل شغاف القبول فى أفئدتهم وقلوبهم ، ووجدت طوائف أخرى فى الكتاب والأدباء والشعراء وصاروا حريصين على مطالعة الفلسفة والمنطق والإفادة منهما ، كأبى نواس وأبى تمام وابن الرومى وغيرهم ، وأصبحت القصيدة العربية إما داخلة فى عمود الشعر كقصيدة البحترى ومسلم وابن المعتز ، وإما خارجة عن عمود الشعر العربى عند النقاد كقصيدة أبى تمام والمتنبى .

وحمل ابن قتيبة فى مقدمة كتابه : « أدب الكتاب » على فلسفة اليونان ومنطقها ، كما حمل عليهما البحترى فى شعره ، قال :

كلفتمونا حدود منطقكم فى الشعـ ـر يغنى عن صدقه كذبه

ويقول ابن قتيبة :

« لقد شغفت بالنظر فى النجوم والمنطق والفلسفة طائفة من الكتاب ، وعرفت الكون والفساد والجوهر ، وأهملوا النظر فى اللغة وما إليها ، فوضعت لهم كتابى هذا .

والقياس الذى يشغل جزءا كبيرا من منطق أرسطو أصبح ذا دخل كبير فى كثير من العلوم .

فالقياس كما كان فى الفلسفة صار فى الفقه وفى اللغة وفى النحو ، ويقول بعض الباحثين إن قول أرسطو « الزمان والمكان كالوعاء للأشياء » . أصل لتسمية النحويين المفعول فيه ظرفا أى وعاء[(١)] . وأقسام البيان يذكرها الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » كما ذكرها أرسطو من قبل[(٢)] .

وقد ثار الجدل حول ما إذا كانت اصطلاحات البلاغة العربية التى ذكرها الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » قد اقتبسها من كتاب « الخطابة » لأرسطو الذى ترجم إلى اللغة العربية فى عصر الجاحظ نفسه أم لم يقتبسها منه .

وفى رأينا أن الجاحظ كان مبتكرا فى كل ما وصل إليه من قواعد وأصول وضعها للبلاغة العربية فى كتابه « البيان والتبيين » .

٨ — ولقد جاء فريق من العلماء المسلمين واعتمدوا على المنهج التجريبى وحده فى الحكم على الأشياء وتمييزها ، ومن بينهم جابر بن حيان — ١٩٠ هـ ، ٨٩٢ م والحسن بن الهيثم — ٤٠٠ هـ — ١٠٠٢ م ، الذى اعتمد على هذا المنطق الاستقرائى وهو المنهج الذى سارت عليه الحضارة الأوربية الحديثة اليوم واعتمدت عليه اعتمادا كبيرا فى بحوثها وفى كشوفها واختراعاتها .

واعتمد ابن خلدون على المنهج التاريخى ، فكشف عن علم الاجتماع ووضع أصوله فى كتابه « المقدمة » ، واعتمد علماء الحديث المنهج الاستردادى « التكوينى » وأقاموه على أسس علمية دقيقة تعرف بعلم مصطلح الحديث . وطرق تحقيق الحديث

---

(١) محاضرات جويدى ، ص ٨٥

(٢) البيان ، ص ١ : ٧١ — الحيوان ، ص ٣٣ ، ٤٤

رواية ودراية هي منهج البحث التاريخى الحديث اليوم ، الذى يتوصل به إلى نقد النصوص نقدا داخليا ونقدا خارجيا .

وكل هذه المناهج عملت عملها فى مقاومة المنطق القياسى أو الاستنباطى ، منطق أرسطو ومنهجه فى التفكير .

٩ — وجاء فريق من الصوفية وأنكروا على المنطق الأرسطاليسى منحاه واتجاهه فى التفكير ، وهم الصوفيون الإشراقيون ، وفى مقدمتهم السهروردى الذى قام بمحاولة منطقية جديدة لاختصار منطق اليونان .

وإن كنا لا نستطيع أن ندخل نقدهم فى المناهج التى تمثل نقد علماء المسلمين لمنطق أرسطو ، لأن الصوفية أنكرت العقل كأداة ، ولا يقبل العلماء المسلمون وفلاسفتهم طرائق المعرفة لدى الصوفية ، ويرون أنها تجارب ذاتية لا تصلح قاعدة أو منهجا للحياة[1] .

وهكذا رفض العلماء والفلاسفة المسلمون فى كبرياء منطق أرسطو ، لأنه يقوم على المنهج القياسى ولأن هذا المنهج هو روح الحضارة اليونانية القائمة على النظر الفكرى والفلسفى . ولم تترك الحضارة اليونانية للتجربة مكانا فى هذا المنهج ، وهى إحدى ركائز الإسلام الكبرى ، فالمنهج التجريبى أو الاستقرائى هو المعبر عن روح الإسلام ، والإسلام هو تناسق بين النظر والعمل ، ويقيم نظرية فلسفية فى الوجود ، ويرسم أيضا طريقا ناجحا للحياة العلمية .. وهذا المنهج التجريبى الاستقرائى وضعه المسلمون بجميع عناصره ، وعبر من بلاد الشرق إلى الأندلس ، فأوربا التى بنت حضارتها اليوم عليه .

يقول إقبال فيلسوف الإسلام وشاعره فى العصر الحديث : إن آراء بيكون عن العالم أصدق وأوضح من آراء سابقيه .. ومن أين استمد بيكون فى دراسته العلمية ؟ من الجامعات الإسلامية فى الأندلس « والمسلمون هم مصدر هذه الحضارة الأوربية القائمة على المنهج التجريبى » .

١٠ — على أن الإمام الغزالى يعتبر المفكر الإسلامى الكبير الذى مزج المنطق اليونانى بعلوم المسلمين ، وكان الغزالى يقول : إن من لا يحيط بالمنطق فلا ثقة بعلومه أصــلا .

وكان الغزالى موضع تقدير الإمام ابن تيمية ، لأنه عرض مبادئ الأخلاق الإسلامية

---

(١) مناهج البحث ، النشار ، ص ٣٧٩

وشرحها فى جلال وكال ، وإن كان موضع نقده الشديد فى بقية ما عرض له من علوم . وابن تيمية غير راض عن طريقة الغزالى فى الأصول ، لأنه خلطه بالمنطق والجدل . وإذا كان المنطق عند الغزالى تعصم مراعاته الذهن من الخطأ ، فهل معنى ذلك أن القدماء ممن كانوا قبل الغزالى لم يكونوا بمنجاة من الخطأ ؟ إن جميع عقلاء بنى آدم حرروا علومهم بدون المنطق اليونانى .

وممن هاجم الغزالى فى منهجه كل من الإمام الطرطوشى — ٥٢٠ هـ ، والمازرى ، وابن الصلاح — ٦٤٣ هـ ، وابن تيمية ٧٢٨ هـ ، والنواوى — ٩٣١ هـ .

١١ — وهنا نعرض للإمام الكبير شيخ الإسلام ابن تيمية وموقفه العظيم من الدفاع عن الإسلام وعن المنهج الإسلامى القرآنى العظيم فى البرهان والإقناع .

لقد نقد الإمام ابن تيمية — الاثنين ١٠ ربيع الأول ٦٦١ هـ ٢٢ من يناير ١٢٦٣ م — ٢٠ من شوال ٧٢٨ هـ ٢٩ من أغسطس ١٣٢٧ م المنطق الأرسطى وهدمه هدما قويا، فذهب إلى أن من الخير للإسلام أن لا تستعمل فى علومه هذه المصطلحات فى الفلسفة والمنطق التى لم يعرفها السلف الصالح . وينكر الإمام ابن تيمية استطاعة الحد فى المنطق الأرسطى الوصول إلى كنه الشىء أو ماهيته ، ويرى أن عمل الحد ووظيفته التمييز بين المحدود وغيره ، لما تصور المحدود فلا يستطيع الحد القيام به ، فالحد عنده مجرد شرح للفظ، وعلى ذلك سار جمع من مناطقة إنجلترا اليوم . وكذلك نقد ابن تيمية القضايا الأرسطاليسية، وذهب إلى التجربة والاستقراء وقياس التمثيل ، ورأى أن القرآن — وهو كتاب الوجود عند المسلمين — هو الذى يمدنا بصور الاستدلال ، أو هو الذى يقدم لنا الميزان، ويقدم لنا الأقيسة البرهانية كقياس الأولى ، وقياس الآية أو العلامة .

وللإمام ابن تيمية فى نقط المنطق الكتب الآتية :

١ — الرد على المنطقيين طبع فى بومباى عام ١٣٦٨ : ١٩٤٧ وهو كتاب قيم من عيون التراث الفكرى الإسلامى .

٢ — كتاب موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول ، وقد طبع فى القاهرة عام ١٣٢١ هـ .

٣ — منهاج السنة — طبع فى القاهرة أيضا عام ١٣٢١ هـ

٤ — نقض المنطق وقد نشره حامد الفقى فى القاهرة .

٥ — مجموعة الرسائل الكبرى وقد طبعت فى القاهرة — وفيها العديد من آرائه فى المنطق .

هذا إلى فتاوى ابن تيمية وهى مشهورة . ويتابع ابن تيمية فى نقد المنطق الأرسطى تلميذه ابن القيم ٧٥١ هـ والصنعانى ٨٤٠ هـ والسيوطى ٩١١ هـ .

١٢ — ومن هنا ندرك خطر المحاولة التى كانت تريد أن تفرض بالقوة أو بالإقناع منطق اليونان الأرسطى على الثقافة الإسلامية والعربية ، وندرك جهود علمائنا الأصلاء الأئمة فى مقاومة هذا الخطر منذ العصور الأولى للإسلام حتى العصر الحديث . ومن هنا كذلك ندرك مدى ما صنعه السكاكى حين أخذ جميع قضايا البلاغة العربية التى كشف عنها الإمام عبد القاهر الجرجانى — ٤٧١ هـ فى كتابيه « أسرار البلاغة » و « دلائل الإعجاز » بذوقه العربى الأصيل ، فصاغها السكاكى فى كتابه المفتاح صياغة منطقية بعيدة عن الأصالة والذوق العربى السليم ، وندرك أخيرا خطر ما صنعه قدامة بن جعفر فى كتابه « نقد الشعر » من الرجوع إلى أرسطو فى كتابه « فن الشعر » وإلى ما قرره من أحكام نقدية .

١٣ — ويجىء العصر الحديث ويأخذ الأدب الغربى يفرض نفسه على الأدب العربى فى أخيلته ومعانيه وأغراضه وأجناسه ومذاهبه الأدبية .

ثم يشرع النقد الغربى للأدب الحديث ، ويأخذ النقاد العرب المعاصرون عن النقد الغربى الكثير من بحوثه وموضوعاته دون أصالة ودون تمييز وذكاء وفطنة ، كما فعل فى آخر الشوط عدد من الأدباء والنقاد العرب .

ويفرض المستشرقون على الأدب العربى الحديث دراسة تاريخ آداب اللغة العربية دراسة تقوم على المنهج الذى وضعه لهذه الدراسة كارل بروكلمان فى كتابه المشهور « تاريخ الأدب العربى »[1] . وتقطع كليات اللغة والآداب فى العالم العربى والجامعات العربية صلاتها بالمنهج العربى القديم فى دراسة الأدب ، وهو منهج الجاحظ والمبرد وابن عبد ربه ، كما قطعت صلاتها بالمنهج العربى القديم فى دراسات النقد ، وهو منهج أبى هلال العسكرى فى كتابه الصناعتين وابن سنان الخفاجى فى كتابه سر الفصاحة ، ومنهج الآمدى فى كتابه الموازنة ، ومنهج القاضى الجرجانى فى كتابه « الوساطة » ومنهج ابن رشيق فى كتابه « العمدة » وابن الأثير فى كتابه « المثل السائر » .

ويحاول المستشرقون أن يقولوا فى كتبهم وعلى ألسنة دعاتهم فى البلاد العربية للشباب العربى : إن علم التصوف الإسلامى أخذ من الأفلاطونية الحديثة أو من المذاهب

(١) وعلى هذا المنهج كتب أحمد أمين كتابيه : فجر الإسلام وضحى الإسلام .

المسيحية ، وأن علم البلاغة العربية أخذ من كتاب الخطابة لأرسطو ، وأن علم الفقه الإسلامى أخذ من القانون الرومانى الذى وضعه الإمبراطور الرومانى جوستنيان .

وهكذا يريدون أن يحطموا العقل العربى ، وشخصية الثقافة الإسلامية الرفيعة ، ومعنويات الشباب العربى المسلم، وأن يبعثوا فى البلاد العربية شعورا عميقا بأن العالم الإسلامى مدين فى القديم للثقافة اليونانية ، ومدين فى الحديث للثقافات الغربية ، كما هو مدين للغرب اليوم فى مجال العلوم والصناعات والكشوف الحديثة .

إن الاتصال الحضارى فى الإسلام قد ورث الحضارات الإنسانية وأضاف إليها ، فلقد ورث الحضارة الفارسية والإغريقية والرومانية والمصرية وجميع الحضارات العالمية القديمة ونقل تراثها إلى الفكر الإسلامى ، وأخذ منها المعارف العلمية ، والأصول الثقافية التى لا تتنافى مع مبادئ الإسلام الشريفة الرفيعة ، وقامت حضارة إسلامية زاهرة فى جميع عواصم بلاد المسلمين من الصين شرقا إلى بحر الظلمات أو المحيط الأطلسى غربا ، ومن أوربا شمالا إلى أواسط قارة إفريقيا جنوبا ، وحسبك حضارة بغداد وقرطبة والقيروان وفاس والفسطاط ودمشق والبصرة والكوفة وأصفهان وجرجان وبخارى وغيرها من عواصم الإسلام الكبرى ، التى كانت تسبح فى نور العلم والتقدم والمدنية وفى ظلال الرفاهية والأمن والحرية والسلام ، حضارة شريفة نجمت من أصول شريفة وقام عليها الملك والفكر والاقتصاد والاجتماع وكل جوانب الحياة الرفيعة ، وشهد لها العلماء والمفكرون والمشرعون فى كل عصر وكل جيل .

حضارة هزت الدنيا ، ودوت بذكرها الآفاق ، وعاش فيها الناس أحرارا مكرمين ينعمون بكل ألوان السعادة والرفاهية والتقدم .

وكانت أوربا تنظر إليها وتذهل لهذا التفوق الحضارى الفريد ، ويصيح مثل بترارك الشاعر الإيطالى فى العصور الوسطى قائلا : يالله .. لقد تفوقنا على كل الأمم إلا العرب ، الذين أذلونا بحضارتهم السامقة فيا للخزى ويا للألم !

وجاءت أوربا ظامئة جاهلة مجردة من كل شىء فنهلت من حضارة العرب وعلومهم وثقافتهم حتى استطاعت أن تقوم على أقدامها ، ثم استطاعت أن تملك زمام المبادرة وتأخذ العنان بيديها من العرب ، وأن تنشئ لها حضارة جديدة تخالف الحضارات الأخرى فى كل شىء ، ولا تتفوق على حضارة الإسلام إلا فى الماديات وحدها .

حضارة أوربا نسيج من القوة والطغيان والأثرة وحب الذات والأنانية ، وقد قامت

على أساس فلسفتها الاستعمارية والتفرقة العنصرية وتقسيم البشر إلى طبقات ومنازل ووضع العرب والمسلمين فى آخر الدرجات .

ولقد كتبنا عن «الإسلام وحضارة المستقبل» و «جارودى والحضارة الإسلامية» وفى مجالات أخرى من قبل نوازن بين حضارة الإسلام وحضارة أوربا . وقلنا عن حضارة أوربا إنها حضارة لا أساس لها ، مادة بلا روح ، وأهواء بلا عقيدة ، وليست تنطوى على أية نزعة إنسانية أو أخلاقية ، وهى تقف كل لحظة أمام أبواب الدمار الذى ليست له حدود . إنها حضارة اللذة والمتعة الجنسية وعبادة المرأة والمال شعارها وعلمها الذى تسير تحته أن الجنس الأوربى هو سيد العالم ومن عداه عبيد أو كالعبيد . وإذا كانت أوربا قد حررت الرقيق كلاما فإنه ما زال موجودا فعلا ، الرقيق موجود فى المرأة التى تبيح شعائر أوربا شراءها بالمال ، وموجود فى البلاد المستعمرة التى تعيش فى منزلة أحط من منزلة العبيد فى سالف الأزمان ، وكل خيرات هذه الشعوب هى لأوربا ، ولشعوب البلاد المستعمرة الفقر والمرض والجهل والقتل والموت البطىء الذى لا يتصور أقسى منه .

إن حضارة أوربا حضارة الربا والقمار والميكافيلية الشريرة ، والإباحية والعلمانية والمادية ، واستعباد المرأة باسم تحريرها . حضارة لا مكان لها فى قاموس المثل والقيم الشريفة ، وكل ما هو شريف فيها فقد أخذ من العرب ، ونقل عن المسلمين . يقول غوستاف لوبون فى كتابه « حضارة العرب » : العرب كانوا هم ممدنين للغرب وأئمة له فى ستة قرون ، وعن طريقهم اهتدت أوربا إلى تراث الإغريق وكشفت عن ماضيها .

ويقول أيضا : الحق أن أتباع محمد ظلوا أشد من عرفتهم أوربا من الأعداء إرهابا عدة قرون ، وعندما كانوا لا يرهبوننا بأسلحتهم كانوا يذلوننا بأفضلية حضارتهم العربية السامقة ، ونحن لم نتحرر من نفوذهم إلا بالأمس .

ومع ما بلغته أوربا من قوة مادية فإنها قد انهارت روحيا وخلقيا وإنسانية إلى الدرك الأسفل . وحسبك أنها تحرم على الرجل أن يتزوج إلا بواحدة ، ومع ذلك تبيح له أن يعيش مع ألف عشيقة وبائعة لجسدها ولا تعد ذلك منكرا وإثما . إنما الإثم فى نظرها القاصر هو ما شرعه الإسلام للرجل من حرية الزواج بأربع بشرط أن يعدل بينهن : ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾ .

وأوربا فى ظلال حضارتها الماجنة تعيش فى انهيار دائم ، ورعب طويل ، وفزع مستمر ، وما أصدق ما يقول إقبال :

« مثلت حضارة الغرب دورها وقد شاخت وهرمت ، أينعت كالفاكهة وحان قطافها ، وسوف ينهار العالم الذى حوله مقامرو الغرب إلى حالة من الفساد . ولقد رأت أوربا بعينها النتائج المخيفة لمثلها الاقتصادية والأخلاقية والعلمية ، ولسوف تتمخض الإنسانية عن عالم جديد . وهذا العالم لا يحسن تصميمه إلا من بنى للبشرية البيت الحرام ، وورث محمدا وإبراهيم قيادة العالم .

إن الرقى العلمى فى بلاد الإسلام كان محاطا بتفوق روحى وأخلاق وإنسانى ، وبشرف لا يعدله شرف فى كل جانب من جوانب النفس الإنسانية المؤمنة بالله ، المحافظة على سمو الحياة وكرامتها ، المتطلعة دائما إلى الأمام بروح الأمل والعمل والقوة .

ولم تسد حضارة الغرب إلا حين غاب المسلمون عن إدراك حقيقتهم وذاتهم وشريعتهم وقرآنهم . بل إنها لم تعش إلا فى ظل ضعف المسلمين وتركهم لمقومات مجتمعهم الإسلامى ، وذوبانهم فى الغرب وأفكاره ومثله وثقافته .

إن حضارة الإسلام هى حضارة المسلم الكامل ، إنسان الأرض العظيم المتطلع دائما إلى نور السماء ، والحامل لعبء المسئولية الكاملة ، والمشارك فى نشر السعادة والرفاهية والسلام بين البشر . وما أشد الفرق بينها وبين حضارة الغرب .. حضارة الاستعمار والحروب ، والصراع بين الطبقات والمجتمعات والناس والشعوب ، حضارة المصارعة وصراع البقر وغير ذلك مما لا يخطر على بال .

ويقول جوستاف لوبون : إن سبب انحطاط الشرق هو تركه روح الدين ، وتشبثه بالعقائد الباطلة .

ونقول : إذا كان الشرق قد عاش بعيدا عن التقدم والقوة فى العصر الحديث ، فلأن أوربا قد عملت على تجريده من كل أسلحته الروحية والمادية والنفسية وتركته يتخبط فى ظلال الفقر والحرمان والحيرة .

وها هى ذى مجلة أسبوعية من مجلاتنا تقول عن أزمة الحضارة المعاصرة (آخر ساعة عدد ١٤ — ٤ — ١٩٧٦) :

« إذا كانت الحضارة تعنى فى جوهرها شمولها مختلف أنواع المعرفة التى يقوم بها العقل الإنسانى من علم وفن وثقافة وأدب وسياسة واقتصاد ، فإن الحضارة المعاصرة قد بلغت مبلغا كبيرا من التقدم والازدهار . على أن البعض يضيقون ذرعا بهذه الحضارة ويرون أنها فى طريقها إلى الانهيار ، كالحضارة الرومانية القديمة التى بلغت قمتها ثم استشرى فيها داء الترف والفساد والانحلال فانتهت . ويرى بعض المفكرين أن على

الإنسانية حتى تتجنب الهوة التى سوف تسقط فيها حضارة العصر الحديث ، أن ترنو ببصرها إلى العصور الذهبية التى مرت بالبشرية .

ومن هنا نرى من يمجد العصر اليونانى القديم من أمثال الشاعر الإنجليزى بايرون والشاعر الألمانى هلدرلن والفيلسوف الألمانى نيتشة ، بل نرى طبيبا كبيرا هو ألبرت شفيتزر يرحل إلى أفريقيا هروبا من الحضارة المعاصرة وما جرته على الإنسان المعاصر من قلق وتوتر وعدم استقرار . هرب إلى حيث الفطرة والبساطة والحياة البعيدة عن عقد حضارة القرن العشرين .

وتتابع المجلة حديثها بالرجوع إلى ما كتبه الأديب المعاصر الشهير كولن ويلسون ، صاحب أدب « اللامنتمى » الذى توجس خيفة من حضارة العصر التى نحياها ، والتى هى سبب لكل ما يلاقيه الإنسان المعاصر من شرور لما طبعت عليه الحياة من ترف وانحلال ، فهو يستعرض أعمال كبار الأدباء والفنانين أمثال سارتر ، ودوستوفسكى ، وألبير كامى ، وهمنجواى وسواهم ، ثم يرى أنه من الضرورى عدم الانتماء إلى حزب معين أو عقيدة معينة حتى لا تنتهى حياة الإنسان المنتمى بالجنون مثل نيتشه وفان جوخ .

ولقد تنبأ المؤرخ الإنجليزى توينبى بانهيار حضارة الغرب المعاصرة كما انهارت حضارة روما . ومن ثم يرى كولن ويلسون أن عالمنا اليوم يمر بنفس الظروف التى مرت بها حضارة الرومان عندما انهارت أثناء انتشار الديانة المسيحية .

إن الحل فى رأى كولن ويلسون هو عدم الانتماء ، أو الرفض ، أى السخط على هذه الحضارة التى أرهقت الإنسان بضغوطها الاقتصادية والمادية ، وبما أفعمت به من انحلال وفساد . لقد كتب جيبون كتابه عن « انهيار الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » .

ويقول كولن ويلسون : إننا نعيش فى عصر الجاز والتليفزيون ولوليتا وجيمس بوند والحشيش والمخدرات والعنف والجرائم الجنسية .

حضارة الإسلام حضارة الشرف والعفة والأنساب المصانة ، أما حضارة الغرب

فهى الجسد والشهوات المباعة والأنساب المجهولة ، وهى العرى واللذة الجنسية ، وهى الموبقات ما ظهر وما بطن .

يقول بعض مفكرى الغرب : إنه ليس بالبعيد أن نقف على أطلال عواصم الغرب الكبرى نبكيها ، كما وقف الإنسان على أطلال المدن الكبرى القديمة باكيا حزينا .

وبعد فإن الإسلام كما ورث حضارة أوربا القديمة هو الذى سوف يرث حضارة أوربا الحديثة بإذن الله ومشيئته ، لأنه ليس هناك ديانة أو عقيدة تبلغ مبلغ الإسلام الكريم فى السمو والطهارة والرفعة والكمال ، وهو الدين الباقى الخالد الذى ترنو إليه البشرية بعينها وتتطلع إليه الشعوب فى كل مكان وزمان تنشد فيه السلام والحرية والمساواة والإخاء .

الإسلام دين الله وشريعته ، والوحى المنزل على رسوله الكريم ، ونبيه العظيم محمد ابن عبد الله ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين ، هذا الدين العظيم هو دين الإنسانية كافة من قبل ومن بعد ، دين البشرية قاطبة فى الأمس واليوم وغدا ، دين الحياة والتقدم ، دين المدنية والحضارة ، دين النور والعلم ، دين السمو والرفعة والعزة ، دين الفطرة والروح والطموح والأمل ، والعزيمة والعمل ، والبناء والتجديد .

لقد حارب الإسلامَ خصوم أقوياء على طول عصور التاريخ ، وحاربه رجال الدين المحترفون ، وحاربته دول وعروش كانت تخاف الإسلام على نفسها وهما وكذبا ، وحاربه وثنيون متطرفون ، وحاربته مذاهب هدامة كانت تبغى لنفسها السيادة فى الأرض ، ولا عزة ولا سيادة إلا لله ورسوله ، وحاربه دجالون ومشعوذون يبغون الفساد فى الأرض ، وحاربه حكام ظالمون يبغون أن يكون منطق حكمهم القوة فوق الحق ، والله عز وجل ودينه ورسوله يعلى الحق فوق القوة .. ومع ذلك ، وعلى امتداد عصور التاريخ ، ظل الإسلام شامخا مرفوع اللواء ، تردد تعاليمه السمحة الكريمة الأرض وتضىء بنوره الوهاج السماء .

دين فوق كل الأديان التى عرفتها الدنيا ، وشريعة اهتزت بها الأمم والشعوب والأرض والسموات ، دين الفطرة ، والجلال والجمال ، والسمو والطهر ، والأمل والعمل ، دين البناء والتجدد والصفاء والوفاء ، والعزة والبساطة والسماحة والحرية والإخاء ، دين المساواة بين الناس والأجناس والأمم والشعوب كافة ، دين التوحيد الخالص والعقيدة الصادقة ، لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله ، والله أكبر ، ما أعذبها كلمات وما أروعها نغمات وما أجل أثرها وتأثيرها فى الحياة !

الإسلام وما أدراك ما الإسلام ، عرفته الإنسانية وأنكره المتجرون بها ، وأحبته الشعوب وخاصمه قادتها المضللون ، واهتدت بهديه كل الجماعات والعناصر المضطهدة المحرومة ، ولكنّ أمما مضطهدة حرمت من أن تفيء إلى ظلاله ، وتذوق جنى شهده ، وتعيش بين أفيائه .

دين الإنسانية والإنسان الكامل ، ودين البشرية التي لا تعرف غيره دينا يهديها في ظلمات الحياة ودياجيرها . .

العالم يريد إنسان القرن العشرين وما بعد القرن العشرين إنسانا كاملا تحلم به الفلاسفة وتتصوره الشعراء فى أخيلتها الجميلة ، إنسانا ساميا قويا عزيزا ، رفيع الصفات ، عظيم النفس ، كبير الطموح ، كثير السعى فى الحياة لخير الإنسانية والناس . يريد الإنسان الجديد ، إنسان الصفاء والنقاء ، إنسان التجديد والبناء ، إنسان الحرية فى كل جوانب الحرية . لا يريد الإنسان العاجز بل المتحرك ، ولا يريد الإنسان الضعيف بل القوى ، ولا يريد الإنسان الذليل بل العزيز بالحق .

وكل المذاهب والأديان والعقائد الروحية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية المعاصرة تحيل الإنسان إلى حطام متداع منهار ، ولا تخلق منه إنسانا عاملا بناء أبدا .. فهذه الشيوعية أحالت الإنسان إلى رجل عاجز ذليل مشلول الإرادة والتفكير ، وهذه الرأسمالية قد صيرت الإنسان شخصا ماديا شرها طامعا لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلا ، وهذه اليهودية قد حولته إلى إنسان فظ غليظ قاس شرس لا يحب الخير إلا لنفسه وينكر على غيره حق الحياة . وهذه المسيحية المحرفة قد خلقت منه إنسانا حائرا ضعيف الشخصية ، ضعيف الاعتداد بالنفس أو القدرة على مقاومة الأعاصير ، وإن استعان بأحدث كشوف العلم يكمل بها نقصه ، ويجبر بها ضعفه ، وهذه هى المذاهب العديدة والديانات المضللة المعاصرة لنا لا تبنى بل تهدم ، ولا تجمع بل تفرق ، ولا تقوى بل تضعف ، ولا تهدى بل تضل .

ولكن الإسلام وحده هو القادر على العمل وصنع الأمجاد فى حياة الإنسان ، وهو وحده الذى يستطيع الصمود والبناء والتجديد والتطور فى الأرض .

لقد عرفت الإنسانية اليوم طريقها إلى الإسلام بعد أن ضلت الطريق إليه قرونا كثيرة ، ولا بد أن تعتقد الدنيا كلها غدا أو بعد غد بإذن الله .

إن الإسلام هو دين القرن العشرين وما بعد القرن العشرين من قرون مديدة طويلة بإذن الله .

إنسان القرن العشرين يسعى إلى وحدة العالم كله أممه وجماعاته ، ولكنه عاجز عن تحقيق هذا الهدف .. وقد سبقه الإسلام فصاغ فى وحدة رائعة كل شعوب العالم فى العصور الوسطى وأخذ بيدها إلى حيث التقدم والمدنية والحضارة والإخاء والمساواة ، وإنكار الفروق الظالمة بين الإنسان والإنسان والجنس والجنس ، وبين الأمة والأمة والشعب والشعب .. ولو أن الإنسانية آمنت كلها بالإسلام لعادت إلى الوحدة الشاملة والحكومة الإسلامية العالمية العادلة ، ولقادت العالم إلى سفينة النجاة والأمان والطمأنينة .

وإنسان القرن العشرين يريد العقيدة الواضحة البسيطة التى لا تحجر على حرية الفرد ، والتى لا تضع القيود والأغلال فى عنق الإنسان ، والتى لا تحد من نشاطه وطموحه وأمله وعزيمته .. والإسلام هو أعظم الأديان التى تعطى للفرد حرية الانطلاق إلى آفاق أرحب ، والسعى إلى حدود بعيدة ممتدة لا يحصرها عقل ، ولا يستطيع الوصول إلى آفاقها إنسان . وهو الدين السمح الذى يعترف للأديان السماوية المنزلة من السماء بحرية العقيدة والعبادة والبقاء ، وهو دين البساطة ، دين الفطرة ، دين لا يتنكر لعواطف الإنسان ولا لمشاعره وغرائزه ، ولا لأحاسيسه العامة والخاصة أبدا ، وله حول كل مشكلة حل ، وفى كل معضلة رأى ، والسبب أنه يجعل المرأة شريكة للرجل ، زوجا وأما وجدة وأختا وعمة وخالة ، ولا يجعل منها خليلة ولا عشيقة أبدا ، ويمنحها كل حقوقها الدينية والروحية والاجتماعية والمالية .

وإذا ما خيرنا الإنسان بين الخمر والماء كانت فطرته بعيدة عن الخمر كل البعد ، لذلك حرم الإسلام الخمر وأحل الماء ، كما حرم الزنا وأحل الزواج ، وحرم البغاء والمخادنة وأحل تعدد الزوجات ، وحرم — على الجملة — كل ما يتنافى مع الفطرة الإنسانية التى فطر الله الناس عليها ، لأن الدين هو فطرة الله وهو صبغته وهو كل ما وافق العقل والروح والنفس والشريعة من قول أو عمل أو عقيدة .

وإنسان القرن العشرين يشمئز لمآسى التفرقة العنصرية وينكرها ، ولكنه عاجز عن محاربتها ، ضعيف الرأى أمام دعاة هذه التفرقة ، وهو يريد القضاء عليها ولكنه يعجز عن تحقيق أمله وبلوغ هدفه . ولو قد اعتنق الإسلام لقضى على هذه التفرقة العنصرية قضاء مبرما دون أى جهد أو أية مشقة .

وإنسان القرن العشرين يقف اليوم عاجزا عن محاربة الفقر ونشر الرخاء بين الناس ، على تعدد مذاهب الاقتصاد فى العالم ، وعلى كثرة منابع الثروة التى اهتدى إليها ،

وكشف مجاهلها وأسرارها .. وقد سبق الإسلام فحارب الفقر بمنطقه الواضح العادل البسيط الإنسانى دون إثارة لحروب الطبقات التى تثيرها بعض المذاهب اليوم .. ولو أن إنسان القرن العشرين اهتدى بنور الإسلام لحل جميع مشكلات الإنسان الاقتصادية ، ولتغلب على كل مشكلات الفقر ، ولأذاع الرخاء فى العالم بين الناس والجماعات والشعوب .

وإنسان القرن العشرين يقف اليوم عاجزا حيال مشكلة الأمية المنتشرة فى العالم ، لا يستطيع لها تصريفا .. وقد صنع الإسلام المعجزة من أجل القضاء على مشكلات الأمية ، ومن أجل نشر العلم بين كافة الناس : الرجال والنساء ، الصغار والكبار على السواء .. ولو قد آمن العالم كله بالإسلام لحل مشكلته المتجسمة فى الجهل والأمية حلا جذريا عاجلا على خير ما يتمناه .

وإنسان القرن العشرين يقف عاجزا حائرا أمام مشكلات الحياة والحضارة والاقتصاد .. لا يجد قلبه سبيلا إلى الطمأنينة ولا إلى الأمن ولا إلى الهدوء الروحى .. وقد جاء الإسلام فمنح الإنسان طمأنينته وهدوءه وكل الأمن ، والصفاء الروحى الذى ينشده .. ولو أن الإنسانية آمنت اليوم بالإسلام وطبقت شريعته لحلت أمامها كل مشكلات الحضارة وأزماتها تجاه الإنسان المعاصر .

إن الإنسانية سائرة إلى الإسلام لأنه الحل الوحيد أمامها لكل مشكلات الحياة المعاصرة .

تقول ألمانية أسلمت وسمت نفسها « فاطمة سى لامير » (ص ٩٣ جـ ٣ من كتاب « رجال ونساء أسلموا » لعرفات كامل العشى) : « لقد جاء الإسلام كما يأتى النبع الدافئ إلى الأرض الباردة بعد الشتاء المظلم ، فأدفأ روحى وسربلنى بثوب من تعاليمه القشيبة . فما أوضح تعاليم الإسلام وأعذبها ، وما أعظم منطقها ! إن الإسلام دين عصرى صالح للتطبيق فى عالمنا المعاصر » .

وليست كلمات هذه الألمانية جديدة بالنسبة لرجال الإعلام الإسلامى الذين يؤمنون بأن الإسلام صالح لكل زمان ومكان .

إن الإسلام دين العصر ، وهو دين عصرى متقدم متجدد بكل معنى الكلمة ، وهو دين الإنسان الذى يتطلع اليوم ببصره إلى السماء حائرا ينشد الهدى والنور والرحمة والطمأنينة ، فلا يجدها إلا فى الإسلام العظيم ، وفى القرآن الكريم ، وفى تعاليم الحنيفية البيضاء ، وفى مبادئ الشريعة السمحاء ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون . وهنا تتأكد رسالة الإعلام الإسلامى فى هداية الإنسانية إلى الإسلام .

القرآن الكريم
والإعجاز الإعلامى

يستمد الإعلام الإسلامى منطلقاته من القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، ويتشكل على أساس فكر عميق الجذور أرسى قواعده محمد بن عبد الله رسول الله بالإسلام ، والمنزل عليه القرآن الكريم إلى العالمين . ولا شك أن الفكر الإسلامى قد تطور خلال أربعة عشر قرنا من الزمان ، ولكن الحجر الأساسى فى بنائه ، والقيم والمفاهيم التى تبنى صرحه تضرب بجذورها فى المنبعين المقدسين .. وهما القرآن الكريم والسنة . وقد صور الدكتور إبراهيم إمام حلقات الإعلام الإسلامى ، ومنطلقاته المستمدة من القرآن الكريم والسنة الصحيحة . (انظر الشكل الإيضاحى بالصفحة المقابلة)[١] .

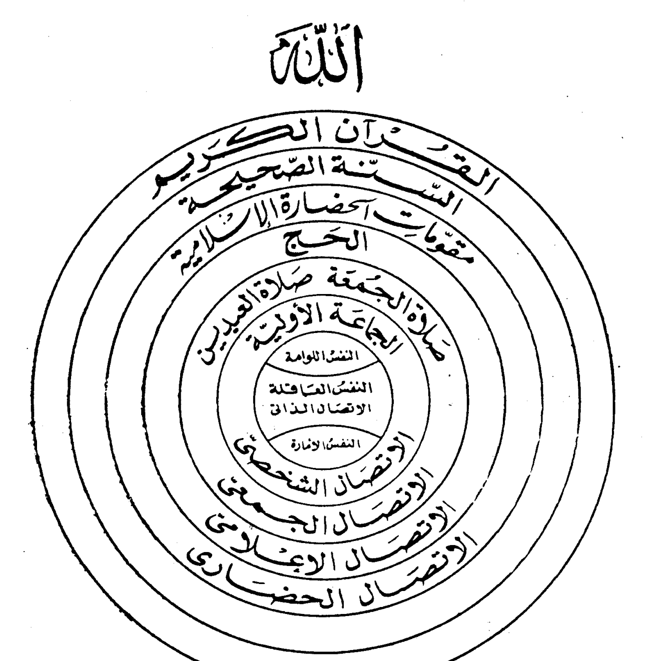
وتتدرج أنواع الاتصال الذاتى والشخصى والجمعى والإعلامى والحضارى ، منطلقة من الكتاب والسنة ، وكلها من عند الله سبحانه وتعالى جل شأنه .

ويتحرك الفكر الإسلامى دائما على قاعدة قوامها : « الثبات فى الأصول والتطور فى الفروع » ومن أبرز سنن التاريخ الإسلامى : القدرة على الخروج من دائرة الضعف والتخلف بالتماس جوهر القيم الأساسية ، فكلما ضعفت حياة المجتمع الإسلامى أو انحرف ، ظهرت قوة شابة دافعة تحمل اللواء وتصحح المسار . وكلما تحول منهج الفكر واضطرب ، ظهر مصلح مجدد يرده إلى الجادة . وهكذا عاش الإسلام بين التحدى ورد الفعل ، تعتور تاريخه الأحداث قوة وضعفا ولكنها لا تقضى عليه ، تهاجمه القوى من الخارج — كالزندقة والمانوية والشعوبية والشيوعية والتغريب والتبشير والماسونية — ولكنه لا يلبث أن يتماسك فى مواجهتها ، وتصارعه القوى من الداخل فتبرز مقوماته مجددة مرة أخرى ، قادرة على إعادة صياغة الحياة .

ومن هنا كانت أهم مهام الإعلام الإسلامى هى : تجديد الدعوة إلى التوحيد وتحرير العقيدة ، وتأكيد معنى الحرية والوحدة الإسلامية ، ودعم اللغة العربية الفصحى والتمسك بها فى الأداء الإعلامى أسلوبا ومضمونا ، وبعث الفكر الإسلامى الأصيل التماسا لمنابعه الأصيلة فى القرآن والسنة ، وبناء الثقافة العربية والحضارة الإسلامية من

---

(١) د . إبراهيم إمام : الإعلام والاتصال بالجماهير ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو .



حلقات الإعلام الإسلامى كما صورها الدكتور إبراهيم إمام

خلال الأسرة فى الاتصال الشخصى، والمدرسة والمسجد فى الاتصال الجمعى، والصحافة والإذاعة فى الاتصال الإعلامى، والربط بين الدين والعلم، والدين والأخلاق، والدين والمجتمع، والدين والتربية، والدين والدنيا، فى الاتصال الحضارى .. وهو اتصال موجه إلى الإنسانية جمعاء، لأنه يقوم على أسس راسخة من القيم الإسلامية والمبادئ الأخلاقية الأصيلة.

فقد غير الإسلام حياة العرب الدينية تغييرا ضخما كبيرا لا يماثله تغيير آخر ، فأبطل الوثنية والشرك ، وقضى على عبادة الأوثان والأصنام ، وحارب العبادات الزائفة كعبادة النار والنجوم والكواكب والملائكة ، ونفى أن يكون هناك شركاء لله فى العبادة ، أو أن يكون هناك وسطاء بين العبد وربه . ودعا إلى التوحيد المطلق ، والإيمان الحق ، والإسلام الخالص ، وإلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ودعا العرب وغيرهم إلى الإيمان بهذا الدين الإلـٰهى العظيم، ونبذ ما هم عليه من ضلال وباطل ووهم، ومن تحريف لشعائر الله وكتبه ، ولعقيدة التوحيد الصافية الخالصة .

وحارب الإسلام التقليد وذم المقلدين ، وحرر الإنسان من الأوهام والخرافات والأساطير والعقائد الزائفة والشرائع الزائفة ، والأديان الباطلة .

وبذلك صار الدين لله وحده لا شريك له ، وصارت العبادة خالصة لله رب العالمين ، سبحانه قيّم السموات والأرض ومن فيهن ، بيده الخير والشر ، وهو على كل شيء قدير .

كما غير الإسلام حياة الجاهليين تغييرا شاملا كاملا تاما غير منقوص .. فأبطل النظام القبلى وحياة المجتمع القبلية ، وأزال عن العربى نفوذ رئيس القبيلة الظالم ، وجعل المجتمع كله وحدة واحدة يسوده الحب والتعاون والإخاء بعد أن كان يسوده الشقاق والخصام والخلاف ، وأعطى الفرد كل حقوقه المشروعة فى مقابل ما فرض عليه من مسؤوليات وواجبات ، وحرر الرقيق والخادم والمرأة وأعطاهم حريتهم كاملة غير منقوصة ، ونظم الأسرة وأقامها على أساس متين من الحب والخير والتعاون وشرع لها الكثير من النظم الحكيمة الصالحة لكل زمان ومكان .. وقضى على عوامل الفرقة فى المجتمع ، وعلى الحروب بين الناس وألغى الامتيازات القبلية والعنصرية ، وجعل الناس جميعا سواسية أمام الله والقانون ، وهم سواء كأسنان المشط لا فضل لعربى على أعجمى ولا أعجمى على عربى إلا بالتقوى والعمل الصالح ، ولا فضل لأبيض على أسود ولا لأسود على أبيض ، ولا لشريف على وضيع ، ولا لعظيم على فقير ، ولا لرئيس على مرءوس ، فالجميع عباد الله ، والجميع إخوان فى دين الله ، وهم بالإسلام فى خير عميم ، وفضل عظيم ، وسلام دائم ، وإخاء شامل ، وصدق الله العظيم فى قوله ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ﴾ .

وهكذا أعطى الإسلام الإنسان حريته واستقلاله الفكرى والمالى والاجتماعى ورفع كرامته ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات

وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ . وجعله خليفة لله فى الأرض يعمرها ويمحو منها الفوضى والجهل والجمود والظلام ، بما وهبه الله من عقل ، وما بعث إليه من دين ، وما حث عليه من علم . وأوجب على المسلم طاعة أولى الأمر ، والعمل بدين الله فى السير وراء الحاكم المسلم العادل الذى يحكم بما أمر الله ويسهر على حفظ الأمن والنظام بين الناس ، وشرع كثيرا من الشرائع الاجتماعية التى تزيد فى وحدة المجتمع الإسلامى وقوته كالزكاة والصدقة والإحسان وصلاة الجماعة والحج . وحرم الاعتداء على أموال الناس وأعراضهم ودمائهم وحرياتهم ، وحارب الرذائل الاجتماعية والعادات الفاسدة والخرافات الكاذبة وعصبية الجاهلية واستبدل بها دعوة الدين ، وأباح الطيبات من الرزق ومن وسائل المعيشة الشريفة التى تتفق مع الإسلام الكريم .

وأثر الإسلام فى حياة العرب السياسية واضح للعيان ، لا يحتاج إلى بيان أو برهان :

١ — فقد كسب الإسلام للعرب وحدتهم السياسية الكاملة ، فاستقلت بلاد العرب استقلالا كاملا بعد أن كانت أطرافها تخضع لنفوذ الأمم القوية المجاورة لها ، فكانت البحرين والحيرة تخضعان لنفوذ الفرس ، واليمن لنفوذ الحبشة والفرس ، وعرب غسان لنفوذ الروم ، فذهبت هذه التبعية إلى غير رجعة ، وتجمعت القبائل والأطراف العربية والقرى والمدن وبلاد الصحراء فى وحدة سياسية شاملة .

٢ — وصار العرب يخضعون لحاكم واحد هو رسول الله — ثم خلفاؤه من بعده — يحكمهم بما أنزل الله ، فتجمعت الأهواء المتفرقة ، وتآلفت القلوب المتنافرة ، وتوحدت النظم المتباينة فى جزيرة العرب ، وأصبحت لهم وحدة سياسية واجتماعية كاملة ، فوق وحدتهم فى الدم والعنصر واللسان والدين .

٣ — وفتح المسلمون كثيرا من البلاد والأمم والشعوب وحكموها ، فتعوّد المسلمون على فن الحكم وصار منهم الأمراء والولاة والقواد والقضاة والجنود ، وسجلوا الكثير من مجد يعجب به الدهر وترويه الأيام وأحسنوا معاملة أهل الأديان الأخرى والمساواة بين بنى الإنسان كافة .

١ — وفى الحياة العقلية أول شىء وأكبر أثر للإسلام الكريم هو أنه حارب الأديان الفاسدة والعقائد الزائفة ، ووجه الناس كافة إلى الله وحده لا شريك له ، فرفع من شأن العقل ، وذم التقليد والمقلدين ، ونهى عن اتباع الآباء فى غير الحق ، وحارب الأوهام الفاسدة التى تضعف من شأن العقل وتدعوه إلى الكسل والجمود . وسلب الإسلام الناس ما كانوا يزعمونه من القدرة على تسخير ما فى الوجود من غيب ، وجعل مرد كل

ذلك إلى الله وحده ، يعلم الغيب وما هو أخفى ، فزالت عن العقل ظلمات كثيفة كانت تحول بينه وبين الفهم والإدراك والرؤية الصحيحة .

٢ ـــ ودعا الإسلام إلى العلم الصحيح والتفكير السليم ، وبعث فى الناس حب المعرفة والثقافة ، وفرض على العالم إرشاد الجاهل وتهذيبه ، إلى غير ذلك من مقومات الحياة الصحيحة .

٣ ـــ وبتشجيع الإسلام للمعرفة نشأت العلوم الإسلامية ، وعكف العلماء على البحث والتنقيب مما كان أساس المدنية والحضارة فى الإسلام .

إلى غير ذلك من مظاهر الرقى العقلى والفكرى الذى كان من مقدمته أن الإسلام دعا الناس إلى أن لا يؤمنوا إلا بما يؤدى إليه العقل والدليل والبرهان الصحيح ، وإلى أن يمحصوا الأمور ويتثبتوا فى الحكم على الأشياء ، فلا يصدرون عن هوى ولا يحكمون إلا بعد تنقيب وتدقيق واستنباط صحيح .

وهذا هو منهج البحث الإعلامى الإسلامى وهو المنهج الذى قامت عليه الحضارة الإسلامية الباهرة .

وللإعلام الإسلامى أثر كبير فى اللغة العربية يمكننا أن نوجزه فيما يلى :

١ ـــ وحدة اللغة :

جاء الإسلام وللعرب لهجات مختلفة ، ولهجة قريش لها المنزلة الأولى بين هذه اللهجات بتأثير الأسواق ومواسم الحج ، لنفوذ قريش الروحى والاقتصادى بين العرب وما كانوا عليه من ثقافة وخبرة وتجربة . ونزل القرآن الكريم بلغة قريش فأيد هذه اللغة وأصبح لها السيادة والغلبة ، وكان من قريش ومن السلالات المضرية ـــ أبناء عمومتهم ـــ رجالات الدعوة وزعماء الدولة وأمراؤها وقوادها وقضاتها وحكامها وعمالها ، فكان لذلك أثر كبير فى انتحال العرب لغة قريش بعد قليل . أما ما توورث من لغة حمير فلم يكن متميزا عن اللغة القرشية كثيرا ، سواء فى التصريف أم الإعراب أم الأسلوب ، بل كان أكثره ظاهرا فى اختلاف بعض الألفاظ عن بعض فى الدلالة على المعانى المستخدمة . فالكتع فى اللغة الحميرية هو الذئب فى لغة قريش ، وأنطى فى لهجة حمير بمعنى أعطى عند قريش ، والشناتر فى كلام حمير هى الأصابع فى لهجة قريش ، وسامدون لغة حميرية وهى فى لهجة قريش الغناء .. وهكذا ، إلى غير ذلك مما له نظير فى لهجات المصريين أنفسهم ، كالسدفة فهى الظلمة عند تميم والضوء عند قيس .

ولقلة الخلاف بين الحميرية والقرشية اندمجت لغة حمير كأخواتها فى لغة قريش التى أصبحت لها السيادة والغلبة على جميع اللغات واللهجات .

٢ — انتشار اللغة وذيوعها :

أدت الفتوحات الإسلامية الباهرة إلى انتشار العرب فى شتى البلاد المفتوحة ، وإلى ذيوع اللغة العربية فى أكثر هذه الأقطار وصارت هى اللغة الرسمية فيها ، وأصبح يلهج بها بعد قليل سكان سوريا ومصر وفلسطين وإفريقيا الشمالية ، وصارت لغة الدين والسياسة والثقافة فى هذه البلاد وسواها ، وبذلك أصبحت اللغة العربية لغة عالمية بكل ما تدل عليه هذه الكلمة من معنى .

٣ — اتساع أغراض اللغة :

اتسعت أغراض اللغة بسلوكها منهجا دينيا ، واتباعها خطة نظامية تقتضيها حال الملك وسكنى الحضر ، فأخذت اللغة تستعمل فى :

(أ) تبيين العقائد الدينية التى جاء بها الإسلام : من إثبات وجود الخالق وتوحيد ذاته وتقديس صفاته ، ومن الإيمان بالبعث والنشور والثواب والعقاب وغير ذلك مما لم يكن يفقه بعضه إلا بعض خاصة الجاهلية ، وأصبح بعد الإسلام الشغل الشاغل لجميعهم ، بل للأمة الإسلامية جمعاء .

(ب) تبيين الشريعة واستنباط الأحكام الملائمة لأحوال الزمان والمكان ، ولحسن معيشة المرء فى منزله ومعاملته للناس والسلطان .

(جـ) استعمالها فى ضبط أمور الملك ونظام العمران ، ونشر الأمان والعدل وفيما تستدعيه مرافق أهل الحضر والأمصار .

(د) وضع مبادئ العلوم ، وترجمة اليسير من العلوم الطبيعية والرياضية والطبية .

٤ — أما فى المعانى :

فقد ارتقت المعانى ويظهر ذلك فى الأمور الآتية :

١ — اتساع مادة المعانى باتساع المشاهدات والمعقولات .

٢ — حسن نظامها ومراعاة الوفاق بينها لارتقاء الفكر وتثقفه بالنظر الصحيح فى أمور الدين والملك والاقتباس من حضارة الفرس والروم ، وتنوع صور الخيال وروعة جماله ، تبعا لتنوع المرئيات الجميلة التى انتزع منها .

٣ ـــ دقة المعانى وعمقها وتركيبها ، لأنها صارت تنبع من معين ثقافة القرآن ، ومن أصوال العلم والمعرفة فى الإسلام .

٥ ـــ ألفاظ اللغة وأساليبها :

تغيرت الألفاظ والأساليب عن ذى قبل وظهر أثر هذا فيما يلى :

١ ـــ تهذيب ألفاظ اللغة ، بمحاكاة ألفاظ القرآن الكريم والسنة فى مجانبة حوشى الألفاظ الذى ينبو عنه السمع ، ويمجه الذوق السليم .

٢ ـــ نشأة ألفاظ إسلامية محضة ، مثل الجاهلية للعصر الذى كان قبل ظهور الإسلام ، ومثل المصحف . وأبو بكر خليفة رسول الله هو الذى أطلق هذا اللفظ على الصحف التى جمع فيها القرآن الكريم فى عهده .

٣ ـــ التوسع فى دلالة الألفاظ ، بإخراجها من معنى إلى معنى بينه وبين الأول مناسبة . ومن ذلك الألفاظ التى استعملها الشارع فى غير معناها الأصلى كالصلاة والصيام والزكاة والمؤمن والكافر والفاسق والمنافق وغير ذلك ، والألفاظ التى استعملت فى نظام الملك ومصطلحات العلوم والصناعات التى عرفت فى ذلك العصر .

٤ ـــ موت ألفاظ منع الشارع استعمال مدلولاتها أو أعاض عنها غيرها ، كالمرباع والنشيطة والفضول، وكعم صباحا وعم ظلاما، وكقولهم « صرورة » للذى لم يحج ولم يتزوج، فقال ﷺ : (لا صرورة فى الإسلام) .

٥ ـــ دخول طائفة من الألفاظ الأعجمية فى الكلام ، وتسمى الكلمة حينئذ معربة ، ومن مثل ذلك سندس وإستبرق والديباج والرقيم وأواه وحنان والأسفار والربيون وغير ذلك .

٦ ـــ التأنق فى صوغ الأساليب والتفنن فى تنوعها وإحكام نظمها ووصولها فى البلاغة إلى غايتها ، لانبعاث روح القرآن الكريم فى قلوب المتكلمين بها وسلوكهم سبيله فى البيان وحسن الأداء، مؤثرين الإيجاز على الإسهاب فى أكثر المواضع، إلى أن تقاصرت دونه أفهام الناشئين فى الحضر من العرب ، المستعربين من العجم آخر هذا العصر ، فأصبح للإسهاب نصيب من عنايتهم لا يقل عن الإيجاز .

ولا شك أن معظم هذه التغيرات يرجع إلى القرآن الكريم والحديث النبوى .

أثر الإسلام فى حياة العرب الأدبية :

بزغ فجر الإسلام على العرب بالجزيرة بنور جديد تفتحت عليه عيونهم وقلوبهم ، وتيقظت له بصائرهم وعقولهم ، وهنالك لم يجدوا بدا من الانتباه له والالتفات إليه معارضين جاحدين ، أو مؤمنين مذعنين ، ثم عكفوا عليه يدرسونه ويتأملونه . وكان لهذا كله من الأثر فى أدبهم ، والتوجيه لسلوكهم ، والتقويم لطباعهم ، والتهذيب لأخلاقهم ، والاختيار لألفاظهم ، ما لا يدع مجالا للشك فى أن البلاغة فى التعبير ، والأناقة فى التصوير ، والأدب فى الحديث ، والذوق فى الخطاب ، والسمو فى الخيال ، والإيمان بالمثل العليا ، والغيرة على الحق ، والغضبة للكرامة ، قد اتجهت اتجاها سديدا ، وأخذت لونا جديدا . ولذلك يقول المؤرخون : إن كثيرا من الشعر غاض ماؤه وانتكس لواؤه ، وحار بيانه وتعثر لسانه ، وذهل لبه وخانه قلبه ، وأجبلت قريحته وأظلمت بديهته ، فأقصر عن الشعر لأنه رأى فى بيانه عيا ، وفى نطقه خرسا ، وفى فصاحته فهاهة ، وفى أدبه قحة ، وأن ما جاء به محمد ﷺ لا يتطاول إلى بيانه بيان ، ولا يستطيع أن ينطق بمثله لسان ، أو يجرى فى مضماره إنسان ، اللهم إلا أن يسير على ضوئه ، ويهتدى بنوره ، ويقتبس منه ويعود من جديد تلميذا له ، يأخذ من فضله وينتفع بأدبه ويسترشد بنصحه .

وقد وقف دولاب الكلام إلى حد ما ، وأصبح الشعر الذى كانت له دولة لها نفوذ وسلطان ، وعرش وصولجان ، لا يذكر إلا فى مخلفات الجيوش المهزومة والتاريخ الذاهب ، لأن صوت القرآن المدوى غطى على بلاغة الشعراء وفصاحة الخطباء ، وصار الذى يقول الشعر أو يخطب فى المجامع أو يتحدث فى المجالس لا ينطق إلا بحذق ، ولا يقول إلا بميزان ، فلا يتلفظ بهجر مزر أو أدب معيب ، أو كلام هزيل أو بيان مرذول .

ولا نعنى بهذا أن مصراع الزمن قد أغلق دون القريض ، وأن ألسنة الشعراء قد عقلت عن القول ، ولكننا نعنى أن أساليب البيان العربى أخذت طابعا أحسن ولونا أجمل وطريقا أفضل وسبيلا أقوم ، وصار الناس يقابلون بالسخرية مجون امرىء القيس وخلاعة طرفة بن العبد ، وتبع ذلك أنهم هجروا الألفاظ النابية والعبارات المكشوفة والمعانى الهزيلة . والعواطف النازلة والأخلاق المفضوحة ، وكان أسمى ما يهدف إليه قائل أو ينطق به متحدث ، الدعوة إلى مكرمة أو الحث على فضيلة ، أو الغيرة على عرض

أو التفانى فى واجب ، أو الذود عن حب أو العصبية لغرض شريف أو هدف نبيل أو غاية محمودة ، وكان حملة لواء البيان حينئذ هم جنود الدعوة الإسلامية الذين وقفوا إلى جانب رسول الله ﷺ ، يؤيدون دينه ويمكنون له ويدافعون عنه ، أمثال كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت رضى الله عنهم أجمعين ، وكانوا بهذا اللون الصادق الإحساس والنقى الوجدان ، قد أحدثوا فى الشعر مجالا فياضا بالمعانى ، خصبا بالصور ، غنيا بالقول ، قويا ثريا بروعة البيان ، يجد عشاق الأدب فيه إرواء ظمئهم وإشباع نهمهم وشفاء لما فى صدورهم .

والأدب المأثور عن عصر صدر الإسلام يمثل بوضوح روح الإسلام ، ومدى تأثر المسلمين بأدب القرآن الكريم وبلاغته ، هذا التأثر الكبير الخطير الجليل . وكما أثر الإسلام والقرآن فى حياة العرب الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعقلية ، أثر كذلك فى حياتهم الأدبية ، وأصبح الأدب العربى بعد ظهور الإسلام يغاير قليلا أو كثيرا أدب الجاهليين ، ويصور عقلا غير العقل الجاهلى ، وشعورا غير الشعور الجاهلى .

وصار هذا الأدب يمثل فى مطلع عصر صدر الإسلام هذا الصراع بين وثنية الجاهلية وتوحيد القرآن الكريم ، ولم يمض ربع قرن منذ البعثة المحمدية حتى كان العرب جميعا قد دخلوا فى الإسلام ، واتخذوه عقيدة لهم وقانونا ونظاما ومثلا أعلى فى حياتهم ، وتطور الأدب العربى بظهور الإسلام تطورا كبيرا فى أغراضه ومعانيه ، وفى أخيلته وصوره ، وفى فنونه الأدبية ، وفى ألفاظه وأساليبه ، مما سنحدثك عنه بعد قليل .

وهكذا غير الإسلام من مجرى الحياة الأدبية عند العرب تغييرا كثيرا ، ومن البدهى أن تعلم أن التغيير الذى حدث فى الآداب العربية منذ ظهور الإسلام لم يكن يرجع إلى شىء إلا إلى الإسلام وحده ، فلم يرجع إلى شىء اقتبسه المسلمون من البلاد المفتوحة من ثقافة وعلم وأدب وفن ، ولا إلى آثار مدنية وحضارة ، لأن العرب كانوا ما يزالون يؤثرون البداوة والخشونة ، ولم يكونوا قد فرغوا بعد من قراع أعداء الدعوة ومن نضال خصوم الإسلام .

فكل تغيير حدث فى الأدب إنما كان مصدره الأول القرآن الكريم الذى كان وحده مصدر ثقافة المسلمين الدينية والعقلية والاجتماعية والأدبية ، وهو الذى أحال خشونة الطباع عذوبة وسلاسة ، وبدل حوشية الألسنة سهولة ووضوحا وبلاغة ، وأورث العرب دقة فى التفكير وقوة فى التعبير وجمالا فى التصوير ، ورقة فى الأسلوب وروعة فى الحجة .

وكلنا نعرف أن تأثير الإسلام فى الحياة الأدبية للعرب لم يحدث فجأة ، ولم يتم مرة واحدة ، وإنما حدث تدرجا وظهر شيئا فشيئا ، وقضى العرب وقتا مستمسكين فيه بأدبهم القديم لا يكادون يعدلون عنه ، ثم بدأ عصر الانتقال بشىء من الحيرة حين تلى عليهم القرآن فأنكروه وأكبروه ، وتدبروه فقهرتهم بلاغته وقهرتهم قوته وعظمته ، وأحبوه واطمأنوا إليه ، وبعد أن كانوا بين منكرين له أصبحوا مؤمنين به وخاضعين له ، ومقرين بعظمته وبلاغته ، ومهتدين ببيانه وأسلوبه ومعانيه .

ومن ذلك يتضح أن الإعلام الإسلامى كان له الأثر الكبير فى خلق مجتمع جديد فى الجزيرة العربية ، انطلق منه البناء الإسلامى للأمة الكبيرة ، وأصبح المثل الأعلى للمسلمين على يد الرسول ﷺ ، مغايرا كل المغايرة للمثل الأعلى للعرب فى العصر الجاهلى .

وقد بحث المستشرقون من الغربيين هذه القضية بحثا مستفيضا ، وأفاد الأستاذ أحمد أمين من هذه البحوث فى كتاب « فجر الإسلام » . وقال : إن المثل الأعلى للرجل فى الجاهلية كان يتمثل فى الشعر العربى عامة ، وفى المعلقات بوجه خاص ، وقد صور طرفة ابن العبد وهو من شعراء المعلقات — هذا المثل الأعلى فى الجاهلية بقوله :

لولا ثلاث هن من عيشة الفتى ... وربك لم أحفل متى قام عوّدى(١)
فمنهن سبقى العاذلات بشربة ... كميت متى ما تعل بالماء تزبد(٢)
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ... ببهكنة تحت الخباء المعمد(٣)
وكرى إذا نادى المضيف مجنبا ... كسيد الغضا ذى السورة المتورد(٤)

---

(١) معناه ولولا ثلاثة أشياء تقوم عليها حياتى لم أهتم متى جاء الأجل وتركنى جميع من يعودوننى فى المرض . د. عبد اللطيف حمزة : الإعلام فى صور الإسلام ، القاهرة ، دار الفكر العربى ١٩٧١ ، ص ٣٩ وما بعدها .

(٢) أول هذه الأشياء الثلاثة إسكات العاذلات والعذل الذين يلوموننى على شرب الخمر المعتقة التى يعلوها الزبد متى ما علاها الماء .

(٣) الدجن : الغيم ، بهكنة : المرأة الحسناء ، المعمد : القائم على أعمدة . والمعنى أن الشىء الثانى من هذه الأشياء الثلاثة التى أعيش من أجلها هو قضاء اليوم الغائم الجميل مع المرأة الحسناء فى خيمة كبيرة ذات أعمدة .

(٤) كرى : من الكر وهو الجرى ، المضيف : اللاجئ أو المستنجد ، المجنّب (بكسر النون المشددة) : المنحنى من شدة الضعف أو الخوف ، سيد الغضا (بكسر السين) : هو الذئب المختفى وراء الأشجار استعدادا للهجوم على فريسته ، ذى السورة : معناه ذو الغضب الشديد ، المتورد : أى الوارد على عجل . والمعنى : أن الشىء الثالث من الأشياء التى يعيش من أجلها وثوبه لنجدة من يستنجد به ، كما يثب الذئب على فريسته .

وليس شك أن القارئ الحديث يجد صعوبة ما فى قراءة هذه الأبيات الجاهلية ، ولكنا نطالب هذا القارئ الحديث بأن يفهم مغزاها وأن يرسم فى ذهنه من خلالها صورة للمثل الأعلى للرجل العربى فى الجاهلية .

وهى صورة يقول إنه لا يعيش حياته إلا لغايات ثلاثة :

الغاية الأولى : شرب الخمر .

الغاية الثانية : قضاء اليوم الغائم الجميل مع المرأة الجميلة .

الغاية الثالثة : النجدة لكل من يستنجد به ، والهجوم على من يتعدى على الضعيف هجوم الذئب على فريسته . والغاية الأولى هى التى عبر عنها البيت الثانى وهى شرب الخمر التى يعلوها الزبد متى علاها الماء .

والغاية الثانية هى التى عبر عنها فى البيت الثالث — وهى الجلوس إلى الحسناء فى اليوم الغائم تحت الخيمة القائمة على العمد . والغاية الثالثة هى التى عبر عنها البيت الأخير ، وهى الإسراع لنجدة الخائف أو الملهوف أو الضعيف ، ليقفز لنجدته كما يقفز الذئب المختفى وراء الأشجار استعدادا للهجوم على فريسته بكل عنف . ذلك إذن هو المثل الأعلى للرجل العربى فى العصر الجاهلى .

أما المثل الأعلى الذى رسمه القرآن للرجل المسلم ، فإنه يظهر فى آيات كثيرة ليس من السهل أن نحصرها . ومنها على سبيل المثال قوله تعالى : ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ ومعنى ذلك أن المثل الأعلى للرجل فى الإسلام هو مخافة الله تعالى مخافة تحول بينه وبين معصية الله ورسوله . وقوله تعالى يشرح معنى التقوى التى هى المثل الأعلى ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ .

الحق لقد كان الإسلام فى ذاته ثورة كبيرة ، وكان لا بد لهذه الثورة أن تكون مقرونة بطائفة من القيم الجديدة والمفاهيم الجديدة ، ومثل جديدة يقوم عليها المجتمع الجديد ويصبح بها مغايرا كل المغايرة للمجتمع الذى سبقه إلى الوجود .. وهو المجتمع الجاهلى .

يقول الأستاذ توماس آرنولد فى كتابه « الدعوة الإسلامية »[١] :

إن دعوة محمد كانت تعارض كثيرا مما كان ينظر إليه العرب نظرة ملؤها التقدير والإجلال حتى ذلك الحين . كما كانت تعلم حديثى العهد بالإسلام أن يعدوا من الفضائل صفات كانت قبل إسلامهم ينظرون إليها نظرة الاحتقار . كان العربى يتباهى برد الشر بالشر ، وينظر إلى كل من يسلك خلاف ذلك نظرته إلى كل نذل ضعيف .

إذا أنت لم تنفـــع فضر فإنما يرجى الفتى كيما يضر وينفعا

ولقد خاطب النبى أمثال هؤلاء بقول القرآن ﴿ ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾ .

وكان مجرد فرض الصلاة مثار سخرية من هؤلاء العرب الذين يوجه إليهم محمد رسالته أول الأمر . وكان من أشق مراحل رسالته أن يوجه تفكيرهم وجهة دينية نحو الخالق ، فلم يكن هذا الشىء معروفا لدى الوثنيين من العرب . ولذلك لم يكونوا مهيئين كل التهيؤ لتلقى تعاليم الرجل ، ولم يعد هؤلاء يحتملون هذه القيود التى جد الإسلام فى فرضها على حريتهم .. فالخمر والنساء والغناء كانت من أحب الأشياء إلى قلب العربى فى الجاهلية ، وكان النبى صارما شديدا فى نواهيه الخاصة بكل منها .

وهكذا حمل الإسلام منذ البداية طابع الدين الذى يقوم على الدعوة ويسعى لجذب قلوب الناس وتحويلهم إليه وحثهم على الدخول فى زمرة أصحابه .

كل ذلك بطبيعة الحال كان يفعل القرآن الذى وضع الأساس المتين للمجتمع الإسلامى الجديد ، ودعا محمد أصحابه إلى التعاون معه فى هذا البناء .

فالقرآن الكريم إذن هو الوسيلة العظمى والطريقة المثلى للإعلام الإسلامى ، وقد نص القرآن الكريم فى كثير من آياته على أن الرسول مكلف من قبل الله تعالى بتبليغ الناس هذه الرسالة الجديدة ، ومن هنا تتضح أهمية الإعلام الإسلامى من جانبين ، من جانب الناس حيث مصلحة الناس وسعادتهم تدعو إلى هذا التبليغ ومن جانب الدعوة لأن طبيعتها الحركة الهادفة والوصول إلى كل مكان فى الوجود .

وكان من حكمة الله بالناس أن كفلهم بدينه ، وأمر المؤمنين باستمرار الدعوة إلى هذا الدين حتى لا يغيب عن ذاكرة المؤمنين ، أو يبتعد بيانه عن واحد ما من سائر الناس[٢] .

(١) الدعوة إلى الإسلام : تأليف أرنولد ، وترجمة حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوى ، الطبعة الثانية سنة ١٩٥٧ ، ص ٦٢

(٢) د . أحمد غلوش : السابق ، ص ٢٣٥

ولذلك وجب أن يستمر دعاة الإسلام فى الدعوة لدينهم ، ولا يتكلوا على وجود بعض المظاهر فى اتجاه الخير — لأن الشيطان مستمر فى الإفساد ، والمعارضين للدعوة كثر عددهم وتعددت وسائلهم وعظمت إمكانياتهم .

يقول الشيخ محمد الخضر حسين — بحق — : « ولا تنس أن المضلين المخادعين فى هذا العصر قد تهيأ لهم من وسائل الدعاية ما لم يهيأ لغيرهم .. فمن نواد تفتح ، وصحف تنشر ، وجمعيات تعقد ، وأموال تنفق ، وجاه يبذل .. وهناك طائفة لم تفسق عن جحود وتمرد وإنما أوتيت من قبل الجهل وعدم صفاء البصيرة فوضعت بجانب حقائق الإسلام ما يتبرأ منه الإسلام »[1] .

وهذا يجعل الدعوة إلى الدين من أفضل الواجبات وأحمد المساعى ، حيث إن الفائدة حينئذ محققة .

ومع ما للدعوة من فائدة ، فإننا نرى بعض الفلاسفة[2] ينكرون فضل الدعوة ويرون أن الناس جبلوا على صفات معينة صنعتها البيئة والوراثة ولا أمل فى تغييرها ، ومن هؤلاء الفلاسفة أبو العلاء المعرى وشوبنهور وإسبينوزا .

يقول أبو العلاء :

وما قبلت نفسى من الخير لفظة   وإن طال ما فاهت به الخطباء

ويقول « شوبنهور » الألمانى : « يولد الناس أخيارا أو أشرارا كما يولد الحمل وديعا والنمر مفترسا . وليس لعلم الأخلاق إلا أن يصف سيرة الناس وعوائدهم .

ويقول « اسبينوزا » الفيلسوف الهولندى : « إن أفعال الناس كغيرها من سائر الظواهر الطبيعية تحدث ويمكن استنتاجها بالضرورة المنطقية الهندسية ، كما يستنتج من طبيعة المثلث أن زواياه تساوى قائمتين » .

ونحن لا نوافق هؤلاء فى تشاؤمهم ، ونرى مع د . غلوش أهمية الدعوة وضرورتها لإصلاح الناس ، ونرى أنها مؤكدة الفائدة شريطة أن يقوم بها القادر عليها .

إن الإنسان قابل للتغيير فى أخلاقه وغرائزه وطبائعه ، ورسالات الرسل تؤكد ضرورة الإصلاح والتغيير ، وإن لا فلا معنى لإرسالهم .

وعلى هذا ففقه الدين لا يقف عند الفهم فى حد ذاته ، بل لا بد من إبلاغه إلى الناس بعد تفقهه .

---

(١) الدعوة إلى الإصلاح ، ص ٩

(٢) مبادئ علم الأخلاق ، ص ٧٦ — د . أحمد غلوش : السابق ، ص ٢٣٨

يقول العينى فى الأحكام المستنبطة من باب « ليبلغ الشاهد منكم الغائب » : ذكر أبو بكر بن العربى أن التبليغ عن النبى ﷺ فرض كفاية إذا قام به واحد سقط عن الباقين ، وقد كان النبى ﷺ إذا نزل عليه الوحى والحكم لا يبوح به فى الناس جميعا لكن يخبر به من حضره ليبلغ عن لسان أولئك إلى من وراءهم قوما بعد قوم . قال : فالتبليغ فرض كفاية ، والإصغاء فرض عين ، والوعى والحفظ يترتبان على معنى ما يستمع به . فإن كان ما يخصه تعين عليه . وإن كان يتعلق به وبغيره كان العمل فرض عين والتبليغ فرض كفاية .. وذلك عند الحاجة إليه ، فقد كان قوم من الصحابة يكثرون الحديث عن رسول الله ﷺ ، فحبسهم عمر رضى الله عنه(١) .

ويجب أن يراعى الداعية اختيار الوقت والظروف المناسبين للتبليغ ، فليس الأمر فى قوله تعالى ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ﴾ للوجوب الفورى ، وإنما المختار أنه للوجوب مطلقا ليؤدى فى الوقت المناسب كما يرى الداعية . يقول صاحب كتاب فواتح الرحموت : « والمختار جواز تأخير تبليغ الحكم المنزل إلى المكلف إلى وقت الحاجة ، وهو وقت تنجيز التكليف حينئذ »(٢) .

إن التبليغ إن أدى فى غير وقته المناسب وظرفه الملائم ، لم يحدث الاتباع والتأثير وهذا ما لا ترجوه الدعوة لنفسها . وقد أمر الله تعالى بمراعاة هذه الملاءمة فى الوقت والظرف المناسبين . فقال تعالى ﴿ فذكر إن نفعت الذكرى ﴾(٣) .

وقال ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾(٤) .

ومن الإعجاز الإعلامى فى القرآن الكريم نزول آياته حسب المواقف والحوادث التى مرت بالرسول ﷺ ، يسترشد بهذه الآيات التى نزل بها الوحى فى كل حادثة من هذه الحوادث وفى كل موقف من هذه المواقف . وكانت بعض آيات الكتاب الكريم تنبئ الرسول بما سيحدث له ولأصحابه فى المستقبل . وكانت بعض آياته تقف الرسول على أخبار المشركين والمنافقين وما كان يدبره هؤلاء وأولئك من المؤامرات ونحو ذلك ، كما كانت بعض آياته تنقد حالة المسلمين فى كثير من المواقف التى تمر بهم وترشدهم إلى الصواب فى هذه المواقف .

---

(١) عمدة القارئ جـ ٢ ، ص ١٤٣

(٢) فواتح الرحموت جـ ٢ ، ص ٤٩ — د . أحمد غلوش : السابق ، ص ٢٣٨

(٣) الأعلى آية ٩ (٤) الأنعام آية ٦٨

والقرآن الكريم كتاب الله المعجز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، آيات وصور اشتملت على أمور الدين والدنيا ، وانتظمت سعادة الأولى والآخرة ، ونزلت هدى ونورا للبشر كافة فقضت على الأوهام الباطلة ، والأساطير الكاذبة ، والعبادات الضالة ، والأديان المنحرفة ، وأحالت الظلام ضياء ، والشقاء سعادة ، واليأس أملا ، والضلال هدى ، والهمجية مدنية ، والجهل علما ومعرفة وأدبا وثقافة ، نبع من معينها الزاخر كل من رغب فى الخير وطمح إلى السلام والنور ، ونقلت الإنسانية من عصر تسوده الفوضى وتذاع فيه مبادئ الطغيان والعبودية وسفك الدماء ونهب الأموال والأعراض ، إلى حياة فيها رضى وأمن وطمأنينة وسلام وحرية وعدل وإخاء وعمران وحضارة ، وحدود محدودة وضعت لسعادة الناس والجماعات والشعوب الإنسانية قاطبة .

قبس من الهدى والنور نزل به جبريل من السماء إلى الأرض على سيد الخلق وأكرم الرسل وأشرف من فى الوجود ، محمد صلوات الله عليه ، فبلغه الناس وبشر بدعوته العرب والبشر كافة ، وأذاع مبادئه فى كل مكان ، فحملت إلى العالم السلام والعدل والحرية ، وفتحت صفحة جديدة فى تاريخ الإنسانية ، وأنقذت الناس من ضلال الجاهلية الأولى ، فتبارك الله رب العالمين .

نزول القرآن :

تم نزول القرآن على رسول الله فى ثلاث وعشرين سنة ، كان فى ثلاث عشرة سنة منها يقيم بمكة وهى وطنه الذى نشأ فيه ، وتسمى الآيات والسور التى نزلت فيها أو فيما حولها مكية[1] ، وكان فى العشر السنين الأخرى يقيم بالمدينة وهى دار هجرته التى قضى فيها بقية حياته ، وتسمى الآيات والسور التى نزلت فيها أو فى غزواته وأسفاره فى أثناء إقامته فيها مدنية . ومجموعها أربع عشرة ومائة سورة . وتسمى السورة مكية إذا كان أغلبها مكيا ، وتسمى السورة مدنية إذا كان أكثرها مدنيا .

وأول ما نزل من القرآن : ﴿ اقرأ بسم ربك الذى خلق ۝ خلق الإنسان من علق ۝ اقرأ وربك الأكرم ۝ الذى علم بالقلم ۝ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ ، نزلت على رسول الله وهو يتعبد بغار حراء بقرب مكة .

(١) هذا هو أحد الآراء فى تعريف المكى والمدنى ، وعليه فيكون المكى هو ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة ، والمدنى ما نزل بالمدينة . وقيل المكى ما كان خطابا لأهل مكة ، والمدنى ما كان خطابا لأهل المدينة . والأرجح أنّ المكى هو ما نزل قبل الهجرة والمدنى ما نزل بعدها .

وأول ما نزل عليه بالمدينة : ﴿ويل للمطففين ◦ الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ◦ وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ◦ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ◦ ليوم عظيم ◦ يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾ ، لأنهم كانوا أشد العرب اخسارا للكيل والميزان .

وآخر آية نزلت على أشهر الأقوال : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ نزلت عليه فى حجة الوداع ، وقبيل حجة الوداع نزلت عليه سورة التوبة .

موضوعات سور القرآن :

كانت موضوعات الآيات والسور التى نزلت بمكة ، الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وتنزيهه عن مشابهة خلقه ، ونبذ عبادة الأوثان التى لا تنفع ولا تضر ، والدعوة إلى الإيمان بحياة أخرى بعد الحياة الدنيا ، فى يوم يبعث فيه الناس وينشرون ويحاسبون على ما قدموا فى دار الدنيا فيجازى المؤمن بنعيم الجنة الخالد ، ويعاقب الكافر بجحيم جهنم الخالد .. يقرر القرآن الكريم ذلك فى صور شتى وأساليب مختلفة ، فمن موعظة حسنة وحكمة بالغة ، وحث على التمسك بالفضائل والمكرمات ، ومن عبرة يقص قصة طاغية ، أو عاقبة أمم باغية ، وسيرة رسول مع قومه ، ومن استدلال بخلق السموات والأرض على قدرة موجدها ، وعلى وجوب توحيده بالروية ، ومن إنذار للمعاندين ، وتقريع للمستهزئين ، ونعى على الجاهلين ، وذم للكافرين ، كل أولئك بعبارات بليغة ، وفقار مفصلة ، وسور كانت فى أول الإسلام قصيرة ، ثم طالت بحسب الأحوال ، وذلك لأن أهم ما قصد إليه الإسلام فى أول أمره بيان منزلة العبد من مولاه وخالقه ، وما أعده له على طاعته أو معصيته من ثواب أو عقاب .

ثم لما قوى الإسلام بالهجرة إلى المدينة ، وقيض الله له الأنصار من أهلها يؤيدونه ويعلون كلمته ، صار أكثر موضوعات الآيات التى نزلت على رسول الله بالمدينة وفى أثناء خروجه منها للغزوات أو الأسفار ، يشمل فوق ما تقدم أمورا أخرى مثل نظام العبادة ، وفرض الفرائض ، والتحليل والتحريم ، ومثل نظام الأسرة فى تقرير أحكام الزواج والطلاق والميراث والوصية والاسترقاق والعتق ، ومثل نظام الجماعة بإطاعة أولياء أمورهم ، والتناصر على إقامة الحدود وحماية العرض والمال ، وتقرير العدالة فى القضاء والأحكام ، وتحديد المعاملة الحسنة فى البيع والشراء والمداينة والرهن ، ونحو ذلك مثل نظام معاملة أمة المسلمين لغيرها من الأمم فى الحروب والسلم ، وتقسيم الغنائم ،

ومعاملة الأسرى ، وعقد الهدنة والمعاهدات ، وسياسة المغلوبين من غير المسلمين من أخذ الجزية من أهل النعمة ، ومصالحة غيرهم ، وغير ذلك مما تقتضيه مصالح البشر فى الحياة الدنيا على اختلاف الزمان والمكان .

وجملة القول إن القرآن كتاب هداية إلى مكارم الأخلاق والآداب ، وإلى توحيد الله وعبادته وتنزيهه عن مشابهة خلقه ، وكتاب تشريع لحقوق الأسرة والأمة فى خاصة نفسها وفى علاقتها بغيرها .

جمعه وكتابته :

كان القرآن ينزل منجما على حسب المناسبات ، وكان يكتب ما نزل منه بأمر الرسول ، وكانت الكتابة فى العسب واللخاف والأكتاف[١] .. وكان زيد بن ثابت[٢] أكثر كتاب الوحى ، وقد أشهده أبو بكر وعمر فى جمع القرآن ، وولاه عثمان كتابة المصحف . وما كان عمر ولا عثمان يقدمان عليه أحدا فى الفتيا والفرائض والقراءات وغيرها ، وكان ابن عباس يأخذ بركابه ويقول : هكذا يفعل العلماء . وتوفى عام ٤٥ هـ .

وتوفى رسول الله ﷺ وبعض القرآن مسطور فيما ذكرناه ، وبعضه محفوظ فى صدر بعض الصحابة . ولما قتل فى وقعة اليمامة سبعمائة من الصحابة فزع المسلمون ، وتقدم عمر إلى أبى بكر يشير إليه بجمع القرآن ، فعهد به إلى زيد بن ثابت فجمعه من الصدور ومن السطور صحفا ، حفظها أبو بكر ثم عمر ثم أم المؤمنين حفصة .

وهذا هو الجمع الأول للقرآن الكريم ، وكان الغرض منه جمع نص القرآن فى مجموعة واحدة حتى لا يضيع منه شىء بموت الصحابة والقراء .

ولما كثرت الفتوح ، واختلف القراء فى قراءاتهم وخطأ بعضهم بعضا ، عند ذلك أمر عثمان زيدا وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث فنسخوا تلك الصحف فى مصحف واحد مرتب السور ، بحسب الطول والقصر ، وبلغة قريش وحدها ، وأمر بإحراق ما عدا ذلك .

---

(١) العسب : أصل السعف ، واللخاف : حجَرة رقيقة جمع لخفة ، والأكتاف : عظام اللوح من الحيوان .

(٢) تعلم زيد بن ثابت الفارسية — كما يقال — من رسول كسرى ، والرومية من صهَيب صاحب النبىّ ، والقبطية من خادم النبىّ أيضا ، والحبشية من بلال خادم النبى ، وتعلم السريانية بأمر الرسول الكريم ، وأمره الرسول بتعلم كتابة اليهود (العبرية) كما ورد فى حديث من صحيح البخارى (وراجع فجر الإسلام ، ص ١٧) .

وهذا هو الجمع الثانى ، وسببه على ما علمنا كثرة اختلاف المسلمين فى وجوه القراءات حين قرأوا كتاب الله بلغاتهم على اتساع اللغات ، فأدى ذلك إلى تخطئة بعضهم بعضا ، فخشى من تفاقم الأمر فى ذلك فأمر عثمان بنسخ تلك الصحف فى مصحف واحد مرتب السور ، واقتصر على لغة قريش وحدها دون غيرها من اللغات .

قراءات القرآن :

كتب عثمان المصحف بلغة قريش وحدها وجمع الناس على قراءة واحدة ، وعمل أصحابه بما أمكنهم العمل به فى ذلك المصحف . غير أن الجهات التى بعث عثمان إليها بالمصحف العثمانى كان بها من الصحابة من كان يقرأ القرآن بقراءات تخالف قراءة المصحف ، وكان مصحف عثمان خاليا من الشكل والنقط أيضا ، فمن ثم نشأ الاختلاف بين قراء الأمصار الإسلامية .

والعرب يختلفون فى نطق الكلمات بالمد والتسهيل والإدغام والإظهار ونحو ذلك ، وقد أدى هذا إلى اختلاف القراء فى كيفية النطق ببعض الألفاظ القرآنية ، فتعددت القراءات التى تختلف فى النطق باللفظ على نحو لا يترتب عليه تغيير فى نص القرآن وذلك ما لا ضرر فيه ، وإليه يشير الرسول صلوات الله عليه فى قوله لعمر : (يا عمر القرآن كله صواب ، ما لم تجعل رحمة عذابا أو عذابا رحمة) .

والقراء السبعة الذين رووا القراءات السبع هم :

١ — عبد الله بن عامر	(١١٨ هـ)
٢ — عاصم الأسدى	(١٢٨ هـ)
٣ — عبد الله بن كثير	(١٣٠ هـ)
٤ — أبو عمرو بن العلاء	(١٥٤ هـ)
٥ — حمزة بن حبيب	(١٥٦ هـ)
٦ — نافع بن أبى نعيم	(١٦٩ هـ)
٧ — على بن حمزة الكسائى	(١٨٩ هـ)

وهناك ثلاث قراءات قوية السند ، وأربع أخرى بين القوة والضعف ، فمجمل القراءات أربع عشرة قراءة . وهناك فرق بين قراءات القرآن والأحرف السبعة التى نزل بها القرآن الكريم ، فالأحرف السبعة هى لغات أى لهجات ، سبع من لغات العرب فى لهجاتهم . والقرآن قد نزل بلغة العرب ، ولما كانت لغتهم مختلفة فى بعض نواحى النطق

اقتضت حكمة الله أن ينزل القرآن على نبيه مشتملا على لغات العرب المشهورة . فالأحرف السبعة التى نزل بها القرآن كانت مفرقة فيه ، فبعضه نزل بلغة قريش وهو معظمه ، وقد كتب بها أيضا ، وبعضه نزل بلغة هذيل وبلغة اليمن فكتب بلغتهما . وهذه الأحرف السبعة كان بعض القرآن مكتوبا بها فى عهد الرسول ، ولم يوجد منها شىء فى مصحف عثمان لأنه كان مقصورا على لغة قريش . وقبائل العرب التى نزل القرآن بلهجتها هى : قريش ، وهذيل ، وثقيف ، وبنو سعد ، وكنانة ، وأسد ، وقيس وأحلافها ، ثم ارتفعت هذه اللهجات وبقيت لغة قريش ، وأصبح القرآن الكريم يتلى بلغتهم .

نظم القرآن وأسلوبه :

نزل القرآن الكريم بأسلوب بهر العرب رونقه ، وخلب ألبابهم جرسه ووقعه ، وملك نفوسهم ما فيه من جمال اللفظ وبراعة الصورة وسمو البيان وروعة الأداء .

جاء القرآن على هذا النظام الفريد من النضارة والجلالة والإشراق ، وحسن التقسيم ودقة الصوغ وسرعة النفاذ إلى أعماق القلوب ، فدهش العرب وتحيروا ، وأطالوا النظر وأكثروا الالتفات إلى ما فيه من حسن رائع وجمال بارع ، وقوة أخاذة وبلاغة نفاذة ، وسحر ساحر وإعجاز قاهر .. وقالوا ما هذا الذى يطالعنا به محمد ؟ أهو كهانة كاهن أم شعر شاعر أم سحر ساحر أم استعراض لأساطير الأولين ؟ وما كان هذا الذى راعهم وأعجزهم إلا كلام رب العالمين ، صاغه قلائد نادرة ، تنقطع دونه القوى وتتخاذل لديه بلاغة الفحول .

لقد كان العربى الموغل فى عناده ، الممعن فى عتوه وفساده ، يسمعه فيدخل على قلبه بلا إذن ، ويتمكن من نفسه دون جهد ، ويملك أسماعه جمال وقعه وحسن جرسه .

وما كان الذى بعث الرقة فى قلب عمر ، وأشاع فى نفسه الإخبات والتطامن إلا سماعه لسورة من القرآن عند أخته .

وهذا عتبة بن ربيعة يذهب إلى رسول الله ليلويه عن قصده ، ويثنيه عن رسالته ، فما إن يسمع منه بضع آيات حتى يعود إلى قومه قائلا : « لقد سمعت منه كلاما ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر » .

وهكذا كان يغزو القرآن كل قلب ، ويصل إلى مكان الرضى والإعجاب من كل نفس ، حتى لقد سمع فاتك من فتاك الليل قارئا يرتل فى جنح الليل قوله تعالى :

﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ﴾ فرق قلبه وخشعت جوارحه واجتذبته روعة القرآن وبلاغته فصاح من أعماقه: قد آن يا رب، ثم أقلع عن سيرته وتاب عن آثامه ومعاصيه.

وسمع آخر قوله تعالى ﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون * فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ فصاح: يا سبحان الله من ذا الذى أغضب الجليل حتى حلف، لم يصدقوه بقوله حتى ألجأوه لليمين؟.

وسمع بعض الأعراب قارئا يقرأ ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ فسجد وقال: سجدت لفصاحته. وأنصت بعضهم إلى قوله تعالى: ﴿ فلما استيأسوا منه خلصوا نجيّا ﴾ فقال: أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام.

وهكذا كل ما ينصت إلى كلام رب العزة يلمح فيه سمو البلاغة وإعجاز البيان ونضارة الأسلوب. وإنما يرجع سمو القرآن وعظمته الأدبية وقوته البيانية إلى أسرار كثيرة ومزايا عظيمة منها:

١ — ما فيه من قوة التصوير ودقته وإحكامه:

فليس هناك تصوير أجمع لأطراف المعنى، وأشد مداخلة للإحساس، وأبلغ إثارة للمشاعر من تصوير القرآن الكريم.

يصور نعيم المتقين وسعادة المؤمنين، فيحس المرء الراحة تدخل إليه، ويشعر بالغبطة تسرى فى أنحائه، فتغعمه طربا ونشوة.

ويصور الشقاء الذى ينتظر الطغاة، والعذاب الذى أعده الله للعصاة، فترتعد الفرائص وتختلج الأعضاء، وتضطرب المفاصل ويزايل النفوس ما يسكنها من وقار واتزان.

ومن ذا الذى لا يهتز نشوة حين يستمع إلى قوله تعالى: ﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴾، وقوله تعالى: ﴿ مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ﴾.. أو قوله ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ﴾ أو قوله تعالى ﴿ ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب ﴾، أو قوله ﴿ وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى ﴾.. إلخ.

وهكذا فى كل سورة يجول فيها الفكر ويمر بها الذوق ، لا يرى الناظر إلا سمو بيان وإبداع صوغ وإحكام نظام ودقة تمثيل .

٢ — ما ينبث فى جوانبه ويسرى فى تضاعيفه من مختلف الحكم التى تروع الأفئدة ، والتى بلغت من الصدق والدقة مبلغا لا ترق إليه حكمة ، ولا يطول مثل .

ثم هى فى بلاغتها وإيجازها وإعجازها من الفرائد التى لا يطمع فيها بليغ مهما أوتى من صفاء الذهن وروعة البيان ، وهل تجد مثل هذه البلاغة العربية فى صحائفها وفى أدق وأروع تصوير للكثرة الفاشلة والجماعة الخادعة للمتفرقة من قوله تعالى ﴿ تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ﴾ وهل يجد المرء أجل أدبا وأسمى حكمة من قوله تعالى ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ أو أشد تصويرا للطبائع الإنسانية واعتزاز كل جماعة بما عندهم وفرحهم بما لديهم من قوله تعالى ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ .

وهكذا من أمثال قوله تعالى ﴿ خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين ﴾ وقوله ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ﴾ وقوله ﴿ ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ﴾ وقوله ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسَّه الشر كان يؤوسا قل كل يعمل على شاكلته ﴾ .

٣ — حسن موقع الإيجاز والإطناب :

ففى المواطن التى تستدعى الإطناب نجد القرآن يشقق ألوانا تميل إليها النفس وينصت لها الوجدان .

وإن فيما حكاه رب العالمين من قصة يوسف وما فيها من ألوان العظات ، وما تمثل من انفعالات النفس البشرية بألوان الغضب والرضا وأنواع الحب والبغض ، وما طبعت عليه من إيثار النفس وشدة الغيرة ، فى ذلك كله نلتمس أثر الإطناب فى صدق الإحاطة ودقة التصوير ، يقول تعالى ﴿ نحن نقصُّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ◦ إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ◦ قال يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين ﴾ وفى سورة الرحمن تجد التكرير الداعى لتجديد الإقرار بالنعم واقتضائهم الشكر عليها ، وفى سورة المرسلات لتأكيد إقامة الحجة والإعذار .

وفى المواضع التى تستدعى الإيجاز وتتطلب القصر ، والإيجاز من أدق المواطن التى تستبين بها بلاغة البلغاء ، وتبرز أقدارهم وتتضح قيمهم الفنية وميزاتهم الأدبية . وإننا نجد القرآن قد أحكم وضع اللفظ بإزاء المعنى وأشار بالإشارة العابرة إلى ما لا يتناهى من المعانى السامية ، حتى يكاد السامع يخر ساجدا لهذا البيان الخلاب والأسلوب المشرق .

من ذلك قوله تعالى ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ وقوله ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ وقوله ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ وقوله ﴿ من يهد الله فهو المهتد ﴾ ، وقوله ﴿ ولكم فى القصاص حياة ﴾ ، وغير ذلك مما لا يحصيه العد ولا يستولى عليه الحصر ، وكذلك تجد إيجاز الحذف والاختصار فى قوله تعالى ﴿ ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ﴾ .. وقوله ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها ﴾ ، فحذف الجواب لتذهب النفس فيه كل مذهب .

وهكذا نجد أن أسلوب القرآن الكريم قد امتاز بأجمل طابع وأحكم صورة وأروع سمت بما تهيأ له من حكم عالية ، ومعان سامية ، وحسن ارتباط بين المعانى ، وعذوبة محببة فى الألفاظ . ويكفى فيه أنه أسلوب رب العالمين وخالق الخلق أجمعين ، جلت قدرته ودق صنعه وسمت معجزته .

هذا ونظم القرآن من نوع النثر وإن لم يجر على مألوف العرب فى نثرها المرسل وسجعها الملتزم ، بل هو آيات وفواصل يشهد الذوق السليم بانتهاء الكلام عندها ، فتارة تكون سجعا وطورا تكون موازنة وازدواجا ، وأحيانا لا تكون هذا ولا ذاك . والأسلوب القرآنى نمط فريد من البلاغة والروعة وجمال الديباجة وعبقرية التصوير .. أسلوب جمع الجزالة والسلاسة والقوة والعذوبة ، ضم البلاغة من أطرافها فهو السحر الساحر والنور الباهر والحق الساطع والصدق المبين .

بلاغة الاتصال فى القرآن الكريم :

القرآن الكريم أبلغ أثر أدبى عرفته العصور ، وأفصح كتاب سماوى نزل به الوحى . وليس هناك كلام عربى يرتقى إلى منزلة القرآن فى البلاغة ، أو يصل إلى مكانته فى البيان والفصاحة . والعرب كانت تعرف الشعر والنثر ، وتعرف الخطب والأسجاع ، وتعرف القصص والحجاج والوعظ ، والحكم والأمثال والخطب والوصايا والنصائح ، ومع ذلك فليس هناك كلام عربى مأثور لبليغ أو أديب قبل نزول القرآن وبعد نزوله حتى اليوم ، يضارع القرآن الكريم سموا وبلاغة وجمالا وجلالا .

ولقد حاول أناس فى القديم معارضة القرآن فى بلاغته فعجزوا ، وذلوا وخشعوا حائرين ، لأن بلاغته تنزلت من رب العالمين وخالق البشر أجمعين .

وحاولوا النقاد وعلماء البلاغة فى مختلف العصور أن يضعوا مقاييس وحدودا لبلاغة الكلام ، ومع ما وصلوا إليه حتى اليوم فإنهم لم يهتدوا إلى ميزان دقيق توزن به بلاغة الكلام وفصاحته .. ومع ما وصلوا إليه وبأى معيار عايرنا به بلاغة القرآن ، فإن القرآن بأى منهما يقع فى الدرجة العليا من البلاغة ، يهدى إلى ذلك الذوق والطبع ، ويهدى إليه أيضا ما كشف عنه علماء البلاغة من الدقائق فى علوم المعانى والبيان والبديع . وقد ذهب عبد القاهر الجرجانى إلى أن بلاغة الكلام فى نظمه ، فالمزية هى لتأليف الكلام وضم بعض أجزائه إلى بعض ، وتخير كلماته وحسن مقاطعه ، براعًى فى ذلك كله مقتضيات الأحوال . والقرآن الكريم من ذلك كله فى الطبقة العالية من طبقات نظم الكلام وحسن صياغة الأسلوب .

سمعه البلغاء فسجدوا لبلاغته ، والفصحاء فأذعنوا لفصاحته وقالوا : إن هذا إلا سحر يؤثر . وقال الوليد بن المغيرة وقد سمع قوله تعالى : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ ، فقال « والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ، وما هو بقول بشر » .

إن عناصر البلاغة ودقائق البيان وأسرار الذوق الأدبى ، لتتمثل فى القرآن الكريم كل تمثل ، وتتجمع فيه أعظم ما يكون التجمع وأدقه وأوفاه . وضوح الكلام وتلاؤمه ، واستعمال أضرب الخبر فى وجوهها ومقاماتها ، والذكر فى موضعه والحذف فى موضعه ، والتقديم والتأخير والتعريف والتنكير ، كل فى المقام الذى يستدعيه والموضع الذى يتطلبه . ثم تجد القصر فى مكان القصر ، والوصل فى مقام الوصل ، والفصل فى موضع الفصل ، وتجد الإيجاز فى الحال الذى يتطلبه ، والإطناب فى الموضع الذى يستدعيه ، وتجد التمثيل أو التشبيه او الاستعارة أو المجاز أو الكناية قد أتى بكل منها على أدق ما يكون الكلام وأروعه وأعجبه ، وتجد الطباق والمقابلة والجناس والسجع وغير ذلك قد استعمل كل منها استعمالا عبقريا لا يتسنى لأحد ، ولا يستطيعه بليغ .

وتجد القسم فى موضع القسم وعلى أتم ما تكون البلاغة ، وانظر إلى قوله تعالى ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ ، أو قوله تعالى ﴿ والضحى والليل إذا سجا ﴾ أو قوله تعالى

﴿ والشمس وضحاها ﴾، فسوف تجد بيانا عبقريا، وجمالا خالدا أبديا، لأنه كلام الخالق وليس بكلام مخلوق.

سبحانك ربى ما هذا النور الهادى، وما هذا السحر الغريبَ، وما هذا الكلام العجيب، وما هذا المنطق الفريد؟

ولعلك قد قرأت تحليل عبد القاهر وعلماء البلاغة للآية الكريمة ﴿ رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ﴾، أو للآيات الحكيمة ﴿ وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربى لغفور رحيم * وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين * قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين * وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين ﴾، ولعلك على ذكر من هذه الوجوه البلاغية التى يذكرونها فى الموازنة بين قوله تعالى ﴿ ولكم فى القصاص حياة ﴾ وقول أكثم بن صيفى « القتل انفى للقتل »، ولعلك قرأت ما كتبه الزمخشرى فى بلاغة قوله تعالى ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ﴾، وما دونه علماء البلاغة فى بلاغة الآية الكريمة ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾.

ونحيلك إلى ما ذكروه فى بلاغة الآية الكريمة: ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾، وفى بلاغة قوله تعالى ﴿ ولما سكت عن موسى الغضب ﴾، وفى بلاغة كثير من تشبيهات القرآن الكريم وتمثيلاته ومجازاته واستعاراته وكناياته، فلسوف يأخذك العجب من هذه البلاغة الفذة الفريدة النادرة التى تأخذ بمجامع القلوب والألباب، والتى هى مظاهر لبلاغة القرآن الكريم، ولفصاحة هذا الكتاب الحكيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

إعجاز القرآن:

١ — وإذ قد عرفت من وصف نظم القرآن ما عرفت، وعرفت أن الله عز وجل قد تحدى به العرب فعجزوا، ثم تحداهم بسورة منه فبهروا، ثم تحداهم بأقصر سورة وبعدة آيات فخرسوا. ولما سمعه فصحاؤهم وبلغاؤهم وأرباب البيان فيهم سجدوا خاشعين، فأعجز النظم القرآنى ببلاغته العرب وغير العرب، ولم يستطع أحد أن يأتى بمثله ولا بنظيره. لماذا كان ذلك؟ وكيف حدث هذا؟

لا تعجب أيها القارئ فإن معجزة القرآن علت على كل معجزة ، وإن عظمة هذا الكتاب الحكيم فاقت كل عظمة ، وكان نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارجا عن العهد من نظام كلام العرب ، مباينا للمألوف من ترتيب خطابهم وله أسلوب يختص به ويتميز فى تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد ، وليس للعرب كلام مشتمل على مثل هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع والمعانى اللطيفة والفوائد الغزيرة والحكم الكثيرة والتناسب فى البلاغة والتشابه فى البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر .

٢ — قالوا إن المعجز فى كتاب الله ما تناثر فى ثناياه وانبث فى تضاعيفه ، من إخبار عن الغيب وتنبؤ بما سيقع .

فقد تحدث القرآن عن أشياء لم تكن معلومة معروفة ، ثم لم تلبث الحوادث أن جاءت مصدقة لما أخبر به موافقة لما تحدّث عنه .

من ذلك قوله تعالى ﴿ غلبت الروم ۝ فى أدنى(١) الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ۝ فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون ۝ بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ .

وقعت حروب بين الروم وفارس فى أذرعات وبصرى ، فغلبت فارس الروم فبلغ الخبر مكة فشق ذلك على المسلمين ، لأن فارس مجوس والروم أصحاب كتاب ، وفرح المشركون فنزلت هذه الآية . وقد انتصر الروم بعد ذلك على الفرس كما أخبرت هذه الآية ، وكان انتصارها فى يوم بدر أو يوم الحديبية .

وقُرئ « غلبت الروم » بالبناء للفاعل ، أى على ريف الشام ، « وسيغلبون » أى وسيغلبهم المسلمون بعد ذلك .

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا ﴾ .

فقد قيل : إن رسول الله ﷺ رأى فى منامه قبل خروجه إلى الحديبية كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصروا ، فقص الرؤيا على أصحابه ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها فى عامهم وقالوا : إن رؤيا الرسول حق . فلما تأخر

---

(١) أدنى الأرض : أى أدنى أرض العرب منهم ، وهى أطراف الشام .

ذلك أرجف المنافقون فى المدينة وقالوا : والله ما حلقنا أو قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام . فنزلت هذه الآية ، وفى العام الثانى أتم الله على المسلمين فتح مكة ، فكان ذلك تحقيقا لوعد الله وتصديقا لما جاء فى هذه الآية .

وفى القرآن الكريم كذلك ﴿ أم يقولون نحن جميع منتصر ۝ سيهزم الجمع ويولون الدبر ۝ بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ﴾ .

يروى أن أبا جهل بن هشام ضرب فرسه يوم بدر فتقدم فى الصف وقال : نحن ننتصر اليوم من محمد وأصحابه . فنزلت ﴿ سيهزم الجمع ﴾ . وعن عكرمة : لما نزلت قال عمر : أى جمع يهزم ؟ فلما رأى رسول الله ﷺ يثب فى الدرع ويقول (سيهزم الجمع) عرف تأويلها .

على أن هذا الإخبار وإن كان من رب العالمين ، وإعلانا ممن يعلم السر وأخفى ، فإنه مما لا يمكن أن يقطع به شك الشاكين المعاندين أو إنكار المنكرين الضالين .

وفى استطاعة عنيد الآن أن يدعى أن هذه الآيات نزلت بعد أن تحققت أحداثها وظهرت على صفحات الحياة وقائعها .

وفى استطاعة مكابر أن يقول : إن هذا من باب التمنى والتشهى ، وقد تصدق الأيام ما يتمناه الإنسان ، وقد يتحدث المرء بكلام يعبر به عن أمل يرقبه ، أو حدث يتوقعه ، ثم لا يلبث أن يحدث ما أمل أو توقع كما حدث دون أن يخرم من ذلك شىء .

ولعل خير شاهد على ذلك قصيدة حسان بن ثابت التى حكى فيها ما كان يطمع فيه من فتح مكة ، ثم لم يلبث إلا قليلا حتى فتحت مكة وحدث ما تخيله وتشهاه من هذه القصيدة :

عدمنا خيلنا إن لم تروها	تثير النقع موعدها كداء
ينازعن الأعنة مصغيات	على أكتافها الأسل الظماء
تظل جيادنا متمطرات	تلطمهن بالخمر النساء

ولقد تحققت هذه الصورة كما تشهاها وتمناها حسان ، فإن رسول الله ﷺ رأى يوم فتح مكة النساء يلطمن الخيل ويضربنها بخمرهن يحاولن أن يرددنها عن وجهتها ، فنظر إلى أبى بكر ، قال له : ماذا ؟ قال : حسان ؟ (يقصد هذا البيت) .

ثم ينبغى حين البحث فى نواحى الإعجاز أن نلتمس ناحية تكون طابعا عاما وسمة شائعة فيه حتى يكون من التحدى بكل صورة ويكون الإعجاز متحققا فى كل ناحية .

وليس يستطيع أحد أن يقول إن كل ما فى القرآن حديث عن غيب أو نبوءة بما

سيقع ، على أن المعجزة دائما تكون من جنس ما برع فيه القوم حتى تكون الحجة أقطع ، ويكون التحدى فيهم أوقع . ولم يقل أحد إن بعض العرب قد شارك الخالق فى معرفة غيبه واشتشفاف حجبه ، وإذا كان قد أُثر أن بعض كهانهم يتنبؤون ويستطلعون فذلك ضرب من الاحتيال والبراعة فى انتزاع النتائج من المقدمات ، وقياس الغائب على الشاهد كان لهم منه أوفر نصيب .

٣ — وقيل كذلك إنما أعجز القرآن العرب لما حواه من أحاديث السابقين وأخبار الماضين ، ومما كابدوا فى الحياة من أحداث جعلتهم مضرب المثل وعبرة الأمم .

ففيه أمثال قصة موسى ونجاته طفلا من يد فرعون ، ثم ذهابه إلى مدين ، ثم رجوعه إلى قومه وكفاحه مع بنى إسرائيل — وقصة نوح وبعثه فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، ثم أخذ الطوفان لهم وإغراقهم بما كذبوا الرسل .

وفيه تصوير لما كانت عليه البشرية فى أكثر العهود من ألوان الأخلاق والعادات والطبائع ، وفيه كثير من قصص الأنبياء مما كان يخفيه أهل الأديان عن الناس وينفردون بعلمه ، حتى يعيش الناس فى عمى وجهالة . وقد وبخهم الله على ذلك بقوله جل شأنه ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير ﴾ .

هذا والرسول أمىّ لا يقرأ الكتب ولا يجلس إلى العلماء ولم يؤثر عنه عناية بهذه الأخبار ، كما قال جل شأنه ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذًا لارتاب المبطلون ﴾ . وتلك ناحية على ما فيها من الحجة المقبولة والأسانيد الشائعة ، ليس فيها كذلك مقطع ، فإن الكتب السابقة تشترك مع القرآن فى هذه الناحية . على أن الجاحد المنكر فى حِل من أن يقول إن معرفة هذه الأخبار لا تحتاج إلى قراءة الكتب ولا تتوقف على الخط باليمين ، وكثيرا ما تكون المناقلة وتلقف الأحاديث وسيلة من وسائل المعرفة ..

٤ — ويرى أبو إسحاق إبراهيم النظام أن إعجاز القرآن بالصرفة ، وهى أن الله تعالى صرف نفوس العرب وردّ هممهم عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها ، فكان هذا الصرف خارقا للعادة . فكأنه يرى أن هذا الكلام يستوى مع كلام البلغاء فى مادته الثانية وقدرته البلاغية ، ولكن الله صرفهم عن مجاراته ومنعهم من منافسته .

وقال المرتضى من الشيعة : بل معنى الصرفة أن الله سلبهم العلوم التى تحتاج إليها فى المعارضة ليجيئوا بمثل القرآن . فكأنه يقول : إنهم بلغاء يقدرون على مثل النظم

والأسلوب ، ولا يستطيعون ما وراء ذلك من المعانى لأنهم لم يكونوا أهل علوم .

وأوغل النظام فى القول بالصرفة حتى عرف به ، وشايعه على ذلك بعض من خدعتهم بلاغته وغرهم حسن منطقه . وحجته فى ذلك أن عجز القادر مع وفرة العدة واستكمال الأدلة واجتماع الأسباب أبلغ فى تأييد الإعجاز وأقوى دلالة عليه من الضعف الذاتى الذى يبعثه تخاذل الملكة وقصور البيان .

على أن العجيب الغريب من أمر هؤلاء وما جبلوا عليه من العناد والممارة ، أنهم يسترقون كل حيلة ويصطنعون كل وسيلة لإثبات الصرفة ، ولا يريدون أن يقروا بعظمة هذا الكلام وسموه عن كلام البشر ، كأنما يغصون به وتكاد تزهق أرواحهم إذا ألجئوا إلى تقريره ، ولعله ما يكفى فى الرد على هؤلاء أن الناس يقرأون للعرب ويدرسون القرآن ويستعرضون ثمار القرائح وحصائد الألسنة فى كل عصر — قبل الإسلام وبعده — وما استطاع أحد أن يقول إن كلاما قيل مما يصح أن ينضد مع كلام الله فى عقد أو يسلك معه فى سمط .

قد يقال : إن الله صرف العرب عن قبول التحدى فلم يأتوا بمثل هذا القرآن ، فأين كلام العرب قبل التحدى ؟ وهل هو مما يضاهى به كلام القرآن الكريم ؟ وهل استطاع أحد قبل التحدى أو بعد التحدى أن يأتى بصورة بيانية مثل هذه الصورة ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما تسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ أو هذه الصورة ﴿ فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم * يصهر به ما فى بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد * كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق ﴾ .

يقول الرافعى فى الإعجاز : « إن القول بالصرفة لا يختلف عن قول العرب فيه : ﴿ إن هو إلا سحر يؤثر ﴾ ، وهذا زعم رده الله على أهله وأكذبهم فيه وجعل القول به ضربا من العمى ﴿ أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ﴾ » .

وليس أدل على تحريف النظام وسوء رأيه وقلة ترويه فى ذلك ، مما يقوله فيه تلميذه الجاحظ : « إنما كان عيبه الذى لا يفارقه سوء ظنه وجودة قياسه على العارض والخاطر والسابق الذى لا يوثق بمثله . فلو كان بدل تصحيحه القياس التمس تصحيح الأصل الذى قاس عليه كان أمره على الخلاف ، ولكنه كان يظن الظن ثم يقيس عليه وينسى أن بدء أمره كان ظنا ، فإذا أتقن ذلك وأيقن جزم عليه وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر فى صحة معناه ، ولكنه كان لا يقول سمعت ولا رأيت ، وكان كلامه إذا خرج مخرج الشهادة

القاطعة لم يشك السامع أنه إنما حكى ذلك عن سماع قد امتحنه أو معاينة قد بهرته » .

٥ — هذه طائفة من الآراء فى الإعجاز ، وهناك آراء أخرى للعلماء وكلها مما ينحو هذا النحو أو يتقارب من هذه المذاهب ، وهى إن صدرت فى أكثرها عن إخلاص وعقيدة ، وفصلت عن اقتناع وبينة ، فلم يسلم بعضها من النقد ولم يخلص من التجريح ، على أنها فى جملتها مما يمكن أن يعد من مظاهر الإعجاز ويعتبر من دلائل التأييد .

على أن هناك وجها للإعجاز لا يصح أن يتعلق منه أحد بشبهة ، أو يحوم حوله بمرية ، وهو إعجاز القرآن بأسلوبه البارع ونظمه الفائق العجيب ، وتأثيره القوى على النفوس ونفاذه إلى أعماق القلوب وحسن مداخلته للأفئدة ، وعلوه عن مستوى أبلغ البلغاء علوا كبيرا ، مع شرف المعنى وسمو الحكمة ودقة المثل وروعة التصوير . إن الثابت المعروف أن العرب أعجبوا بالقرآن ، ودهشوا وتحيروا لبلاغته التى عقلت ألسنتهم ، وتأثيره السحرى الذى ملك ألبابهم ، وأسلوبه الذى عظم عن أساليبهم ، وروحانيته الصافية التى أشعرتهم بقيمهم وحاكمتهم إلى قلوبهم وعقولهم ، وحركت ضمائرهم ، وأيقظت أحاسيس الخير فى نفوسهم ، وفتحت أمامهم الآفاق لمثل عليا وحياة كريمة .

ولم يقل أحد إن العرب قد هالهم ما ذكره القرآن من حديث عن الغيب ، أو ذكر لحكايات من سلفوا ووقائع من تقدموا ، إنما الذى بهرهم وملكهم وعقل شياطين السوء فى نفوسهم هو أسلوب القرآن ومعناه .

قيل إن أبا جهل بن هشام قال فى ملأ من قريش : قد التبس علينا أمر محمد ، فلو التمستم لنا رجلا عالما بالشعر والكهانة والسحر ، وكلمه ثم أتانا ببيان عنه . فقال عتبة بن ربيعة : والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علما وما يخفى على ، ثم أتاه والشر ينبعث من عينيه وشياطين السوء تلعب برأسه ، فقال : يا محمد أأنت خير أم هاشم ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ أنت خير أم عبد الله ؟ فيم تشتم آلهتنا وتسب أحلامنا وتضلل عقولنا ، فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا ، وإن تك بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختار من أى بنات قريش شئت ، وإن كان بك المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغنى به . يقول عتبة : هذا ورسول الله ساكت . فلما فرغ من حديثه قرأ عليه محمد ﷺ قوله تعالى ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم حم ۞ تنزيل من الرحمن الرحيم ۞ كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ۞ بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ۞ وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ۞ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلٰهكم إلٰه واحد فاستقيموا إليه

واستغفروه وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ إلى أن بلغ قوله تعالى ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ . وهنا ارتعد جسم عتبة وتساقطت نفسه رعبا وفزعا ، وصاح قائلا « نشدتك الرحم يا محمد أن تمسك » وأمسك بفم الرسول ، فهذا ملكت عليه بلاغة القرآن أقطار نفسه ، فلم يتمالك من أن يصيح مناشدا للرسول أن يكف .

فهل كان الذى راعه وروعه وأشاع الرعب والوجل فى قلبه إلا هذه القوة القادرة الخارقة ، وذلك الأسلوب الحاسم الرصين ، وتلك البلاغة المتدفقة التى تحمل فى ثناياها الصدق والصرامة .

لقد رجع عتبة إلى أهله فلم يخرج لقريش ، فلما احتبس عنهم قالوا : ما نرى عتبة إلا قد صبأ . فانطلقوا إليه وقالوا : يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت . فغضب وأقسم لا يكلم محمدا أبدا . ثم قال : لقد كلمته فأجابنى بشىء ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ، ولما بلغ صاعقة عاد وثمود أمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف ، وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب ، فخفت أن ينزل بكم العذاب .

من كل ذلك يتضح أن إعجاز القرآن إنما جاء من جهة أسلوبه وما فيه من خصائص وميزات يستحيل أن تتهيأ لبشر ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ .

٦ — هذا ويحصى الباقلانى فى كتابه إعجاز القرآن وجوه الإعجاز فيما يلى :

(١) الإخبار عن المغيبات .

(٢) ما فى القرآن من أخبار الأمم القديمة ، مع أمية الرسول .

(٣) نظم القرآن وبلاغته .

ونحن نرى أن إعجاز القرآن إنما يظهر أول ما يظهر فى :

١ — أغراض القرآن وبلاغته .

٢ — وفى ألفاظه وأساليبه .

٣ — وفى معانيه .

فمن جهة أغراضه ومقاصده : نجده فى كل غرض وموضوع غاية فى الإبانة والجلاء ، ونهاية فى الإصابة واطراد الأحكام ، فمن تشريع خالد وتهذيب بارع وتعليم جامع وأدب بالغ ، وإرشاد شامل وقصص واعظ ومثل سائر ، إلى حكمة بالغة ووعد ووعيد وإخبار بمغيب ، وغير ذلك من الأغراض والمقاصد . وقد كان فحول البلاغة

لا يبرز أحدهم إلا فى فن واحد من أنواع القول.. فمن يبرع فى الخطابة لا ينبغ فى الشعر، ومن يحسن الرجز لا يجيد القصيد، ومن يستعظم منه الفخر لا يستعذب منه النسيب، ولأمر ما ضربوا المثل بامرئ القيس إذا ركب، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب، والنابغة إذا رهب.

ومن جهة ألفاظه وأساليبه لا نجد منه إلا عذوبة فى اللفظ، ودماثة فى الأساليب، وتلاؤما فى التراكيب، وليس فيها وحشى متنافر، ولا سوقى مبتذل، ولا تعبير عويص، ولا فواصل متعملة، على شيوع ذلك فى كلام المغلقين، وأهل الحيطة المتروين، حتى إنك لترى الجملة المقتبسة منه فى كلام أفصح الفصحاء منهم تفرعه جمالا، وتشمله نورا، وتكسوه روعة وجلالة، إلى إجمال فى خطاب الخاصة وتفصيل فى تفهيم العامة، وتكنية للعربى وتصريح للأعجمى، وغير هذا مما يقصر عن إحصائه الإلمام، ولم أن ما فى الأرض من شجرة أقلام.

ومن جهة معانيه التى تجدها من غير معين العرب الذى منه يستقون، لاطراد صدقها، وقرب تناولها، واطمئنان النفوس إليها، وابتكارها البديع على غير مثال معهود، من حجج باهرة، وبرهانات قاطعة، وأحكام مسلمة، وتشبيهات رائعة على تمازج وتواصل وبراءة من التقاطع والتدابر، وهو فى جملته نزهة النفوس وشفاء الصدور، وهو الكتاب الخالد الذى لا تبديل لكلماته، ولا ناسخ لأحكامه ولا ناقض ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾.

يقول محمد عبده فى إعجاز القرآن فى كتابه « رسالة التوحيد »: « نزل القرآن فى عصر اتفق الرواة وتواترت الأخبار على أنه أرق العصور عند العرب، وأغزرها مادة فى الفصاحة، وأنه الممتاز بين جميع ما تقدمه بوفرة رجال البلاغة وفرسان الخطابة.. وأنفس ما كانت العرب تتنافس فيه من ثمار العقل ونتائج الفطن والذكاء، هو الغلب فى القول، والسبق إلى إصابة مكان الوجدان من القلوب، ومقر الإذعان من العقول. وتواتر الخبر كذلك بما كان منهم من الحرص على معارضة النبى ﷺ، والتماسهم الوسائل قريبها وبعيدها لإبطال دعوته، وتكذيبه فى الإخبار عن الله، وإتيانهم فى ذلك على مبلغ استطاعتهم. وكان فيهم الملوك الذين تحملهم عزة الملك على معاندته، والأمراء الذين يدعوهم السلطان إلى مناوأته، والخطباء والشعراء والكتاب الذين يشمخون بأنوفهم عن متابعته. وقد اشتد جميع أولئك فى مقاومته، وانهالوا بقواهم عليه استكبارا عن الخضوع، وتمسكا بما كانوا عليه من أديان آبائهم، وحمية لعقائدهم وعقائد

أسلافهم. وهو مع ذلك يخطئ آراءهم، ويسفه أحلامهم، ويحتقر أصنامهم، ويدعوهم إلى ما لم تهتد إليه أيامهم، ولم تخفق لمثله أعلامهم، ولا حجة له بين يدى ذلك كله إلا تحديهم بالإتيان بمثل أقصر سورة من ذلك الكتاب أو بعشر سور مثله، وكان فى استطاعتهم أن يجمعوا إليه من العلماء والفصحاء والبلغاء ما شاؤا ليأتوا بشىء من مثل ما أتى به، ليبطلوا الحجة، ويفحموا صاحب الدعوة. وجاءنا الخبر المتواتر أنه مع طول زمن التحدى، ولجاج القوم فى التعدى، أصيبوا بالعجز ورجعوا بالخيبة، وتحقق للكتاب العزيز الكلمة العليا على كل الكلام »..

(أ) أما أثره فى الأساليب والألفاظ، فيتجلى واضحا فيما يلى:

١ — وحد القرآن لهجات اللغة العربية فى أفصح لهجة وأعذب لغة، وهى لهجة ولغة قريش. ثم حفظ اللغة من الاندراس والانقراض، كما انقرضت لغات كثيرة.

٢ — كان القرآن أول عامل فى ذيوع اللغة العربية وانتشارها وجعلها لغة رسمية عامة فى شتى البلاد التى فتحها المسلمون.

٣ — جدد القرآن الكريم كثيرا من الألفاظ فنقلها إلى معان إسلامية، مثل الإيمان والكفر والنفاق، والصلاة والصيام والزكاة، والركوع والسجود والوضوء والغسل والحج.

٤ — هذب القرآن الأساليب والألفاظ، وذلك بكثرة ترديد المسلمين لآياته على ألسنتهم فى الصلاة والعبادة، وطول درسهم له وتفهمهم إياه واستنباط أحكام دينهم وشريعتهم منه. فنشأ من ذلك أن هجر كثير من الألفاظ الحوشية والمعيبة واستبدل بها الألفاظ العذبة السائغة، وعدل عن الأساليب القديمة المعقدة والمتداخلة بعضها فى بعض إلى أساليبه السهلة الممتنعة، وأبطل سجع الكهان.

٥ — وقد كثرت محاكاة الشعراء والكتاب والخطباء لعبارات القرآن فى ألفاظه وأساليبه، واقتباسهم من آياته فيما يقولون، واستشهادهم بها فى وعظهم ومحاورتهم وجدلهم. ويرى المتتبع لشعر المخضرمين فى أول الإسلام، كحسان وأبى قيس صرمة وكعب بن مالك والحارث بن عبد المطلب ولشعر الإسلاميين، كثيرا من ألفاظ القرآن وأساليبه وكناياته وتشبيهاته.

٦ — وقد خلد القرآن صور البيان الرائع والأساليب البديعة التى استخرجها بعض الأدباء منه، وسموها المحسنات البديعية.

(ب) وأما أثر القرآن الكريم فى معانى الأدب العربى فيتلخص فيما يلى :

١ — شيوع الدقة ، والعمق والترتيب العقلى ، والحصافة والسمو فى معانى الأدب ، — شعره ونثره — يتأثر الأدباء والشعراء بمعانى القرآن الكريم ومحاكاتهم لها .

٢ — هجر المعانى البدوية والحوشية والنابية ، واستعمال الأدب للمعانى الإسلامية الجديدة .

٣ — ترك المبالغة والفحش ، والتزام الصدق والإخلاص فى معانى الأدباء الإسلاميين .

(جـ) وقد أثر القرآن الكريم فى أغراض الأدب شعره ونثره تأثيرا كبيرا :

١ — فقد هجر الأدباء الإسلاميون الأغراض الجاهلية ، من المبالغة فى المدح والفخر والهجاء ، والمجون فى الغزل ، والدعوة إلى العصبيات ، والانتقام والأخذ بالثأر .

٢ — وقد أتى القرآن بكثير من القصص المسوقة للعبرة والذكرى ، كقصص الأنبياء وبعض الملوك ، وكان من أهم الأسباب التى حملت المسلمين على درس تاريخ العرب البائدة والأمم القديمة السامية وغير السامية ، مما جعل التاريخ العربى ذا فنون وشعب كثيرة العدد والمباحث ، وجعلها تحرص على تجديد نفسها . وهكذا أحيا القرآن فنونا أدبية جديدة ، كأدب القصة والتاريخ ، وأدب الزهد وأدب الحكمة .

٣ — وبسبب القرآن عكف العلماء والمفكرون على وضع أصول العلوم والثقافة الإسلامية ، وكثرت الكتابة فى هذه العلوم والثقافات . ولشدة حرص المسلمين على تفهم القرآن من حيث معرفة ألفاظه والوقوف على معانيه الوضعية والمجازية وأساليبه المختلفة وكناياته الدقيقة حملتهم بل فرضت عليهم تتبع ألفاظ اللغة العربية الفصيحة من العرب الموثوق بخلوص عربيتهم ، فكان من ذلك أن تجرد ألوف من الرواة يجمعون من ذلك مئات الكتب والرسائل ، وتألفت بذلك مادة الأدب القديم التى صار فيما بعد أساسا للآداب العربية فى موضوعاتها وأغراضها ومعانيها وتصوراتها وخيالاتها .

٤ — ولقد رفع القرآن من شأن النثر بعد أن كان المقام الأول للشعر وحده من بين فنون الأدب .

٥ — ولقد اكتسب الشعراء والخطباء والكتاب من أساليب القرآن وطرائقه فى التعبير ومناهجه فى سوق الآراء وصياغة الحجج ما جعلهم يحتذون حذوه ، ويتبعون منهجه . فإذا كنا نقرأ فى آى الذكر الحكيم قوله تعالى ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ﴾ أو قوله ﴿ يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ أو قوله ﴿ أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ﴾ .

فإنا نرى هذا الأسلوب البيانى الرائع يتمثل فى قول حسان بن ثابت فى الرد على أبى سفيان بن الحارث حين هجا النبى ﷺ :

أتهجوه ولست له بكفء   فشركما لخيركما الفداء

وإذا قرأنا قوله تعالى ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ . رأينا كذلك حسانا يقتبس هذا الأسلوب البارع فى قوله :

عزيز عليه أن يحيدوا عن الهدى   حريص على أن يستقيموا ويهتدوا

وإذ قرأنا قوله تعالى ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ رأينا معن بن أوس يقول متأثرا بأدب القرآن :

فما زلت فى لينى له وتعطفى   عليه كما تحنو على الولد الأم

و خفض له منى الجناح تألفا   لتدنيه من القرابة والرحم

وكما أثر القرآن فى أساليب الأدباء كذلك أثر فى تفكيرهم ، حتى لقد رأينا الحطيئة وهو أقرب إلى جفاء البدو وخشونة الأعراب يقول :

ولست أرى السعادة جمع مال   ولكن التقى هو السعيد

وتقوى الله خير الزاد ذخرا   وعند الله للأتقى مزيد

والحق أن القرآن الكريم هو الذى خرج أعلام البلاغة وفحول البيان والأدب والشعر .

الصورة الأدبية فى القرآن الكريم

أولا :

(١)

نريد من هذه الدراسة أن نتعرض لجدة القرآن الكريم من كل جوانبه ومجالاته ونواحيه الأدبية ، فضلا عن شتى جوانبه الروحية والفكرية والإنسانية ، التى كانت جدتها حدثا كبيرا ضخما من أهم الأحداث العالمية ، وأكبرها إثارة وجليل أثر وكبير خطر فى الحياة .

ولا يستطيع منصف أن ينكر أن القرآن الكريم من ناحيته الروحية والفكرية قد أتى بكل جديد .. وبأكثر وأكبر مما أتى به أى جديد ، وأن جدة القرآن الكريم حقيقة

وجدت ولا تزال موجودة حتى اليوم . ومع كل ما وصل إليه الفكر الإنسانى من تطورات مذهلة ونتائج جديدة فى نطاق ميدان البحث والكشف والتقدم والحضارة ، وجدة القرآن الكريم باقية ماثلة أمام كل تطور إنسانى وبشرى ، وأمام كل تقدم فكرى بلغته الحياة حتى اليوم . والقرآن الحكيم كما كان جديدا على عقل إنسان القرون الأولى لنزوله ، فإنه بفكره المشرق المضئ وما أتى به فى مجال العقيدة والشريعة وبناء الحياة على أقوم الأصول وأرسخ الدعائم هو جديد أبدا ، وسيظل هو الجديد دائما على مر العصور والأجيال والأحقاب .

لن نفيض فى الحديث إذن عن الجدة فى القرآن الكريم من حيث نواحيه وآثاره الدينية والعقلية والسياسية والاجتماعية ، ولكننا نريد أن نبحث هنا عن جدة الصورة الأدبية فى القرآن الكريم .. ويدفعنا إلى ذلك أمران :

الأول : جانب المعجزة فى القرآن الكريم .

والثانى : جانب المعرفة لأهمية هذا الكتاب العظيم وقيمته من الناحية الأدبية ، فضلا عما يجمع عليه كل المنصفين من أهميته وقيمته وأثره فى الناحيتين الروحية والفكرية .

ولا يستبين للباحث أهمية أى نص من نصوص الأدب ، أو أثر من آثاره الرفيعة إلا إذا أدرك إدراكا عميقا مدى الجدة فى هذا الأثر ، ومدى ما يحويه من عناصر التجدد والحياة والنمو والزيادة التى يضيف بها إلى الفكر الإنسانى شيئا لم يضفه إليه السابقون .

ومن حيث كانت جدة القرآن فى جوانبه الروحية والفكرية أمرا مسلما به ، فإن الذى سينتهى بنا الحديث إليه هو تقرير الجدة فى الصورة الأدبية للقرآن الكريم أيضا ، لأن تقريرها أساس لتقرير أى أثر وفهمه ومعرفة قيمته .

ولماذا نخص حديثنا هنا ببحث الجدة فى الصورة الأدبية للقرآن ، ولا نطلق البحث إطلاقا ليصبح الغرض منه البحث عن مدى ما فى القرآن من الجانب الأدبى عامة من جديد ؟

نعم نريد أن نبحث عن الجديد فى الصورة الأدبية للقرآن الكريم وحدها ، لأن الصورة الأدبية هى الإطار العام للأدب ، وهى التى تحدد للأدب شتى عناصره وأصوله وخطواته ومختلف وظائفه ، وهى التى تستثير الباحث أول ما يستثيره فى النص الأدبى من خصائص ومميزات ، على أن الصورة الأدبية فى النص تبقى موضع اتفاق تام بين جميع الكتاب والآثار الأدبية ، ولا تختلف عندهم كبير اختلاف نادرا جدا وفى أقل حدود الاختلاف والفوارق الفنية للأدب .

والصورة الأدبية لها معنيان عند نقاد الأدب :

الأول : أنها تعنى المنهج وطريقة الأداء ، وتساوى بهذا المعنى ما نطلق عليه اسم الجنس الأدبى من قصيدة ومقالة وخطبة ورسالة وقصة إلخ .

والثانى : أن الصورة هى الشكل فى النص الأدبى ، وتقابل المضمون الذى هو الفكرة أو المعنى ، أو الغرض أيضا (مع بعض التجاوز) فى النص . فعلى هذا تكون الصورة التى هى الشكل فى النص الأدبى شاملة للعبارة — أى الأسلوب — وللخيال الذى يلون عاطفة الأديب ويصورها . وعندئذ نقف فى النص بين الشكل والمضمون ، فيجب على الأديب أن يوازن بينهما موازنة دقيقة ، فلا يطغى أحدهما على الآخر . فلا يطغى المضمون على الشكل أى الصورة وإلا خرج الكلام من باب الأدب إلى العلم ، ولا تطغى الصورة على المضمون وإلا كان الكلام أدبا لفظيا إنشائيا لا وزن له فى باب الفكر ، بل فى مجال الأدب أيضا .. وحينئذ يجب أن يهتم الأديب بالمضمون أو الفكرة كما يهتم بالصورة أو الشكل .

وسوف نتحدث هنا عن جدة الصورة الأدبية فى القرآن الكريم بالمعنى الأول الذى هو طريقة الأداء ، ونتحدث بعد ذلك عن جدة الصورة الأدبية بالمعنى الثانى الذى هو الشكل أو النظم أو الأسلوب .

(٢)

كانت الصورة الأدبية عند العرب الجاهليين قد انتهت إلى جنسين كبيرين هما النثر والشعر ، فوقف النثر عند الخطبة والوصية والنصيحة والمثل والحكمة والمنافرة والمفاخرة والمحاورة وسجع الكهان والأسطورة والقصة الشعبية القصيرة ، ووقف الشعر عند القصيدة الغنائية بشكلها المعروف المألوف .

ولم يكن للنثر وفنونه وأجناسه فى المجتمع العربى كبير خطر ولا عظيم شأن ، وكان أكثره ارتجالا واقتضابا وليس فيه ثقافة واسعة ولا فكر مضىء . وأكثره يذهب فى الشتات والاختلاف وتفكك الوحدة الفنية « أو العضوية » مذهبا بعيدا ، فضلا عن أن النثر لم يحفل به المجتمع الجاهلى احتفالا يذكر ، ولم يوله عناية ما ، ولا أحله منزلة خاصة . وفوق ذلك كله فقد فقد النثر قيمته بفقدان أصوله قبل التدوين ، ولضياع أكثره للمدة الطويلة التى عاشها هذا النثر معتمدا فى بقائه على المحافظة وحدها .. والمحافظة يند منها النثر ولا يبقى طويلا فيها بعكس الشعر لأنه مقيد والنثر مطلق ، والمقيد يبقى فى الذاكرة أكثر مما

يبقى المطلق . ومع ذلك كله فهذا النثر المأثور عن العصر الجاهلى قد رفض كثير من الدارسين والنقاد ، ومن بينهم لفيف من المستشرقين وطه حسين أيضا ، رفضوا أن يسمى نثرا فنيا لأنه فى رأيهم لم يكن محتويا على عناصر النثر الفنى ومقوماته ، وذهبوا إلى أنه أشبه بالنثر الشعبى الذى يستعمل لغة لأحاديث الحياة اليومية العابرة .. ولكل هذه الأسباب كانت الصورة الأدبية النثرية عند العرب الجاهليين غير ذات أهمية تذكر فى مجال النقد وموازين الكلام ، والحديث عن القيمة الفنية .

ولقد بقيت القصيدة الغنائية وحدها أرفع صور الأدب فى مجتمع الجاهليين ، وهو المجتمع الذى نزل فيه القرآن الكريم متحدثا إليه مفيضا فى التوجه — كل التوجه — له .

وهذه القصيدة الغنائية قد مرت بأطوار عديدة من التهذيب الفنى ، حتى انتهت إلى ما انتهت إليه من قصيدة المعلقات المعروفة ذات الصيغة المتوازية العمودية ، التى وضعت تقاليدها الفنية العريقة كل ألوان التقاليد الشعرية للقصيدة العربية التى ورثناها عن الجاهليين . وكانت لهذه القصيدة منزلتها ومكانتها وأهميتها فى المجتمع العربى ، فهى حديث الناس وموضع اعتزازهم وتقديرهم وفخرهم ، وهى التى ينشدونها فى مجالس لهوهم وجدهم ، وفى مسامراتهم وأنديتهم ، وفى أسواقهم وحروبهم وحلهم وترحالهم ، وهى على العموم آية عبقرية ، ودليل شخصية ، وذاتية عظيمة . والشاعر عندما يكتبها ترتفع قيمته الاجتماعية فى مجتمعه ، ويصبح وله كل ألقاب الحمد والمجد والتقدير بين الناس . وبلغ من أمر قصيدة المعلقات أن علقت على أستار الكعبة .

وإذا أردنا أن نعرف قيمة قصيدة المعلقات هذه لنرى مدى ما تستحقه من تقدير رأينا أنها :

١ — تخلو من كل قيمة فكرية أو إنسانية أو روحية .

٢ — وأنها تخلو من كل وحدة فنية ، مما لاحظه عليها كثير من النقاد المعاصرين من أمثال العقاد فى كتابه « مراجعات » ، وغير العقاد أيضا كأحمد أمين فيما كتب عن الشعر الجاهلى فى مجلة الثقافة .

٣ — وأنها تمثل منهجا بدويا فى التعبير والأسلوب واللفظ والخيال ، وليس هو كل شىء فى مناهج التعبير الأدبى .

٤ — وأنها كذلك تكثر أخطاء الشاعر اللغوية فيها كثرة مذهلة .

ولسنا نقول نحن ذلك تجنيا على القصيدة العربية القديمة ، بل لقد سبقنا إلى ذلك الإمام الأكبر أبو بكر الباقلانى فى كتابه المشهور « إعجاز القرآن » الذى درس معلقة

امرئ القيس المشهورة فى صفحات عديدة من كتابه ، وأبان ما اشتملت عليه من أخطاء لغوية وفنية وغيرها ، وراجع فى ذلك كتاب (الإعجاز البلاغى) للدكتور أبو موسى

ونحن نعرف أهمية قصيدة المعلقات معرفة وثيقة ، فهى التى وضعت كل الأصول الفنية للقصيدة العربية ، وهى التى تمثلت فيها البلاغة العربية بجميع خصائصها تمثلا كاملا ، وهى التى استنبطت منها أحكام اللغة العربية وقواعدها فى بيانها ونحوها وصرفها واشتقاقها وأحكام مفرداتها ونظام معجماتها وغير ذلك .

وهى كذلك أمدتنا بالشاهد والمثل على كل شىء فى لغتنا العربية ، ومن أجل ذلك كان ابن عباس رضى الله عنه يقول : إذا عز عليكم فهم شىء من كتاب الله تعالى فالتمسوه فى شعر العرب ، فنحن لا نريد أن نغض من قيمة القصيدة الشعرية الجاهلية أو ننفر منها ، ولكننا نضعها فى موضعها الذى وضعه فيها الإمام الباقلانى فى مقام حديثه عن إعجاز القرآن الكريم .

هذه القصيدة الشعرية إذن كانت أرفع صور الأدب فى مجتمع الجاهليين ، ومع ذلك فإنها لا تزن شيئا فى مقام الحديث عن الصورة الأدبية فى القرآن الكريم .

(٣)

فما هى إذا الصورة الأدبية فى القرآن الكريم والجديد فيها ، والطريف منها ، والشىء الذى لم يعرفه الجاهليون من أجناسها وفنونها وألوانها وطرق أدائها ؟

لأول وهلة نجد أنفسنا أمام أشياء جديدة كل الجدة ، ففرقان وقرآن وآيات وسور وأسماء جديدة لمسميات جديدة كذلك .

﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ﴾[١] .

﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعاملين نذيرا ﴾[٢] .

﴿ آلر تلك آيات الكتاب المبين ۝ إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ﴾[٣] .

﴿ طه ۝ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾[٤] .

﴿ سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون ﴾[٥] .

ولم ينزل القرآن الكريم على النمط المألوف من كلام العرب ، فلم يتخذ شكل

(١) سورة الإسراء : آية ١٠٦ (٢) سورة الفرقان : آية ١ (٣) سورة يوسف : آيتا ١ ، ٢
(٤) سورة طٰه : آيتا : ١ ، ٢ (٥) سورة النور : آية ١

القصيدة الجاهلية نمطا له . ولم يأت على أسلوب الخطابة ولا الوصية ولا المثل ولا الحكمة ولا المنافرة ولا المفاخرة ولا المحاورة .

ولكننا نجد فيه القصة فى أرفع أشكالها وأروع ظلالها ، ونجد فيه الخيال الرفيع فى ألوان بديعة من التمثيل والتشبيه والمجاز والكناية والاستعارة ، ونجد فيه البشارة والإنذار والوعد والوعيد ، ونجد أرفع الأوصاف وأجل الصور .

لم يكن القرآن شعراً ولا سجعا ولا مزاوجة ولا نثرا مرسلا ولا خطابة ، بل جاء على مذهب خارج عن المعهود من نظام كلام العرب ، ومباين للمألوف من مناهج كلامهم ، ينصرف على وجوه مختلفة من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحكم وأحكام ، وإعذار وإنذار ووعد ووعيد وتبشير وتخويف ، وأوصاف وتعليم ، وسيرة مأثورة ، ويتردد بين طرفى الإيجاز والإطناب ، كلمه يضىء كما يضىء الفجر ، ويزخر كما يزخر البحر ، كالروح فى البدن ، والأمن فى الوطن ، وكالغيث الشامل والسحاب الهاطل ، وكالضياء الباهر والبحر الزاخر ..

وإن تعجب فعجب تصوير القرآن الكريم للحياة الإنسانية فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، وللنفس البشرية فى سلمها وحربها ، ولهوها وجدها ، وأملها وألمها ، وكفرها وإيمانها ، وللمثل العليا فى الحياة المهذبة الكريمة التى يسعى إليها إنسان الإسلام ، وتسير لشاطئها الأمين إنسانية الحياة فى ظلال الدين ، لأنه خلاصة لكل ما فى الحياة من ثقافة وحقائق ، والمنهج الكامل للحياة الروحية والاجتماعية والبشرية الكاملة الصحيحة السليمة .

وفى القرآن الكريم سمو وصفاء الحكمة ، وتمام مطابقة المثل ، ما جمع به البلاغة من مختلف أقطارها . وفيه من الحجة الدامغة ، والروحانية الصادية ، والحديث عن العقيدة ، والإفاضة فى بيان الشرك والإيمان ، والشر والخير ، ما يوقظ الضمائر ويحرك العقول ، ويثير النفوس .

وفيه من أخبار الأمم الماضية ، والفرق الخالية ، والشرائع البائدة ، والأديان السالفة ، ومن أخبار أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ومن الإخبار بالمغيبات ، ومن الإفاضة فى شرح الدعوة ، وبيان التشريع ، والاستدلال على حقائق الأمور بالآثار الشاهدة فى خلق السموات والأرض ، وبقياس الغائب على الشاهد ، وبضرب الأمثال ، وبالبراهين العقلية المجردة . وفيه من حسن التقسيم ، وجمال المقابلة ، وروعة الطباق ، وبديع الجناس ، ورفيع الفواصل ، ما يهز القلوب ويملك على عقل الإنسان كل منافذه وأبوابه .

ومع ذلك كله فهو ليس كتاب قصص ، وليس كتاب متعة وتسلية ، وليس سفر أدب أو حكمة أو تاريخ أو اجتماع ، وإنما هو خلاصة لكل ما فى الحياة من حقائق ومعارف وعلوم وثقافات ، ومنهج كامل لكل جانب من جوانب الحياة الروحية والعقلية والاجتماعية والسياسية ، فهو كتاب الإنسانية كلها ، وصحيفة البشرية قاطبة .

وما أروع القرآن فى فواتحه ومقاصده وخواتيمه ، وفى مبادئ آياته وفواصلها ، وفى حديثه عن المعانى الدقيقة والأفكار العميقة والأغراض النبيلة ، وفيما اشتمل عليه من دقة التصوير وجمال الوصف ، مع سمو التعبير وعظمة التأثير ، وروعة الإيجاز وسحر المجاز ، وبلاغة التكرار وفصاحة التعريض ، يصور نعيم المؤمنين وسعادة المتقين ، فيدعك تشعر بالراحة والنشوة ، وبالسعادة والفرحة ، وبالسرور والحبور ، وبقرة العين وانثلاج الصدر ، وبالعجب والطرب . ثم يصور هلاك العاصين ، وشقاء الجاحدين ، وعذاب الكافرين ، فيتركك حليف الهم والحزن ، والتذكر والاعتبار ، والتفكير والتدبر ، والألم والأمل ، والبكاء والعبرة المنسكبة ، والآهة المرددة .

والسورة القرآنية قصيرة أو طويلة تجىء ممثلة لفكرة ، ومصورة لغرض ، ومؤدية لمعنى ، وتسير فى جوها العبق ، وأفقها الساحر ، وجوانبها المشرقة ، فتسير مع الفكرة المقصودة خطوة خطوة ، وتجدك تمشى مع العرض القرآنى غاية فغاية ، فى وحدة واتساق ، وفى نظام عجيب ، وترتيب غريب ، وفى منطق منسق ، وحجج متدافعة متدفقة ، وتجد الآيات تتحرك فى معرض الاستدلال كأنها موكب من نور ، ومهرجان مصور لأدق خفايا الشعور ، وحنايا الصدور ، وتجد فى هذه السورة فكرة واحدة غير الفكرة التى تمثلها السورة الأخرى ، وغرضا واضحا غير الغرض الذى ترى إليه السورة السابقة أو اللاحقة .

وتجد افتتاحات السور العجيبة ، مثل ص ، ن ، ق ، ط ، طسم ، طسن ، حم ، آلر ، ألم ، إلى غير ذلك .

ونجد الآيات تتوالى فى الصورة وكأنها البحر الهادر والموج العاصف ، وتجد الفواصل فى السورة موقعة الخطا منغمة الحروف ، وتجد القصة والعبرة ، والموعظة والحكمة فى قالب من السحر ولا كسحر هاروت وماروت ، وفى طابع من الحسن والجمال ولا كحسن يوسف وإخوته .

وتجد لكل سورة اسما عجيبا .. البقرة ، والرعد ، والطور ، والمائدة ، والكهف ، ويونس ، ويوسف ، وإبراهيم ، ومحمد ، والنور ، والمؤمنون ، والمنافقون ، والضحى ،

والشمس ، والقتال ، والفتح ، والحشر ، والصف ، والنساء ، والطلاق ، والتحريم ، والأحزاب ، والمائدة ، والأنفال ، والتوبة ، وآل عمران ، والجمعة ، والعصر إلى غير ذلك ، وتجد لكل اسم من أسماء السور قصة ، ولكل قصة حدثا وعبرة .

وكل ذلك نمط مخالف لأنماط البيان عند الجاهليين ، وصورة مباينة لصورة البلاغة عند العرب الذين نزلت عليهم هذه المعجزة الإلٰهية الحكيمة .. إنها صورة أدبية جديدة لا تجد لها مثيلا ولا شبيها بها ، ولا تجدها نفسها إلا فى القرآن الكريم .

سبحانك ربى أنزلت القرآن ، وفصلت الفرقان ، وأحكمت البرهان ، وأنت رب العالمين ، ومنزل الكتاب المبين ، ورأى العرب الكتاب شيئا عجبا ومنطقا جديدا ومنطلقا فسيحا من الحكمة الإلٰهية الجليلة ، فقال عتبة بن ربيعة حين ذهب فاستمع إلى محمد يتلو آيات الكتاب : « لقد كلمته فأجابنى بشىء ما هو بسحر ولا كهانة ولا شعر » إنما هو الوحى ، الوحى المنزل على محمد بن عبد الله ، الوحى الذى نفس بعض العرب على محمد أن ينزل عليه ، حتى لقد جاء الوليد بن المغيرة إلى الأخنس بن شريق يقول له : ما تقول فيما سمعت من محمد . فقال الأخنس : ماذا أقول ؟ قال بنو عبد المطلب : فينا الحجابة . قلنا : نعم . وقالوا : فينا السقاية . فقلنا : نعم . ثم عادوا يقولون : فينا نبى ينزل عليه الوحى ، والله لا آمنت به أبدا .

إنه الوحى المنزل من السماء ، المشتمل على الروعة والجمال والجلال والبهاء ، وكفاه ، كذلك فخرا على فخر ، وسناء على سناء .

ثانيا :

(١)

ونتحدث هنا عن الجدة فى الصورة الأدبية القرآنية ، التى تريد منها الشكل وما يقابل المضمون ، بعد أن تحدثنا عن الجدة فى الصورة الأدبية القرآنية التى يراد منها الجنس الأدبى وطريقة الأداء والمنهج الذى يؤثره المتكلم فى التعبير .

والصورة التى نريد أن نتحدث هنا عنها ، ونريد بها الشكل فى النص القرآنى ، لا يمترى أحد ولا يشك متذوق لبلاغة الكلام فى أنها والجدة صنوان ، وفى أنها تعلو ببلاغتها على كل بيان .

تتكون عناصر الصورة من الدلالة المعنوية للألفاظ والعبارات ، ويضاف إليها

مؤثرات يكمل بها الأداء الفنى من الإيقاع واللحن للكلمات والعبارات ، ومن الصور والظلال التى يرسمها التعبير ، ثم هناك طريقة تتناول الموضوع ، أى الأسلوب الذى تعرض به التجربة الأدبية .

والصورة المثيرة للالتفات هى القادرة قدرة كاملة على التعبير عن تجارب المتكلم ومشاعره ، والتى تتجمع فيها روعة الخيال والنعم ووحدة العمل الأدبى ، وتظهر فيها شخصية الأديب وتخيره للألفاظ تخيرا دقيقا .

ويقف البليغ أمام اللفظ طويلا يؤثر لفظة على لفظة ، ويفضل كلمة على كلمة . ويقول كثير من النقاد : إننا نفكر بالألفاظ ، أى أن الألفاظ هى مظهر إدراكنا الفكرى . وعمل الأديب تهيئة الجو الفنى للألفاظ لتشع على قارئها وسامعها الظلال والإيقاع ، وترسم الصور وتؤدى المعانى فى رشاقة وحركة وتتابع وعذوبة . نقرأ قوله تعالى فى كتابه العزيز فى سورة ﴿ والضحى ● والليل إذا سجا ﴾ فنجد جوا من الهدوء والطمأنينة والنعمة . ونقرأ قوله تعالى ﴿ فأصبح فى المدينة خائفا يترقب ﴾ ، فنجد كل لفظ فى التعبير قد رسم صورة مذعور يلتفت فى كل جانب خوفا وطلبا لموضع الأمن . ونقرأ قوله تعالى ﴿ عتل بعد ذلك زنيم ﴾ فنجد البلاغة فى أرفع منازلها ، ولا نجد لفظا يمثل الجفوة والغلظة ووحشة الطباع مثل هذه اللفظة . وهكذا نجد ألفاظ القرآن الكريم تمثل المعانى تمثيلا دقيقا رائعا كاملا غير منقوص ..

والخيال فى الصورة الأدبية يبدو فى مظاهره العديدة من التشبيه والمجاز والكناية والاستعارة وحسن التعليل ..

والإيقاع أو اللحن فى الصورة الأدبية عنصر لا يقل أهمية عن الخيال .

وموهبة البليغ تجعل أسلوبه مملوءا بالحيوية والمتعة والتأثير ، وتجعله لا يقلد أحدا فى لفظه ولا فى عبارته . وليس الأسلوب حشدا من الألفاظ المرصوصة ، ولكنه تعبير عن تجربة شعورية ، وترتب الكلمات فيه وفق ترتب المعنى فى الذهن .

ومن دلائل بلاغة الكلام أن يراعى فيه مقامات الكلام وأحوال بلاغته ، فتوضع الجزالة فى موضعها ، والرقة والعذوبة فى موضعهما ، ويوضع التقديم والتأخير ، والذكر والحذف ، والوصل والفصل ، والإيجاز والإطناب ، كل فى موضعه . وبذلك تكمل الصورة وترتفع منزلة الأسلوب فى البلاغة . ومن البدهى أن أبلغ الكلام هو ما لا يلقى فيه بالأحكام الفكرية جزافا ، وإنما يجب أن يصور الأسلوب المراحل المختلفة لانفعال المتكلم وإحساسه بالتجربة الشعورية التى يصورها .

(٢)

والصورة الأدبية بهذا الاصطلاح النقدى كله هى كل شىء فى البلاغة ، أو أهم شىء فيها . ولو أردنا أن نقول إن الصورة الأدبية بهذا المعنى ، وهو ما يرادف الشكل أو النظم أو الأسلوب جاءت على أبلغ ما يكون الأداء فى القرآن الكريم ، وعلى أروع ما يكون التصوير فى أسلوب الذكر الحكيم ، لما أتينا بجديد فى الموضوع .

إن البلاغة القرآنية تحمل عناصر جديدة كل الجدة ، عما ألف العرب فى بلاغاتهم. وليس معنى ذلك أن القرآن الكريم خرج فى أسلوبه وصوره عن النطاق الذى كان العرب يستعملونه من حيث الذكر والحذف ، والتقديم والتأخير ، والقصر ، والوصل والفصل ، والإيجاز والإطناب ، والتشبيه والتمثيل ، والمجاز والإيجاز ، والاستعارة والكناية ، والتمثيل والتعريض ، ولكنه ارتفع بهذه العناصر البلاغية إلى مستوى القمة وحد الإعجاز ، ومنزلة السحر والروعة . ولو أردنا أن نوازن بين تشبيه قرآنى وبين نظائره من كل العرب وجدنا البون شاسعا ، والفرق بعيدا . ويطول بنا الأمر لو وازنا بين أساليب القرآن وأساليب العرب ، فإن النتيجة التى سنخرج بها من هذه الموازنة هى عظمة القرآن وجلاله وسموه وروعة الأسلوب والسحر فيه .

والعناصر الأخرى الجديدة فى الصورة الأدبية القرآنية كثيرة لا يمكن حصرها ، ولا تزال علوم البلاغة والنقد تسير فى طريقها محاولة الكشف عنها ، من مثل الوحدة العضوية فى الصورة الأدبية ، ومن مثل التجربة الأدبية التى يؤديها البليغ ويحملها كلامه ، ومن مثل العاطفة والفكرة والخيال فى الصورة ، ومن مثل النظم والشكل فى النص ، ومن مثل أثر الإلهام أو الصنعة فى الصورة الأدبية ، ومن مثل الرمزية فى الأسلوب أو الفكرة ، ومن مثل الوضوح والجمال والتأثير فى الأسلوب . وهناك قضايا تناولها النقاد القدامى تتصل بالصورة الأدبية ، كالرقة والجزالة ، وكالتعريض والكناية ، وكالطباق والمقابلة والتورية وغير ذلك .

والعناصر القرآنية للصورة الأدبية فيه تمثل الجدة كل الجدة فى كل جوانبها وألوانها ، سواء منها العناصر القديمة التى تدوول استعمالها فى الأسلوب ، أو العناصر الجديدة التى كشف عنها النقاد المحدثون ، أو القضايا البيانية المتصلة بالصورة التى كشف عنها النقاد القدماء . ولو حاولت أن أبين كل ذلك فسوف أكون كمن يحاول أن ينقل ماء البحر كله فى ساعة أو بعض ساعة ، وكمن يظن أن فى قدرته الإحاطة بكل ما كتبه العلماء والنقاد فى أسرار بلاغة القرآن الكريم وإعجازه .

(٣)

وحسبك أن أسلوب القرآن نمط فريد من البلاغة والروعة وسمو الروح وجلالها، من إشراق البيان وجمال الديباجة، وعبقرية التصوير والتعبير.

أسلوب جمع بين الجزالة والسلاسة، وبين القوة والعذوبة، وبين حرارة الإيمان وتدفق البيان، فهو السحر الساحر، والنور الباهر، والحق الساطع، والصدق المبين.

نظم رائع، وألفاظ عذبة، وخيال صادق، وعاطفة حارة، وفكر رفيع، تملك على القارئ والسامع لبه ووجدانه، وعقله وبيانه.. ولما سمعه فصحاء العرب وأرباب البيان والبلاغة فيهم سجدوا له خاشعين، وما إيمان عمر حين سمع « طه »، وما فزع عتبة بن ربيعة وقوله « والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر » حين سمع « فصلت »، وما تردد بلغاء العرب على الأماكن التى كان يتعبد فيها محمد ليلا ليسمعوا هذه البلاغة الباهرة خفية، إلا دليل السحر القرآنى الذى جعل العرب يصفونه متعجبين بقولهم: إن هو إلا سحر مبين. وقولهم ﴿ إن هذا إلا سحر يؤثر ﴾. السحر القرآنى الذى يتمثل فيما يتمثل فى صدق الشعور، وحرارة العاطفة، وجمال النظم، وإحكام البيان، وروعة التصوير.

إى والله، وهل تجد أفصح ولا أجزل ولا أسلس من ألفاظه؟ وهل ترى نظما أحسن تأليفا وأشد تشاكلا وروعة، من نظمه العجيب، وأسلوبه الغريب، الآخذ بمجامع القلوب، ومشاعر النفوس؟

إن بلاغة الصورة الأدبية وجدناها فى القرآن الكريم لا يحيط بها وصف واصف، ولا يستطيع أن يكشف عن خصائها وأسرار إعجازها باحث أو ناقد.

وحسبك روعة القرآن وجدته وحيويته وأخذه بالأفئدة، والأسماع والمشاعر والعواطف والنفوس، وحسبك خلوده على مر الأيام، واختلاف البيئات والعصور.

هذه البساطة فى الأسلوب، والوضوح والجمال والدقة والقوة فيه، والجزالة والعذوبة فى أطرافه ونواحيه، تمثل فيما تمثل جانبا من جوانب عظمة التصوير فى القرآن الكريم.

وهذا أعرابى سمع قوله تعالى ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ فسجد وقال: سجدت لفصاحته. وهذا آخر سمع قوله تعالى ﴿ فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا ﴾ فقال: أشهد أن مخلوقا لا يقدر على هذا الكلام..

وماذا نقول فى حسن التأليف، وتخير الألفاظ، والتئام الكلمات، وإحكام الصنعة، وجودة السبك، وكمال البيان، وجمال الرونق، ومتانة النسج؟ وماذا نقول فى هذا النظام الفريد، والنسق الغريب، وفى هذه النضارة والجلالة، وفى ذلك الإشراق والبهاء ودقة الصوغ؟.

ألفاظ كأنها السحر، وكأنها الدر تشع نورا كما يشع الفجر، وتهدر حركة وحياة ونموا وتجددا كما يهدر البحر، وتهدأ وتعذب وتسلس كما تهدأ صفحة النهر.

وصور تموج كما تموج العواطف، وتتحرك كما تتحرك الأشباح لراكب مسرع فى السير.

وبلاغة هى حديث الأيام، والتى سلم بها فحول النقاد والبلغاء على توالى الأعوام، وما هى إلا الضوء السافر، والهدى الباهر، والوحى الصادق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

أوَرأيت وسمعت ما قاله الوليد بن المغيرة، وقد تردد على الرسول وسمع منه فقال لقومه: والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى ولا برجزه ولا بقصيدة، ولا بأشعار الجن. والله ما يشبه الذى نقول شيئا من هذا، ووالله إن لقوله الذى يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه.

والسور القرآنية تطول وقد تقصر، وهى مع ذلك مسلسلة محكمة متصلة الحلقات، مشرقة الصور والقسمات والصفحات، نسق هو السحر، وتآخ وصفاء وتعاقب فى الترتيب كأنه الوحدة الإلٰهية التى دعا إليها القرآن ممثلة فى كلمات.

المعنى عند العربى كان يتم بتمام الجملة، وهذه الجملة قصيرة فى نظمهم، ولكل جملة معنى، وتتوالى المعانى دون ترتيب ولا نظام. وجاء القرآن الكريم فصارت الجملة تمثل أرفع المعانى وأدقها، نظام وتآخ ووحدة تامة بين الجمل بعضها والبعض الآخر. وقد تطول الجملة القرآنية وتتركب فيها الصور، وتتوالى المشاهد، وتتعاقب المعانى، وقد لا يؤدى المعنى القرآنى آية أو آيات، بل عشرات الآيات، ومع ذلك فلن تجد إلا فكرا مهذبا، ونظاما محكما، وتصويرا منمنما، ووشيا منمقا، وإحكاما فى الصياغة، ودقة فى الصناعة، ولن تجد إلا وشيا يبهرك جماله، ويسحرك جلاله، ولن تجد إلا العذوبة والرشاقة والسلاسة والوضوح.

والصورة القرآنية تتميز بالحركة ودقة التصوير، وإبراز معالم المعنى جزءا جزءا وحركة بعد حركة، وإن شئت فاسمع قوله تعالى ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن فلا

تسمع إلا همسا ﴾، وقوله تعالى ﴿ وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما ﴾، وقوله تعالى ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعا ﴾، ولو وقفنا عند هذه الآية الأخيرة — وهى من سورة الكهف — لرأينا فيها هذا الإيجاز الرفيع البليغ مع أداء المعنى كاملا غير منقوص، ولرأينا فيها هذه الصورة البديعة الممثلة لأروع تصوير للغرض المقصود. الآية ثلاث جمل قصار :

١ — وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض.
٢ — ونفخ فى الصور.
٣ — فجمعناهم جمعا.

وترى فى الجملة الأولى الحركة والتدافع والاختلاف والاضطراب وما يصيب الناس من أثر ذلك من أهوال وعذاب وشدة، والسر فى ذلك هو كلمة يموج التى أدت لك الصورة كاملة، والمشهد رائعا، والمعنى ممثلا أدق تمثيل، وأدت لك الحركة والحياة، ومشت بك إلى آفاق رحيبة من جلال الأداء وروعة النظم ودقة المعنى وسمو التصوير.

وفى الجملة الثانية لا تجد أبلغ من هذا التمثيل الذى يصور لك قدرة الله معلنة بأروع مظاهر هيمنتها وسيطرتها إلى الناس أن قد جاء أمر الله، وأن نهاية الأمر لا بد أن توضع، وأن الناس وهم فى أمر مريج لا بد أن يستيقظوا لحدث جديد، وأمر عتيد، وقدر شديد.

وتجىء الجملة الثالثة تعلن إليك أن الله عز وجل يجمع الناس جميعا إلى ساحته العظيمة ليفصل بينهم يوم القيامة بالحق والميزان، وأن قدرته لا تعجز عن جمعهم مع هول كثرتهم، وشدة شتاتهم. ومن ثم جاء التأكيد بالمصدر « جمعا » ليدلك على عظمة القدرة، وروعة المشهد، وجلال اليد المصرفة لأمر الخلق فى هذا الموقف العصيب.

ولو أن بليغا من أبلغ الناس، ومن أذكاهم وأحذقهم بصناعة البيان، حاول أن يؤدى هذا المشهد العظيم ويصوره، وأن يمثل هذا الحدث الجليل ويرسمه، لما استطاع أن يقول، ولما قدر أن يتكلم، ولما أمكنه أن يؤدى هذا المعنى فى عمقه ودقته بمثل هذا الأسلوب الساحر بجماله وجلاله وروعته.

إن القرآن الكريم يعبر عن « الفكرة الإعلامية الواجبة فى التعريف بالإسلام وبيان مزاياه الكريمة بلفظ آخر بديل عن الإعلام وهو « الدعوة ». والواقع أنها وظيفة رسل الله

جميعا ، ومن أجلها بعثهم الله تعالى إلى الناس ، فكلهم بلا استثناء دعوا أقوامهم ومن أرسلوا إليهم إلى الإيمان بالله وإفراده بالعبادة على النحو الذى شرعه لهم . والمقصود بالدعوة — من حيث الموضوع — دين الإسلام ، فهو الأصل الأول من حيث مبادئه وشرائعه وسننه وعقائده ، ثم هناك وسائل التبليغ وطرق الاتصال بالناس وأساليب مخاطبتهم ، وهى تتعدد تعددا كبيرا نظرا لأن الإسلام غير مقصور على العرب »[١] .

﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ﴾ ٢٨ سبأ

صدق الله العظيم

---

(١) د . إبراهيم إمام : السابق ، ص ٩٨

القسم الثانى

الباب الثالث

التفسير الإعلامى
للبعثة النبوية الشريفة

يذهب التفسير الإعلامى للسيرة النبوية الشريفة إلى أن الرسول الكريم محمدا ﷺ هو « الإعلامى الأمثل الذى اصطفاه الله تعالى ليكون شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا »[1] .

والدين الإسلامى دين إعلامى بطبيعته ، لأنه يقوم على الإفصاح والبيان بعكس بعض الأديان الأخرى كاليهودية مثلا التى لا تختص برسالة ، وتتذرع بالكتمان والسرية[2] . ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون * إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم ﴾ .

وتقول دائرة المعارف البريطانية فى مادة (قرآن) :

« جاء محمد بدعوة جديدة هى دعوة الإسلام . وكان هذا الرسول أوفر الأنبياء والشخصيات الدينية حظا من النجاح ، فقد أنجز فى عشرين عاما من حياته ما عجزت عن إنجازه قرون من جهود المصلحين من اليهود والنصارى رغم السلطة الزمنية التى كانت تساند هؤلاء ، ورغم أنه كان أمام الرسول تراث أجيال من الوثنية والخرافة والجهل ، والبغاء والربا والقمار ومعاقرة الخمور ، واضطهاد الضعفاء ، والحروب الكثيرة بين القبائل العربية ومئات الشرور الأخرى » .

هذا ما جاء فى دائرة المعارف البريطانية نقلناه بنصه ، ونضيف إليه مع الدكتور عبد اللطيف حمزة ، أن هذا النجاح الكبير الذى صادفه الرسول لم يتم إلا بتوفيق من الله تعالى

---

(١) د . إبراهيم إمام : الإعلام الإسلامى المرحلة الشفهية ، ص ٥

(٢) المرجع نفسه ، ص ٩

وبوسائط إعلامية كثيرة توسل بها الرسول فى الدعوة الإسلامية ، وكانت من رسم القرآن الكريم ووحيه وتخطيطه .

وتحدثنا كتب السيرة أن هذه الدعوة سارت فى أربع مراحل بنوع خاص وهى :[١]

١ — مرحلة الدعوة السرية .

٢ — مرحلة الدعوة العلنية .

٣ — مرحلة الاضطهاد الدينى فى مكة .

٤ — مرحلة الهجرة .

٥ — مرحلة الاستقرار فى المدينة .

وفى كل مرحلة من هذه المراحل ، توسل الرسول الكريم بوسائل اتصالية وإعلامية بهدف واحد هو نشر الدعوة الإسلامية .

مرحلة الدعوة السرية :

فى هذه المرحلة القصيرة ، كان عمل القرآن الكريم هو إعلام الرسول نفسه بأنه مكلف من قبل الله تعالى بأداء رسالة من الله[٢] .

فلما بلغ النبى ﷺ أربعين سنة ، بعثه الله تعالى رحمة للعالمين .

وأول ما بدئ به رسول الله الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا فى نومه إلا جاءت كفلق الصبح ، وحبب الله تعالى إليه الخلوة فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده .

وحين أراده الله بكرامته كان إذا خرج لحاجته أبعد ، فلا يمر ﷺ بحجر ولا شجر إلا قال : السلام عليكم يا رسول الله . فيلتفت رسول الله فلا يرى إلا الشجر والحجر .

ثم جاءه جبريل بما جاءه من كرامة الله وهو بحراء فى شهر رمضان .

وكان رسول الله ﷺ يتحنث فى حراء من كل سنة شهرا وكان ذلك مما تتحنث به قريش فى الجاهلية ، فإذا انصرف كان أول ما يبدأ به الكعبة قبل أن يدخل بيته ، فيطوف بها سبعا .

حتى إذا كان الشهر الذى أراد الله به فيه ما أراد من كرامته ، من السنة التى بعثه الله تعالى فيها ، وذلك الشهر شهر رمضان[٣] .

---

(١) د . عبد اللطيف حمزة : الإعلام فى صدر الإسلام ، ص ١١١

(٢) نفس المرجع ، ص ١١٢

(٣) كان نزول الرسالة يوم الاثنين التاسع من ربيع الأول عام ١٣ ق . هـ — ٩ من فبراير عام ٦١٠ م على ما يرجحه بعض الباحثين .

ففيه خرج رسول الله ﷺ إلى حراء ، كما كان يخرج لجواره ومعه أهله ، حتى إذا كانت الليلة التى أكرمه الله فيها برسالته ، جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى :

قال رسول الله ﷺ : فجاءنى جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال :

— اقرأ .

قلت : ما أنا بقارئ .

فغطنى[1] حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى .

فقال : اقرأ .

قلت : ما أنا بقارئ .

فغطنى حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى .

فقال : اقرأ .

قلت : ماذا أقرأ ؟

فغطنى حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى .

فقال : اقرأ .

فقلت : ماذا أقرأ ؟

فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ۞ خلق الإنسان من علق ۞ اقرأ وربك الأكرم ۞ الذى علم بالقلم ۞ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ .

فقرأتها ، ثم انتهى ، فانصرف عنى .

وهببت من نومى فكأنما كتبت فى قلبى ، فخرجت حتى إذا كنت فى وسط الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : يا محمد ، أنت رسول الله ، وأنا جبريل .

فرفعت رأسى إلى السماء أنظر .

فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل .

فوقفت أنظر إليه فما أتقدم ولا أتأخر ، وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك ، فمازلت واقفا ما أتقدم أمامى وما أرجع ورائى حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى ، فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف فى مكانى ذلك ، ثم انصرف عنى وانصرفت راجعا إلى أهلى ، حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها .

---

(١) أى عصرنى عصرا شديدا .

فقالت : يا أبا القاسم أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا .

ثم حدثتها بالذى رأيت فقالت :

— أبشر يا بن عم واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة .

ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ، ثم انطلقت إلى ورقة وهو ابن عمها فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ أنه رأى وسمع .

فقال ورقة : قدوس قدوس ! والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتنى يا خديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر[1] الذى كان يأتى موسى وإنه لنبى هذه الأمة ، فقولى له فليثبت . فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ ، فأخبرته بقول ورقة .

فلما قضى رسول الله ﷺ جواره فى حراء وانصرف إلى مكة ، صنع كما كان يصنع ، بدأ بالكعبة فطاف بها ، فلقيه ورقة وهو يطوف بالكعبة فقال : يا بن أخى أخبرنى بما رأيت وسمعت . فأخبره رسول الله ﷺ ، فقال له ورقة :

— والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى .

ثم انصرف رسول الله إلى منزله .

فابتُدئ رسول الله ﷺ بالتنزيل فى شهر رمضان ، يقول الله عز وجل :

﴿شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾ .

وهكذا نزل الوحى إلى رسول الله ﷺ ، وهو مؤمن بالله مصدق بما جاءه منه ، قد قبله بقبوله وتحمل منه ما حمله ، على رضاء العباد وسخطهم .

---

(١) جبريل عليه السلام ، وكان نزول جبريل يوم الاثنين لسبع من رمضان ، وقيل لسبع عشرة مضت . وروى عن أبى هريرة أنه كان فى السابع والعشرين من رجب . وقال ابن عمر : لثمان عشرة من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من عام الفيل .

وكانت سن الرسول حين جاءته الرسالة أربعين (٣ / ٤٢ الطبرى) وقيل جاءته الرسالة وهو ابن الثالثة والأربعين (٣ / ٤٢ الطبرى) .

ويقول الطبرى : نزل القرآن لثمانى عشرة ليلة خلت من رمضان يوم الاثنين ، وقيل لأربع وعشرين ليلة خلت من رمضان (٢٤ / ٢ الطبرى — طبعة الاستقامة) .

ويقول ابن القيم فى كتابه « زاد المعاد » : إن البعثة كانت لثمان من ربيع الأول من سنة ٤١ من عام الفيل (١ : ٣٣ زاد المعاد) .

والنبوة أثقال ومؤونة لا يحملها ولا يستطيع القيام بها إلا أهل القوة والعزم من الرسل ، بعون الله وتوفيقه تعالى لما يلقون من الناس .

فمضى رسول الله ﷺ على أمر الله ، على ما يلقى من قومه من الخلاف والأذى . آمنت به خديجة ، وصدقت بما جاءه من الله ، ووازرته على أمره .

وكانت أول من آمن بالله ، وبرسوله ، وصدّق بما جاء منه ، فخفف الله بذلك عن نبيه ﷺ ، لا يسمع شيئا مما يكرهه من رد عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك ، إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها .. تثبته وتخفض عليه ، وتصدقه وتهون عليه أمر الناس .

وقال رسول الله ﷺ : أمرت أن أبشر خديجة ببيت من قصب[1] .

ثم فتر الوحي عن رسول الله ﷺ فترة من ذلك حتى شق ذلك عليه فأحزنه ، فجاءه جبريل بسورة الضحى الشريفة .

فجعل رسول الله ﷺ ، يذكر ما أنعم الله به عليه وعلى العباد به من النبوة سرا ، إلى من يطمئن إليه من أهله .

وافترضت عليه الصلاة ، فصلى رسول الله ﷺ وأول ما افترضت عليه ركعتين ركعتين كل صلاة .

ويروى أن جبريل أتاه وهو بأعلى مكة ، فهمز له بعقبه فى ناحية الوادى فانفجرت منه عين ، فتوضأ جبريل عليه السلام ، ثم توضأ رسول الله ﷺ كما رأى جبريل يتوضأ ، ثم قام به جبريل فصلى به ، وصلى رسول الله ﷺ بصلاته ، ثم انصرف جبريل عليه السلام.

فجاء رسول الله ﷺ خديجة ، فتوضأ كما أراه جبريل فتوضأت كما توضأ رسول الله ﷺ ، ثم صلى بها رسول الله كما صلى به جبريل فصلت بصلاته .

ثم كان أول من آمن به من الذكور وصلى معه ، وصدق بما جاء من الله تعالى على بن أبى طالب ، وهو ابن عشر سنين يومئذ[2] . وكان مما أنعم الله به على علىٍّ أنه كان فى حجر رسول الله ﷺ قبل الإسلام . أصابت قريشا قبل الإسلام أزمة شديدة ، وكان أبو طالب ذا عيال كثير ، فقال رسول الله للعباس عمه وكان من أيسر بنى هاشم : يا عباس إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة ، فانطلق بنا إليه فلنخفف عنه من عياله ، آخذ من بنيه رجلا وتأخذ أنت رجلا فنكفلهما عنه.

---

(١) هو اللؤلؤ المجوّف .

(٢) راجع ٥٧/٢ الطبرى ، قيل : أسلم وهو ابن أربع عشرة سنة ، وقيل ابن إحدى عشرة سنة ، وقيل خمس عشرة سنة .

قال العباس : نعم .

فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا له : إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه .

فقال لهم أبو طالب : إذا تركتما لى عقيلا فاصنعا ما شئتما .

فأخذ رسول الله عليا فضمه إليه .

وأخذ العباس جعفرا فضمه إليه .

فلم يزل على مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله تبارك وتعالى نبيا ، فاتبعه على وآمن به وصدقه .

ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه .

وكان رسول الله إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة ، وخرج معه على مستخفيا من أبيه أبى طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه ، فيصليان الصلوات فيها ، فإذا أمسيا رجعا فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا[١] .

---

(١) أمامنا صورة لبدء الإسلام رواها الجاحظ فى رسائله ، وفى كتابه « العثمانية » عن عطيف ابن قيس الكندى قال : كنت فى الجاهلية عطارا ، فقدمت مكة فنزلت على العباس بن عبد المطلب . فبينا أنا جالس عنده أنظر إلى الكعبة وقد تحلقت الشمس فى السماء ، أقبل شاب كأن فى وجهه القمر . حتى رمى ببصره إلى السماء فنظر إلى الشمس ساعة ، ثم أقبل حتى دنا من الكعبة فصف قدميه يصلى .

فخرج على أثره فتى كأن وجهه صفيحة يمانية . فقام عن يمينه .

فجاءت امرأة متلففة فى ثيابها فقامت خلفهما .

فأهوى الشاب راكعا ، فركعا معه .

ثم أهوى إلى الأرض ساجدا ، فسجدا معه .

فقلت للعباس : يا أبا الفضل ، أمر عظيم .

فقال : أمر — والله — عظيم . أتدرى من هذا الشاب ؟

قلت : لا .

قال : هذا ابن أخى محمد بن عبد الله . أتدرى من هذا الفتى ؟

قلت : لا .

قال : هذا ابن أخى على بن أبى طالب : أتدرى من المرأة ؟

قلت : لا .

قال : هذه ابنة خويلد ، هذه خديجة زوج محمد هذا ، وإن محمدا هذا يذكر أن إلٰهه

ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوما وهما يصليان ، فقال لرسول الله :

— ما هذا الدين الذى أراك تدين به ؟

قال : أى عم ، هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم ، بعثنى الله به رسولا إلى العباد .

وأنت — أى عم — أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى ، وأحق من أجابنى إليه وأعاننى عليه .

ومما تقدم يتضح أن الرسول الكريم قد توسل فى هذه المراحل الإعلامية بوسيلتين من وسائل الاتصال وهما : القرآن الكريم ، والمؤمنين الأولين الذين وصفهم القرآن الكريم بقوله تعالى :

﴿ السابقون السابقون ۝ أولئك المقربون ﴾ .

وهؤلاء هم دعاة الإسلام الحقيقيون فى هذه المرحلة السرية من مراحل الدعوة الإسلامية . وكانت وسيلتهم « القدوة الحسنة » التى قال الدكتور حمزة إنها كانت من أقوى وسائط الإعلام فى الإسلام .

مرحلة الدعوة العلنية :

وينظر التفسير الإعلامى إلى هذه المرحلة على أنها توسيع لنطاق الدعوة الإسلامية ، إذ أضيفت إلى الوسيلتين السابقتين من وسائل الإعلام فى المرحلة السرية — وهما وسيلة

= — إلٰه السماء والأرض — أمره بهذا الدين ، فهو عليه كما ترى . ويزعم أنه نبى . وقد صدقه على قوله على ابن عمه هذا الفتى ، وزوجه خديجة هذه المرأة .

روى ذلك الجاحظ فى رسائله ، ورواه الطبرى كذلك (٢ / ٥٦) .

هذا وعلى أول من أسلم من المهاجرين . ومعاذ بن عفراء أول من أسلم من الأنصار . وأول من بايع رسول الله بيعة الرضوان هو سنان الأسدى (صـ ١٧ الأوائل) . وأول من جمع بالمدينة أسعد ابن زرارة صـ ١٧ المرجع نفسه . وأول من أفشى القرآن بمكة عبد الله بن مسعود (صـ ١٧٣ المرجع) . وأول من استشهد فى الإسلام الحارث بن أبى هالة . وأول من أتى أرض الحبشة حاطب بن عمر . وأول من دفن بالبقيع عثمان بن مظعون صـ ١٧٤ المرجع . وأول من قدم من المهاجرين إلى المدينة أبو سلمة . وأول من بايع رسول الله ليلة العقبة البراء بن معرور — ١٧٥ المرجع . وأول من أذن فى الإسلام بلال . وأول مولود فى الإسلام قبل الهجرة عبيد الله بن عمر ١٧٧ المرجع . وأول مولود بالمدينة وبعد الهجرة عبد الله بن الزبير . وأول مولود ولد من الأنصار بعد الهجرة النعمان ابن بشير .

القرآن ووسيلة المؤمنين الأولين — وسيلتان أخريان وهما[١] : وسيلة الخطبة النبوية ، ووسيلة الاتصال المباشر بجماهير الناس وذلك بأن يعرض نفسه على القبائل العربية .

فاستمر رسول الله ﷺ فى سبيل الجهاد من أجل تبليغ رسالة الله .. دعا أبا بكر بن أبى قحافة من تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر ، واسمه عتيق لحسن وجهه وعتقه ، دعاه إلى الإسلام فأسلم .

ولما دخل فى دين الله أظهر إسلامه ، ودعا إلى الله وإلى رسوله .

وكان أبو بكر رجلا مؤلفا لقومه ، محببا سهلا ، وكان أنسب قريش لقريش[٢] وأعلم قريش بها ، وكان رجلا تاجرا ذا خلق ومعروف .

وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر : لعلمه ، وتجارته ، وحسن مجالسته .

فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه ، ممن يغشاه ويجلس إليه .

فأسلم بدعائه :

١ — عثمان بن عفان .

٢ — الزبير بن العوام بن خويلد (توفى عام ٣٦ هـ عن ٦٤ عاما) .

٣ — عبد الرحمن بن عوف (٤٢ ق هـ — ٢٣ هـ) .

٤ — سعد بن أبى وقاص ، أسلم وهو ابن سبع عشرة سنة ومات عام ٥٥ هـ . وقال رسول الله ﷺ فيه : هذا خالى ، لأن آمنة أم الرسول زهرية ، وهى ابنة عم أبى وقاص .

٥ — طلحة بن عبيد الله (توفى عام ٣٦ هـ عن ٦٢ عاما) .

فجاء بهم إلى رسول الله حين استجابوا له ، فأسلموا وصلوا .

٦ — ثم أسلم أبو عبيدة بن عبد الله بن الجراح ، واسمه عامر (ت ١٨ هـ عن ٥٨ سنة) .

٧ — وأبو سلمة بن عبد الأسد (٤ هـ) وامرأته أم سلمة .

٨ — والأرقم بن أبى الأرقم .

---

(١) د . عبد اللطيف حمزة : المرجع السابق ، ص ١١٦

(٢) يروى أن جبير بن مطعم بن عدىّ بن نوفل بن عبد مناف بن قصىّ كان من أحبّ قريش لقريش وللعرب قاطبة ، وكان يقول : إنما أخذت النسب عن أبى بكر . وكان أبو بكر الصديق أنسب العرب (سيرة ابن هشام ١ : ٨ بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد) .

٩ — وعثمان بن مظعون (٣ هـ) .

١٠ و ١١ — وأخواه : قدامة وعبد الله بن مظعون .

١٢ — وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف .

١٣ — وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل .

١٤ — وامرأة سعيد .. فاطمة بنت الخطاب أخت عمر .

١٥ — وأسماء بنت أبى بكر[١] .

١٦ — وعائشة بنت أبى بكر ، وهى يومئذ صغيرة[٢] .

١٧ — وخباب بن الأرت حليف بنى زهرة بن كلاب وهو من بنى تميم ، ويقال من خزاعة .

١٨ — وعمير بن أبى وقاص ، أخو سعد .

١٩ — وعبد الله بن مسعود حليف بنى زهرة .[٣] .

٢٠ — ومسعود بن القارى من القارة .

٢١ — وسليط بن عمرو .

٢٢ — وأخوه حاطب بن عمرو .

٢٣ — وعباس بن أبى ربيعة .

٢٤ — وامرأته أسماء التميمية .

٢٥ — وخنيس بن حذافة السهمى .

٢٦ — وعامر بن ربيعة ، حليف آل الخطاب وهو من هزِ بن وائل .

---

(١) هى والدة عبد الله بن الزبير ، وكانت أسن من عائشة ببضع عشرة سنة . شهدت اليرموك مع زوجها الزبير بن العوام ، قتل ابنها عبد الله بن الزبير فى ١٧ جمادى الأولى سنة ٧٣ هـ وماتت بعده بسبعة أيام (٣ : ٢٠٨ — ٢١٤ سير أعلام النبلاء)

(٢) ذكرها مع السابقين الأولين إلى الإسلام — مع ما روى من أنها هاجرت وهى فى التاسعة من عمرها بما يجعل ميلادها بعد البعثة بأربع سنين يدل على أن تقدير سن عائشة هذا التقدير ليس موضع يقين .

(٣) عبد الله بن مسعود الهذلى المكى المهاجرى البدرى حليف بنى زهرة ، معدود من أذكياء العلماء ، وكان من أوائل من جهروا بالقرآن فى مكة بعد رسول الله . ويقول ابن مسعود : قرأت على رسول الله سبعين سورة . وعاش بضعا وستين سنة وتوفى عام ٣ هـ (٣٣٠ — ٣٥٧ / ١ سير أعلام النبلاء) .

٢٧ — وعبد الله بن جحش .
٢٨ — وأخوه أبو أحمد ، وهما حليفا بنى أمية بن عبد شمس .
٢٩ — وجعفر بن أبى طالب .
٣٠ — وامرأته أسماء بنت عميس .
٣١ — وحاطب بن الحارث .
٣٢ — وامرأته فاطمة .
٣٣ — وأخوه حطاب بن الحارث .
٣٤ — وامرأة حطاب ، فكيهة بنت يسار .
٣٥ — ومعمر الحارث .
٣٦ — والمطلب بن أزهر .
٣٧ — وامرأته رملة .
٣٨ — والنحام ، نعيم بن عبد الله بن أسيد ، أخو بنى عدى بن كعب بن لؤى .
٣٩ — وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر .
٤٠ — وخالد بن سعيد بن العاص .
٤١ — وامرأته أمينة من خزاعة .
٤٢ — وحاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود .
٤٣ — وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة[١] .
٤٤ — وواقد بن عبد الله حليف عدى بن كعب ، جاءت به باهلة فباعوه من الخطاب بن نفيل فتبناه .

٤٥ — ٤٨ — وخالد وعامر وعاقل وإياس ، حلفاء بنى عدى بن كعب .

٤٩ — وعمار بن ياسر حليف بنى مخزوم ، وهو من مذحج وفى هجرته إلى الحبشة شك ، قتل فى معركة صفين .

٥٠ — وصهيب بن سنان حليف بنى تيم ، ويقال إنه مولى عبد الله جدعان . ويقال : إنه رومى . وقيل : كان أسيرا فى أرض الروم فاشترى منهم ، توفى عام ٣٨هـ عن ٨٤ سنة .

٥١ — عتبة بن غزوان من المهاجرين إلى الحبشة ، وقد أسلم سابع سبعة فى

---

(١) مات عام ١٢ هـ فى يوم اليمامة عن ٥٣ عاما (١١٨ و ١/١١٩ سير أعلام النبلاء) .

الإسلام شهدوا بدرا والمشاهد[١] .

ثم دخل الناس فى الإسلام من الرجال والنساء ، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث الناس به .

ثم إن الله عز وجل أمر رسوله ﷺ أن يصدع بما جاءه منه ، وأن ينادى الناس بأمره ، وكان بين ما أخفى رسول الله أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين من مبعثه .

قال الله تعالى لرسوله :

ـ ﴿ فاصدع[٢] بما تؤمر ﴾ (١٥ : ٩٤) .

ـ ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ (٢٦ : ٢١٤) .

وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلوا ذهبوا فى الشعاب واستخفوا بصلاتهم من قومهم ، فبينا سعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فى شعب من شعاب مكة ، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون فأنكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم ، فضرب سعد بن وقاص يومئذ رجلا من المشركين فشجه ، فكان أول دم أريق فى الإسلام .

فلما نادى رسول الله قومه بالإسلام ، وصدع به كما أمره الله لم يبعدوا منه ولم يردوا عليه ، حتى ذكر آلهتهم وعابها .

فلما فعل ذلك أعظموه ، وناكروه وأجمعوا على عداوته . إلا من عصمه الله تعالى منهم بالإسلام وهم قليل مستخفون .

وحدب على رسول الله ﷺ عمه أبو طالب ، ومنعه وقام دونه ، ومضى رسول الله على أمر الله مظهرا لأمره لا يرده عنه شىء .

فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ ماض فى طريقه ، ورأوا أن عمه قد حدب عليه وقام دونه ، تحيروا فى أمرهم لا يدرون ماذا يفعلون ، ولكنهم مضوا فى طريقهم من مقاومة الرسول وإعلان العداوة للدين الذى أتى به .

وقال أبو طالب لرسول الله :

---

(١) هو الذى اختط البصرة ، ومات عام ١٧ هـ عن ٧٥ سنة (١ : ٢٢١ و ٢٢٢ سير أعلام النبلاء) .

(٢) أى افرق بين الحق والباطل .

أى ابن أخى ، إننى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يخلص إليك بشىء تكرهه ما بقيت .

ويروى أنه قال لعلى : أى بنى ، ما هذا الدين الذى أنت عليه ؟

قال : يا أبتى آمنت بالله ، وبرسوله وصدقته بما جاء به ، وصليت معه لله واتبعته .

فقال لابنه : أما إنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه .

ثم أسلم زيد بن حارثة الكلبى مولى رسول الله ﷺ ، وكان أول ذكر أسلم وصلى بعد على بن أبى طالب . وكان حكيم بن حزام بن خويلد ، ابن أخى خديجة قدم من الشام برقيق فيهم زيد ، فدخلت عليه عمته خديجة وهى يومئذ عند رسول الله ﷺ ، فقال لها : اختارى يا عمة أى هؤلاء الغلمان شئت فهو لك . فاختارت زيد فأخذته ، فرآه رسول الله عندها فاستوهبه منها فوهبته له فأعتقه رسول الله وتبناه ، وذلك قبل أن يوحى إليه . وكان أبو زيد قد جزع عليه جزعا شديدا ، وبكى عليه حين فقده ، وقدم مكة يبحث عنه وهو عند رسول الله ﷺ . فقال له رسول الله : إن شئت أقم عندى وإن شئت فانطلق مع أبيك .

فقال : بل أقيم عندك . فلم يزل عند رسول الله حتى بعثه الله فصدقه وأسلم وصلى معه ، وزوجه رسول الله من ابنة عمه أميمة بنت عبد المطلب ، وهى زينب بنت جحش الأسدية ، ولما طلقها تزوجها رسول الله ﷺ فى ذى القعدة من عام خمس من الهجرة ، وهى يومئذ بنت خمس وعشرين ، وتزوج زيد أم أيمن حاضنة رسول الله فولدت له أسامة ، ومات أسامة فى آخر خلافة معاوية .

مرحلة الاضطهاد الدينى فى مكة :

وفى هذه المرحلة من مراحل الدعوة الإسلامية ، كان النبى عليه الصلاة والسلام يتوسل بنفس الوسائل التى توسل بها فى المرحلة السابقة ، ومنها : وسيلة الاتصال الشخصى والجمعى المباشر ، وأكثر ما كان ذلك فى موسم الحج من كل سنة .

فعن طريق الحج اكتسب الإسلام شعبية أخذت تكبر مع الأيام شيئا فشيئا . فقد كان الناس يتحدثون فى الحج بما يجرى للرسول وأصحابه ، ويتسامعون بأخلاقه وبما امتازوا به من الصبر والثبات على دينهم ، وما تحملوه فى سبيل المحافظة على عقيدتهم . وكانت هذه الأحاديث التى يتهامسون بها فى أعماق نفوسهم إعجابا عميقا وتقديرا عظيما للرسول وأصحابه(١) .

(١) د . عبد اللطيف حمزة : المرجع السابق ، ص ١٢٦

فقد مضت قريش فى غلوائها ، تحارب وحى الله ، ورسول الله .

ومشى رجال من أشراف قريش فيهم عقبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب واسمه صخر ، وأبو البحترى العاص بن هشام ، والأسود بن المطلب ، وأبو جهل (عمرو) بن هشام ، والوليد بن المغيرة ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، والعاص بن وائل فقالوا :

— يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه .

فقال لهم أبو طالب قولا رقيقا ، وردهم ردا جميلا ، فانصرفوا عنه . ومضى رسول الله على ما هو عليه يظهر دين الله ويدعو إليه .

وتفاقم الأمر بينه وبينهم ، وكثرت الخصومات والعداوات فى قريش ، وأكثرت قريش من تناول رسول الله بالشر وحض بعضهم بعضا عليه .

ثم إنهم مشوا إلى أبى طالب مرة أخرى فقالوا له : يا أبا طالب ، إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا ، وإنك لم تنه ابن أخيك عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا ، فإما أن تكفه عنا أو ننازله وإياك فى ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين .

ثم انصرفوا عنه فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفسا بإسلام رسول الله لهم .

وبعث أبو طالب إلى رسول الله فقال له :

يا ابن أخى :

إن قومك قد جاءونى فقالوا لى كذا وكذا ، فأبق علىّ وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق .

فقال له رسول الله ﷺ :

— يا عم ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته .

ثم استعبر رسول الله فبكى ، ثم قام ، فلما ولى ناداه أبو طالب فقال : أقبل يا بن أخى .

فأقبل عليه رسول الله . فقال : اذهب يا بن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء أبدا .

وعرفت قريش أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله .

فمشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له : يا أبا طالب .

هذا عمارة أنهد[1] فتى فى قريش وأجمله ، فخذه فلك عقله ونصره ، واتخذه ولدا فهو لك ، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذى قد خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم ، فإنما هو رجل برجل .

قال أبو طالب :

— والله لبئس ما تسومونني[2] : أتعطونى ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابنى تقتلونه ؟ هذا والله ما لا يكون أبدا .

فقال المطعم بن عدى :

— والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك . فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا .

فقال أبو طالب :

— والله ما أنصفونى ، ولكنك قد أجمعت خذلانى فاصنع ما بدا لك .

وأجمعت قريش على حرب رسول الله وأصحابه ، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم ، ومنع الله رسوله بعمه أبى طالب .

وحين رأى أبو طالب قريشا يصنعون ما يصنعون ، قام فى بنى هاشم وبنى المطلب فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله والقيام دونه .

فاجتمعوا إليه وقاموا معه . وأجابوه إلى ما دعاهم إليه إلا ما كان من أبى لهب عدو الله .

ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش ، وكان ذا ممن فيهم وقد حضر الموسم ، فقال لهم :

— إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا . فاجمعوا فيه رأيا واحدا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا . فقالوا له :

— أنت ، يا أبا عبد شمس فقل ، وأقم لنا رأيا نقل به .

قال : بل أنتم فقولوا أسمع .

قالوا : نقول هو كاهن .

قال : لا والله ما هو بكاهن . لقد رأينا الكهان ، فما هو بزمزمة[3] الكاهن ولا سجعه .

---

(١) أى أقوى .　　(٢) أى تكلفوننى .

(٣) الزمزمة : الكلام الخفى الذى لا يفهم .

قالوا : مجنون .

قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا وسوسته .

قالوا : شاعر .

قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله ، رجزه وهزجه وقريضه فما هو الشعر .

قالوا : ساحر .

قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم .

قالوا : فما نقول ؟

قال : والله إن لقوله حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل .. وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : هو ساحر ، جاء بقول هو السحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك .

فجعلوا يجلسون على السبل ، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره .

فأنزل الله تعالى فى الوليد بن المغيرة .

﴿ إنه فكر وقدر ∘ فقتل كيف قدر ∘ ثم قتل كيف قدر ﴾ إلى آخر هذه الآيات الشريفة .

وجعلوا يقولون فى رسول الله لمن لقوهم من الناس : ﴿ إن هذا إلا سحر يؤثر ∘ إن هذا إلا قول البشر ﴾ .

وصدرت العرب من ذلك الموسم أمر رسول الله ، فانتشر ذكره فى بلاد العرب كلها .

وقال أبو طالب قصيدته المشهورة :

كذبتم وبيت الله نترك مكـــة ... ونظعـن إلا أمركم فى بلابـــل

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل

يلـــوذ به الهلاك من آل هاشم ... فهـم عنـده فى رحمة وفواضل

فمن مثله فى النـاس أى مؤمـل ... إذا قاسه الحكام عنـد التفـاضل

والبيت الأول يدلنا على أن قريشا قالت لبنى هاشم : اتركوا مكة واجلوا عنها .

فلما انتشر أمر رسول الله فى العرب وبلغ البلدان ، ذكر بالمدينة ، وكان هذا الحى الأوس والخزرج على علم بأمر رسول الله حين ذكر وقبل أن يذكر ، لما كانوا يسمعون من أخبار اليهود وكانوا لهم حلفاء .

فقال أبو قيس بن الأسلت من شعراء المدينة ، وكان يحب قريشا وكان لهم صهرا ، فزوجه أرنب بنت أسد بن عبد العزى منهم ، وكان يقيم عندهم السنين بامرأته . قال قصيدة يعظم فيها الحرمة ، ينهى قريشا عن الحرب وينصحهم بالكف بعضهم عن بعض ، ويذكر فضلهم وأحلامهم ويوصيهم بالكف عن رسول الله ، ويذكرهم بنعم الله عليهم ودفعه الفيل عنهم ومنها :

أقيموا لنا دينا حنيفا ، فأنتمُ   لنا غاية ، قد يهتدى بالذوائب

وأنتم لهذا الناس نور وعصمة   تؤمون والأحلام غير عوازب

فإن تهلكو نهلك ويهلك مواسم   يعاش بها قول امرئ غير كاذب

واشتدت قريش — لشقائهم — فى عداوة رسول الله ومن أسلم معه منهم .

فأغروا برسول الله شعراءهم فكذبوه وآذوه ، ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، ورسول الله يظهر لأمر الله لا يستخفى به ، فبادهم بما يكرهون من عيب دينهم واعتزال أوثانهم .

قال عبد الله بن عمرو بن العاص لأبيه : ما أكثر ما رأيت قريشا أصابوا من رسول الله فيما كانوا يظهرون من عداوته ؟

قال لابنه : حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يوما فى الحجر فذكروا رسول الله فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط .. سفه أحلامنا وشتم آباءنا وعاب ديننا وفرق جماعتنا وسب آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم .

فبيناهم فى ذلك إذ طلع رسول الله ﷺ ، فأقبل يمشى حتى استلم الركن ثم مر بهم طائفا بالبيت .

فلما مر بهم غمزوه[1] ببعض القول . قال عمرو : فعرفت ذلك فى وجه رسول الله .

ثم مضى ، فلما مر بهم الثانية[2] غمزوه بمثلها .

فعرفت ذلك فى وجه رسول الله .

ثم مضى ، فلما مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها .

فوقف ثم قال : أتسمعون يا معشر قريش؟ أما والذى نفسى بيده لقد جئتكم بالذبح .

---

(١) أى طعنوا فيه بالكلام .   (٢) أى المرة الثانية فى الطواف .

فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ، حتى إن أشدهم تحريضا عليه ووصاة بإيذائه ليسكته بأحسن ما يجد من القول ، ويقول له :

— انصرف يا أبا القاسم ، فوالله ما كنت جهولا .

فانصرف رسول الله ﷺ .

حتى إذا كان الغد اجتمعوا فى الحجر ، وأنا — عمرو بن العاص — معهم .

فقال بعضهم لبعض . ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه ، حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه .

فبيناهم فى ذلك طلع رسول الله ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به يقولون : أنت الذى تقول كذا وكذا ؟ لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم .

فيقول رسول الله : نعم أنا الذى أقول ذلك .

فرأيت رجلا منهم أخذ بمجمع ردائه يكاد يخنقه .

فقام أبو بكر دونه وهو يبكى ويقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربِّىَ الله ؟

ثم انصرفوا عنه .

فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشا نالوا منه قط :

وعن أم كلثوم ابنة أبى بكر : لقد رجع أبو بكر يومئذ وقد صدعوا فرق رأسه مما جذبوه من لحيته ، وكان أبو بكر رجلا كثير الشعر .

وكان من أشد ما لقى رسول الله من قريش أنه خرج يوما فلم يلقه أحد من الناس إلا كذبه وآذاه ، لا حر ولا عبد ، فرجع رسول الله إلى منزله فتدثر من شدة ما أصابه ، فأنزل الله تعالى عليه :

﴿ يا أيها المدثر ◦ قم فأنذر ﴾ ...

إسلام حمزة عم رسول الله :

مر أبو جهل بن هشام برسول الله ﷺ عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه .

فلم يكلمه رسول الله .

وعمد أبو جهل إلى ناد من قريش عند الكعبة ، فجلس معهم .

فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله متوشحا قوسه ، راجعا من الصيد ، وأقبل ليطوف بالكعبة قبل أن يذهب إلى أهله ، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم ، وكان أعز فتى فى قريش وأشد شكيمة .

فمر بجارية لعبد الله بن جدعان شهدت صنع أبى جهل برسول الله ، وقد رجع رسول الله إلى بيته ، فقالت له الجارية : يا أبا عمارة ، لو رأيت ما لقى ابن أخيك .. محمد آنفا من أبى الحكم ؟.. وجده هاهنا جالسا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ، ولم يكلمه محمد .

فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته ، فخرج يسعى ولم يقف على أحد .

فلما دخل المسجد وجد أبا جهل جالسا فى القوم فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة شديدة .

ثم قال حمزة له : أتشتم محمدا ؟ فأنا على دينه أقول ما يقول ، فرد ذلك على إن استطعت .

فقام رجال من بنى مخزوم لينصروا أبا جهل ، فقال لهم أبو جهل :

دعوا أبا عمارة ، فوالله إنى قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا .

وأقام حمزة على إسلامه ، وكان ذلك فى السنة السادسة من البعثة على ما قاله لفيف من المؤرخين .

وعرفت قريش أن رسول الله قد عز وأن حمزة سيمنعه ، فخففوا من غلوائهم بعض الشىء .

كان عتبة بن ربيعة — من سادة قريش — جالسا يوما فى نادى[1] قريش ورسول الله جالس فى المسجد وحده ، فقال عتبة :

— يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ، ويكف عنا ؟

وذلك حين أسلم حمزة ، ورأى عتبة أصحاب رسول الله يزيدون .

فقالوا له :

— بلى يا أبا الوليد ، قم إليه فكلمه .

فقام عتبة ، حتى جلس إلى رسول الله فقال له :

— يا ابن أخى .

إنك منا حيث قد علمت من الرفعة فى العشيرة ، والمكان فى النسب .

وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت

---

(١) النادى : المجلس .

به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها .

فقال له رسول الله : قل يا أبا الوليد أسمع .

قال :

— يا ابن أخى ..

إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا .

وإن كنت إنما تريد به شرفا ، سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك .

وإن كنت تريد به ملكا ، ملكناك علينا .

وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرئك منه .

فلما فرغ عتبة قال له رسول الله ﷺ : أقد فرغت يا أبا الوليد ؟

قال : نعم .

قال : فاستمع منى .

قال : أفعل .

قال : بسم الله الرحمٰن الرحيم

﴿ حم ۝ تنزيل من الرحمٰن الرحيم ۝

كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ۝ بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ۝ وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ۝

قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلٰهكم إلٰه واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين ﴾ .

ومضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه[1] .

فلما سمعها منه عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه .

ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها[2] فسجد ، ثم قال :

---

(١) سورة فصلت : آية ١ وما بعدها

(٢) هى آية السجدة (الآية ٣٨ فصلت) ﴿ فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ﴾ .

— قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت . فأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه .

فقال بعضهم لبعض : تحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به .

فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟

قال :

— ورائى أنى سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط .

والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة .

يا معشر قريش :

أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به ..

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد لسانه .

قال : هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدالكم .

ثم جعل الإسلام ينتشر بمكة فى قبائل قريش فى الرجال والنساء ، وقريش تحبس من قدرت على حبسه وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين .

مرحلة الهجرة :

الهجرة الأولى إلى الحبشة فى العام الخامس من البعثة النبوية .

وهذه صورة أخرى من صور الاتصال الشخصى ، إذ :

١ — رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء وهو لا يقدر على أن يمنعهم بما يصيبهم ، فقال لهم :

— (لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه) .

فخرج المسلمون من أصحاب رسول الله إلى أرض الحبشة ، مخافة الفتنة وفرارا إلى الله بدينهم ، فكانت أول هجرة فى الإسلام .

وكان أول المهاجرين إليها :

١ — عثمان بن عفان ، ومعه امرأته رقية بنت رسول الله .

٢ — أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، ومعه امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو من بنى لؤى ، ولدت له بأرض الحبشة محمد بن أبى حذيفة .

٣ — الزبير بن العوام .

٤ — مصعب بن عمير من بنى عبد الدار بن قصى .

٥ — عبد الرحمن بن عوف .

٦ — أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى ، ومعه امرأته هند (أم سلمة) المخزومية ، ولدت له بالحبشة ابنته زينب .

٧ — عثمان بن مظعون الجمحى ، وابنه السائب وأخواه قدامة وعبد الله(١) .

٨ — عامر بن ربيعة حليف آل الخطاب ، ومعه امرأته ليلى الكعبية .

٩ — أبو سبرة بن أبى رهم من بنى عامر بن لؤى ، ويقال إنه كان أول من قدم الحبشة ، ومعه امرأته أم كلثوم بنت سهيل .

١٠ — سهيل بن بيضاء من بنى الحارث بن فهر ، وبيضاء هى أمه .

فكان هؤلاء أول من خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة ، وكان عليهم عثمان بن مظعون .

١١ — ثم خرج جعفر بن أبى طالب ، ومعه امرأته أسماء بنت عميس ، ولدت له فى الحبشة ابنه عبد الله بن جعفر :

وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة فكانوا بها ، منهم من خرج بأهله معه ، ومنهم من خرج بنفسه لا أهل له معه .

١٢ — ومن خرج إليها : عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية ، ومعه امرأته فاطمة بنت صفوان الكنانية ، وأخوه خالد بن سعيد ومعه امرأته أمينة بنت خلف الخزاعية ، وولدت له بأرض الحبشة ابنه سعيد بن خالد ، وبنته أمة بنت خالد .

١٣ — عبد الله بن جحش ، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبى سفيان .

١٤ — قيس بن عبد الله من بنى أسد بن خزيمة ، ومعه امرأته بركة بنت يسار مولاة أبى سفيان .

١٥ — معيقيب بن أبى فاطمة .

١٦ — أبو موسى الأشعرى .

١٧ — عتبة بن غزوان .

---

(١) توفى عثمان فى شعبان سنة ثلاث من الهجرة ، أخوه قدامة بن مظعون توفى عام ٣٦ هـ عن ٦٨ عاما ، وأخوه الآخر عبد الله بن مظعون مات عام ٣٣ هـ — ولعثمان بن مظعون ولد من الرضاعة هو السائب مات عام ١٢ هـ فى يوم اليمامة (١١٨/١ سير أعلام النبلاء) .

١٨ — الأسود بن نوفل بن خويلد بن أسد .
١٩ — يزيد بن زمعة بن الأسود بن المطلب .
٢٠ — عمرو بن أمية بن الحارث بن أسد .
٢١ — طليب بن عمير بن وهب .
٢٢ — سويط بن سعد .
٢٣ — جهم بن قيس ومعه امرأته أم حرملة الخزاعية ، وابناه عمرو وخزيمة .
٢٤ — أبو الروم بن عمير .
٢٥ — فراس بن النضر بن الحارث .
٢٦ — عامر بن أبى وقاص .
٢٧ — أبو وقاص مالك بن أهيب .
٢٨ — المطلب بن أزهر ، ومعه امرأته رملة بنت أبى عوف ، ولدت له بأرض الحبشة ابنه عبد الله .
٢٩ — عبد الله بن مسعود ، وأخوه عتبة .
٣٠ — المقداد بن عمر ، وكان قد تبناه فى الجاهلية الأسود بن عبد يغوث من بنى زهرة ، وحالفه .
٣١ — الحارث بن خالد التيمى ، ومعه امرأته ريطة بنت الحارث التيمية ، وولدت له بأرض الحبشة ابنه موسى ، وثلاث بنات هن زينب ، وفاطمة ، وعائشة .
٣٢ — عمرو بن عثمان التيمى .
٣٣ — شماس بن عثمان المخزومى .
٣٤ — هبار بن سفيان المخزومى .
٣٥ — هشام بن أبى حذيفة المخزومى .
٣٦ — عباس بن أبى ربيعة .
٣٧ — معتب بن عوف الخزاعى .
٣٨ — حاطب بن الحارث الجمحى ، ومعه امرأته فاطمة بنت المجلل ، وأخوه حطاب معه امرأته فكيهة بنت يسار .
٣٩ — سفيان بن معمر الجمحى ، ومعه ابناه جابر وجنادة ، ومعه امرأته حسنة وهى أمهما ، وأخوهما من أمهما شرحبيل بن حسنة .
٤٠ — عثمان بن ربيعة الجمحى .

٤١ — خنيس بن حذافة السهمى .
٤٢ — عبد الله بن الحارث بن قيس السهمى .
٤٣ — هشام بن العاص السهمى .
٤٤ — العاص بن وائل السهمى .
٤٥ — قيس بن حذافة السهمى .
٤٦ — أبو قيس بن الحارث السهمى .
٤٧ — عبد الله بن حذافة السهمى .
٤٨ — الحارث بن الحارث السهمى .
٤٩ — معمر بن الحارث السهمى .
٥٠ — بشر بن الحارث السهمى ، وأخ له من أمه من بنى تميم اسمه سعيد بن عمرو .
٥١ — سعيد بن الحارث السهمى .
٥٢ — السائب بن الحارث السهمى .
٥٣ — عمير بن رئاب السهمى .
٥٤ — محمية بن الجزاء حليف لهم من بنى زبيد .
٥٥ — معمر بن عبد الله بن نضلة .
٥٦ — عروة بن عبد العزى .
٥٧ — عدى بن نضلة ، وابنه النعمان .
٥٨ — عبد الله بن مخرمة .
٥٩ — عبد الله بن سهيل .
٦٠ — سليط بن عمرو ، وأخوه السكران معه امرأته سودة بنت زمعة .
٦١ — مالك بن زمعة معه امرأته عمرة .
٦٢ — أبو حاطب بن عمرو .
٦٣ — سعد بن خولة حليف لبنى عامر بن لؤى .
٦٤ — أبو عبيدة بن الجراح .
٦٥ — عمرو بن أبى سرح .
٦٦ — عياض بن زهير .
٦٧ — عمرو بن غنم .

٦٨ — سعد بن عبد قيس .

٦٩ — الحارث بن عبد قيس .

وعدد جميع من لحق بأرض الحبشة وهاجر إليها من المسلمين ، سوى أبنائهم الذين خرجوا معهم صغارا أو ولدوا بها ، هو ثلاثة وثمانون رجلا إن كان عمار بن ياسر فيهم ، وهو يشك فيه .

٢ — وفى الحبشة أمن المسلمون ، وحمدوا جوار النجاشى ، وعبدوا الله لا يخافون أحدا ، وأحسن النجاشى جوارهم حين نزلوا به ، فقال فى ذلك عبد الله بن الحارث بن قيس السهمى .

يا راكبـا بلغـن عنـى مغلغلـة ... من كان يرجـو بلاغ الله والديـن

كل امرئ من عباد الله مضطهـد ... ببطـن مكـة مقهـور ومفتـون

إنـا وجدنـا بلاد الله واسعـة ... تنجـىّ من الـذل والمخزاة والهون

فلا تقيموا على ذل الحيـاة وخـز ... ى فى الممات وعيب غير مأمـون

وقال عثمان بن مظعون يعاتب أمية بن خلف :

أحـاربت أقوامـا كرامـا أعـزة ... وأهلكت أقواما بهم كنت تفـزع

ستعلـم إن تأتـيك يومـا ملمـة ... وأسلمك الأوباش ما كنت تصنع

٣ — فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله قد أمنوا واطمأنوا بالحبشة وأنهم قد أصابوا بها دارا وقرارا ، ائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش إلى النجاشى ، فيردهم عليهم ليفتنوهم فى دينهم ، ويخرجوهم من دارهم التى اطمأنوا بها وأمنوا فيها .

فبعثوا عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص ، وجمعوا لهما هدايا للنجاشى ولبطارقته ، ثم بعثوهما إليه فيهم . فقال أبو طالب حين رأى ذلك من رأيهم وما بعثوا به يثنى على النجاشى ويحضه على حسن جوار المسلمين والدفع عنهم .

ألا ليت شعرى كيف فى النأى جعفر ... وعمرو ، وأعداء العدو الأقـارب

فهـل نال أفعال النجـاشى جعفـرا ... وأصحابـه أو عاق ذلك شاغب

تعلـم أبيـت اللعـن إنك ماجـد ... كريم ، فلا يشقى لديك المجانب[1]

تعلـم بأن الله زادك بسطـة ... وأسباب خير كلهـا بك لازب[2]

---

(١) الخطاب فى البيت للنجاشى . المجانب : اللائذ بالجوار .

(٢) لاصق .

وقدم رسولا قريش على النجاشي ، فلم يتركا من بطارقته أحدا إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي ، وقالا لكل بطريق منهم :

— إنه قد أوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم ، وقومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم .

وقدما هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما ، ثم كلماه فقالا له : أيها الملك . إنه قد أوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لنردهم عليهم فهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .

فقالت بطارقة النجاشي حوله : صدقا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم . فغضب النجاشي ثم قال : لا أسلمهم إليهما ، ولا يكاد قوم جاورونى ونزلوا بلادى واختارونى على من سواى حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم ، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاورونى .

ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ، ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟ قالوا : نقول ما علمنا وما أمرنا به نبينا ، كائنا فى ذلك ما هو كائن .

فلما جاءوا ، وقد دعا النجاشي أساقفته[١] وهم[٢] ينشرون مصاحفهم حوله ، سألهم : ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟ فأجابه جعفر بن أبى طالب :

أيها الملك ... كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه .

(١) جمع أسقف وهو العالم فى النصرانية .
(٢) أى أساقفته .

فدعانا إلى الله لنوحده ، ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان .

وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء .

ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة .

وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .. (وعدد عليه[1] أمور الإسلام) .

فصدقناه ، وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله .

فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئا .

وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا .

فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث .

فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك[2] ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك .

فقال له النجاشى — كما تروى أم سلمة زوج النبى ﷺ — : فاقرأه علىّ .

فقرأ عليه صدرا من سورة مريم ، فبكى — والله — النجاشى حتى ابتلت لحيته ، وبكت أساقفته حتى بلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم .

فقال النجاشى : إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، وقال للرسولين : انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكما ، ولا يكادون .

فقال عمرو بن العاص لصاحبه : والله لآتينه غدا بما أستأصل به جماعتهم .

فقال له صاحبه عبد الله بن ربيعة : لا تفعل ، فإن لهم أرحاما وإن كانوا قد خالفونا .

قال : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد .

ثم غدا على النجاشى من الغد فقال : أيها الملك ، إنهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولا عظيما ، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه .

فأرسل إليهم ليسألهم عنه ، فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض : ماذا تقولون فى

---

(١) أى على النجاشى .

(٢) كانت قريش تتردد على الحبشة للتجارة فآثرها المسلمون بالهجرة لذلك ولبعدها عن أيدى المشركين .

عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه ؟ قالوا : نقول — والله — ما قال الله وما جاءنا به نبينا ، كائنا فى ذلك ما هو كائن .

فلما دخلوا عليه قال لهم : ماذا تقولون فى عيسى ابن مريم ؟

فقال جعفر بن أبى طالب : نقول فيه الذى جاءنا به نبينا ، ﷺ ، هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

فضرب النجاشى بيده إلى الأرض فأخذ منها عودا ، ثم قال : والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت أمامى . اذهبوا فأنتم آمنون ، من سبكم غرم ، ما أحب أن لى جبلا من ذهب وأسلمكم إليهما ، ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لى بها .

فخرجا من عنده بأسوأ رد ، تقول أم سلمة : وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار .

٤ — وخرج ثائر على النجاشى ينازعه فى ملكه ، فحزن المسلمون حزنا شديدا ودعوا للنجاشى بالغلبة على عدوه والتمكين له فى بلاده ، وخرج الزبير بن العوام ليشهد المعارك التى قامت بين النجاشى وهذا الثائر ليأتى المسلمين بخبرها ، وكان الزبير من أحدث المسلمين سنا ، وعاد الزبير يقول : ألا أبشروا فقد ظفر النجاشى وأهلك الله عدوه ، ومكن له فى بلاده . ففرح المسلمون فرحا شديدا ، ورجع النجاشى وقد أهلك الله عدوه ومكن له فى بلاده واستوثق عليه أمر الحبشة[١] ، فكان المسلمون عنده — كما تقول أم سلمة — فى خير منزل ، حتى قدموا على رسول الله وهو بمكة .

٥ — وشاع بين شعب النجاشى أن الملك يقول فى عيسى ابن مريم أنه عبد الله فثاروا عليه فخرج لحربهم ، ولكنه رأى أن يهدئ من ثورتهم فاستجابوا له وعاد إلى ملكه . وكان فى أول هذه الثورة قد هيأ للمسلمين سفنا وقال لهم : اركبوا فيها وكونوا كما أنتم ، فإن هزمت فامضوا فى طريقكم حتى تلحقوا بحيث شئتم ، وإن ظفرت فعودوا . فلما انتصر النجاشى عاد المسلمون فأقاموا آمنين .

---

(١) يقص ابن هشام أن الحبشة ثارت على والد النجاشى وملكوا عم النجاشى مكان أبيه ، فمات عمه ولم يجد الشعب فى أبناء عمه دراية وحنكة وقدرة على القيام بأعباء الملك ، وكان عمه قبل وفاته قد طرد ابن أخيه فبيع بستمائة درهم ، وخرج به من اشتراه من البلاد . فلما مات عمه رأى الشعب أنه لا يصلح لحكمهم إلا هو ، فساروا يطلبونه فى كل مكان حتى عثروا عليه فأخذوه من مالكه وألبسوه التاج وردوا على من كان قد اشتراه منهم قبلا ماله .

الإسراء والمعراج :

١ — فى العام الخمسين من الميلاد النبوى ، والعاشر من البعثة المحمدية ، أسرى برسول الله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وهو بيت المقدس ، وكان الإسلام قد فشا بمكة فى قريش وفى القبائل كلها(١) .

يحدث المحدثون من أهل العلم من الصحابة رضوان الله عليهم ، ومنهم عائشة وأم هانئ بنت أبى طالب بذلك .

وكان فى الإسراء بلاء وتمحيص وأمر من أمر الله وقدرته وسلطانه ، فيه عبرة لأولى الألباب ، وهدى ورحمة وثبات لمن آمن بالله وصدق وكان من أمر الله على يقين ، فلقد أسرى الله عز وجل برسوله كيف شاء ، وكما شاء ، ليريه من آياته الكبرى ما رأى ، حتى عاين من أمره وسلطانه العظيم ، وقدرته التى يصنع بها ما يريد .

٢ — حدث عبد الله بن مسعود قال :

أوتى رسول الله ﷺ بالبراق(٢) ، فجعل عليها ثم خرج به جبرائيل يرى الآيات فيما بين السماء والأرض حتى انتهى إلى بيت المقدس .

فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى فى نفر من الأنبياء قد جمعوا له ، فصلى بهم .

ثم أتى ﷺ بثلاثة آنية : إناء فيه لبن ، وإناء فيه خمر ، وإناء فيه ماء ، قال

---

(١) فى زاد المعاد لابن القيم (١ : ٤٧) أن الإسراء كان بعد عودة رسول الله من الطائف .

(٢) هى الدابة التى كانت تحمل عليها الأنبياء والرسل لتسير بهم بأمر الله إلى حيث يشاء الله :
هذا وقد اختلف فى تاريخ الإسراء :

١ — فى السنة الخمسين من مولد الرسول كما ذكرنا عن مصادر غير ابن هشام : وقد ذكر ابن هشام أنه كان قبل وفاة خديجة .

٢ — وابن إسحاق يقول : فى ليلة السبت لسبع عشرة خلت من شهر رمضان قبل الهجرة بثمانية عشر شهرا (نهاية الأرب ١٦ : ٨٣) .

٣ — ليلة سبع عشرة من ربيع الأول قبل الهجرة بسنة (طبقات ابن سعد قسم ١ ج ١ ، صـ ١٤٣) .

٤ — قبل الهجرة بثلاث سنين ، وقيل بسنة واحدة ، وقيل وله من العمر إحدى وخمسون سنة وتسعة أشهر ، وقيل كان بعد البعث بخمسة أشهر ، وقيل كان بعد بيعة الأنصار فى العقبة ، وقال الحربى : ليلة سبع وعشرين من ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة ، وقال ابن إسحاق : كان لليلة السبت لسبع عشرة خلت من رمضان قبل الهجرة بثمانية وعشرين شهرا ، وقيل كان ليلة سبع عشرة من ربيع الأول قبل الهجرة ، وكانت سنه حين الإسراء اثنتين وخمسين سنة (إمتاع الأسماع للمقريزى) .

رسول الله : فسمعت قائلا يقول حين عرضت على : « إن أخذ الماء غرق وغرقت أمته ، وإن أخذ الخمر غوى وغوت أمته ، وأن أخذ اللبن هدى وهديت أمته » ، فأخذت إناء اللبن فشربت منه ، فقال لى جبريل عليه السلام : هديت وهديت أمتك يا محمد .

وعن الحسن بن أبى الحسن أن رسول الله ﷺ قال :

بينما أنا نائم فى الحجر إذ جاءنى جبريل فهمزنى بقدمه ، فجلست فلم أر شيئا ، فعدت إلى مضجعى ، فجاءنى الثانية فهمزنى بقدمه فجلست فأخذ بعضدى فقمت معه ، فخرج إلى باب المسجد فإذا دابة أبيض فى فخذيه جناحان ، فحملنى عليه ثم خرج معى لا يفوتنى ولا أفوته .

وعن قتادة أن رسول الله ﷺ قال :

(لما دنوت منه لأركبه شمس ،[1] فوضع جبريل يده على معرفته[2] ثم قال : ألا تستحى يا براق مما تصنع ؟ فوالله يا براق ما ركبك عبد لله قبل محمد أكرم على الله منه ، فاستحيا حتى ارفض عرقا ، ثم قر[3] حتى ركبته) .

وقال الحسن فى حديثه :

فمضى رسول الله ، ومضى جبريل عليه السلام معه حتى انتهى به إلى بيت المقدس ، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى فى نفر من الأنبياء ، فأمهم رسول الله فصلى بهم ، ثم أتى بإناءين فى أحدهما خمر ، وفى الآخر لبن ، فأخذ رسول الله إناء اللبن فشرب وترك إناء الخمر . فقال له جبريل : هديت للفطرة وهديت أمتك يا محمد ، وحرمت عليهم الخمر . ثم انصرف رسول الله إلى مكة .

وعن هند أم هانئ بنت أبى طالب : ما أسرى برسول الله إلا وهو فى بيتى نائم عندى تلك الليلة فى بيتى ، فصلى العشاء الآخرة ثم نام ونمنا ، فلما كان قبيل الفجر أهبنا — أيقظنا — رسول الله فلما صلى الصبح وصلينا معه ، قال :

(يا أم هانئ لقد صليت معكم العشاء الآخرة ، كما رأيت بهذا الوادى ، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه ، ثم قد صليت صلاة الغداة — الفجر — معكم الآن كما ترين ، ثم قام ليخرج فأخذت بطرف ردائه فتكشف عن بطنه ، فقلت له : يا نبى الله لا تحدث بهذا الحديث الناس فيكذبوك ويؤذوك . قال : والله لأحدثنهم . فقلت

(١) أى حَرن ونفر . (٢) أى رقبته حيث ينبت شعر العُرف .
(٣) أى سكن .

لجارية لى حبشية : ويحك ، اتبعى محمدا رسول الله حتى تسمعى ما يقول للناس وما يقولون له . فلما خرج رسول الله إلى الناس أخبرهم فعجبوا ، قالوا : ما آية ذلك يا محمد ، فإنا لم نسمع بمثل هذا قط ؟ قال ﷺ : آية ذلك أنى مررت بعير بنى فلان بوادى كذا وكذا ، فأنفرهم حمى الدابة فند[١] لهم بعير ، فدللتهم عليه وأنا موجه إلى الشام ، ثم أقبلت حتى إذا كنت بـ« ضجنان »[٢] مررت بعير بنى فلان فوجدت القوم نياما ، ولهم إناء فيه ماء قد غطوا عليه بشيء . فكشفت غطاءه وشربت ما فيه ، ثم غطيت عليه كما كان . وآية ذلك أن عيرهم الآن تصوب من البيضاء ثنية التنعيم ، يقدمها جمل أورق عليه غرارتان ، إحداهما سوداء والأخرى برقاء[٣] . فابتدر القوم الثنية وسألوهم عن الإناء، فأخبروهم أنهم وضعوه مملوءا ماء ثم غطوه ، وأنهم هبوا — أى من النوم — فوجدوه مغطى ولم يجدوا فيه ماء . وسألوا الآخرين وهم بمكة ، فقالوا : صدق والله ، لقد ندّ لنا بعير ، فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه حتى أخذناه .

وعن الحسن قال : فلما أصبح رسول الله غدا على قريش فأخبرهم الخبر ، فقال أكثر الناس :

هذا — والله — الأمر[٤] البين . والله إن العير لتطرد شهرا من مكة إلى الشام مدبرة ، وشهر مقبلة ، أفيذهب ذلك محمد فى ليلة واحدة ، ويرجع إلى مكة ؟

وارتد كثير ممن كان أسلم ، وذهب الناس إلى أبى بكر يقولون له : هل لك يا أبا بكر فى صاحبك ؟ يزعم أنه قد جاء هذه الليلة فى بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة .

فقال لهم أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ؟ فوالله إنه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار وأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه .

ثم أقبل أبو بكر حتى انتهى إلى رسول الله ، فقال :

— يا نبى الله ، أحدثت هؤلاء القوم أنك أتيت بيت المقدس هذه الليلة ؟ قال : نعم ، قال : يا نبى الله فصفه لى فإنى قد جئته . قال رسول الله : فرفع لى حتى نظرت إليه . فجعل رسول الله يصفه لأبى بكر ، ويقول أبو بكر : صدقت ، أشهد أنك

---

(١) أى شرد .

(٢) موضع بينه وبين مكة خمسة وعشرون ميلا .

(٣) ذات ألوان مختلفة .

(٤) هو الأمر الشنيع الفظيع ، أو العجيب .

رسول الله . كلما وصف له منه شيئا قال : صدقت ، أشهد أنك رسول الله . حتى انتهى رسول الله فقال لأبى بكر : أنت يا أبا بكر الصّديق .فيومئذ سماه الصدّيق .

٣ — وعن أبى سعيد الخدرى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

لما فرغت مما كان فى بيت المقدس ..

أتى بالمعراج ..

ولم أر شيئا قط أحسن منه .

فأصعدنى صاحبى جبريل ..

حتى انتهى بى إلى باب من أبواب السماء يقال له : باب الحفظة ، عليه ملك من الملائكة يقال له إسماعيل ، تحت يديه اثنا عشر ألف ملك ، تحت يدىْ كل ملك منهم اثنا عشر ألف ملك ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ (من آية ٣١ سورة المدثر ٧٤) .

فلما دخل بى قال : من هذا يا جبريل ؟

قال : محمد .

قال : أوقد بعث ؟

قال : نعم .

فدعا لى بخير .

ويروى ابن إسحاق[١] أن رسول الله ﷺ قال :

(تلقتنى الملائكة حين دخلت السماء الدنيا ، فلم يلقنى ملك إلا ضاحكا مستبشرا يقول خيرا ويدعو به ، حتى لقينى ملك من الملائكة فقال مثل ما قالوا ، ودعا بمثل ما دعوا ، إلا أنه لم يضحك ولم أر منه من البشر مثل ما رأيت من غيره . فقلت لجبريل : يا جبريل من هذا الملك الذى قال لى كما قالت الملائكة ولم يضحك ، ولم أر منه من البشر مثل الذى رأيت منهم ؟ فقال لى جبريل . أما إنه لو كان ضحك إلى أحد قبلك أو كان ضاحكا إلى أحد بعدك لضحك إليك ، ولكنه لا يضحك .. هذا مالك خازن النار . فقلت لجبريل ، وهو من الله تعالى بالمكان الذى وصف لكم ، ﴿ مطاع ثَمَّ أمين ﴾ ، (آية ٢١ من سورة التكوير ٨١) : ألا تأمره أن يرينى النار ؟ قال : بلى ، يا مالك أر محمدا النار . فكشف عنها غطاءها ففارت وارتفعت حتى ظننت لتأخذن

---

(١) هو محمد بن إسحاق شيخ كتّاب السيرة النبوية (٨٥ — ١٥٢ هـ) وسيرته أصل لسيرة النبى ﷺ التى ألفها ابن هشام . ولابن إسحاق كتاب فتوح مصر وأعمالها ، طبع فى مصر عام ١٣٧٥ هـ .

ما أرى . فقلت لجبريل : يا جبريل مره فليردها إلى مكانها . فأمره ، فقال لها : « أخبتى[١] فرجعت إلى مكانها الذى خرجت منه ، حتى إذا دخلت من حيث خرجت رد عليها غطاءها .

قال أبو سعيد الخدرى عن رسول الله ، ﷺ ، قال :

لما دخلت السماء الدنيا رأيت بها رجلا جالسا تعرض عليه أرواح بنى آدم : فيقول لبعضها إذا عرضت عليه خيرا ويسر به ، ويقول : روح طيبة خرجت من جسد طيب ويقول لبعضها إذا عرضت عليه : أف ويعبس بوجهه ، ويقول : روح خبيثة خرجت من جسد خبيث ، قلت : من هذا يا جبريل ؟ قال . هذا أبوك آدم ، تعرض عليه أرواح ذريته ، فإذا مرت به روح المؤمن منهم سر بها ، وقال روح طيبة خرجت من جسد طيب ، وإذا مرت روح الكافر أفف منها وكرهها وساءه ذلك ، وقال : روح خبيثة خرجت من جسد خبيث .

ثم رأيت رجالا لهم مشافر[٢] كمشافر الإبل ، فى أيديهم قطع من نار كالأفهار[٣] ، يقذفونها فى أفواههم ، فيخرج من أدبارهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلما .

ثم رأيت رجالا لهم بطون لم أر مثلها قط ، يمرون عليهم حين يعرضون على النار ، يطئونهم لا يقدرون على أن يتحولوا من مكانهم ذلك ، قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة الربا .

ثم رأيت رجالا بين أيديهم لحم سمين طيب ، إلى جنبه لحم غث منتن ، يأكلون من الغث المنتن ويتركون السمين الطيب ، قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يتركون ما أحل الله لهم من النساء ، ويذهبون إلى ما حرم الله عليهم منهن .

ثم رأيت نساء معلقات بثديهن ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء اللاتى أدخلن على الرجال من ليس من أولادهم[٤] .

ثم أصعدنى — جبريل — إلى السماء الثانية ، فإذا فيها ابنا الخالة : عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا .

---

(١) من خبت النار أى سكن لهبها . (٢) المشفر للبعير : كالشفة للإنسان .

(٣) جمع فهر — بوزن مسك — وهو الحجر .

(٤) عن رسول الله ﷺ : اشتد غضب الله على امرأة أدخلت على قوم مَنْ ليس منهم فأكل حرائبهم (أموالهم التى يعيشون بها) واطلع على عوراتهم .

ثم أصعدنى إلى السماء الثالثة ، فإذا فيها رجل صورته كصورة القمر ليلة البدر فقلت : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أخوك يوسف بن يعقوب .

ثم أصعدنى إلى السماء الرابعة ، فإذا فيها رجل ، فسألته : من هو ؟ فقال : هذا إدريس ، يقول رسول الله : ﴿ ورفعناه مكانا عليا ﴾ (٥٧ سورة ١٩) .

ثم أصعدنى إلى السماء الخامسة ، فإذا فيها كهل أبيض الراس واللحية لم أر كهلا أجمل منه ، قلت : من هذا يا جبريل ؟ قال هذا المحبب فى قومه هارون بن عمران .

ثم أصعدنى إلى السماء السادسة ، فإذا فيها رجل آدم طويل ، فقلت له : من هذا يا جبريل ، قال : هذا أخوك موسى بن عمران .

ثم أصعدنى إلى السماء السابعة ، فإذا فيها كهل جالس على كرسى إلى باب البيت المعمور ، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يرجعون فيه إلى يوم القيامة ، لم أر رجلا أشبه بصاحبكم[1] ولا صاحبكم أشبه به منه ، قلت : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أبوك إبراهيم .

ثم دخل بى إلى الجنة ، فرأيت فيها جارية لعساء[2] فسألتها : لمن أنت ؟ فقالت : لزيد بن حارثة ، فبشر بها رسول الله زيد بن حارثة .

ومن حديث عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ أن جبريل انتهى به ﷺ إلى السماء السابعة ، ثم انتهى به إلى ربه ، فعرض عليه خمسين صلاة كل يوم .

قال رسول الله : فأقبلت راجعا ، فلما مررت بموسى سألنى : كم فرض عليك من الصلاة ؟

فقلت : خمسين صلاة كل يوم .

فقال : إن الصلاة ثقيلة ، وإن أمتك ضعيفة ، فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنك وعن أمتك .

فرجعت : فسألت ربى أن يخفف عنى وعن أمتى .

فوضع عنى عشرا .

ثم انصرفت فمررت على موسى فقال لى مثل ذلك ، فرجعت فسألت ربى أن يخفف عنى وعن أمتى ، فوضع عنى عشرا ، ثم انصرفت فمررت على موسى فقال لى مثل

---

(١) أى بمحمد رسولنا ﷺ ، يعنى رسول الله نفسه .

(٢) فى شفتها حمرة تضرب إلى السواد .

ذلك ، فرجعت فسألته فوضع عنى عشرا . فمررت على موسى ، ثم لم يزل يقول لى مثل ذلك كلما رجعت إليه ، فأرجع فأسأل حتى انتهيت إلى أن وضع ذلك عنى إلا خمس صلوات فى كل يوم وليلة .

ثم رجعت إلى موسى فقال لى مثل ذلك ، فقلت : قد راجعت ربى وسألته حتى استحييت منه ، فما أنا بفاعل . فمن أداهن منكم إيمانا بهن واحتسابا لهن كان له أجر خمسين صلاة[١] .

٤ — قال الله تعالى : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس ﴾ (٦٠ من سورة ١٧) .

وعن عائشة زوج النبى ﷺ :

« ما فقد جسد رسول الله ، ولكن الله أسرى بروحه » .

وعن معاوية ، وكان إذا سئل عن مسرى رسول الله قال : كانت رؤيا من الله تعالى صادقة ، ثم مضى على ذلك ، فعرفت أن الوحى من الله يأتى الأنبياء أيقاظا ونياما .

وكان رسول الله يقول : (تنام عينى وقلبى يقظان) .

---

(١) كان أول شىء فرضه الله بعد الإقرار بالتوحيد والبراءة من الأوثان الصلاة (٢ : ٥٣ الطبرى) .

الباب الرابع

الاتصال الشخصى
فى الدعوة الإسلامية

يتم الاتصال الشخصى بين الجماعات الصغيرة حيث يعرف الناس بعضهم بعضا ، فيتناقشون ويتحدثون ويتبادلون الرأى والمشورة ، ويدركون انطباعات أحاديثهم على بعضهم البعض — ولذلك يذهب علماء الإعلام إلى أن الاتصال الجماهيرى يختلف عن الاتصال الشخصى من حيث انعدام الطابع المواجهى ، وفقدان صفة التخاطب مع فرد بعينه(١) .

ويعنى بالاتصال الشخصى التبادل الشخصى للمعلومات ، دون عوامل أو قنوات وسيطة ، وفى هذه العملية يمثل أحد الشخصين دور « المرسل » بينما يتمثل الآخر دور «المستقبل» ، ويستخدم مفهوم المصادر الشخصية للمعلومات بطريقة تبادلية مع مفهوم التأثير الشخصى Personal Influence علما بأن المعنيين لا يتسقان أو لا ينطبقان تماما .

وقد كشفت البحوث الحديثة عن الأهمية البالغة للاتصال الشخصى فى مجال التغير وانتشار التجديد وتقبله ، سواء تم هذا الاتصال فى مجتمعات حديثة ومتطورة أو فى مجتمعات تقليدية ، وإن كان فى الثانية يفوق الأولى حيث يعد مصدرا بديلا إلى حد كبير ، وبخاصة فى حالة غياب نسق أو نمط من الاتصال الجمعى . وقد اتضحت هذه النقطة من خلال سلسلة دراسات لليونسكو حول الاستماع إلى الراديو ومشاهدة التليفزيون ، حيث أجرى « بول نيرات » PAUL NEURATH — على سبيل المثال دراسة على برامج الراديو فى قرية هندية ، ووجد أنه فى المواقف الضابطة حيث كان المستمعون أشخاصا فى وضع عادى ، لم تمارس هذه البرامج أى تأثير ، ولكن حينما نظمت جماعات الاستماع وأديرت المناقشات حول البرامج بعد إذاعتها مباشرة ، أحدثت هذه البرامج تأثيرا كبيرا ، واتبع أغلب المستمعين الاقتراحات التى قدمتها(٢) .

---

(١) د . عبد العزيز شرف : المدخل إلى وسائل الإعلام ، ص ٤٨

(٢) د . محمود عودة : أساليب الاتصال والتغير الاجتماعى ، ص ١١٣ ،

J. C. Muther and P. Neurath, An Indian Experiment in Farm Radio Forums, Unesco, Paris, 1959.

وهذا ما توصلت إليه أبحاث أخرى أجريت فى فرنسا وفى أقطار أخرى عديدة(١) . كما توصل الباحثون فى ميدان التسويق إلى نتائج مشابهة لتأثير الاتصال الشخصى متضامنا مع الاتصال الجمعى ، فسجل « فيلكس وماريا كيسنج » الثقة التى يضفيها الناس على المصادر الشخصية للأخبار والمعلومات فى « ساموا » ، حيث لاحظا أن هناك كلمات معينة ، وموضوعات معينة للمناقشة ، والاعتقاد فى صحة الشىء يتأتى بالإشارة إلى أشخاص ذوى أهمية(٢) .

كما أجريت دراسة بإشراف روبرت ميرتون ذات مرحلتين ، أما المرحلة الأولى فتتمثل فى التعرف على المؤثرين الفعالين ، وبعد اكتشاف هؤلاء المؤثرين الفعالين والتعرف عليهم فحصت حالتهم فوجد أنهم مشتركون فى المجلات الاختيارية القومية(٣). ولا توضح هذه النتيجة أهمية الاتصال الشخصى فقط ، وإنما الاتصال الجمعى أيضا. إن الاتصال الجمعى والاتصال الشخصى فى تفاعل مستمر ، بمعنى أن الاتصال الجمعى يقدم فرصة لقيادة الرأى بينما يدعم الاتصال الشخصى آثار الاتصال الجمعى(٤) .

والمهم فى الاتصال الشخصى هو مدى ثقة الجمهور فى مصدر الإعلام ، لأن هذه الثقة هى الأساس الذى يبنى عليه الجمهور تصديقه أو عدم تصديقه للرسالة الإعلامية . ويعلل الباحثون من أمثال : لازرسفيلد وكاتز وغيرهما سر تفوق الاتصال الشخصى فى التأثير بأنه « إذا كان من السهل أن ينصرف الناس عن المواد الإعلامية التى لا تتفق مع آرائهم وميولهم ، كأنه ليس من السهل أن يتجنبوا الحديث مع زميل أو قريب أو صديق لهم ، وخاصة إذا كان موضوع الحديث غير معروف لديهم سلفا ، كما يتيح النقاش المباشر المرونة فى عرض وجهات النظر والتأثير فى الناس .(٥)

وربما من أجل ذلك لقى الرسول عنتا شديدا فى ممارسة وسيلة الاتصال الشخصى مع قومه ومواطنيه فى مكة ، وغيرها من مدن الحجاز ، وذلك فى العهد الأول من عهود

---

(١) H. Cassirer, Television Today, Unesco, Paris, 1960

(٢) F. and M. KEssing, Elite Communications in Samaa, 1956

د . محمد عودة : المرجع السابق ص ١١٣

(٣) R. K. Merton, "Patterns of Influence : A Study of Interpêrsonal Influence and Communication Behavior in Local Community "in Lazarsfeld and Stanton (edrs) Communication Researches, 1948-49

(٤) د . محمد عودة : المرجع السابق ، ص ١١٤

(٥) د . إبراهيم إمام : المرجع السابق ، ص ١٠

رسالته وهو العهد المكى بالذات[١] .

وهذا ما يعنيه التفسير الإعلامى حين يذهب إلى أن الرسالة الإعلامية لا تؤثر فى الأفراد أو الجماعات مباشرة ، ولكن تؤثر فيهم من خلال قادة الرأى فى المجتمع . وإذا كانت الدعوة الجديدة لا تتفق مع آراء زعماء قريش وميولهم ، فقد كان من الصعب أن تتأثر بها جموع مكة والطائف وغيرها من المدن فى الحجاز . ومع هذا وذاك فلم ينصرف الرسول فى بعض الأحيان عن ممارسة الاتصال الشخصى بهؤلاء القادة والزعماء[٢] .

وطفق الرسول يتوسل بهذه الوسيلة الفعالة فى أول الأمر مع العامة والفقراء ، وقد رأى هؤلاء فى العقيدة الجديدة تحريرا لأنفسهم من قيود وأغلال كثيرة ، ولم تكن لهم أموال ضخمة يخشون عليها ولا تجارة عظيمة يخافون كسادها ، ولا زعامات كبيرة يضنون بها[٣] .

ومهما يكن من شىء ، فقد اعتمد الرسول عليه السلام على وسيلة الاتصال الشخصى اعتمادا كبيرا فى العهد المكى من الدعوة ، ويتضح ذلك فى أكثر من موقف من مواقف السيرة العطرة .

مؤاخاة رسول الله بين المسلمين الأولين فى مكة .

وتمثل هذه المؤاخاة الأولى[٤] صورة من صور الاتصال الشخصى فى الدعوة الإسلامية :

— ١ —

فى المدينة وبعد الهجرة النبوية الشريفة ، نقف أمام حدث إنسانى رفيع ، هو مؤاخاة الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، هذه المؤاخاة الفريدة الفذة فى تاريخ الإنسانية .

فلقد آخى رسول الله ﷺ — فى المدينة بعد الهجرة ، بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فقال لهم كما يروى ابن هشام فى سيرته .

تآخوا فى الله ، أخوين أخوين .

---

(١) ، (٢) ، (٣) د . عبد اللطيف حمزة : المرجع السابق ، ص ٧١

(٤) عرف العرب فى الجاهلية المؤاخاة بمعناها العام . ويقول حاتم الطائى لابنه : أى بنى لا تؤاخ امرأ حتى تعاشره ، فإذا استطعت العشرة ورضيت الخبرة ، فواجه على إقامة العثرة والمواساة فى العسرة .

أخذ بيد على فقال : إن هذا أخى . وكان حمزة عمه وزيد بن حارثة مولى رسول الله أخوين فى الله .

وكان جعفر بن أبى طالب — وهو آنذاك مقيم بالحبشة منذ هاجر إليها مع جماعات من أصحاب رسول الله فرارا من أذى قريش وطغيانها — ومعاذ بن جبل أخوين ، وكان أبو بكر وخارجة الخزرجى أخوين ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعتبان بن مالك الخزرجى أخوين فى الله ، وكان أبو عبيدة وسعد بن معاذ أخوين ، وكان عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع الخزرجى أخوين .

وكذلك كان الزبير وعبد الله بن مسعود أخوين .

وكان سعيد بن زيد وأبى بن كعب أخوين ، وكذلك كان طلحة وكعب بن مالك أخوين .

وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وعباد بن بشر صارا أخوين .

وكان عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان فى هذه المؤاخاة الإسلامية الفريدة أخوين ، وأبو ذر والمنذر بن عمرو الخزرجى صارا أخوين .

وصار أبو الدرداء وسلمان الفارسى أخوين .

وصار بلال وأبو رويحة الخثعمى أخوين ، وصار حاطب بن أبى بلتعة وعويم بن ساعدة أخوين .

وبذلك حدثت أغرب وأعظم مؤاخاة إنسانية فى التاريخ ، وكانت هذه المؤاخاة فى المدينة بين فقراء المهاجرين وبين الأنصار ، وعظمت يد الأنصار على المهاجرين حتى قالوا فيهم : ما رأينا مثل أنصار المدينة ، لقد أحسنوا مواساتنا ، وبذلوا الكثير ، وأشركونا فى المهنة حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله .

هذه هى المؤاخاة الفريدة الجليلة التى حدثت فى الإسلام بعد الهجرة الشريفة على يد رسول الله ﷺ ، ولا يذكر التاريخ مؤاخاة أخرى حدثت غير هذه المؤاخاة ، ولا تذكر كتب السيرة النبوية أن رسول الله ﷺ صلوات الله عليه قد أحدث مؤاخاة أخرى بين المسلمين غير هذه المؤاخاة ، فكتاب السيرة جميعا يذكرون تلك المؤاخاة ويحددون زمنها بأوائل قدوم رسول الله صلوات الله عليه إلى المدينة بعد الهجرة النبوية الشريفة .

ولكننى عثرت على نصوص أخرى من السيرة النبوية ومن كتب طبقات الصحابة والتابعين ، رضوان الله عليهم أجمعين، تدل على أنه كانت هناك فى مكة قبل الهجرة

مؤاخاة بين المسلمين سبقت تلك المؤاخاة التى حدثت بين الأنصار والمهاجرين .

يقول ابن الأثير فى كتابه المشهور « أسد الغابة فى معرفة الصحابة » ما نصه :

« آخى رسول الله ﷺ بين الزبير بن العوام وبين عبد الله بن مسعود لما آخى بين المهاجرين بمكة ، فلما قدم الزبير المدينة وآخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار آخى بينه وبين سلامة بن وقش[1] .

وهذا النص صريح على أن رسول الله ﷺ آخى بين الصحابة بمكة قبل الهجرة النبوية ، فلما هاجر إلى المدينة آخى بين المهاجرين والأنصار مؤاخاة ثانية شبيهة بتلك المؤاخاة الأولى التى حدثت فى مكة بين الصحابة قبل الهجرة ، ممن هاجروا بعد هجرة رسول الله إلى المدينة ، ولذلك سماهم « ابن الأثير » المهاجرين ، باعتبار أنهم هاجروا بعد ذلك ، بدليل قوله آخى بين المهاجرين بمكة » .

وقد سبق أن قلنا إن الرسول صلوات الله وسلامه عليه آخى فى المدينة بين الزبير وعبد الله بن مسعود ، وهذا النص الذى نقلناه من ابن الأثير يشير إلى أن هذه المؤاخاة كانت فى مكة ، وأن الرسول ﷺ إنما آخى فى المدينة بين الزبير وسلامة بن وقش .

فلندع هذا النص إلى نص آخر من ابن الأثير فى كتابه « أسد الغابة » ، يقول عمدة الحفاظ عز الدين أبو الحسن على بن محمد الجزرى المعروف بابن الأثير ما نصه :

« لما أسلم طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام آخى رسول الله بينهما بمكة قبل الهجرة . فلما هاجر المسلمون إلى المدينة آخى رسول الله بين طلحة وبين أبى أيوب الأنصارى[2] .

وهذا النص صريح فى أنه حدثت مؤاخاة بين المسلمين الأولين بمكة قبل هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة ، ومن هذا النص نتبين ما يلى :

١ — كانت هناك مؤاخاة فى مكة بين طلحة والزبير — بينما النص السابق يشير إلى أن المؤاخاة فى مكة كانت بين الزبير وعبد الله بن مسعود .

٢ — وفى المدينة آخى رسول الله بعد الهجرة بين طلحة وأبى أيوب الأنصارى ، وقد ذكرنا من قبل فى خبر المؤاخاة بعد الهجرة أن الرسول آخى فى المدينة بين طلحة وشاعر رسول الله كعب بن مالك .

ونحن لا يضيرنا اختلاف الروايات فى أسماء الصحابة الذين آخى بينهم رسول الله ﷺ فى مكة أو المدينة .

---

(١) ٢/٢٩٧ أسد الغابة ، طبع طهران . (٢) ص ٣/٣٩ من أسد الغابة .

ولكن الذى نلفت إليه النظر هنا هو ما يشير إليه ابن الأثير من أنه كانت هناك فى مكة قبل الهجرة مؤاخاة بين المسلمين رضوان الله عليهم أجمعين .

ومن ذلك كله نتبين ما يلى :

١ ــ كانت هناك فى مكة قبل الهجرة مؤاخاة إسلامية أولى بين السابقين إلى الإسلام ، وهذه المؤاخاة كانت ضرورية لتقوية صفوف المسلمين لزيادة تعاونهم فى مجالات الدعوة والعقيدة والحياة ، ولتثبيت قلوب المسلمين .

وهذه المؤاخاة هى أول مؤاخاة فى التاريخ العالمى كله بعامة ، وفى تاريخ الإسلام كله بخاصة ، وهى مؤاخاة لم تذكرها كتب السيرة النبوية ، ومن ثم كانت مجهولة لا يشير إليها أحد من مؤرخى السيرة على الإطلاق ، ولم يكشف عن فكرتها أحد قبل ، ولم يكتب عنها شىء قبل هذا البحث .

٢ ــ وفى المدينة وبعد الهجرة حدثت مؤاخاة ثانية شارك الأنصار المهاجرين فيها أموالهم ودورهم ومتاجرهم وكل ما يملكون ، مواساة للذين قدموا عليهم من المهاجرين من صحابة رسول الله ﷺ ، ممن فارقوا ديارهم وأموالهم ودورهم وتجارتهم وأرضهم ومساكنهم ، وهذه هى المؤاخاة المشهورة التى لم تتحدث كتب السيرة إلا عنها ، ولم تشر إلا إليها .

وجملة القول إن اضطهاد قريش للمسلمين فى مكة دعا رسول الله ﷺ إلى أن يقيم بين المسلمين فيها مؤاخاة كريمة نبيلة يتقاسم فيها المسلمون ما يملكون من مال ، حفظا للحياة ، وقياما بمؤونة الأهل ، وسدا لحاجات الأطفال ، ومعاونة على مواصلة الجهاد فى سبيل الله والعقيدة .

وما أنبل ما تحلى به المسلمون الأولون من إيثار وبذل وعطاء ومؤاخاة ومواساة ومعاونة، لإخوانهم ممن حاربهم المشركون فى رزقهم ومالهم وكسبهم ومعاشهم . رحمة الله ورضوانه على صحابة رسول الله من السابقين إلى الإيمان ، من المهاجرين والأنصار .

ـــ ٢ ـــ

وهناك نصوص أخرى تؤيد ذلك :

١ ــ ففى كتاب « فتح البارى بشرح صحيح البخارى » للإمام الكبير الحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ هـ ، فى باب كيف آخى النبى ﷺ بين أصحابه ؟ وهو من الأبواب التى ذكرها بعد مبعث النبى ﷺ وهجرته ، وبعد كتاب الفضائل ، ما نصه :

« قال ابن عبد البر : كانت المؤاخاة مرتين : مرة بين المهاجرين خاصة وذلك بمكة ، ومرة بين المهاجرين والأنصار فهى المقصودة هنا .. ثم قال : « وقصة المؤاخاة الأولى أخرجها الحاكم من طريق جميع بن عمير عن ابن عمر آخى رسول الله ﷺ بين أبى بكر وعمر ، وبين طلحة والزبير ، وبين عبد الرحمن بن عوف وعثمان ... » وذكر جماعة ، قال « فقال علىّ يا رسول الله إنك آخيت بين أصحابك فمن أخى ؟ .. أنا أخوك[١] تقوى به .

٢ — وفى كتاب الزرقانى على المواهب اللدنية تحت عنوان المؤاخاة بين الصحابة « وكانت كما قال ابن عبد البر مرتين الأولى بمكة قبل الهجرة بين المهاجرين بعضهم بعضا على الحق والمواساة ، فآخى بين أبى بكر وعمر ، وطلحة والزبير ، وبين عثمان وعبد الرحمن كما رواه الحاكم ... إلى أن قال الزرقانى وأنكر ابن تيمية هذه المؤاخاة بين المهاجرين خصوصا بين المصطفى وعلى ، وزعم أن ذلك من الأكاذيب »[٢] .

٣ — ويقول ابن تيمية ما نصه « وأما ما يذكر بعض المصنفين فى السيرة من أن النبى ﷺ آخى بين على وأبى بكر نحو ذلك فهذا باطل باتفاق أهل المعرفة بحديثه ، فإنه لم يؤاخ بين مهاجر ومهاجر ، ولا بين أنصارى وأنصارى ، إنما آخى بين المهاجرين والأنصار ، وكانت المؤاخاة والمخالفة يتوارثون بها دون أقاربهم حتى نزل قول الله : ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ﴾ فصار الميراث بالرحم دون هذه المؤاخاة[٣] . ويقول ابن حجر[٤] :

« وأنكر ابن تيمية فى كتاب الرد على ابن المطهر الرافضى المؤاخاة بين المهاجرين ، وخصوصا مؤاخاة النبى ﷺ لعلى ، قال : لأن المؤاخاة شرعت لإرفاق بعضهم بعضا ، وليتألف قلوب بعضهم على بعض ، فلا معنى لمؤاخاة النبى لأحد منهم ، ولا لمؤاخاة مهاجرى لمهاجرى ، وهذا رد النص بالقياس وإغفال من حكمة المؤاخاة ، لأن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالآل والعشيرة والقوى فآخى بين الأعلى والأدنى ليرتفق الأدنى بالأعلى ، ويستعين الأعلى بالأدنى » .

---

(١) فتح البارى جـ ٨ ص ١٧٢ — ٢٧٣ طبعة الحلبى ، ويمكن الرجوع إلى الكتاب فى جميع طبعاته عند شرح أحاديث باب « كيف آخى النبى ﷺ بين أصحابه ؟ » .

(٢) ٣٧٣/١ الزرقانى على المواهب المدنية ، المطبعة الأزهرية ١٢٢٥ هـ .

(٣) جـ ٢٥ ص ٩٣ فتاوى ابن تيمية طبعة ١٣٨٦ هـ .

(٤) فتح البارى ٢٧٣/٨ طبعة ١٣٧٨ هـ .

٤ — ويقول ابن كثير :(١)

« قلت وفى بعض ما ذكره (ابن إسحٰق) نظر ، أما مؤاخاة النبى ﷺ وعلىّ ، إن من العلماء من ينكر ذلك ويمنع صحته ، ومستنده فى ذلك أن هذه المؤاخاة إنما شرعت لأجل ارتفاق بعضهم بعضا ولتتآلف قلوب بعضهم على بعض ، فلا معنى لمؤاخاة النبى ﷺ لأحد منهم ، ولا مهاجرى لمهاجرى آخر كما ذكره من مؤاخاة حمزة وزيد بن حارثة ، اللهم إلا أن يكون النبى ﷺ لم يجعل مصلحة على غيره ، وكذلك يكون حمزة قد التزم بمصالح مولاه زيد بن حارثة فآخاه بهذا الاعتبار » .

إسلام عمر بن الخطاب :

فى السنة السادسة من الهجرة

١ — قدم عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة على قريش من الحبشة بعد أن فشلوا فى سفارتهم ، ولم يدركوا ما طلبوا من المسلمين فى الحبشة حيث ردهم النجاشى بما يكرهون .. قدما على قريش فوجدا المسلمين فى مكة قد عزوا وكثروا وصارت لهم منعة بإسلام عمر بن الخطاب وحمزة(٢) ، وكان عمر رجلا ذا شكيمة وشوكة لا يرام ما وراء ظهره ، وكان لحمزة ما له من السؤدد والشرف والمكانة فى قريش ، فلما أسلما عز بهما أصحاب رسول الله وقويت شوكتهم .

يقول عبد الله بن مسعود : ما كنا نقدر على أن نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه ، وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله إلى الحبشة .

ويقول ابن مسعود أيضا : إن إسلام عمر كان فتحا ، وإن هجرته كانت نصرا ، وإن إمارته كانت رحمة . ولقد كنا ما نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه .

وحدث عامر بن ربيعة عن أمه أم عبد الله بنت أبى حتمة قالت : والله إنا لنستعد للرحيل والهجرة إلى الحبشة ، وقد ذهب عامر فى بعض حاجاتنا ، إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف علىّ وهو على شركة ، وكنا نلقى منه البلاء ، أذى لنا وشدّة علينا ، فقال : إنه الانطلاق — الهجرة — يا أم عبد الله ؟ فقلت له : نعم .

---

(١) ٢١٧/١ البداية والنهاية ، طبعة المعارف ، بيروت .

(٢) أسلم حمزة سنة ست من البعثة (٢٢٧/١ العقد الثمين للفاسى) وأسلم عمر بعد حمزة بثلاثة أيام (١ : ٢٢٩ المرجع نفسه) .

والله لنخرجن فى أرض الله ، آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا مخرجا . فقال : صحبكم الله ، ورأيت له رقة لم أكن أراها ، وانصرف وقد أحزنه — فيما أرى — خروجنا . فجاء عامر فقلت له : لو رأيت عمر آنفا ورقته وحزنه علينا .. قال : أطمعت فى إسلامه ؟ قلت : نعم . قال : دون ذلك نجوم السماء .

٢ — وكان سبب إسلام عمر أن أخته فاطمة بنت الخطاب كانت متزوجة من سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وقد أسلمت وأسلم زوجها ، وكانا يخفيان إسلامهما عن عمر . وكان نعيم بن عبد الله النحام من أقارب عمر ، فهو من بنى عدى بن كعب ، وكان قد أسلم ويستخفى بإسلامه فرقا من قومه ، وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن .

فخرج عمر يوما متوشحا بسيفه يريد رسول الله ورهطا من أصحابه ، قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا فى بيت عند الصفا ، وهم نحو أربعين رجلا وامرأة ومع رسول الله عمه حمزة وأبو بكر وعلى بن أبى طالب ، فى رجال من المسلمين ممن أقام مع رسول الله بمكة ، ولم يخرج فيمن خرج إلى الحبشة .

فلقيه نعيم فقال له : أين تريد يا عمر ؟

قال : أريد محمدا هذا الصابئ الذى فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها ، فأقتله .

فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك يا عمر ، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا ، أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ، وكان قد أراد إلهاء عمر عن محمد وأصحابه .

قال عمر : وأى أهل بيتى ؟

قال : صهرك وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة ، فقد — والله — أسلما وتابعا محمدا على دينه ، فعليك بهما .

فرجع عمر عامدا إلى أخته وزوجها ، وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة فيها طه يقرئهما إياها ، فلما سمعوا عمر اختفى خباب فى بعض البيت ، وأخذت فاطمة الصحيفة فجعلتها تحت فخذها . وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما ، فلما دخل قال : ما هذه الهينمة[1] التى سمعت ؟ قالا له : ما سمعت شيئا . قال :

---

(١) هى الصوت الذى لا يسمع .

بلى والله ، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه . وبطش بصهره سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته لتكفه فضربها فشجها .

فلما فعل ذلك قالت له أخته وزوجها : نعم قد أسلمنا و آمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك . وسكن عمر لمشهد الدم يتدفق على وجه أخته ، وقال لها : أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرأون آنفا ، أنظر ما هذا الذى جاء به محمد . وكان عمر يكتب ويقرأ .

فقالت له أخته : إنا نخشاك عليها . قال : لا تخافى . وحلف لها بآلهته ليردنّها — إذا قرأها — إليها . فحينئذ طمعت فى إسلامه وقالت له : يا أخى إنك نجس على شركك وإنه لا يمسها إلا الطاهر . فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة وفيها طه فقرأها . فلما قرأ منها صدرا قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه .. فلما سمع ذلك خباب خرج إليه فقال له : يا عمر والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فإنى سمعته أمس وهو يقول : اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب ، فاللهَ اللهَ يا عمر . فقال له عمر عند ذلك : فدلنى يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم . فقال له خباب : هو فى بيت عند الصفا ، معه فيه نفر من أصحابه . فأخذ عمر سيفه وذهب إلى رسول الله وأصحابه فضرب عليهم الباب . فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله فنظر من خلل الباب فرآه متوشحا السيف ، فرجع إلى رسول الله وهو فزع فقال : يا رسول الله هذا عمر متوشحا سيفه .

فقال حمزة : فأذن له ، فإن كان جاء يريد خيرا بذلناه له ، وإن كان يريد شرا قتلناه بسيفه .

فقال رسول الله : ائذن له . فأذن له الرجل ، ونهض إليه رسول الله فأخذ بجميع ردائه ، ثم جذبه جذبة شديدة وقال له : ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة .

فقال عمر : يا رسول الله جئتك لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله .

فكبر رسول الله تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله أن عمر قد أسلم .

وعز المسلمون بإسلام عمر مع إسلام حمزة ، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله .

ويروى أن عمر ذهب يريد الطواف بالكعبة ، فإذا برسول الله قائم يصلى ، وكان إذا صلى استقبل الشام وجعل الكعبة بينه وبين الشام ، وكان مصلاه بين الركنين : الركن الأسود والركن اليمانى .

فقال عمر لنفسه حين رأى رسول الله : والله لو أنى استمعت من محمد الليلة ، حتى أسمع ما يقول : ثم قال : لئن دنوت منه لأروعنه . فجئت من قبل الحجر فدخلت تحت ثيابها فجعلت أمشى رويدا ورسول الله قائم يصلى يقرأ القرآن ، حتى قمت فى قبلته مستقبله ، ما بينه وبين رسول الله إلا ثياب الكعبة .

قال عمر : فلما سمعت القرآن رق له قلبى فبكيت ودخلنى الإسلام ، فلم أزل فى مكانى ذلك حتى قضى رسول الله صلاته ، ثم انصرف .

وكان إذا انصرف خرج على دار ابن أبى حصين ، وكانت طريقه ، حتى يجزع — يقطع — المسعى ، ثم يسلك بين دار العباس ودار ابن أزهر الزهرى ، ثم على دار الأخنس ابن شريق حتى يدخل بيته ، وكان مسكنه ﷺ فى الدار الرقطاء التى كانت بيدى معاوية .

قال عمر : فتبعته حتى إذا دخل بين دار العباس ودار ابن أزهر أدركته . فلما سمع رسول الله حسى عرفنى ، فظن رسول الله أنى إنما اتبعته لأوذيه فنهمنى — زجرنى — ثم قال : ما جاء بك يا ابن الخطاب هذه الساعة ؟

قلت : جئت لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله .

فحمد الله رسول الله ثم قال : قد هداك الله يا عمر ، ثم مسح صدرى ودعا لى بالثبات ، ثم انصرفت عن رسول الله ودخل رسول الله بيته .

٣ — وأراد عمر أن يشيع نبأ إسلامه فى قريش فقال : أىُّ قريش أنقل للحديث ؟ قيل له : جميل بن معمر الجمحى :

فغدا عمر عليه .. قال عبد الله بن عمر : وغدوت أتبع أثر أبى ، وأنظر ما يفعل وأنا غلام أعقل كل ما رأيت ، وجاء أبى إلى ابن معمر فقال له :

— أعلمت يا جميل أنى قد أسلمت ودخلت فى دين محمد ، فقام جميل يجر رداءه ، واتبعه عمر ، واتبعت أبى ، حتى إذا قام جميل على باب المسجد صرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش — وهم فى أنديتهم — مجالسهم حول باب الكعبة — ألا إن عمر قد صبأ . فرد عمر من خلفه : كذب ولكنى أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله .

وقعد عمر ، وقاموا على رأسه وهو يقول : افعلوا ما بدا لكم . فأقبل شيخ من قريش حتى وقف عليهم فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : صبأ عمر . فقال : رجل اختار لنفسه أمرا ، فماذا تريدون ؟ أترون بنى عدى بن كعب يسلمون لكم صاحبهم هكذا ؟ خلوا عن الرجل . فانصرفوا ، وكان ذلك الرجل العاص بن وائل السهمى .

٤ — قال عمر : لما أسلمت تلك الليلة تذكرت أى أهل مكة أشد عداوة لرسول الله حتى آتيه فأخبره أنى قد أسلمت . فقلت : أبو جهل ..

وقال عمر : فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت عليه بابه ، فخرج إلى أبو جهل فقال : مرحبا وأهلا بابن أختى . ما جاء بك ؟ قلت : جئت لأخبرك أنى قد آمنت بالله وبرسوله محمد ، وصدقت بما جاء به . فضرب الباب فى وجهى وقال : قبحك الله وقبح ما جئت به .

عرض الرسول نفسه على القبائل :

وهذه صورة أخرى من صور الاتصال الشخصى ، إذ :

١ — قدم رسول الله مكة من رحلته إلى الطائف ، وقريش أشد ما تكون عليه من خلافه وفراق دينه إلا قليلا مستضعفين ممن آمن به .

وأخذ رسول الله يعرض نفسه فى المواسم على قبائل العرب ، يدعوهم إلى الله ويخبرهم أنه نبى مرسل ، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبلغ عن الله ما بعثه به .

٢ — عن ربيعة بن عباد عن أبيه ، قال :

إنى لغلام شاب مع أبى بمنى ، إذا رسول الله فى منى يقف على منازل القبائل من العرب يقول : يا بنى فلان ، إنى رسول الله إليكم ، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بى وتصدقوا بى وتمنعونى ، حتى أبين عن الله ما بعثنى به .

وخلف رسول الله رجل أحول وضىء ، عليه حلة عدنية ، فإذا فرغ رسول الله من قوله وما دعا إليه قال ذلك الرجل :

يا بنى فلان ، إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم إلى ما جاء به من الضلالة ، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه . فإذا الرجل عمه عبد العزى بن عبد المطلب ، وهو أبو لهب .

٣ — وأتى رسول الله كندة فى منازلهم فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم نفسه ، فأبوا عليه .

٤ — وأتى رسول الله « كلبا » فى منازلهم ، فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم نفسه حتى إنه ليقول لهم : يا بنى عبد الله .. إن الله عز وجل قد أحسن اسم أبيكم ، وكان هذا البطن من كلب يقال لهم بنو عبد الله فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم .

٥ — وأتى رسول الله بنى حنيفة فى منازلهم فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم نفسه ، فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه ردا منهم .

٦ — وأتى ﷺ بنى عامر بن صعصعة ، فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم نفسه ، فقال له رجل منهم يقال له بحرة بن فراس : والله لو أنى أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب . ثم قال له : أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟

فرد على رسول الله : أفنهدف[1] نحورنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ، لا حاجة لنا بأمرك . وأبوا على رسول الله .

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم ، فقالوا له وقال لهم ما قال[2] .

---

(١) أى نجعلها هدفا .

(٢) يروى عبد الرحمن العامرى عن أشياخ من قومه العامريين قالوا : أتانا رسول الله ﷺ ونحن بسوق عكاظ فقال : ممن القوم ؟ قلنا من بنى عامر بن صعصعة قال من أى بنى عامر قلنا بنو كعب ابن ربيعة قال : كيف المنعة فيكم ؟ قلنا : لإبرام ما قبلنا : ولا يصطلى بناؤنا ، فقال : إنى رسول الله . فإن أتيتكم تمنعونى حتى أبلغ رسالة ربى ولم أكره أحدا منكم على شىء قالوا : ومن أى قريش أنت قال من بنى عبد المطلب قالوا : فأين أنت من بنى عبد مناف قال : هم أول من كذبنى وطردنى قالوا : ولكنا لا نطردك ولا نؤمن بك ولا نمنعك أن تبلغ رسالة ربك .

فنزل إليهم والقوم يتسوقون ، إذ أتاهم بجرة بن قيس القشيرى (أو بجرة بن فراس كما فى الطبرى ٢ / ٢٣٢) فقال : من هذا الذى أراه عندكم أنكـره قالوا : هذا محمد بن عبد الله القرشى قال : وما لكم وله ؟ قالوا : زعم أنه رسول الله ويطلب الينا أن نمنعه حتى يبلغ رسالة ربه . قال فبماذا رددتم عليه ؟ قالوا : قلنا : فى الرحب والسعة نخرجك إلى بلادنا ونمنعك مما نمنع منه أنفسنا . قال بجرة : ما أعلم أحدا من أهل هذه السوق يرجع بشىء أشر من شىء ترجعون به بدأتم لتنابذكم الناس ، وترميكم العرب عن قوس واحدة ، قومه أعلم به ؟ لو آنسوا منه خيرا لكانوا أسعد الناس به . تعمدون إلى مرهق قد طرده قومه وكذبوه فتئونه وتنصرونه .. فبئس الرأى ما رأيتم .

ثم أقبل على رسول الله فقال : قم الحق بقومك ، فوالله لولا إنك عند قومى لضربت عنقك . فقام رسول الله إلى ناقته فركبها فغمزها بجرة فقمصت برسول الله فألقته . وعند بنى عامر يومئذ ضباعة بنت عامر ابن قرظ وكانت من النسوة اللاتى أسلمن مع رسول الله بمكة . جاءت زائرة إلى بنى عمها فقالت : يا آل عامر . أيصنع هذا برسول الله بين أظهركم لا يمنعه أحد منكم ، فقام ثلاثة نفر من بنى عمها إلى بجرة وثلاثة أعانوه . فأخذ كل منهم رجلا ، فجلد به الأرض . ثم جلس على صدره فقال رسول الله : اللهم بارك على هؤلاء والعن هؤلاء .

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم ، قد كان أدركته السن حتى لا يقدرأن يوافى

٧ — وظل رسول الله ﷺ على ذلك من أمره ، كلما اجتمع له الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام ، ويعرض عليهم نفسه وما جاء به من الله من الهدى والرحمة ، وهو لا يسمع بقادم من العرب له اسم وشرف إلا تصدى له فدعاه إلى الله وعرض عليه ما عنده .

قدم سويد بن صامت ، من عمرو بن عوف مكة ، حاجا أو معتمرا ، وكان يسميه قومه الكامل لجلده وشرفه ونسبه ، فتصدى له رسول الله حين سمع به فدعاه إلى الله وإلى الإسلام ، فقال له سويد : فلعل الذى معك مثل الذى معى .

فقال له رسول الله : وما الذى معك ؟ قال : مجلة لقمان . يعنى حكمة لقمان . فقال له رسول الله : اعرضها على . فعرضها عليه .

فقال له : إن هذا الكلام حسن ، والذى معى أفضل من هذا ، قرآن أنزله الله تعالى على « هو هدى ونور » وتلا عليه رسول الله القرآن ، ودعاه إلى الإسلام فلم يبعد منه وقال : إن هذا لقول حسن .

ثم انصرف عنه فقدم المدينة على قومه ، فلم يلبث أن قتلته الخزرج قبل « يوم بعاث »[١] .

٨ — وقدم أنس بن رافع مكة ، وكان معه فتية من بنى عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج . وسمع بهم رسول الله فأتاهم فجلس إليهم فقال لهم : هل لكم فى خير مما جئتم له .

قالوا لرسول الله : وما ذاك ؟

قال : أنا رسول الله بعثنى إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا ، وأنزل على الكتاب .

ثم ذكر رسول الله لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن .

= معهم الموسم ، فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون فى ذلك الموسم ، فلما قدموا عليه سألهم عمن كان فى الموسم ، فقالوا جاءنا فتى من قريش ، ثم حدث إنه أحد بنى عبد المطلب ، يزعم أنه نبى يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ، ونخرج به معنا إلى بلادنا ، فوضع الشيخ يده على رأسه ، ثم قال : يا بنى عامر ، هل لها من تلاف ، هل لذنابها تطلب ، فوالذى نفس فلان بيده ما تقولها إسماعيل قط ، إلا أنها الحق فأين كان رأيكم ؟

(مأثورات نبوية — للخفاجى — ص ٢٥١) :

(١) مكان كانت فيه حرب شديدة بين الأوس والخزرج .

فقال إياس — وكان غلاما حدثا — : أى قوم ، هذا والله خير مما جئتم له .

فأخذ أنس بن رافع حفنة من التراب فضرب بها وجه إياس وقال : دعنا منك ، فلعمرى لقد جئنا لغير هذا .

فصمت إياس ، وقام رسول الله عنهم وانصرفوا إلى المدينة ، ثم لم يلبث أن مات إياس ، وما كانوا يشكون أنه مات مسلما ، فلقد كان استشعر الإسلام فى ذلك المجلس حين سمع من رسول الله ما سمع .

وما دمنا نتحدث عن وسيلة الاتصال الشخصى المباشر على يد الرسول عليه الصلاة والسلام ، فلا ينبغى لنا أن نغفل الحديث عن اتصاله ﷺ برجال من الخزرج قبل أن يهاجر إلى المدينة .

نور على الطريق :

فلما أراد الله إظهار دينه ، وإعزاز نبيه ، وإنجاز موعده له ، خرج رسول الله فى الموسم الذى لقى فيه النفر من الأنصار ، وكان ذلك فى العام الخمسين من مولده الشريف ، فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع فى كل موسم ، فبينا هو عند العقبة لقى رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيرا .

فقال لهم : من أنتم ؟

قالوا : نفر من الخزرج .

قال : أمن موالى يهود ؟

قالوا : نعم .

قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟

قالوا : بلى .

فجلسوا معه .

فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن .

وكان مما صنع الله لهم به فى الإسلام ، أن يهود كانوا معهم فى بلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان . فكان يهود إذا كان بينهم شىء قالوا لهم : إن نبيا مبعوث الآن قد أظل زمانه ، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد . فلما كلم رسول الله أولئك النفر ودعاهم إلى الله ، قال بعضهم لبعض :

يا قوم ، تعلمون والله أنه النبى الذى توعدكم به يهود ، فلا تسبقنكم إليه .

فأجابوه فيما دعاهم إليه ، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا له : إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله بك . فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك .

ثم انصرفوا عن رسول الله راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا ، وكانوا ستة من الخزرج هم :

١ — أسعد بن زرارة من بنى النجار .
٢ — عوف بن الحارث من بنى النجار .
٣ — رافع بن مالك .
٤ — قطبة بن عامر .
٥ — عقبة بن عامر .
٦ — جابر بن عبد الله .

فلما قدموا المدينة ذكروا لقومهم رسول الله ودعوهم إلى الإسلام ، حتى فشا فيهم فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر لرسول الله ﷺ .

بيعة العقبة الأولى

١ — رأينا هؤلاء الستة من الخزرج الذين أسلموا بعد أن دعاهم رسول الله فى الموسم إلى الإسلام .

فلما كان العام المقبل — الحادى والخمسون من الميلاد النبوى الكريم — وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا فلقوه بالعقبة ، فبايعوا رسول الله على بيعة النساء ، وذلك قبل أن يفرض عليهم الحرب ، وتلك هى بيعة العقبة الأولى . والذين بايعوا رسول الله هم :

١ — أسعد بن زرارة من بنى النجار .
٢ — عوف بن الحارث بن رفاعة من بنى النجار .
٣ — معاذ بن الحارث بن رفاعة من بنى النجار .
٤ — رافع بن مالك .
٥ — عبادة بن الصامت[1] .

---

(١) توفى عام ٣٤ هـ — ٦٥٤ م عن ٧٢ عاما .

٦ — العباس بن عبادة .

٧ — عقبة بن عامر .

٨ — وشهدها من الأوس أبو الهيثم بن التيهان ، وكان فى الجاهلية يكره الأصنام ويقول بالتوحيد هو وأسعد بن زرارة ، وكانا أول من أسلم من الأنصار بمكة ، وتوفى أبو الهيثم عام ٢٠ هـ كما تذكر بعض المصادر[١] .

٩ — عويم بن ساعدة .

١٠ — ذكوان بن عبد قيس .

١١ — يزيد بن ثعلبة .

١٢ — قطبة بن عامر .

وهؤلاء الاثنا عشر بايعوا رسول الله على أن لا يشركوا بالله شيئا ، ولا يسرقوا ، ولا يزنوا ، ولا يقتلوا أولادهم ، ولا يأتوا ببهتان يفترونه من بين أيديهم وأرجلهم ، ولا يعصوا الرسول فى معروف ؟ وقال لهم رسول الله :

(فإن وفيتم فلكم الجنة ..

وإن غشيتم من ذلك شيئا فأمركم الله عز وجل ، إن شاء غفر ، وإن شاء عذب) .

٢ — فلما انصرف القوم عن رسول الله بعث معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى ، وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم فى الدين ، فسمى بالمدينة المقرئ ، وكان نزوله على أسعد بن زرارة وهو أول من صلى الجمعة بالمسلمين فى المدينة .

٣ — وفى اجتماع لمصعب بالمسلمين قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير وكانا مشركين : لا أبالك ، انطلق إلى هذين الرجلين — أسعد بن زرارة ومصعب بن عمير — اللذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا ، فازجرهما وانهما عن أن يأتيا دارينا ، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة منى حيث قد علمت — وكان أسعد ابن خالة سعد — كفيتك ذلك .

فأخذ سعيد حربته ، ثم أقبل إليهم وقال : ما جاء بكما إلينا ، تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة .

فقال مصعب : أو تجلس فتسمع ؟ فإن رضيت أمرا قبلته ، وإن كرهته كف عنك ما تكره .

---

(١) ١ : ١٣٩ سير أعلام النبلاء للذهبى .

قال له أسيد : أنصفت . ثم ركز حربته وجلس إليهما ، فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن . فقالا فيما يروى عنهما : والله لعرفنا فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم به ، ثم قال : ما أحسن هذا الكلام وأجمله ! ثم شهد شهادة الحق ، ثم قال لهما : إن ورائى رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ، سعد بن معاذ .

وأخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس فى ناديهم . فلما نظر إليه سعد مقبلا قال : أحلف بالله لقد جاء أسيد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم .

فلما وقف على النادى ، قال له سعد : ما فعلت ؟

قال : كلمت الرجلين ، فوالله ما رأيت بهما بأسا ، وقد نهيتهما فقالا : نفعل ما أحببت . وقد أخبرت أن بنى حارثة قد خرجوا إلى أسعد ليقتلوه ، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك ، ليخفرك .

فقام سعد مغضبا ، فأخذ الحربة من يده وخرج إليهما ، ثم قال لأسعد : أتغشانا فى دارنا بما نكره ؟ قال له مصعب : أو تقعد فتسمع ؟ فإن رضيت أمرا ورغبت فيه قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره .

قال سعد : أنصفت . ثم ركز الحربة وجلس ، فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن . قالا : فعرفنا فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم ، ثم شهد سعد شهادة الحق .

ثم أخذ حربته وانصرف ، فأقبل عامدا إلى نادى قومه ومعه أسعد ، فقال قومه : نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم .

فلما وقف عليهم قال : يا بنى عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟

قالوا : سيدنا ، وأفضلنا رأيا ، وأيمننا نقيبة .

قال : وإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله .

فما أمسى منهم رجل ولا امرأة إلا مسلما أو مسلمة .

وأقام مصعب عند أسعد بن زرارة يدعو الناس إلى الإسلام ، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون .

بيعة العقبة الثانية أو الكبرى :

فى العام الثانى والخمسين من ميلاده الكريم .

١ — رجع مصعب بن عمير — داعية الإسلام فى المدينة إلى مكة ليحضر موسم الحج .

وخرج جماعات من الأنصار من المسلمين إلى الموسم مع حجاج قومهم من أهل الشرك ، حتى قدموا مكة ، واتصلوا بالرسول أيام التشريق ، وهو اليوم الثانى لعيد الأضحى من العام الثانى عشر للبعثة المحمدية ، ولم يكن عيد الحج قد سمى بعد بعيد الأضحى .

وذلك كله حين أراد الله بهم ما أراد من كرامته ، والنصر لنبيه ، وإعزاز الإسلام وأهله ، وإذلال الشرك وحزبه .

وحدث عبد الله بن كعب بن مالك — وكان من أعلم الأنصار — أن أباه كعبا حدثه ، وكان كعب ممن شهد العقبة وبايع رسول الله ﷺ بها ، قال :

— خرجنا فى حجاج قومنا من المشركين ، وقد صلينا وفقهنا ، ومعنا البراء بن معرور سيدنا وكبيرنا .

فلما خرجنا من المدينة قال لنا البراء : يا هؤلاء إنى قد رأيت رأيا ووالله ما أدرى توافقوننى عليه أم لا ؟ قلنا : وماذاك ؟ قال : قد رأيت ألا أدع الكعبة منى بظهر وأن أصلى إليها . فقلنا : والله ما بلغنا أن نبينا ﷺ يصلى إلا إلى الشام ، وما نريد أن نخالفه . فقال : إنى لمصل إليها . فقلنا له : لكنا لا نفعل .

فكنا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام وصلى البراء إلى الكعبة ، حتى قدمنا مكة وقد كنا عبنا عليه ما صنع ، وأبى إلا الإقامة على ذلك .

فلما قدمنا إلى مكة قال لى : يا ابن أخى ، انطلق بنا إلى رسول الله حتى أسأله عما صنعت فى سفرى هذا . فخرجنا نسأل عن رسول الله وكنا لا نعرفه ، لأنا لم نره قبل ذلك ، فلقينا رجلا من أهل مكة فسألناه عن رسول الله ، فقال : هل تعرفانه ؟ قلنا : لا . قال : هل تعرفان العباس عمه ؟ قلنا نعم . وكنا نعرفه إذ كان يقدم علينا المدينة تاجرا . قال : فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس .

فدخلنا المسجد فإذا العباس ورسول الله جالس معه ، فسلمنا ثم جلسنا إليه ، فقال رسول الله للعباس : هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل ؟ قال : نعم ، هذا البراء

سيد قومه ، وهذا كعب بن مالك . فقال رسول الله : الشاعر ؟ قال عمه العباس بن عبد المطلب : نعم . فقال البراء : يا رسول الله إنى خرجت فى سفرى هذا ، وقد هدانى الله للإسلام ، فرأيت ألا أجعل هذه البنية منى بظهر فصليت إليها ، وقد خالفنى أصحابى فى ذلك حتى وقع فى نفسى من ذلك شىء . فماذا ترى يا رسول الله ؟

قال له ﷺ : قد كنت على قبلة لو صبرت عليها ؟ فرجع البراء إلى قبلة رسول الله ﷺ وصلى إلى الشام .

قال كعب : ثم خرجنا إلى الحج وواعدنا رسول الله العقبة من أوسط أيام التشريق ، فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة الموعودة ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا ، أخذناه معنا ، وكنّا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا ، فقلنا : أى ابن حرام أبا جابر ، إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا ، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبا للنار غدا . ودعوناه إلى الإسلام وأخبرناه بميعاد رسول الله إيانا العقبة ، فأسلم وشهد معنا العقبة وكان نقيبا .

قال كعب : قدمنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله نتسلل مستخفين ، حتى اجتمعنا فى الشعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا ومعنا امرأتان من نسائنا :

١ — نسيبة بنت كعب ، أم عمارة ، من بنى مازن بن النجار .

٢ — وأسماء بنت عمرو ، من بنى سلمة ، وهى أم منيع .

قال كعب بن مالك : فاجتمعنا فى الشعب ننتظر رسول الله ، حتى جاءنا ومعه العباس وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له : فلما جلس كان هو أول متكلم .

قال العباس : يا معشر الخزرج[1] ، إن محمدا منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا فهو فى عز من قومه ، ومنعة فى بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، وما نعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك . وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه ، فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده[2] .

---

(١) كانت العرب تسمّى الأوس والخزرج باسم الخزرج .

(٢) كان خروج العباس مع رسول الله ﷺ للسبب الذى ذكره ابن هشام ، ولسبب آخر هو أنه كان أكثر خبرة بالمدينة وأهلها وأشرافها لتردده عليها للتجارة .

فقلنا له : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

فتكلم رسول الله فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب فى الإسلام ، ثم قال :

— أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم .

فأخذ البراء بيده وقال :

نعم والذى بعثك بالحق ، لنمنعك مما نمنع منه نساءنا ، فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحروب ورثناها كابرا عن كابر .

وقال ابن التيهان ، أبو الهيثم : يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال[1] حبالا — عهودا — فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

فتبسم رسول الله ثم قال :

— بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم .

وقال رسول الله :

— أخرجوا إلىّ منكم اثنى عشر نقيبا ليكونوا على قومهم بما فيهم .

فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبا ، تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس .

وهم :

١ — أبو أمامة ، أسعد بن زرارة ، الخزرجى الأنصارى[2] .

٢ — سعد بن ربيع الخزرجى قتل فى أحد .

٣ — عبد الله بن رواحة الخزرجى .

٤ — رافع بن مالك الخزرجى .

٥ — البراء بن معرور[3] .

٦ — عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجى .

٧ — عبادة بن الصامت[4] الخزرجى .

---

(١) يعنى اليهود .

(٢) مات فى السنة الأولى من الهجرة ، ومات فى هذه السنة من المشركين الوليد بن المغيرة والد خالد بن الوليد ، وسعيد بن العاص ، والعاص بن وائل السهمى (١ : ٢١٨ — ٢٢٠ سير أعلام النبلاء) .

(٣) أنصارى خزرجى — مات فى المدينة فى صفر قبل قدوم الرسول مهاجرا إليها بشهر واحد (١ : ١٩٤ سير أعلام النبلاء) ، وابنه بشر بن البراء هو الذى أكل مع النبى ﷺ من الشاة المسمومة يوم خيبر فمات (١ : ١٩٥ المرجع نفسه) .

(٤) توفى عام ٣٤ هـ : ٦٥٤ م عن ٧٢ عاما .

٨ — سعد بن عبادة الخزرجي .
٩ — المنذر بن عمرو الخزرجي .
١٠ — أسيد بن حضير الأوسي[1] .
١١ — سعد بن خيثمة الأوسي .
١٢ — رفاعة بن عبد المنذر ، ومن العلماء من يجعل مكانه أبا الهيثم ابن التيهان .

وقال رسول الله للنقباء :

أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم ، وأنا كفيل على قومي — المسلمين .

قالوا له :

— نعم .

٢ — وقال العباس بن عبادة لقومه :

— يا معشر الخزرج ، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟

قالوا : نعم ؟

قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس . فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتل أسلمتموه ، فمن الآن فهو — والله — إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة « نقص » الأموال ، وقتل الأشراف ، فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة .

قالوا له :

— فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف . فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا ؟

قال رسول الله لهم : الجنة .

قالوا : ابسط يدك .

فبسط رسول الله يده ، فبايعوه .

وكان من أول من بايع رسول الله .. أسعد بن زرارة وقيل .. أبو الهيثم ابن التيهان .

ثم بايع القوم .

ثم قال رسول الله .

(١) توفي عام ٢٠ هـ (١/٢٤٦ سير أعلام النبلاء) .

— ارفضوا(١) إلىّ رحالكم .

فقال العباس بن عبادة .

— والله الذى بعثك بالحق ، إن شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيافنا .

فقال رسول الله :

— لم نؤمن بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم .

قال كعب بن مالك :

فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا عليها حتى أصبحنا ، فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتى جاءونا فى منازلنا فقالوا : يا معشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم .

فانبعث من هناك من مشركى قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شىء ، وما علمناه وبعضنا ينظر إلى بعض .

ثم قام القوم وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومى .. وأتوا عبد الله بن أبىّ بن سلول فقالوا له مثل ما قالوا ، فقال لهم : إن هذا الأمر جسيم ما علمته كان .. فانصرفوا عنه .

قال كعب :

— ونفر الناس من منى ، وعلمت قريش أن الخبر صادق قد كان فخرجوا فى طلب القوم فأدركوا سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو ، ففاتهم المنذر وأخذوا سعدا فقيدوه ، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه بجمته ، وكان ذا شعر كثير . قال سعد : فقال لى رجل ممن كان معهم(٢) : ويحك أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد ؟ قلت : بلى والله جبير بن مطعم والحارث بن حرب . قال : ويحك ! فاهتف باسم الرجلين واذكر ما بينك وبينهما . ففعلت .. وخرج ذلك الرجل إليهما فوجدهما فى المسجد عند الكعبة فقال لهما : إن رجلا من الخزرج الآن يضرب بالأباطح ليهتف بكما ، ويذكر أن بينه وبينكما حوارا . قالا : ومن هو ؟ قال : سعد بن عبادة . قالا : صدق والله . إن كان ليجير لنا تجارتنا . فجاءا فخلصاه من أيديهم .

٣ — وقدم المسلمون المدينة ، فأظهروا الإسلام(٣) . وتسمى بيعة العقبة الثانية

---

(١) أى تفرقوا . (٢) هو أبو البخترى بن هشام .

(٣) وكان يؤم المهاجرين بقباء قبل هجرة رسول الله سالمُ مولى أبى حذيفة .

بيعة الحرب . وكانت العقبة الأولى بيعة النساء ، لأن الله تعالى لم يكن أذن لرسوله فى الحرب ، فلما أذن لهم فيها وبايعهم رسول الله فى العقبة الآخرة على حرب الأحمر والأسود ، أخذ لنفسه واشترط على القوم لربه ، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة .

حدث عبادة بن الصامت ، وكان أحد النقباء وكان من الذين بايعوا فى العقبة الأولى على بيعة النساء :

— بايعنا رسول الله بيعة الحرب على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا ، ومنشطنا ومكرهنا ، وأثره علينا ، وألا ننازع الأمر أهله ، وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم .

٤ — وكان رسول الله قبل بيعة العقبة لم يؤذن له فى الحرب ، ولم تحلل له الدماء .. إنما يؤمن بالدعاء إلى الله ، والصبر على الأذى ، والصفح عن الجاهل . وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من قومه .. فتنوهم عن دينهم ، ونفوهم من بلادهم فهم من بين مفتون فى دينه ، ومن بين معذب فى أيديهم ، وبين هارب فى البلاد فرارا بالحبشة ، أو بالمدينة ، وفى كل وجه .

فلما عتت قريش على الله وكذبوا نبيه ، وعذبوا ونفوا من عبده ووحده وصدق نبيه واعتصم بدينه ..

أذن الله لرسوله فى القتال ، والامتناع والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم .

فلما أذن الله له فى الحرب ، وتابعه هذا الحى من الأنصار على الإسلام والنصرة ولمن اتبعه ، أمر رسول الله أصحابه من المهاجرين من قومه ومن معه بمكة بالخروج إلى المدينة ، والهجرة إليها ، واللحوق بإخوانهم من الأنصار وقال لهم :

— إن الله قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها .

فخرجوا أرسالا ، وأقام رسول الله بمكة ينتظر أن يأذن الله له فى الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة .

٥ — وكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله من المهاجرين من قريش من بنى مخزوم : أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى ، واسمه عبد الله ، قدم على رسول الله مكة من الحبشة ، فلما آذته قريش وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار خرج إلى المدينة مهاجرا . ويروى أنه هاجر قبل بيعة العقبة بسنة ، وتقص أم سلمة المخزومية

زوج النبى(١) ﷺ قصة هجرته فتقول :

— أجمع أبو سلمة الرأى على الهجرة إلى المدينة .. أتى ببعيره فحملنى عليه ومعى ابنى سلمة فى حجرى ، ثم خرج بى يقود البعير .

فلما رأته رجال بنى مخزوم قاموا إليه فقالوا له :

— هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها فى البلاد؟

ونزعوا مقود البعير من يده فأخذونى منه ، وغضب عند ذلك قوم أبى سلمة من بنى عبد الأسد وقالوا : والله لا نترك سلمة ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا .

فتجاذبوا ابنى سلمة بينهم حتى خلعوا يده ، وانطلق به بنو عبد الأسد ، وحبسنى قومى بنو المغيرة المخزوميون عندهم ، وانطلق زوجى أبو سلمة إلى المدينة ، وفرقوا بينى وبين زوجى وبين ابنى .

فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح ، فما أزال أبكى حتى أمسى .. مدة سنة أو قريبا من ذلك .

حتى مر بى رجل من بنى عمى ، أحد بنى المغيرة ، فرأى ما بى فرحمنى فقال لبنى المغيرة : ألا ترحمون هذه المسكينة ؟ . فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها .

فجاءوا فقالوا لى : الحقى بزوجك إن شئت ، ورد قوم زوجى بنو عبد الأسد إلىّ ابنى .

فركبت بعيرى ، ثم أخذت ابنى فوضعته فى حجرى ، ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة وما معى أحد من خلق الله . حتى إذا كنت بالتنعيم(٢) لقيت عثمان بن طلحة

---

(١) هى هند بنت أبى أمية بن المغيرة المخزومية بنت عم خالد بن الوليد : كانت قبل النبى عند أخيه من الرضاعة أبى سلمة ، ودخل بها الرسول سنة أربع من الهجرة ، وكانت من أجمل النساء وأشرفهن نسبا ، وهى آخر من مات من أمهات المؤمنين وذلك بعد مقتل الحسين . وقيل توفيت عام ٥٩ هـ فى شهر ذى القعدة . والأرجح أن وفاتها عام ٦١ هـ . وصلى عليها أبو هريرة (٢ : ١٤٢ — ١٤٨ سير أعلام النبلاء) .

وأبو سلمة أخو رسول الله من الرضاعة وابن عمته برة بنت عبد المطلب ، وأحد السابقين الأولين هاجر إلى الحبشة ، ثم هاجر إلى المدينة ، وشهد بدرا وأحدا ومات عام ٤ هـ ، وابنه سلمة ولد له بالحبشة من زوجه أم سلمة ، كما ولد له عمر ودرة بالحبشة أيضا (١ : ١٠٨ — ١١٠ سير أعلام النبلاء) وولدت له زينب فى المدينة .

(٢) موضع خارج مكة يحرم منه المكيون .

فقال لى : إلى أين يا بنت أبى أمية ؟ قلت : أريد زوجى بالمدينة . قال : أو معك أحد ؟ قلت : لا والله ، ما معى إلا الله وابنى هذا . فأخذ بخطام البعير وانطلق معى يهوى بى ، فوالله ما صحبت رجلا من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه . كان إذا بلغ المنزل أناخ بى ثم استأخر عنى ، حتى إذا نزلت عنه جاء فحط عن بعيرى ثم قيده فى الشجرة ، ثم تنحى إلى الشجرة فاضطجع تحتها . فإذا دنا الرواح قام إلى بعيرى فقدمه لرحله ، ثم استأخر عنى ، فقال : اركبى . فإذا ركبت فاستويت على بعيرى أتى فأخذ بخطامه ، فقاد بى حتى ينزل بى . فلم يزل يصنع ذلك بى حتى قدمت المدينة عند قباء ، فقال : زوجك فى هذه القرية وكان أبو سلمة نازلا بقرية بنى عمرو بن عوف بقباء — فادخليها على بركة الله . ثم انصرف راجعا إلى مكة .

والله ما أعلم أهل بيت فى الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة ، وما رأيت رفيق سفر قط أكرم من عثمان بن طلحة .

٦ — وهاجر بعد أبى سلمة .. عامر بن ربيعة ، ومعه امرأته ليلى ، وهما من عدى كعب . ثم عبد الله بن جحش حليف بنى أمية بن عبد شمس ، وكان معه أهله وأخوه عبد بن جحش الضرير البصر ، وكان شاعرا ، وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب فلم يبق أحد من بيت عبد الله بن جحش فى مكة بسبب الهجرة .

ثم قدم المهاجرون المدينة جماعات .

٧ — وكان من المهاجرين .. عمر بن الخطاب وعياش بن أبى ربيعة المخزومى ، تواعدا اللقاء عند التناضب[1] ، فلما قدما المدينة نزلا فى بنى عمرو بن عوف بقباء ، وخرج أبو جهل والحارث بن هشام إلى عياش ، وهو ابن عمهما وأخوهما لأمهما ، فقدما المدينة ورسول الله بمكة ، فكلما عياشا وقالا له : إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط ، ولا تستظل من شمس ، حتى تراك . فرق قلبه لأمه ، وقال عمر له : يا عياش ، إنه والله ما يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك ، فاحذرهم . فقال : أبر قسم أمى ، ولى هناك مال فآخذه .

قال عمر فقلت له : والله إنك لتعلم أنى لمن أكثر قريش مالا ، فلك نصف مالى ولا تذهب معهما . فأبى علىّ فقلت له : أما إذ قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتى هذه فإنها ناقة نجيبة ، فالزم ظهرها ، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها .

---

(١) قرية من أعمال مكة بأعلى نخلة على نحو عشرة أميال من مكة .

فخرج عليها معهما .

فلما كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل : أفلا تعقبنى على ناقتك هذه فقد استغلظت . فلما أناخ ليركبه خلفه أوثقاه ودخلا به مكة وفتناه عن الإسلام . وقالا وهما يدخلان به مكة : هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا . وحبساه ومعه هشام بن العاص ، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة قال لأصحابه : من لى بعياش وهشام ؟ فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة : أنا لك يا رسول الله بهما . فخرج إلى مكة ففك قيديهما وحملهما على بعيره ، وقدم بهما على رسول الله ﷺ المدينة .

٨ — فنزل عمر بن الخطاب وآله ومن قدم المدينة بعد ذلك من آله فى بنى عمرو بن عوف بقباء على رفاعة بن عبد المنذر .

ونزل طلحة بن عبيد الله بن عثمان وصهيب ، على خبيب الخزرجى بالسنح[١] .

ونزل حمزة وزيد بن حارثة بقباء على كلثوم بن هدم ، وقيل على سعد ابن خيثمة ، وقيل على سعد بن زرارة .

ونزل عبيدة بن الحارث بن المطلب وآله على عبد الله بن سلمة بقباء ونزل عبد الرحمن بن عوف ، ومعه رجال من المهاجرين على سعد بن الربيع .

ونزل الزبير بن العوام ومن معه على منذر بن محمد .

ونزل مصعب بن عمير[٢] على سعد بن معاذ .

ونزل عثمان بن عفان على أوس بن ثابت أخى حسان بن ثابت ، فى دار النجار ، فلذلك كان حسان يحب عثمان ورثاه حين قتل .

---

(١) إحدى محال المدينة وكان بها منزل أبى بكر ، وهى فى طرف من أطراف المدينة وهى منازل بنى الحارث بن الخزرج بعوالى المدينة وبينها وبين منزل رسول الله ميل .

وكان كفار قريش قد قالوا لصهيب حين أراد الهجرة أتيتنا صعلوكا — فقيرا — حقيرا فكثر مالك عندنا وبلغت الذى بلغت ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ، والله لا يكون ذلك . فقال لهم صهيب : أرأيتم إن جعلت لكم مالى أتخلون سبيلى ؟ قالوا : نعم . قال : فإنى جعلت لكم مالى . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : (ربح صهيب ، ربح صهيب) .

(٢) قتل فى غزوة أحد عام ٢ هـ (١ : ١٠٢ و١٠٣ سير أعلام النبلاء الذهبى) .

الباب الخامس

الاتصال الإسلامى
بين دعم الاتجاهات وتغييرها

إن الاتصال عملية دينامية تشترك فى مجالها عدة قوى أهمها[1] :

١ ـــ الاستعدادات الشخصية وما يتصل بها من انتقاء للتعرض الإعلامى والإدراك والتذكر .

٢ ـــ دور الجماعات ومعاييرها ومبادئها .

٣ ـــ الاتصال الشخصى وأثره فى نقل المعلومات وانتشارها .

٤ ـــ قادة الرأى وناقلو المعلومات .

٥ ـــ طبيعة النظام الإعلامى نفسه .

وتأسيسا على هذا الفهم ، ننظر فى الدعوة المحمدية ، فنجد أن الاتصال الإسلامى قد تضمن هذه العناصر فى مراحل الدعوة المحمدية المختلفة .

انتقاء التعرض والإدراك والتذكر :

اكتشف علماء النفس دور الانتقاء فى الإدارك من خلال التجارب التى أجريت فى مجالات مختلفة ، اتضح منها أن الناس يرون ما يريدون أن يروه ، بمعنى أن حاجاتهم النفسية توجه إدراكهم ، كما أن توقعاتهم تساعد على رؤية أشياء قد لا تكون غير موجودة أصلا .

وقد فسر ألبرت وبوستمان Alpert & Postman فى دراستهما الشهيرة للشائعات وانتشارها والتحولات التى تطرأ عليها عند سريانها ، ودوز التحريف الذى يقوم به الأفراد لكى تتمشى الشائعة مع المعلومات والاتجاهات السائدة[2] .

وقد ثبت بالبحث أيضا أن الأشخاص المتميزين يسيئون فهم المعلومات التى تعرض عليهم بدرجة تزيد مرتين ونصف المرة عن مستوى الفهم العادى لهذه المعلومات .

---

(١) Klapper, J., The Effects of Mass Communication (1940), The Free Press, P. 19

(٢) د . عبد العزيز شرف : المرجع السابق ، ص ١٥٨

وهكذا يتضح أن الفرد ينتقى من المواد الإعلامية ما يريد أن يتعرض له أو أن يعرفه ، وهو عادة ما يلبى حاجاته ، وما يتمشى مع معتقداته . ومن ناحية أخرى ينتقى من المدركات ما يهمه وما ينتفع به ، وهو يدركه عادة بالطريقة التى تساعده على الحياة ، كما أنه لا يتذكر من الأشياء إلا ما يفيده ويصلح له(١) .

وتأسيسا على هذا الفهم يمكننا أن نفسر موقف قريش من الدعوة الإسلامية ، حينما مضت قريش فى طريقها سادرة فى خيلائها وغرورها وشركها ، ومضى رسول الله ﷺ فى طريقه من تبليغ رسالة الله والدعوة إلى الدين .

ثم إنه اجتمع بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، والنضر بن الحارث ، وأبو البحترى بن هشام ، والأسود بن المطلب ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام ، وعبد الله بن أبى أمية ، والعاص بن وائل ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وأمية بن خلف .. فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه . فبعثوا إليه : إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، فأتهم . فجاءهم رسول الله وهو يظن أن قد بدا لهم فى الدين رأى جديد ، وكان عليهم حريصا يحب رشدهم ، ويعز عليه عنتهم . وجلس إليهم فقالوا له : يا محمد ، إنا قد بعثنا إليك لنكلمك ، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك .

لقد شتمت الآباء وعبت الدين وشتمت الآلهة ، وسفهت الأحلام وفرقت الجماعة ، فما بقى أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك .

فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا .

وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا ، فنحن نسودك علينا .

وإن كنت تريد به ملكا ، ملّكناك علينا .

وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا(٢) تراه قد غلب عليك ، بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك .

فقال لهم رسول الله ﷺ : ما بى ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا ، وأنزل

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ١٥٩ (٢) هو التابع من الجن .

علىّ كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم . فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم . قالوا : يا محمد .. فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك ، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدا ولا أقل ماءً ولا أشد عيشا منا ، فسل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به ، فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليفجر لنا فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصى فإنه كان شيخ صدق فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل ؟ فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا به منزلتك من الله ، وإنه بعثك رسولا كما تقول . فقال لهم صلوات الله عليه : ما بهذا بعثت إليكم ، إنما جئتكم من الله بما بعثنى به . وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم . قالوا : فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك .. سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك ، وسله فليجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغى ، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم .

فقال لهم رسول الله ﷺ : ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذى يسأل ربه هذا وما بعثت بهذا ، ولكن الله بعثنى بشيرا ونذيرا .. فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم . قالوا : فأسقط علينا كسفا كما زعمت أن ربك لو شاء فعل ، فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل .

فقال رسول الله ﷺ : ذلك إلى الله إن شاء أن يفعله بكم فعل . قالوا : يا محمد .. أفما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ، ونطلب منك ما نطلب ، فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به ، ويخبرك ما هو صانع فى ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به ؟ إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له « الرحمن » ، وإنا — والله — لا نؤمن بالرحمن أبدا . فقد أعذرنا إليك يا محمد ، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا . وقال قائلهم : نحن نعبد الملائكة وهى بنات الله . وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا .

فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ قام عنهم ، وقام معه عبد الله بن أبى أمية المخزومى ، وهو ابن عمته ، فهو لعاتكة بنت عبد المطلب فقال له : يا محمد .. عرض عليك

قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أمورا ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ، ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل ، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك إلى الله فلم تفعل : ثم سألوك أن تعجل لهم ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل . فوالله لا أومن بك أبدا حتى تتخذ إلى السماء سلما ، ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها ، ثم تأتى معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وأيم الله أن لو فعلت ذلك ما ظننت أنى أصدقك . ثم انصرف عن رسول الله .

وانصرف رسول الله إلى أهله حزينا آسفا مما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه ، ولما رأى من مباعدتهم إياه . ولمّا قام عنهم رسول الله صلوات الله عليه قال أبو جهل : يا معشر قريش ، إن محمدا قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا وشتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وشتم آلهتنا . وإنى أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر ما أطيق حمله ، فإذا سجد فى صلاته فضخت به رأسه ، فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى ، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم ..

قالوا : والله ما نسلمك لشيء أبدا ، فامض لما تريد .

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجرا كما وصف ، ثم جلس لرسول الله ينتظره . وغدا رسول الله كما كان يغدو ، وكان رسول الله بمكة وقبلته إلى الشام ، فكان إذا صلى صلى بين الركن اليمانى والحجر الأسود ، وجعل الكعبة بينه وبين الشام . فقام رسول الله يصلى ، وقد غدت قريش فجلسوا فى أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل . فلما سجد رسول الله احتمل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع منهزما ، منتقعا لونه مرعوبا قد يبست يداه على حجره ، حتى قذف الحجر الذى معه من يده . وقامت إليه رجال قريش يقولون : مالك يا أبا الحكم ؟ قال : قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لى دونه فحل من الإبل ، لا والله ما رأيت مثل هامته ولا أنيابه لفحل قط ، فهم بى أن يأكلنى .

وروى أن رسول الله قال : ذلك جبريل عليه السلام لو دنا لأخذه . فلما قال لهم ذلك أبو جهل ، قام النضر بن الحارث فقال : يا معشر قريش ، إنه — والله — قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد ، قد كان محمد فيكم غلاما حدثا ، أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة — حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به ، قلتم : ساحر . لا والله ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم . وقلتم : كاهن . لا والله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة وسمعنا سجعهم . وقلتم :

شاعر . لا والله ما هو بشاعر ، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها ، هزجه ورجزه . وقلتم : مجنون . لا والله ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون فما هو بوسوسته ولا تخليطه .. يا معشر قريش ، فانظروا فى شأنكم فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم .

وكان النضر من شياطين قريش ، وممن كان يؤذى رسول الله وينصب له العداوة ، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس ، فكان إذا جلس رسول الله مجلسا فذكر فيه بالله وأنذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله ، خلفه فى مجلسه إذا قام وقال : أنا والله — يا معشر قريش — أحسن حديثا منه . فهلم إلىّ فأنا أحدثكم أحسن من حديثه . ثم يحدثهم عن ملوك فارس ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثا منى ؟

فلما قال لهم ذلك النضر بن الحارث بعثوه ، وبعثوا معه عقبة بن أبى معيط إلى أحبار يهود المدينة ، وقالوا لهما : سلاهم عن محمد وصفا لهم صفته وأخبراهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء . فخرجا حتى قدما المدينة فسألا أحبار اليهود عن رسول الله ، ووصفا لهم أمره ، وأخبراهم ببعض قوله وقالا لهم : إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا . فقالت لهما أحبار اليهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبىّ مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقول فروا فيه رأيكم . سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان من أمرهم ، فإنه قد كان لهم حديث عجيب . وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح ما هى . فإن أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبى ، وإن لم يفعل فهو رجل متقول فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم .

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما مكة على قريش فقالا : يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، قد أخبرنا أحبار اليهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها ، فإن أخبركم عنها فهو نبى ، وإن لم يفعل فالرجل متقول فروا فيه رأيكم . فجاءوا رسول الله فقالوا : يا محمد أخبرنا عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول قد كانت لهم قصة عجب ، وعن رجل كان طوافا قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وأخبرنا عن الروح ما هى ؟ فقال لهم رسول الله ﷺ : أخبركم بما سألتم عنه غدا ، ولم يقل إن شاء الله .. فانصرفوا عنه ، فمكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة ، لا يُحدث الله إليه فى ذلك وحيا ولا يأتيه جبريل ، حتى أرجف أهل مكة وقالوا : وعدنا محمد غدا واليوم خمس عشرة ليلة ، قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشىء مما سألناه عنه . وحتى أحزن رسول الله مكث الوحى عنه

وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة . ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف ، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم ، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف . وروى أن رسول الله ﷺ قال لجبريل حين جاءه : لقد احتسبت عنى يا جبريل حتى سؤت ظنا . فقال له جبريل : ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا ﴾[1] .

وفى سورة الكهف : ﴿ أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ۝ إذ أوى الفتية إلى الكهف ﴾ . وفى السورة ﴿ ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكرا ﴾ وقال تعالى فى سورة الإسراء[2] ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ ونزل عليه من سورتى الإسراء والفرقان ما نزل ، ونزل فى النضر بن الحارث ﴿ إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾[3] .

فلما جاءهم رسول الله بما عرفوا من الحق ، وعرفوا صدقه فيما حدث ، وموقع نبوته فيما جاءهم به من علم الغيب حين سألوه عما سألوا عنه .. حال الحسد منهم له بينهم وبين الإيمان برسالته وتصديقه ، ولجوا فيما هم عليه من الكفر . وقال قائل منهم : ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾[4] فإنكم إن ناظرتموه يوما غلبكم . وجعلوا إذا جهر رسول الله بالقرآن وهو يصلى يتفرقون عنه ويأبون أن يستمعوا له خوفا وفرقا . روى أن أبا سفيان وأبا جهل والأخنس بن شريق الزهرى خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله وهو يصلى من الليل فى بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه ، وكل واحد منهم لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فتلاوموا وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا

---

(١) سورة مريم : آية ٦٤
(٢) سورة الإسراء : آية ٨٥
(٣) سورة القلم : آية ١٥
(٤) سورة فصلت : آية ٢٦

طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود . فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأخنس أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان فى بيته فقال له : أخبرنى عن رأيك فيما سمعت من محمد . قال له أبو سفيان : والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها . قال الأخنس : وأنا الذى حلفت به كذلك . ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فقال له : ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف .. أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا كنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ؟ فوالله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه .

دور الجماعات ومعاييرها :

وقد استطاع العلماء أن يكتشفوا دور الجماعة بمعاييرها ومبادئها فى التأثير على الإعلام ، فاتضح للباحثين أن ما كان يبدو أنه رأى شخصى أو فردى ليس فى الحقيقة سوى رأيا اجتماعيا يعبر عن الجماعة التى ينتسب إليها الفرد ، أو يرغب فى الانتساب إليها . فمكانة الشخص فى جماعته ، ومبلغ تمسكه بقيمها ومعاييرها ، يمنعه عادة من تقبل أى تغيير يتعارض معها(١) .

١ — فلما جهر رسول الله ﷺ بالقرآن ، كان أول من جهر به بعد رسول الله بمكة عبد الله بن مسعود ، اجتمع يوما أصحاب رسول الله فقالوا : والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط ، فمن رجل يسمعهم ؟ فقال ابن مسعود : أنا . قالوا : إنا نخشاهم عليك . إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوا به سوءا . قال : دعونى فإن الله سيمنعنى. فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام فى الضحى وقريش فى أنديتها(٢) ، حتى قام عند المقام ثم قرأ سورة الرحمن .

واستقبلها يقرؤها(٣) .

وتأملوه ، فجعلوا يقولون : ماذا قال ابن أم عبد ؟ ثم قالوا : إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد . فقاموا إليه فجعلوا يضربون فى وجهه ، وجعل يقرأ حتى بلغ منها(٤) ما شاء الله

---

(١) د . إبراهيم إمام : المرجع السابق ، ص ١٥٩ (٢) أى مجالسها .
(٣) سورة الرحمٰن : آيتا ١ ، ٢ (٤) أى السورة .

أن يبلغ . ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا فى وجهه ، فقالوا له : هذا الذى خشينا عليك . فقال : ما كان أعداء الله أهون على منهم الآن ، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدا . قالوا : لا ، حسبك ، قد أسمعتهم ما يكرهون .

٢ — ثم إنهم عدوا على من أسلم واتبع رسول الله ﷺ من أصحابه، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم ، فمنهم من يفتتن لشدة البلاء الذى يصيبه ، ومنهم من يعصمه الله منهم .

كان بلال مولى لأبى بكر ، أسلم وكان صادق الإسلام طاهر القلب ، وكان أمية بن خلف الجمحى يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة ، ثم يأمر الصخرة العظيمة فتوضع على صدره ويقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى . فيقول وهو فى ذلك البلاء : أحد ، أحد . فمر به أبو بكر يوما وهم يصنعون ذلك به ، فقال لأمية بن خلف ، ألا تتقى الله فى هذا المسكين ؟ حتى متى ؟ فرد عليه أمية قائلا : أنت الذى أفسدته ، فأنقذه مما ترى . فقال أبو بكر : أفعل ، عندى غلام أسود أجلد منه وأقوى على دينك ، أعطيكه به . قال : قد قبلت . قال : هو لك . فأعطاه أبو بكر غلامه ذلك ، وأخذ بلالا فأعتقه وأعتق معه على الإسلام قبل الهجرة ست رقاب :

١ — عامر بن فهيرة ، شهد بدرا وأحدا . وقيل شهد يوم بئر معونة .

٢ و٣ — أم عبيس ، وزنيرة .

٤ و٥ — النهدية وبنتها .

٦ — جارية بنى مؤمل ، كانت مسلمة ، وكان عمر بن الخطاب يعذبها لتترك الإسلام وهو يومئذ على الشرك ، فاشتراها أبو بكر منه فأعتقها .

٣ — وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر(١) وبأبيه وأمه — وكانوا أهل بيت إسلام — إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة ، فيمر بهم رسول الله فيقول : صبرا آل ياسر ، موعدكم الجنة . فأما أمه فقتلوها وهى تأبى إلا الإسلام .

٤ — وكان أبو جهل يغرى بضعفاء المسلمين ، ومعه فى ذلك رجال من قريش .

كان إذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومنعة، أنّبه وقال له : تركت دين أبيك وهو خير منك لتسفهن حلمك ، ولتضعن شرفك . وإن كان تاجرا قال له : والله لنكسدن

---

(١) قتل فى معركة يوم صفين ، وكانت فى صفر وبعض ربيع الأول عام ٣٧ هـ عن ٩٣ عاما (٢٩١ — ٣٠٦ / ١ سير أعلام النبلاء الذهبى) وكان حليف بنى مخزوم .

تجارتك ولنهلكن مالك . وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة ، وحتى يقولوا له : اللات والعزى إلٰهك من دون الله ؟ فيقول : نعم[1] .

وجاءت مقاطعة قريش لبنى هاشم وبنى المطلب فى العام السابع من البعثة تأكيدا لما يذهب إليه التفسير الإعلامى من تأثير الجماعة فى تكوين الرأى ، وهذا ما يسميه ألفريد لموفى « بالانحرافات البصرية » للرأى .

١ — رأت قريش أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلدا — الحبشة — أصابوا به أمنا وقرارا ، وأن النجاشى منع من لجأ إليه منهم ، وأن عمر قد أسلم فكان هو وحمزة مع رسول الله وأصحابه ، وجعل الإسلام ينتشر فى القبائل .

فاجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا معاهدة يتعاقدون فيها على بنى هاشم وبنى المطلب : ألا يتزوجوا منهم ولا يزوجوا أحدا من بناتهم فيهم ، ولا يبيعوهم شيئا ولا يشتروا منهم.

وتعاهدوا وتواثقوا على ذلك وكتبوه فى صحيفة ، ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم[2] .

---

(١) فى هذه الفترات التاريخية الحاسمة فى جزيرة العرب كان الصراع بين الروم والفرس على حدود الجزيرة العربية شديدا .

التجأ كسرى أبرويز إلى الروم فارا من بهرام الذى استوى على عرش والده هرمز الساسانى ، وتلقاه إمبراطور الروم البيزنطى موريقس بالحفاوة ، وساعد على عودة خسرو إلى العرش الفارسى عام ٥٩٠ . وفى عام ٦٠٢ م قامت ثورة على الإمبراطور الرومى ، وتولى فاكس الحكم فى بيزنطة ، فخاصمه كسرى وأعلن الحرب عليه عام ٦٠٣ م واحتلت جيوش كسرى بلاد الشام وبيت المقدس ومصر ، واستولت على المستعمرات الرومية فى شواطئ إفريقية كما استولت على آسيا الصغرى ، وأقامت فى مواجهة القسطنطينية . فثار هرقل حاكم إفريقية ضد إمبراطوره فاكس وقتله ، وتسلم الملك مكانه عام ٦١٠ م وهو عام البعثة النبوية وبلغت الانتصارات الفارسية ذروتها ، وغلب الروم كليا عام ٦١٦ م قبل الهجرة بست سنوات ، وفقدوا مملكتهم الرومية على أيدى الفرس . وفى السنة السادسة من البعثة كان المشركون فى مكة يتظاهرون بشدة فرحهم لانتصار الفرس على الروم ، وحاول هرقل عن طريق رسله الصلح ، فرد عليهم الملك الفارسى بأن هذا الأمر ليس هو مما يسعى فيه السفراء ، وإنما لا بد من أن يخضع الإمبراطور البيزنطى أمامه ، ولا بد من أن يتخلى عن المسيحية إلى عبادة الشمس . فأخذ هرقل يعد العدة لخوض المعركة مع الفرس ، وهزم الفرس هزيمة منكرة عام ٦٢٤ م فى السنة الثانية للهجرة ، واقتحم الروم بلاد فارس بعد غزوة بدر بقليل .

(٢) يقول ابن القيم فى زاد المعاد (١ : ٤٧) : إن الحصار كان فى شعب أبى طالب ثلاث سنين ، وخرج رسول الله من الحصار وله ٤٩ عاما ، وقيل ٤٨ عاما . وبعد ذلك مات عمه عن سبع وثمانين سنة ، ثم خديجة . وفى الشعب ولد ابن عباس .

وكان كاتب الصحيفة هو منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى[١] ، فدعا عليه رسول الله فشل بعض أصابعه .

٢ — وإثر ذلك انحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبى طالب فدخلوا معه فى شعبه[٢] ، فاجتمعوا إليه ما عدا أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب ، فخرج إلى قريش فظاهر وتحالف معهم .. وهذا الشعب بأواسط مكة ، وكان الحصار فى مطلع السنة السابعة للبعثة .

ولقى أبو لهب هند بنت عتبة بن ربيعة ، وقد فارق قومه وأعان عليهم قريشا ، فقال لها : يا بنت عتبة ، هل نصرت اللات والعزى ، وفارقت من فارقهما وظاهر عليهما ؟

قالت : نعم ، فجزاك الله خيرا .

وكان يقول : يعدنى محمد أشياء لا أراها ، يزعم أنها كانت كائنة بعد الموت . فماذا وضع فى يدى بعد ذلك ؟ وينفخ فى يده ثم يقول : تبا لكما ! ما أرى فيكما شيئا مما يقول محمد . فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب ﴾[٣] . (١ : ١١١) .

٣ — وفى ذلك يقول أبو طالب :

ألا أبلغا عنى على ذات بيننا ... لؤيا ، وخصا من لؤى بنى كعب
ألم تعلموا أنا وجدنا محمدا ... نبيا كموسى ، خُطَّ فى أول الكتب
وأن عليه فى العباد محبة ... ولا خير ممن خصه الله بالحب
وأن الذى ألصقتمُ من كتابكم ... لكم كائن نحسا كراغية السقب[٤]
أفيقوا أفيقوا قبل أن يحفر الثرى ... ويصبح من لم يجن ذنبا كذى الذنب
ولا تتبعوا أمر الوشاة وتقطعوا ... أواصرنا بعد المودة والقرب
فلسنا ورب البيت — نسلم أحمدا ... لعزاء من عض الزمان ولا كرب

وأقام بنو هاشم وبنو المطلب على ذلك سنتين أو ثلاثا لا يصل إليهم شىء إلا سرا ، يستخفى به من أراد صلتهم من قريش .

---

(١) ويقال : هو النضر بن الحارث ، وقال السهيلى : للنساب من قريش فى كاتب الصحيفة قولان : إنه بغيض بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، أو إنه منصور بن عبد شرحبيل بن هاشم من بنى عبد الدار .

(٢) الشعب : كل فرجة بين جبلين . (٣) التباب : الخسار والهلاك .

(٤) الراغية : من الرغاء وهو صوت الإبل . السقب : ولد الناقة .. وأراد به ولد ناقة صالح .

لقى أبو جهل حكيم بن حزام بن خويلد — وهو ابن أخى خديجة زوج الرسول — ومعه غلام يحمل قمحا يريد به عمته خديجة وهى فى الشعب مع رسول الله . فتعلق به وقال له : أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم ؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة . فجاءه أبو البخترى بن هشام بن الحارث فقال : مالك وله ؟ فقال : يحمل الطعام إلى بنى هاشم . فقال له أبو البخترى : طعام كان لعمته عنده بعثت إليه ، افتمنعه أن يأتيها بطعامها ؟ خل سبيل الرجل .. فأبى أبو جهل ، ونال أحدهما من الآخر ، فضربه أبو البخترى فشجه ووطئه وطئا شديدا وحمزة بن عبد المطلب قريب يرى ذلك ، وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله وأصحابه فيشمتوا بهم . ورسول الله على ذلك يدعو قومه ليلا ونهارا ، سرا وجهارا ، داعيا إلى دين الله ، لا يتقى فى ذلك أحدا من الناس .

٤ — ومنع الله رسوله من قريش وحماه من شرهم ، وقام عمه وقومه من بنى هاشم وبنى المطلب دونه ، وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من البطش به .

وجعل القرآن ينزل فى قريش بأحداثهم ، وفيمن نصب لعداوته منهم .

(أ) ومنهم عمه أبو لهب بن عبد المطلب ، وامرأته أم جميل بنت حرب حمالة الحطب . وسماها الله تعالى حمالة الحطب لأنها كانت تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول الله حيث يمر .

وحين سمعت ما نزل فيها وفى زوجها من القرآن الكريم ، أتت رسول الله وهو جالس فى المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر وفى يدها حجر ، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله فلا ترى إلا أبا بكر ، فقالت : يا أبا بكر أين صاحبك ؟ قد بلغنى أنه يهجونى ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه ، أما والله إنى لشاعرة ثم قالت :

مذمَّمــا عصينــا
وأمــره أبينــــا
ودينــه قلينــــا

ثم انصرفت فقال أبو بكر : يا رسول الله أما تراها رأتك ؟ قال : ما رأتنى ، لقد أخذ الله ببصرها عنى .

وكانت قريش قد سمّت رسول الله مذمما ، تسبه بعد ما عاب أحلامها وذم أصنامها . وكان رسول الله يقول :

« ألا تعجبون لما صرف الله عنى من أذى قريش ؟ يسبون ويهجون مذمما وأنا محمد » .

(ب) ومنهم أمية بن خلف الجمحى ، وكان إذا رأى رسول الله همزه ولمزه فأنزل الله تعالى فيه (١ : ١٠٤) :

﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾[١] .

(جـ) العاص بن وائل السهمى ، قال لخباب بن الأرت[٢] وقد جاء يتقاضاه دينا له عليه .

أليس يزعم محمد صاحبكم هذا الذى أنت على دينه ، أن فى الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم .

فقال له خباب : بلى .

قال : فانظرنى إلى يوم القيامة يا خباب حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك هنالك حقك ، فوالله لا تكون أنت وأصحابك — يا خباب — آثر عند الله منى ، ولا أعظم حظا فى ذلك .

فأنزل الله تعالى فيه (٧٧ وما بعدها — سورة ١٩) :

﴿ أفرأيت الذى كفر بآياتنا
وقال لأوتين مالا وولدا *
أطلع الغيب ﴾ ؟

(د) ولقى أبو جهل بن هشام رسول الله فقال له : والله يا محمد لتتركن سب آلهتنا أو لنسبن إلٰهك الذى تعبد . فأنزل الله تعالى عليه فيه (١٠٨ صورة ٦) :

﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله
فيسبوا الله عدوا بغير علم ﴾ .

فكف رسول الله عن سب آلهتهم ، وجعل يدعوهم إلى الله .

(هـ) ومنهم النضر بن الحارث ، كان إذا جلس رسول الله مجلسا فدعا فيه إلى الله ، وتلا فيه القرآن ، وحذر قريشا ما أصاب الأمم الخالية ، خلفه فى مجلسه إذا قام فحدثهم

---

(١) إلى آخر الآيات الكريمة من السورة (١ — ٩) — وهمزة لمزة : أى كثير الهمز — وهو الشم — واللمز وهو الغمز بالعيب ، فهو الذى يعيب الناس سرا ويؤذيهم .

(٢) كان قينا — حدادا — يعمل السيوف بمكة ، وكان قد باع من العاص سيوفا عملها له حتى إذا كان له عليه مال ، جاءه يتقاضاه .

عن رستم واسفنديار (١) وملوك الفرس، ثم يقول : والله ما محمد بأحسن حديثا منى ، وما حديثه إلا أساطير الأولين أكتتبها كما اكتتبها . فأنزل الله تعالى فيه (٥ و ٦ من صورة ٢٥) :

﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها
فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ۝
قل أنزله الذى يعلم السر
فى السموات والأرض
إنه كان غفورا رحيما ﴾ .

(و) وجلس رسول الله يوما مع الوليد بن المغيرة فى المسجد(٢) ، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم فى المجلس وفى المجلس رجال من قريش ، فتكلم رسول الله فعرض له النضر ، فكلمه رسول الله حتى أفحمه ثم تلا عليه وعليهم (٩٨ : ٢١) .

﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ ثم قام رسول الله ، وأقبل ابن عبد الله بن الزبعرى السهمى حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة له : والله ما قام النضر لابن عبد المطلب آنفا وما قعد ، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم . فقال ابن الزبعرى : أما والله لو وجدته لخصمته ، فسلوا محمدا أكل ما يعبد من دون الله فى جهنم مع من عبده ؟ فنحن نعبد الملائكة ، واليهود عزيرا والنصارى عيسى . فعجب الوليد ومن معه فى المجلس من قوله ، ورأوا أنه قد احتج وخاصم . فذكر ذلك لرسول الله فقال رسول الله :

---

(١) راجع أخبار أردشير بهمن بن اسفنديار بن بستاسب (١ : ٤٠٤ طبرى — طبعة التجارية) وفى عهده كان تبع تبان أبو كرب أسعد .

ومن ملوك الفرس سابور الأول (٢٤١ — ٢٧٢ م) ، وفى عهده ظهر مانى — وسابور الثانى (٣٠٩ — ٣٧٩ م) .

ومن ملوكهم كسرى الثانى (أبرويز) الساسانى الذى تولى الملك عام ٥٩٠ م وتوفى سنة ٦٢٨ م .

(٢) كان الوليد بن المغيرة قد عملت له قريش تاجا ليتوجوه به ، وكانوا يسمونه « ريحانة قريش » ، فجاء الإسلام فانتقض أمره . وهو أول من خلع نعليه لدخول الكعبة (٣٨ الأوائل لأبى هلال) . وقيل : هو أول من حرم الخمر فى الجاهلية (المرجع نفسه — ص ٣٨) ، وأول من قطع فى السرقة كذلك (ص ٤٢ — المرجع) . وكان أول من بوب بمكة بابا حاطب بن بلتعة ، وأول من سقف بها بيتا بديل بن ورقاء الخزاعى (ص ٤٥ المرجع) .

وهو والد خالد بن الوليد ، ومات بعد الهجرة بعام وكان يقول : أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها ، ويترك ابن مسعود الثقفى سيد ثقيف ونحن عظيما القريتين ؟

(كل من أحب أن يعبد من دون الله
فهو مع من عبده) .
وأنزل الله تعالى (٢٩ : ٢١) :
﴿ ومن يقل منهم إنى إلـه من دونه
فذلك نجزيه جهنم
كذلك نجزى الظالمين ﴾ .
ونزل أيضا (٥٧ : ٤٣) :
﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلا
إذا قومك منه يصدون ﴾ .

(ز) وكان الأخنس بن شريق الثقفى يصيب من رسول الله ويرد عليه ، وكان من أشراف القوم وممن يستمع منه ، فأنزل الله تعالى فيه (١٠ : ٦٨) :
﴿ ولا تطع كل حلاف مهين ﴾ .

(ح) كان الوليد بن المغيرة يقول : « أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها ، ويترك أبو مسعود عمر الثقفى سيد ثقيف ، فنحن عظيما القريتين » فأنزل الله تعالى فيه (٣١ : ٤٣) ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ .

(ط) ومنهم أبىّ بن خلف الجمحى وعقبة بن أبى معيط ، وكانا صديقين فكان عقبة قد جلس إلى رسول الله وسمع منه فبلغ ذلك أبيا ، وأتى عقبة فقال له : ألم يبلغنى أنك جالست محمدا وسمعت منه ؟ وجهى من وجهك حرام أن أكلمك إن أنت جلست إليه وسمعت منه . أو لم تأتيه فتتفل فى وجهه ؟ ففعل ذلك عدو الله عقبة فأنزل الله تعالى فيهما (٢٧ : ٣٢) :
﴿ ويوم يعض الظالم على يديه
يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ﴾ .

وذهب أبى إلى رسول وفى يده عظم بال ، فقال : يا محمد ، أنت تزعم أن الله يبعث هذا ؟ ثم فته بيده ثم نفخه فى الريح نحو رسول الله ، فقال له رسول الله :
(نعم أنا أقول ذلك ،
يبعثه الله وإياك
بعد ما تكونان هكذا
ثم يدخلك الله النار) .

فأنزل الله تعالى فيه (٧٨ : ٣٦) :
﴿ وضرب لنا مثلا ونسى خلقه
قال من يحيى العظام وهى رميم ؟
قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ﴾ .

(ى) واعترض الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى والوليد بن المغيرة وأمية ابن خلف والعاص بن وائل السهمى ، رسول الله وهو يطوف بالكعبة ، وكانوا ذوى أسنان فى قومهم فقالوا : يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد فنشترك نحن وأنت فى الأمر ، فإن كان الذى تعبد خيرا مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان ما نعبد خيرا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه ، فأنزل الله تعالى فيهم (١ و ٢)
﴿ قل يا أيها الكافرون *
لا أعبد ما تعبدون ﴾ السورة كلها .

(ك) ولما ذكر الله شجرة الزقوم تخويفا لهم ، قاله أبو جهل :
« يا معشر قريش ، هل تدرون ما شجرة الزقوم
التى يخوفكم بها محمد ؟
قالوا : لا .
قال : عجوة يثرب بالزبد .
فأنزل الله تعالى (٤٣ وما بعدها : ٤٤) :
﴿ إن شجرة الزقوم
طعام الأثيم ﴾ .

(ل) ووقف الوليد بن المغيرة مع رسول الله ، والرسول يكلمه وقد طمع فى إسلامه ، بينا هو فى ذلك ، مر به ابن أم مكتوم[١] الأعمى فكلم رسول الله وجعل يستقرئه القرآن فشق ذلك منه على رسول الله حتى أضجره ، وذلك أنه شغله عما كان فيه من أمر الوليد وما طمع فيه من إسلامه ، فلما أكثر عليه انصرف عنه عابسا وتركه ، فأنزل الله تعالى فيه (١ وما بعدها : ٨٠) : ﴿ عبس وتولى * أن جاه الأعمى ﴾ .

(م) وفى هذه الأثناء بلغ المسلمين فى الحبشة إسلام أهل مكة ، فتركوا الحبشة وعادوا إلى وطنهم لما بلغهم من ذلك ، حتى إذا دنوا من مكة وعرفوا الأمر على وجهه ،

(١) هو أحد بنى عامر بن لؤى ، واسمه عبد الله .

وأن ما بلغهم من إسلام أهل مكة كان باطلا ، عاد الكثير منهم إلى الحبشة .. وهذه هي الهجرة الثانية ، ولم يدخل أحد منهم مكة إلا مستخفيا أو بجوار ، فكان ممن قدم على الرسول مكة منهم :

١ — عثمان بن عفان وامرأته رقية بنت رسول الله .
٢ — أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وامرأته سهلة بنت سهيل .
٣ — عبد الله بن جحش .
٤ — عتبة بن غزوان .
٥ — الزبير بن العوام .
٦ — مصعب بن عمير بن هاشم .
٧ — طليب بن عمير بن وهب .
٨ — عبد الرحمن بن عوف .
٩ — المقداد بن عمرو .
١٠ — عبد الله بن مسعود .
١١ — أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى ، وامرأته أم سلمة .
١٢ — شماس بن عثمان .
١٣ — سلمة بن هشام ، حبسه عمه بمكة فلم يهاجر إلا بعد الخندق .
١٤ — عياش بن أبى ربيعة بن المغيرة ، لم يهاجر إلا بعد الخندق .
١٥ — عمار بن ياسر ، وفى هجرته إلى الحبشة شك .
١٦ — معتب بن عوف .
١٧ — عثمان بن مظعون ، وابنه السائب ، وأخواه قدامة وعبد الله .
١٨ — خنيس بن حذافة .
١٩ — هشام بن العاص ، هاجر بعد الخندق .
٢٠ — عامر بن ربيعة ، وامرأته ليلى بنت أبى خثمة بن غانم .
٢١ — عبد الله بن مخرمة .
٢٢ — عبد الله بن سهيل .
٢٣ — أبو سبرة بن أبى رهم بن عبد العزى ، وامرأته أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو .
٢٤ — السكران بن عمرو بن عبد شمس ، وامرأته سودة بنت زمعة بن قيس ، ومات بمكة قبل رسول الله ، فتزوج رسول الله سودة .

٢٥ ــ سعد بن خولة .
٢٦ ــ أبو عبيدة بن الجراح .
٢٧ ــ عمرو بن الحارث .
٢٨ ــ سهيل بن بيضاء .

وجميع من قدم على رسول الله مكة من أصحابه ثلاثة وثلاثون .
والذين دخلوا منهم مكة بجوار :
١ ــ عثمان بن مظعون[١] دخل بجوار الوليد بن المغيرة .
٢ ــ أبو سلمة دخل بجوار خاله أبى طالب[٢] .

فأما عثمان بن مظعون فأقام بمكة بعد عودته ، وشاهد ما فيه أصحاب رسول الله من البلاء وهو يغدو ويروح فى أمان الوليد ، فقال : إن غدوى ورواحى آمنا بجوار مشرك ، وأهل دينى وأصحابى يلقون من البلاء والأذى فى الله ما لا يصيبنى لنقص كبير فى نفس . ومشى إلى الوليد فقال له : يا أبا عبد شمس وفت ذمتك ، قد رددت إليك جوارك . فقال له : لم يا ابن أخى ؟ لعلك آذاك أحد من قومى ؟ قال : لا ، ولكنى أرضى بجوار الله ولا أريد أن أستجير بغيره . قال : فانطلق إلى المسجد فاردد على جوارى علانية كما أجرتك علانية . فانطلقا حتى أتيا المسجد فقال الوليد : هذا عثمان قد جاء يرد على جوارى . قال عثمان : صدق ، قد وجدته وفيا كريم الجوار ، ولكننى قد أحببت ألا أستجير بغير الله فقد رددت عليه جواره . ثم انصرف عثمان ، فمر عثمان بلبيد بن ربيعة فى مجلس من قريش ينشدهم فجلس معهم عثمان فبدأ لبيد فأنشد :

ألا كل شىء ما خلا الله باطل

فقال عثمان : صدقت . ثم قال لبيد :

وكل نعيم لا محالة زائل

فقال عثمان : كذبت ، نعيم الجنة لا يزول . فقال لبيد : يا معشر قريش والله ما كان يؤذى جليسكم ، فمتى حدث هذا فيكم ؟ فقال رجل من المجلس : هذا سفيه فى سفهاء معه قد فارقوا ديننا ، فلا يجدن فى نفسك من قوله .

فرد عليه عثمان ، وتفاقم الأمر فقام ذلك الرجل فلطم عينى عثمان والوليد فى المجلس

---

(١) توفى بعد بدر فى شعبان من السنة الثالثة ، وكان قد حرم الخمر على نفسه فى الجاهلية ، وهو أول من دفن ببقيع الغرقد (١١٦/١ سير أعلام النبلاء الذهبى) .
(٢) أم أبى سلمة هى برة بنت عبد المطلب .

يرى ويسمع ، فقال أما والله يا ابن أخي أن كانت عينك عما أصابها لغنية ، لقد كنت في ذمة منيعة . فقال عثمان : بل — والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله ، وإني والله لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس . فقال له الوليد : فعد يا ابن أخي — إن شئت — إلى جوارك ... فقال عثمان : لا .

وأما أبو سلمة فقد دخل مكة بجوار أبي طالب ، ومشى رجال من بني مخزوم إلى أبي طالب فقالوا : يا أبا طالب ما هذا ؟ منعت منا ابن أخيك محمدا ، فمالك ولصاحبنا تمنعه منا ؟ قال : إنه استجار بي وهو ابن أختي ، وإن أنا لم أمنع ابن أختي لم أمنع ابن أخي . فقام أبو لهب فقال : يا معشر قريش ، والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ ، ما تزالون تتواثبون عليه في جواره من بين قومه . والله لتنتهن عنه أو لنقومن معه في كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد . فقالوا : بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة .

وطمع أبو طالب في أبي لهب حين سمعه يقول ما يقول ، ولكن لم يرد الله له الهداية .

ومن عدا هؤلاء عادوا إلى الحبشة ثانية ، وهذه هي الهجرة الثانية إلى بلاد النجاشي .

٦ — وضاقت على أبي بكر الصديق مكة وأصابه فيها الأذى ، ورأى من تظاهر قريش على رسول الله وأصحابه ما رأى ، فاستأذن رسول الله في الهجرة فأذن له ، فخرج أبو بكر مهاجرا حتى إذا سار خارجا من مكة يوما أو يومين لقيه ابن الدغنة سيد الأحابيش(١) ، فقال لأبي بكر :

إلى أين يا أبا بكر ؟

فرد عليه أبو بكر : أخرجني قومي وآذوني وضيقوا علي .

قال : ولم ؟ فوالله إنك لتزين العشيرة وتعين على النوائب ، وتفعل المعروف وتكسب المعدوم ، ارجع وأنت في جواري .

فرجع معه أبو بكر ، حتى إذا دخل مكة قال ابن الدغنة : يا معشر قريش ، إني قد أجرت ابن أبي قحافة فلا يعرضن له أحد إلا بخير ، فكفوا عنه . وكان لأبي بكر مسجد عند باب داره في بني جمح فكان يصلي فيه ، وكان إذا قرأ القرآن استبكى فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيئته .

فمشى رجال من قريش إلى ابن الدغنة فقالوا له : إنك لم تجر هذا الرجل ليؤذينا . إنه

---

(١) هم أحياء من القارة انضموا إلى بني ليث ، والتحبش : التجمع . وقيل حالفوا قريشا تحت جبل بأسفل مكة يسمى حُبيشا فسموا بذلك . وابن الدغنة : اسمه ربيعة بن رفيع .

رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق ويبكى ، وهيئة ونحو ، فنحن نتخوف على صبياننا ونسائنا أن يفتنهم ، فمره أن يدخل بيته فليصنع فيه ما شاء .

فمشى إلى أبى بكر فقال له : يا أبا بكر ، إنى لم أجرك لتؤذى قومك . إنهم قد كرهوا مكانك الذى أنت به وتأذوا بذلك منك ، فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت . قال أبو بكر : أو أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله ؟ قال : فاردد على جوارى . قال : قد رددته عليك . فقال : يا معشر قريش ، إن ابن أبى قحافة قد رد على جوارى فشأنكم بصاحبكم .

ومر بأبى بكر سفيه من سفهاء قريش وهو قاصد إلى الكعبة ، فحثا على رأسه ترابا . فمر الوليد بن المغيرة فقال أبو بكر : ألا ترى ما يصنع هذا السفيه ؟ قال : أنت فعلت ذلك بنفسك . فأخذ أبو بكر يقول : أى رب ما أحلمك . أى رب ما أحلمك .

(ن) ومضى نحو ثلاث سنوات على الصحيفة ، وبنو هاشم وبنو المطلب حيث هم .

وآذى ذلك نفرا من قريش من مثل : هشام بن عمرو الذى كان ابن أخى نضلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه ، وكان هشام لبنى هاشم واصلا ، وكان ذا شرف فى قومه ، فكان فى الحصار يأتى بالبعير ليلا قد أوقره طعاما ، وبنو هاشم وبنو عبد المطلب فى الشعب ، فيضربه فيدخل عليهم الشعب .

ومشى هشام إلى زهير بن أبى أمية المخزومى ، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب ، فقال له : يا زهير ، أقد رضيت أن تأكل وتلبس الثياب وأخوالك حيث قد علمت لا يباعون ولا يبتاع منهم ، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم ؟ قال : ويحك يا هشام فماذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد . والله أن لو كان معى رجل آخر لقمت فى نقض الصحيفة حتى أنقضها . قال : قد وجدت رجلا . قال : من هو ؟ قال : أنا . قال زهير : ابغنا رجلا ثالثا .

فذهب هشام إلى المطعم بن عدى فقال له : يا مطعم ، أقد رضيت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف ، وأنت شاهد على ذلك ، ووافق للقريش فيه ؟ قال : ويحك ، فماذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد . قال : قد وجدت ثانيا . قال : من هو ؟ قال : ابغنا ثالثا . قال : قد فعلت : قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبى أمية . قال : ابغنا رابعا .

فذهب هشام إلى أبى البخترى بن هشام فقال له ما قال ، قال : وهل من أحد يعين على هذا ؟ قال : نعم . قال : ومن هو ؟ قال : زهير والمطعم وأنا معك . قال : ابغنا خامسا .

فذهب هشام إلى زمعة بن الأسد فكلمه ، وذكر له قرابة بنى هاشم وبنى المطلب وحقهم . قال : وهل على هذا الأمر الذى تدعونى إليه من أحد ؟ قال : نعم . وسمى له القوم . فتواعدوا بأعلى مكة ليلا فاجتمعوا هناك ، وأجمعوا أمرهم وتعاهدوا على القيام فى الصحيفة حتى ينقضوها . وقال زهير : أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم .

فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم ، وغدا زهير عليه حلة فطاف بالبيت سبعا ثم أقبل على الناس فقال : يا أهل مكة ، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يباعون ولا يبتاع منهم ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .

فرد عليه أبو جهل : كذبت ، والله لا تشق . قال زمعة : أنت والله أكذب ما رضينا بها حيث كتبت . وقال أبو البخترى : صدق زمعة ، لا نرضى ما كتب والله فيها ولا نقرّ به . وقال هشام نحوا من ذلك . قال أبو جهل : هذا أمر قضى بليل . وأبو طالب جالس فى ناحية المسجد ، فقام المطعم ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا « باسمك اللهم » .

وقبل ذلك قال رسول الله لعمه أبى طالب : يا عم ، إن الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش فلم تدع فيها اسما هو لله إلا اثبتته فيها ، ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان . قال : ربك أخبرك بهذا ؟ قال : نعم . فخرج أبو طالب إلى قريش فقال : يا معشر قريش ، إن محمدا أخبرنى بكذا وكذا ، فإن كانت كما قال فانتهوا عن قطيعتنا ، وإن كنت كاذبا دفعت إليكم ابن أخى . فقال القوم : رضينا . ثم نظروا فإذا هى كما قال رسول الله فزادهم ذلك شرا ، فعند ذلك صنع هؤلاء الرهط من قريش فى نقض الصحيفة ما صنعوا ، فقال أبو طالب فى نقض الصحيفة :

جزى الله رهطا بالحجون تتابعوا	على ملأ يهدى لحزم ويرشد
قضوا ما قضوا فى ليلهم ثم أصبحوا	على مهل إذ سائر الناس رقد
هم رجعوا سهل بن بيضاء راضيا	وسر أبو بكر بها ومحمد

ويذهب التفسير الإعلامى لنقض الصحيفة إلى أن وظيفة الإعلام ليست فقط دعم الحالة الراهنة ، بل إنها تكون أيضا إحداث التغيير ، وإذا كانت فرص الدعم أكثر من فرص التغيير ، فإن فى ذلك تفسيرا لما تعرض له الرسول من أذى .

ما بعد نقض الصحيفة :

١ ــ العام هو الخمسون من مولد محمد ﷺ ، ولقد ظل رسول الله يبذل لقومه النصيحة ويدعوهم إلى النجاة ، وأخذت قريش تحذر منه الناس ومن قدم عليهم من العرب .

قدم الطفيل بن عمرو الدوسي مكة ، وكان رجلا شريفا لبيبا شاعرا ، له منزلته فى قومه ، فمشى إليه رجال من قريش فقالوا له : إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل ، محمد ، قد فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبين الرجل وزوجته ، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمه ولا تسمعن منه شيئا .

فأجمع الطفيل أن لا يسمع من رسول الله شيئا ولا يكلمه ، حتى حشا فى أذنيه ــ حين غدا إلى المسجد ــ قطنا ، حتى لا يعلم بشىء مما يقول رسول الله ، ولا يسمع منه شيئا .

ودخل الطفيل المسجد فإذا رسول الله قائم يصلى عند الكعبة ، فقام قريبا من رسول الله قال الطفيل : فسمعت كلاما حسنا فقلت فى نفسى : واثكل أمى ! والله إنى لرجل لبيب شاعر ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ؟ فإن كان الذى يأتى به حسنا قبلته ، وإن كان قبيحا تركته .

قال الطفيل : فمكثت حتى انصرف رسول الله إلى بيته فاتبعته ، حتى إذا دخل دخلت عليه فقلت : يا محمد ، إن قومك قد قالوا لى ما قالوا ، فوالله ما برحوا يخوفوننى أمرك حتى سددت أذنى بقطن لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله إلا أن يسمعنى قولك فسمعته قولا حسنا ، فأعرض على أمرك . فعرض عليه رسول الله الإسلام ، وتلا عليه القرآن .

قال الطفيل : فلا والله ما سمعت قولا قط أحسن ولا أجمل منه ، ولا أمرا أعدل منه ، والله إن هذا للمعجز . فأسلمت وشهدت شهادة الحق وقلت : يا نبى الله إننى امرؤ مطاع فى قومى ، وأنا راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام . فرجعت حتى جئتهم فأصبحت فيهم ، فلما نزلت أتى فى أبى وكان شيخا كبيرا فقلت : إليك عنى يا أبت ، فلست منك ولست منى . قال : لم يا بنى ؟ قلت : أسلمت وتابعت دين محمد . قال : أى بنى ، فدينى دينك . فعرضت عليه الإسلام فأسلم ثم أتتنى زوجتى فعرضت عليها الإسلام فأسلمت ، ثم دعوت دوسا إلى الإسلام فأبطأوا على ، ثم جئت إلى رسول الله بمكة فقلت : يا نبى الله : ادع الله على دوس . فقال : اللهم اهد دوسا ، ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم .

فلم أزل أدعوهم إلى الإسلام حتى هاجر رسول الله إلى المدينة ، ومضى بدر وأحد والخندق ، ثم قدمت على رسول الله بمن أسلم معى من قومى ورسول الله بخيبر ، حتى نزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتا من دوس ، ثم لحقنا برسول الله ﷺ بخيبر فأسهم لنا مع المسلمين[1] .

٢ — وفى هذا العام العاشر من البعثة المحمدية خرج الأعشى الشاعر إلى رسول الله يريد الإسلام ، ومدح الرسول بقصيدته التى يقول فيها :

فآليت لا أرثى لها من كلالة ... ولا من حفى حتى تلاقى محمدا
متى ما تناخى عند باب ابن هاشم ... تراحى وتلقى من فواضله ندى
نبى يرى ما لا ترون وذكره ... أغار لعمرى فى البلاد وأنجدا
له صدقات ما تغب ونائل ... وليس عطاء اليوم يمنعه غدا

فلما وصل الأعشى مكة أو قريبا منها ، اعترضه بعض المشركين من قريش وقال له : يا أبا بصير إن محمدا يحرم الخمر . قال الأعشى : أما هذه فوالله إن فى النفس منها لعلالات . وانصرف عائدا إلى قومه فمات فى عامه هذا ولم يعد إلى رسول الله .

٣ — وكان أبو جهل مع عداوته لرسول الله يذله الله له إذا رآه .

روى أن أبا جهل مطل عربيا حقا له ، فأتى العربى حتى وقف على ناد من قريش ، ورسول الله فى ناحية المسجد جالس . فقال لعربى : يا معشر قريش ، إنى رجل غريب ابن سبيل ، وقد غلبنى أبو الحكم على حقى . فقالوا له : أترى ذلك الرجل الجالس ؟ وأشاروا لرسول الله ، يهزأون به لما يعلمون ما بينه وبين أبى جهل من العداوة — اذهب إليه فإنه يأخذ لك بحقك . فأقبل العربى حتى وقف على رسول الله فقال : يا عبد الله ، إن أبا الحكم قد غلبنى على حق لى قبله ، وأنا غريب ابن سبيل . وقد سألت هؤلاء القوم فأشاروا لى إليك ، فخذ لى حقى منه يرحمك الله .

فقام معه رسول الله ، وخرج حتى جاءه فضرب عليه بابه ، فقال : من هذا ؟ قال : محمد ، فاخرج إلىّ .. فخرج منتقع اللون . فقال له ﷺ : أعط هذا الرجل حقه . قال : نعم لا تبرح حتى أعطيه الذى له فدخل ثم خرج إليه بحقه فدفعه إليه . فأقبل العربى حتى وقف على ذلك المجلس فقال : جزاه الله خيرا ، فقد — والله — أخذ لى حقى . ثم لم يلبث أبو جهل أن جاء فقالوا : ويلك مالك ؟ والله ما رأينا مثل ما صنعت

---

(١) وقتل الطفيل عام ١٢ هـ فى يوم اليمامة (١ : ٢٤٨ — ٢٥٠ سير أعلام النبلاء) .

قط . قال : ويحكم ! والله ما هو إلا أن ضرب على بابى وسمعت صوته فملئت منه رعبا ، ثم خرجت إليه وإن فوق رأسه لفحلا من الإبل ، والله لو أبيت لأكلنى .

٤ — وكان ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف أشد قريش ، فخلا يوما برسول الله فى بعض شعاب مكة فقال له رسول الله : يا ركانة ، ألا تتقى الله وتقبل ما أدعوك إليه ؟ .. قال : إنى لو أعلم أن الذى تقول حق لاتبعتك . فقال رسول الله : أفرأيت إن صرعتك أتعلم أن ما أقول حق ؟ قال : فقم حتى أصارعك . فصارعه رسول الله فصرعه حتى لا يملك ركانة من نفسه شيئا ، ثم قال : عد يا محمد . فعاد فصرعه ، فقال : يا محمد ، والله إن هذا للعجب ، أتصرعنى ؟ قال رسول الله : فاعجب من ذلك إن شئت ، إن اتقيت الله واتبعت امرى . قال : ما هو ؟ قال : أدعو لك هذه الشجرة التى ترى فتأتينى . قال : ادعها . فأقبلت حتى وقفت بين يدى رسول الله . فقال لها : ارجعى إلى مكانك . فرجعت إلى مكانها[1] .

٥ — ثم قدم على رسول الله وهو بمكة عشرون رجلا من النصارى فى المسجد ، فجلسوا إليه وكلموه وسألوه ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة ، فلما فرغوا من سؤال رسول الله عما أرادوا دعاهم إلى الله وتلا عليهم القرآن . فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما عرفوا . فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل فى نفر من قريش فقالوا لهم : خيبكم الله من ركب ! ما نعلم ركبا أحمق منكم ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال .

قالوا لهم : سلام عليكم لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيرا .

٦ — وكان رسول الله إذا جلس فى المسجد وجلس إليه المستضعفون من أصحابه .. خباب ، وعمار ، وصهيب ، وأشباههم من المسلمين هزأت بهم قريش . قال بعضهم لبعض : هؤلاء أصحابه كما ترون ، أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا بالهدى والحق ، لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقنا هؤلاء إليه وما خصهم الله به دوننا . فأنزل الله تعالى فيهم (٥٢ : سورة ٦) : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة

---

(١) يقول القاضى عياض : صرع رسول الله ركانة وكان أشد أهل وقته وكان دعاه إلى الإسلام ، وصارع أبا ركانة فى الجاهلية وكان شديدا وعاوده ثلاث مرات كل ذلك يصرعه رسول الله (٤٤ الشفا للقاضى عياض) .

والعشى ﴾(١) الآيات .

٧ — وكان العاص بن وائل السهمى ، إذا ذكر رسول الله قال : دعوه فإنما هو رجل أبتر لا عقب له ، لو قد مات لقد انقطع ذكره واسترحتم منه . فأنزل الله تعالى فى ذلك (١ — ٣ من سورة ١٠٨) :

﴿ إنا أعطيناك الكوثر ... ﴾ .

٨ — وظل رسول الله يدعو قومه إلى الإسلام ، فقال له زمعة بن الأسود ، والنضر ابن الحارث ، والأسود بن عبد يغوث ، وأُبىّ بن خلف ، والعاص بن وائل : لو جعل منك يا محمد ملك يحدث عنك الناس ويُرى معك .. فأنزل الله تعالى فى ذلك (٨ سورة ٦) :

﴿ وقالوا لولا أنزل عليك ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ... ﴾ .

مواصلة الجهاد فى سبيل الله والرسالة :

المستهزئون :

أقام رسول الله ﷺ على أمر الله تعالى ، صابرا محتسبا مؤديا إلى قومه النصيحة ، على ما يلقى منهم من التكذيب والاستهزاء .

وكان عظماء المشركين خمسة نفر من قومه ، وكانوا ذوى أسنان وشرف فى قومهم :

١ — أبو زمعة الأسود بن المطلب بن أسد بنى بن عبد العزى بن قصى ، وكان رسول الله قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه به فقال : اللهم أعم بصره ، واثكله ولده .

٢ — الأسود بن عبد يغوث من بنى زهرة .

٣ — الوليد ين المغيرة المخزومى .

٤ — العاص بن وائل هشام السهمى .

٥ — الحارث بن الطلاطلة الخزاعى .. فلما تمادوا فى الشر وأكثروا برسول الله الاستهزاء ، أنزل الله تعالى عليه : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ٥ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ .

---

(١) عن سعد بن أبى وقاص قال : نزلت فى ستة ، أنا وابن مسعود منهم (١ : ٧٣ سير أعلام النبلاء — الذهبى) .

وعن عروة بن الزبير أن جبريل أتى رسول الله إذ هم يطوفون بالبيت ، فقام وقام رسول الله إلى جنبه ، فمر به الأسود بن المطلب فرمى فى وجهه بورقة خضراء فعمى ، ومر به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات منه ، ومر به الوليد فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله كان قد أصابه قبل ذلك بسنين فانتقض[1] به فقتله ومر العاص فأشار إلى أخمص رجله فدخلت فيها شوكة فقتلته ومر به الحارث فأشار إلى رأسه فامتخض قيحا فقتله .

ولما حضرت الوليد بن المغيرة الوفاة دعا بنيه وكانوا ثلاثة : هشام ، والوليد وخالد ابن الوليد ، فقال لهم :

ــ أى بَنى ، أوصيكم بثلاث فلا تضيعوا فيهن :

١ ــ دمى فى خزاعة فلا تطلنه[2] ، والله إنى لأعلم أنهم منه برآء ولكنى أخشى أن تسبوا بعد اليوم .

٢ ــ رباى فى ثقيف فلا تدعوه حتى تأخذوه .

٣ ــ وعقرى[3] عند أبى أزيهر الدوسى فلا يفوتنكم .

فطالب بنوه بدمه فأعطتهم خزاعة بعض الدية وانصرفوا عن بعض ، وقتل هشام ابن الوليد أبا أزيهر الدوسى وذلك بعد بدر ، فطالب يزيد ابن أبى سفيان بثأر صهر أبيه فمنعه أبوه واكتفى بأخذ الدية ولما أسلم أهل الطائف كلم خالد بن الوليد رسول الله فى ربا الوليد الذى كان فى ثقيف ، فنزل قوله تعالى (٢٧٨ سورة ٢) : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ﴾ .

---

(١) أى عاوده بعد ما برئ منه .

(٢) أى لا تضيعوه ولا تهدروه ــ وذلك أنه مر برجل من خزاعة قبل ذلك بسنين وهو يجر رداءه ، وكان الخزاعى يريش نبلا له ، فتعلق سهم من نبلة بإزاره فخدش رجله ذلك الخدش ، ولم يكن بشىء فبرئ منه ، ثم عاوده فقتله .

(٣) هو دية الزواج الذى تم ولم ينفذ ، ويقال له دية الفرج ، وكان الدوسى قد زوجه بنتا له ثم أمسكها عنه فلم يدخلها عليه حتى مات ، وتزوجها أبو سفيان وكان الدوسى رجلا شريفا فى قومه .

النفر الذين كانوا يؤذون رسول الله فى بيته :

كان عدة رجال من قريش يؤذون رسول الله فى بيته ، وهم : أبو لهب ، والحكم بن العاص ، وعقبة بن معيط ، وعدى بن حمراء الثقفى ، وابن الأصداء الهذلى ، وكانوا جيران رسول الله .

ولم يسلم منهم أحد إلا الحكم بن العاص(١) .

وكان أحد هؤلاء يطرح رحم الشاة على رسول الله وهو يصلى ، وأحدهم يطرحها فى برمة(٢) ، حتى اتخذ رسول الله حجرا يستتر به منهم إذا صلى ، فكان إذا صلى طرحوا عليه الأذى خرج به رسول الله فيقف به على بابه ثم يقول : يا بنى عبد مناف أى جوار هذا ؟ ثم يلقيه فى الطريق .

وفاة أبى طالب وخديجة :

وفى العام الخمسين هذا ماتت خديجة زوج الرسول ، وكانت له وزير صدق على الإسلام .. يشكو إليها ، ومات أبو طالب عم الرسول فتتابعت على رسول الله المصائب . وكان أبو طالب له عضدا وحرزا فى أمره ومنعة ، وناصرا له على قومه ، فلما مات نالت قريش من الرسول ما لم تكن تطمع به فى حياة أبى طالب من الأذى ، حتى أعرضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه ترابا .

وكان موتها قبل الهجرة إلى المدينة بثلاث سنين ، وماتت خديجة بعد عمه أبى طالب بثلاثة أيام(٣) .

ولما نثر ذلك السفيه التراب على رأس الرسول ، دخل ﷺ بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهى تبكى ، ورسول الله يقول لها : (لا تبكى يا بنية فإن الله مانع أباك) .

وكان يقول ﷺ : (ما نالت منى قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب) .

وقبل وفاة أبى طالب بقليل مشى رجال من قريش إلى أبى طالب فكلموه وهم أشراف قومه : عتبة بن ربيعة ، شيبة بن ربيعة ، أبو جهل ابن هشام ، أمية بن خلف ، أبو سفيان ، فى رجال من أشرافهم ، فقالوا : يا أبا طالب ، إنك منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ما ترى ، وتخوفنا عليك ، وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك ،

---

(١) ذكره ابن هشام مرة : ابن العاص ، ومرة ابن أبى العاص .

(٢) البرمة مثل العمرة : القدر .　　(٣) ١ : ٢٢٠ العقد الثمين للفاسى .

فادعه ، فخذ له منا ، وخذ لنا منه ، ليكف عنا، ونكف عنه ، وليدعنا وديننا وندعه ودينه .

فبعث أبو طالب إلى رسول الله ، فجاءه ، فقال : يا ابن أخى ، هؤلاء أشراف قومك ، قد اجتمعوا لك ، ليعطوك ، وليأخذوا منك ، فقال رسول الله :

يا عم ، كلمة واحدة ، يعطونيها ، تملكون بها العرب ، وتدين لكم بها العجم

فقال أبو جهل : نعم وأبيك وعشر كلمات .

فقال رسول الله : تقولون : لا إلـٰه إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه .

فصفقوا بأيديهم ، ثم قالوا : أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلـٰها واحدا ؟ إن أمرك لعجب .

وقال بعضهم لبعض : إنه — والله — ما هذا الرجل بمعطيكم شيئا مما تريدون فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم ، حتى يحكم الله بينكم وبينه .

ثم تفرقوا .

فقال أبو طالب لرسول الله : والله يا ابن أخى ما رأيتك سألتهم شططا[1]

فطمع رسول الله فى إسلامه ، فجعل يقول له ، أى عم ، فأنت فقلها استحل لك بها الشفاعة يوم القيامة .

فرد أبو طالب يا ابن أخى ، والله لولا مخافة السبة عليك وعلى بنى أبيك من بعدى وإن تظن قريش أنى إنما قلتها جزعا من الموت لقلتها ، لا أقولها إلا لأسرك بها .

ونزل فى ذلك قوله تعالى (١ — ٧ من سورة ص ٣٨) :

﴿ ص . والقرآن ذى الذكر .

بل الذين كفروا فى عزة وشقاق ﴾ — إلى آخر الآيات .

ومات أبو طالب .

ونالت قريش من رسول الله ما لم تكن تنال منه فى حياة عمه أبى طالب من الأذى[2]

---

(١) أى شيئا مبالغا فيه .

(٢) كان خروج رسول الله ﷺ إلى الطائف بعد موت عمه أبى طالب وزوجه خديجة بثلاثة أشهر (١ : ٢٣٠ العقد الثمين للفاسى) وذلك فى شوال سنة عشرين من البعثة وقبل الهجرة بثلاث سنين (١ : ٢٣١ المرجع نفسه) وكان معه زيد بن حارثة (١ : ٤٧ زاد المعاد) :

إلى الطائف :

وخرج رسول الله إلى الطائف[1] ، يلتمس النصرة من ثقيف ، والمنعة بهم من قومه ، رجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل .

فخرج إليهم وحده ، وقيل : كان معه زيد بن حارثة مولاه .

ولما انتهى — وصل — رسول الله إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافها ، وهم إخوة ثلاثة :

١ — عبد يا ليل بن عمرو بن عمير .

٢ — وأخوه مسعود .

وأخوهما حبيب .

وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح .

فجلس إليهم رسول الله فدعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه .

فقال أحدهم لرسول الله — إن كان الله أرسلك .

وقال الآخر : أما وجد الله أحدا يرسله غيرك .

وقال الثالث : والله لا أكلمك أبدا ، لئن كنت رسولا من الله — كما تقول — لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك .

فقام رسول الله من عندهم : وقد يئس من ثقيف وقال لهم :

« إذ قد فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني » فلم يفعلوا ذلك .

وأغروا برسول الله سفهاءهم وعبيدهم ، يسمونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجأوه إلى بستان لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه ، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه : فعمد إلى ظل كرمة من عنب فجلس فيه ، وعتبة وشيبة ينظران إليه ، ويريان ما لقي من سفهاء ثقيف أهل الطائف .

ومرت به المرأة القرشية التي من بني جمح فقال لها :

ماذا لقينا من إحمائك ؟

ولما اطمأن رسول الله ، أخذ يبتهل إلى الله .

---

(١) ما أكثر ما نال رسول الله من الأذى في سبيل تبليغ رسالة الله إلى الناس .

اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس .
يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى .
إلى من تكلنى ؟
إلى بعيد يتجهمنى .
أم إلى عدو ملكته أمرى .
إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ولكن عافيتك هى أوسع لى .
أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك .
لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك .
فلما رآه عتبة وشيبة وما لقى ، تحركت له رحمهما ، فدعوا غلاما لهما نصرانيا فقالا له :
خذ عنقودا من هذا العنب ، فضعه فى هذا الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل . فقل له يأكل منه .
ففعل الغلام ، واسمه عداس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله ثم قال له : كل .
فلما وضع رسول الله فيه يده قال :
بسم الله
ثم أكل
فنظر (عداس) فى وجهه : وقال إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد
فقال له رسول الله : من أى البلاد أنت يا عداس ؟ وما دينك ؟
قال : نصرانى ، وأنا رجل من أهل نينوى فقال له رسول الله : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى .
قال عداس : وما يدريك من يونس ؟ فقال رسول الله : ذاك أخى ، كان نبيا وأنا نبى فأكب عداس على رسول الله يقبل رأسه ويديه وقدميه .
فقال عتبة لأخيه ، أما غلامك فقد أفسده عليك .
ولما جاء عداس قالا له : ويلك مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟
قال : يا سيدى ما فى الأرض شىء خير من هذا ، فقد أخبرنى بأمر لا يعلمه إلا نبى
فقالا له : ويحك يا عداس ، لا يصرفنك عن دينك ، فإن دينك خير من دينه .

وانصرف رسول الله من الطائف . راجعا إلى مكة ، حين يئس من ثقيف ودخل مكة بجوار المطعم بن عدى ، قيل : إن رسول الله أقام بعد الطائف بنخلة أيامه ، فقال له زيد بن حارثة . كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك ، فقال يا زيد إن الله جاعل لما ترى مخرجا ، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه . ثم انتهى إلى مكة فأرسل إلى مطعم بن عدى : أدخل فى جوارك ؟ فقال : نعم . ودعا بنيه وقومه فقال : البسوا السلاح وكونوا عند أركان البيت ، فإنى قد أجرت محمدا . فدخل رسول الله ومعه زيد بن حارثة ، حتى انتهى إلى المسجد الحرام فقام مطعم على راحلته فنادى : يا معشر قريش ، إنى قد أجرت محمدا فلا يهجه أحد منكم . فانتهى رسول الله إلى الركن فاستلمه وصلى ركعتين وانصرف إلى بيته ، ومطعم بن عدى وولده محدقون به بالسلاح حتى دخل بيته . (راجع ١ : ٤٧ زاد المعاد و٢ : ١٦٠ أيضا) — وكان مطعم ممن مشى فى نقض الصحيفة .

ومن أولاده جبير بن مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف بن عدى ، وكان من أنسب قريش لقريش وللعرب قاطبة ، وكان يقول : إنما أخذت النسب من أبى بكر ، وكان أبو بكر أنسب العرب (١ : سير أعلام النبلاء) .

ويقول ابن القيم فى زاد المعاد (١ : ٤٧) : إن الإسراء والمعراج كان بعد الطائف .

الباب السادس

الأساليب الإعلامية

فى الدعوة الإسلامية فى المدينة

١ — أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له فى الهجرة ، ولم يتخلف معه بمكة أحد إلا من حبيس أو فتن ، وإلا على بن أبى طالب وأبو بكر .

وكان أبو بكر كثيرا ما يستأذن رسول الله فى الهجرة ، فيقول له رسول الله لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبا ، فيطمع أبو بكر أن يكونه .

٢ — ولما رأت قريش أن رسول الله صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم فى غير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم ، عرفوا أنهم قد نزلوا دارا وأصابوا منهم منعة ، فخافوا خروج رسول الله إليهم إذ قد عرفوا أنه قد أجمع لحربهم .

فاجتمعوا له فى دار الندوة ، وهى دار قصى التى كانت قريش لا تقضى أمرا إلا فيها ، وأخذوا يتشاورون فيما يصنعون فى أمر محمد ﷺ . وكان ذلك الاجتماع فى يوم الخميس السابع والعشرين من صفر عام ٦٢٢ م .

وفى الدار اجتمع أشراف قريش .. عتبة بن ربيع ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، وطعيمة بن عدى ، وجبير بن مطعم ، والحارث بن عامر بن نوفل ، والنضر ابن الحارث ، وأبو البخترى بن هشام ، وزمعة بن الأسود بن المطلب ، وحكيم بن حزام ، وأبو جهل بن هشام ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وأمية بن خلف وغيرهم .

قال بعضهم لبعض : إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم ، فإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا ، فأجمعوا فيه رأيا .

فتشاوروا ، قال قائل منهم : احبسوه فى الحديد وأغلقوا عليه بابا ، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله ، زهيرا ومن مضى منهم ، حتى يصيبه ما أصابهم .

وقال آخر : بل نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا ، فإذا خرج عنا فوالله ما نبالى أين ذهب ولا حيث وقع ، إذا غاب عنا وفرغنا من أمره فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت .

وقال أبو جهل ، والله إن لى فيه لرأيا ما وقعتم عليه بعد .

قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة شابا قويا نسيبا وسيطا ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد ، فيقتلوه ، فنستريح منه . وإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا .

ونزل جبريل فحدث رسول الله بالأمر ، وقال له : لا تبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه . وكان الرسول قد أعد من قبل عدته للهجرة متى ما أذن له بها .

فلما كان الظلام اجتمعوا على باب الرسول يرصدونه متى ينام فيثبون عليه ، فلما رأى رسول الله مكانهم قال لعلى : نم على فراشى ، وتسج ببردى هذا فنم فيه ، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم . وكان رسول الله ينام فى برده ذلك إذا نام .

وخرج رسول الله فأخذ حفنة من تراب فى يده ، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلا يرونه ، فجعل ينثر ذلك التراب على رءوسهم وهو يتلو الآيات (١ — ٩ من سورة يس) ﴿ يس ۝ والقرآن الحكيم ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ .

ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب ، وكان ذلك فى صباح يوم الجمعة الثامن والعشرين من صفر سنة ١ هجرية .

وجعلوا يتطلعون فيرون عليا على الفراش متسجيا ببرد رسول الله فيقولون : والله إن هذا لمحمد نائما عليه برده . فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا وقام على من الفراش .

ونزل قوله تعالى : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ .

٣ — كيف كان تدبير الرسول للهجرة ؟

كان أبو بكر ذا مال ، وكان يستأذن رسول الله فى الهجرة فيقول له رسول الله :

— لا تعجل ، لعل الله يجعل لك صاحبا .

فطمع أبو بكر بأن يكون رسول الله هو صاحبه فى الهجرة .

فابتاع راحلتين وحبسهما فى داره ، يعلفهما إعدادا لذلك .

وكان رسول الله لا يخطئ أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار ، إما بكرة وإما عشية .

حتى إذا كان ذلك اليوم الذى أذن الله فيه لرسوله فى الهجرة والخروج من مكة ، أتى رسول الله — كما تحدث عائشة بنت أبى بكر — بالهاجرة ، فى ساعة كان لا يأتى فيها .

فلما رآه أبو بكر قال : ما جاء رسول الله هذه الساعة إلا لأمر حدث .

ولما دخل رسول الله تأخر له أبو بكر عن سريره فجلس عليه . فقال رسول الله : أخرج عنى من عندك . وكان عنده عائشة وأسماء فقال : يا رسول الله إنما هما ابنتاى ، وماذاك فداك أبى وأمى ؟ فقال له ﷺ : إنى الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة .

فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله .

قال ﷺ : الصحبة .

قالت عائشة : فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدا يبكى من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكى يومئذ ، ثم قال : يا نبى الله إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا .

فاستأجرا عبد الله بن أرقط ، وكانت أمه من بنى سهم بن عمرو وكان مشركا يدلهما على الطريق ، فدفعا إليه راحلتيهما يرعاهما لميعادهما .

ولم يعلم أحد بهجرة رسول الله إلا على وأبو بكر وبيت أبى بكر .

أما على فقد أمره رسول الله أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدى عن رسول الله الودائع التى كانت عنده للناس ، وكان رسول الله ليس بمكة أحد عنده شىء يخشى عليه إلا وضعه عنده ، لما يعلم من صدقه وأمانته .

٤ — وفى الليلة الموعودة(١) خرج رسول الله من داره ، وأمر أبا بكر ليصحبه فى هجرته ، وخرجا من خوخة(٢) لأبى بكر فى ظهر بيته ثم عمدا إلى غار بجبل ثور أسفل مكة(٣) فدخلاه ومكثا فيه ... وأصبح فتيان قريش الذين كانوا يرصدون رسول الله فدخلوا الدار ، فقام على عن فراشه ، فلما دنوا منه عرفوه وقالوا له : أين صاحبك ؟ قال : لا أدرى ، أو رقيبا كنت عليه ؟ أمرتموه بالخروج فخرج . فانتهروه وضربوه وأخرجوه إلى المسجد فحبسوه ساعة ثم تركوه .

وأمره أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون فى ذلك اليوم من الخبر .

وأمر مولاه عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه نهاره ، ثم يريحها عليهما يأتيهما إذا أمسى فى الغار ، فاحتلبا وذبحا ، ويعفى بالغنم على أثر عبد الله بن أبى بكر .

---

(١) هى ليلة السابع والعشرين من صفر من العام الثالث عشر للبعثة .

(٢) باب صغير كالنافذة الكبيرة تكون بين بيتين ينصب عليها باب .

(٣) جنوبى مكة على ثلاثة أميال منها .

وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما ، وسميت ذات النطاقين[١] .

وأقام رسول الله فى الغار ثلاثة أيام بلياليها ، ومعه أبو بكر .

وخرج رسول الله من الغار بعد ثلاث وذلك فى صباح يوم الاثنين غرة ربيع الأول سنة ١ هـ ، فلما قرب أبو بكر الراحلتين إلى الرسول قدم له أفضلهما ، ثم قال : اركب فداك أبى وأمى ، فقال رسول الله : إنى لا أركب بعيرا ليس لى ، فقال أبو بكر : فهى لك يا رسول الله بأبى أنت وأمى ، قال : لا ، ولكن ، ما الثمن الذى ابتعتها به ؟ قال : كذا وكذا ، قال ﷺ : قد أخذتها به ، قال : هى لك يا رسول الله : فركبها ، وانطلقا ، وأردف أبو بكر عامر بن فهيرة مولاه خلفه ليخدمهما فى الطريق . وكان خروجه من مكة إلى المدينة يوم الاثنين ٢٨ من صفر .

٥ — قالت أسماء : لما خرج رسول الله وأبو بكر أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل ، فوقفوا على الباب ، فخرجت إليهم فقالوا : أين أبوك يا بنت أبى بكر ؟ قلت : لا أدرى والله أين أبى . فرفع أبو جهل — لعنه الله — يده فلطم خدى لطمة طرح منها قرطى .. ثم انصرفوا . فمكثنا ثلاث ليال ، وما ندرى أين وجه رسول الله ، ثم عرفنا أن وجهه إلى المدينة .

وكان أبو بكر حين أراد الخروج احتمل ماله كله معه — خمسة آلاف أو ستة آلاف درهم — فانطلق بها معه . قالت أسماء : فدخل علينا جدى أبو قحافة وقد ذهب بصره فقال : والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه . قالت له أسماء : كلا يا أبت إنه قد ترك لنا خيرا كثيرا . وأخذت أحجارا فوضعتها فى كوة فى البيت كان يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوبا ، ثم أخذت بيده وقالت له : يا أبت ضع يدك على هذا المال . فوضع يده عليه فقال : لا بأس إذا كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفى هذا بلاغ لكم . قالت أسماء : ولا والله ما ترك لنا أبو بكر شيئا ، ولكنى أردت أن أسكن الشيخ بذلك .

٦ — وسار الركب الكريم ، رسول الله والصديق ومعهما عامر بن فهيرة مولى أبى بكر ، وعبد الله بن أرقط دليلهما .

---

(١) أتت رسول الله وأبا بكر بسفرتهما ، فلما أرادت أن تعلق السفرة إذ هى ليس فيها « عروة » ، فشقت نطاقها اثنين فعلقت السفرة بواحد ، وانتطقت بالآخر . فسميت ذات النطاقين .

وكانت قريش لما خرج رسول الله من مكة مهاجرا إلى المدينة ، جعلت فيه مائة ناقة لمن يرده عليهم .

قال سراقة بن مالك(١) : بينا أنا جالس فى نادى قومى إذ أقبل رجل منا حتى وقف علينا فقال : والله لقد رأيت ثلاثة رجال مروا على آنفا . إنى لأراهم محمدا وأصحابه . فأومأت إليه بعينى أن اسكت وقلت : إنما هم بنو فلان ينشدون ضالة لهم . ثم مكثت قليلا وقمت فدخلت بيتى ، ثم أمرت بفرسى فقيد لى إلى بطن الوادى وأمرت بسلاحى فأخرج لى ، ثم انطلقت فلبست لأمتى وكنت أرجو أن أرده على قريش فآخذ المائة ناقة .

فركبت ، فبينا فرسى يغدو عثر بى فسقطت عنه ، فقلت : ما هذا ؟ فأبيت إلا أن أتبعه فركبت فى أثره ، فبينا فرسى يشتد بى عثر بى فسقطت عنه ، فقلت : ما هذا ؟ فأبيت إلا أن أتبعه فركبت فى أثره فلما بدا لى القوم ورأيتهم ، عثر بى فرسى فسقطت عنه ، وعرفت أنه قد منع منى وأنه ظاهر ، فناديت : أنا سراقة ، أنظرونى أكلمكم ، فوالله لا أريبكم ولا يأتيكم منى شىء تكرهونه .

فقال رسول الله لأبى بكر : قل وما تبتغى منا ؟ فقال ذلك أبو بكر ، فقلت : تكتب لى كتابا يكون آية بينى وبينك .

قال : اكتب له يا أبا بكر . فكتب لى كتابا فى عظم أو فى رقعة أو فى خرقة ، ثم ألقاه إلى ، فأخذته فجعلته فى كنانتى .

ثم رجعت فسكت فلم أذكر شيئا مما كان ، حتى إذا كان فتح مكة وفرغ من حنين والطائف خرجت ومعى الكتاب لألقاه ، فلقيته بالجعرانة(٢) فدخلت فى كتيبة من خيل الأنصار فجعلوا يقرعوننى بالرماح ويقولون : إليك ، إليك : ماذا تريد ؟ فدنوت من رسول الله وهو على ناقته فرفعت يدى بالكتاب ثم قلت : يا رسول الله هذا كتابك لى ، وأنا سراقة . فقال رسول الله : « يوم وفاء وبر ، أدنه . فدنوت منه فأسلمت ، ثم رجعت إلى قومى فسقت إلى رسول الله صدقتى .

٧ — سلك بهما عبد الله بن أرقط أسفل مكة ، ثم مضى بهما على الساحل أسفل من عسفان على مرحلتين من مكة .

---

(١) من جلّة الصحابة روى عنه ابن عباس وجابر والمسيب وطاووس ومات فى أول خلافة عثمان عام ٢٤ هـ .

(٢) بين الطائف ومكة .

ثم أمج وهى واد يأخذ من حرة بنى سليم .
ثم قديدا وهى ماء بالحجاز بين مكة والمدينة .
ثم سلك بهما الخرار وهو موضع بينهما .
ثم ثنية المرة .
ثم لقفا ثنية بين مكة والمدينة .
ثم مدلجة لقف .
ثم مدلجة مجاح .
ثم مرجح مجاح .
ثم مرجح من ذى الغضوين .
ثم بطن ذى كشر بين مكة والمدينة .
ثم الجد أجد .
ثم الأجرد .
ثم ذا سلم ، وهو جبل من جبال القبلية .
ثم بطن أعدا مدلجة تعهن ، وهو ماء وموضع على ثلاثة أميال من السقيا بين مكة والمدينة .
ثم العبابيد .
ثم القاحة على ثلاث مراحل من المدينة قبل السقيا .
ثم العرج وهو عقبة بين مكة والمدينة ، وهنا أبطأ عليهما بعض إبلهما فحمل رسول الله رجل من أسلم اسمه أوس بن حجر على جمل له إلى المدينة ، وبعث معه غلاما يقال له مسعود بن هنيدة .
ثم ثنية العائر وهى عن يمين ركوبة عند العرج ، وكان دليله ﷺ إليها عبد الله ذو البجادين .
ثم بطن رئم وهو على أربعة برد من المدينة .
ثم قباء فى يوم الاثنين الثامن من ربيع الأول على الأصح حين اشتد الضحى وكادت الشمس تعتدل[1] ، فنزل ﷺ على بنى عمرو بن عوف . وهذا اليوم يوافق العشرين من سبتمبر عام ٦٣٢ م .

---

(١) الصحيح أن ذلك فى اليوم العشرين من سبتمبر عام ٦٢٢ ميلادية وهو الثامن من ربيع الأول .

٨ — وعن بعض الصحابة : لما سمعنا عن خروج رسول الله من مكة كنا نخرج إذا صلينا الصبح إلى ظاهر حرتنا ننتظر رسول الله ، فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس ، فإذا لم نجد ظلا دخلنا بيوتنا .

وقدم رسول الله حين دخلنا البيوت ، وكان أول من رآه رجل من اليهود فصرخ بأعلى صوته « يا بنى قيلة(١) ، هذا جدكم قد جاء » .

فخرجنا إلى رسول الله وهو فى ظل نخلة ، ومعه أبو بكر فى مثل سنه ، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله قبل ذلك وما يعرفونه من أبى بكر ، ولما زال الظل عن رسول الله قام أبو بكر فأظله بردائه ، فعرفنا رسول الله عند ذلك .

٩ — ونزل رسول الله على كلثوم(٢) بن هدم أخى بنى عمرو بن عوف .

ويقال : بل نزل على سعد بن خيثمة لأنه كان عزبا لا أهل له ، وكان منزله منزل العزاب من أصحاب رسول الله من المهاجرين .

ونزل أبو بكر على خبيب بن إساف ، أحد بنى الحارث بن الخزرج ، بالسنح(٣) .
وقيل : نزل على خارجة بن زيد .

وأقام على بن أبى طالب بمكة ثلاث ليال وأيامها حتى أدى عن رسول الله الودائع التى كانت عنده للناس ، فلما فرغ منها لحق برسول الله فنزل معه على كلثوم بن هدم ، ليلة أو ليلتين .

وأقام رسول الله بقباء ، وفى صباح يوم الجمعة التاسع عشر من ربيع الأول سنة ١ هـ ، خرج منها إلى المدينة ، فأدرك رسول الله الجمعة فى بنى سالم بن عوف فصلاها فى المسجد الذى فى بطن الوادى . وأدى أنوناء ، فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة(٤) ،

---

(١) يريد بهم الأنصار ، سموا باسم جدة لهم .

(٢) توفى بعد قدوم رسول الله المدينة ، فهو أول من مات من الأنصار بعد الهجرة ، ثم مات بعده ابن زرارة ، وسعد بن خيثمة .

(٣) إحدى محال المدينة .

(٤) كانت أول خطبة جمعة بالمدينة أى قباء على ما أرجح كما يروى هى : الحمد لله — أحمده ، وأستعينه ، وأستغفره وأستهديه ، وأومن به ولا أكفره ، وأعادى من يكفره .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى والنور والموعظة فى فترة من الرسل وقلة من العلم وضلالة من الناس وانقطاع من الزمن ودنو من الساعة وقرب من الأجل ، ومن يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصه فقد غوى وفرط وضل ضلالا بعيدا .

ودخل المدينة فى اليوم نفسه .

فأتاه عتبان بن مالك وعباس بن عبادة فى رجال من بنى سالم بن عوف فقالوا :

يا رسول الله : أقم عندنا فى العدد والعدة والمنعة .

قال ﷺ :

خلوا سبيلها فإنها مأمورة يريد ناقته .

فلما كان فى دار بنى بياضة تلقاه رجال منهم فقالوا :

يا رسول الله ، هلم إلينا ، فى العدد والعدة والمنعة .

قال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة .

وعند دار بنى ساعدة اعترضه بن عبادة فى رجال من بنى ساعدة فقالوا : يا رسول الله ، هلم إلينا .

فقال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة .

فلما وصل دار بنى الحارث بن الخزرج اعترضه رجال منهم فقالوا :

— يا رسول الله ، هلم إلينا ، إلى العدد والعدة والمنعة .

قال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة .

فلما وصل دار أخواله بنى عدى من بنى النجار وكانت أم عبد المطلب منهم — وهى سلمة بنت عمرو إحدى نسائهم — اعترضه رجال منهم فقالوا :

— يا رسول الله ، هلم إلى أخوالك ، إلى العدد والعدة والمنعة .

قال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة .

فلما وصل دار مالك بن النجار بركت عند باب مسجده ﷺ ، وهو يومئذ مربد لغلامين يتيمين من بنى مالك بن النجار ، وكانا فى حجر معاذ بن عفران ، وهما سهل وسهيل ابنا عمرو ، ورسول الله واضع لناقته زمامها لا يثنيها به .

= وأوصيكم بتقوى الله فإنه خير ما أوصى به المُسلم المسلمَ أن يحثه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله . فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من ذلك ذكرا ، وإن تقوى الله يوق مقته ويوق عقوبته ، وإن تقوى الله يبيض الوجوه ويرضى الرب ويرفع الدرجة .

ويقال إن رسول الله ﷺ أقام بقباء أربعة عشر يوما حيث أسس مسجد قباء ، وهو أول مسجد بنى فى الإسلام . ووصول رسول الله إلى المدينة كان يوم الجمعة الثانى عشر من ربيع على أصح الآراء . ويذكر الطبرى أن قدوم رسول الله المدينة يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول (٢ / ٩٥) والصحيح أن يوم الاثنين كان أول ربيع الأول ، والاثنين الذى بعده كان يوم ٨ وهو يوم وصول الرسول قباء .

ثم قامت فسارت غير بعيد ، ثم التفتت إلى خلفها فرجعت إلى مبركها الأول فبركت فيه ، فنزل عنها رسول الله[(١)] .

بناء المسجد النبوى بعد قدوم الرسول المدينة :

فاحتمل أبو أيوب خالد بن زيد رحله ﷺ فوضعه فى بيته ، ونزل عليه رسول الله حتى بنى مسجده ومساكنه .

وسأل ﷺ عن المربد لمن هو ؟ فقال له معاذ بن عفراء : هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابنى عمرو وهما يتيمان لى ، وسأرضيهما منه فاتخذه مسجدا .

فأمر به رسول الله أن يبنى مسجدا ، وعمل فيه رسول الله ومعه المهاجرون والأنصار ودأبوا فيه .

ثم انتقل ﷺ من بيت أبى أيوب إلى مساكنه .

وحدث أبو أيوب : لما نزل على رسول الله فى بيتى ، نزل فى السفل وأنا وأم أيوب فى العلو .

فقلت له : يا نبى الله بأبى أنت وأمى ، إنى لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتى ، فاظهر أنت فتكون فى العلو .

---

(١) وهكذا تمت الهجرة . ويقال إن وصول رسول الله إلى المدينة كان لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول من العام الثالث عشر للبعثة المحمدية ، وذلك يوافق ٢٨ من يونيو ٦٢٢ م .

ويروى عن ابن عمر قال : قال أهل المدينة لرسول الله : ادخل المدينة راشدا مهديا . فدخلها وخرج الناس ينظرون إليه ، كلما مر على قوم قالوا : يا رسول الله هاهنا . فقال : دعوها فإنها مأمورة ، يعنى الناقة ، حتى بركت على باب أبى أيوب (٢٩١ : ٢ سير أعلام النبلاء للذهبى) .

ومات أبو أيوب عام ٥٢ هـ ، ودفن بأصل حصن القسطنطينية (٢٨٨ — ٢٩٦ / ٢ سير أعلام النبلاء) .

وقد خص رسول الله أبا أيوب بالنزول عليه فى بنى النجار إلى أن بنيت له حجرة أم المؤمنين سودة ، وبنى المسجد الشريف (٢٨٨ : ٢ سير أعلام النبلاء) .

ومنذ ذلك اليوم أطلق على يثرب اسم المدينة أى مدينة النبى ، كما أطلق على ذلك اليوم اسم يوم الهجرة . وقد مثل هذا اليوم مفترق طريق فى حياة النبى وفى تاريخ الإسلام .

هذا التاريخ ٢٨ يونيو ٦٢٢ م أصبح نقطة انطلاق لأيام الإسلام ، ثم اختياره كبداية لحولية تاريخية جديدة ، وتبعا لهذه الحولية أصبحت سنة المسلم هى السنة القمرية وهى تتألف من ستة شهور مدة كل منها ٢٩ يوما ، وستة أخرى مدة كل منها ٣٠ يوما ، فيكون مجموع أيام السنة القمرية ٣٥٤ يوما ، كما يكون الفرق بين القرن الهجرى والقرن الميلادى فوق ثلاث سنوات .

وتنزل نحن فنكون فى السفل . فقال ﷺ : (يا أبا أيوب إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون فى أسفل البيت)(١)

وتم بناء المسجد الشريف وبناء مساكن أزواج رسول الله ، واتخذها الرسول سكنا له ولأزواجه أمهات المؤمنين رضى الله عنهن .

ومات والمسجد يبنى أسعد بن زرارة رحمه الله وكان نقيب بنى النجار ، فصار رسول الله نقيب بنى النجار وهم أخواله .

ومن هنا نعلم أن رسول الله أقام بالمدينة منذ قدمها شهر ربيع الأول ، وظل إلى صفر عام اثنين من الهجرة حتى بنى مسجده ومساكنه واستجمع له إسلام الأنصار ، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهلها ، إلا بعض بطون قلائل من الأوس فإنهم أقاموا على شركهم .

وقد تحدث القرآن الكريم عن الهجرة ، فقال الله تعالى وهو أصدق القائلين : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكٰرهون ۞ يجادلونك فى الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ۞ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلمٰته ويقطع دابر الكافرين ۞ ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ۞ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملٰئكة مردفين ۞ وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴾ (من سورة الأنفال) .

مرحلة الدعوة بالمدينة :

وبقدر ما ضاقت الوسائل الإعلامية الإيجابية للإعلام فى فترة الاضطهاد الدينى — أو فى العهد المكى المتأخر — اتسعت أمام الرسول عليه السلام مجالات الإعلام بالطرق الإيجابية الجديدة ، ومنها :(٢)

---

(١) وعن أبى رهم أن أبا أيوب حدثه أن رسول الله نزل فى بيتنا الأسفل ، وكنت فى الغرفة فأهريق ماء فى الغرفة فقمت أنا وأم أيوب نتتبع الماء بقطيفة لنا ، ونزلت فقلت : يا رسول الله ، لا ينبغى أن نكون فوقك انتقل إلى الغرفة . فأمر بمتاعه فنقل ومتاعه قليل (٢٩١ : ٢ سير أعلام النبلاء للذهبى) .

(٢) د . عبد اللطيف حمزة : المرجع السابق ، ص ١٣٥

— طريقة الأذان لإقامة الصلاة .

— إقامة العلاقات الودية بين الرسول واليهود فى داخل المدينة بقصد التعايش السلمى .

— إقامة العلاقات الودية كذلك بين الرسول والقبائل العربية المجاورة للمدينة ، وذلك تأمينا للمسلمين فى داخل المدينة ، وتمهيدا لدخول الإسلام فى هذه القبائل .

— اتخاذ الاحتياطات الإعلامية التى لا بد منها فى ظروف الحرب ، كالأرصاد والعيون التى تأتى الرسول بأخبار العدو .

— بعثات الرسول إلى الملوك والأمراء ليدعوهم إلى اعتناق الإسلام ، وهى حركة إعلامية لا توازنها فى مجال الإعلام إلا حركة الهجرة .

— استقبال الرسول للوفود العربية التى وفدت عليه بالمدينة لكى تسلم على يديه ، وكان النبى يبعث مع كل وفد من هذه الوفود بالقراء والمعلمين الذين يفقهونهم فى الدين ويفسرون لهم بعض آيات القرآن الكريم .

— التهامس بين الناس فى أخبار الرسول وأخبار هذا الدين الجديد ، وأوضح ما كان ذلك فى حادث الهجرة وفى فترات الصلح بين المشركين كما كان الأمر فى صلح الحديبية .

— غزوات النبى باعتبارها إعلانا كبيرا عن الإسلام . فقد أمسك النبى بالقرآن فى إحدى يديه ، وأمسك بالسيف — كما أمره القرآن — فى يده الأخرى .

— سرايا النبى وبعوثه الحربية إلى تخوم الروم تأمينا لحدود المسلمين بالمدينة من جهة ، وإنذارا لأعداء الإسلام من الغرب وغيرهم بقوة هذا الدين الجديد وهيبته ، حتى لا يفكروا فى الإغارة على حدوده .

وهذا فضلا عن الخطب النبوية وحركة الإخاء التى بدأ بها النبى حياته بمقره الجديد ، وهو المدينة[1] .

ويذهب التفسير الإعلامى للسيرة النبوية الشريفة ، إلى أن القرآن الكريم كان أكبر الوسائل الإعلامية على الإطلاق منذ بداية الرسالة ، كما كانت الأحاديث النبوية قوة إعلامية ليس هناك أعظم منها فى حياة الرسول وحياة الخلفاء الراشدين ، وحياة العصور الإسلامية التى تلتها إلى يومنا هذا . والسبب فى ذلك أن أظهر صفة من صفات الرسول الكريم هى قدرته الإعلامية على التأثير فى الآخرين ، وقد كانت هذه الصفة تشكل أكبر

---

(١) المرجع نفسه ، ص ١٣٥

خطر واجهه المشركون فى مكة . كما كان الاتصال الشخصى والجمعى من أنجح وسائل الإعلام فى عهد الرسول ، وكذلك القدوة الحسنة ، والقصص غير القرآنى[1] .

وليس معنى ذلك أن الإعلام فى عهد الرسول عليه السلام حصر نفسه فى هذه المجالات ، واحتفظ لنفسه بالمجالات السابقة التى مارسها الرسول قبل عهد الاستقرار . ولكن معناه أن هذه المجالات ، مضافا إليها مجال الخطب والأحاديث والقدوة الحسنة وغيرها — ليست إلا أمثلة من النشاط الإعلامى على يد الرسول فى عهد الاستقرارات .

تلاحق المهاجرون إلى رسول الله فى المدينة « ولم يبق بمكة أحد إلا مفتون أو محبوس . ومن البيوت التى هاجر أهلوها جميعا إلى المدينة : بنو مظعون ، وبنو جحش ، وبنو البكير .. فإن دور هؤلاء بمكة أغلقت لهجرة جميع أهليها إلى المدينة .

أول خطبة خطبها رسول الله فى المدينة[2] :

مضت أول خطبة خطبها رسول الله فى قباء ، وهذه أول خطبة خطبها فى المدينة . حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

(أما بعد :

أيها الناس فقدموا لأنفسكم ، تعلمن والله ليصفقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه — وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه — : ألم يأتك رسولى فبلغك ، وآتيتك مالا وأفضلت عليك ، فما قدمت لنفسك ؟

فلينظرن يمينا وشمالا فلا يرى شيئا ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم .

فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشق من تمرة فليفعل .

ومن لم يجده فبكلمة طيبة ، فإن بها تجزى الحسنة إلى عشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته) .

---

(١) المرجع نفسه ، ص ١٣٦

(٢) يروى الطبرى (١١٥/٢) نص خطبة أخرى خطبها الرسول فى أول جمعة له .

خطبة ثانية :

ثم خطب رسول الله مرة أخرى ، فقال :
(إن الحمد لله أحمده وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا .
من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له .
وأشهد أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له .
إن أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى .
قد أفلح من زينه الله فى قلبه ، وأدخله فى الإسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس .
إنه أحسن الحديث وأبلغه .
أحبوا ما أحب الله .
أحبوا الله من كل قلوبكم
ولا تملوا كلام الله وذكره
ولا تقس عنه قلوبكم

فإنه من كل ما يخلق الله يختار ويصطفى ، قد سماه الله خيرته من الأعمال ، ومصطفاه من العباد ، والصالح من الحديث ، ومن كل ما أوتى الناس من الحلال والحرام .

فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، واتقوه حق تقاته ، واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم ، وتحابوا بروح الله بينكم ، إن الله يغضب أن ينكث عهده .
والسلام عليكم) .

موادعة رسول الله لليهود :

وكتب رسول الله كتابا — أو معاهدة — وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم ، واشترط عليهم وشرط لهم .
ومما جاء فيه :

بسم الله الرحمـٰن الرحيم

هذا كتاب من محمد النبى ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم وجاء معهم .

إنهم أمة واحدة من الناس ، المهاجرون من قريش على ربعتهم[١] يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم[٢] بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وإن المؤمنين لا يتركون مفرحا[٣] بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل ، ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه .

وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة — عطية — ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وإن أيديهم عليهم جميعا ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر ، ولا ينصر كافرا على مؤمن .

وإن ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أدناهم .

وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس .. وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر

(١) أى على الحال التى جاء الإسلام وهم عليها .

(٢) العانى : الأسير .

(٣) هو المثقل من الدين الكثير العيال .

والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم ، وإن سلم المؤمنين واحدة .. لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم .

وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا .

وإن المؤمنين يبيء — يكف — بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله .

وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه .

وإنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ، ولا يحول دونه على مؤمن .

وإنه من اعتبط — قتل — مؤمنا قتلا عن بينة ، فإنه قود به إلا أن يرضى ولى المقتول .

وإن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه .

وإنه لا يحل لمؤمن من أقرّ بما فى هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر ، أن ينصر محدثا ولا يؤويه .

وإنه من نصره أو آواه ، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل . وإلى محمد ﷺ .

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ — لا يهلك — إلا نفسه وأهل بيته .

وإن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف .

وإن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف .

وإن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف .

وإن ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بنى عوف .

وإن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف .

وإن ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه .

وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم .

لبنى الشيبة مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن البر دون الإثم ، وإن موالى بنى ثعلبة كأنفسهم .

وإن بطانة يهود كأنفسهم . وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ .
وإنه لا ينحجر على ثأر جرح .
من فتك فنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم .
وإن الله على أبر هذا ..
على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم .
بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة .
بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم ، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه .
وإن النصر للمظلوم .
اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .
يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .
الجار كالنفس غير مضار ولا آثم .
وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها .
فإن مرده إلى الله عز وجل ، وإلى محمد رسول الله ﷺ .
وإن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره .
وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها .
وإن بينهم النصر على من دهم يثرب .
وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه .
وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين ، إلا من حارب فى الدين على كل أناس حصتهم من جانبهم الذين قبلهم ، وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر الحسن من أهل هذه الصحيفة) .

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار :

آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، وقال لهم :
(تآخوا فى الله ، أخوين أخوين) .
وأخذ بيد على فقال : (هذا أخى) .
وكان حمزة وزيد بن حارثة مولى رسول الله أخوين .
وكان جعفر بن أبى طالب[1] ومعاذ بن جبل أخوين .

---

(١) كان جعفر آنذاك بأرض الحبشة .

وكان أبو بكر وخارجة الخزرجى أخوين .

وكان عمر وعتبان بن مالك الخزرجى أخوين .

وأبو عبيدة وسعد بن معاذ أخوان .

وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع الخزرجى أخوان

والزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود أخوان .

وسعيد بن زيد وأبى بن كعب أخوان .

وطلحة وكعب بن مالك أخوان .

وكان أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وعباد بن بشر أخوين .

وعمار بن ياسر وحذيفة اليمان(١) أخوان .

وأبو ذر والمنذر بن عمرو الخزرجى أخوان .

وسلمان الفارسى وأبو الدرداء الخزرجى أخوان .

وبلال وأبو رويحة الخثعمى أخوان .

وحاطب بن أبى بلتعة وعويم بن ساعدة أخوان .

وتمت هذه المؤاخاة الفريدة فى تاريخ الإنسانية .

ولقد وجد الرسول نفسه أمام ثلاث طوائف فى المدينة :

أولاها — طائفة المهاجرين الفقراء ، الذين ضحوا بوطنهم وما لهم وتجارتهم طلبا للحرية وفرارا من الطغيان ، فهاجروا من مكة إلى المدينة فرادى وجماعات بعد هجرة محمد عليه الصلاة والسلام ، وكان أغلبهم يعمل بمكة فى التجارة يكسب منها الأموال الطائلة ، ويصفهم الله تعالى فى القرآن بقوله ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولٰئك هم الصادقون ﴾ .

والطائفة الثانية — هم الذين أحبوا الرسول ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه ، من الأوس والخزرج سكان المدينة ، وكانت مهنة أكثرهم الزراعة وتعهد الثمار والأشجار والفاكهة ، وكانوا ذوى عدد ووصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ والذين تبوءُوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولٰئك هم المفلحون ﴾ .

---

(١) ويقال : ثابت بن قيس الخزرجى خطيب رسول الله مكان حذيفة .

والطائفة الثالثة — يهود المدينة الذين طالما أشعلوا نار الخصومة والحرب بين الأوس والخزرج وسخروا برسالة محمد وبأصحابه .

مجتمع كهذا المجتمع فيه الفقراء والأغنياء ، والمفسدون والمتآمرون ، لا بد فيه من بناء جديد وحركة بعث وتجديد . فماذا فعل محمد صلوات الله عليه ؟ بدأ الرسول يعالج هذه المشكلات بإلهام سديد وعقل حصيف وسياسة حكيمة .

طمأن اليهود على حرياتهم الدينية والشخصية ، وتعهد بحمايتهم والدفاع عنهم فى وثيقة سياسية بارعة وادع فيها اليهود وعاهدهم وحذرهم ، ليضمن سلامة الدولة وأمنها[١] .

والتفت إلى علاج مشكلة التفاوت الشديد فى الثروة بين الأغنياء والفقراء ، بين الأنصار والمهاجرين ، فآخى بينهم إخاء فريدا فى تاريخ الإنسانية .. إخاء مودة وتعاون وإخلاص ، فكان يأخذ بيدى المهاجرى والأنصارى ويقول : (تآخيا فى الله أخوين) . قال ابن هشام : آخى رسول الله بين المهاجرى والأنصارى فقال : (تآخوا فى الله أخوين) .

وهكذا تنازل الأنصار الأغنياء — بوازع من دينهم وضميرهم وحبهم ووطنهم — لإخوانهم المهاجرين الفقراء عن نصف ما يملكون من ثروة وعقار وأرض دون تردد أو إبطاء .

وجدت مشكلة أخرى ، فقد كان الأنصار أصحاب زراعة بينما المهاجرون أهل تجارة لا عهد لهم بسواها من الحرف ، فماذا يفعلون بالأرض التى أصابتهم ؟

هنا تجلت عظمة إيمان الأنصار وجلال أخلاقهم وإيثارهم على أنفسهم ، فقد أصروا على أن يزرعوا أرضهم وأرض المهاجرين بأنفسهم ويقسموا محصولها مناصفة فيما بينهم ، ويكفوهم العمل والمؤونة تعاونا منهم فى بناء الأمة والمجتمع .

ومع ذلك فقد عمل كثير من المهاجرين فى الزراعة ، كأبى بكر وعلىّ وسواهم . وعمل آخرون فى التجارة ونجحوا فيها ، كعبد الرحمن بن عوف الذى عرض أخوه الأنصارى سعد بن الربيع أن يشاطره ماله ، فأبى وطلب إليه أن يدله على السوق .. فتاجر وربح . ولما توفى وترك ثروة واسعة ، قال أناس من أصحاب رسول الله :

---

(١) يقول هيكل فى « حياة محمد » ص ٢٢٧ : قررت هذه المعاهدة مع اليهود فى يثرب لهم حرية العقيدة والرأى والمال ، وهى فتح فى الحياة السياسية والمدنية فى عالم يومئذ .

إنا نخاف على عبد الرحمن فيما ترك . فقال كعب : سبحان الله : ولم تخافون عليه ؟ كسب طيبا وأنفق طيبا وترك طيبا .

ولم يكن هذا هو العلاج الوحيد الذى عالج به الرسول الكريم مشكلة الفقر فى المدينة ، بل خص المهاجرين ببعض الغنائم كأموال بنى النضير ، فلم يعط الأنصار منها شيئا إلا ثلاثة نفر محتاجين ، وقال لهم : إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم فى هذه الغنيمة ، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شىء من الغنيمة . فقال الأنصار : بل نقسم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها ..

وهكذا كانت يد الأنصار جليلة على المهاجرين حتى قالوا فيهم : ما رأينا مثل أنصار المدينة ، لقد أحسنوا مواساتنا وبذلوا الكثير وأشركونا فى المهنة حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله .

الأذان :

١ ــ اطمأن رسول الله بالمدينة واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين واجتمع أمر الأنصار ، وبذلك استحكم أمر الإسلام ، فشرعت الصلاة وفرضت الزكاة والصيام وقامت الحدود وفرض الحلال والحرام ، وتبوأ الإسلام بين أظهرهم ، وكان الأنصار هم الذين تبوءوا الدار والإيمان .

٢ ــ وكان الناس يجتمعون إلى رسول الله للصلاة فى مواقيتها بغير دعوة .

وهمّ رسول الله حين قدم المدينة أن يتخذ بوقا كبوق اليهود ، ولكن كره ذلك . ثم فكر فى اتخاذ الناقوس كالنصارى ، لكنه عدل عن ذلك .

وأخذ رسول الله يشاور صحابته فى ذلك .

فجاءه عبد الله بن زيد الخزرجى يقول : إنه رأى فى نومه النداء للصلاة ــ أى الأذان ــ قال : يا رسول الله طاف بى هذه الليلة طائف ، مر بى رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوسا فى يده ، فقلت له : يا عبد الله أتبيع هذا الناقوس ؟ قال : وما تصنع به ؟ قلت : ندعو به إلى الصلاة . قال : أفلا أدلك على خير من ذلك ؟

قلت : وما هو ؟

قال : تقول :

الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر .
أشهد أن لا إلٰه إلا الله ، أشهد أن لا إلٰه الله .
أشهد أن محمدا رسول الله ، أشهد أن محمدا رسول الله .
حى على الصلاة ، حى على الصلاة .
حى على الفلاح ، حى على الفلاح .
الله أكبر ، الله أكبر .
لا إلٰه إلا الله .

فقال ﷺ لعبد الله بن زيد : ﴿ إنها لرؤيا حق إن شاء الله ، فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها ، فإنه أندى صوتا منك) .

فلما سمع عمر الأذان وهو فى بيته ، خرج إلى رسول الله يجر رداءه وهو يقول : يا نبى الله ، والذى بعثك بالحق ، لقد رأيت مثل الذى رأى .

فقال له رسول الله : (فلله الحمد) .

وقيل : رأى عمر فى المنام أن لا تجعلوا الناقوس ، بل أذنوا للصلاة . فذهب إلى النبى ليخبره بالذى رأى وقد جاء النبى الوحى بالأذان . فما راع عمر إلا بلال[1] يؤذن ، فقال رسول الله لعمر حين أخبره بذلك : (قد سبقك بذلك الوحى) .

وجاء بعض أحبار اليهود إلى رسول الله وقالوا له : كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزيرا ابن الله ؟ فنزل قوله تعالى : ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله ﴾ . (٣١ التوبة) .

٣ — فلما اطمأنت برسول الله داره ، وأظهر الله بها دينه ، سره بما جمع إليه من المهاجرين والأنصار من المؤمنين بالإسلام ، قال أبو قيس بن قيس صرمة بن أبى أنس الأنصارى[2] من قصيدة له :

سبحـــوا الله شرق كل صبـــاح ... طلـــــعت شمسه وكل هلال
عالم السر والبيـــان لدينـــا ... ليس ما قال ربنـــا بضلال

---

(١) عاش بضعا وستين سنة ، توفى عام ٢٠ هـ أو ٢١ هـ (راجع ١ : ٢٥١ — ٢٥٩ سير أعلام النبلاء للذهبى) .

(٢) كان ممن ترهب فى الجاهلية وفارق الأوثان ، ودخل بيتا فاتخذه مسجدا وقال : أعبد رب إبراهيم حين فارق الأوثان وكرهها . فلما قدم رسول الله المدينة أسلم وهو شيخ كبير ، وكان شعره فى توحيد الله وتعظيمه فى الجاهلية ، وفى الحكمة .. وهو من بنى النجار .

وقال كذلك أيضا يحدث عن رسول الله وعن الأنصار :

ثوى فى قريش يضع عشرة حجة	يذكر لو يلقى صديقا مواتيا
ويعرض فى أهل المواسم نفسه	فلم ير من يؤوى ، ولم ير داعيا
فلما أتانا أظهر الله دينه	فأصبح مسرورا بطيبة راضيا
وألفى صديقا واطمأنت به النوى	وكان لنا عونا من الله باديا
يقص لنا ما قال نوح لقومه	وما قال موسى إذ أجاب المناديا

٤ — وحولت القبلة فى شعبان من السنة الثانية من هجرة رسول الله ﷺ .

٥ — وكان عبد الله بن الزبير أول مولود فى الإسلام بعد الهجرة ، وميلاده فى العام الأول من هجرة رسول الله .

اليهود يظهرون العداوة للإسلام :

١ — رأت اليهود ما أصاب الإسلام فى المدينة من تمكين ، فنصبوا هم وأحبارهم لرسول الله العداوة بغيا وحسدا .

ومال إليهم فى عداوتهم للإسلام رجال من الأوس والخزرج كانوا قد ظلوا على جاهليتهم وشركهم ، وأظهروا للإسلام نفاقا وعصمة لأنفسهم .

وأخذ أحبار اليهود يسألون فى تعجيز رسول الله ويتعنتونه ، ويأتونه باللبس ليلبسوا بين الحق والباطل .

فمنهم حيى بن أخطب ، وسلام بن مشكم ، وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق ، وسلام بن أبى الحقيق ، وسلام بن الربيع ، والربيع بن الربيع بن أبى الحقيق ، وكعب بن الأشرف ، وعبد الله بن صورى الأعور الذى لم يكن بالحجاز أحد أعلم بالتوراة منه ، ورفاعة بن قيس ، ورافع بن أبى رافع ، ورافع بن خارجة ، وعبد الله بن سلام وكان حبرهم وأعلمهم ووهب بن يهوذا ، ولبيد بن أعصم .. وسواهم من الأحبار وأهل الشر والعداوة لرسول الله وأصحابه والعداوة للإسلام والعمل لإطفاء نوره .

٢ — وقد كان عبد الله بن سلام(١) يقاوم ما يصنعه اليهود أهل ملته ، وكان حبرا عالما قال : لما سمعت برسول الله عرفت صفته واسمه وزمانه الذى كنا نترقب له ، فكنت مسرا لذلك حتى قدم رسول الله المدينة .

فلما نزل رسول الله بقباء ، أقبل رجل حتى أخبر بقدومه .

---

(١) راجع فضائل عبد الله بن سلام فى مسلم ٢ : ٢١٠ مختصر صحيح مسلم للمنذرى .

قال ابن سلام : وأنا فى رأس نخلة لى أعمل فيها عمتى خالدة تحتى جالسة ، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله كبرت .

فقالت لى عمتى حين سمعت تكبيرى : خيبك الله ، والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادما مازدت .

فقلت لها : أى عمة ، هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه ، بعث بما بعث به .

فقالت : أهو النبى الذى كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة ؟

فقلت لها : نعم .

فقالت : فذاك إذًا .

ثم خرجت إلى رسول الله فأسلمت ، ورجعت إلى أهل بيتى فأمرتهم فأسلموا ، وكتمت إسلامى من يهود .

ثم جئت رسول الله فقلت : يا رسول الله أحب أن تدخلنى فى بعض بيوتك وتغيبنى عن يهود ، ثم تسألهم عنى حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا إسلامى ، فإنهم إن علموا به عابونى .

فأدخلنى رسول الله فى بعض بيوته ، ودخلوا عليه فكلموه وسألوه ، ثم قال لهم : أى رجل ابن سلام فيكم ؟

قالوا : سيدنا وابن سيدنا ، وحبرنا وعالمنا .

فخرجت عليهم فقلت لهم : يا معشر يهود ، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به . فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة باسمه وصفته ، فإنى أشهد أنه رسول الله وأومن به وأصدقه وأعرفه .

فقالوا : كذبت . ثم وقعوا بى .

وأظهرت إسلامى وإسلام أهل بيتى ، وأسلمت عمتى خالدة فحسن إسلامها .

وقالت الأحبار : ما آمن بمحمد ولا اتبعه إلا شرارنا ، ولو كانوا من أخيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره . وقد عاش ابن سلام حتى مات عام ٤٣ هـ[1]

٣ — وأما مخيريق فكان حبرا عالما ، وكان رجلا غنيا كثير الأموال من النخل . وكان يعرف رسول الله بصفته وغلب عليه ألف دينه ، فلم يزل ذلك حتى كان يوم أحد ، وكان يوم أحد يوم السبت .

---

(١) ٢ : ٢٩٦ — ٣٠٥ سير أعلام النبلاء .

فقال : يا معشر يهود ، والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق . وأخذ سلاحه وقاتل حتى قتل .

وحدثت صفية بنت حيى بن أخطب قالت :

لما قدم رسول الله المدينة ونزل بقباء ، غدا عليه أبى حيى وعمى أبو ياسر فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس ، فأتيا مكدودين كسلانين يمشيان الهوينى . فوالله ما التفت إلى واحد منهما مع ما بهما من الغم ، وسمعت عمى وهو يقول لأبى : أهو هو ؟ قال : نعم . قال : أتعرفه وتثبته ؟ قال : نعم . قال : فما بقى فى نفسك منه ؟ قال : عداوته فوالله ما بقيت .

٤ — وكان ممن دخل فى الإسلام مع المسلمين وأظهر الدين وهو منافق من أحبار اليهود : سعد بن حنيف ، ونعمان بن أوفى ، وأخوه عثمان ، وزيد بن اللصيت .

وزيد هذا هو الذى قاتل عمر بسوق بنى قينقاع ، وهو الذى قال حين ضلت ناقة رسول الله : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء وهو لا يدرى أين ناقته ؟ فقال رسول الله وجاءه الخبر بما قال عدو الله فى رحله ، ودل الله رسول الله ﷺ على ناقته .

(إن قائلا قال : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء ولا يدرى أين ناقته ؟ وإنى والله ما أعلم إلا ما علمنى الله . وقد دلنى الله عليها فهى فى هذا الشعب[1] قد حبستها شجرة بزمامها) . فذهب رجال من المسلمين فوجدوها حيث قال رسول الله وكما وصف .

وكان من هؤلاء كذلك : رافع بن حريملة ، ورفاعة بن زيد ، وقد أهلكهما الله عز وجل . وقال رافع بن حريملة ووهب بن زيد : يا محمد ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه . وقال رافع للرسول : يا محمد ، إن كنت رسولا من الله فليكلمنا الله حتى نسمع كلامه عن الإسلام .

٥ — وكان من أحبار اليهود ممن ناصبوا رسول الله العداء: أبو ياسر بن أخطب وأخوه حيى بن أخطب ، وكانا من أشد اليهود للعرب حسدا إذ خصهم الله تعالى برسول الله ، وكانا جاهدين فى رد الناس .

مر أبو ياسر هذا برسول الله وهو يتلو فاتحة البقرة : ﴿ الٓمٓ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾ فأتى أخاه حيى بن أخطب فى رجال من اليهود فقال لهم : لقد سمعت محمدا يتلو فيما أنزل عليه ﴿ ألم ﴾ .

---

(١) هو الطريق فى الجبل .

فقالوا : أأنت سمعته ؟

قال : نعم .

فمشى حيى فى أولئك النفر من اليهود إلى الرسول فقالوا له : يا محمد ، ألم يذكر لنا أنك تتلو فيما أنزل إليك ﴿ ألم ذلك الكتاب ﴾ ؟

فقال رسول الله : بلى .

فقالوا : أجاءك بها جبريل من عند الله ؟

قال : نعم .

قالوا : لقد بعث الله قبلك أنبياء ما نعلمه بين النبى منهم ما مدة ملكه غيرك .

فقال حيى لمن معه : الألف واحد ، واللام ثلاثون ، والميم أربعون ، فهذه إحدى وسبعون . أفتدخلون فى دين إنما مدة ملكه إحدى وسبعون سنة ؟ — ثم أقبل على رسول الله فقال : يا محمد ، هل مع هذا غيره ؟

قال ﷺ : نعم .

قال : ماذا ؟

قال : ﴿ آلمص ﴾ .

قال : والله هذه أثقل وأطول ، إحدى وستون ومائة سنة . هل مع هذا يا محمد غيره ؟ قال : نعم ، ﴿ آلر ﴾ .

قال : هذه أثقل وأطول ، إحدى وثلاثون ومائتان . هل مع هذا غيره يا محمد ؟

قال : نعم ، ﴿ آلمر ﴾ .

قال : هذه أثقل وأطول ، إحدى وسبعون ومائتان .

ثم قال : لقد لبس علينا أمرك يا محمد ، حتى ما ندرى أقليلا أعطيت أم كثيرا ؟

ثم قاموا عنه فقال أبو ياسر لأخيه حيى : ما يدريكم ، لعله قد جمع هذا كله لمحمد .

فقالوا : لقد تشابه علينا أمره .

٦ — وكان اليهود يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به ، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه .

فقال لهم معاذ بن جبل : اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك ، وتخبروننا أنه مبعوث وتصفونه لنا بصفته .

فقال أحد اليهود : ما جاءنا بشىء نعرفه ، وما هو بالذى كنا نذكره لكم .

٧ — ولما قدم نصارى نجران على رسول الله أتتهم أحبار اليهود فتنازعوا عند رسول الله .

فقال رافع بن حريملة : ما أنتم على شيء . وكفر بعيسى وبالإنجيل .

وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود : ما أنتم على شيء . وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة . فأنزل الله تعالى (١١٣ سورة البقرة) :

﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء
وقالت النصارى ليست اليهود على شيء ﴾

وقالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلا يهوديا
وقالت النصارى من أهل نجران : ما كان إبراهيم إلا نصرانيا .

فأنزل الله تعالى : ﴿ ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ﴾ (الآية ٧١ من سورة آل عمران) .

وقال عبد الله بن صورى الأعور لرسول الله : ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبعنا يا محمد تهتد . وقالت النصارى مثل ذلك ، فأنزل الله تعالى (١٣٥ سورة البقرة) :

﴿ وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا
قل بل ملة إبراهيم حنيفا
وما كان من المشركين ﴾ .

وكان فى وفد نصارى نجران ستون راكبا فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم ، ومنهم رؤساؤهم : العاقب ، والسيد ، وأبو حارثة بن علقمة صاحب مدارسهم .. وكان أبو حارثة هذا مقدما عند ملوك الروم من أهل النصرانية لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده فى دينهم ، فقال رجل من الوفد وقد عثرت بغلة أبى حارثة : تعس الأبعد . يريد رسول الله . فقال له أبو حارثة : بل أنت تعست . قال : ولم يا أخى ؟ قال : والله إنه للنبى الذى كنا ننتظر . فقيل له : وما يمنعك منه وأنت تعلم هذا ؟ قال أبو حارثة : ما صنع بنا هؤلاء القوم شرفونا وأكرمونا وقد أبوا إلا خلافه ، فلو فعلت ـــ أى آمنت بمحمد ـــ نزعوا منا كل ما نرى .

فدخلوا عليه المسجد حين صلى رسول الله العصر ولهم منظر وروعة ، وحانت صلاتهم فقاموا فى مسجد رسول الله يصلون . فقال رسول الله : دعوهم فصلوا إلى المشرق . فأخذوا يجادلون رسول الله فى أمر المسيح وأمه ، فنزل فيهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها . فدعاهم رسول الله إلى الملاعنة ﴿ تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ (٦١ آل عمران) ، فنكصوا وقالوا : يا أبا القاسم قد رأينا ألا نلاعنك وأن نتركك

على دينك ونرجع على ديننا ، ولكن ابعث معنا رجلا من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا فى أشياء اختلفنا فيها من أموالنا ، فإنكم عندنا رضا . فقال رسول الله : ائتونى العشية أبعث معكم القوى الأمين . فبعث معهم أبا عبيدة .

٨ — ولما حولت القبلة من الشام إلى الكعبة فى شهر شعبان على رأس سبعة عشر شهرا من هجرة رسول الله إلى المدينة ، أتى رسول الله رفاعة بن قيس وكعب بن الأشرف ورافع بن أبى رافع والربيع بن الربيع وغيرهم .

فقالوا : يا محمد ، ما ولاك عن قبلتك التى كنت عليها ، وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه ؟ ارجع إلى قبلتك التى كنت عليها نتبعك ونصدقك .

فأنزل الله تعالى (١٤٢ سورة البقرة) :

﴿ سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ؟
قل لله المشرق والمغرب
يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ .

٩ — ودعا رسول الله اليهود من أهل الكتاب إلى الإسلام ، ورغبهم فيه وحذرهم عذاب الله ونقمته ، فقال له رافع بن خارجة : بل نتبع يا محمد ما وجدنا عليه آباءنا فهم كانوا أعلم وخيرا منا .

ولما أصاب رسول الله قريشا يوم بدر ، جمع رسول الله اليهود فى سوق بنى قينقاع فقال :

يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بمثل ما أصاب به قريشا .

فقالوا له : يا محمد لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرا من قريش كانوا أغمارا لا يعرفون القتال . إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس وأنك لم تلق مثلنا .

١٠ — ودخل رسول الله بيت المدراس(١) على جماعة من اليهود فدعاهم إلى الله .

فقال له النعمان بن عمرو والحارث بن زيد : وعلى أى دين أنت يا محمد ؟ قال : بل على ملة إبراهيم ودينه .

قالا : فإن إبراهيم كان يهوديا .

فقال لهما رسول الله : فهلم إلى التوراة فهى بيننا وبينكم .. فأبيا عليه .

واجتمع الأحبار من اليهود ، والنصارى من أهل نجران عند رسول الله فدعاهم إلى

---

(١) بيت عبادة اليهود .

الإسلام فقال أبو نافع القرظى : أتريد منا يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم ؟ وقال رجل من أهل نجران نصرانى : أو ذاك تريد منا يا محمد وإليه تدعونا ؟ فقال رسول الله : معاذ الله أن أعبد غير الله أو آمر بعبادة غيره ، فما بذلك بعثنى الله ولا أمرنى . فأنزل الله تعالى قوله ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ﴾ (٧٩ من سورة آل عمران) والربانيون : العلماء الفقهاء السادة .

١١ — ومر شاس بن قيس — وكان شيخا عظيم الكفر شديد الحسد للمسلمين — على نفر من أصحاب رسول الله من الأوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم على الإسلام بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية ، فقال :

قد اجتمع ملأ بنى قيلة[1] بهذه البلاد ، لا والله مالنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار . فأمر فتى شابا من اليهود كان معه فقال له : أعمد إليهم فاجلس معهم ثم اذكر يوم بعاث[2] وما كان قبله ، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار . ففعل الشاب ذلك .

فتنازع القوم وتفاخروا ، وغضب الفريقان جميعا ورددوا : السلاح السلاح ! فبلغ ذلك رسول الله فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين وقال :

(يا معشر المسلمين اللهَ اللهَ ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألّف به بين قلوبكم) ؟

فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم .. فبكوا وعانق بعضهم بعضا ، ثم انصرفوا مع رسول الله سامعين مطيعين . وأنزل الله تعالى على رسوله الكريم (١٠٠ سورة آل عمران) :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ﴾ .

---

(١) الملأ : الجماعة من الناس . قيلة : أم الأنصار .

(٢) كان بين الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس ، وكان زعيم الأوس حضير الأشهلى وزعيم الخزرج عمر بن النعمان البياضى ، فقتلا جميعا .

١٢ — ودخل أبو بكر بيت المدراس على اليهود فوجدوا منهم ناسا كثيرا قد اجتمعوا إلى رجل من علمائهم هو فنحاص ، فقال له : ويحك يا فنحاص ! اتق الله وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمدا لرسول الله قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة والإنجيل . فرد عليه فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا الفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء وما هو عنا بغنى ، ولو كان عنا غنيا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم .. ينهاكم عن الربا ويعطيناه ، ولو كان عنا غنيا ما أعطانا الربا .

فغضب أبو بكر وضرب وجه فنحاص ضربا شديدا وقال له : والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينك لضربت رأسك أى عدو الله . فشكا فنحاص إلى رسول الله وقال : يا محمد ، انظر ما صنع بى صاحبك ؟

فقال رسول الله لأبى بكر : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله إن عدو الله قال قولا عظيما . إنه زعم أن الله فقير إليهم وأنهم عنه أغنياء . فجحد ذلك اليهودى فأنزل الله ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾ (١٨١ آل عمران) .

١٣ — وكلم رسول الله رؤساء من أحبارهم ، ومنهم عبد الله بن صورى الأعور وكعب بن أسد ، فقال لهم :

(يا معشر يهود ، اتقوا الله وأسلموا فوالله إنكم لتعلمون أن الذى جئتكم به لحق) .

قالوا : ما نعرف ذلك يا محمد . فجحدوا ما عرفوا وأصروا على الكفر ، فأنزل الله تعالى فيهم (٤٧ النساء) :

﴿ يا أيها الذين أتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا ﴾ .

وقال أحبار من اليهود لقريش حين سألوهم : أديننا خير أم دين محمد ؟

بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أهدى منه وممن اتبعه . فأنزل الله تعالى فيهم ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت[١] والطاغوت ﴾ (٥١ النساء)

ودخل جماعة منهم على رسول الله فقال لهم : (أما والله إنكم لتعلمون أنى رسول الله

---

(١) الجبت : ما عُبد من دون الله . والطاغوت : كل ما أضل عن الحق .

إليكم من الله ؟) قالوا : ما نعلمه وما نشهد عليه . فنزل قوله تعالى ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا ﴾ .

١٤ — وبلغ بهم الأمر أن حاولوا قتل الرسول لما خرج إلى بنى النضير يستعينهم فى دية العامريين الذين قتلهما عمرو بن أمية ، فقال بعضهم لبعض : لن تجدوا محمداً أقرب منه الآن . فمن يظهر على هذا البيت فيرميه بصخرة فيريحنا منه . فقال رجل منهم : أنا . فنزل الوحى على الرسول بالأمر ، فانصرف عنهم فنزل قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم ﴾ (١١ المائدة) .

وكانوا يقولون كقول النصارى : نحن أبناء الله وأحباؤه ، فنزل قوله تعالى :

﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم ﴾ ؟

ودعاهم رسول الله إلى الإسلام ورغبهم فيه وحذرهم ، فأبوا وكفروا بما جاءهم به . فقال لهم معاذ بن جبل وسعد بن عبادة : يا معشر يهود اتقوا الله ، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه لنا بصفته . فقال رافع بن حريملة : ما قلنا لكم هذا ، وما أنزل الله من كتاب بعد موسى ولا أرسل بشيرا ولا نذيرا بعده . فنزل قوله تعالى ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير ﴾ ١٩ المائدة .

١٥ — واجتمع أحبار لهم فى بيت المدراس بعد الهجرة ، وقد زنى رجل منهم بعد إحصانه بامرأة من اليهود محصنة ، فقالوا : ابعثوا بها إلى محمد فسلوه كيف الحكم فيها وولوه الحكم عليها .

فأتوه فقالوا : يا محمد ، هذا رجل قد زنى بعد إحصانه بامرأة قد أحصنت ، فاحكم فيهما فقد وليناك الحكم .

فمشى رسول الله حتى أتى أحبارهم ، فقال : (يا معشر يهود ، أخرجوا إلىّ علماءكم) ففعلوا ، فقال لعبد الله بن صورى :

(يا ابن صورى أنشدك الله وأذكرك بأيامه عند بنى إسرائيل ، هل تعلم أن الله حكم فيمن زنى بعد إحصانه بالرجم فى التوراة) ؟ قال : اللهم نعم . أما والله يا أبا القاسم إنهم ليعرفون أنك لنبى مرسل ، ولكنهم يحسدونك . فأمر رسول الله بهما فرجما عند باب مسجده . ثم كفر بعد ذلك ابن صورى وجحد نبوة رسول الله .

وقال عبد الله بن سلام : هذه يا نبى الله آية الرجم فى التوراة ، ولكنهم يخفونها . فقال لهم رسول الله :

(ويحكم يا معشر يهود ! مادعاكم إلى ترك حكم الله وهو بأيديكم) ؟

قالوا : قد كان فينا يعمل به حتى زنى رجل منا — بعد إحصانه — من بيوت الملوك وأهل الشرف فمنعه الملك من الرجم ، ثم زنى رجل بعده فأراد أن يرجمه فقالوا : لا والله ، حتى ترجم فلانا . فأماتوا ذكر الرجم والعمل به . فقال رسول الله :

(فأنا أول من أحيا أمر الله وكتابه وعمل به)[1] .

١٦ — وقال بعض أحبارهم لبعض : اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه ، فإنما هو بشر . فأتوه فقالوا له : يا محمد ، إنك قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم ، وأنا إن اتبعناك اتبعتك يهود ولم يخالفونا ، وأن بيننا وبين بعض قومنا خصومة ، أفنحاكمهم إليك فتقضى لنا عليهم ونؤمن بك ونصدقك ؟ فأبى ذلك رسول الله فأنزل الله فيهم ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم ﴾ (٤٩ المائدة) .

وأتى رسول الله بعض أحبارهم فقالوا : يا محمد ، أما تعلم مع الله إلٰها غيره ؟ فقال رسول الله : (الله لا إلٰه إلا هو ، بذلك بعثت وإلى ذلك أدعو) فأنزل الله تعالى :

﴿ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إلٰه واحد ﴾ (١٩ الأنعام) .

١٧ — وكان رجال منهم قد أظهروا الإسلام ونافقوا : كرفاعة بن زيد وسويد بن الحارث ، وكان رجال من المسلمين يوادونهما فأنزل الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا ﴾ (٥٧ المائدة) .

وكان هؤلاء المنافقون يحضرون المسجد فيسمعون أحاديث المسلمين ويسخرون منهم ويستهزئون بدينهم ، فاجتمع فى المسجد يوما ناس منهم فأمر بهم رسول الله فأخرجوا من المسجد إخراجا عنيفا ، وأنزل الله فيهم صدر سورة البقرة إلى الآية المائة منها .

وقال بعض منافقيهم : لئن كان هذا الرجل صادقا لنحن شر من الحمر ، فرفع ذلك لرسول الله فأنكر الذى قال ذلك ، فنزل قوله تعالى :

---

(١) ويقال : إن أول من رجم فى الزنا ربيعة بن حذار الأسدى (ص ٥٥ الأوائل لأبى هلال) .

﴿ يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم ﴾ (٧٤ التوبة) .

١٨ — وقال بعض أحبارهم لرسول الله : أحق يا محمد بأن هذا الذى جئت به الحق من عند الله ؟ فإنا لا نراه متسقا كما تتسق التوراة ؟

فقال لهم رسول الله :

(أما والله إنكم لتعرفون أنه من عند الله تجدونه مكتوبا عندكم ، ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما جاءوا به) .

فقالوا : يا محمد ، أما يعلمك هذا إنس ولا جن !

فقال لهم رسول الله :

(أما والله إنكم لتعلمون أنه من عند الله ، وإنى لرسول الله تجدون ذلك مكتوبا فى التوراة) .

فقالوا : يا محمد ، فإن الله يصنع لرسوله إذا بعثه ما يشاء ، فأنزل علينا كتابا من السماء نقرؤه ونعرفه ، وإلا جئناك بمثل ما تأتى به . فنزل ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ (٨٨ الإسراء) .

١٩ — ولما قدم رسول الله المدينة كان سيد أهلها عبد الله بن أبى بن سلول لا يختلف عليه فى شرفه اثنان ، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين غيره ، حتى جاء الإسلام ومعه فى الأوس رجل هو فى قومه شريف مطاع وهو أبو عامر عبد عمرو بن صيفى ، وكان قد ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح فكان يقال له : الراهب .

فشقيا بشرفهما وحسدهما لرسول الله .

فأما ابن أبىّ فكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم ، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام حقد ورأى أن رسول الله قد سلبه ملكا ، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارها على نفاق وحقد .

وأما أبو عامر الأوسى فأبى إلا الكفر والفراق لقومه ، فخرج من المدينة إلى مكة فى خمسين رجلا ، وقيل فى بضعة عشر رجلا ، مفارقا للإسلام ولرسول الله . فقال رسول الله : (لا تقولوا الراهب ، ولكن قولوا الفاسق) . وكان أبو عامر وهو فى المدينة أتى رسول الله فقال : ما هذا الدين الذى جئت به ؟ قال له رسول الله :

(جئت بالحنيفية دين إبراهيم) . قال : فأنا عليها . قال له رسول الله : إنك لست عليها . قال : بلى ، إنك أدخلت يا محمد فى الحنيفية ما ليس منها . قال : ما فعلت ، ولكنى جئت بها بيضاء نقية .

وأقام أبو عامر فى مكة ، فلما افتتحها رسول الله خرج إلى الطائف ، فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام فمات بها طريدا غريبا وحيدا . وسوف يأتى أنه كان أول المحاربين لرسول الله فى أحد .

وكان قد خرج معه علقمة بن علانة ، وكنانة بن عبد ياليل . فلما مات أبو عامر اختصما فى ميراثه إلى قيصر صاحب الروم ، فقال قيصر : يرث أهل المدر — البادية — المدر ، ويرث أهل الوبر — الحاضرة — أهل الوبر . فورثه كنانة دون علقمة .

٢٠ — وركب رسول الله إلى سعد بن عبادة يعوده ، وأردف أسامة بن زيد خلفه . فمر رسول الله بابن أبىّ وهو فى ظل أطمه — حصنه — وحوله رجال من قومه .

فلما رآه رسول الله نزل فسلم ، فجلس قليلا وتلا القرآن ودعا إلى الله وذكر به وحذر وبشر وأنذر ، حتى إذا فرغ رسول الله قال ابن أبىّ :

يا هذا إنه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقا ، فاجلس فى بيتك فمن جاءك له فحدثه إياه ، ومن لم يأتك فلا تأته فى مجلسه بما يكره منه . فقال عبد الله بن رواحة فى رجال كانوا عنده من المسلمين : بلى فاغشنا به وائتنا به فى مجالسنا ودورنا وبيوتنا ، فهو والله مما نحب ، ومما أكرمنا الله به وهدانا له .

وقام رسول الله فدخل على سعد وفى وجهه أثر ما قاله ابن أبىّ ، فقال سعد : والله يا رسول الله إنى لأرى فى وجهك شيئا ، لكأنك سمعت شيئا تكرهه . فقال : أجل . وأخبره بما قال ابن أبىّ فقال سعد : يا رسول الله ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك وإنا لننظم له الخرز لنتوجه ، وإنه ليرى أن قد سلبته ملكا .

٢١ — وقد كان اليهود من قبل عونا للمشركين فى مكة على رسول الله وأصحابه ، وهم الذين قالوا لوفد المشركين : سلوا محمدا عن ثلاثة إن أجابكم عنها فهو نبى ، وإلا فلا . وكان من هذه الثلاثة الأمور : الروح . وتقول التوراة عن الروح : فى البدء كانت الكلمة ، وكان روح الله يرف على وجه الماء .

ذكر من اعتل بالمدينة من أصحاب رسول الله :

١ — لما قدم رسول الله المدينة يوم الاثنين حين اشتد الضحاء وكادت الشمس تعتدل لثنتى عشرة ليلة مضت من ربيع الأول ، على رواية وهو يومئذ ابن ثلاث وخمسين سنة بعد أن بعثه الله عز وجل بثلاث عشرة سنة ، أقام بها حتى نهاية العام والمحرم من العام الثانى ، ثم خرج غازيا بعد ذلك فى صفر على رأس اثنى عشر شهرا من الهجرة.

٢ — ولما قدم ﷺ المدينة قدمها وهى أوبأ أرض الله من الحمى ، فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم وصرف الله تعالى ذلك عن نبيه .

ومرض أبو بكر ومن معه من الصحابة فيها ، وقال رسول الله عنهم : إنهم ليهذون وما يعقلون من شدة الحمى .

٣ — ودعا رسول الله ربه للمدينة أن يجعلها دار سلام وخير ، وقال :

(اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة أو أشد ، وبارك لنا فى مدها وصاعها ، وانقل وباءها إلى مهيعة)[١] .

ولقد جهد المسلمون قبل ذلك مرضا فى المدينة حتى ما كانوا يصلون إلا وهم قعود وصرف الله تعالى ذلك عن نبيه .

فلما دعا رسول الله للمدينة باركها الله وصارت أحب بقعة من بقاع الإسلام إلى قلب كل مسلم .

تحويل القبلة

وحولت القبلة فى شعبان على رأس ثمانية عشر شهرا من هجرة رسول الله ، فصارت إلى الكعبة والبيت الحرام ، بعد أن كانت إلى بيت المقدس وبذلك تمت كلمة الله وقوى أمر الدين .

دعوة رسول الله الملوك والأمراء إلى الإسلام[٢]

منذ ذى الحجة من عام ستة من الهجرة .

١ — بعث رسول الله ﷺ فى ذى الحجة عام ستة من الهجرة رسله إلى الملوك والأمراء يحملون رسائله إليهم يدعوهم فيها إلى الإسلام وذلك بعد الحديبية .

---

(١) هى الجحفة .

(٢) لم يتحدث ابن هشام عن رسائل رسول الله إلى الملوك والأمراء — وذكر الطبرى رسل رسول الله إلى الملوك والأمراء (٢٨٨ — ٢٩٧ : ٢ طبرى) .

وقيل : كانت بعثة الرسول لرسله فيما بين الحديبية ووفاته ﷺ .

٢ — فبعث حاطب بن أبى بلتعة فى وفد إلى المقوقس صاحب الإسكندرية ، وقد رد المقوقس على رسالة رسول الله ردا جميلا ، وبعث معه جارية اسمها مارية تزوجها رسول الله ، وجارية أخرى اسمها سيرين أهداها الرسول إلى حسان فتزوجها وولدت ابنه عبد الرحمن بن حسان[١] .

وبعث دحية الكلبى إلى قيصر وهو هرقل ملك الروم ، فأجاز قيصر دحية بمال وكساه كِسى جميلة ، فأقبل حتى إذا كان بحسمى لقيه ناس من جذام فقطعوا الطريق عليه[٢] ، فلم يتركوا معه شيئا .

وبعث رسول الله عبد الله بن حذافة السهمى إلى كسرى برسالة ، فمزقها كسرى وقال : يكتب إلىّ هذا وهو عبدى ؟ فدعا عليه رسول الله أن يمزق ملكه . وكتب كسرى إلى باذان واليه على اليمن بأن يبعث إلى الحجاز رجلين يأتيانه بمحمد ، فبعث باذان رجلين إلى المدينة ، فأخبرهما رسول الله بأن الله سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله[٣] .

وبعث رسول الله عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى ، فصدق رسالة رسول الله وبعث ابنه فى وفد من الحبشة فى سفينة ، غرقت بهم فى البحر[٤] .

وبعث شجاع بن وهب الأسدى إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى ملك دمشق ، وقيل بل إلى جبلة بن الأيهم الغسانى ، وقيل إنه توجه لهرقل مع دحية .

وبعث سليط بن عمرو العامرى من عامر بن لؤى إلى هوذة الحنفى صاحب اليمامة ، وإلى ثمامة بن أثال الحنفى وهو صاحب جانب من اليمامة .

وبعث العلاء بن الحضرمى[٥] إلى المنذر بن ساوى أخى بنى عبد القيس وصاحب البحرين .

---

(١) وقيل : بعث المقوقس بأربع جوار إلى رسول الله .

(٢) ٢ : ٢٨٦ الطبرى — وكان دحية من أجمل الصحابة الموجودين فى المدينة ، فلذا كان جبريل ربما نزل فى صورته (٢ : ٣٩٨ سير أعلام النبلاء) ، وكان كذلك جرير بن عبد الله أجمل الناس ، وتوفى عام ٥٤ هـ (٢ : ٣٨١ — ٣٨٤ سير أعلام النبلاء) .

(٣) كان ذلك فى ١٠ جمادى الأولى سنة سبع = ٦٢٩ م — راجع ٢٩٧ : ٢ الطبرى ، ٥ جـ ٢ سير أعلام النبلاء .

(٤) ٢٩٥ : ٢ البرى ، وراجع ١ : ٦٢ زاد المعاد .

(٥) من حضرموت ولاه رسول الله البحرين ، وظل عليها لأبى بكر وعمر ، وتوفى عام ٢١ هـ (١ : ١٩ سير أعلام النبلاء) .

وبعث عمرو بن العاص إلى صاحبى عمان ، وهما جيفر وعياذ الأزديين ابنا الجلندى ، فأسلما .

وبعث الحارث بن عمير إلى عامل هرقل على بصرى شرحبيل بن عمرو ، فقتل الحارث رسول رسول الله ، مما كان سببا فى غزوة مؤتة .

هذا وعبد الله بن حذافة السهمى رسول نبى الله إلى كسرى ، هو الذى أسره الروم فى معارك الشام فى عهد عمر وبالغوا فى تعذيبه ، وامتحنه قيصر امتحانا شديدا . فلما بعث عمر إلى قيصر يهدده طالبا إطلاق سراحه ، أطلقه وأطلق معه ثلاثمائة أسير ، وأجازه بثلاثين ألف دينار وثلاثين وصيفة وثلاثين وصيفا[1] .

وبعث رسول الله عياش بن أبى ربيعة المخزومى بكتاب إلى الحارث ومسروح ونعيم بنى عبد كلال[2] .

وقيل إنه بعث المهاجر بن أبى أمية المخزومى إلى الحارث بن عبد كلال الحميرى ملك اليمن .

وبعث مسعود بن سعد إلى فروة الجذامى عامل قيصر على معان ، فأسلم وكتب إلى رسول الله بإسلامه ، وبعث إليه بهدية وهى بغلة شهباء وفرس وحمار وقباء سندس مخوص بالذهب وأثواب .

وقيل : إنه ﷺ بعث عمرو بن أمية الضمرى إلى مسيلمة الكذاب .

٣ — رسالة رسول الله إلى النجاشى :[3]

بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى الأصحم ملك الحبشة فى شأن جعفر بن أبى طالب وأصحابه ، وكتب معه كتابا هذا نصه :

بسم الله الرحمٰن الرحيم . (من محمد رسول الله إلى النجاشى ملك الحبشة : سلم[4] أنت ، فإنى أحمد الله إليك الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه .. وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته . وإن تتبعى وتؤمن بالذى جاءنى فإنى رسول الله ، وقد بعثت إليك ابن عمى جعفرا ونفرا معه من المسلمين ، فإذا جاءوك فأقرهم ودع التجبر ، والسلام على من اتبع الهدى ...) .

---

(١) راجع ٢ : ٨ سير أعلام النبلاء — وراجع ١ : ٦٢ زاد المعاد فى شأن رسائل رسول الله .

(٢) ١ : ٦٣ زاد المعاد . (٣) ٢ : ٢٩٤ الطبرى . (٣) المعنى : سلام .

وبلاغة رسول الله ﷺ مضرب الأمثال فى روعتها وعظمتها وسمو منزعها وصدق حكمتها ، وهى تلى بلاغة القرآن الكريم فى سمو المنزلة ورفعة الشأن ، وقد كان ﷺ لا ينطق عن الهوى ، ومن ثم جاءت بلاغته إلى الخير والحق وتقريرا لشريعة القرآن وآدابه ومثله .

وفى هذه الرسالة النبوية البليغة المعجزة التى بعث بها صلوات الله عليه إلى ملك الحبشة ، تتجلى الحكمة الرائعة والمعانى السامية والأسلوب المشرق والإيجاز المحكم .

بدأ رسول الله صلوات الله عليه بهذا التعبير الرائع « سلم » أى سلام ، ثم حمد الله وأثنى عليه ، ونوه بعيسى ووصفه بما وصفه به القرآن الكريم ، وقد كانت الحبشة تدين بدين عيسى عليه السلام .

ثم دعا ملك الحبشة وقومه إلى الإسلام ، وإلى إكرام ضيوفه ، ونصحهم ثم ختم الرسالة بقوله صلوات الله عليه : والسلام على من اتبع الهدى .

٤ — وكتب ﷺ إلى هرقل ملك الروم :

(من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين[1] ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾[2] .

وقال أبو سفيان[3] بن حرب :

كنا قوما تجارا ، وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله ﷺ قد حصرتنا حتى نهكت أموالنا ، فلما كانت الهدنة — هدنة الحديبية — بيننا وبين رسول الله ﷺ ، خرجت فى نفر من قريش إلى الشام ، وكان وجه متجرنا منه غزة ، فقدمناها حين ظهر هرقل على من كان بأرضه من الفرس فأخرجهم منها وانتزع منهم صليبه الأعظم ، وكانوا قد استلبوه إياه .

---

(١) الأريسيون : الفلاحون والعمال لأنهم تبع لساداتهم وكبرائهم .

(٢) ٢٦١ : ٢ الطبرى .

(٣) هو صخر بن حرب من سادات قريش فى الجاهلية ، كان من رؤساء المشركين يوم الأحزاب ويوم أحد ، وأسلم يوم فتح مكة سنة ٨ هـ ، وتوفى سنة ٣١ هـ .

فلما بلغه ذلك منهم وبلغه أن صليبه قد استنقذ منهم ، وكانت حمص منزله ، خرج منها يمشى على قدميه شكرا لله حين رد عليه ما رد ، ليصلى فى بيت المقدس ، تبسط له البسط وتلقى عليه الرياحين .

فلما انتهى إلى إيلياء فقضى فيها صلاته وكان معه بطارقته وأشراف الروم ، أصبح ذات غدوة مهموما يقلب طرفه إلى السماء ، فقال له بطارقته : والله لكأنك أصبحت الغداة مهموما .

فقال : أجل .. رأيت البارحة أن ملك الختان ظاهر . فقالوا : أيها الملك ما نعلم أمة تختتن إلا اليهود وهم فى سلطانك وتحت يدك ، فابعث إلى كل من لك عليه سلطان فى بلادك فمره فليضرب أعناق من تحت يدك منهم من يهود ، واسترح من هذا الهم .

فوالله إنهم لفى ذلك من رأيهم يدبرونه ، إذ أتاه رسول صاحب بصرى[1] برجل من العرب يقوده ، وكانت الملوك تتهادى الأخبار بينهم فقال : أيها الملك إن هذا رجل من العرب من أهل الشاة والإبل يحدث عن أمر حدث فاسأله .

فلما انتهى به إلى هرقل رسول صاحب بصرى ، قال هرقل لمن جاء به : سله عن هذا الحديث الذى كان ببلده . فسأله فقال : خرج بين أظهرنا رجل يزعم أنه نبى ، وقد اتبعه ناس فصدقوه وخالفه آخرون ، وقد كانت بينهم ملاحم فى مواطن كثيرة ، وتركتهم على ذلك .

فلما أخبره الخبر قال : جردوه . فإذا هو مختون ، فقال : هذا والله النبى الذى رأيت لا ما تقولون ، أعطوه ثيابه وينطلق . ثم دعا صاحب شرطته فقال له : اقلب الشام ظهرا لبطن حتى تأتينى برجل من قوم هذا الرجل .

فإنا لبغزة إذ هجم علينا صاحب شرطته فقال : أنتم من قوم الحجاز ؟ قلنا : نعم . قال : انطلقوا إلى الملك . فانطلقوا بنا .. فلما انتهينا إليه قال : أنتم من رهط هذا الرجل الذى بالحجاز ؟ قلنا : نعم . فأيكم أمس به رحما ؟ قال أبو سفيان : قلت أنا . قال : ادن . ثم أقعدنى بين يديه وأقعد أصحابى خلفى وقال لهم : إنى سأسأله ، فإن كذب فردوا عليه .

قال : فوالله لقد علمت أن لو كذبت ماردوا علىّ ، ولكنى كنت أمرأ سيدا أتبرم عن الكذب ، وعرفت أن أيسر ما فى ذلك إن أنا كذبته أن يحفظوه على ، ثم يحدثوا به عنى فلم أكذبه .

---

(١) بلد من أعمال دمشق .

قال : أخبرنى عن هذا الرجل الذى خرج بين أظهركم ما يدعى ؟ فجعلت أزهد له شأنه وأصغر له أموره ، وأقول له : أيها الملك ما يهمك من شأنه ؟ إن أمره دون ما بلغك . فجعل لا يلتفت إلى ذلك منى ثم قال : أنبئنى فيما أسألك عنه من شأنه . قال : قلت سل عما بدا لك .

قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : محض ، هو أوسطنا(١) نسبا . قال : أخبرنى هل كان أحد من أهل بيته يقول ما يقول فهو يتشبه به ؟ قلت : لا . قال : هل كان له فيكم ملك فسلبتموه إياه ، فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه ؟ قلت : لا . قال : أخبرنى عن أتباعه منكم من هم ؟ قلت : الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء ، فأما ذوو الأسنان من الأشراف من قومه فلم يتبعه منهم أحد . قال : فأخبرنى عمن يتبعه أيحبه ويلزمه ، أم يقليه ويفارقه ؟ قلت : قلما يتبعه أحد فيفارقه . قال : أخبرنى كيف الحرب بينكم وبينه ؟ قلت : سجال ، يدال علينا وندال عليه .

قال : فأخبرنى هل يغدر ؟ فلم أجد شيئا اغتمز فيه غيرها وقلت : لا ، ونحن منه فى مدة(٢) ولا نأمن من غدره . قال : فوالله ما التفت إليها منى .

ثم كرر على الحديث فقال : سألتك عن نسبه فيكم ، فزعمت أنه محض من أوسطكم نسبا ، فكذلك يأخذ الله النبى لا يأخذه إلا من أوسط قومه نسبا . وسألتك هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل قوله فهو يتشبه به ، فزعمت أن لا . وسألتك هل كان له ملك فيكم فسلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث يطلب ملكه ، فزعمت أن لا . وسألتك عن أتباعه فزعمت أنهم الضعفاء والأحداث والمساكين والنساء ، وكذلك أتباع الأنبياء فى كل زمان . وسألتك عمن يتبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه ، فزعمت أنه لا يتبعه أحد فيفارقه ، فكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلب رجل فتخرج منه . وسألتك عن الحرب بينكم وبينه ، فزعمت أنها سجال تدالون عليه ويدال عليكم ، وكذلك حرب الأنبياء لهم تكون العاقبة . وسألتك هل يغدر فزعمت أن لا . فلئن كنت صدقتنى عنه فليغلبن على ما تحت قدمى هاتين ، ولوددت أنى عنده فأغسل قدميه . انطلق لشأنك .

فقمت من عنده وأنا أضرب بإحدى يدى على الأخرى وأقول : يا لعباد الله !

---

(١) أى أخيرنا وأفضلنا نسبا .

(٢) فى مدة : يعنى بها مدة صلح الحديبية .

لقد أمر[1] أمر ابن أبى كبشة[2] . أصبحت ملوك بنى الأصفر[3] يهابونه فى ملكهم وسلطانهم .

٥ — رسالة الرسول إلى المقوقس[4] .

(بسم الله الرحمٰن الرحيم . من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد :

فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فعليك إثم كل القبط ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون .. ﴾ محمد رسول الله .

٦ — وكتب فى صلح الحديبية بينه وبين قريش :[5]

(باسمك اللهم ، هذا ما صلح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض ، على أن من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه . وأن بيننا عيبة مكفوفة[6] ، وأنه لا إسلال ولا إغلال[7] ، وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهده دخل فيه ، وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة ، فإذا كان عام

---

(١) أمر : عظم .

(٢) أبو كبشة : رجل من خزاعة خالف قريشا فى عبادة الأوثان وعبد الشعرى العبور ، فسمى المشركون النبى ﷺ ابن أبى كبشة لخلافه إياهم إلى عبادة الله تعالى ، تشبيها له بأبى كبشة الذى خالفهم إلى عبادة الشعرى . وقيل هو كنية الحارث بن عبد العزى أبو الرسول رضاعا كانوا ينسبونه إليه استهزاء بالرسول .

(٣) بنو الأصفر : لقب ملوك الروم .

(٤) أورد الطبرى والقلقشندى نصا آخر لهذا الكتاب بمخالفة يسيرة فى بعض الألفاظ كقوله : (فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين) .

(٥) الحديبية : قرية صغيرة بينها وبين مكة مرحلة ، فنزل بها النبى عليه السلام سنة ست للهجرة قاصدا مكة لزيارة الكعبة معتمرا ، فأرادت قريش منعه من الدخول مخافة العار .. وبعد تراسل بينهما تصالحا على ما فى هذه الصحيفة .

(٦) العيبة : موضع السر أو الخريطة للملابس والمراد الأمن .

(٧) الإسلال : السرقة الخفية والرشوة . والإغلال : الخيانة .

قابل خرجنا عنها فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثا ، وأن معك سلاح الراكب والسيوف فى الركب فلا تدخلها بغير هذا) .

٧ ــ كتاب الرسول إلى المنذر بن ساوى :

(من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى : سلام عليك ، فإنى أحمد الله الذى لا إلـه إلا هو وأشهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله . أما بعد فإنى أذكرك الله عز وجل ، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه ، وأنه من يطع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى ، ومن نصحهم فقد نصح لى ، وأن رسلى قد أثنو عليك خيرا ، وأنى قد شفعتك فى قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم ، وأنك مهما تصلح فلن نعزلك ، ومن أقام على يهوديته أو نصرانيته فعليه الجزية) .

٨ ــ كتابه ﷺ إلى كسرى أبرويز .

(بسم الله الرحمن الرحيم :

من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وأدعوك بدعاية الله عز وجل ، فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين. وأسلم تسلم، فإن توليت فإنما إثم المجوس عليك) .

٩ ــ كتابه ﷺ لبنى ضمرة بالموادعة .

(هذا كتاب من محمد ﷺ لبنى ضمرة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، وأن لهم النصر على من ناوأهم ، وأن لا يحاربوا فى دين الله مابل بحر صوفة ، وأن النبى ﷺ إذا دعاهم لنصره أجابوه ، عليهم بذلك ذمة الله وذمة رسوله ، ولهم النصر على من برمنهم واتقى) .

وفد ثقيف إلى رسول الله فى ٢١ رمضان من العام

بعد حصار الطائف قدم عروة بن مسعود الثقفى إلى رسول الله فلقى الرسول فى الطريق قبل أن يصل رسول الله إلى المدينة ، فأسلم وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام ، فأذن له الرسول ، وخرج يدعو قومه إلى الإسلام فرموه بالنبل فقتلوه .

وأقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهرا ، ثم رأوا أنه لا طاقة لهم بحرب محمد وأصحابه فأسلمت وبايعت .

بعثت ثقيف إلى رسول الله وفدا من ستة ، رئيسه عبد ياليل بن عمرو بن عمير ، فقدموا المدينة وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذى يمشى بينهم وبين رسول الله ، وكانوا لا يطعمون طعاما يأتيهم من عند رسول الله حتى يأكل منه خالد .

وسألوا رسول الله أن يدع لهم اللات لا يهدمها ثلاث سنين ، فأبى رسول الله ذلك عليهم وبعث بأبى سفيان والمغيرة بن شعبة ليهدماها .

وسألوا رسول الله فيما سألوه أن يعفيهم من الصلاة ومن كسر أوثانهم بأيديهم ، فقال لهم رسول الله : أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه ، وأما الصلاة فإنه لا خير فى دين لا صلاة فيه .

فلما أسلموا وكتب لهم رسول الله كتابا ، أمَّر عليهم عثمان بن أبى العاص ، وبعث معهم أبا سفيان والمغيرة لهدم الطاغية .

فخرجا مع القوم ، وقام المغيرة يضربها بمعول ، وخرجت نساء ثقيف يبكين عليها ويندبنها ، وأبو سفيان يقول والمغيرة يهدمها : « واهالك ، آهالك ! » .

وأخذ المغيرة مال اللات وحليها فبعث به إلى رسول الله .

وكان كتاب رسول الله الذى أعطاه وفد ثقيف هو :

(بسم الله الرحمن الرحيم .

من محمد النبى رسول الله إلى المؤمنين ، إن عضاء « وج » وصيده لا يعضد — لا يقطع . من وجد يفعل شيئا من ذلك فإنه يجلد وتنزع ثيابه ، فإن تعدى ذلك فإنه يؤخذ فيبلغ به النبى محمدا ، وإن هذا أمر النبى محمد رسول الله ﷺ . وكتب خالد بن سعيد بأمر الرسول محمد بن عبد الله ، فلا يتعده أحد فيظلم نفسه فيما أمره به محمد رسول الله ﷺ) .

ويروى أن الوفد لما قدموا على رسول الله قالوا : يا محمد ، إنا أخوالك وأصهارك وجيرانك ، إن حاربناك حاربك من بعدنا ، وإن سالمنا سالمك من بعدنا ، ثم قالوا : فاجعل لنا ألا نعشر ولا نحشر إلخ — صـ ٨٣ الأوائل لأبى هلال .

حج أبى بكر بالناس سنة تسع :

أقام رسول الله فى المدينة بقية شهر رمضان وشوالا وذا القعدة .

ثم بعث أبا بكر أميرا على الحج سنة تسع ليقيم للمسلمين حجهم ، والمشركون من العرب على منازلهم من حجهم .

فخرج أبو بكر ومعه من المسلمين نحو ثلثمائة ، ونزلت براءة فى نقض ما بين رسول الله وبين المشركين من العهد الذى كانوا عليه فيما بينه وبينهم .. أن لا يصدَّعن البيت أحد جاءه ، ولا يُخاف أحد فى الشهرا الحرام ، وكان ذلك عهدا عاما بينه وبين الناس من أهل الشرك ، وكانت بين ذلك عهود بين رسول الله وبين قبائل من العرب مخصوصين إلى آجال مسماة ، فنزلت السورة فى ذلك وفيمن تخلف من المنافقين عنه فى تبوك . وكانت براءة تُسمَّى فى عهد النبى وبعده « المبعثرة » لما كشفت من سرائر الناس .

ولما نزلت براءة وقد بعث أبا بكر يقيم للناس الحج ، قيل له : يا رسول الله لو بعثت بها إلى أبى بكر ؟ فقال لا يؤدى عنى إلا رجل من أهل بيتى . ثم دعا على بن أبى طالب فقال له : اخرج بهذه القصة من صدر براءة ، وأذن فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو إلى مدته .

فخرج علىّ على ناقة رسول الله العضباء حتى أدرك أبا بكر بالطريق ، فلما رآه أبو بكر قال : أمير أو مأمور ؟ قال : بل مأمور . ثم مضيا .

فأقام أبو بكر للناس الحج والعرب إذ ذاك فى تلك السنة على منازلهم من الحج التى كانوا عليها فى الجاهلية حتى إذا كان يوم النحر قام علىّ فأذن فى الناس بالذى أمره به رسول الله فقال : أيها الناس ، إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . ومن كان له عند رسول الله عهد فهو إلى مدته ، وأجل الناس أربعة أشهر من يوم أذن فيهم ليرجع كل قوم إلى مأمنهم أو بلادهم ، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة إلا أحدا كان له عند رسول الله عهد إلى مدة فهو إلى مدته .

فلم يحج بعد ذلك العام مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان .

ثم قدما على رسول الله ﷺ بعد الموسم .

الأنصار وجهادهم فى سبيل الله :

وكم للأنصار من مواقف صادقات فى الجهاد فى سبيل الله كما كان للمهاجرين رضوان الله عليهم أجمعين ، وجزاهم خير الجزاء عن الإسلام والمسلمين .

ولحسان بن ثابت ، وقيل بل لابنه عبد الرحمن ، قصيدة يعدد فيها أيام الأنصار مع النبى ﷺ ، ويذكر مواطنهم معه فى أيام غزوه ، منها .

ألست خير معد كلها نفرا ... ومعشرا إن همّوا وإن حصلوا
قوم همو شهدوا بدرا بأجمعهم ... مع الرسول فما ألوا وما خذلوا
وبايعوه فلم ينكث به أحد ... منهم ، ولم يك فى إيمانهم دخل

ثم يقول منها :

ويوم بويع كانوا أهل بيعته ... على الجلاد فآسوه وما عدلوا
وغزوة الفتح كانوا فى سريته ... مرابطين فما طاشوا وما عجلوا
ويوم سار رسول الله محتسبا ... إلى تبوك ، وهم راياته الأول
أولٰئك القوم أنصار النبى وهم ... قومى أصير إليهم حين أتصل
ماتوا كراما ولم تنكث عهودهم ... وقتلهم فى سبيل الله إذ قتلوا

وقال حسان من قصيدة أخرى :

كنا ملوك الناس قبل محمد ... فلما أتى الإسلام كان لنا الفضل
أولٰئك قومى خير قوم بأسرهم ... فما عد من خير فقومى له أهل
وقائلهم بالحق إن قال قائل ... وحلمهمو عود وحكمهمو عدل

وقال أيضا من قصيدة أخرى :

قومى أولٰئك إن تسألى ... كرام إذا الضيف يوما ألم
فلما أتانا الرسول الرشيد ... بالحق والنور بعد الظلم
فقلنا صدقت رسول المليك ... هلم إلينا وفينا أقم
فنشهد أنك عبد الإلٰه ... به أرسلت نورا بدين قيم
فإنا وأولادنا جنة ... نقيك ، وفى مالنا فاحتكم
فنحن أولٰئك إن كذبوك ... فناد نداء ، ولا تحتشم
وناد بما كنت أخفيته ... نداء جهارا ولا تكتتم

سنة الوفود وهى السنة التاسعة من الهجرة

واستمر قدوم الوفود طوال السنة العاشرة .

العرب يدخلون فى الدين أفواجا :

لما فتح الرسول مكة وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف وبايعت ، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه .

وإنما كانت العرب تنتظر بالإسلام ماذا يكون من أمر هذا الحى من قريش ، وأمر رسول الله ﷺ معهم ، وماذا تحول إليه الأمور ، لأن قريشا كانوا أئمة العرب وقادتهم ، وكانت قريش هى التى نصبت لحرب رسول الله وخلافه .

فلما فتحت مكة ، ودانت قريش لكلمة الله ، ودوخها الإسلام ، عرف العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله وعداوته .

فدخلوا فى دين الله أفواجا يضربون إليه من كل وجه ، وفى ذلك نزلت سورة الفتح ، وهى السورة العاشرة بعد المائة من سور القرآن الكريم ، وآياتها ثلاث : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ◦ ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ◦ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾ .

فقدمت على رسول الله وفود العرب من كل مكان .

وفد تميم :

ورئيسه عطارد بن حاجب ، ومعه أشراف تميم منهم الأقرع بن حابس ، والزبرقان ابن بدر ، وعمرو بن الأهتم ، والحبحاب بن يزيد الذى آخى رسول الله بينه وبين معاوية[1] ، ونعيم بن يزد ، وقيس بن الحارث ، وقيس بن عاصم .. فى وفد عظيم من تميم .

ومع الوفد عيينة بن حصن الفزارى ، وهو والأقرع قد شهدا مع رسول الله فتح مكة وحنينا والطائف ، فلما قدم وفد تميم كانا معهم .

ودخل الوفد مسجد رسول الله فى المدينة ، فنادوا من وراء حجراته أن اخرج إلينا يا محمد ، فآذى ذلك رسول الله من صياحهم فخرج إليهم .

---

(١) كان رسول الله قد آخى بين نفر من أصحابه من المهاجرين : بين أبى بكر وعمر ، وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف ، وبين أبى ذر والمقداد بن عمرو .

فقالوا يا محمد ، جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا .

قال : قد أذنت لخطيبكم فليقل .

فقام عطارد فقال :

« الحمد لله الذى له علينا الفضل وهو أهله ، الذى جعلنا ملوكا ووهب لنا أموالا عظاما ، ففعل فيها المعروف ، وجعلنا أعزة أهل المشرق وأكثره عددا وأيسره عدة فمن مثلنا فى الناس ؟ ألسنا برءوس الناس وأولى فضلهم ، فمن فاخرنا فليعدد مثل ما عددنا ، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام ، ولكنا نحيا من الإكثار فيما أعطانا ، وإنا نعرف بذلك .. أقول هذه لأن تأتوا بمثل قولنا وأمر أفضل من أمرنا .

فقال الرسول لثابت بن قيس الأنصارى الخزرجى : قم فأجب الرجل فى خطبته .

فقام ثابت فقال :

الحمد لله الذى السموات والأرض خلقه ، قضى فيهن أمره ووسع كرسيه علمه ، ولم يك شىء قط إلا من فضله ، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكا ، واصطفى من خير خلقه رسولا أكرمه نسبا وأصدقه حديثا وأفضله حسبا ، فأنزل عليه كتابه ، وائتمنه على خلقه ، فكان خيرة الله من العالمين ، ثم دعا الناس إلى الإيمان به فآمن برسول الله المهاجرون من قومه ، وذوى رحمه أكرم الناس حسبا وأحسن الناس وجوها وخير الناس فعالا ، ثم كان أول الخلق إجابة ، واستجاب لله حين دعاه رسول الله .. فنحن أنصار الله ووزراء رسوله ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه ، ومن كفر جاهدناه فى الله أبدا وكان قتله علينا يسيرا .. أقول قولى هذا وأستغفر الله لى وللمؤمنين والمؤمنات ، والسلام عليكم[1] .

ثم أذن رسول الله لشاعرهم فقام الزبرقان بن بدر ، فقال قصيدته :

نحن الكرام فلا حى يعادلنا   منا الملوك وفينا تنصب البيع

ويروى : منا الملوك وفينا يقسم الربع .

وكان حسان غائبا ، فبعث إليه رسول الله فأتاه واستمع فى مجلسه إلى شاعر تميم الزبرقان ، فقال ﷺ : قم يا حسان فأجب الرجل فيما قال : فقام حسان ، فأنشد قصيدته :

---

(١) قتل ثابت عام ١٢ هـ فى موقعة اليمامة (٢٢٤ — ٢٢٧ : ٢ سير أعلام النبلاء) .

إن الذوائب من فهر وإخـوتهم قد بينـوا سنـة للنـاس تتبـع
يرضى بهم كل من سريرتـه تقوى الإله وكل الخير يصطنع[1]
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهـم أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
سجيـة تلك منهم غير محدثـة إن الخلائق فاعلم شرها البدع
إن كان فى الناس سباقون بعدهمُ فكل سبق لأدنى سبقهم تبـع
أكرم بقوم رسول الله شيعـتهم إذا تفـرقت الأهـواء والشيـع

فلما فرغ حسان قال الأقرع بن حابس : وأبى إن هذا الرجل لمؤتى له ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا .

وأسلم الوفد ، وأجازهم رسول الله فأحسن جوائزهم .

وفد العامريين :

وقدم على رسول الله فى المدينة وفد بنى عامر .. عامر بن الطفيل ، وأربد بن قيس ، وجبار بن سلمى ، وهم رؤساء القوم وشياطينهم ، وأربد أخو لبيد لأمه .

وكان عامر يريد الغدر برسول الله ، وكأن قومه قالوا له : يا عامر إن الناس قد أسلموا فأسلم . قال : والله لقد كنت آليت أن انتهى حتى تتبع العرب عقبى ، أفأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش ؟ وقال لأربد : إذا قدمنا على الرجل ، فإنى أشغل عنك وجهه ، فإذا فعلت ذلك فاعله بالسيف .

فلما قدموا على رسول الله قال عامر : يا محمد خالّنى — اتخذنى خليلا — قال : لا والله حتى تؤمن بالله وحده . وجعل عامر يكلمه ليتمكن أربد مما يريد ، وجعل أربد لا يحير شيئا ، فلما رآى عامر ذلك قال لرسول الله : أما والله لأملأنها عليك خيلا ورجالا . فلما ولى قال رسول الله : اللهم اكفنى عامرا .

وخرجوا من عند رسول الله ، فقال عامر لأربد : ويلك يا أربد ! أين ما كنت أمرتك به ؟ قال : والله ما هممت بالذى به من أمره إلا دخلت بينى وبين الرجل حتى ما أرى غيرك ، أفأضربك بالسيف ؟

وخرجوا راجعين إلى بلادهم ، فمات عامر فى الطريق ، وأصابت أربد صاعقة فأحرقته ، ولقد رثى لبيد أخاه أربد بقصائد كثيرة .

---

(١) يروى : تقوى الإلـه وبالأمر الذى شرعوا .

وفد سعد بن بكر :

وهم الذين كان رسول الله مسترضعا فيهم ، وقد بعثوا إلى رسول الله رجلا منهم يقال له ضمام بن ثعلبة وافدا إلى رسول الله .

فقدم عليه ، وأناخ بعيره عند باب المسجد ثم عقله ، ودخل المسجد والرسول جالس فى أصحابه .

فقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟

قال رسول الله : أنا ابن عبد المطلب .

قال : أمحمد ؟

قال : نعم .

فسأله ضمام عن الإسلام والصلاة والزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها ، والرسول يجيبه .

حتى إذا فرغ قال : فإنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

وجاء قومه فدعاهم إلى الإسلام ، وسب لهم اللات والعزى ، فأسلموا جميعا .

وفد عبد القيس :

١ — لعبد القيس[1] وفادة على رسول الله سنة سبع فى ستة عشر رجلا منهم ، وقيل فى عشرين ، وقيل فى خمسة وعشرين . وقالوا له : مرنا بأمر فصل نأخذ به من وراءنا . فقال : آمركم بأربع .. بالإيمان بالله وحده ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأنهاكم عن الانتباذ فى الدباء والحنتم والمزفت والنقير[2] .

وقال لهم : احفظوها وادعوا إليهن من وراءكم . ودعا لهم : اللهم اغفر لعبد القيس . وقال صلوات الله عليه : يا معشر الأنصار ، أكرموا إخوانكم فإنهم أشبه الناس بكم فى الإسلام ، أسلموا طائعين ، غير مكرهين ولا موتورين .

٢ — وفى السنة التاسعة قدم وفد عبد القيس إلى رسول الله وعليهم الجارود بن بشر ابن المعلى ، وكان نصرانيا . فلما انتهى إلى رسول الله كلمه ، فعرض عليه رسول الله الإسلام ، ودعاه إليه ورغبه فيه . فقال : يا محمد ، إنى قد كنت على دين وإنى تارك

---

(١) ٥٧٧/١ الطبقات الكبرى لابن سعد ، ٦ — ٢/٢٥ تحفة المستفيد لعبد القادر .

(٢) الدباء : قشر القرع . الحنتم : الجرار المطلية بالدهان الأخضر . والمزفت : المطلية بالزفت . والنقير : إناء يتخذ من جذع النخل .

دينى لدينك ، أفتضمن لى دينى ؟ فقال رسول الله : نعم ، أنا ضامن لك أن قد هداك الله إلى ما هو خير منه .

فأسلم وأسلم أصحابه(١) ، وكان عددهم أربعين رجلا(٢) .

وعاد الوفد فدعا الجارود عبد القيس إلى الإسلام ، فأسلموا .

ولما تبعت عبد القيس الغرور بن المنذر بعد موت رسول الله وارتدت عن الإسلام ، قام الجارود يدعوهم إلى الله .

٣ — وكان رسول الله بعث العلاء بن الحضرمى قبل فتح مكة إلى المنذر بن ساوى العبدى ، فأسلم المنذر ، ومات المنذر بعد وفاة رسول الله وقبل أن يرتد أهل البحرين ، والعلاء عندهم أمير لرسول الله على البحرين .

وفد بنى حنيفة :

وفد على رسول الله وفد بنى حنيفة ، وفيهم مسيلمة الكذاب ، ونزلوا فى دار كبشة بنت الحارث الأنصارية .

وأسلم الوفد ، فلما انصرفوا عن رسول الله وانتهوا إلى اليمامة ، ارتد مسيلمة وتنبأ ، وتكذب لهم وقال : إنى قد أشركت فى الأمر معه . وجعل يسجع لهم الأساجيع ، ويقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن الكريم : « لقد أنعم الله على الحبلى . أخرج منها نسمة تسعى .

ووضع مسيلمة عنهم الصلاة وأحل لهم الخمر ، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله بأنه نبى .

وفد طىء :

١ — وقدم على رسول الله وفد طىء ، فيهم زيد الخيل وهو سيدهم . فعرض عليهم رسول الله الإسلام فأسلموا ، وقال رسول الله :

ما ذكر لى رجل من العرب بفضل ، ثم جاءنى إلا رأيته دون ما يقال فيه ، إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما فيه ، وسماه رسول الله : زيد الخير .

وفى طريق عودة الوفد إلى بلادهم مات زيد فى أرض نجد .

---

(١) مات الجارود عام ٢١ هـ فى فارس وقيل إن اسم الجارود : الجارود بن حنش بن المعلى العبدى — وحديث هذا الوفد مع رسول الله طويل (تحفة المستفيد لعبد القادر (جـ ١ صـ ٤) .

(٢) (صـ ٧ جـ ١) تحفة المستفيد — طبع دمشق ١٩٦٣ .

٢ — وكان عدى بن حاتم الطائى شريفا فى طىء ، وكان نصرانيا ، وكان ملكا فى قومه ويسير فى نفسه على دين ، وله المرباع فى قومه أى ربع الغنيمة ، ولا يأخذه إلا رئيس القوم .

فهرب من الإسلام إلى بلاد الشام حين قدمت خيل لرسول الله بلاده ، وأخذ المسلمون ابنة لحاتم مع سبايا من طىء ، فمر بها رسول الله فقالت : يا رسول الله هلك الوالد ، وغاب وافد ، فامنن على من الله عليك . قال : ومن وافدك ؟ قالت عدى بن حاتم قال : الفار من الله ورسوله ؟ ثم مضى رسول الله وتركها . وفى الغد مر بها رسول الله فقالت له مثل ذلك ، وقال لها مثل ما قال بالأمس . وبعد الغد مر بها فكلمته ، فقال ﷺ : (قد فعلت ، فلا تعجلى بخروج حتى تجدى من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك ، ثم آذنينى) .

فقدم ركب من بلى أو قضاعة ، فرأت أن تخرج معهم لأخيها بالشام ، فجاءت رسول الله فقالت : يا رسول الله قدم رهط من قومى لى فيهم ثقة وبلاغ ، فكساها رسول الله وحملها ، وأعطاها نفقة ، فخرج معهم حتى قدمت الشام إلى أخيها ، فقالت له : القاطع الظالم ، احتملت بأهلك وولدك ، وتركت بقية والدك عورتك . ثم نزلت وأقامت عنده فقال لها : ماذا ترين فى أمر هذا الرجل ؟ قالت : أرى والله أن تلحق به سريعا ، فإن يكن الرجل نبيا فللسابق إليه فضله ، وإن يكن ملكا فلن تذل فى عز اليمن وأنت أنت . قال لها : والله إن هذا للرأى .

فخرج حاتم حتى قدم على رسول الله المدينة ، فدخل عليه وهو فى مسجده فسلم ، فقال : من الرجل ؟ قال : عدى بن حاتم . فقام رسول الله وانطلق به إلى بيته ، فتناول وسادة من آدم محشوة ليفا فقذفها إليه وقال : اجلس عليها . قال عدى : بل أنت . فقال ﷺ : بل أنت . فجلس عدى عليها وجلس رسول الله بالأرض . ثم قال رسول الله له : لعلك يا عدى إنما يمنعك من دخول فى هذا الدين ما ترى من حاجتهم[1] ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف ، ولعلك إنما يمنعك من

(١) أى فقر المسلمين وجدب بلادهم .

دخول فيه أنك ترى الملك والسلطان فى غيرهم ، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم .

فأسلم عدى ، وعاد إلى بلاده داعية إلى الله ورسوله[١] .

وفد مراد :

وقدم فروة بن مسيك المرادى على رسول الله مفارقا لملوك كندة ، ومباعدا لهم ، وكان بين مراد وهمدان قبيل الإسلام حرب نالت فيها همدان ـــ بقيادة الأجدع بن مالك[٢] ـــ من مراد ما نالت ، فى يوم يقال له « يوم الردم » وفيه قال فروة بن مسيك من قبل :

فإن تغلب فغلابـــون قدمـــا وإن تغـــلب فغير مغلبينــــا
فلـو خلـد الملوك إذن خلدنا ولـو بقـى الكـــرام إذًا بقينـا

وانتهى فروة إلى رسول الله فأكرمه الرسول ، واستعمله على مراد ومذجح وزبيد ، وبعث معه خالد بن سعيد على الصدقة ، فكان معه فى بلاده حتى توفى رسول الله[٣] .

وفد زبيد :

وقدم على رسول الله عمرو بن معد يكرب الزبيدى فى وفد من قومه ، فأسلم عمرو والوفد .

وأقام عمرو فى قومه من بنى زبيد وعليهم فروة بن مسيك ، فلما توفى رسول الله ارتد عمرو عن الإسلام .

---

(١) توفى عدى عام ٦٨ هـ ، وميلاده عام الفيل ٥٧١ م فى السنو التى ولد فيها رسول الله ﷺ ـــ ٤٢ / ٣ الإصابة ، أو عام ٥٦٧ (٢ / ٤٦١ الاستيعاب على هامش الإصابة) ـــ وراجع فيه سيرة بن هشام ، والطبرى الجزء الثانى

(٢) وقيل : بل بقيادة مالك بن خريم الهمدانى .

(٣) كان عمرو بن معد يكرب الزبيدى قد قال لقيس بن مكشوح المرادى حين انتهى إليهم أمر رسول الله : يا قيس إنك سيد قومك ، وقد ذكر لنا أن رجلا من قريش يقال له محمد قد خرج بالحجاز يقول إنه نبى ، فانطلق بنا إليه حتى نعلم علمه ، فإن كان نبيا كما يقول فإنه لن يخفى عليك إذا لقيناه اتبعناه ، وإن كان غير ذلك علمنا علمه . فأبى عليه قيس ذلك وسفه رأيه ، فذهب عمرو وحده إلى رسول الله .

وفد كندة :

وقدم على رسول الله الأشعث بن قيس فى وفد كندة فى ثمانين راكبا منهم ، فلما دخلوا على رسول الله قال : ألم تسلموا ؟ قالوا : بلى . قال : فما بال هذا الحرير فى أعناقكم ؟ فشقوه منها فألقوه . ثم قال له الأشعث : يا رسول الله نحن آكلوا المرار ، وأنت ابن آكل المرار . فتبسم رسول الله وقال : ناسبوا بهذا النسب العباس[(١)] بن عبد المطلب وربيعة بن الحارث ، ثم قال لهم : لا ، بل نحن بنو النضر بن كنانة لا ننتفى من أبينا .

وأسلم الوفد ، وعاش الأشعث مجاهدا حتى توفى عام ٤٠ هـ عن ٦٣ عاما[(٢)] .

وفد الأزد :

وقدم على رسول الله وفد الأزد ، وعليه صرد بن عبد الله الأزدى ، فأسلموا وأمّر رسول الله صرد الأزدى على من أسلم من قومه ، وأمره أن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك من قبائل اليمن . فسار صرد إلى جرش وهى يومئذ مدينة مغلقة بها قبائل من قبائل اليمن وانضوت إليهم خثعم ، فدخلوها معهم حين سمعوا بمسيرة المسلمين إليهم .. فحاصرهم صرد والمسلمون قريبا من شهر ، ثم فك الحصار ، فخرج إليه من فيها يقاتلونه فقاتلهم وقتل منهم . وخرج وفد من جرش حتى قدموا على رسول الله فأسلموا .

رسول ملوك حمير فى رمضان من السنة التاسعة :

وكتب ملوك حمير كتابا إلى رسول الله بعثوا به مع رسول منهم ، وفيه إسلامهم ، فوصل الكتاب فى مقدم رسول الله من تبوك ، وهؤلاء هم ملوك حمير : الحارث بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد كلال ، ونعيم قيل ذى رعين ومعافر وهمدان .

فكتب إليهم رسول الله :

---

(١) كانت كندة ملوكا ، وكان العباس وربيعة إذا أبعدا فى السير فى أرض العرب فى تجاراتهم فى الجاهلية فسئلا : ممن هما ؟ قالا : نحن بنو آكل المرار يتعززان بذلك .

وفى رواية أن وفد كندة كان سبعين رجلا — ٢٥ / ٢ سير أعلام النبلاء والأشعث بن قيس زوجه أبو بكر أخته — ٢٦ / ٢ المرجع السابق — وتوفى الأشعث عام ٤٠ هـ بالكوفة ٢٨ / ٢ سير أعلام النبلاء .

(١) ٢ : ٢٨ سير أعلام النبلاء .

(بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله النبى

إلى الحارث بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد كلال ، والنعمان قيل ذى رعين ومعافر وهمدان .

أما بعد ذلكم .

فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إلـه إلا هو

أما بعد :

فإنه قد وقع بنا رسولكم فقلبنا من أرض الروم ، فلقينا بالمدينة فبلّغ ما أرسلتم به وخبر ما قبلكم ، وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين .

وأن الله قد هداكم بهداه إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله ، وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة ، وأعطيتم من المغانم خمس الله وسهم النبى وصفيه ، وما كتب على المؤمنين من الصدقة .

أما بعد فإن رسول الله النبى محمدا أرسل إلى زرعة ذى يزن أن إذا آتاكم رسلى فأوصيكم بهم خيرا ، معاذ بن جبل[1] ، وعبد الله بن زيد ، ومالك بن عبادة ، وعقبة ابن نمر ، ومالك بن مرة ، وأصحابهم ، وأن اجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخاليفكم وأبلغوها رسلى . وأن أميرهم معاذ بن جبل فلا ينقلبن إلا راضيا .

أما بعد فإن محمدا يشهد أن لا إلـه إلا الله وأنه عبده ورسوله . ثم أن مالك بن مرة الرهاوى قد حدثنى أنك أسلمت من أول حمير ، وقتلت المشركين ، فأبشر بخير ، وآمرك بحمير خيرا ، ولا تخونوا ولا تخاذلوا فإن رسول الله هو مولى غنيكم وفقيركم ، وأن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لأهل بيته ، وإنما هى زكاة يزكى بها على فقراء المسلمين وابن السبيل ، وإن مالكا قد بلغ الخبر ، وحفظ الغيب ، وآمركم به خيرا .

وإى قد أرسلت إليكم من صالحى أهلى وأولى دينهم وأولى علمهم ، وآمركم بهم

---

(١) لما بعث الرسول معاذا إلى اليمن خرج الرسول يوصيه ، ومعاذ راكب ورسول الله يمشى تحت راحلته ، فلما فرغ قال : يا معاذ إنك عسى أن لا تلقانى بعد عامى هذا ، ولعلك أن تمر بمسجدى ومقامى . فبكى معاذ لفراق رسول الله فقال الرسول : لا تبك يا معاذ (٣٢١ — ١ سير أعلام النبلاء للذهبى) .

خيرا فإنهم منظور إليهم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته)[١] .

رسول فروة الجذامى :

وبعث فروة الجذامى إلى رسول الله رسولا بإسلامه ، وكان عاملا للروم على من يليهم من العرب ، وكان منزله معان وما حولها من أرض الشام ، وأهدى له بغلة بيضاء . فلما علم الروم بإسلامه أخذوه فحبسوه عندهم ، ثم صلبوه على ماء بالشام يقال له عفرى .

إسلام بنى الحارث بن كعب على يدى خالد :

بعث رسول الله خالد بن الوليد فى شهر ربيع الآخر سنة عشر إلى بنى الحارث بن كعب بنجران ، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام — قبل أن يقاتلهم — ثلاثا ، فإن استجابوا فاقبل منهم ، وإن لم يفعلوا فقاتلهم .

فقدم خالد عليهم ، وبعث الركبان يقولون : أيها الناس أسلموا تسلموا . فأسلم الناس ، فأقام فيهم يعلمهم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه .

وأقام بين أظهرهم يأمرهم بما أمر الله به ، وينهاهم عما نهاهم الله عنه ، وكتب إلى رسول الله بذلك ، وكتب إليه الرسول :

(بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد النبى رسول الله إلى خالد بن الوليد . سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إلـٰه إلا هو .

أما بعد فإن كتابك جاء بى مع رسولك تخبر أن بنى الحارث بن كعب قد أسلموا قبل أن تقاتلهم ، وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام ، وشهدوا أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمدا عبد الله ورسوله ، وأن قد هداهم الله بهداه ، فبشرهم وأنذرهم ، وأقبل ولتقبل معك وفدهم ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

---

(١) عبد كلال أمير حميرى (٤٥٥ — ٤٦٠ م) ، وكان أحد قادة الملك حسان تبع . والفترة الماضية لخمس سنوات كان وصيا فيها على العرش ، وقد اعتنق المسيحية وتولى تبّع حسان بعد عبد كلال ، وبعد تبّع جاء إلى الحكم مرثد بن عبد كلال أخو تبع لأمه ، وأولاد عبد كلال كانوا قادة فى الجيش الحميرى وهم كثيرون ، وقد تسلم الرسول بعد عودته من تبوك (٨ هـ) رسالة من أولاد عبد كلال يعلنون فيها قبولهم للإسلام ، ووفد على رسول الله منهم الحارث ونعيم ابنا عبد كلال (مجلة العرب ص ٦٢٨ — ٦٣٤ عدد مارس ١٩٧١ مقال لخالد العسلى) .

فجاء خالد برءوسهم فأعلنوا إسلامهم بين يدى رسول الله ، فأمر عليهم رسول الله قيس بن الحصين . ثم رجعوا إلى قومهم قبل وفاة رسول الله بأشهر ، وكان رجوعهم فى صدر ذى القعدة من السنة العاشرة .

وبعث رسول الله إليهم — بعد أن انصرف وفدهم — عمرو بن حزم ليفقههم فى الدين ، ويعلمهم السنة ومعالم الإسلام ، ويأخذ منهم صدقاتهم . وكتب له كتابا عهد إليه فيه عهده ، وأمره فيه بأمره فيه :

(وينهى — إذا كان بين الناس هيج — عن الدعاء إلى القبائل والعشائر ، وليكن دعواهم إلى الله عز وجل وحده لا شريك له) .

رفاعة بن زيد الجذامى :

وقدم على رسول الله ﷺ فى هدنة الحديبية قبل خيبر رفاعة بن زيد الجذامى ، فأهدى لرسول الله غلاما ، وأسلم وكتب له رسول الله كتابا إلى قومه فيه : إنى بعثته إلى قومه عامة، ومن دخل فيهم يدعوهم إلى الله وإلى رسوله . فأجابه قومه ، وأسلموا .

وفد همدان :

وقدم وفد همدان إلى رسول الله فلقوا رسول الله فى عودته من تبوك ، فخطب مالك ابن نمط بين يديه وأعلن إسلام قومه .

فكتب لهم رسول الله كتابا بعهد الله وذمام رسوله .

ومالك نمط قصيدة فى مدح الرسول منها :

ذكرت رسول الله فى فحمة الدجى ... ونحن بأعلى رحرحان وصلدد
حلفت برب الراقصات إلى منى ... صوادر بالركبان من هضب قردد
بأن رسول الله فينا مصدق ... رسول أتى من عند ذى العرش مهتد
فما حملت من ناقة فوق رحلها ... أشد على أعدائه من محمد
وأعطى إذا ما طالب العرف جاءه ... وأمضى بحد المشرفى المهند

وفد مزينة :

وقدم على رسول الله وفد مزينة .

وفد نجران :

وفى السنة العاشرة قدم على رسول الله وفد نجران ستون راكبا ، منهم أربعة وعشرون من أشرافهم فيهم العاقب أمير القوم ، والسيد صاحب رحلهم ، وأبو حارثة أسقفهم وإمامهم وصاحب مدارسهم ، وكان قد شرف فيهم ودرس كتبهم . كانت ملوك الروم قد شرفوه ومولوه وخدموه وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات ، لما بلغهم من علمه واجتهاده ، وهو أبو حارثة بن علمة أخو بكر بن وائل .

وفد دوس :

وقد قدم على رسول الله من قبل ذلك بخيبر .

وقدم عليه وفود كثيرة أخرى منها :

وفد طارق بن عبد الله .

وفد تجيب سنة تسع من الهجرة وهم من السكون .

وفد بنى سعد بن هذيم بن قضاعة وهم من أهل اليمن فى سنة تسع .

ووفد بنى فزارة .

ووفد بنى أسد .

ووفد بهراء من اليمن سنة تسع .

ووفد عذرة .

ووفد بلى فى ربيع الأول من سنة تسع .

ووفد ذى مرة .

ووفد خولان .

ووفد محارب من العام العاشر .

ووفد صداء فى سنة ثمان .

ووفد غسان فى شهر رمضان سنة عشر .

ووفد سلامان .

ووفد عبس .

ووفد عامر .

ووفد الأزد .

ووفد بنى المنتفق .

ووفد النخع .

وفاة إبراهيم ابن رسول الله

فى السنة التاسعة وفى يوم الثلاثاء ٢٧ كانون الثانى عام ٦٢١ م ، لعشر خلون من ربيع الأول توفى إبراهيم ابن رسول الله وهو ابن ثمانية عشر شهرا ، ودفن بالبقيع ، وانكسفت الشمس يوم موته فقال الناس : إنما كسفت لموت إبراهيم . فقال رسول الله : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته . وفى هذه السنة أيضا ماتت أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ فى شعبان .

عمال الصدقات لرسول الله

وفى هذه السنة بعث رسول الله أمراءه وعماله على الصدقات إلى كل ما وطىء الإسلام .

فبعث المهاجرين أبى أمية إلى صنعاء ، فخرج عليه الأسود العنسى الكذاب وهو بها .

وبعث زياد بن لبيد الأنصارى إلى حضرموت .

وبعث عدى بن حاتم على كل طىء وصدقاتها وعلى بنى أسد .

وبعث الزبرقان على ناحية من بنى سعد .

وقيس بن عاصم على ناحية من بنى سعد

والعلاء بن الحضرمى على البحرين .

وعلى بن أبى طالب إلى نجران .

وعيينة بن حصن إلى بنى تميم .

ويزيد بن الحصين إلى أسلم وغفار .

ورافع بن مكيث إلى جهينه .

وعمرو بن العاص إلى فزارة .

والضحاك بن سفيان إلى بنى كلاب .

وبشير بن سفيان إلى بنى كعب .

وابن اللتبية الأتردى إلى بنى ذبيان .

ومالك بن نويرة على صدقات بنى حنظلة .

وممن وجَّههم رسول الله ﷺ إلى اليمن معاذ بن جبل .

وقد جمع القرآن على عهد رسول الله أربعة كلهم من الأنصار .. معاذ بن جبل ، وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد[1] .

ومات معاذ عام ١٨ هـ عن ٣٨ عاما ، فميلاده قبل الهجرة بعشرين عاما ، وقبل البعثة النبوية بسبعة أعوام ، أى عام ٣٣ من ميلاد الرسول الكريم .

وقد سأله الرسول حين وجهه إلى اليمن : (بم تقضى يا معاذ ؟) .

فأجاب قائلا : بكتاب الله .

قال الرسول : (فإن لم تجد فى كتاب الله) ؟

قال معاذ : « أقضى بسنة الرسول » .

قال الرسول : (فإن لم تجد فى سنة رسوله) ؟

قال معاذ : « أجتهد رأيى ، لا آلو » .

فتهلل وجه الرسول وقال : (الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله) .

ويقول عائذ الله بن عبد الله : « دخلت المسجد يوما مع أصحاب الرسول فى أول خلافة عمر ، فجلست مجلسا بضع وثلاثون كلهم يذكرون حديثا عن رسول الله ﷺ ، وفى الحلقة شاب شديد الأدمة حلو المنطق وضىء وهو أشب القوم سنا ، فإذا اشتبه عليهم من الحديث شىء ردوه إليه فأفتاهم ، ولا يحدثهم إلا حين يسألونه . ولما قضى مجلسهم دنوت منه وسألته من أنت يا عبد الله ؟ قال : أنا معاذ بن جبل » .

ويقول فيه عمر وهو أمير للمؤمنين : « لولا معاذ بن جبل لهلك عمر » .

وحينما مات الرسول كان معاذ باليمن منذ بعثه النبى إليها ، يعلم المسلمين ويفقههم فى الدين .. ولكنه عاد إلى المدينة فى خلافة أبى بكر ، وكان عمر قد علم أن معاذا أثرى فاقترح على الخليفة أن يشاطره ماله . ولم ينتظر عمر بل أسرع إلى دار معاذ وألقى عليه مقالته .

ولكن معاذا كان طاهر الكف ، طاهر الذمة ، لم يكتسب إثما ، ولم يقترف شبهة ، لذلك رفض عرض عمر وناقشه رأيه .

وتمر ليلة وإذ بمعاذ يطوى مسرعا إلى دار عمر ، ولا يكاد يلقاه حتى يقول ودموعه تسح على خديه : « لقد رأيت فى منامى أنى أخوض حومة ماء وأخشى على نفسى الغرق ، حتى جئت فخلصتنى يا عمر » .

---

(١) ١ : ٢٨١ سير أعلام النبلاء للذهبى .

وذهبا معا إلى أبى بكر ، وسأله معاذ أن يشاطره ماله . ولكن أبا بكر الذى ما كان ليترك لمعاذ درهما لو علم أنه أخذه بغير حق يقول له : « لا آخذ منك شيئا » .

وهاجر معاذ إلى الشام حيث يعيش معلما وفقيها .. فإذا مات أميرها أبو عبيدة عام ١٨ هـ استخلفه أمير المؤمنين عمر مكانه .. ولا يمضى عليه فى الإمارة سوى أشهر معدودات حتى يلقى ربه عام ١٨ هـ .

وحينما طعن عمر ، طلب إليه أصحابه أن يوصى بالخلافة ، فأجاب : « لو كان معاذ ابن جبل حيا لوليته ، ثم قدمت على ربى عز وجل فسألنى من وليته على أمة محمد لقلت :

وليت عليهم معاذ بن جبل بعد أن سمعت النبى يقول : معاذ بن جبل إمام العلماء يوم القيامة » .

ووصفه ابن مسعود فقال : إن معاذا كان أمة قانتا لله حنيفا ، ولقد كنا نشبه معاذا بإبراهيم عليه السلام .

وكما كان دائب الدعاء إلى الله بقوله : « اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » كان دائب الإلحاح على الناس أن يلتمسوا العلم الصحيح النافع ويقول : « احذروا زيغ الحكيم ، واعرفوا الحق بالحق ، فإن للحق نورا » . .

وكان يرى العبادة قصدا وعدلا . قال له يوما أحد المسلمين : علمنى . فسأله معاذ : « وهل أنت مطيعى إذا علمتك ؟ » قال الرجل : إنى على طاعتك لحريص . فقال له معاذ : صم وأفطر وصل ، ونم واكتسب ولا تأثم .. ولا تموتن إلا مسلما .. وإياك ودعوة المظلوم » .

كتاب مسيلمة إلى رسول الله :

من مسيلمة إلى محمد رسول الله

سلام عليك أما بعد :

فإنى قد أُشركت فى الأمر معك ، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريشا قوم يعتدون .

كتاب رسول الله إلى مسيلمة :

فى آخر سنة عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

(من محمد رسول الله

إلى مسيلمة الكذاب

السلام على من اتبع الهدى

أما بعد : فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين) .

القسم الثالث

الباب السابع

الإعلام الإسلامى
فى الحضارة السمعية

وتأسيسا على ما تقدم يمكن القول إن التفسير الإعلامى للتاريخ وللأدب يذهب إلى أن الإنسانية قد مرت بمراحل كما نعرف نحن جميعا حين ننظر إلى التاريخ البشرى، ولكن هذه المراحل لا يحددها التفسير الإعلامى بالعصر القديم الذى يبدأ من الإنسان البدائى والذى ينتهى بسقوط مدينة روما، ولا يحددها بالعصر الوسيط الذى انتهى باكتشاف أمريكا أو سقوط القسطنطينية، ولا يحددها التاريخ الحديث. ثم إنه لا يحدد ظاهرة التغير فى حياة الإنسان وتقسيمها إلى مراحل، على أساس إقليمى ولا على أساس أية ظاهرة اجتماعية أخرى، إلا ظاهرة واحدة وهى التى تنزع بالإنسان إلى أن يحطم الحواجز التى تفصل مجموعات بعضها عن بعض كلما امتدت فى الزمان وكلما تشعبت فى المكان.

وعلى ذلك يمكن القول إن الحضارة السمعية هى أقدم الحضارات الإعلامية فى التفسير الإعلامى للتاريخ والأدب، ولقد تنبهت البلاغة العربية إلى هذا التفسير الإعلامى للبيان من حيث ارتباطه بوسيلة الاتصال، فكان من وجوه البيان عند علمائها: **البيان بالقول، والبيان بالكتاب**[1].

« **والبيان بالقول** »، تعبير عما نسميه فى التفسير الإعلامى « بالحضارة السمعية »، ذلك أن « الله — عز وجل قد أراد أن يتم منه فضيلة الإنسان، فخلق له اللسان وأنطقه بالبيان، فخبره عما فى نفسه من الحكمة التى أفادها، والمعرفة التى اكتسبها[2] ». وهذا البيان — المرتبط بالحضارة السمعية — كما يقول ابن وهب: « أعم نفعا، لأن الإنسان يشترك فيه مع غيره »[3].

---

(١) انظر ابن وهب: البرهان فى وجوه البيان، ص ١١١ وما بعدها.

(٢)، (٣) د. عبد العزيز شرف: المرجع السابق، ص ٦٤

وقال الشاعر (من المتقارب) :

وهـذا الـلسان بريـد الفـؤا د ، يدل ، الرجال على عقله

وقبله :

تعاهـــد لسانك إن الـــلسا ن سريـع إلى المرء فى قتلـــه

وقال آخر : (من الطويل)

وكائن ترى من صامت لك معجب زيادتـــه أو نقصه فى التكلـــم

فاللسان — فى الحضارة السمعية — « ترجمان اللب وبريد القلب ، والمبين عن الاعتقاد بالصحة والفساد ، كما قال الشاعر (من الكامل) :

إن الكـلام لفـى الفـــؤاد وإنما · جعل اللسان على الفـؤاد دليـلا

لا يعجبنك من خطيب قولـه حتى يكـون مع البيـان أصيـلا

وفيه الجمال كما قال الله عز وجل : ﴿ ولتعرفنهم فى لحن القول ﴾ « سورة محمد الآية ٣٠ » وكما قال النبى — ﷺ — وقد سأله العباس فقال : « فيم الجمال يا رسول الله ؟ » فقال : (فى اللسان)[١] .

وتأسيسا على هذا الفهم للحضارة السمعية ، يمكننا أن نفهم لماذا اقتنع العرب بأن النبوغ كل النبوغ فى الشعر[٢] ولماذا طبع أدبهم فى هذه الحضارة السمعية « بالتكرار » و « الإعادة » وكانت القصيدة الشعرية أول ما عرفه العرب وغير العرب من وسائل الإعلام ، وكانت الأداة الوحيدة للتعبير عن رأى القبيلة فى العصر الجاهلى . فلما جاء الإسلام لعبت قصائد الشاعر الإسلامى « حسان بن ثابت » دورها فى مناصرة صاحب الدعوة . ثم فى عصر بنى أمية وجد ما يسمى بالشعر السياسى ، وعلى الشعراء السياسيين من أمثال جرير والفرزدق والأخطل والراعى وذى الرمة اعتمد خلفاء بنى أمية فى كثير من قضاياهم السياسية . ثم فى العصر العباسى ظهرت عصبية من نوع آخر اسمها « الشعوبية » وحلت محل العصبية القبلية . كما ظهرت فى العصر العباسى عصبيات من نوع ثالث هى العصبيات المذهبية[٣] .

ثم فى عهود الخلافة الفاطمية والسلطنة الأيوبية وعهد المماليك — وهى العهود التى شهدت الحروب الصليبية — كان للشعر المكان الأول فى ميادين الإعلام والدعاية .

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٦٤

(٢) المرجع نفسه ، ص ٦٢

(٣) د . عبد اللطيف حمزة : الإعلام والدعاية ، ص ٧٩

وبالشعر كما بالسيف نجح الفاطميون فى مصر . وبالشعر كما بالسيف نجح صلاح الدين وأولاده فى محاربة الصليبيين وفى التغلب عليهم وطردهم من البلاد الإسلامية . وبقيت للقصيدة الشعرية مكانتها ووظيفتها السياسية والاجتماعية والإعلامية والدعائية إلى يومنا هذا . ففى كل حادث هام أو موقف من المواقف السياسية أو الاجتماعية الخطيرة نسمع صوت الشاعر إلى جانب صوت الصحفى[1] ، على أن التفسير الإعلامى للأدب بوجه عام ، وللسيرة النبوية بوجه خاص ، ينظر إلى الأدب الشعبى — فى الحضارة السمعية — نظرة خاصة ، ذلك أن الأدب الشعبى ليس بالضرورة أدب لهجات دارجة ، وأن النسبة إلى الشعب هى الفيصل فى التفريق بين ما هو شعبى وما هو غير شعبى . فإن فى الآثار الفصيحة ما يمكن أن يكون شعبيا ، وفى الآثار التى تتوسل باللهجات الدارجة ما لا يستطيع باحث أن يضعه فى دائرة الأدب الشعبى .

ذلك أن الأدب الشعبى فى الحضارة السمعية يرتبط بفن « المحدث » المحترف ، فإذا كان الأدب المسرحى يقوم على التمثيل ويستمد حياته من حرفة المسرح والنظارة ، فإن القصص الشعبى يعتمد على الشاعر أو المحدث وجمهور المستمعين إليه .. ولعل أثر هؤلاء المستمعين فى القصص الشعبى أعظم من أثر النظارة فى الأدب المسرحى . فالتفاعل بين القصاص — شاعرا كان أو محدثا — وبين جمهوره بالغ القوة ، فهم يستطيعون حمله على الإطناب أو الإيجاز ، أو حتى على الحذف والتبديل فى نص القصة ، يساعدهم على ذلك .

ولقد انتقلت لغة العرب بعد الإسلام من حياة إلى حياة ، وتبدلت أوضاع الكلام وسمات القول من مظهر إلى مظهر ، ومن حال إلى حال ، وأخذت ثوبا قشيبا نفذت به من الأسماع إلى القلوب ، واستطاعت أن تمازج الأفئدة فتؤثر فيها تأثيرًا عجيبا . ذلك بما أفاضه عليها القرآن من طرائف التعبير وحسن صوغ الكلام ، وبراعة القصد إلى الهدف والاحتيال إلى الغرض حتى تدخل على القلوب والعقول والأحاسيس دخول المأنوس به المرغوب فيه ، ثم بما كسبته من أسلوب الرسول صلوات الله عليه ، وبيانه الساحر ، وحكمه البالغة ، وبلاغته النيرة ، وقدرته الفائقة على الاختراع والتشقيق من الألفاظ ، وتصوير المعانى بأروع الصور ، وابتداع الأخيلة التى لم تعرف فى كلام العرب ، وظلت بعده من الحسنات التى ينسج الناس على منوالها ، ويدبجون كلامهم على مثالها ، دون أن يقتربوا من حدها .

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٧٩

أجل ، كانت بلاغة الرسول الأكرم مضرب المثل وحديث الناس وموضع الدهش ، ومحل الإعجاب من كل من سمعه ، وأنصت إلى ألفاظه تفيض عذوبة وتقطر رقة ، وأصغ إلى معانيه تطل منها أروع الحكم وتنبجس من خلالها أجمع الأمثال ، حتى لقد عجب من ذلك البليغ المنطيق ، الساحر البيان ، العذب اللسان على بن أبى طالب فقال : يا رسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نعرفه ، فمن علمك ؟ فقال صلوات الله عليه : أدبنى ربى فأحسن تأديبى . وقال له صفيّه وصديقه أبو بكر : لقد طفت فى العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت الذى هو أفصح منك ، فمن أدبك ؟

وكان النبى ﷺ يعتز بما منحه الله من صفاء القريحة ، ونقاء الفطرة ، وخلابة المنطق ، ورجاحة الفكر ، وسجاحة الأسلوب ، فيقول : (أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش ، ونشأت فى سعد بن بكر) .

والحكمة البالغة ، والعبرة الكريمة فى ذلك ، أن الله تعالى قد اختاره لرسالته ، واصطفاه لدعوته ، وأرسله إلى الناس كافة مبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ، أولئك هم المفلحون .

وسفارة بين الخالق والمخلوق لا جرم تعتمد على البيان الخلاب والمنطق الجذاب ، والقول المتخير الفاتن ، والكلام العذب الذى تُملك به النفوس وتُؤسر الألباب .

وهذا هو موسى ، أرسله ربه إلى بنى إسرائيل فطلب منه أن يشد أزره ويقوى ظهره ويفلج حجته ويسدد دعوته بأخيه هـٰرون ﴿ وأخى هـٰرون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون ﴾ وتمنى على ربه وهو صفيه وكليمه أن يطلق لسانه ويفتق بيانه ويحل عقدته ويفك حبسته ، فقال ﴿ واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى ﴾ .

وهذا نبى الله داود ، أفاض الله عليه الحكمة ومنحه فصل الخطاب ، وامتن عليه بذلك فقال ﴿ وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾ .

وإذا كان العرب أمة البلاغة وأئمة الفصاحة ، تعنو لهم أزمة القول وتنصاع أعنة الكلام ، ويهتفون برائع الخيال فينقاد لهم عصيه ، ويروض شامسه ، ويستذل أبيّه ، وإذا كان الكلام صناعتهم بها يفاخرون ويتباهون ، فلا بد أن الرسول الذى يرسل إليهم يبلغهم عن ربهم ، ويهدم عقائدهم الباطلة ومذاهبهم الزائفة ، ويغير ما ألفوا من عادات

وما ورثوا من تقاليد ، لا بد أن يكون بيانه أسمى من بيانهم ، ومنطقه أروع من منطقهم ، وخطابه أجل أثرا وأعظم قدرا وأعلى شأنا من خطابهم .

ومن هنا كان تأييد الله لنبيه ومصطفاه محمد ﷺ بمعجزة القرآن ومعجزة البيان .

أما بيانه صلوات الله عليه وسلامه فكان السحر الحلال والضياء اللامع ، يشرق من طبع مهذب مصقول ، وخلق فى البلاغة عريق أصيل ، وفطرة قوية موهوبة تساندت فى بنائها أقوى العوامل ، وتعاونت على إذكائها أبلغ المؤثرات ، إذ نشأ وتقلب فى أفصح القبائل وأصحها لهجة ، وأخلصها منطقا وأعذبها بيانا ، وأرهفها جنانا وأقومها سليقة .

كان مولده فى بنى هاشم وهم ذروة قريش سلاسة لسان وسماحة بيان ، وأخواله من بنى زهرة ، ورضاعه فى سعد بن بكر ، ونشأته فى قريش ، وتزوج خديجة ، وكل هذه قبائل خصها الله بعرف فى فصاحة الكلام عريق ، وسبب من أسباب البلاغة وثيق . وكان هذا التوافق العجيب الغريب ، وهذا التماثل فى الميلاد والاسترضاع والمنشأ ، إعدادا من الله لنبيه ، وتقويما من ملكته ، وتهذيبا لسليقته ، وتدعيما لفطرته ، حتى يفقهوا قوله ويعقلوا دعوته .

كان ﷺ فصيح المنطق ، سمح البيان ، سلس الأسلوب ، قوى العبارة ، لامع الرونق ، رائع الحكمة ، موفق المثل ، مونق اللفظ ، مشرق المعنى ، يحس المرء لكلامه حلاوة العسل ، ويجد فيه لذة ، إذا تكلم خفتت الأصوات ، وأنصتت الآذان ، وخشعت الجوارح ، وامتلأت القلوب بجلال العبرة وسمو الموعظة . وهذه أول خطبة لرسول الله ﷺ حين وقف بمكة يدعو قومه إلى الله ، يعدهم ويبشرهم ، ويحذرهم وينذرهم ، ويدعوهم إلى نبذ الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، قال : (إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس ما كذبتكم ، ولو غررت الناس ما غررتكم . والله الذى لا إلٰه إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة . والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا ، وإنها للجنة أبدا أو للنار أبدا ، وإنكم لأول من أنذر بين يدى عذاب شديد) .

فهذه كلمة الخبير بأسرار النفوس الذى يعرف كيف يمتلكها بحكمته ، ويستولى عليها بموعظته ، ويوجهها إلى الخير الذى يريده ، والسعادة الأبدية التى يدعو إليها .

واستمع أيها القارئ الكريم إلى هذا الحديث الشريف ، فإنك ستحس من حلاوة وقعه وجمال لفظه ودقة مبناه ، وصدق تصويره وحسن تحديده للمعنى ، ما يملأ نفسك طربا ، ويفعم قلبك نشوة .

يقول الرسول ﷺ : (مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد ، من ثديهما إلى تراقيهما ، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفى بنانه وتعفو أثره ، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئا إلا لزقت كل حلقة مكانها ، فهو يوسعها فلا تتسع) .

فهذا تصوير محكم رائع لحال المنفق وحال البخيل لا تكاد النفس تنتهى منه عجبا ، تصوير لقوة الطبيعة لدى السخى التى تستهين بكل عقبة ، وتتغلب على كل صعوبة ، وتثور ثورتها العاتية على القيود والحدود والحواجز حتى تحطمها أعنف تحطيم ، ثم لا يزال صاحبها يسخو ويبذل وينفق ويتصدق حتى تسلس الطبيعة وتنقاد وتعتاد البذل والعطاء ، وتلبس صاحبها لتخفى كل ما فيه من عيب وتمحو كل ما يند عنه من سيئة ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ .

أما البخيل فكلما أراد أن يخرج من طبيعته كزت وضاقت ، وأحضرته كل أسباب الشح والكنود ، فلا يستطيع أن يقدم خيرا ، أو يطالع المجتمع الذى يعيش فيه بحسنة .

فهل هناك تصوير أروع وأمتع وأبدع من هذا التصوير ؟

والرسول ﷺ يصف حالة من حالات الناس تفشو فى مجتمعاتهم ، وتشيع بينهم فى بعض الأحيان كما يشيع الوباء الفاتك والمرض القاتل : حالة الاستهتار بحدود الله ، والاستهانة بآداب الدين ، والخروج على الأوضاع الصحيحة ، والتبجح بما يسمونه حرية ، فيقول :

(مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ! فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا) .

فهل هناك أبلغ من هذا فى الدعوة إلى الضرب على أيدى العابثين بالحدود ، المنتهكين للحرمات الناهشين أعراض المحصنات الغافلات ؟

ولو أردنا أن نستعرض ألوانا أخرى من كلامه ﷺ لما اتسعت لها هذه الصفحات ، ولكنا نكتفى بما قدمنا من أمثلة حَية رائعة على بلاغته وإحاطته ودقته .

يقول المرحوم الأستاذ الرافعى : « لقد رأينا هذه البلاغة النبوية قائمة على أن كل لفظ هو لفظ الحقيقة لا لفظ اللغة ، فالعناية فيها بالحقائق ، ثم الحقائق هى تختار ألفاظها اللغوية على منازلها ، وبذلك يأتى الكلام كأنه نطق للحقيقة المعبر عنها ، ومعلوم أنه ﷺ

لا يتكلف ولا يتعمل ، ولم يكتب ولم يؤلف ، ومع هذا لا تجد فى بلاغته موضعا يقبل التنقيح ، أو تعرف له رقة من الشأن ، كأنما بين الألفاظ ومعانيها فى كل بلاغته مقياس وميزان » .

ومن هنا ترى أن بلاغة الرسول ﷺ وأسلوبه وقوة بيانه وشدة إتقانه وعلو شأنه فى اللغة ، هى المنح التى يهبها خالق الإنسانية لمن يختاره ويؤثره فى سفارة إلى الإنسانية ، وكما عصمه الله من لدن طفولته من الرجس والدنس ، وحفظه من شرور الجاهلية وسوآتها ، كذلك عدل لسانه وقوم بيانه وأرهف منطقه ، وأفاض عليه من لدنه قوة بيانية يستطيع بها أن يناضل عن دعوته وينافح دون رسالته ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ﴾ ، ﴿ وكان فضل الله عليك عظيما ﴾ .

يروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : ما سمعت كلمة غريبة من العرب إلا وسمعتها من رسول الله ﷺ وسمعته يقول : (مات حتف أنفه) وما سمعتها من عربى قبله ، يريد مات على فراشه ، قال فى القاموس : وخص الأنف لأنه أراد أن روحه تخرج من أنفه بتتابع نفسه ، وقال فى النهاية : كانوا يتخيلون أن روح المريض تخرج من أنفه فإن جرح خرجت من جراحته .

ويقول المرحوم الرافعى : إن موت الرجل على فراشه من غير حرب ولا قتال ولا أمر يؤرخ به فى الألسنة مما كانوا يأنفون له . والحتف الهلاك فكأن صاحب هذه الميتة إنما ماتت أنفته وكبرياؤه فلم يرفع الموت أنفه فبالقوم بل أذله وأرغمه فكان به هلاكه ، لأن حياته كانت فى عزته ، وعزته كانت فى أنفه هو الذى كبه على الموت . وإنما مجاز العبارة كما يقال فى الكبر : ورم أنفه . وفى العزة : حمى أنفه . وكما يقال : غضبه على طرف الأنف . إذا كان سريع الغضب . وجعل أنفه فى قفاه . إذا ضل .

ومثل ذلك قوله ﷺ : (الآن حمى الوطيس) . للدلالة على شدة الحرب واستعار نارها والتهاب شررها . فإن الوطيس التنور ومجتمع النيران ، استعير لشدة الحرب .. وقوله ﷺ : (بعثت فى نفس الساعة — أى قريبا منها — أحسها كما يحس الإنسان أنفاس من يقاربه) .

وإذا كان للعرب تصرف واتساع فى اللغة بالمجاز والاشتقاق وانتزاع لفظ من لفظ ، أو ابتداع معنى من معنى ، أو اختراع فكرة من فكرة ، فإن ذلك كله كان فى حدود الموجود المتعارف لا يجاوزونه إلى المعدوم . بخلاف المأثور عنه ﷺ فهو كثير من بناء على الموجود واختراع لما لم يوجد ، ومن ألفاظه ألفاظ كان العرب أنفسهم يسألونه عنها

ويعجبون لانفراده بها وهم عرب مثله ، كما عجبوا لفصاحته التى اختص بها وهو باق بين أظهرهم لم يفارقهم ولم ينتقل عن بلدهم .

وقد روى أنه ﷺ قال لأبى تميمة : (إياك والمخيلة) فقال : يا رسول الله نحن قوم عرب ، فما المخيلة ؟ فقال ﷺ : (سبل الإزار أى الكبر) . فقول أبى تميمة نحن عرب دلالة على أن النبى ﷺ اخترع هذا اللفظ اختراعا ولم يسبق إليه .. وقوله ﷺ : (هدنة على دخن) ، يريد أن الصلح لم يذهب حفائظ الصدور وأضغان القلوب ، فبقى منها كما يبقى من النار تحت الرماد ، لا يزال يتحفز للاشتعال .

وقوله لأنجشة العبد وهو يحدو الإبل ويطرب فى صوته فتسرع الإبل وتتايل الهوادج بالنساء : (رفقا بالقوارير) .. وقوله : (يا خيل الله اركبى ، لا ينتطح عنزان) . وقوله : (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين) قاله لأبى عزة الشاعر وكان يحرض عليه ويؤلب الناس ضده ، فأسره يوم بدر ثم منَّ عليه وأطلقه ، فعاد إلى سيرته فأسر يوم أحد . وسأل النبى أن يمن عليه فقال له : ﴿ لا يلدَغُ المؤمن من جحر مرتين ﴾ .

وقوله : ﴿ إياكم وخضراء الدمن ﴾ . قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ فقال : (المرأة الحسناء فى المنبت السوء) ، تشبيها لهذه المرأة بالشجرة الناضرة وسط الدمن . وقوله : (علق سوطك حيث يراه أهلك ، الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم ، وعد المؤمن كأخذ باليد ، قد جدع الحلال أنف الغيرة) ، وقوله : (من اطلع من صير باب فقد دمر أى دخل) . قال أبو عبيدة : لم يسمع هذا الحرف إلا فى هذا الحديث .

هذا كله مما كان يشرق فى لغته ويلتمع فى أسلوبه من ابتداع المعانى واختراع الألفاظ المناسبة لها ، ومن أوضاع وأخيلة بيانية تلبس حلاها وتتخذ زينتها ، وتدعو الأدباء دعوة قوية إلى احتذائها واتباع طرائقها واتخاذها مثلا يسيرون على نهجه وينشئون على هداه .

ذلك كله يعتبر إلهاما من الله لنبيه ، وتأييدا بمعجزة البيان ردفت معجزة القرآن . ولقد كان عجبا من العجب فى أمره ﷺ أن ترد إليه وفود العرب فيخاطب كل وفد بما يعد من أسرار لغته وغرائب لهجته ، يخاطبهم بلغاتهم مما تجهله قريش ويحمله بعض العرب عن بعض . ويفهم عنهم كذلك ما يدلون به من كلام وما يفصل عنهم من خطاب ، حتى عجب من ذلك على بن أبى طالب حين سمعه يخاطب وفد بنى نهد فقال : يا رسول الله نحن بنو أب واحد ، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره . فقال ﷺ : (أدبنى ربى فأحسن تأديبى) .

ومن ذلك كتبه الغريبة التي كان يمليها بها إلى قبائل العرب يخاطبهم فيها بلحونهم، ويجارى ألفاظهم وتعابيرهم فيما يريد أن يلقيه إليهم، وهى ألفاظ خاصة بهم ومن يداخلهم ويقاربهم ولا تجوز فى غير أرضهم ولا تسير عنهم فيما يسير من أخبارهم، ولا تأتلف مع أوضاع اللغة القرشية.

قال الرافعي: فما ندرى أى ذلك أعجب، أن ينفرد الرسول بمعرفة هذا الغريب من ألسنة العرب، دون قومه وغير قومه ممن ليس ذلك فى لسانهم عن غير تعليم ولا تلقين ولا رواية، أو أن يكون قومه من قريش قد ضربوا فى الأرض للتجارة حتى اشتق اسمهم منها، وخالطوا العرب وسمعوا مناطقهم حين يتوافدون إليهم فى موسم الحج، وهم مع ذلك لا يعلمون من هذا الغريب بعض ما يعلمه، ولا يريدونه فى ألسنتهم ولا يورثونه أعقابهم فيما ينشأون عليه من السماع والمحاكاة، حتى كان هذا الباب فيه ﷺ بابا على حدة. وهكذا كان رسول الله ﷺ يتميز بالفطرة القوية والطبيعة الملهمة، والموهبة البيانية المبدعة واللسان الذرب، والقول الفحل والمنطق الفصل، مما لا يفهم سره ولا يعرف أمره إلا على أنه معجزة وإلهام من الله لنبيه ومختاره ومصطفاه.

وبعد فيمكننا أن نلخص أثر حديث الرسول ﷺ فى اللغة فيما يلى:

١ — أدخل الرسول ﷺ كثيرا من التراكيب البيانية الجديدة فى اللغة العربية مما سبق ذكره.

وزاد فيها ألفاظا جديدة كتسميته « صفرا الأول، محرما، وكلفظ الزمارة للزانية، التى وردت فى حديث أبى هريرة (إن النبى نهى عن كسب الزمارة) وككلمة الصبر بمعنى الشق فى قوله ﷺ: (من اطلع من صير باب فقد دمر) ».

وللحديث الشريف أثر فى توسيع معانى بعض الألفاظ واشتقاق أخرى، مما لا داعى للإفاضة فيه.

٢ — وساعد على توحيد لهجات العربية وعلى ذيوعها وخلودها فهو متمم للقرآن الكريم فى هذا السبيل.

٣ — وكان محورا لعلوم دينية وعربية كثيرة وضعت لدراسة الحديث النبوى الشريف. وهذه العلوم أكسبت اللغة العربية ثروة كبيرة.

أما أثر الحديث فى الأدب فيمكننا إيجازه فيما يلى:

١ — ساعد الحديث الشريف على تهذيب الألسنة، وتثقيف الطباع، والقضاء على عهد الحوشية والغرابة والمعاظلة والتعقيد فى البيان، وأحل محل ذلك السلاسة والسهولة والرونق والوضوح وسلامة الأسلوب والبيان.

٢ — قضى على سجع الكهان، ورفع منزلة النثر، وهذب أغراض الأدب وفنونه.

٣ — وقد خلد الحديث على مر الأيام والأجيال، وأصبح موردا عذبا من الثقافة الأدبية على توالى العصور[1].

خطب رسول الله ﷺ أصحابه يوم بدر فقال:

١ — (أما بعد، فإنى أحثكم على ما حثكم الله عليه، وأنهاكم عما نهاكم عنه، فإن الله عظيم شأنه يأمر بالخير، ويحب الصدق، ويعطى الخير لأهله على منازلهم عنده.

٢ — وإنكم قد أصبحتم بمنزل من منازل الحق لا يقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتغى به وجهه.

٣ — وإن الصبر فى مواطن البأس مما يفرج الله به الهم، وينجى به من الغم، وتدرك به النجاة فى الآخرة.

٤ — فيكم نبى الله يحذركم ويأمركم، فاستحيوا اليوم أن يطلع الله على شيء من أمركم يمقتكم عليه، فإن الله يقول ﴿ لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم ﴾.

٥ — وأبلوا ربكم فى هذه المواطن أمرا تستوجبوا به الذى وعدكم من رحمته ومغفرته، فإن وعده حق، وقوله صدق، وعقابه شديد.

٦ — وإنما أنا وأنتم بالله الحى القيوم، إليه ألجأنا ظهورنا، وبه اعتصمنا، وعليه توكلنا، وإليه المصير، يغفر الله لى وللمسلمين).

مضمون هذه الخطبة النبوية الشريفة:

١ — الأمر بالفضائل الإنسانية التى أمر الله عز وجل ورسوله بها، وفى هذا الأمر — والوقت وقت معركة — ما فيه من دلالة قوية على أن المسلم يجب أن يلتزم بآداب دينه فى كل وقت، وبخاصة فى أوقات الشدائد والمعارك، لأن النصر لا ينزل من السماء إلا على المؤمنين الصادقى الإيمان بدينهم وكتابهم ورسولهم.

٢ — الوقوف فى ميدان المعركة — ابتغاء وجه الله لمقاومة أعداء السلام والإنسانية والتوحيد — منزل كريم من منازل الحق التى يرضى الله ورسوله عنها.

٣ — الصبر فى الحرب أهم شيء يجب أن يتحلى به الجندى، لأنه سلاح النصر، وهو أساس الصمود والنضال والاستبسال فى قتال أعداء الله والحق.

---

(١) راجع: الحياة الأدبية فى عصر صدر الإسلام للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى، ص ٤٠ — ٤٦، محاضرات فى الأدب العربى للدكتور عبد الحميد المسلوت ص ١٤٥ — ١٥٣.

٤ ـــ تحذير رسول الله للمجاهدين من عمل شيء يمقتهم الله ويغضب عليهم ويمنع عنهم نصره بسببه، والمقت أشد البغض. وفى ذلك ما فيه من تأكيد وجوب اتباع تعاليم الدين فى كل وقت، وفى أيام الحروب على وجه الخصوص.

٥ ـــ الدعوة إلى البطولة والتضحية والإقدام فى المعركة، وذلك هو سبب رحمة الله ومغفرته ورضوانه، ووعده الحق، وقوله الصدق، وعقابه شديد، ولنتذكر أن البلاء فى المعركة هو سبب رضوان الله ورحمته للمجاهدين الصادقين.

إلى ما تتحلى به الخطبة من الوضوح والسهولة والجمال والجلال، والحلاوة والروعة.

وما أروع الكناية فى قوله ﷺ: (مواطن البأس)، عن الحرب والمعركة.

وانظر إلى بلاغة رسول الله فى قوله: (إنما أنا وأنتم بالله الحى القيوم) أى لست ولستم شيئا إلا بعون الله الحى القيوم، العظيم القيام بتدبير أمور هذا الكون العظيم، و(القيوم) اسم من أسماء الله عز وجل.

وقوله ﷺ: (إليه ألجأنا ظهورنا) أى أسندنا ظهورنا إلى سند قوى وملجأ حصين هو الله عز وجل وحده.

٦ ـــ إعلان مزيد التوكل على الله عز وجل والاعتماد عليه، وتفويض الأمور إليه، وذلك هو أساس الفوز العظيم.

والمضمون العام لهذه الخطبة هو الدعوة إلى الصمود والصبر والاستبسال فى المعركة، وعند نزال الأعداء.

المفردات:

١ ـــ الحث على الشيء: الحض عليه. منازلهم: أى درجاتهم.
٢ ـــ بمنزل: أى بمكان وموضع.
٣ ـــ مواطن البأس: كناية عن الحروب والشدائد.
٤ ـــ المقت: شدة البغض.

المبحث الأول

بلاغة الرسول والاتصال الشخصى

كان ﷺ أبلغ العرب لسانا وأفصحهم بيانا وأعذبهم أسلوبا ، وأروعهم حكمة وأصدقهم قولا وأوضحهم عبارة ، وأطبعهم على البلاغة والفصاحة والبيان . وبلاغته النبوية تلى فى منزلتها الأدبية الذكر الحكيم ، وهى هذه البلاغة الإنسانية التى سجدت الأفكار لآيتها ، وحسرت العقول دون غايتها ، لم تصنع وهى من الأحكام كأنها مصنوعة ، ولم يتكلف لها وهى عن السهولة بعيدة ممنوعة . إن خرجت فى الموعظة قلت أنين من فؤاد مقروح ، وإن راعت بالحكمة قلت صورة بشرية من الروح ، وفى منزع يلين فينفر بالدموع ، ويشتد فينزو بالدموع ، وإذا أراك القرآن أنه خطاب السماء للأرض ، أراك هذا أنه كلام الأرض بعد السماء .

ولقد أخذ البلغاء والأدباء والمصاقع بهذه البلاغة الباهرة ، حتى لقد قال للرسول أبو بكر : لقد طفت فى العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت الذى هو أفصح يخاطب وفد بنى نهد : يا رسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم اكثره ، فقال عليه الصلاة والسلام (أدبنى ربى فأحسن تأديبى) ، ويقول الجاحظ فى بلاغته ﷺ : « كلامه ﷺ هو الكلام الذى قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ونزه عن التكلف ، وكان كما قال الله تبارك وتعالى قل يا محمد ﴿ وما أنا من المتكلفين ﴾ .

وهل تجد أبلغ أو أروع أو أعظم من بلاغته ﷺ . فأنت حين تسمع خطبته النبوية الأولى فى أهله وعشيرته لما أنزل الله تعالى قوله الكريم ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ : (إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس ما كذبتكم ، ولو غررت الناس ما غررتكم ، والله الذى لا إلـه إلا هو إنى لرسول الله إليكم وإلى الناس كافة . والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا ، وبالشر شرا ، وإنها للجنة أبدا ، أو النار أبدا ، وإنكم لأول من أنذر بين يدى عذاب شديد) ..

لا تجد إلا بلاغة وسحرا ، وجلالا وصدقا ، وحقا وروعة .. وكيف لا وقد أيد الله نبيه الكريم بمعجزة البيان ، فاختاره من قريش أبلغ العرب لسانا ، واصطفاه من أعلى

بيوتها حيث البلاغة والفصاحة والبيان واللسن، والحجة والمنطق ومقارعة البلغاء ومحاورة الفصحاء. ثم نشأته فى بنى سعد الذين خصوا من بين قبائل العرب بالفصاحة وحسن البيان. ولذلك قال ﷺ: (أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش ونشأت فى بنى سعد بن بكر)، ثم علمه لغات جميع قبائل العرب، وأقدره على مخاطبة كل قبيلة بلهجتها.

فلا جرم أن يكون المأثور عنه من الحديث صفوة اللغة وحلية البيان بعد القرآن، يقتبس الأديب من لفظه، وينتفع البليغ بصوغه، ويستمد مفسر القرآن من أثره، ويستكمل الفقيه الأحكام الشرعية من نصه، ويشيد اللغوى صرحا للغة من كلمه، ويستظهر الحكيم بحكمته، إذ كان صلوات الله عليه لا ينطق بلغو، ولا يقصد إلى غير توضيح قرآن، وتقرير شرع، أو هداية إلى حق، أو تنفير من شر، أو حكمة ينتفع بها الناس فى أمور دينهم ودنياهم.

ذلك أن رسول الله ﷺ هو معلم هذه الأمة، وكان قبل ذلك داعية لهذا الدين الذى دخلت فيه هذه الأمة، ومن أجل هذا حملت خطب النبى وأحاديثه طابعين فى وقت معا، وهما:

١ — طابع التعليم والإرشاد والهداية.

٢ — طابع التبشير والدعوة أو الدعاية.

والطابع الأخير هو الذى يعنينا فى هذا الفصل، ولعل أكبر شاهد على هذا الطابع أحاديثه ﷺ فى موضوع الجهاد، والجهاد كان ولا يزال من أقوى وسائل الدعوة الإسلامية ومن أعظم أسباب انتشارها — كما نعلم. ومن أبواب الفقه الإسلامى باب يسمى باب الجهاد — نوه فيه الفقهاء بأجر المجاهدين فى سبيل الله، واعتمدوا فى ذلك على كثير من آيات الكتاب الكريم وعدد عظيم من الأحاديث النبوية.

وفى كتب الحديث طائفة صالحة من كلام الرسول فى هذا الباب، فإذا رجعنا إلى كتاب « مفتاح كنوز السنة » للعالم الهولندى ونسنك[1]، وجدنا للبخارى خمسة وخمسين حديثا فى هذا المعنى، ولمسلم تسعة وستين، وللترمذى خمسة وأربعين، ولأبى داود ثمانية وثلاثين، وللنسائى واحدا وخمسين، ولابن ماجه اثنين وثلاثين.

ذلك أن الرسول ﷺ كان فى جميع أحواله، وفى كل ما ينطق به من أقوال وأحاديث

---

(١) ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى. راجع باب الجهاد فى هذه الترجمة ص ١٢٩. د. عبد اللطيف حمزة: السابق، ص ٩٥.

يمثل القرآن الذى نزل عليه . وصدقت السيدة عائشة أم المؤمنين حين سئلت عن خلق الرسول فقالت « كان خلقه القرآن » .

ونختم الكلام عن هذا الحديث بهذه العبارة التى أوردها الأستاذ[١] أحمد أمين وفيها يقول : وبعد — فقد كان للحديث — سواء منه ما كان صحيحا أو موضوعا — أكبر الأثر فى نشر الثقافة فى العالم الإسلامى . فقد أقبل عليه الناس يتدارسونه إقبالا عظيما ، وكانت الحركة العلمية فى الأمصار تكاد تدور عليه .

وعن طريق الحديث انتشرت فى العالم الإسلامى أنواع من الثقافة عدة : فالتاريخ الإسلامى بدأ يشكل الحديث .. وقصص الأنبياء وما إليهم جاءت فى القرآن وتوسع فيها أصحاب الحديث . ثم توسع فيها القصاص . وظهر القصص ومعه الحكم وقواعد الأخلاق وشىء من فلسفة اليونان والهند والفرس . ووضعت كل هذه المواد وضعا فى الحديث وانتشرت بين الناس على أنها دين . فكان لها من الأثر فى الناس ما ليس للتعاليم الدنيوية . وفوق ذلك كان الحديث منبعا للتشريع فى العبادات والمسائل المدنية والجنائية .. وعلى الجملة فقد كان الحديث أوسع مادة للعلم وللثقافة فى ذلك العصر .

أجل كان الحديث أوسع مادة للعلم والثقافة ، وقد أثبتنا فى هذا الفصل كيف أن الحديث كان — إلى جانب هذا وذاك أوسع مادة للدعاية . فقد اعتمد عليه الحكام فى الترويج لسياستهم ، كما اعتمد عليه أهل المذاهب الدينية لنشر مذاهبهم ، ومن هنا كثر فيه الوضع ، وذلك تبعا لكثرة الدواعى التى دعت إلى هذا الوضع .

ومما لا شك فيه أن الاتصال الشخصى فى ذاته أساس لجميع العمليات الإعلامية من حيث هى ، ومن بينها العملية الإعلامية التى تعرف « بالعلاقات العامة » والعملية التى تعرف « بالإعلان » ، ولكن الاتصال الشخصى أكثر ما يؤثر فى الحقيقة فى ميدانين خطيرين هما ميدان الدعوة وميدان الدعاية ، والقدرة على ممارسة الاتصال الذى من هذا النوع شرط فى نجاح العمليات الإعلامية التى أشرنا إليها ، ذلك أنه يلعب دورا خطيرا فى الإعلام على جميع المستويات . ومن الجدير بالذكر أن اتجاهات البحوث الحديثة تؤكد أهمية الاتصال الشخصى ، وتنسب إليه مقدرة عظيمة على التأثير فى الجماهير أكثر بكثير من بقية وسائل الإعلام العامة[٢] .

---

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٢٧٦ . د . عبد اللطيف حمزة : السابق ، ص ٥٩ .

(٢) د . إبراهيم إمام : الإعلام والاتصال بالجماهير ، ص ١٠

والمهم فى هذا الاتصال هو مدى ثقة الجمهور فى مصدر الإعلام، لأن هذه الثقة هى الأساس الذى يبنى عليه الجمهور تصديقه أو عدم تصديقه للرسالة الإعلامية . ويعلل الباحثون من أمثال : لازرسفيلد وكارتز وغيرهما سر تفوق الاتصال الشخصى فى التأثير بأنه « إذا كان من السهل أن ينصرف الناس عن المواد الإعلامية التى تتفق مع آرائهم وميولهم، فإنه ليس من السهل أن يتجنبوا الحديث مع زميل أو قريب أو صديق لهم، وخاصة إذا كان موضوع الحديث غير معروف لديهم سلفا . كما يتيح النقاش المباشر مرونة أكبر فى عرض وجهات النظر والتأثير فى الناس[١] .

المبحث الثانى

الخطابة الإسلامية والاتصال الجمعى

كانت الخطابة أداة الدعوة الإسلامية الأولى لاستنهاض الهمم والحث على الفضائل وجمع الشمل وإرهاب الأعداء، ومن المعروف أن القرآن الكريم لم يرد فيه أى تحفظ على الخطابة، كما ورد فى الشعر والشعراء . وقد كانت الخطبة وسيلة الرسول عليه الصلاة والسلام فى الدعوة إلى سبيل الله، لإيقاظ الضمائر وتدبر الكون والإيمان بالله الواحد الأحد، ومعرفة أوامر الدين ونواهيه التى تحقق سعادة البشرية[٢] .

عرفنا الخطابة فى الجاهلية ضيقة الأغراض، قصيرة الآفاق، محدودة الموضوعات والمظاهر، أو كانت على الأقل هكذا فيما انحدر إلينا من آثارها، وتناهى إلينا من تراثها، وكان يشاركها الشعر فى التعبير عن مناحى الفكر، وخوالج النفس، بل كان الشعر فى أهم المواقف وأعظم الأحداث، اللسان الناطق الذى يؤرث نار الحرب، أو يضع لبنات السلم، أو يلفت الناس إلى فضيلة من الفضائل، أو ينبههم على أمر من الأمور .

ولأن الخطابة لم تكن مما تدون فى صحف، أو تكتب فى رقاع، أو يسهل على الذاكرة اختزانها، لم يكن اهتمام القوم بها كاهتمامهم بالشعر، إنما يبعث عليها عندهم حدث طارئ أو أمر مفاجىء، ربما لم يكونوا قد أعدوا له عدته أو اتخذوا له أهبته .

وجاء الإسلام فتهيأ للخطابة فى ظله من نباهة الشأن، وارتفاع الذكر، وعلو المكانة، وعظمة المنزلة، ما لم يتهيأ لها من قبل ..

---

(١) نفس المصدر، ص ١٢

(٢) د . إبراهيم إمام : السابق ص ١٠٨ .

أصبحت أداة الدعوة ، واللسان الناطق بالرسالة ، تشرح للناس أسرارها ، وتبين المثل والقيم التى أتت بها ، وتوضح خفاياها ، وتحبب الناس فيها ، وتدلهم على الهدى والحق والرشد والصلاح ، وتجادل خصومها ، وتفند آراء المخالفين لها .

وإذا علمنا أن الكتابة لم تكن قد شاعت ولا فشت ، وأن الإسلام قد كره الشعر لما يحمل من المنافرات والمفاخرات وشدة الحمية ، أدركنا رسالة الخطابة فى الإسلام ، وجسامة مهمتها ، وعظم شأنها ، وقيامها بكل أمر جل أو صغر .

اعتمد عليها رسول الله ﷺ من لدن قام بأمر ربه يدعو عشيرته الأقربين ، ثم كان يذهب إلى أحياء العرب يعرض عليهم دعوته ، ويشرح فى كل موقف عقيدته . وكان يلقى الناس فى الأسواق العامة ، وفى مواسم الحج ويخطبهم ويقول لهم : (قولوا لا إلٰه إلا الله تفلحوا) . ثم انتقل إلى يثرب يدعو إلى الله على بصيرة ، ويقوم فى مجتمعات جديدة يشرح لهم ببيانه ، ويفيض عليهم من عذوبة لفظه وسماحة لسانه . وكانت تجيئه وفود العرب فيخطب فى كل وفد ، ويدعوهم إلى الدين ، أو يبين لهم الأحكام الشرعية والآداب الدينية كما أمر رب العالمين ، بقوله تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ ، وكما كان يقول لهم ﷺ : (ألا أخبركم بأحبكم إلىّ وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة ؟ أحاسنكم أخلاقا ، الموطأون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون) .

وكانت الخطابة لخلفائه من بعده أداة يرسمون بها سياستهم فى رعاياهم ، ويحددون دساتيرهم التى يلتزمونها فى حكم الناس ومعاملاتهم ، أو يحضون فيها على غزوة أو جهاد .

ذلك أن الخطابة منذ أقدم العصور من حيث هى تعتبر أقوى وسائل الإعلام والدعاية والاتصال بالناس ، للتأثير فى مشاعرهم ولإقناعهم بالأفكار الجديدة والعقائد الجديدة ، وبقى شأن الخطابة كذلك فى العصر الجاهلى وفى صدر الإسلام وفى الخلافة الأموية وما تلاها من حكومات . بل بقى شأنها كذلك فى كل ثورة حدثت على وجه البسيطة ، وذلك فى العصور القديمة والوسطى والحديثة ، وسيبقى لها هذا الشأن حتى تبدل الأرض غير الأرض .

من أجل ذلك عنى بها النقاد فى أثينا ، وكتب فيها أرسطو كتابه الشهير « الخطابة » ، وعنى بها المسلمون وحظيت بعناية كبيرة من جانب « الجاحظ » فى القرن الثالث الهجرى . وبقيت الخطابة موضع الاهتمام العظيم من جانب الدارسين والباحثين فى مجال الأدب والنقد إلى اليوم .

وأما فى مجال الإعلام فقد نظر العلماء الباحثون فى « علم الاتصال » فوجدوا أن الاتصال فى ذاته أنواع ثلاثة وهى :[١]

الأول — الاتصال الشخصى .

الثانى — الاتصال الجمعى .

الثالث — الاتصال بالجماهير .

أما النوع الثانى وهو الاتصال الجمعى — فهو المقصود بالخطابة والمؤتمر والندوات والأماكن التى يتجمع فيها الناس يستمعون فيها إلى محدث واحد أو عدد من المتحدثين . وإن كانت الخطبة أبرز ظواهر الاتصال الجمعى بلا نزاع ، وعليها — أى على الخطبة — اعتمد الرسول اعتمادا كبيرا فى نشر الدعوة وفى شرح تعاليم الدين وغير ذلك .

والاتصال الجمعى يعتبر من أهم المميزات التى تميز الإسلام ، فالشورى واجبة فى الإسلام ، فالله تعالى يقول ﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾ . الديمقراطية الدهمائية ، وإنما تقوم على العلم والعدالة وحسن الخلق والمروءة ، فالمشاركة بين الجمهور وأهل الشورى والإمام الحاكم فى المسئولية ، تجعل الاتصال الجمعى أساسا من أسس النظام السياسى فى الإسلام[٢] .

وصلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد . يقول رسول الله ﷺ : (صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة) . وأمر الإسلام بصلاة الجماعة لأنها رمز للوحدة الإنسانية ، فالصغير يقف بجانب الكبير ، والغنى مع الفقير ، الكل سواسية فى صف واحد نحو قبلة واحدة وإيمان واحد . فهى رمز وحدة الجماعة حين تتجه إلى الله ومن هنا كانت صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد .

وقد ذهبت الظاهرية إلى أن صلاة الجماعة فرض عين على كل مكلف ، وفرضت صلاة الجمعة جماعة على المسلمين فيجتمعوا دائما على هذه المعانى حتى وإن باعدت بينهم الديار ، لأن الوجهة واحدة والدعاء واحد . وتعتبر خطبة الجمعة من أقوى وسائل الاتصال الجمعى ، ويأمر الدين بالاستماع إليها فى خشوع .

ولعل الذى مكن للخطابة وجعلها منشورة الراية ، مرفوعة الذرى ، يسرع إليها كل من واجهته مشكلة ، أو اختلجت فى نفسه فكرة ، أو نقم من السلطان أمرا ، أو داخلته من الوالى ريبة فى بعض تصرفاته .

(١) د . عبد اللطيف حمزة : السابق ص ١٧٢ .

(٢) د . إبراهيم إمام : السابق ، ص ٣٥ .

لعل الذى مكن لها هذا التمكين هو أولا ما أسبغه الإسلام على هذا المجتمع من صراحة ، وما غرسه فيه من حرية واسعة يستطيع بها الإنسان أن يراجع ويناقش ويجادل ويخاصم ، ويمدح السلطان أو يثلبه ، ويؤيده أو يخذله . وهذه الحرية قد اتسع مداها وامتد أفقها حتى شملت النساء ، فلم تكن المرأة تسكت عما تظن أنه حق لها ، بل تخطب فى ذلك وتتحدث وتجادل .. لقد ذهبت امرأة إلى رسول الله ﷺ وقالت : إنى وافدة النساء إليك . ثم ذكرت ما للرجل من الأجر ، ثم تساءلت : فما لنا من ذلك يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : (أبلغى من لقيت من النساء أن طاعة الزوج واعترافا بحقه يعدل ذلك ، وقليل منكن من يفعله) — وقالت أخرى : (يا رسول الله غلبنا عليك الرجال ، فاجعل لنا يوما تحدثنا فيه ، ولهم كذلك) .

وكانت امرأة تعترض طريق عمر بن الخطاب وهو يخطب فتراجعه ، حتى لقد يرجع عن رأيه ، ويقول : « أصابت امرأة وأخطأ عمر » .

وكانت أم المؤمنين عائشة تخطب لترد على خصوم أبيها وتبين مآثره وتذكر مفاخره .

وكانت أم الخير بنت الحريش الباروقية تؤيد عليا كرم الله وجهه فى سياسته ، وتخطب فى ذلك الخطب التى تلهب النفوس وتثير الحماس ، وتدفع الناس دفعا إلى مقابلة أعدائهم والكر عليهم بسيوفهم ورماحهم ، حتى لقد أوفدت إلى معاوية بعد أن استقر له الأمر واستتب السلطان ، فسألها عن كلامها حين قتل عمار بن ياسر ؟ فقالت : لم أكن زورته قبل ولا رويته بعد ، وإنما كانت كلمات نفثهن لسانى حين الصدمة ، فإن شئت أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلت . فقال معاوية : لا أشاء ذلك ..

هذه بعض مآثر الحرية على الخطابة فى ظلال الإسلام .

ثم كان الجهاد فى سبيل الله وما يستلزمه من تحميس الناس له وتحريضهم عليه .

وكذلك جعل أمور الدولة شورى بين المسلمين .

هذا إلى ما فى القوم من ملكة أصيلة فى البيان ، ومطاوعة سهلة فى أزمة الكلام ، حتى لم يكن يصعب عليهم قول ، أو يند عن أذهانهم خطاب ، وكان ذلك كله داعيا إلى نهضة الخطابة وازدهارها .

أغراض الخطابة :

والدارس لأطوار الخطابة فى هذه الفترة يلمس فى وضوح كيف كانت تؤدى رسالتها فى قوة وأدب لا يعوقها ضعف ، ولا يلوى بها فتور أو إعياء ، حتى نهضت بهذه الموضوعات :

١ — دعوة الناس إلى الإيمان بالله ورسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، بدلا من المفاخرات والمنافرات التى كانت تهدف إليها الخطب فى الجاهلية .

٢ — الحث على الجهاد والاستشهاد فى سبيل الله ، وإثارة الإيمان والعقيدة فى النفوس حتى تقبل على الحرب بعزيمة صادقة وهمة متفانية ، بدلا من الخطب التى كانت تدعو فى الجاهلية إلى السلب والنهب والأخذ بالثأر والتحريض على الغارة .

٣ — شرح آداب الدين وفضائله ، وتبيان أسراره ومزاياه ، ولفت الناس إلى ما يصلحهم فى دنياهم ويسعدهم فى أخراهم .

٤ — وليس أدل على شرف الخطابة ورعاية الإسلام لها حق الرعاية ، من أنه يجعلها جزءا من العبادة فى كل أسبوع وفى الأعياد ، وفى كل ما ينوب المسلمين من أحداث وملمات .

٥ — الدعوة إلى الزهد ، وإلى ترك الانغماس فى ملذات الدنيا ونعيمها .

٦ — وأخيرا لقد استعملت الخطابة فى كل ما جاشت به صدورهم ، من دفاع عن رأى ، أو تحمس لمبدأ ، أو شرح لنهج سياسى ، ونحو ذلك مما استلزمته الخلافة الإسلامية ونظامها الجديد ، كالوعظ والقصص والحكمة .

خصائص الخطابة الإسلامية :

تتسم الخطابة الإسلامية :

١ — بأنها كانت تقوم على الإقناع والتأثير فى النفوس ، بالأدلة الساطعة ، والبراهين الناصعة ، وكثرة الاستشهاد بالقرآن الكريم ، وأحيانا بالشعر ومأثور الكلام من حكمة ومثل .

٢ — وبأنها كانت تلتزم فى مبدئها سمتا واحدا ، وهو حمدالله وتوحيده والثناء عليه بما هو أهله ، وقد ينضم إلى ذلك الصلاة على رسول الله وأتباعه . وكانوا يحرصون أشد الحرص على بدء الخطبة بالحمد ، حتى عابوا على زياد خطبته التى خلت منه وسموها « البتراء » ، وكانوا يختمون الخطبة بمثل « أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » . وكان أبو بكر يختم خطبه بقوله : « اللهم اجعل خير زمانى آخره ، وخير عملى خواتمه ، وخير أيامى يوم ألقاك » وكان عمر يلتزم فى الآخر قوله « اللهم لا تدعنى فى غمرة ، ولا تأخذنى على غرة ، ولا تجعلنى من الغافلين » .

٣ — أما أسلوب الخطابة فى هذا العصر فهو الأسلوب الفطرى الذى يساوق الطبع

ويوائم السليقة، ولا يعتسف فى لفظ أو فكر أو خيال. فهو لين هادئ، أو ثائر عاصف على حسب المقتضيات، ووفقا للأحوال.. مع وضوح اللفظ، وسهولة الأسلوب، والانسجام التام فى بناء الكلمات، وترك السجع المرذول، وهجر الوحشى، والبعد عن التكلف، والإيجاز فى موضوع الإيجاز، والاطناب فيما يستدعى الإطناب والإطالة..

أما ما بقى للخطابة من سماتها القديمة، فهو القيام على نشز من الأرض ذلك للإشراف على السامعين، أو لعل ذلك أصل سنة المنبر فى المسجد. وكان الخطيب إذا قام للخطابة اعتمد على شىء فى يده كسيف أو قوس أو عصا، وقد يجمع بين السيف أو القوس فى يساره والعصا فى يمينه. وكانوا يحرصون على اعتجاز العمامة، والاشتمال بالرداء، وإصابة الإشارة، وحسن السمت، وجهارة الصوت، وتمام الوقار، وكل ما يدعو إلى التأثير فى نفوس السامعين.

أشهر الخطباء:

امتاز هذا العصر بكثرة الخطباء البلغاء كثرة رائعة، وفى صدر الخطباء الخطيب الأول والزعيم الروحى الأعظم محمد صلوات الله عليه.

ومن الخطباء: أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وعائشة وخالد وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وأبو عبيدة بن الجراح ومعاوية، وسواهم من أعلام الخطباء والبلغاء رضوان الله عليهم أجمعين.

ومن الخطباء المشهورين: عطارد بن حاجب بن زرارة، وكان الخطيب عند النبى ﷺ كما يقول الجاحظ(١).

وقد تميزت الخطابة النبوية الشريفة بقوة التأثير، مع رقة الألفاظ وسمو المعانى والموضوعات، واختيار الخطب المناسبة للأوقات، مع الإيجاز حتى لا يسأم السامعون، أو للسامع على الاستيعاب وتمهيدا للفكرة التالية. وكان الرسول عليه الصلاة والسلام لا يعيب ولا يشتم ولا يجابه ما بال أقوام يفعلون كذا.. وقد أثر عن القاضى أبى ليلى قوله « لا يأمر ولا ينهى إلا من كان رفيقا فيما أمر به، رفيقا فيما ينهى عنه، حليما فيا يأمر به، حليما فيما ينهى عنه » (٢).

ومن نماذج الخطابة النبوية الشريفة التى تمثل قوة من قوى الإعلام فى عصر الرسول ﷺ:

---

(١) البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢١٤

(٢) د. إبراهيم إمام: السابق، ص ٣٦

لما كانت أول جمعة للنبى الكريم بالمدينة خطب المسلمين فكان مما قال : (الحمد لله ، أحمده وأستعينه ، وأستغفره وأستهديه ، وأومن به ولا أكفره وأعادى من يكفره ، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى والنور والموعظة فى فترة من الرسل ، وقلة من العلم ، وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمان ، ودنو من الساعة ، وقرب من الأجل .. ومن يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصه فقد غوى وفرط وضل ضلالا بعيدا . وأوصيكم بتقوى الله فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله ، فاحذروا ما حذركم الله نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من ذلك ذكرا . وإن تقوى الله يوقى مقته ، ويوقى عقوبته ، وإن تقوى الله يبيض الوجوه ويرضى الرب ويرفع الدرجة) .

(١)
خطبة النبى ﷺ أيام التشريق
وهى خطبته فى حجة الوداع[1]

تمهيد :

النبى ﷺ خير ناطق من البشر ، وقد كان فى براعة منزعه ، وإيجاز كلمه ، ونصاعة لفظه ، وجزالة قوله ، وصحة معانيه ، وصدق توجيهاته ، بالمحل الأرفع والمكانة التى لا تجهل .

وقد أخرج البيهقى فى « شعب الإيمان » أن أصحاب رسول الله قالوا له : ما رأينا الذى هو أفصح منك . قال : (أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش ونشأت فى بنى سعد) .

وهذه الخطبة من كلمه ﷺ الذى يتمثل فيه صحة الطبع ، لا يتكلف فيه فى سجع ولا غير سجع ، ويتجلى فيه كيف تكون السهولة مع غزارة المادة . وإذا كانت الخطب محل إطناب كما قالوا ، فإنك سترى أن الإيجاز هنا زاحم الإطناب وتغلب عليه ، مع تحقيق الغرض المطلوب من الإطناب ، وذلك شىء لا يتيسر إلا لمثل الرسول ﷺ ، ممن أوتوا الحكمة وفصل الخطاب ، وقليل ما هم . وأيام التشريق هى أيام النحر ، والأصل فى التشريق تقديد اللحم ، أو لأن الهدى لا ينحر حتى تشرق الشمس .

---

(١) كانت السنة العاشرة من الهجرة الشريفة ، وهى السنة التى توفى فيها ابنه إبراهيم ﷺ .

نص الخطبة :

يقول رسول الله صلوات الله عليه(١) ، بعد حمد الله :

(أيها الناس ، هل تدرون فى أى يوم أنتم وفى أى بلد أنتم ؟ « قالوا : فى يوم حرام ، وفى شهر حرام ، وفى بلد حرام » قال : ألا فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا إلى يوم تلقونه) — ثم قال :

(اسمعوا منى تعيشوا ، ألا لا تظالموا(٢) (ثلاثا) ..

ألا إنه لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه ، إلا إن كل دم ومال ومأثرة(٣) كانت فى الحياة الجاهلية تحت قدمى هذه ، ألا وإن أول دم وضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، ألا وإن كل ربا كان فى الجاهلية موضوع(٤) ، ألا وإن الله تعالى قضى أول ربا يوضع ربا عمى العباس ، لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، ألا وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، ومنها أربعة حرم ، ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم . ألا لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض . ألا وإن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون ولكن فى التحريش بينكم(٥) :

اتقوا الله فى النساء ، فإنهن عوان عندكم(٦) لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وإن لهن عليكم حقا ولكم عليهن حق .. ألا يوطئن فرشكم غيركم . فإن خفتم نشوزهن(٧) فاهجروهن فى المضاجع ، واضربوهن ضربا غير مبرح . ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف .. فإنما أخذتموهن بأمانة الله تعالى ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله .

ألا ومن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها .

ثم بسط يده فقال : ألا هل بلغت ؟ ليبلغ الشاهد الغائب . فرب مبلغ خير من سامع) .

---

(١) عن أبى بكر محمد بن الطيب الباقلانى فى كتابه إعجاز القرآن (ص ١٦١ طبع صبيح) .

(٢) لا يظلم بعضكم بعضا .

(٣) المأثرة بفتح الثاء وضمها كالأثرة : الكرمة المتوارثة ، وكانت هناك امتيازات لا مبرر لها فألغاها الإسلام .

(٤) من وضعه وضعا وموضعا بكسر الضاد والفتح : إذا حطه .

(٥) التحريش : الإغراء .

(٦) عوان : جمع عانية وهى الأسيرة .

(٧) نشزت المرأة تنشز بكسر الشين وضمها ، استعصت على زوجها وأبغضته .

المناسبة التاريخية للخطبة :

ارتجل النبى ﷺ هذه الخطبة الرائعة فى أيام التشريق ، وهى الأيام التى ينحر فيها الهدى فى موسم الحج . وهى آخر خطبه — صلوات الله عليه — ودع فيها المسلمين ، وأومأ إلى ذلك ، وكان مبلّغ رسول الله إلى الناس بعرفة هو ربيعة بن أمية بن خلف .

موضوع الخطبة :

موضوعها التحذير من البغى والعدوان ، وسنن الجاهلية الأولى التى يخشى أن يعود الناس إليها فيفسد عليهم دينهم وتعود إليهم جاهليتهم ، وقد أوردها النبى ﷺ فى صور مختلفة تحفظ كل نفس كريمة من التورط فى الإثم والعدوان .

فحواها ومنهجها :

١ — بدأها النبى ﷺ بأسلوب الاستفهام العظيم الذى ينبه الأذهان الغافلة ، ويحرك العقول الراكدة ، وأن المسئول يشعر أن عليه عبء الإجابة ، ولا يستريح إلا بإلقاء الجواب ، فهو فى حركة ذهنية حتى يصل إلى المطلوب فيستقر فى نفسه . وما أكثر ذلك فى السنة النبوية ، كقوله : أتدرون من المفلس ؟.. وحديث السؤال عن شجرة لا يسقط ورقها ، وما إلى ذلك . وكان السؤال عن اليوم والشهر والبلد وكلها حرم ليشبه بها ما حرم الله سبحانه وتعالى من أموال وأعراض ودماء المسلمين ليستقر المعنى أفضل استقرار ولا ينفلت من الأذهان . ومن اللطيف أنها ثلاثة معروفة التحريم ، وتقابلها ثلاثة يراد تقرير تحريمها فى نفوس المسلمين .

٢ — أعاد النبى ﷺ بيان تحريم الدماء والأموال وجعل الثالثة أخيرا وهى الأعراض ، عناية بأمر الدماء والأموال التى يحرص الشارع كل الحرص على تحريمها ، فهى مكررة فى صورتين ، وأما الأعراض فإن الشرف قد يحول دون الخوض فيها إلا فى طائفة معينة ، فلهذا كرر الدماء والأموال فى أمر التحريم . وقد أكد الأمر فى صدد هذه الإعادة بقوله (اسمعوا .. تعيشوا) فجعل العيش الصالح مرتبا على سماع الامتثال والقبول ، وبين أن الأمر جد نافذ حتى نفذه الرسول ﷺ فى أقرب الناس إليه ، فكل الدماء والأموال والمآثر حقيرة تحت قدم النبى .

٣ — ورد الأمر فى النسىء إلى أصله، فبين أن الزمان قد رجع كما خلقه الله عليه بإلغاء النسىء ، وكانوا يحتالون به للسير فى حروبهم وإرواء عطشهم للدماء، ثم نهى عن الظلم فى الأشهر الحرام .

٤ — ثم خص ناحية خطرة من مظالم الجاهلية ، تأكيدا لدعوة الإسلام فيها وقضاء

على سنة الجاهلية فى أمرها ، وهى ناحية المرأة . فبين ما لها وذكر ما عليها ، فعليها حفظ الرجل ، وعلى الرجل رزقها وكسوتها بالمعروف .. وعلل ذلك بأنها أمانة أودعها الله عنده ، لأن كلمة الله هى التى أحلت المرأة للرجل وجعلته يحوزها ويملكها ملكا جزئيا ، له المتعة منها والطاعة عليها . و(كلمة الله) : ما شرعه من إباحتها بالعقد الشرعى ، ثم ختم بالاستفهام ليحمل السامع التبعة كأنه أخذ عن الله صاحب الأمر الحقيقى ، وأمر السامع أن يبلغ من لم يسمع .

٥ — ومعانيها قوية سامية منسقة متجاوبة ، ومثلها لا يصدر إلا عن هذه النفس الكريمة . وما أقوى وأروع قوله : « ألا وإن الشيطان قد يئس أن يعبده المسلمون ولكن فى التحريش بينكم » . وتمتاز معانيها بالدقة والوضوح مع التناول .

الأسلوب الإعلامى :

أسلوبها هو الأسلوب السلس السهل السائغ الممتنع ، مع حفله بالمعانى وغزير الحكم . ويتجلى لك ذلك فيما تتركه من الأثر فى النفوس مع خلوها من الغريب النافر والمستكره الحوشى والتعقيد اللفظى والمعنوى ، فهى مرتبة ترتيبا مشرقا ، وواضحة الدلالة على معانيها مع إيجاز لا إخلال فيه ولا التواء .

ويتجلى فى أسلوبها التأثر بالقرآن والانتفاع به ، وهو مؤدب الرسول ﷺ فى قوله وفعله ، وقد اقتبس منه ثلاثة مواضع : قوله ﴿ لكم رءوس أموالكم ﴾ ، ﴿ منها أربعة حرم .. ﴾ ، ﴿ واللاتى تخافون نشوزهن .. ﴾ .

وتتجلى السهولة فيما فيها من استعارات وكنايات قريبة ، كقوله ﷺ : (لا يوطئن فرشكم غيركم) ، (تحت قدمى هذه) وتشبيهاتها رائعة خلابة أصابت غرة الهدف وجاءت متساوقة فى المقام .

تأثرها بالقرآن الكريم :

والخطبة تحتذى أسلوب القرآن الكريم وطريقة تصويره وجمال تعبيره ، فتراها حلوة الألفاظ عذبة الكلمات سلسة العبارات متجاوبة الفقرات ، يتزاوج فيها المبنى مع المعنى ، وتتلاحق فيها الأفكار منسقة متجانسة ، وتدق فيها الاستعارات وتلطف الكنايات وتصدق التشبيهات ، وتختال الفكرة فى مطارف مفوفة من سحر البيان ورائع الافتنان ، وحسبك بيانا أنه النبى العربى أفصح من تفتحت عنه أكمام البيان ، واستقام له صفاء الوجدان .

المضمون الإعلامى :

١ — الدعوة إلى التوحيد الخالص ، والإيمان الكامل .
٢ — الدعوة إلى وجوب احترام حقوق الإنسان وبخاصة فى النفس والمال والعرض .
٣ — إلغاء التعامل بالربا .
٤ — تأكيد حقوق المرأة ووجود رعايتها ورعاية العلاقة الزوجية .
٥ — صيانة الروابط الدينية والأخوية بين المؤمنين .
٦ — إعلان المساواة التامة بين بنى الإنسان فى الحقوق والواجبات مساواة تامة ، بغض النظر عن اللون والجنس .
٧ — التحذير من فتن الشيطان والتنبيه إلى وجوب التزام اليقظة والحذر من وسائل إفساده للأخوة بين المسلمين وتفريق صفوفهم .
٨ — الدعوة إلى وجوب التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ، لأنها الهدى الذى لا يضل من تمسك به .
٩ — الدعوة إلى تبليغ الرسالة للناس كافة .

وهكذا رأينا الخطبة إعلانا دستوريا للرسالة المحمدية وللأمة الإسلامية كافة .

وهذا نموذج ثانٍ للخطابة الإسلامية ، يتضح فيه اقتداء الصحابة رضوان الله عليهم بالرسول ﷺ فى الإعلام الإسلامى ، ونعنى : خطبة أبى بكر يوم السقيفة .

والسقيفة : ظلة كانت بالقرب من دار سعد بن عبادة سيد الأوس والخزرج ، اجتمع فيها أصحاب رسول الله بعد وفاته يريدون انتخاب خليفة لرسول الله منهم ، وكانوا يؤثرون بالخلافة سعد بن عبادة . وخطبهم سعد مبينا ما للأنصار من الفضل والسبق إلى حماية رسول الله ، وأنه لا ينبغى أن ينازعهم أحد فى هذا الأمر . فرد عليه الأنصار جميعا أوسهم وخزرجهم : أصبت ووفقت . ثم أخذوا يتشاورون ويقول بعضهم لبعض : فإن أبى ذلك المهاجرون من قريش وقالوا : نحن عشيرته وأولياؤه ، فماذا نقول لهم ؟ ، فاجتمعوا على أن يردوا بقولهم : منا أمير ومنكم أمير ، ولن نرضى بدون هذا . فقال سعد لما سمعها : هذا أول الوهن .

بلغ نبأ هذا الاجتماع كبار الصحابة ، فمضى أبو بكر وعمر وغيرهما إلى السقيفة مسرعين حتى وصلوا إليها ، وكان عمر يريد أن يتكلم بكلام هيأه فى نفسه ، فقال له أبو بكر : على رسلك . وكان أبو بكر رجلا وقورا فيه أناة ، فتقدم وخطب الناس فذكر تاريخ المهاجرين وما لهم من فضل السبق وتحمل المصاعب فى سبيل الإسلام والرسول ،

ثم كر على الأنصار فذكر مآثرهم وأثنى عليهم، ولم يترك شيئا مما لهم من المناقب إلا ذكره. ثم روى لهم ما أثر عن رسول الله من قوله: الأئمة من قريش. ثم قال: فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تفتاتون بمشورة، ولا تقضى دونكم الأمور.

فلما أتم أبو بكر خطابه أخذ الأنصار يتجادلون، ثم تقدم عمر وأبو عبيدة — وكان أبو بكر يرشحهما للخلافة — فقالا لأبى بكر: والله لا نتولى هذا الأمر عليك فإنك أفضل المهاجرين، وثانى اثنين إذ هما فى الغار، وخليفة رسول الله على الصلاة، والصلاة أفضل دين المسلمين. فمن ذا ينبغى له أن يتقدمك أو يتولى هذا عليك؟ ابسط يدك لنبايعك. فمد عمر يده إليه فبايعه، ثم أبو عبيده، ثم المسلمون كافة. وبهذا تمت الخلافة لأبى بكر.

النص:

حمد أبو بكر الله عز وجل وأثنى عليه، ثم قال:

أيها الناس نحن المهاجرون أول الناس إسلاما، وأكرمهم أحسابا، وأوسطهم دارا، وأحسنهم وجوها، وأكثرهم ولادة فى العرب، وأمسهم رحما برسول الله ﷺ. أسلمنا قبلكم، وقدمنا فى القرآن عليكم، فقال تبارك وتعالى: ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ﴾، فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار إخواننا فى الدين، وشركاؤنا فى الفيء[1]، وأنصارنا على العدو. آويتم وواسيتم فجزاكم الله خيرا، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تدين العرب إلا لهذا الحىّ من قريش، فلا تنفسوا[2] على إخوانكم المهاجرين ما منحهم الله من فضله.

تحليل النص:

١ — شخصية القائل، وعظمة المناسبة، يجعلان لهذا النص خطرا وجلالا فوق خطره الأدبى وجلاله البيانى.

إن هذا الموقف الرهيب لم يحل بين أبى بكر الصديق وبين الجهر بالرأى والنطق بالحق وإصابة سواء المفصل، وإقناع المسلمين بالحجة والبرهان.

بعد وفاة الرسول الأعظم كان الخلاف حول خلافة رسول الله شديدا، فالأنصار مع ما بينهم من خصومات جاهلية يريدونها لأنفسهم، والمهاجرون مع ورعهم

(١) هو الغنيمة والخراج.
(٢) لا تنفسوا عليهم: أى لا تحسدوهم.

وسابقتهم فى الدين ونأيهم عن طلب شىء من الدنيا ، يريدونها لهم . ولكنهم لا يريدونها لأنها وظيفة دنيوية ، بل لأنها منصب دينى ، يتمكن منه الذى يليه من إعزاز راية الإسلام ونشر مبادئ العقيدة الإسلامية .

وفى هذا الموقف يمتحن أبو بكر امتحانا شديدا ، كل كلمة محسوبة عليه ، وكل حرف دليل لإدانة أو تهمة . ويتبين فى هذا الموقف عظمة أبى بكر وجلالته وبعد فراسته . إنه لم يطعن على أحد ، ولم يعب أحدا ، ولم يطلب لنفسه شيئا ، فماذا قال :

١ — حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله .

٢ — ثم بين فضل المهاجرين وسابقتهم فى الإسلام ، واستعدادهم لتحمل أعباء السيادة وتكاليف الشرف ، مع ما لهم من مجد وحسب وما يتصفون به من سماحة وجود وأريحية ومن كثرة عدد ، ومن شدة قرب من الرسول الأعظم بالنسب ، ومع ما لهم كذلك من شرف تليد ومفاخرة قديمة تقرّ بها العرب . ثم أصاب المحز بالاستدلال بالقرآن الكريم حين قدمهم فى الذكر على إخوانهم الأنصار .

٣ — ثم عاد إلى الأنصار فوصفهم بالأخوة فى الدين وبالشركاء فى الغنيمة ، وليس هناك وصف أبلغ من وصفه لهم بالأخوة . وقد عادل فى وصفهم لهم بين الأخوة فى الدين والشركة فى المال — أى فى الدنيا — تمام المعادلة وأبلغها ، ثم كرر وصفه لهم بأنهم أنصار إخوانهم المهاجرين على الأعداء ، وذكر فضلهم بقوله : آويتم وواسيتم ، أى آويتم من لا وطن لهم وهم المهاجرون ، وواسيتموهم فى المحنة والشدائد والخطوب حين عز النصير ، ثم دعا الله بأن يتولى الله جزاءهم الحسن .

٤ — ثم عاد بعد كل ذلك إلى تقرير الأمر ، وتوضيح الرأى ، وحل المشكلة بأن يكون من المهاجرين الخليفة ، ومن الأنصار وزراؤه وأعوانه ، وعلل ذلك تعليلا سياسيا بعيد النظرة ، وهو أن العرب لا تخضع ولا تدين بالطاعة إلا لقريش ، فخصص الخلافة بأنها يجب أن تكون من بين المهاجرين فى قريش ، وليس أحد يستطيع أن يناقس قريشا فى المجد والشرف فى العرب قاطبة .. وحث بعد ذلك الأنصار على قبول هذا الحكم ، ناهيا إياهم أن يحسدوا إخوانهم المهاجرين على ما منحهم الله من فضله .

وبذلك استقام الرأى ، واتضح وجه الصواب ، وبانت السبيل ، دون أن يسب أبو بكر أحدا ، أو يطعن على قبيل ، أو يطلب لنفسه شيئا . وما أبلغ ما كرر أبو بكر من وصف الأنصار بأنهم إخوان المهاجرين ، فالمسألة إذن لم تتجاوز حد الخلافة بين أسرة واحدة ، وأشقاء أصفياء ، وما أبلغ ما استدل به أبو بكر من القرآن الكريم ، وما أكده من

أن تولى أحد من الأنصار للأمر بعد رسول الله سوف يكون له نتائجه بين العرب ، وقد اعتادوا أن لا يقبلوا رياسة غير قريش عليهم .

إن يوم السقيفة هو يوم البيعة العامة لخليفة رسول الله .. وقد اتسم هذا اليوم بمظهر ديمقراطى سليم ، فكبار الصحابة وأعلام الإسلام كلهم اشتركوا فى الرأى وانتهوا إلى ما انتهى إليه أبو بكر من أن الخلافة يجب أن تستقر فى المهاجرين دون الأنصار ، وفى قريش خاصة من بين المهاجرين ، والأنصار لهم من ذلك منزلة الوزراء من الأمراء .

الصورة الإعلامية فى النص :

١ ـــ هذه الخطابة تمثل فى إيجازها ووضوحها وصدقها وبساطة أسلوبها وجلال مغزاها وروحها ، البلاغة فى أسمى منازلها ، والفصاحة فى أعلى قممها .

ووصف أبى بكر للمهاجرين بالسابقة فى الإسلام وصف أصاب به المحز ، وما أروع ما وصفهم به من كرم الأحساب ، وما أروع الكناية عن السيادة بقوله « وأوسطهم دارا » والكناية عن السماحة بقوله « وأحسنهم وجوها » ، والكناية عن القوة بقوله « وأكثرهم ولادة فى العرب » لأن الكثرة دليل القوة عند العقل .

٢ ـــ ووصفه الأنصار بأنهم إخوان المهاجرين فى الدين وشركاؤهم فى الغنائم وأنصارهم على الأعداء ، وصف دقيق رائع بليغ . وما أبلغ وصفه لهم : « آويتم » أى أضفتم المهاجرين الخارجين من وطنهم ومالهم ، وقبلتم أن ينزلوا فى حمايتكم وفى دياركم وأموالكم . ثم بقوله : « وواسيتم » والمواساة المشاركة فى المحنة والشدة ، وهذا من موجز اللفظ وبليغه ودقيقه ، وحقا كان كذلك الأنصار بالنسبة للمهاجرين .

وانظروا فوق ذلك إلى صحة الألفاظ واستقامة الأساليب وبلاغتها ، وقوة المنطق ، وصدق الحجة ، وإلى ترتيب الأفكار وتنسيق الحجج ، وإلى إصابة المحز وبلوغ الهدف . إن كل ذلك من خصائص بلاغة هذا النص الشريف ، ومن تأثير الإسلام والقرآن فى الأدب والأدباء .

٣ ـــ وروح النص وجوه والتأثرات المختلفة فيه ترشد إلى الإسلام والقرآن فى بلاغته ، مما لا داعى إلى الكلام فيه .

ومن أعلام الخطباء فى عصر صدر الإسلام ، ومن بيت النبوة ، ودوحة الرسالة على ابن أبى طالب ، وحفيد عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وكان عبد المطلب سيد قريش وزعيمها وعلمها المشهور .

أما والده أبو طالب فكان شريفا عظيما ، اشتغل بالتجارة فى الجاهلية ، ولما مات أبوه ورث عنه السقاية والرفادة ، وهو الذى كفل ابن أخيه محمدا صلوات الله عليه ، وشمله بالرعاية والعون والتأييد ، حتى توفاه الله إلى رحمته .

ووالدة الإمام على هى فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف ، وهى أول هاشمية ولدت هاشميا ، أسلمت وهاجرت إلى المدينة وماتت فى حياة الرسول .

والإمام على هو الخليفة الرابع لرسول الله صلوات الله عليه ، وهو ابن عم الرسول ، وزوج ابنته ، ووالد الحسن والحسين ، وإمام الخطباء من المسلمين بعد رسول الله .

(٢)

(أ) ولد — رحمه الله — بمكة بعد مولد الرسول باثنتين وثلاثين سنة (قبل البعثة بثمان سنوات ، وقبل الهجرة بواحد وعشرين عاما)[١]

ونشأ بمكة النشأة العالية ، فى كفالة الرسول كأحد أولاده ، فقد كان الرسول صلوات الله عليه متزوجا خديجة أم المؤمنين ، وكانت ذات مال كثير ، وربح وفير من التجارة على يدى محمد بن عبد الله ، فلما أصيبت قريش بالقحط والمجاعة ، قال الرسول لعمه العباس : إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، والناس فيما ترى من الشدة . فانطلق بنا فلنخفف من عياله تأخذ أنت واحدا وأنا واحدا . وكان لأبى طالب من الذكور أربعة أولاد ، وهم طالب وعقيل وجعفر وعلى ، أما طالب فمات قبل أن يسلم كأبيه والباقون أسلموا ، وكان إسلام على وهو صغير فى السنة الثامنة من عمره أو العاشرة ، ولم يدنس نفسه بشىء من آثام الجاهلين وباطلهم وشركهم ، ومن ثم قيل فيه : « كرم الله وجهه » ، لأنه لم يسجد لصنم قط .

ولما علم أبوه بإسلامه قال له : أى بنى ، أى شىء الذى أنت عليه ؟

قال : « يا أبت آمنت بالله ورسوله ، وصدقت ما جاء به واتبعته » فقال له : إنه لم يدعك إلا إلى الخير فالتزمه .

(ب) وكان علىّ ذا منزلة رفيعة عند الرسول والصحابة والمسلمين ، وعلى جانب كبير من التقوى . وكان أوفرهم نصيبا وأكرمهم حظا من الرسول ، وإليه كانت الفتوى

---

(١) يقول المسعودى فى ص ١٩٨ من كتابه « التنبيه والإشراف » : تنوزع فى سنه يوم أسلم فقيل : كانت سنه خمسة عشر عاما ، وقيل : ثلاثة عشر ، وقيل : أحد عشر ، وقيل : تسع ، وقيل : ثمان ، وقيل : سبع ، وقيل : ست ، وقيل : خمس .

فى حياة الرسول وبعد حياته ، حتى ضرب به المثل بعد وفاة رسول الله ، فقيل : « قضية ولا أبا حسن لها » . قال عبد الله بن عباس : « قسم علم الناس على أجزاء ، فكان لعلى منها أربعة ، ولسائر الناس جزء شاركهم فيه ، فكان أعلمهم به » . وقال فيه عبد الله بن مسعود : « كان على أفرض أهل المدينة وأقضاهم » ، يريد أعلمهم بعلم الميراث والفصل فى القضايا بين الناس ، وكان يسأل عن الأمور المشكلة فيجيب بها على البديهة ، ويحل مشكلات المسلمين الدينية والاجتماعية .

وكان بطلا مقداما ، وفارسا شجاعا ، علما من أعلام الإسلام ، كما كان خطيبا مصقعا ، وبليغا منطيقا ، ومستشارا مؤتمنا عند أبى بكر وعمر .

(جـ) وجهاد على فى نشر الدعوة فى حياة الرسول ذائع مشهور ، وحسبه فخرا موقفه الخالد ليلة الهجرة ، إذ نام فى مضجع رسول الله صلوات الله عليه ليفدى الرسول ، ويضمن نجاح هجرته ، مع ما كان يعلمه مما قد يصيبه من قتل أو تعذيب .

وهاجر على إلى المدينة وأقام فيها مع رسول الله ، يستمد علمه من علم صاحب النبوة ، وكان من كتاب الوحى ، واشترك فى المشاهد والغزوات كلها ما عدا غزوة تبوك .

(د) وتوفى رسول الله ﷺ وولى الخلافة أبو بكر بعده ، وكان على كريم النفس ، رائع التضحية والإيثار ، إذ وقف وراء خليفة رسول الله يشد أزره ، ويسند ظهره ، ويشير عليه فى المشكلات . ولما تولى عمر الخلافة بعد أبى بكر كان علىّ له ظهيرا ومعينا ، يشير عليه بالصواب والسداد عند تفاقم الأمور ، والحاجة إلى الناصح الأمين .. ثم قام بعد عمر عثمان بالخلافة فبايعه على وظل يعاونه حتى تفاقمت الأمور وقامت الثورة على عثمان ومات فيها قتيلا . ويروى أن عثمان كتب إليه وهو محاصر فى داره : « بلغ السيل الزبى ، وجاوز الحزام الطبيين ، وطمع فىّ من لا يدافع عن نفسه ، ولم يغلبك مثل مغلب ، فأقبل إلىّ صديقا كنت أو عدوا .

فإن كنت مأكولا فكن خير آكل   وإلا فأدركنى ولما أمزق

فبعث إليه بابنيه الحسن والحسين يدافعان عنه ، وأبليا بلاء حسنا فى هذا المضمار ، ولكن إرادة الله الغالبة أرادت أن يقتل عثمان ، وأن تصل الأمور إلى ما وصلت إليه من اضطراب وغليان .

(٣)

وبويع على بالخلافة بعد عثمان على كره منه عام ٣٥ هـ ، وسارت الأمور على النحو الذى سارت عليه .

خرجت عليه عائشة وطلحة والزبير بالبصرة ، ومعاوية بالشام ، واستمرت الحرب بينه وبين معاوية سجالا ، وكانت موقعة صفين ، فموقعة الجمل ، ثم كان أمر التحكيم الذى قبله علىّ على كره منه ، وخدع عمرو بن العاص أبا موسى الأشعرى فيه ، وخرج الخوارج وتآمروا على الإمام وقتلوه بيد عبد الرحمن بن ملجم المرادى فى الكوفة فى السابع عشر من رمضان عام ٤٠ هـ ، ودفن بها وعمره ثلاثة وستون عاما .

وتولى بعده ابنه الحسن خلافة المسلمين ، ثم تنازل عنها لمعاوية عام ٤١ هـ .

نهج البلاغة للإمام على :

كتاب جليل ، وأثر أدبى خالد ، بعد كلام الله وكلام رسوله ، جمعه الشريف الرضى (المتوفى عام ٤٠٦ هـ) ، مشتملا على كل ما نسب للإمام من خطب ووصايا ، ونصائح ، وحكم ، وأمثال ، ومواعظ ، ومحاورات ، ووسائل عهود ، وغيرها . وقيل إن الذى تولى جمعه هو الشريف المرتضى (المتوفى عام ٤٣٦ هـ) .

وتختلف الآراء فى صحة نسبة الكتاب للإمام ، ففريق يرون أن الكتاب بجملته وتفصيله لعلى ، ويروى آخرون أنه منحول مفترى عليه للأدلة الآتية :

١ — ما فى الكتاب من أفكار عميقة ، واصطلاحات كلامية لم توجد فى عصره .

٢ — ما فى بعض رسائل الكتاب من طول كثير ، كعهد على إلى الأشتر النخعى ، وذلك مما يدع مجالا للشك فى صحة نسبتها إلى الإمام على .

٣ — خلو الكتب المؤلفة قبل الشريف الرضى من كثير مما فى نهج البلاغة .

٤ — ما فى الكتاب من أقوال شديدة اللهجة فى حق بعض الصحابة ، كما فى الخطبة الشقشقية التى يؤيد كثير من الباحثين نسبتها للإمام ، وينكر آخرون أن تكون من كلامه .

ونحن لا نقول : إن الكتاب كله منحول على الإمام ، بل نذهب إلى أنه قد يكون فيه بعض المنحول عليه الذى لا تصح نسبته إليه .

هذا وقد تتلمذ على الكتاب ، وتثقف بثقافته الكثيرون من عاشقى الأدب ودارسيه فى القديم والحديث ، ولا يزال حتى اليوم من أهم كتب الأدب والثقافة الدينية والعربية .

والكتاب عالى الأسلوب ، فخم العبارة ، مصقول البيان ، لطيف الروح مشرقها ، ينحدر إلى النفس بسهولة ، ويدخل إلى القلب بغير استئذان .

وموضوعات الكتاب كما يقول الشريف الرضى ثلاثة :

أولها الخطب والأوامر ، وثانيها الكتب والرسائل ، وثالثها الحكم والمواعظ .

ويمتاز مع ذلك بطوله وضخامته ، وبأهمية ما فيه من آراء فى الأخلاق والسياسة والدين والاجتماع ، وبأنه ثروة فكرية وأدبية ضخمة .

« بلاغة علىّ وخصائص خطابته » :

(أ) كان على فى الذروة من البلاغة والبيان والفصاحة ، وكان أخطب الخطباء بعد رسول الله ، ولذلك أسباب :

١ — أسرته وبيئته ومكانتهما فى البلاغة .

٢ — تأثره ببلاغة القرآن والحديث النبوى .

٣ — نشأته وطبعه من صغره على البيان واللسن والفصاحة .

٤ — كانت حياته كلها حياة كفاح ونضال وجهاد ، وهذا من أهم ما يبعث على الخطابة ويدعو إليها .

٥ — قوة عارضته ، وحدة ذكائه وعبقريته ، وجليل شخصيته ، وحبه للصراحة والرأى الواضح ، وكل ذلك مما يبعث على الخطابة ويعين عليها .

(ب) وتمتاز خطابة الإمام علىّ بخصائص كثيرة منها :

١ — تمثيلها لحياته وشخصيته وآرائه فى الحياة .

٢ — دقة معانيه وجلالها وتناسقها وما يسودها من وحدة والتئام ، وعظمة الروح التى استنبطت هذه المعانى ، مع علو الأفق ، مما لا يكون إلا لمثل علىّ كرم الله وجهه .

٣ — بلاغة أسلوبه وأحكامه وإشراقه واستمداده من أساليب الذكر الحكيم والبلاغة النبوية الشريفة .

٤ — جزالة ألفاظه إذا استثنينا منها هذه الألفاظ الاصطلاحية الكثيرة التى يشتمل عليها الكتاب .

ويقول الرضى عنه : « كان مشرع الفصاحة وموردها ، ومنشأ البلاغة ومولدها ، ومنه ظهر مكنونها ، وعنه أخذت قوانينها . » من أجل هذا كان إذا خطب فهو أخطب

العرب بعد رسول الله ، وإذا كتب كان أبلغ الناس قولا ، وأصدقهم وصفا ، وأسيَرهم مثلا[(١)] .

« عليّ بن أبي طالب والشعر »

ينسب لعلى شعر كثير ، وقد ظهر ديوان مطبوع له منذ أعوام طويلة ، ونسب إليه ابن رشيق فى الجزء الأول من كتابه « العمدة فى صناعة الشعر ونقده » شعرا .

وأكثر ما ينسب لعلى من الشعر تصح نسبته لغيره ، وهذا مما يرجح انتحاله ، وليس بمعقول أن يكف لبيد عن الشعر ، ويخوض فيه مثل الإمام على إلى هذا الحد الذى يصوره لنا الديوان المنسوب إليه .

وجل الديوان شعر فى الزهد والحكمة والموعظة ، على أنه شعر ضعيف لا يرتقى إلى شعر الشعراء الفحول ، وذلك دليل آخر على انتحال هذا الشعر وعدم صحة نسبته للإمام على كرم الله وجهه . ومن هذا الشعر ما روى من رثاء الإمام على للرسول صلوات الله عليه ، وفى هذه القصيدة يقول :

أمن بعد تكفينى النبى ودفنه ... بأثوابه آسى على هالك ثوى
رزئنا رسول الله فينا فلن نرى ... بذاك بديلا ما حيينا من الورى
لقد غشيتنا ظلمة بعد موته ... نهارا ، فقد زادت على ظلمة الدجى
وكنا برؤياه نرى النور والهدى ... صباح مساء ، راح فينا أو اغتدى

ولما اشتدت معركة الهجاء بين المسلمين والمشركين ، قال بعض الصحابة لعلى رضى الله عنه : اهج عنا القوم الذين قد هجونا . فقال له على : إن أذن لى الرسول فعلت . فقال رجل : يا رسول الله ، إيذن لعلى كى يهجو عنا هؤلاء القوم الذين قد هجونا . فقال له ﷺ : ليس عنده ذلك . ثم ندب رسول الله الأنصار ، فقال حسان : أنا لها .

« خطبة للإمام على بعد وفاة أبى بكر »[(٢)]

يرحمك الله أبا بكر ، كنت إلف رسول الله وأنسه وثقته وموضع سره ، وكنت أول القوم إسلاما وأخلصهم إيمانا ، وأشدهم يقينا ، وأخوفهم لله ، وأعظمهم غناء فى دين

---

(١) من أروع صور الخطابة الخطبة الشقشقية المنسوبة للإمام على (١٣٧ — ١٤٠ الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام — تأليف محمد عبد المنعم خفاجى — القاهرة ١٩٤٩) .

(٢) روى أنه لما قبض أبو بكر ارتجت المدينة بالبكاء كيوم وفاة الرسول ، وجاء على باكيا ، وهو يقول : اليوم انقطعت خلافة النبوة .

الله ، وأحوطهم على رسوله ، وأعونهم على الإسلام ، وآمنهم على أصحابه .. أحسنهم صحبة ، وأكثرهم مناقب ، وأفضلهم سوابق ، وأرفعهم درجة ، وأقربهم وسيلة ، وأقربهم برسول الله سننا وهديا ورحمة وفضلا ، وأشرفهم منزلة ، وأكرمهم عليه ، وأوثقهم عنده ، جزاك الله عن الإسلام وعن رسوله خيرا ، كنت عنده بمنزلة السمع والبصر . صدقت رسول الله حين كذبه الناس فسماك الله فى تنزيله صدّيقا ، فقال : ﴿ والذى جاء بالصدق وصدق به ﴾ ، واسيته حين تخلوا ، وقمت معه عند المكارة حين عنه قعدوا ، وصحبته فى الشدائد أكرم الصحبة ثانى اثنين ، وصاحبه فى الغار ، والمنزل عليه السكينة والوقار ، ورفيقه فى الهجرة ، وخليفته فى دين الله وفى أمته أحسن الخلافة حين ارتد الناس ، فنهضت حين وهن أصحابك ، وبرزت حين استكانوا ، وقويت حين ضعفوا ، وقمت بالأمر حين فشلوا ، ونطقت حين سكتوا ، مضيت بنور إذ وقفوا ، واتبعوك فهدوا ، وكنت أصوبهم منطقا ، وأطولهم صمتا ، وأبلغهم قولا ، وأكثرهم رأيا ، وأشجعهم نفسا ، وأعرفهم بالأمور ، وأشرفهم عملا ، كنت للدين يعسوبا : أولا حين نفر منه الناس ، وآخرا حين أقبلوا . وكنت للمؤمنين أبا رحيما إذا صاروا عليك عيالا فحملت أثقال ما ضعفوا ، ورعيت ما أهملوا ، وحفظت ما أضاعوا . شمرت إذ خنعوا ، وعلوت إذ هلعوا ، وصبرت إذ جزعوا ، وأدركت أوتار ما طلبوا ، ورجعوا رشدهم برأيك فظفروا ، ونالوا بك ما لم يحتسبوا . وكنت كما قال رسول الله أمن الناس عليه فى صحبتك وذات يدك . وكنت كما قال ضعيفا فى بدنك ، قويا فى أمر الله ، متواضعا فى نفسك ، عظيما عند الله ، جليلا فى أعين الناس ، كبيرا فى أنفسهم . لم يكن لأحد فيك مغمز ، ولا لأحد مطمع ، ولا لمخلوق عندك هوادة . الضعيف الذليل عندك قوى عزيز حتى تأخذ له بحقه ، والقوى العزيز عندك ضعيف ذليل حتى تأخذ منه الحق . القريب والبعيد عندك سواء ، أقرب الناس إليك أطوعهم لله ، شأنك الحق والصدق والرفق ، قولك حكم ، وأمرك حزم ، ورأيك علم وعزم ، فأبلغت وقد نهج السبيل ، وسهل العسير ، وأطفأت النيران ، واعتدل بك الدين ، وقوى الإيمان ، وظهر أمر الله ولو كره الكافرون ، وأتعبت من بعدك إتعابا شديدا ، وفزت بالجد فوزا مبينا ، فجللت عن البكاء ، وعظمت رزيتك فى السماء ، وهدت مصيبتك الأنام ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، رضينا عن الله قضاءه ، وسلمنا له أمره . فوالله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله بمثلك أبدا ، فألحقك الله بنبيه ، ولا حرمنا أجرك ، ولا أضلنا بعدك .

« خطبة للإمام على »

تمهيد :

على بن أبى طالب من أكبر دعاة الإسلام وقادته ، ومن أعلام البلغاء والخطباء فى عصر صدر الإسلام . نشأ فى بيت الرسالة ، وكان فرعا فى دوحة النبوة ، تغذى بالبيان والحكمة ، وتفقه الكتاب والسنة .. وتفوق فى العلم والمعرفة ، وفى الزهد والفصاحة ، وفى الحكمة والخطابة ، ثمرة لنشأته الرفيعة ، وبيئته العجيبة ، وحياته الخصبة ، وتجاربه الجليلة فى الحياة . فكان حكيما تتفجر الحكمة من بيانه ، وخطيبا تتدفق البلاغة على لسانه ، وواعظا ملء السمع والقلب ، وكاتبا بليغا مترسلا بعيد غور الحجة ، ومتكلما يجول ببيانه فى كل مجال ، ويصول به فى كل نضال ، ويناضل به عن الدين والدعوة أروع نضال .

وفى الخطبة التى نذكرها لك الآن ، والتى كان موضوعها الحث على كثرة حمد الله وذكر الموت ، صورة من البيان العلوى ، والوعظ الربانى ، وفيها حكم بالغة ، وآيات ناطقة .

نص الخطبة :

أوصيكم — أيها الناس — بتقوى الله وكثرة حمده ، على آلائه إليكم ، ونعمائه عليكم ، وبلائه(١) لديكم .. فكم خصكم بنعمه ، وتدارككم برحمته ، أعورتم له فستركم(٢) ، وتعرضتم لأخذه فأمهلكم(٣) . وأوصيكم بذكر الموت وإقلال الغفلة عنه . وكيف غفلتكم عمن ليس يغفلكم(٤) وطمعكم فيمن ليس بممهلكم(٥) ؟ فكفى واعظا بموتى عاينتموهم ، حملوا إلى قبورهم غير راكبين ، وأنزلوا فيها غير نازلين . فكأنهم لم يكونوا للدنيا عمّارا ، وكأن الآخرة لم تزل لهم دارا ، أو حشوا ما كانوا يوطنون(٦) ، وأوطنوا ما كانوا يوحشون ، واشتغلوا بما فارقوا ، وأضاعوا ما إليه

---

(١) البلاء هنا : الإحسان ، ونبلوكم بالشر والخير .

(٢) أصل أعور : ظهر والمراد انكشاف المخبآت وما يراد ستره .

(٣) تعرضتم لأخذ الله بالعقاب وذلك بما اقترفتم من السيئات .

(٤) غفل عنه وأغفله تركه وسها عنه والموت لا يترك أحدا .

(٥) هم يطمعون أن يجاملهم الموت . فشبههم بمن يطمعون فى شخص لا يرحم ولا يتنازل عن موعده فى اقتضاء حقه .

(٦) أوحشوا ما كانوا يتخذونه وطنا ، وذلك أنهم هجروه فصار وحشا لا أنس به .

انتقلوا[(١)] ، لا عن قبيح يستطيعون انتقالا ، ولا فى حسن يستطيعون ازديادا[(٢)] . أنسوا بالدنيا فغرتهم ، ووثقوا بها فصرعتهم . فسابقوا رحمكم الله إلى منازلكم التى أمرتم أن تعمروها ، والتى رغبتم فيها ورغبتم إليها ، واستتموا نعم الله عليكم بالصبر على طاعته ، والمجانبة لمعصيته ، فإن غدا من اليوم قريب . ما أسرع الساعات فى اليوم ، وأسرع الأيام فى الشهر ، وأسرع الشهور فى السنة ، وأسرع السنين فى العمر .

فحواها ومنهجها :

١ — بدأ الإمام رضى الله عنه بتقوى الله التى هى اسم جامع لكل ما يتخذ وقاية من سخط الله وعقابه ، وهو الحرص على الطاعة وتجنب المعصية ، وضم إلى تقوى الله كثرة حمد الله على نعمه المترادفة ، ومن أجل ذلك ستره على عباده إذا عصوا ، وعدم معالجته إياهم بالعقوبة .

٢ — ثم أوصاهم بذكر الموت بكثرة ، ودلهم على ما ييسر لهم ذلك فى أنه لا يتركهم إن يتركوه ، ولا يمهلهم إن طمعوا فى ذلك منه . وحقق لهم ذلك بكثرة ما عاينوا من الموتى الذين حملوهم غير راكبين ، وكانوا بينهم أحياء فكأنهم لم يكونوا فى الدنيا ولم يبارحوا الآخرة ، ويعين ما فاتهم من فرص فى الدنيا ليحذر المؤمنين من تضييعها .

٣ — ثم رتب على ذلك الدعوة إلى المسابقة إلى منازل الأبرار ، وفى دار القرار ، وذكر بالنعم فدعا إلى استتمامها بالصبر على الطاعة والبعد عن المعصية .

٤ — وأخيرا قطع الكلام ببيان كيف تزول الدنيا بزوال الساعات التى بها الأيام ، وبالأيام وانقضائها تنقضى الشهور ، وبانقضاء الشهور تنقضى السنوات .. وبذلك تفنى الأعمار ، فمن لم يدرك نفسه أخذ وهو لا يشعر .

موضوع الخطبة :

نلحظ فى معانى الخطبة ما فيها من ترتيب الفكرة ، وسلوك مسلك التعليل الذى بدأ يظهر فى آداب الإسلام .

انظر إلى قوله : « وكيف غفلتكم عما ليس يغفلكم ، وطمعكم فيمن ليس يمهلكم » ، وفى بعض معانيها ما يشبه أخيلة الشعر ، كهاتين الفقرتين وكالتين بعدهما .

---

(١) اشتغلوا بالدنيا التى كانت لهم معبرا ففارقوها ، وأضاعوا الآخرة التى هى دار القرار .

(٢) من مات فقد انقطع عمله ، فلا يستطيع أن يتحول عن قبيح كان عليه ، ولا أن يزداد من خير قصر فيه .

وكان الإمام على كثير الرواية والحفظ للأشعار، وقد استفاد منها مع ما استفاد من الإسلام وآدابه، وما أقوى تأثير الفقرة الأخيرة ودلالتها على وشك انقضاء الأعمار « وما أسرع الساعات فى اليوم، وأسرع الأيام فى الشهر، وأسرع الشهور فى السنة، وأسرع السنين فى العمر ». وهذه وأمثالها هى التى خرج الإمام الحسن البصرى سيد التابعين عالما ربانيا وواعظا لا يشق له غبار.

والخطبة تتضمن الدعوة إلى حمد الله، وذكر الموت والاستعداد له ولأهواله، والمسابقة إلى أعمال الخير.

أسلوبها :

أما أسلوبها فإنه يفيض بالرقة والعمق فى استعمال الألفاظ وتوخى الدقة فيها، والمواءمة بين كلمها حتى فى الحروف التى تختلف بها الدلالة عند أهل الذوق، فانظر إلى كلمة إليكم فى قوله : « آلائه إليكم »، وتصور كيف يكون المعنى لو حذفها أو أتى بكلمة غيرها مث : « إليكم » فإنك تجد المعنى خر من عليائه. وما أبدع كلمة « له » فى قوله « أعورتم له »، وهكذا مما لذلك الإمام من أسرار هى سر فصاحة قوله، وهو ما يسميه النقاد « بالنظم ».

ويلاحظ فيها الميل إلى السجع القصير الفقرات مع الموازنة، وأن فيها شيئا من الترادف فى المعنى كقوله : « على آلائه إليكم، ونعمائه عليكم » مع تناول محسنات أخرى كالعكس فى قوله : « أوحشوا ما كانوا يوطنون، وأوطنوا ما كانوا يوحشون »، وكان ذلك كله قليلا جدا فى عهده. إلا فى أرفع الكلام، والمحسن البديعى إذا اتفق مع الطبع السليم والذوق القويم كان غاية فى البلاغة. وفيها قليل من المجازات والكنايات القريبة المتناول مثل « صرعتهم، وسابقوا إلى منازلكم » ومن الاستعارة مثل « حملوا غير راكبين فأنزلوا غير نازلين ».

وللقرآن الكريم فيها أثر كريم صالح، وحصافة عقل الإمام وقوة روحه وسعة تمكنه ظاهرة فيها، وبذلك أحسن التصرف فى السبك والصياغة والمعنى.

وهكذا يمكن القول إن الاتصال الجمعى من أهم مميزات الإعلام الإسلامى. وقد أجمع الباحثون على أن الإسلام دين السلام والمحبة والاجتماع والوفاق والتآلف والوحدة، ونستطيع أن نضيف إلى ذلك أنه الدين الذى أدرك قيمة الإعلام الجمعى عن طريق الاتصال بالناس. وفى الشريعة الإسلامية من العبادات التى تدل دلالة واضحة

على هذا المعنى . فصلاة الجماعة تقام خمس مرات فى اليوم والليلة ، وصلاة الجمعة تقام فى كل أسبوع مرة وذلك على نطاق واسع وفى تجمعات كبيرة . وفيها يقول الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون ۝ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴾ .

ثم هناك صلاة عيد الفطر وصلاة عيد الأضحى ، وفيهما تهليل وتكبير وذكر لله ، يصدر من جميع المسلمين على شكل نشيد جميل يترك أعظم الأثر فى نفوس المسلمين[1] .

كما أن النماذج الرفيعة من الخطب فى عصر صدر الإسلام — ترينا كما تقدم — أن أزهى عصور الخطابة العربية كان هو هذا العصر الذى شاهد مشرق النبوة ، ومولد الدين ، وظهور الإسلام ، ونزول القرآن ، وانتصار الدعوة ، ذلك أن حياة الجهاد التى شملت الأمة العربية طول هذه المدة ، كانت فاتحتها دعوة النبى إلى الدين الجديد ، فاضطر العرب إلى الخصام والمحاجة للذود عن عقائدهم الموروثة ، وكان النبى وأصحابه يؤيدون هذا الدين بلسانهم وخطبهم . ولما قضى النبى كثرت الأحداث والفتن التى يطول فيها الجدل ، ويحتدم فيها النزاع . وأول ما ظهر من ذلك اختلاف المهاجرين والأنصار فيمن يتولى أمر الأمة بعد النبى ، ثم فتنة المرتدين ، ثم تجهيز الجيوش للجهاد فى سبيل الله ، ثم نكبة المسلمين بمقتل عثمان ، وانقسام جماعة المسلمين أيام على أحزابا وشيعا يحارب بعضها بعضا .

وكان للخطابة فى الاتصال الجمعى شأن أى شأن ، فهى أداة المتجادلين يوضح كل منهم بها مذهبه ، ويدلى بحجته ، وذلك إلى أن الدين جعلها شعار المجتمعات الرسمية : كالجمعة والعيدين وموسم الحج ، كما كان عليها اعتماد القوم عند التقاء الصفوف وقدوم الوفود .

وأهم أنواع الخطب فى صدر الإسلام هى :

١ — الخطب الدينية : وهى التى قيلت فى الدعوة إلى الإسلام ، أو فى شرح العقائد وتبيين الأحكام ، أو فى الوعظ والإرشاد كخطب الجمع والعيدين وموسم الحج . ومن هذا النوع أكثر خطب النبى ﷺ .

---

(١) د . إبراهيم إمام : السابق ، ص ٣٩ .

٢ — الخطب السياسية : وهى التى قيلت فى شرح المسائل السياسية : كاستحقاق الخلافة ، وولاية العهد ، وبيان المناهج السياسية للخلفاء والولاة ، كخطب أبى بكر وعمر وعلى .

٣ — الخطب العسكرية : وهى التى يقولها القواد وأمراء الجيوش عند الزحف والتقاء الصفوف ، كخطب الإمام على وخالد بن الوليد .

وتمتاز أساليب الخطابة فى العصر الإسلامى بأمور :

١ — بدؤها بحمد الله تعالى ، والصلاة على النبى ﷺ .

٢ — ختمها بما يناسب المقام من الدعاء للمخاطبين أو السلام عليهم ، أو بتمجيد الله والثناء عليه ، ونحو ذلك مما يشعر الناس بانتهاء الخطبة .

٣ — حرص الخطيب على انتقاء الألفاظ الجزلة البعيدة عن خشونة البداوة ، اقتداء بألفاظ القرآن الكريم إذ هو المثل الأعلى للبلاغة العربية .

٤ — اقتباس ما يناسب موضوع الخطبة من آيات القرآن الكريم ، والمبالغة فى ذلك أحيانا حتى تكون الخطبة كلها آيات من القرآن .

٥ — قلة الأسجاع إلا ما جاء منها عفوا بلا تكلف ، والاقتصاد فى إيراد الحكم .

٦ — تفاوت الخطب بين الإيجاز والإطناب ، على حسب المقام .

٧ — قوة الأسلوب وجماله وشدة تأثيره ، ووصوله إلى قرار النفس ، وامتلاكه زمام الوجدان والشعور ، مما رقق القلوب القاسية وهذب الطباع النافرة .

وقصارى القول إن الخطابة وصلت فى هذا العصر إلى أرقى منزلة ، بتأثير القرآن الكريم والحديث النبوى .. ولم تشهد العربية عصرا حافلا بكثرة الخطباء ووفرة الخطب مثل هذا العصر .

وأعظم خطباء هذا العصر على الإطلاق : هو الرسول ﷺ ، وخلفاؤه الراشدون ، وقواد الجيوش الإسلامية التى كانت تذهب إلى كل مكان ، وتسير فى كل فج .

المبحث الثالث

الإعلام الشعرى

يذهب علماء الإعلام الإسلامى إلى أن الشعر فى حقيقته يعد نظاما إعلاميا كاملا فى الأداء الشفوى والاتصال بين أجزاء المجتمع، وفى التأثير فى الناس على نحو ما تفعله وسائل الإعلام الحديثة.

ولذلك كان للشعر فى نفوس العرب منزلة لا تساميها منزلة، ومكانة لا تدانيها مكانة، فهو ديوان مآثرهم، وسجل مفاخرهم، واللسان الناطق بما لهم من فضل وما هم عليه من مجد أثيل وعز شامخ. ما من حرب تقوم بينهم إلا كان هو الذى هاج نارها، وأوقد سعيرها، وشب لظاها، وأشعل لهبها.

ولا تفتح مغاليق الأنفس، ولا تلين قساوة القلوب، ولا تنال العطايا والهبات، ولا تجزل المنح إلا بالقول الساحر، والشعر البليغ الذى يزدلف به الشاعر إلى ما يريد من رغبة، ويحتال به على ما يبغى من غرض. ولا تعمل مجالس السمر ومحافل العلية إلا بما ينشد فيها من طرائف الشعر وروائع القصيدة.

بيد أن رسالة الشعر قبل مبعث الرسول الأكرم ﷺ كانت قد انحرفت فى غالب أمرها عن الوضع الكريم الذى يليق بالإنسانية المهذبة والخلق القويم. الذى تصلح عليه الحياة ويستقيم به أمر المجتمع. فكان يصف المرأة أقبح وصف، ويهتك الحرمات، ويخرق الحجب والأستار، ويثير العصبية، ويوقد الحمية، ويحرض الناس على الاقتتال والتناحر، ويبعثهم على التقاطع والتدابر والتنافر. فكان بهذا السمت وبهذه الروح من معاول الهدم وأسباب الدمار التى منيت بها الحياة العربية.

ثم جاء الإسلام بدعوة الإخاء والمساواة، دعوة العفة فى القول، والعقل والأدب الذى يليق بالمسلم، فحرم على الناس الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وحذرهم من باطل القول وزوره، ومن سيء الظن وخداعه وغروره، ودعا أولياءه وأتباعه إلى أن يبتعدوا عن كل رذيلة، ويمتنعوا من كل موبقة، وأن يكفوا عن القول والفعل إذا كان فى ذلك ما يؤذى نفس مسلم.

أمات الإسلام فيهم روح العصبية، وأخمد فى نفوسهم حمية الجاهلية، وحظر عليهم أن يلموا بما يثير النفس أو يذكر بالخصومات، أو يحرك كامن الأحقاد ومستور الضغائن.

حرم عليهم شرب الخمر لأنها رجس من عمل الشيطان ، وأوجب عليهم حفظ الفروج وغض البصر وكف الأذى وصيانة الحرمات . ومن هنا وجد الشعراء الذين دخلوا فى الإسلام وأشربوا روحه واهتدوا بهديه ، وجدوا أدبا غير الأدب ، وروحا غير الروح ، وأسلوبا فى الخطاب غير الأساليب التى اعتادوها ، وطرائق غير الطرائق التى ألفوها ، ونحوا من بلاغة الكلام السمح العفيف تندق أعناقهم وتنقطع نياط قلوبهم دون أن يبلغوا مداه أو يقتربوا من حده .

وجد الشعراء أن أداتهم تعطلت ، وأن سبيلهم لما كانوا يتناولون من المعانى والصور قد قطعت ، وأن ما كانوا يخوضون فيه من ألوان القول دون خوف أو تحرج ، قد حظر عليهم الإسلام أن يلموا منه إلا بما عف لفظه وشرف معناه .

من أجل ذلك تحولوا عن معانيهم التى أجادوها وجودوها وأبدعوا فيها ، إلى المعانى التى يقرها الدين الجديد ويرتضيها ، بل إن من شعرائهم من امتنع عن قول الشعر فى الإسلام لأن الله أبدله به خيرا منه . فإن لبيدا لم يؤثر عنه فى الإسلام على ما يروى إلا قوله :

الحمد لله الذى لم يأتنى أجلى ... حتى اكتسبت من الإسلام سربالا

ثم امتنع بعد ذلك عن الشعر إلى أن وافاه أجله ، وقد أرسل إليه عمر يسأله : ماذا أحدثت من الشعر فى الإسلام ؟ فقال : أبدلنى الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران .

والواقع أن تحول الشعر عن روحه ومشربه فى الجاهلية إلى روح جديدة وحياة جديدة ومعان جديدة ، ربما ضاقت بها شياطين الشعر وتخلفت فيها أخيلة الشعراء . هذا التحول قد عاد إلى الشعر بشيء من الضيق وانقباض الأفق ، وجعل شعراء الإسلام يجفلون عن كل معنى يتسم بسمة جاهلية أو تنفر منه التعاليم الإسلامية . وفرق بين شاعر يلتهب كل معنى يعن له ، ويقتنص منه كل فكرة تتهيأ أمامه فى أى موضوع وفى أية ناحية ، وبين شاعر يستولى عليه التحرج من كل ما يخالف دينه ، ولا يلتئم مع عقيدته .

فهذا الحطيئة لم يرقق الإسلام له طبعا ، ولم يهذب له نفسا ، ولم يغير له من سمت ، ولم يعدل له من سلوك ، فبقى شعره على ما كان عليه جاهلى النزعة ، زاخرا بكل ما يحمله الشعر من معنى خبيث أو هجاء مقذع ، حتى لقد حبسه عمر بن الخطاب ولم يطلق سراحه إلا بعد أن هدده بقطع لسانه ، وأخذ عليه العهد ألا يتناول أعراض المسلمين .

وهذا حسان بن ثابت قد امتزج الإسلام بدمه ولحمه، فترك ما كان يتعاطاه شعراء الجاهلية، ولم تر له بعد ذلك شعرا قويا إلا فى قوله فى منافحة أعداء الإسلام ومكافحة خصوم الرسول ﷺ، وفيما عدا ذلك فقد تحول شعره عما كان عليه فى الجاهلية من القوة إلى الضعف.

موقف الإسلام من الشعر :

على أن الإسلام لم يهجن من الشعر إلا لما يحمله من المعانى التى لا تتفق وجلاله، ولا تناسب وقاره وكماله، ولم يغض من الشعراء إلا لما يبدو منهم من سمات وخلائق لا يرضاها الدين ولا ترتاح إليها الأخلاق الكريمة ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ٭ ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ٭ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾.

أما ما عدا ذلك فقد كان النبى ﷺ ينصت للشعر ويستمع إلى الشعراء ويقول : (إن من الشعر لحكمة). وكان يأمر حسانا أن يرد على خصومه ويهجو أعداءه.

وقد وفد على رسول الله ﷺ وفد بنى تميم — بعد فتح مكة — ودخلوا المسجد وقالوا : يا محمد جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا، فأذن لخطيبهم، فقام عطارد بن حاجب بن زرارة، فأمر رسول الله ﷺ قيس بن ثابت فرد عليه، ثم قام شاعرهم الزبرقان بن بدر فقال :

نحن الكرام فلا حى يعادلنـــا	منـا الملوك وفينـا يقسم الربـع
ونحن نطعم عند القحط مطعمنا	من الشواء إذا لم يؤنس القزع[١]

فلما فرغ الزبرقان بن بدر أمر رسول الله ﷺ حسانا بالرد عليه، فارتجل حسان قصيدته :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم	قد بينوا سنة للنـــاس تتبـــع
يرضى بها كل من كانت سريرته	تقوى الإلٰه وبالأمر الذى شرعوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهـم	أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا

فلما فرغ حسان من قصيدته، قال الأقرع بن حابس أحد رجال الوفد : « والله إن هذا الرجل — يعنى محمدا — لمؤتى له[٢]، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا » .. ثم أسلموا.

فنحن نرى أن الشعر حين أخلص فى وجهته، وسلم مما كان يدنسه من هتك

---

(١) القزع : السحاب.　　(٢) أى مسهل له فى أمره.

الأعراض وكشف الأستار .. كان من أسلحة الدعوة الجديدة . والإعلام الإسلامى لمجاهد فى سبيل تثبيت دعائمها واستقرار قوائمها ، ومن هنا نستطيع أن ندرك رسالة الشعر فى هذه الفترة التى صلحت فيها الأخلاق ، وتطهرت القلوب ، واستنارت الأفئدة ، وأظل الناس عهد وادع ، يجمله حسن الأدب ، وجمال الخلق ، وعفة اللسان ، وسماحة المقال .

كانت رسالة الشعر إذ ذاك رسالة سماحة لا تعرف الفحش ، ولا تحب الجهر بالسوء ، ولا تألف الخوض فيما حرم الله . فهى رسالة مستمدة من روح الإسلام وتعاليمه الكريمة وآدابه القويمة ، ودعوته الحقة إلى معاملة الناس أكرم معاملة .

أما من بقى على عهد الجاهلية من شعراء هذا العهد فيما يقول وينشد ، فقد نعى عليه الإسلام سلوكه وحاربه المسلمون أعنف حرب ، لأن لسانه ظل سادرا فى غيه ممعنا فى كفره ، لم يدخل فيما دخل فيه الناس أفواجا من دين رب العالمين وشريعة أحكم الحاكمين .

ولقد أرسل النبى ﷺ محمد بن سلمة ورهطا من الأنصار ، فقتلوا كعب بن الأشرف من شعراء المدينة اليهود لأنه شبب بنساء المسلمين .

وهذا ضابئ بن الحارث البرجمى هجا بعض بنى جدول بن نهشل فأفحش فى هجائهم ، حتى رمى أمهم بالكلب ، فاستعدوا عليه عثمان بن عفان فحبسه وقال : لو أن رسول الله ﷺ حى لأحسبنه نزل فيك قرآن ، وما رأيت أحدا رمى قوما بكلب قبلك .

ولقد حبس عمر النجاشى الشاعر الذى هجا بنى العجلان رهط ابن مقبل بقوله :

وما سمى العجلان إلا بقولهم　　　خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

وكذلك حبس الحطيئة حين أفحش فى هجو الزبرقان بن بدر وهدده بقطع لسانه ، لولا أنه فزع إليه واستلطف لديه واستشفع بأفراخ زغب الحواصل ليس لديهم ماء ولا شجر .

وهكذا أصلح الإسلام العقائد والنفوس وهذب الألسنة ، ووجه رسالة الشعر إلى أسمى الأهداف وأنبل الغايات .

الأغراض الإعلامية للشعر فى صدر الإسلام :

هجر الشعراء الأغراض التى تتنافى والدين وتعاليم الإسلام : كالغزل الفاحش ، والفخر الكاذب ، والهجاء المقذع ، ومن استمر على الهجاء كالحطيئة حبس وزجر من الخلفاء الراشدين ، وموقف عمر من الحطيئة معروف ..

وكذلك بطل الكلام فى الخمر ووصفها، والميسر وفتيانه، والجزور التى ينحرونها، وفى تملق الناس بالمدح، وفى صيد الوحش وطرده.. مما كان يعده المسلم المتأثر بالعقيدة الإسلامية عبثا ولهوا.

وكان كثير من هذه الأغراض شديد الصلة بحياتهم فى الجاهلية، كالخمر والميسر، وحياة البطولة والصراع، والأخذ بالثأر، والرغبة فى الانتقام، والتشبيب والاستهتار، والفجور فى الحب. ومن أجل ذلك كان فيها أجود أشعارهم، وأملؤها بالقوة والروعة والعاطفة، وهذا يفسر لك بعض الحق فيما يقال من أن الشعر ضعف فى صدر الإسلام.

واقتصروا فى نظم الشعر على هذه الأغراض الإعلامية الآتية:

١ — الدعوة إلى الإسلام ومبادئه ومناضلة خصومه، وكان من أشهر الذائدين عن الدعوة ورسولها الكريم: حسان (٦٠ ق هـ — ٥٤ هـ)، وكعب بن مالك (٢٧ ق هـ — ٥٠ هـ)، وعبد الله بن رواحة (٩ هـ)، وكان من شعراء المشركين الذين حاربوا الإسلام والرسول بشعرهم: ابن الزبعرى، وضرار بن الخطاب، وأبو سفيان، وهبيرة بن أبى وهب، (٢٧ ق هـ — ٥٠ هـ) وأبو عزة الجمحى.

٢ — هجاء أعداء الدعوة فى عصر النبوة وهجاء أصحاب الديانات الزائفة بعد عصر النبوة، بحيث أصبح الشعر سلاحا فى الحرب النفسية الإعلامية.

٣ — رثاء من استشهدوا فى غزوات الرسول فى الفتوحات الإسلامية الكثيرة، ومن قتل ظلما من خلفائه وكبار أصحابه.

٤ — الفخر والتباهى بالانتصار على جيوش الفرس والروم، والتمدح بشجاعة المسلمين وأبطالهم، ووصف المعاقل والحصون وآلات القتال التى لم يكونوا عرفوها، وأنواع الحيوان الذى لم يشاهدوه ومنه الفيلة التى حارب الفرس عليها العرب، ووصف جبال الثلج والأنهار العظام وسفائن البحر وسوى ذلك مما ملئت به كتب المغازى والفتوح، وتكثر فى هذا النوع الأراجيز.

٥ — الحكمة، وقد كثرت فى الشعر فى هذا العصر بتأثير ثقافة القرآن والدين، والتجارب الكثيرة التى أفادوها فى الحياة. يقول حسان أو حفيده سعيد:

وإن امرأ يمسى ويصبح سالما ... من الناس إلا ما جنى لسعيد

ويقول الحطيئة:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

ويقول كعب بن زهير:

من دعا الناس إلى ذمه ... ذموه بالحق وبالباطل

٦ — المدح ، وأشهر شعرائه حسان والنابغة الجعدى وكعب بن زهير والحطيئة ، وفى هذا الفن يبدو أثر الإسلام فى معانيه وألفاظه .

٧ — كما نظموا فى الوعظ والتزهيد فى الدنيا والدعوة إلى تقوى الله ، متأثرين فى ذلك بالإسلام .

معانى الشعر وأساليبه وألفاظه :

(أ) وقد بدأت معانى الشعر فى هذا العصر تتأثر تأثرا واضحا بالإسلام والقرآن الكريم ، وأخذ يغلب عليها :

١ — العمق والدقة والفهم والاستقصاء وترتيب المعانى والأفكار .

٢ — ظهور المعانى الإسلامية ، والعاطفة الدينية فى الشعر وغلبتها عليه ، وتوليدها من العقائد الإسلامية .

(ب) كما بدأ الشعراء يتأثرون بالقرآن الكريم وبحديث رسول الله تأثرا ظاهرا فى الأسلوب والأداء والألفاظ ، مما أحدث تغيرا واضحا فى أسلوب الشعر فى هذا العصر .

١ — فقد أخذوا يهجرون الحوشى والغريب والمبتذل ، وتردد فى شعرهم كثير من الألفاظ الإسلامية كالصلاة والصيام والزكاة والحج والإسلام والجنة والنار إلخ .

٢ — وأخذوا يعنون بجمال السبك وعذوبة الكلام وانتقاء الألفاظ .

٣ — كثر فى شعرهم الاقتباس من القرآن الكريم كما سبق ، واستعمال ألفاظه والتأثر بأساليبه وتشبيهاته .

ولقد عرضنا من قبل بعض الأمثلة التى توضح أثر القرآن فى الشعر روحا وأسلوبا ، ومعظم الشعر الإسلامى يتجلى فيه هذا التأثر بالإسلام فى معانيه وأغراضه وأساليبه وألفاظه . فما نزال نستمع إلى حسان غير ما سبق ، وهو يقول فى أبى بكر :

والثانى اثنين فى الغار المنيف وقد … طاف العدو به إذ صعد الجبلا

ويقول :

شهـــدت بإذن الله أن محمـــــدا … رسول الذى فوق السموات من عل

وأن الذى عادى اليهود ابن مريم … رسول أتى من عند ذى العرش مرسل

وإن أخا الأحقاف إذ يعزلونـــه … يقـــوم بديـــن الله فيهم فيعــــدل

ويقول :

فما المال والأخلاق إلا معارة … فما اسطعت من معروفها فتزود

متى ما تقد بالباطل الحق يأبه … وإن قدت بالحق الرواسى تنقد

ويقول فى استشهاد حمزة يوم أحد :

فإن جنان الخلد منزله بها ... وأمر الذى يقضى الأمور سريع

وقتلاكمو فى النار أفضل رزقهم ... حميم معاف جوفها وضريع

وقد رأينا تأثره بالأسلوب والألفاظ من قبل فى قوله :

عزيز عليه أن يحيدوا عن الهدى ... حريص على أن يستقيموا ويهتدوا

وقوله :

أتهجوه ولست له بكفء؟ ... فشركما لخيركما الفداء

كما رأينا تأثر معن بن أوس فى قصيدته التى يقول فيها :

فما زلت فى لينى له وتعطفى ... عليه كما تحنو على الولد الأم

وخفض له منى الجناح تألفا ... لتدنيه منى القرابة والرحم

شعراء المدر والوبر :

والأقدمون يقسمون الشعراء المخضرمين إلى طائفتين متميزتين :

١ — شعراء الوبر من أعراب نجد واليمامة وبواديها .

٢ — وشعراء المدر وهم أهل القرى ، كالمدينة ومكة والطائف ، وقرى عبد القيس فى البحرين ، والحيرة بسواد العراق .

ويرون أن شعراء أهل نجد واليمامة والبوادى أفحل من شعراء أهل القرى ، وأجزل لفظا وأضخم أداء وأوسع مذهبا فى تنويع أساليب الكلام .. وإن كان شعرهم لا يخلو من حوشية فى العبارة ، ومنهم كان فحول الشعراء .

ويرون أن شعراء المدر ألين شعرا وأرق لفظا ، وألطف كناية وأدمث أسلوبا ، وأن أشعرهم جميعا أهل المدينة ، ومنهم كان شعراء النبى الذين نافحوا عنه الشعراء الناشئين فى قريش بعد أن لم يكن لها شعر يذكر . وإن شعر الأنصار من الأوس والخزرج فى هذا العصر لان فى اللفظ وهان فى المعنى عما كان عليه فى الجاهلية .

وعللوا ذلك بأن الإسلام نسخ كثيرا من بواعث الشر التى تثير النفوس وتشعل الأحقاد: كالعصبية الجاهلية ، وحب الانتقام ، والأخذ بالثأر ، والنشوة بالخمر ، والهجاء الكاذب ، وأكثر ما يجيش بالخواطر عند احتدام الشرور ، وتسكن إليه النفس عند الرضا والسرور .

وأمر آخر ذكروه ، وهو أن كثرة تلقيهم آيات هذا القرآن المعجز ونزوله بينهم كل

حين بما يبهرهم ويأخذ بمجامع قلوبهم ، صغر قيمة شعرهم فى أعينهم ، واستضعفوا معانيهم وأسلوبهم بالإضافة إلى معانيه وأسلوبه ، فهبطت قوة شعرهم عما كانت عليه ، ومثلوا لذلك بقوة شعر حسان فى الجاهلية ولينه فى الإسلام ، وشموخ شعر أمية بن الصلت فى الجاهلية واستخذائه فى الإسلام لمكان حسده لرسول الله .

قال الثعالبى[١] : كان حسان يقول الشعر فى الجاهلية فيجيد جدا ، ويغبر فى نواصى الفحول ، ويدعى أن له شيطانا يقول الشعر على لسانه كعادة الشعراء ، ويقول مثل قوله فى بنى جفنة ملوك غسان :

أولاد جفنـــــة حول قبر أبيهم   قبر ابـن ماريـة الكـريم المفضل
بيض الوجـــوه كريمة أحسابهم   شم الأنـوف من الطـراز الأول

فلما أدرك الإسلام وتبدل الشيطان ملكا تراجع شعره وكاد يرك فى قوله ، ليعلم أن الشيطان أصلح للشعر وأليق به وأذهب فى طريقه من الملك .

وأكبر من ذلك أن لبيدا العامرى وهو من أفحل شعراء الجاهلية ، عندما انقطع إلى حفظ القرآن ومدارسته ، انقطع عن قول الشعر فى الإسلام . ويقولون إن من لم يتعرض لهذا الإفحام والانبهار من أعراب البوادى بقى شعره إلا قليلا على غرار شعر الجاهلية ، ومن أمثال الحطيئة وكعب بن زهير ، وكل هذا كلام مقبول فى جملته .

ولكن كثيرا من النقاد يرون أن بعض ما يستضعف من شعر شعراء مكة والطائف مدسوس عليهم .

عناية الخلفاء بالشعر :

وبعد فقد كان المسلمون والخلفاء يرعون الشعر والشعراء . وكان أبرز عمل قاموا به هو الدعوة إلى المحافظة على الشعر الجاهلى وروايته وكتابته خوفا من أن يندثر بكثرة من قتل من العرب فى الفتوحات ، ولما شاهدوه من قلة الرغبة فى الشعر عند الناس بتأثير الشعوّر الدينى الجديد ، ومحافظة على لغة القرآن ولفهم بلاغته وإعجازه ..

ولهذا قال عمر بن الخطاب : عليكم بديوانكم لا تضلوا . فقالوا : وما ديواننا ؟ قال : شعر الجاهلية ، فإن فيه تفسير كتابكم ومعانى كلامكم .

وكانوا يعتزون بالشعر ويقدرون رساليته ، وينصتون لحكمته وينوهون بأثره . قال

---

(١) خاص الخاص للثعالبى ، ص ٨٠ ، ط ١٩٠٨

عمر : أفضل صناعات الرجل الأبيات من الشعر يقدمها فى حاجاته ، يستضعف بها قلب الكريم ، ويستميل بها قلب اللئيم .

وسئل مالك بن أنس : من أين شاطر ابن الخطاب عماله ؟ فقال : أموال كثيرة ظهرت عليهم ، وأن شاعرا كتب إليه يقول :

نحج ونغـــزو كل عام إذا غزوا فأنّى لهم وفر ولسنا بذى وفر
إذا التاجر الهنـدى جاء بفـارة من المسك راحت فى مفارقهم تجرى
فدونك مال الله حيث وجدتـه سيرضون إن شاطرتهم منك بالشطر

قال : فشاطرهم عمر أموالهم .

وقال ابن عباس ، قال عمر بن الخطاب : أنشدنى من قول زهير .

فأنشدته قوله فى هرم بن سنان حيث يقولون :

قوم أبوهـم سنـان حين تنسبهم طابوا وطاب من الأفلاذ ما ولدوا
لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم بأولهم أو مجدهـم قعـدوا

فقال له عمر : ما كان أحب إلى لو كان هذا الشعر فى أهل بيت رسول الله .

ودخل ابن هرم بن سنان على عمر بن الخطاب فقال له : من أنت ؟ قال : أنا ابن هرم ابن سنان . قال : صاحب زهير ؟ قال نعم . قال : أما إنه كان يقول فيكم فيحسن . قال : كذلك كنا نعطيه فنجزل . قال : ذهب ما أعطيتموه وبقى ما أعطاكم .

وكان كثير من الخلفاء والصحابة نقادا بفطرتهم وذوقهم ، فأبو بكر يقدم النابغة ويقول هو أحسنهم شعرا وأعذبهم بحرا وأبعدهم قعرا(١) . وكان عمر يتذوق الشعر وينقده(٢) . وقدّم زهيرا ولم يحكم بذلك فحسب ، بل شرح سبب حكومته بأنه كان لا يعاظل فى الكلام ، وكان يتجنب وحشى الشعر ، ولم يمدح أحدا إلا بما فيه(٣) . وكان يرى أنه أشعر الناس(٤) ، وكان يجلس هو وأصحابه فيتذاكرون الشعر والشعراء وأيهم أشعر(٥) .

وقال(٦) عمر بن الخطاب للوفد الذين قدموا عليه من غطفان : من الذى يقول :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مطلب

---

(١) ٧٨ جـ ١ العمدة .

(٢) راجع : ٩٩ إعجاز القرآن ، ١٦٩ ، ١٧٠ جـ ١ و ٢٢٤ و ٢٢٥ جـ ٢ البيان والتبيين — و ٣٨ و ٥٩ و ٦٠ و ٧٦ جـ ١ العمدة .

(٣) ٣٥ الموازنة ، ٨٠ جـ ١ للعمدة ، ٣٢ جمهرة إشعار العرب ، ص ١٠٥ نقد الشعر .

(٤) ٣٠٩ جـ ٢ العقد وما بعدها .

(٥) ٣٢ الجمهرة . (٦) ٣٤ الجمهرة .

قالوا : نابغة بنى ذبيان . قال : هو أشعر شعرائكم .

وكذلك كان على بن أبى طالب ، وكان يقدم امرأ القيس على الشعراء ويقول : هو أحسنهم نادرة ، وأسبقهم بادرة[١] .

هذا وقد كان للأنصار ديوان شعر يجمع شعر شعرائهم ، وكان هذا الديوان موجودا بين أيدى الرواة فى القرن الثانى الهجرى .

وقال حسان يمدح النبى صلوات الله عليه :

أغر[٢] عليه للنبوة خاتم ... من الله مشهود يلوح ويشهد
وضم الإله اسم النبى إلى اسمه ... من الله مشهود يلوح ويشهد
وشق له من اسمه ليجلّه ... فذو العرش محمود وهذا محمد
نبى أتانا بعد يأس وفترة ... من الرسل والأوثان فى الأرض تعبد
فأمسى سراجا مستنيرا وهاديا ... يلوح كما لاح الصقيل المهند[٣]
وأنذرنا نارا، وبشر جنة ... وعلمنا الإسلام، فالله نحمد
وأنت إله الخلق ربى وخالقى ... بذلك ما عمرت فى الناس أشهد
تعاليت رب الناس عن قول من دعا ... سواك ، إلٰهـا أنت أعلى وأمجد
لك الخلق والنعماء والأمر كله ... فإياك نستهدى، وإياك نعبد

(٣)

كعب بن مالك يرثى الرسول ﷺ :

ألا أنعى النبى إلى العالمينا ... جميعا ولا سيما المسلمينا
ألا أنعى النبى لأصحابه ... وأصحاب أصحابه التابعينا
ألا أنعى النبى إلى من هدى ... من الجن ليلة إذ يسمعونا
لفقد النبى إمام الهدى ... وفقد الملائكة المنزلينا

---

(١) ٢٧ و ٢٨ جـ ١ العمدة .

(٢) أبيض الوجه .

(٣) هو السيف ، وسمى مهندا لأنه مصنوع من حديد الهند .

المبحث الرابع

الشعر والحرب النفسية :

ولقد اهتم الرسول عليه الصلاة والسلام باستخدام الإعلام الشعرى كوسيلة للحرب النفسية ، لإحداث التفرقة بين صفوف الأعداء . ذلك أن الرسول عليه السلام كان يعتبر الإعلام بوجه عام ، والشعر بوجه خاص ، من أهم وسائل التخذيل أو الحرب النفسية ، فهو قوة ضرورية لمساندة القوات العسكرية ، وللفت فى عضد العدو وتمزيق صفوفه(١)

ولقد كان حسان بن ثابت أظهر الشعراء الذين دافعوا عن الدعوة الإسلامية ورسولها عليه الصلاة والسلام ، ووقفوا فى مواجهة قريش ، ثلاثة من الأنصار : هم حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وكان حسان أشعرهم . ولم يكن شعرهم شعر أناقة وترف على النهج الذى ألفوا أن يقولوه فى الجاهلية ، وإنما كان شعر منافحة ودفاع عن الإسلام ورسوله والذين اتبعوه بإيمان ، كما كان معايرة لقريش بمخازيها ، فقد كان الأولى بها أن تكون أول الواقفين تحت راية الإسلام وفى صفوف المسلمين .

ولقد كان مما قاله أحد الصحابة محرضا ومستحثا للأنصار ، ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله ﷺ بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ وكان الأنصار فى أول الأمر يخشون أن يهجوا مشركى قريش لأنهم أقرباء الرسول عليه الصلاة والسلام ، فلما أذن لهم الرسول بأن يهجوهم قال حسان بن ثابت : أنا لها . وأخذ بطرف لسانه ويقول : والله ما يسرنى به مقول بين بصرى وصنعاء . فقال له الرسول : كيف تهجوهم وأنا منهم ؟ قال : إنى أسلّك كما تسل الشعر من العجين . قال الرواة : فكان يهجوهم ثلاثة من الأنصار حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة . فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل الوقائع والأيام والمآثر ، ويعيرانهم بالمثالب ، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر ، فكان هجاء حسان وكعب لقريش قبل إسلامهم من أشد القول عليهم ، وأهونه عليهم هجاء عبد الله بن رواحة . فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم هجاء ابن رواحة(٢) .

---

(١) د . إبراهيم إمام : السابق ، ص ٨٦

(٢) حسان بن ثابت شاعر الرسول ، ص ١٥٠ ، د . سيد حنفى حسنين .

ويبدو أن حسان بن ثابت قد انفرد من بين شعراء التاريخ بأنه كان اللسان الشاعر المبين لدعوة دينية شاملة ، ندبه رسول الله ﷺ الذود عنها وعن أعراض أنصارها ، فنافح ما شاء الله أن ينافح ، وخلد مواقفها فى غرر شعره ، وخلع عليه صاحبها من التكريم ما تنقطع دونه أعناق النظراء ، حيث نصب له منبرا فى مسجده يلقى من فوقه شعره ، ودعا له أن يؤيده روح القدس ، ووهب له « سيرين » أخت مارية القبطية ، ووعده الجنة جزاء إجابته عن الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقد اعتلى حسان المنبر فى يوم انتصاره الأدبى العظيم على شعراء بنى تميم فى وفودهم على رسول الله ﷺ ، حين قدموا عليه بعد فتح مكة ، وكانوا سبعين أو ثمانين رجلا فيهم وجوه القوم وسادتهم ، وكانوا غلاظا جفاة ، فنادوا الرسول من وراء الحجرات وقالوا : يا محمد جئناك لنفاخرك فائذن لخطيبنا وشاعرنا . فأذن لهم ، وخطب منهم عذارد بن حاجب بن زرارة ، فغلا فى وصف قومه وزعم لهم الملك والغنى والكثرة والمتعة والسيادة والقوة على العرب جميعا ، فأشار الرسول ﷺ إلى ثابت بن قيس الأنصارى ففاخر بالرسول وأتباعه من المهاجرين والأنصار ، فدمغ بحقه باطلهم وطامن من غرورهم وكبريائهم ، وفند دعاواهم ومزاعمهم .

ثم قام شاعرهم الزبرقان بن بدر فأنشد شعرا جمع فيه المكارم والمحامد لقومه ، فأومأ الرسول إلى حسان فأنشد قصيدته العينية التى أزال بها الغشاوة عن أعين القوم ، وجلا الصدأ الذى ران على قلوبهم ، حتى قال الأقرع بن حابس : والله إن هذا الرجل (ويقصد محمدا ﷺ) لمؤتى له ، والله لشاعره أشعر الناس ، ولخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولأصواتهم أرفع من أصواتنا . ثم قال أعطنى يا محمد . فأعطاه عليه الصلاة والسلام فقال : اللهم إنه سيد الناس .. ثم أسلم الوفد ...

وكان من أبيات القصيدة التى أنشدها حسان قوله :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع[1]

يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا[2]

سجية تلك فيهم غير محدثة ... إن الخلائق — فاعلَمْ — شرها البدع[3]

---

(١) الذوائب : جمع ذؤابة وهى أعلا الشىء ، وفهر : اسم الجد الأعلى لقريش ، وأصله حجر صلب .

(٢) السريرة والسر : ما يكنه الإنسان فى صدره ويخفيه عن غيره .

(٣) السجية : الغريزة

إن كان فى الناسْ سباقون بعدهـــم ... فكـل سبـق لأدنى سبقهـم تبـــع[١]
لا يجهلـــون وإن حاولت جهلهـــم ... فى فضل أحلامهـم عن ذاك متسع[٢]
أعفـــة ذكـــرت فى الوحـــى عفتهم ... لا يطبعـــون ولا يرديهم الطمـــع[٣]
أعطـــوا نبـــى الهدى والبر طاعتهم ... فما ونى نصرهم عنـه ومـا نزعـوا[٤]
إن قال سيروا أجدّوا السيرَ جهدهـم ... أو قال عوجوا علينا ساعـة ربعـوا[٥]
ما زال سيرهـم حتـــى استقـــاد لهم ... أهل الصليب ومن كانت له البيـع[٦]
لا فخـر إن هم أصابـوا من عدوهـم ... وإن أصيبـــوا فلا خور ولا جزع[٧]
كأنهم فى الوغـــى والموت مكتنـــع ... أسد ببـــيشة فى أرساغهـــا فدع[٨]
أكـــرم بقـــوم رسول الله شيـــعتهم ... إذا تفـــرقت الأهـــواء والشيـــع[٩]
أهـــدى لهم مدحـــى قلب يؤازره ... فيما يحب — لسان حائك صنع[١٠]
فإنهم أفضل الأحيـــاء كلهـــــم ... إن جدَّ بالناس جد القول أو شمعوا[١١]

وهكذا كان لهذه القصيدة أثرها فى اعتراف « تميم » بأن محمدا — عليه الصلاة والسلام — مؤتى له، وثانيا بهذا الدين الذى يدعو إليه.

---

(١) أى هم أسبق الناس وغيرهم لهم تبع.

(٢) المقصود بالجهل هنا: الطيش والحمق. والأحلام: جمع حلم والمقصود منه الأناة والعقل، أى أنهم لسعة عقولهم لا يتسرعون فى الغضب إذا استثارهم أحد.

(٣) لا يطبعون: لا يقعون فى الدنس والخسة، ولا يرديهم الطمع: لا يهلكهم ويدفعهم إلى المغامرة.

(٤) ونى: أبطأ وتأخر. وما نزعوا: ما انصرفوا عن اتباعه ونصرته.

(٥) عوجوا: انزلوا. وفقوا وأقاموا — كناية عن كمال الخضوع والاستسلام.

(٦) استقاد: خضع وأسلم القياد. أصحاب البيع: اليهود.

(٧) الخور: الضعف والجبن. والجزع والجازع: الخائف المذعور.

(٨) الموت مكتنع: أى د ن قريب. وبيشة: مأسدة فى واد بطريق اليمامة اشتهرت أسودها بقوة البطش. والرسغ: المفصل ما بين الساعد والكف وما بين الساق والرجل. والفدع: اعوجاج الرسغ، وهو فى الأسود دليل الصلابة والقوة.

(٩) شيعتهم: حزبهم وملاذهم.

(١٠) يؤازره: يعاونه ويسانده. والصنع والصانع: الحاذق فى صنعته.

(١١) شمع: لعب ومزح، يعنى أن فضل رسول الله ﷺ وقومه على سائر الأحياء لا يجادل فيه أحد سواء كانوا فى معرض الجد أو الهزل.

والحق أن حسان كان آية من الآيات التى أيد الله بها رسوله — ﷺ — ، فقد كان المشركون أهل لسن وفخر وهجاء وقد حاربوا الرسول بهذا السلاح ، فكان لا بد أن يعد لهم شاعرا سليط اللسان قوى البيان سريع العارضة . وقد كان لمعسكر المسلمين شعراؤه ولا بد أن يكون الكثير منهم قد تطلع لهذا الشرف السامى . ولكن الرسول — عليه الصلاة والسلام — بثاقب نظره ندب حسان لهذا الثغر من ثغور الدعوة ، فحسان أنصارى ، والأنصار قد نصروا رسول الله بسيوفهم فهم أجدر أن ينصروه بألسنتهم ، وهو من بنى النجار — ذؤابة الخزرج — ، وهو شاعر ناضج معروف المكانة ، وقد كمل رسول الله ﷺ ناحية النقص فى عدته الهجائية فعهد إلى أبى بكر أن يحدثه حديث القوم وأيامهم وأحسابهم . وقد ظهر أثر ذلك كله فى شعر حسان ظهورا لم يخف على فطانة قريش ، فقالت بعد سماع شعر حسان : « إن هذا الشتم ما غاب عنه ابن أبى قحافة » .

وقد سر النبى ﷺ لهذا التوفيق الذى أصاب شاعره ، فكان يستنشده ويطيل الاستماع إليه ثم يقول : (لهذا أشد عليهم من وقع النبل) .

وروى إنه قال (أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان بن ثابت فشفى واشتفى)(١) .

وواضح من المواقف التى وقفها حسان وأمثاله ، أنه كما كان للدعوة شعراؤها المؤمنون بها المنافحون عنها ، فلقد كان لها كذلك أعداؤها ممن أخذوا يكيدون لها شعرا مثل أمية بن أبى الصلب وكعب بن الأشرف وعبد الله بن الزبَعَرى والحارث بن هشام ، وغيرهم .

وإذا كان لهؤلاء وأولئك مواقفهم الشعرية بعد فتح مكة ، فقد كان لهم كذلك مواقفهم قبل الفتح .

ففى وقعة بدر الكبرى — مثلا — حيث كان نصر المسلمين رائعا مؤزرا ، يقول حسان بن ثابت :

سرنـــا ، وساروا إلى بدر لحينهم	لو يعلمون يعين العلم ما ساروا(٢)
دلاهـــم بغـــرور ثم أسلمهـــــم	إن الخبــــيث لمن والاه غرار(٣)
وقـال إنى لكـم جار ، فأوردهـــم	شر الموارد فيـــه الخزى والعـــار

(١) راجع : دراسات فى الأدب الإسلامى للأستاذ محمد خلف الله أحمد ص ٣٥ ، نسمات من عبير الأدب للدكتور محمد سرحان ص ١٠٤ ط ٢ .

(٢) الحين : الهلاك .

(٣) دلاهم بغرور : أى أن الشيطان خدعهم وغرهم وزين لهم محاربة المسلمين فأسلمهم للهلاك .

ويمضى شعر المسلمين يسجل على قريش بغيها وبطرها الذى سجله القرآن من قبل، فقال كعب بن مالك :

عجبت لأمـــر الله والله قادر على ما أراد ، ليس لله قاهـــر
قضى يوم بدر أن نلاق معشرا بغوا، وسبيل البغى بالناس جائر
وقد حشدوا واستنفروا من يليهم من الناس ، حتى جمعهم متكاثر

أما من فر من المشركين يوم بدر فقد اشتفى منهم شعر المسلمين ، بالتعبير والهزء والزراية . ومن أوجع ما قيل فى ذلك ما أنشأه حسان فى قصيدة تعد من أقوى ما قيل من الشعر فى غزوة بدر ، وسجل فيها فرار الحارث بن هشام وتركه أخاه عمرا « أبا جهل » يقتل فى ميدان القتال . هذه القصيدة التى بدأها حسان بقوله يتغزل :

تبلت فؤادك فى المنام خريدة تسقى الضجيع ببارد بلسام

ثم يخلص من الغزل إلى قوله :

إن كنت كاذبة الذى حدثتنى فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك أبيه ورهطه فى معـــرك نصر الإلـــه به ذوى الإسلام
لولا الإلـه وجـــريها لتركتـــه جزر السباع ودسنه بحوامى(١)

ومن أكثر ما ردده شعراء المسلمين يومئذ، تعديدهم الصرعى من عظماء قريش ووصف هوانهم وقد ألقوا على أرض المعركة ، ينتظرهم مصير آخر مؤلم فى نار جهنم ، ووصفهم الأسرى وقد شدوا بالأغلال وقيدوا بالأصفاد . وها هو ذا حسان يصف المعركة التى دارت على المشركين فيقول :

طحـــنتهم والله ينفـــذ أمـــره حرب يشب سعيرهـــا بضرام
من كل مأسور يشد صفـــاده صقر إذا لاق فى الكتيبة حامى
ومجدل لا يستجيب لدعـــوة حتـــى تزول شوامخ الأعـــلام
بالعـار والـــذل المبين إذا رأوا بيض السيوف تسوق كل همام

ويقول كعب بن مالك :

بهن أبدنـا جمعهـــم فتبـــددوا وكان يلاقى الحين من هو فاجر
فخر أبو جهل صريعـا لوجهه وعقبـة قد غادرنـه وهـو عاثـر

---

(١) راجع : الأثر القرآنى فى الصور الأدبية ص ٢٤٧ : رسالة ماجستير د . صلاح الدين محمد عبد التواب ، من النقد والأدب د . أحمد بدوى ص ١٤ — ١٦ .

وشيبة والتيمى غودرن فى الوغى ... ومأمنهم إلا بذى العرش كافر
فأمسوا وقود النار فى مستقرها ... وكل كفور فى جهنم صائر
تلظى عليهم وهى قد شب حميمها ... بزبر الحديد والحجارة ساجر

ولم ينس المسلمون ما هددهم به المشركون من الإغارة عليهم والأخذ بالثأر ، فهون شعراء المسلمين من ذلك ، بل أكدوا أن سيأتى يوم يغزون فيه مكة ويستولون عليها ، وفى ذلك يقول كعب بن مالك :

فلا تعجل أبا سفيان وارقب ... جياد الخيل تطلع من كداء

أما موقف شعراء المشركين من تلك الغزوة ، فيظهر أن قريشا تواصت على أن تخفى حزنها فى صدرها وأن لا تبوح بآلامها أول الأمر ، إلا أنه لم يلبث أن انطلق الشعر من عقاله معبرا عما يجيش فى النفوس إزاء هذه الهزيمة التى حاقت بقريش ، وإزاء تلك السخرية اللاذعة التى تنطلق من أشعار المسلمين .

وكان مما قاله شداد بن أوس يبكى من لقى مصرعه فى وادى بدر ، ويعدد عظماء القتلى ويصف مشاعره إزاء قتلهم :

تحيى بالسلامة أم بكر ... وهل لى بعد قومى من سلام
فماذا بالقليب قليب بدر ... من القينات والشرب الكرام

وهذا هو أمية بن أبى الصلت يبكيهم ويثنى عليهم ويصف مقدار ما آلم مكة لفقدهم :

ألا بكيت على الكرا ... م بنى الكرام، أولى الممادح
ماذا ببدر فالعقنقـ ... ـل من مرازبة جحاجح
شمط وشبان بها ليـ ... ـل مغاوير وحاوح
ألّا ترون كما أرى ولقـ ... ـد أبان لكل لامح
أن قد تغير بطن مكـ ... ـة فهى موحشة الأباطح

ومضى بعض الشعراء يبكون مصابهم الخاص أو يندبون بنى قبيلتهم أو يرثون بعض عظمائهم ، ومن أمثلة ذلك ما يقوله الحارث بن هشام يرثى أخاه أبا جهل :

ألا يا لقومى للصبابة والهجر ... وللحزن منى والحرارة فى الصدر
وللدمع من عينى جرارا، كأنه ... فريد هوى من سلك ناظمة يجرى
على البطل الحلو الشمائل إذ ثوى ... رهين مقام للركية من بدر

وتوعد بعضهم الأوس وهددهم بالانتقام والثأر ، وأخذ يخفف من غلواء الأنصار فيما ملأهم من الابتهاج بالنصر ، ويدعو المكيين بأن يناموا على الضيم ، وفى ذلك يقول ضرار بن الخطاب :

عجبت لفخر الأوس والحين دائر ... عليهم غدا والدهر فيه بصائر
وفخر بنى النجار أن كان معشر ... أصيبوا ببدر ، كلهم ثم صابر
فإن يك قتلى غودرت من رجالنا ... فإن رجالا بعدهم سنغادر
ونترك صرعى تعصب الطير حولهم ... وليس لهم إلا الأماني ناصر
وتبكيهم من أهل يثرب نسوة ... لهن بها ليل عن النوم ساهر

ولقد أسهمت المرأة بدورها فى البكاء على صرعى بدر من المشركين ، ومما يرون من شعر هند بنت عتبة فى هذا المضمار ، قولها تبكى أباها عتبة بن ربيعة(١) :

أعينى جودا بدمع سرب ... على خير خندف لم ينقلب
تداعى له رهطه غدوة ... بنو هاشم وبنو المطلب
يذيقونه حد أسيافهم ... يعلونه بعد ما قد عطب
يجرونه وعفير التراب ... على وجهه عاريا قد سلب

وكان من أجمل ما قالت المرأة من الشعر فى هذه الغزوة ، شعر قتيلة بنت الحارث تبكى أخاها النضر ، وتعاتب الرسول ﷺ فتقول(٢) :

يا راكبا إن الأثيل مظنة ... من صبح خامسة وأنت موفق
أبلغ بها ميتا بأن تحية ... ما إن تزال بها النجائب تخفق
منى إليك وعبرة مسفوحة ... جادت بواكفها ، وأخرى تخنق.
هل يسمعن النضر إن ناديته ... أم كيف يسمع ميت لا ينطق
أمحمد ، يا خير ضنء كريمة ... فى قومها ، والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما ... منّ الفتى وهو المغيظ المحنق
والنضر أقرب من أسرت وسيلة ... وأحقهم إن كان حق يعتق
ظلت سيوف بنى أبيه تنوشه ... لله أرحام هناك تشقق
قسرا يقاد إلى المنية متعبا ... رسف المقيد وهو عان موثق

---

(١) راجع : شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه ليحيى الجبورى طبعة بغداد ص ١٧١ ، ١٧٢ — والأثر القرآنى فى الصورة الأدبية ص ٢٤٩ د . صلاح الدين محمد عبد التواب .
(٢) المرجع السابق ، من النقد والأدب د . أحمد بدوى ص ٢٣ — ٢٤ .

وفيما يروى أن رسول الله ﷺ قال عند ما بلغه الشعر : « لو بلغنى هذا قبل قتله لمننت عليه » .

ولقد كان من الذين هاجتهم انتصارات المسلمين فى بدر ، وأضرمت نيران الحقد وطلب الثأر فى نفوسهم أبو أسامة معاوية بن زهير حيث يقول :

ولما أن رأيت القـــوم خفـــوا ... وقـد زالت نعـامتهم لنفـــر[1]
وأن تركت سراة القوم صرعى ... كأن خيارهـم أذبـاح عتـر[2]
وكانت جمة وافت حمامــــــا ... ولقينـــا المنايـــــا يوم بدر[3]
فأقسم بالـــــذى قد كان ربى ... وأنصاب لدى الحجرات مغر[4]
لسوف ترون ما حسبى إذا ما ... تبـــدلت الجلـــود جلـــود نمر

وينهض شاعر يهودى قد ملئ قلبه غيظا وحقدا على محمد ﷺ ودعوته ، وقد رأى فى موقعة بدر نذير سوء عليه وعلى قومه وعلى دياره فى يثرب وما حولها ، فيذهب إلى مكة مستنهضا قريشا مستثيرا رجالها ليأخذوا بثارات قتلاهم فى بدر فيقول :

طحنت رحى بدر لمصرع أهله ... ولمثـــــل بدر نستهل وندمــــــع
قتلت سراة النفس حول حياضهم ... لا تبعـــدوا إن الملـــــوك تصرع
نبئت أن الحارث بن هشامهـــم ... فى الناس يبنى الصالحات ويجمع
ليـــزور يثرب بالجمــــــوع وإنما ... يحمى على الحسب الكريم الأروع

ومهما كان القول من جانب شعراء المسلمين ، أو شعراء المشركين ، فقد كان لواء الشعر معقودا على حسان ، حيث كان يضرب بشعره فى مقاتل قريش ، ويحشد كل إمكانياته البيانية فى إطار إيمانه المنيع العميق وحبه للرسول ﷺ ، وكان مما قاله كذلك فى هجاء قريش والتهكم بهم بعد بدر :

وقد زعمتم بأن تحموا ذماركم ... وماء بدر زعـــمتم غير مورود
ثم وردنا ولم نسمع لقولكــــم ... حتى شربنا رواء غير تصريد

ويتعرض حسان لقريش ولأبى سفيان بصفة خاصة ، وقد عادى النبى ﷺ عداء شديدا ، وهجاه وسخر من دعوته فيقول حسان :

---

(١) زالت نعامتهم : ذهبت نفوسهم . (٢) عتر : صنم .
(٣) الجمة : الجماعة من الناس . (٤) مغر : جمع أمغر ، يعنى أحمر .

هجوت محمدا فأجبت عنه ... وعنـــــد الله فى ذاك الجزاء
أتهجـــوه ولست له بكـــفء ... فشركما لخيركما الفـــــداء
فإن أبى ووالـــده وعـــــرضى ... لعرض محمد منكـــم وقـــاء

وإذا كان حسان لم يكن وحده الذى يصور أحداث المعارك بين المسلمين والمشركين ، وإنما شاركه فى ذلك أيضا كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، غير أن حسان كان قد فاقهما فى كثرة النظم ، وكثرة ما أجاد أيضا ، حتى علت منزلته واحتل من قلب الرسول ﷺ المكانة الأولى بين الشعراء .

وكنا قد وقفنا من قبل على بعض أشعار كعب بن مالك فى تسجيل بعض الأحداث فى غزوة بدر . .

أما عبد الله بن رواحة فقد أسهم بدوره بقدر لا بأس به فى معركة الإيمان ضد الشرك ، وكان يضفى على الرسول ﷺ من روائق القول ما ينم عن إحساس صادق ويقين خالص . وكان مما قاله فى وداع النبى ﷺ حين خرج إلى غزوة مؤتة :

فثـــبت الله ما آتـــاك من حسن ... تثبيت موسى ونصرا كالذى نصروا
أنت الرسول فمن يحرم نوافلـــه ... والوجه منه فقد أزرى به القدر

ولكن يبدو أن حسان كان قد غطى كل أحداث عصر الرسول ﷺ بشعره ، بجانب ما نظم من مناقضات يرد بها على شعراء المشركين ، كما فعل فى رده على ابن الزبعرى أو الأعشى بن زرارة التيمى حليف بنى نوفل بن عبد مناف ، فقد كان كلاهما يبكى على بدر ويتحسر على مقتل كبار رجالات قريش ، ومن هذه المناقضات والقصائد التى قالها حسان .

تبلت فؤادك فى المنام خريدة ... تسقى الضجيع ببـــارد بسام

ومنها :

خابت بنو أسد وآب عزيزهم ... يوم القلـــيب بسوءة وفضوح

ومنها :

جمحت بنو جمح لشقوة جدهم ... إن الذليـــل موكل بذليـــــل

إلى غير ذلك من القصائد والمناقضات التى سجل بها حسان أخبار غزوة بدر . أما فى أحد فنراه يؤدى دوره كما أداه فى بدر ، فهو يرد على المشركين حين أخذتهم الحمية فى هذه الغزوة بعد أن قدر لهم فيها النصر . وكانت مهمة حسان فيها لذلك أشق ، ولأنه مطالب بأن يقلل من نشوة المشركين بالنصر وأن يؤكد — فى هذه الظروف — أن الغلبة للمسلمين ، فهو يرد على أبى سفيان بن حرب افتخاره بأبياته التى أولها :

ذكرت القروم الصيد من آل هاشم ولست لزور قلته بمصيب(١)

كذلك يعير قريشا بأن أعطت لواءها لعبد حبشى يسمى « صؤاب » وهو فى كل ذلك يسجل المعركة بتفاصيلها وبقتلاها وشهدائها، فنراه يقول:

فخرتم باللواء وشر فخر لواء حين رد إلى صؤاب
جعلتم فخركم فيه بعبد وألأم من يطا عفر التراب

وها هو ذا يهجو عتبة بن أبى وقاص لأنه رمى رسول الله ﷺ فى أحد فكسر رباعيته اليمنى السفلى، وجرح شفته السفلى ﷺ، فيسجل حسان هذه الحادثة فى هجائه فيقول:

فأخزاك ربى يا عتيب بن مالك ولقاك قبل الموت إحدى الصواعق
بسطت يمينا للنبى تعمدا فأدميت فاه، قطعت بالبوارق

وتتكرر الصورة — والحرب سجال — وحسان يرد على المشركين ويمدح الرسول ﷺ ويفخر بالمسلمين، ويؤدى دوره فى كل ذلك خير أداء، فهو مراسل حربى يسجل الأخبار، وهو صحيفة يومية ينشر هذه الأخبار ويلونها بما يتفق وهدف المسلمين(٢).

إلى أن كان الفتح الأكبر، وهو الذى استعد له كل شعراء المسلمين حتى لا تفوتهم فرصة المشاركة فيه — فتح مكة.

فشارك حسان بشعره منذ أول هذه الغزوة استعدادا لها، فقد أخذ يحرض الأنصار على الفتح ويذكرهم بما فعلت بهم قريش:

عنانى ولم أشهد ببطحاء مكة رجال بنى كعب تحز رقابها
بأيدى رجال لم يسلوا سيوفهم وقتلى كثير لم تجن ثيابها
ألا ليت شعرى هل تنالن نصرتى سهيل بن عمرو وخزها وعقابها

إلى أن يقول:

ولا تجزعوا منها فإن سيوفنا لها وقعة بالموت يفتح بابها

ثم يتم فتح مكة، ودخل الجيش الإسلامى وعلى رأسه قائده محمد ﷺ، فيعلن حسان انتصار الإسلام وانتصار الأنصار، بقصيدته التى عرف بها ومطلعها:

عفت ذات الأصابع فالجواء إلى عذراء منزلها خلاء

---

(١) القرم: السيد.

(٢) راجع: حسان بن ثابت شاعر الرسول ص ١٦١ د. سيد حنفى حسنين.

وفيها تلك المقدمة التى استنكرها المسلمون بسبب ما ذكر فيها من وصفه للخمر وشربها، ولكن علل ذلك النقاد بأنها من نظمه فى الجاهلية وأكملها فى الإسلام[1].

ومن هذه القصيدة يقول حسان:

عدمنا خيلنـــا إن لم تروهـــا ... تثير النقـــع موعدهـــا كداء
ينازعـــن الأسنـــة مصغيـــات ... على أكتافهـــا الأسل الظمـــاء
تظـــل جيادنـــا متمطـــرات ... يلطمهـــن بالخُمُـــر النـــساء
فإما تعرضوا عنـــا اعتمرنـــا ... وكان الفتح وانكشف الغطاء

وتتوالى الأحداث وحسان يشارك فيها بشعره كما شارك قبل ذلك، وهو فى كل مرة يسجل الحدث معبرا عن شعوره إزاءه وشعور سائر المسلمين.

ثم يأتى يوم يقبض الرسول ﷺ فيه، وتصعد روحه إلى الملأ الأعلى، فيبكيه حسان لا كما يبكيه كل المسلمين، ولكن كما يبكيه شاعر رافق الرسول فى أهم فترات حياته، وشارك فى كل حدث مر به — ﷺ — بقلبه ولسانه، وأحس بمشاعر المسلمين وعواطفهم تجاهه، فكان بكاؤه تسجيلا لهذا الحدث الجلل، وتعبيرا عن أحزان أمة أسسها رسول الله ﷺ برسالته وإرشاده وقدوته، وكانت أهم قصيدة رثى بها حسان رسول الله ﷺ، تلك التى مطلعها:

بطيبة رسم للرسول ومعهد ... منير وقد تعفو الرسوم وتمهد[2]

هذا هو حسان بن ثابت الذى يمكن أن نلمس فى شعره — وبعض شعر صحابه الذى تمثلنا به — روحا جديدة، وسمه من الإيمان العميق بالدين اقتنعوا به فاتبعوه، متخلين بذلك عن الأسلوب الذى تعودوا أن يلتزموه فى الجاهلية. ومن هنا جاء الشعر أغزر معنى وأقل أسلوبا. وربما يكون حسان نفسه قد أحس ذلك، ومن ثم كان يعمد بين الحين والحين إلى الأسلوب الجزل الذى كان يطرب هو نفسه له وتطرب لسماعه الآذان، ومن أمثلة ذلك قوله فى قتل كعب بن الأشرف وسلام بن أبى الحقيق، وكان الأول قد شبب بنساء المسلمين وألب قريشا على الرسول ﷺ، وكان الثانى قد حزب الأحزاب ضد المسلمين. .

قال حسان:

---

(١) المرجع السابق ١٦٤.

(٢) حسان بن ثابت شاعر الرسول ص ١٦٥.

لله در عصابـــة لاقــيتهم يا ابن الحقيق وأنت يا ابن الأشرف
يسيرون بالبيض الخفاف إليكـمُ مرحا كأسد فى عرين معـرف
حتــى أتــوكم فى محل بلادكم فسقوكمُ حتفا ببيض ذفـف
مستنصريــن لنصر ديــن نبيهم مستتغرين لكل أمـر مجحـف

وكان حسان يحن إلى هذا اللون من الشعر الجزل المتسم بالفحولة الذى تعود أن يقوله فى الجاهلية كلما كانت المناسبة عظيمة، وأى مناسبة أعظم من فتح مكة، ذلك الحادث الذى هز أعطاف الزمان ما عاش رواة التاريخ. ففى معركة فتح مكة انتصار للمؤمنين على عبدة الأوثان، وتوكيد للرسالة السماوية، واسترداد للبيت العتيق، وتغلب على معدن الكيد للرسول ولرسالته فى شخص قريش، ولذلك فقد أطلق حسان لشاعريته العنان، فرجعت به فى تحليقها إلى نمط الأسلوب الجاهلى لفظا واصطلاحا[١] فقال:

عفت ذات الأصابـع فالجواء إلى عذراء منــزلها خلاء
ديـار من بنـى الحسحاس قفر تعــفّيها الــروامس والسمــاء
وكانت لا يزال بها أنــيس خلال مروجهــا نعــم وشاء
عدمنـا خيلنــا إن لم تروهــا تثير النقــع موعدهــا كداء
ينازعــن الأعنــة مصغيــات على أكتافهــا الأسل الظمــاء

والقصيدة طويلة موسومة بالفحولة.

لقد كان شعر حسان وصحابه من شعراء الرسول — وخاصة فى تلك الفترة وهذه الظروف حيث كانت المناقضات والمناظرات، حيث كان الدفاع عن الإسلام ورسوله — فكان شعر حسان وصحبه إذن جامعا بين فحولة شعر الجاهلية وبين المعانى الإسلامية. فإذا كان حسان جاهليا فى قصيدته الهمزية السابقة .. رغم أنها قيلت فى أعز مناسبة إسلامية أراد أن يخلدها بكل إمكانياته ومواهبه، فأطلق لشاعريته العنان بغير تحرز، فإنه هو نفسه القائل فى رثاء حمزة بعد أن قتل فى موقعة أحد، موازنا بين مثواه فى جنة الخلد ومثوى الهالكين من قريش فى النار، مركزا على المعانى الإسلامية:

وإن جنـان الخلــد منزلــه بها وأمر الذى يقضى الأمور سريع
وقتلاكم فى النـار أفضل رزقهم حميم معـاف جوفهـا وضريــع

(١) الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية ص ٦٢ د. مصطفى الشكعة.

ويمكن القول بأن الشعر على ألسنة الشعراء المنافحين عن العقيدة كحسان وعبد الله ابن رواحة وكعب بن مالك، كان مكسوا ثوب الإيمان، ملتزما المعانى الإسلامية طالما كان فى التزامها مزيد من القوة للدفاع عن الدعوة، جانحا عنها إلى أسلوب الشعر الجاهلى متى كان فى ذلك فائدة للدعوة أيضا(١). وبعبارة أخرى كان الشعر يلتزم المعانى التى تؤذى نفوس قريش بالحديث عن الأنساب والوقائع والأيام والمآثر، وهو السلاح الذى ينفع مع قريش، ذلك أنها لم تكن تحفل بوصمها بالشرك والكفر وعبادة الأوثان لأن ذلك كان مصدرا لفخرهم والاعتزاز بدين آبائهم، فكان طبيعيا أن يهجوهم حسان وكعب بما يعدونه حقا هجاء(٢).

ولعله من أهم الملاحظات فى هذا الشعر الإسلامى — فى إطاره العام — أنه شعر مقطوعات وليس شعر قصائد، وهذا النوع لا يتطلب مقدمات لأن ظروفه تدفع الشاعر إلى موضوعه مباشرة دون تقديم، وكانت الظروف التى يعيشها المسلمون — وخاصة الشعراء منهم — تقتضى أن يكون شعرهم سريعا فى مقاومة المشركين حتى يردوهم مخذولين.

ومن هنا كانت الأحداث التى تمضى سراعا لا تدع للشاعر فرصة أن يتأمل ويفكر لينظم، وإنما كانت تلح عليه إلحاحا من أجل أن يلاحقها بنفس سرعتها، ومع ذلك لم يخل هذا الشعر الإسلامى من روعة وجودة وإتقان.

---

(١) تاريخ الشعر السياسى للأستاذ أحمد الشايب. الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية د. مصطفى الشكعة.

(٢) التطور والتجديد فى الشعر الأموى ص ٢٦ د. شوقى ضيف. الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية ص ٦٣.

المبحث الخامس

المدائح النبوية فى التفسير الإعلامى :

واستمرار المدائح النبوية عبر الحضارات السمعية — وحتى حضارة الإذاعة والتليفزيون ، دليل على أن الحضارات الإعلامية متداخل بعضها فى بعض ، مؤثر بعضها فى بعض . ففى — عصر التدوين — مثلا — ظهرت القصيدة الشهيرة « بردة البوصيرى » فى القرن السابع .

ومطلع قصيدة البوصيرى :

أمن تذكر جيران بذى سلم — مزجت دمعا جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة — وأومض البرق فى الظلماء من أضم

وانظر هذه الوثبة الشعرية فى تصوير شخصية الرسول :

أعيا الورى فهم معناه فليس يرى — للقرب والبعد منه غير منفحم
كالشمس تظهر للعينين من بعد — صغيرة وتكل الطرف من أمم
وكيف يدرك فى الدنيا حقيقته — قوم نيام تسلوا عنه بالحلم
فمبلغ العلم فيه أنه بشر — وأنه خير خلق الله كلهم
أكرم بخلق نبى زانه خلق — بالحسن مشتمل بالبشر متسم
وقدمتك جميع الأنبياء بها — والرسل تقديم مخدوم على خدم
وأنت تخترق السبع الطباق بهم — فى موكب كنت فيه صاحب العلم
حتى إذا لم تدع شأوا لمستبق — من الدنو ولا مرقى لمستلم
خفضت كل مقام بالإضافة إذ — نوديت بالرفع مثل المفرد العلم

والبيت الأخير ثقيل أضرت به التورية النحوية(١)

وتكلم عن الجهاد فوصف النبى وأصحابه بالبأس والقوة ، وبين أن الأعداء سقطوا من صدمة الرعب والفزع :

راعت قلوب العدا أنباء بعثته — كنبأة أجفلت غفلا من الغنم
ما زال يلقاهم فى كل معترك — حتى حكوا بالقنا لحما على وضم
ودّوا الفرار فكادوا يغبطون به — أشلاء شالت مع العقبان والرخم
تمضى الليالى ولا يدرون عدتها — ما لم تكن من ليالى الأشهر الحرم

---

(١) د . زكى مبارك : المرجع السابق ، ص ٢١١

ويعجبنا قوله في وصف جند الرسول :

كأنما الدين ضيف حل ساحتهم بكل قرم إلى لحم العدا قرم
يجر بحر خميس فوق سابحة يرمى بموج من الأبطال ملتطم
من كل منتدب لله محتسب يسطو بمستأصل للكفر مصطلم
حتى غدت سلة الإسلام وهى بهم من بعد غربتها موصولة الرحم
همُ الجبال فسل عنهم مصادمهم ماذا رأى منهم فى كل مصطدم
المُصدرى البيض حمرا بعد ما وردت من العدا كل مسود من اللمم
والكاتبين بسمر الخطّ ما تركت أقلامهم حرف جسم غير منعجم

على أن التفسير الإعلامى للأدب بوجه عام — وللسيرة النبوية بوجه خاص — ينظر إلى الأدب الشعبى — فى الحضارة السمعية — نظرة خاصة ، ذلك أن الأدب الشعبى ليس بالضرورة أدب لهجات دارجة ، وأن النسبة إلى الشعب هى الفيصل فى التفريق بين ما هو شعبى وما هو غير شعبى ، فإن فى الآثار الفصيحة ما يمكن أن يكون شعبيا ، وفى الآثار التى تتوسل باللهجات الدارجة ما لا يستطيع باحث أن يضعه فى دائرة الأدب الشعبى .

ذلك أن الأدب الشعبى فى الحضارة السمعية يرتبط بفن « المحدث » المحترف . فإذا كان الأدب المسرحى يقوم على التمثيل ويستمد حياته من حرفة المسرح والنظارة ، فإن القصص الشعبى يعتمد على الشاعر أو المحدث وجمهور المستمعين إليه . ولعل أثر هؤلاء المستمعين فى القصص الشعبى أعظم من أثر النظارة فى الأدب المسرحى .. فالتفاعل بين القصاص ، شاعرا كان أو محدثا ، وبين جمهوره بالغ القوة . فهم يستطيعون حمله على الإطناب أو الإيجاز ، أو حتى على الحذف والتبديل فى نص القصة ، يساعدهم على ذلك أن القصة ليست نصا مكتوبا ذائعا كبقية النصوص الأدبية ، وإنما هى بطبيعتها شفوية يتلقاها القصاص عن شيخه وهكذا . وهذا التسلسل الشفوى من رواية إلى آخر ، يجعل القصة عرضة من هذه الناحية إلى الحذف والتغيير[1] .

وتفسير ذلك إعلاميا أن فن المحدث المحترف ينتظمه الاتصال الجمعى ، الذى يقوم على أساس من التفاعل المتبادل بين المرسل والمستقبل ، ومعنى ذلك أن فن المحدث المحترف نمط اتصالى مزدوج الاتجاه ، فيه أخذ وردّ ، وإرسال واستقبال .

---

(١) د . عبد الحميد يونس : الظاهر بيبرس فى الأدب الشعبى ، ص ٣١ .

وقد ظهر فن المحدث المحترف فى الاحتفال بالمولد النبوى ، وإن كنا لا نعرف أول من ألف فى الموالد إلا أن من أقدم ما عرفناه من هذا النوع كتاب « العروس » ، وهو مولد ألفه ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ ، ورسالة ابن جابر الأندلسى المتوفى سنة ٧٨٠ ، ورسالة الرعينى الغرناطى المتوفى سنة ٧٧٩[١]

وفى دار الكتب المصرية نحو أربعين مولدا ألفت فى عصور مختلفة ، « ولو استقصينا لعرفنا أن هذا النوع من التأليف كثير جدا : فلكل طريقة مولد ، بل لكل شيخ مولد ، وهى جميعا تتشابه فى الغرض والأسلوب . ولننص على أن أكثر الموالد نظم فى نثر منظما غنائيا ليصلح للترتيل والتغنى والإنشاد ، ولم يرج بين الجمهور إلا الموالد التى روعى فيها نظام الفواصل المسجوعة التى تجرى مجرى القصيد فى التزام القافية »[٢] .

وهذا من آثار الحضارة السمعية التى أضافت إلى هذه المنظومات النثرية ، منظومات شعرية ينشدها المنشدون بعد كل وصلة . والوصلة تختم بدعاء مكرر ، كأن يقول المناوى :

اللهم عطر قبره بالتعظيم والتحية
واعمر لنا ذنوبنا والآثام

وتلك المنظومات الشعرية — كما يقول الدكتور زكى مبارك — « ساذجة فى ألفاظها ومعانيها ، فهى ليست من الأدب الفحل ولكن قيمتها ترجع إلى عمق أثرها فى البيئات الشعبية »[٣] .

ولهذه المنظومات آداب وتقاليد رسمتها الحضارة السمعية ، فالمحدث يجلس على منصة عالية تجعله يشرف على مستمعيه ويجعل هؤلاء المستمعين يستطيعون رؤيته من غير عائق .. ويسترسل فى حديثه وهو جالس — فإذا أراد إنشاد الشعر وقف واستعان عليه بالربابة ، وهى الآلة المعروفة « واحدة الوتر »[٤] .

ويصطنع المحدث شيئا من التمثيل فى بعض الأحيان ، فيحاكى مختلف اللهجات . وبهذا تباين السيرة الخطابة وتقترب من التمثيل فى الشكل والموضوع ، بيد أن التمثيل يعتمد على العين والأذن معا ، والسيرة جل اعتمادها على الأذن[٥] كنتيجة لارتباطها

---

(١) د . زكى مبارك : المرجع السابق ، ص ٢٦٥ .
(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٦٦ . (٣) المرجع نفسه ، ص ٢٦٩ .
(٤) د . عبد الحميد يونس : المرجع السابق ، ص ٣٢ .
(٥) المرجع نفسه ، ص ٣٥ .

بالحضارة السمعية ؛ وفى تقديرنا أن السيرة النبوية فى الحضارة السمعية — شأنها فى سائر الحضارات الأخرى — ترتبط بتصوير الشعب العربى الإسلامى لوجدانه القومى، وتعبيره عن ذاتية العامة.

بل إن الملاحم الشعبية الباقية من الحضارة السمعية تطالعنا بسمة أصبحت جزءا لا يتجزأ من حرفة الشاعر الشعبى. . وهى أنه يبدأ حديثه أو شعره الموقع على آلته الموسيقية بالصلاة على النبى، وهى ظاهرة لا تحتاج فى تحليلها إلى كثير من التأمل وإنعام النظر، وبخاصة إذا عرفنا أن الصلاة على النبى تقرن دائمابصفة مميزة هى « نبى عربى » أو « نبى تهامى » أو « سيد ولد عدنان ». وتفسيرها فى إيجاز أن الوجدان الشعبى المصرى نزع إلى التذكير بالمثل الأعلى فى الحياة الإنسانية أولا، ثم بالتذكير بالعروة الوثقى بينه وبين هذا المثل الأعلى ثانيا، وهذه العروة الوثقى وهى العروبة والإسلام. وإذا أضفنا إلى هذه الظاهرة حقيقة أخرى تؤكدها، وهى أن الشعب تغنى بأمجاده فى سير الفرسان عندما غلب عليه حكام من غير العرب، أو بعبارة أخرى عندما قبض على ناصية الحياة فى وطنه المماليك والعثمانيون، فإننا لا نحتاج إلى دليل آخر يقطع بعروبة الوجدان المصرى[1].

وظهور الشاعر الشعبى وازدهار صناعته فى مجتمع من المجتمعات، يعنى أن الحضارة السمعية لم تنته بإقبال الحضارة التدوينية، ذلك أن التدوين بطبيعته له جمهور محدود هو الذى يعرف القراءة والكتابة، ومن هنا يجىء ظهور الشاعر الشعبى احتجاجا على قصور حضارة التدوين، وتقصيرها فى الاتصال بالجماهير. ونحن نعلم مما سطرته كتب التاريخ والأدب والتراجم، ومما ذكره الجوابون من شرقيين وغربيين، ومما سجله المستشرقون من صدور الحفاظ وأهل هذه الحرفة، أن الشاعر الشعبى كان عالى الصوت فى المجتمع المصرى فى تلك القرون التالية، وأنه ظل يجوب المدن والقرى فى الأعياد والمواسم والحقول العامة بعد الاحتلال الإنجليزى الذى رآه الوجدان الشعبى المصرى امتدادا لحكم غير المصريين، أو بعبارة أخرى كانت مألوفة فى القرن الماضى وأوائل هذا القرن لحكم غير « أولاد العرب »[2]!

(١) د. عبد الحميد يونس: مجتمعنا، ص ٢٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٧

ولقد التمس الشعب المصرى — مثلا — عصر البطولة فى سير فرسان العرب ، ولكنه وجد ذاته فى السيرة النبوية العطرة ، التى نقلت إلى الجماهير شيئا من أخبار الفردات ، وحدثتهم عن أشياء كثيرة من شمائل الرسول .

وهكذا يمكن القول إن السيرة النبوية فى الحضارة السمعية قد اتسمت بطابع الاتصال الشخصى المباشر ، الذى يتميز بقدرة على الإقناع لا تتميز بها وسائل الإعلام ذلك أن الاتصال الشفهى يتسم بالحوار والإقناع وتبادل الأفكار كما أن الإنسان رجع الصدى يتيسر بطريقة مباشرة ، يستطيع إن فكر أن يعدل من أدائه الاتصالى فى المراحل التالية .

الباب الثامن

الإعلام الإسلامى وحضارة التدوين

والحضارة التدوينية أو الخطية، تشمل عصورا طويلة تبدأ بأواخر القرن الثانى الهجرى وتنتهى بابتداء عصر الطباعة. وفى هذه الحضارة تفجرت الانطباعات الكلية والمدركات المتكاملة للأشياء مجردة لا صلة لها بالواقع الموضوعى.. وإن كانت اللغة المنطوقة أكثر تطورا من اللغة المدونة، ولذلك نجد فى التاريخ لغات ميتة مثل اللاتينية القديمة، فقد كانت تنطق وتدون ـــ ولكنها تطورت نطقا ولم تتطور كتابة ـــ مما قضى عليها وجعلها غير حية، ورغم ذلك فقد كان للكتابة أثر هام على تقدم الثقافة(١).

وتزداد أهمية الكتابة فى المجتمعات الثانوية، لأن المجتمعات الأولية يسهل فيها اتصال الأفراد بعضهم ببعض، فيمكن أن تنتقل لتنظيمات إلى كل فرد عن طريق التسجيل والقراءة من كل فرد على حدة، أو ينقلها المتعلمون إلى الأميين.

وقد عرف العرب فضل الكتابة ومدحوا فضلاء أهلها، وفى ذلك يقول القلقشندى فى صبح الأعشى:

« أعظم شاهد لجليل قدرها، وأقوى دليل على رفعة شأنها، أن الله تعالى نسب تعليمها إلى نفسه واعتده من وافر كرمه وأفضاله، فقال عز اسمه ﴿ اقرأ وربك الأكرم ۝ الذى علم بالقلم ۝ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ مع ما يروى أن هذه الآية والتى قبلها مفتتح الوحى، وأول التنزيل على أشرف نبى وأكرم مرسل ﷺ، وفى ذلك من الاهتمام بشأنها ورفعة محلها ما لا خفاء فيه. ثم بين شرفها بأن وصف بها الحفظة الكرام من ملائكته، فقال جلت قدرته ﴿ وإن عليكم لحافظين ۝ كراما كاتبين ﴾ ولا أعلى رتبة وأبذخ شرفا مما وصف الله تعالى به ملائكته ونعت به حفظته. ثم زاد ذلك تأكيدا، ووقر محله إجلالا وتعظيما، بأن أقسم بالقلم الذى هو آلة الكتابة، ـــ والقاسم المشترك الأعظم بين جميع الحضارات الاتصالية فى الطباعة والإذاعة والتليفزيون وما يليها ـــ فقال تقدست عظمته ﴿ ن والقلم وما يسطرون ۝ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ والأقسام لا تقع منه سبحانه

---

(١) Lapiore : Sociologie, P. 228

إلا بشريف ما أبدع وكريم ما اخترع ، كالشمس والقمر والنجوم ونحوها إلى غير ذلك من الآيات الدالة على شرفها ورفعة قدرها .

وقال الشاعر :

إن افتخر الأبطال يوما بسيفهم ... وعدوه مما يكسب المجد والكرمْ
كفى قلم الكتاب عزا ورفعة ... مدى الدهر أن الله أقسم بالقلم

ولقد كشفت الحفريات فى الشرق الأوسط عن وجود « دور كتب » حقيقية ترتد إلى ألوف السنين ، ومكونة من ألواح من الطين المحروق ، حتى جذور الكلمات « جراما » Gramma و« ليتيرا » Littera و« سكريبرى » Scribere تعود بنا إلى أزمان ، جرى فيها ضرش مادة ما لتخليد الكلمة . وكذلك نقلت إلينا بهذه الطرائق أعمال أدبية عديدة . ففى العصر الذى كان نحات الحجارة الكريمة يمارس وحده الكتابة ، كانت هناك آداب ولكن لم يكن هناك كتب ، لأن الوثيقة المكتوبة كانت تعوزها خاصة جوهرية : سهولة الانتقال(١) .

فالكلمة تضيع ، وأما الكتابة تبقى Verba Volant, Scripta manent

ذلك أن الكتابة مكنت للكلمة أن تقهر الزمان ، ولكن الكتاب مكن لقهر المكان . فالوسائل المرنة الخفيفة التى أسبغت على الكتاب أسماءه منذ ثلاثين قرنا ، شقت الطريق أمامه لمرحلتين حاسمتين من مراحل التقدم : ففى الناحية الواحدة ، نجد القدرة على النسخ السريع الميسر لنص طويل ، وفى الناحية الأخرى ، القدرة على نقل عدد كبير من نسخ هذا النص نقلا سريعا سهلا ، إلى حيث نشاء(٢) .

السيرة النبوية وحضارة التدوين :

ولقد كانت السيرة النبوية أول عمل من أعمال التدوين يقوم به العرب ، حيث مست الحاجة إلى معرفة سيرة الرسول العربى وحياته استقصاء للسنة ، فحملت رجالا توفروا على جمع أخبارها وتدوينها ، وكان ذلك بداية اشتغال العرب فى الإسلام بالتاريخ ، وأصبح لفظ السيرة وحده لا يعنى غير السيرة النبوية ، حتى أصبح علما عليها ما لم يردف بتعريف يبين عن صاحبها(٣) . وظلت السيرة النبوية العطرة تلهم المؤرخين العرب بفيض من الحق والخير والجمال ، فغدت على مدى عصور التاريخ الإسلامى نبعا

---

(١) روبير اسكاربيت : ثورة الكتاب ، ص ٢٣ (٢) المرجع نفسه ، ص ٢٣
(٣) د . حسين فوزى النجار : هيكل وحياة محمد ، ص ٦

لا يغيض للتدوين التاريخي[١]، ذلك أن انبهار العرب والمسلمين بما أحدثه النبي الكريم ﷺ من انقلاب شامل في جزيرة العرب، قد دعاهم إلى التعرف على سيرته وخطوات جهاده. على أن عنصر المصلحة الإسلامية العامة كان من البواعث المضافة إلى هذا الاهتمام. فإن الوقوف على أقوال الرسول ﷺ وأفعاله كان ضروريا جدا للاهتداء بهديها، والاستناد إليها في التشريع وفي السلوك السوي في الحياة، كما أن غزواته ﷺ وغزوات أصحابه كانت لونا من المعرفة يبصر الناس بحياة نبيهم[٢].

وأرسى محمد بن مسلم بن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ هـ قواعد مدرسة المدينة، أي قبيل نهاية العصر الأموي ببضع سنوات.. والزهري هو أستاذ « موسى بن عقبة» المتوفى سنة ١٤١ هـ. و« محمد بن إسحاق » توفى سنة ١٥١ هـ صاحب أقدم سيرة للرسول عليه الصلاة والسلام، وهي السيرة التي وصلتنا مهذبة في سيرة ابن هشام.

« والحق أن فضل هؤلاء الثلاثة لا ينكر على السيرة النبوية. فقد كان « الزهري » أول من استعمل لفظ « السيرة » تعبيرا عن حياة الرسول » وتناول في السيرة المغازي، وفتح مكة، وبعض سفارات النبي، والوفود التي قدمت عليه، وأهم المعالم البارزة في حياته ﷺ، إلى التحاقه بالرفيق الأعلى. وكان الزهري من أسبق الناس إلى تدوين علمه وأخباره ومروياته، حتى إنه قال عن نفسه: « ما نشر أحد من الناس هذا العلم نشري، ولا بذله بذلي »، وتظهر همته وجده في جمع الحديث وتدوينه باعترافه هو وباعتراف غيره. وقد نفعه اهتمامه بجمع الحديث في اهتمامه بسيرة الرسول ومغازيه، وهي سيرة مجموعة من الحديث، لا من أفواه الرواة والإخباريين »[٣].

أما موسى بن عقبة فمولى للزبيريين، ولعل صلته بعروة بن الزبير وابن هشام — وهما من علماء المغازي — قد أفادته علما. وكان لموسى أخوان عالمان هما: إبراهيم ومحمد، واشتهر أصغرهم موسى بالمغازي. يقول الإمام مالك بن أنس « عليكم بمغازي « ابن عقبة » فهي أصح المغازي » وينقل « ابن سعد » عنه في « الطبقات » و« الطبري » في تاريخه، كما ينقل صاحب الأغاني عنه أخبار « زيد بن عمرو » الذي كان يؤمن بالله في الجاهلية ويكره عبادة الأوثان ولا يأكل مما ذبح عليها. وزيد هذا هو ابن عم عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، وهو من « الحنفاء »[٤].

---

(١) المرجع نفسه، ص ١ (٢) محمد عبد الغني حسن: التاريخ عند المسلمين، ص ١١
(٣) المرجع نفسه، ص ١٤ (٤) المرجع نفسه، ص ١٥

وقد شهد الإمام الشافعي لابن إسحاق فقال : « من أراد أن يتبحر في المغازى فهو عيال على محمد بن إسحاق » .

ومغازى الرسول ﷺ ترتبط بحضارتى البيان بالقول والبيان بالكتاب ، أو الحضارتين السمعية والتدوينية ، ذلك أن سيرة النبى ومغازيه كانت أول الأمر تدخل فيما يروى من الحديث النبوى ، ومن الحديث استفادوا الرواية والإسناد ، وكانت أخبار المغازى والسيرة مبعثرة فى داخل الأحاديث من غير تبويب يؤلف بينها أو يجمعها فى باب واحد(١) ، وهذا أثر من آثار الحضارة السمعية . فلما رتبت الأحاديث فى أبواب وكتب — فى حضارة التدوين — استقلت السيرة والمغازى بأبواب مستقلة فى كتب الحديث ذاتها ، ثم لم تلبث المغازى والسير أن استقلت فى كتب منفصلة عن كتب الحديث(٢) .

وقد ألف فى السيرة النبوية جماعة من المؤلفين والرواة والمحدثين جاءوا على طبقات . ففى الطبقة الأولى نرى « أبان بن عثمان بن عفان » المتوفى فى سنة ١٠٥ هـ و« عروة ابن الزبير بن العوام » المتوفى سنة ٩٢ هـ أو سنة ٩٤ هـ ، و« شرحبيل بن سعد » المتوفى سنة ١٢٣ هـ ، و« وهب بن منبه » المتوفى سنة ١١٠ هـ . والثلاثة الأولون مدنيون يمثلون مدرسة المدينة تمثيلا صحيحا ، والرابع يمنى(٣) .

وفى الطبقة الثانية من مؤرخى السيرة يصادفنا ثلاثة رجال هم « عبد الله بن أبى بكر ابن حزم » المتوفى سنة ١٣٥ ، وهو مدنى ، و« عاصم بن عمر بن قتادة » المتوفى سنة ١٢٠ هـ ، وهو مدنى كذلك ، و« محمد بن شهاب الزهرى » المتوفى فى سنة ١٢٤ هـ ، وهو مكى .

وفى الطبقة الثالثة من مؤلفى السيرة والمغازى يصادفنا « موسى بن عقبة » المتوفى سنة ١٤١ هـ ، وهو مدنى ، و« محمد بن عمر الواقدى » المتوفى سنة ٢٠٧ هـ ، وهو مدنى ، كما يصادفنا من أهل العراق « معمر بن راشد » المتوفى سنة ١٥٠ هـ ، وهو بصرى ، و« محمد بن سعد » صاحب الطبقات المتوفى سنة ٢٣٠ هـ ، وهو بصرى كذلك ، و« زياد البكائى » المتوفى سنة ١٨٣ هـ ، وهو كوفى ، ويأتى فى ختام هذه الطبقة « ابن هشام » المتوفى سنة ٢١٨ هـ ، وهو الذى نقل إلينا سيرة ابن إسحاق(٤) .

---

(١) المرجع نفسه ، ص ١٥ (٢) ، (٣) المرجع نفسه ، ص ١٦

(٤) المرجع نفسه ، ص ١٧

والسيرة النبوية العطرة فى عصر التدوين أفادت كثيرا من الحضارة السمعية، على النحو الذى يبين فى اعتماد كتابها على الرواية والنقل، راويا عن راو ومحدثا عن محدث. بل إن الجمع التاريخى للمادة الأولى للتاريخ فى الحضارة التدوينية كان عن طريق الرواية السمعية، فنجد عند الأولين من مؤرخى السيرة فى عصر التدوين أمثال هذه العبارات: حدثنا فلان عن فلان. أو أخبرنا فلان عن فلان، وهذه هى الرواية بطريق السند أو الإسناد(١).

وفى حضارة التدوين شارك الأندلسيون فى تدوين السيرة النبوية العطرة، على نحو ما نجد عند الفقيه عبد الملك بن حبيب الألبيرى (١٨٥ — ٢٣٨ هـ) الذى تناول السيرة على نحو مفصل، وصلت إلى أيدينا فصول كثيرة كتبها فى ثنايا «تاريخه» الكبير الذى احتفظت المكتبة البودليانية بأكسفورد منه بنسخة مخطوطة وحيدة تحت رقم ١٢٧(٢).

وقد كان اعتماد ابن حبيب فى الفصول الخاصة بالسيرة النبوية وبأخبار الخلفاء الأولين ومغازيهم، على محمد بن عمر الواقدى عن طريق تلميذه وأستاذ ابن حبيب: إبراهيم ابن المنذر الحذامى المدنى، وكذلك على محمد بن إسحاق صاحب السيرة، وعلى مهذبها عبد الملك بن هشام. ويرى الدكتور مكى(٣) أن « قيمة كتاب ابن حبيب العظمى كانت فى توجيه أنظار مواطنيه الأندلسيين إلى الاهتمام بالسيرة النبوية وتتبع أخبارها عن المحدثين والمؤرخين الثقات فى المشرق. فالإنصاف يقتضينا أن نعترف لابن حبيب بأنه صاحب هذه البذرة الأولى فى عناية الأندلسيين « العلمية » بهذا الموضوع، حتى قدرت لهم فيه بعد ذلك درجة عالية من التميز والإجادة »(٤).

ولقد أقبل الأندلسيون منذ منتصف القرن الثانى الهجرى على رواية كتب الرعيل الأول من المؤلفين المشارقة حول السيرة النبوية، وعلى رأس هذه الكتب مغازى موسى ابن عقبة الأسدى المدنى، وسيرة محمد بن إسحاق، وتهذيب هذه السيرة لابن هشام، ومغازى الواقدى، ومغازى عبد الرزاق بن همام، وتاريخ خليفة بن خياط البصرى(٥).

وكان أروج هذه الكتب خلال القرنين الثالث والرابع كتاب ابن هشام الذى هذب به سيرة بن إسحاق، وكانوا يطلقون عليه فى الأندلس اسم « المشاهد » ومن رواته

---

(١) المرجع نفسه، ص ٦١

(٢)، (٣)، (٤) د. محمود على مكى: السيرة النبوية فى التراث الأندلسى، فى الهلال — أغسطس ١٩٧٨، ص ١٠٣

(٥) المرجع نفسه، ص ١٠٤

بقرطبة محمد بن يزيد بن رفاعة الألبيرى (ت ٣٤٤) ، وأبو عيسى يحيى بن عبد الله الليثى القرطبى (ت ٣٦٧) ، الذى كان كذلك راوية لكتب ابن حبيب . وكان مجلسه حينما يقرأ « مشاهد » ابن هشام من أكثر مجالس العلماء اكتظاظا بالطلبة ، ورحل إليه الناس من كل كور الأندلس وأنحائها ، ويذكر المترجمون لأبى عيسى أنه كان من شهود مجلسه خليفة الأندلس نفسه هشام المؤيد بن الحكم . وربما كان إقبال الناس على هذا الكتاب هو الذى حمل العالم القرطبى على تأليف كتاب اختصر فيه سيرة ابن هشام(١) .

كذلك كان لتاريخ خليفة بن خياط البصرى رواج عظيم فى الأندلس ، وهو أول تاريخ إسلامى وصل إلينا على طريقة « الحوليات » ، أى مرتبا على السنين ، وهو المنهج الذى اتبعه بعد ذلك محمد بن جرير الطبرى وأصبح هو الغالب على كتب التاريخ منذ ذلك الوقت . وقد اعتنى بتاريخ خليفة بن خياط عدد من تلاميذ ابن حبيب الأندلسيين ، على رأسهم المحدث الكبير بقى بن مخلد القرطبى (ت ٢٧٦) ، فهو الذى يرجع إليه الفضل فى رواية الكتاب ونشره(٢) . ولم يلبث الأندلسيون الذين بدءوا بالتلمذة على علماء المشرق أن ردوا دين هؤلاء العلماء ، وازدان القرن الخامس بجهودهم الرائعة ، على نحو ما نجد عند الإمام أبى محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم (عاش بين سنتى ٣٨٣ ، ٤٥٦) ، الذى كتب رسالة طويلة بعنوان « جوامع السيرة » . وعلى نحو ما نجد عند أبى عمر يوسف بن عبد الله بن البر النمرى (عاش بين ٣٦٨ ، ٤٦٣) الذى اختص السيرة النبوية بمؤلف جليل هو « الدرر فى اختصار المغازى والسير » الذى وقف على نشره الدكتور شوقى ضيف فى سنة ١٣٨٦ ، ١٩٦٦م . وقد ذكر ابن عبد البر أنه اعتمد فى هذا المختصر على كتب من سبقوه ، مثل سيرة موسى بن عقبة ، وسيرة ابن إسحاق ، ومغازى الواقدى ، وتاريخ ابن أبى خيثمة . وكان ابتداء لكتابه منذ مبعث الرسول ﷺ حتى وفاته ، فلم يتحدث عن مولده عليه السلام ولا نشأته وغير ذلك من أخباره ، وذلك لأنه أحال فى هذه الموضوعات على كتابه الآخر الكبير « الاستيعاب فى معرفة الأصحاب » الذى أفرده بعد هذه المقدمات لتراجم الصحابة رضى الله عنهم . فالكتابان معا — كما يقول الدكتور مكى — يقدمان سيرة كاملة للرسول الكريم ، ولو أنها مختصرة مجردة من الشعر والأخبار ، وكتاب الاستيعاب على ذلك يمكن أن يدرج فى المصادر الخاصة بالسيرة النبوية(٣) . وفى القرن السادس الهجرى يطالعنا الإمام أبو القاسم

---

(١) ، (٢) المرجع نفسه ، ص ١٠٤ (٣) المرجع نفسه ، ص ٢٠٥

عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمى السهيلى (٥٠٨ — ٥٨١) بكتابه المشهور « الروض الآنف » فى شرح سيرة ابن إسحاق بتهذيب ابن هشام . ويشرح منهجه فى تأليف هذا الكتاب فى مقدمته ، حيث يقول :

« وبعد ، فإنى انتحيت فى هذا الإملاء بعد استخارة ذوى الطول ، والاستعانة بمن له القدرة والحول ، إلى إيضاح ما وقع فى سيرة رسول الله ﷺ ، التى سبق إلى تأليفها أبو بكر محمد بن إسحاق المطلب ، ولخصها عبد الملك بن هشام المعافرى المصرى النسابة النحوى ، مما بلغنى علمه ، ويسر لى فهمه ، من لفظ غريب ، أو إعراب غامض ، أو كلام مستغلق ، أو نسب عويص ، أو موضع فقه ينبغى التنبيه عليه ، أو خبر ناقص يوجد السبيل إلى تتمته » .

ويوضح الدكتور مكى كيف ظلت السيرة النبوية العطرة معينا لا ينضب ، ومصدر إلهام للكثير من علماء الأندلس ، ولا سيما عندما اشتدت وطأة الصراع بين الإسلام والمسيحية على أرض الأندلس .

ومن خير نماذج هؤلاء العلماء أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعى البلنسى (٥٦٥ — ٦٣٤) ، شيخ علماء شرق الأندلس فى القرن السادس الهجرى . وقد خلف لنا هذا العالم المجاهد الشهيد عددا هائلا من المؤلفات أظهرها كتابه « الاكتفا ، فى مغازى المصطفى ، والثلاثة الخلفا » ، وبعد أن أصبح مقام المسلمين فى الأندلس أمرا يزداد صعوبة يوما بعد يوم ، فر بعض أهل العلم بدينهم إلى أمصار أخرى فى دار الإسلام أكثر أمنا ، وبين مصر والشام عاش أبو الفتح الدين محمد بن محمد .. بن سيد الناس اليعمرى الأشبيلى ، الذى ألف فى السيرة : « عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسيرة » و« بشرى اللبيب بذكرى » ، ومن أجل مؤلفات الخزاعى (٧١٠ — ٧٨٩) : « تخريج الدلالات السمعية ، على ما كان فى عهد رسول الله (ﷺ) من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية »[1] .

ومن هذا العرض الموجز للسيرة فى حضارة التدوين ، يتضح لنا كيف مهدت الكتابة إلى الحضارة التالية التى اعتمدت عليها اعتمادا كبيرا ، ونعنى الحضارة الطباعية . ولقد أتاح التدوين نسخ كتب السيرة ، الأمر الذى أدّى إلى هذه الوحدة الفكرية فى أرجاء العالم الإسلامى شرقا وغربا ، وإلى إحداث علاقات التأثير والتأثير بين هذه الأرجاء

(١) المرجع نفسه ، ص ١٠٧

وبعضها البعض . وقد أشاد البلاغيون بهذه الحضارة التدوينية إشادة تشير إلى الفهم المتقدم للتفسير الإعلامى للأدب ، والاحتفاء بوسيلة الاتصال ، على نحو ما نجد فى قول أبى الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب :

« قد ذكرنا فيما تقدم من كتابنا هذا نعمة الله — عز وجل — على عباده فيما ألهمهم إياه من الكتابة ، ودللنا على كلمته وإيجاب الحجة عليه . فإنه لولا الكتاب الذى قيد علينا أخبار من مضى من الرسل ، ونقل إلينا ما أتوا به من الكتب ، لما قامت لله — سبحانه — حجة علينا إذ كنا لم نشاهدهم ولم نسمع حججهم ولم نعاين آياتهم ، ولانقرضت العلوم والروايات بانقراض أهلها وموت من تحملها ، ولم يبق فى أيدى الناس من ذلك ومن أخبار الماضين وآثار المتقدمين إلا اليسير مما تلقاه الخلف عن السلف . وكم عسى أن يكون ذلك وما يرى أن تبلغ من العلوم الخالية والأخبار الماضية . فلما أعطاهم هذه الموهبة قيدوا بها ذلك أجمع وحفظ ، فصار من قرأ كتب الأولين وتأمل أخبار الماضين كمن عمر معهم وكان فى أيامهم وأخذ عنهم وسمع منهم . ولذلك قيل : « الكتاب أحد اللسانين » لأنك إذا قرأت كتابا كأنك قد سمعت لفظ صاحبه . وقيل : « القلم أبقى أثرا ، واللسان أكثر هذرا » وقالوا : « اللسان مقصور على الشاهد ، والقلم ينطق فى الشاهد والغائب » . وقال بعضهم : « استعمال القلم أجدر أن يحضر الذهن على تصحيح الكتاب من استعمال اللسان على تصحيح الكلام » .

« والكتاب يقرأ بكل مكان ويدرس فى كل زمان ، واللسان لا يعدو سامعه ولا يتجاوز إلى من بعده ، وقد بين الله عز وجل — فضيلة الكتاب والخط ومعونتهما على الحفظ والضبط ، فقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ﴾ (سورة البقرة ، الآية ٢٨٢) » ، ثم بين العلة فى أمره بذلك ، فقال : (ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرًا أو كبيرًا إلى أجله ، ذلكم أقسط عند الله ، وأقوم للشهادة ، وأدنى أن لا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ، فليس عليكم جناح أن لا تكتبوها) (سورة البقرة ، الآية ٢٨٢) ، وإنما وضع الجناح فى ترك كتاب التجارة الحاضرة ، لأنه ليس يجرى فيما يكون مؤجلا .

« ولما كان هذا موقع الكتاب فى النفوس من المعونة على الحفظ والنفى للشك ، خاطب الله — عز وجل — الناس من ذلك بما يعرفون ، فقال : ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ، إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ — الجاثية /٢٩ — . وقال : ﴿ قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ﴾ — سورة طه /٥٢ — فقال ذلك على

المجاز والمتعارف ، وإلا فهو غير محتاج فى علم ما كان ويكون إلى كتاب من ينسى ويغفل ، والله — عز وجل — لا ينسى ولا يغفل .

« وقد شرف الله عز وجل منزلة الكتاب ، وأحوج الناس إليهم ، وأمرهم بمعاونة من استعان بهم ، فقال : ﴿ ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذى عليه الحق ﴾ . البقرة /٢٨٢ ، ولو لم يكن من فضل الكتابة إلا أن الله — سبحانه — مدح الملائكة بها ، فقال : ﴿ وإن عليكم لحافظين ۝ كراما كاتبين ۝ يعلمون ما تفعلون ﴾ — الانفطار /١٠ ، ١١ ، ١٢ — » .

السيرة النبوية والحضارات الإعلامية :

ومهما يكن من شىء فإن التصنيف التعسفى للحضارات لا يجعل كل حضارة إعلامية مستقلة عن الأخرى ، وإنما تتداخل الحضارات فى بعضها البعض ، ومن ذلك أن السيرة النبوية فى هذه الحضارات الإعلامية جميعا تتفق على الأحداث التى رويت فى الحضارة السمعية ، وتم تدوينها بعد ذلك فى حضارة التدوين ، ومن ذلك أن التدوين التاريخى للسيرة العطرة قد أكد على أن النبى ﷺ ولد فى مكة ، يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول عام الفيل ٥٧١ م ، بعد حادث الفيل بخمسين يوما . وقيل إن ولادته ﷺ كانت يوم ثانى اثنين من ربيع الأول (٩ ربيع الأول ٢٠ إبريل ٥٧٠ م) .

ويجتمع نسب أبويه الشريفين فى كلاب بن مرة ، وهو نسب شريف عريق لم يجتمع لأحد من قبل ولا من بعد ، فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، بن قصى ، بن كلاب ، بن مرة ، بن كعب ، بن لؤى ، بن غالب ، بن فهر ، بن مالك ، بن النضر ، بن كنانة ، بن خزيمة ، بن مدركة ، بن إلياس ، بن مضر ، بن نزار ، بن معد ، بن عدنان .. من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

وأمه سيدة بنى زهرة آمنة بنت وهب ، بن عبد مناف ، بن زهرة ، بن كلاب ، بن مرة ، بن كعب ، بن لؤى ، بن غالب ، بن فهر .

وكان زواج والد الرسول عبد الله بأمه آمنة عام ٥٦٩ م ، ومات عبد الله وأمه حامل برسول الله ، وذلك قبل الميلاد النبوى بسبعة أشهر .

ومن المعلوم عند كثير من المؤرخين — فى عصور التدوين والطباعة — وهو فحوى

رواية الزهرى، أن رسول الله ﷺ ولد عام ٥٦٩ — ٥٧٠ بعد الفيل بنحو ١٧ — ١٨ سنة، أى أن عام الفيل كان(١) عام ٥٥٢ م.

وقيل: ولد رسول الله بعد الفيل بأربعين سنة(٢)، وقيل: بثلاثين سنة(٣).

وعن ابن عباس أنه ولد بعد الفيل بخمس عشرة سنة(٤)، أو بعشر سنين(٥).

ورواية الحسن البصرى أن الرسول ﷺ توفى وعمره ٦٥ عاما، فيكون ميلاده الشريف عام ٥٦٩ — ٥٧٠ م. وعن ابن عباس وغيره أنه ﷺ توفى وعمره ٦٣ عاما فيكون ميلاده عام ٥٧٠ م.

وهذا مستمد من مقالة نشرها الدكتور خالد العسلى فى مجلة المنهل عدد محرم ١٣٧٠ هـ صـ ١٣ ورجع فيها إلى كثير من المصادر والنقوش فى تحديد عام الفيل.

١ — ومن ذلك ندرك أن الرسول ﷺ ولد فى عام الفيل على رأى، وهناك آراء أخرى فى أنه ولد بعد عام الفيل بسنوات كثيرة (٤٠ سنة، أو ٣٠ سنة، أو ١٥ سنة، أو ١٠ سنوات): وكان عام الفيل عام ٥٧٠ م وبعده — على الأرجح — بخمسين يوما كان الميلاد النبوى الشريف.

٢ — وكذلك اختلف فى عمر الرسول ﷺ حين نزول الوحى، وقال أنس بن مالك(٦) وعروة وابن عباس(٧): أربعون سنة (راجع ٢/٢٠١ تاريخ الطبرى،

---

(١) فى عام الفيل أقوال ثلاثة:

(أ) أنه كان عام ٥٧٠ م، وأن الرسول ولد عام الفيل بعده بخمسين يوما وهو قول جمهور المؤرخين.

(ب) أنه كان عام ٥٤٧ م لقول ابن الكلبى إن الرسول ولد بعد عام الفيل بثلاث وعشرين سنة.

(جـ) أنه كان عام ٥٢٢ م وهو ما يؤخذ من رواية الزهرى (راجع التعليق رقم ١ فى هذه الصفحة).

(٢) هو رواية مقاتل (٢٦٢/٣ البداية والنهاية لابن كثير).

(٣) ٢٦٢/٢ البداية والنهاية لابن كثير.

(٤) ٢٦٠/٢ البداية والنهاية لابن كثير. (٥) /٢٠٣ السيرة لابن كثير.

(٦) عن أنس: بعثه الله عز وجل على رأس أربعين، «أقام بمكة عشر سنين وبالمدينة عشر سنين، وتوفاه الله على رأس ستين سنة (٢: ١٧٤ و١٧٥ مختصر صحيح مسلم للمنذرى) — وعن أنس: قبض رسول الله وهو ابن ثلاث وستين ٢: ١٨٢ المرجع.

(٧) عن ابن عباس: أقام رسول الله بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، وبالمدينة عشرا، ومات وهو ابن ثلاث وستين — وعنه كذلك: أقام رسول الله بمكة خمس عشرة سنة يسمع الصوت ويرى الضوء سبع سنين وثمان سنين يوحى إليه، وأقام بالمدينة عشرا (٢: ١٨١ المرجع السابق).

١٦/٢ الكامل لابن الأثير — ٣/ الصبر لابن خلدون — ٢٠١/٣ البداية لابن كثير ، ٦٩/١ تاريخ الإسلام الذهبى) .

٣ — وفى كتاب « الأوائل لأبى هلال العسكرى » صـ ٢٧ : أن رسول الله ولد بعد خمسين يوما من حادث الفيل ، وكان قدوم الفيل مكة يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة بقيت من محرم ، وولد رسول الله يوم الاثنين لثمان خلون من شهر ربيع الأول وهو اليوم العشرون من نيسان وقيل العاشر من نيسان وقد مضت من ملك أنوشروان أربع وثلاثون سنة وثمانية أشهر ، وكان رسول الله يقول : ولدت فى زمن الملك العادل أنوشروان . ومن أيام ملوك الروم على عهد قسطنطين ، ومن أيام ملوك اليمن فى أول سنة من ملك أبرهة (!!) ولثمان سنين وثمانية أشهر من ملك أبى هند عمرو بن هند ، وملك الشام الغسانى يومئذ هو الحارث الغسانى .

والمدة بين عام الفيل وموت كعب بن لؤى ٥٢٠ عاما كما يقول أبو هلال فى كتابه الأوائل صـ ١٢٢ .

وقد عاصر حياة الرسول عدد كبير من الملوك والأمراء : يزدجرد ملك للفرس (١٦ يونيو ٦٣٢ — ٦٥١م : ١٠ هـ ٣٠ هـ ، النعمان الثالث (٥٨٠ — ٦٠٢ م) ، وإياس بن قبيصة الطائى (٦٠٢ — ٦١١ م) ، والمنذر بن الحارث (٥٦٩ — ٥٨٣ م) ، جبلة بن الأيهم (٦٢٩ — ٦٣٦ م) .

وفى عام ٥٩٧ م (انتصر سيف بن ذى يزن ملك اليمن على الحبشة فى أرض اليمن وأجلاها عن بلاده .

وبعد أعوام من الميلاد النبوى كان يوم ذى قار الذى هزمت العرب فيه جيوش فارس فى صحراء الحيرة ، وفى هذا اليوم يقول الرسول الكريم : (هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم ، وبى فصروا) .

وفى مكة فى دار عبد الله بن جدعان عقدت قريش حلف الفضول ، حيث تعاهدت قبائلها على ألا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها أو غيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى ترد إليه مظلمته ، وقد شهده رسول الله وهو فى سن العشرين ، وقال فيه : لقد شهدت فى دار ابن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو دعيت به فى الإسلام لأجبت .

طفولة رسول الله :

ولد محمد ﷺ فى بيت كريم من أبوين كريمين ، وقد مات الأب قبل الميلاد الشريف ، والأم حاملة به ﷺ[١] .

فلما وضعته أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب أنه قد ولد لك غلام ، فأته فانظر إليه . فأتاه فنظر إليه ، وحدثته الأم بما رأت حين حملت به ، وبما قيل لها فيه ، وبما أمرت به أن تسميه .

وحمل عبد المطلب الوليد اليتيم فدخل به الكعبة ، وقام يدعو الله ويشكر له ما أعطاه ، وعاد بالوليد إلى أمه فدفعه إليها[٢] . ونما ﷺ ، والتمس جده عبد المطلب له الرضعاء .

فأرضعته حليمة ابنة أبى ذؤيب من سعد بن بكر ، وكان زوجها الحارث بن عبد العزى من سعد بن بكر بن هوازن ، وكان إخوة رسول الله ﷺ من الرضاعة عبد الله بن الحارث ، وأنيسة بنت الحارث ، وخذامة بنت الحارث « الشيماء » . والشيماء اسم شهرت به فلا تعرف فى قومها إلا به ، ويروى أن الشيماء كانت تحضنه مع أمها إذا كان ﷺ عندهم .

حدثت حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية — أم رسول الله ﷺ رضاعا — أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه[٣] ، فى نسوة من سعد بن بكر تلتمس الرضعاء وهى فى سَنة شهباء ، سنة جدب وقحط لم تبق لها شيئا . قالت حليمة : فخرجت على أتان[٤] لى قمراء[٥] ، معنا شارف[٦] لنا والله ما تجود بقطرة ، وما ننام ليلتنا أجمع من صبينا الذى معنا من بكائه من الجوع ، وما فى ثديى ما يغنيه وما فى شارفنا ما يغذيه ، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج . فخرجت على أتانى تلك ، فقد أدمت السير بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفا وعجفا .

حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء ، فما منا من امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ ،

---

(١) توفى عبد الله أبو الرسول وهو حمل ، وقيل : توفى بعد ولادة رسول الله ﷺ بشهرين ، وقيل توفى بعد ولادة رسول الله بأكثر من شهرين (١ : ٢٢١ العقد الثمين للفاسى) .

وقيل إنه توفى بعد أن أتى على رسول الله ٢٨ شهرا (١ : ٥٧٩ الطبرى) .

(٢) وختنه جده عبد المطلب فى اليوم السابع من مولده ، وصنع له مأدبة (١ : ٣٥ زاد المعاد) تفوق الوصف .

(٣) هو عبد الله بن الحارث (٤) هى أنثى الحمار .

(٥) بيضاء إلى كدرة . (٦) ناقدة حسنة .

فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم، وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي فكنا نقول: وما عسى أن تصنع أمه وجده؟ فكنا نكره أخذه لذلك، فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعا غيري. فلما أجمعنا العودة قلت لصاحبي زوجي: والله إني لأكره أن أرجع بين صواحبي ولم آخذ رضيعا، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه. قال لها زوجها: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة. قالت: فذهبت إليه فأخذته، وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره. ورجعت به إلى رحلي، فلما وضعته في حجري جاد ثدياي بما شاءا من لبن، فشرب حتى روى، وشرب معه أخوه حتى روى، ثم ناما وما كنا ننام معه قبل ذلك.

وقام زوجي إلى شارفنا تلك فدرت باللبن، فحلب منها ما شاء وشرب وشربت معه حين انتهينا ريا وشبعا. فبتنا بخير ليلة، وأصبحنا فقال لي زوجي: اعلمي يا حليمة أنك أخذت نسمة مباركة.

فقلت له: والله إني لأرجو ذلك. وخرجنا، وركبت أتاني وحملت الطفل عليها معي، فوالله لقطعت بالركب مسافات ما يقدر على قطعها شيء من فواره دوابهم، حتى إن صواحبي ليقلن لي:

— يا ابنة أبي ذؤيب ويحك. أربعي[1] علينا. أليست هذه أتانك التي كنت قد خرجت عليها؟ فأقول لهن: بلى والله إنها لهي هي. فيقلن لي: والله إن لها لشأنا. وقدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها، وكانت غنمي تروح عليّ — حين قدمنا به معنا — شباعا، فنحلب ونشرب وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع، حتى كان القوم يقولون لرعايتهم: ويلكم! اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب. فتروح[2] أغنامهم جياعا ما تجود بقطرة لبن، وتروح غنمي شباعا لبنا.

فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتان من حياة الوليد معنا وفصلته، وكان يشب شبابا لا يشبه الغلمان.

فقدمنا به على أمه — ونحن أحرص شيء على مكثه فينا — لما كنا نرى من بركته، فكلمنا أمه، قلت لها:

— لو تركت بنيّ عندي وقتا أطول، فإني أخشى عليه وباء مكة.

ولم أزل بها حتى ردته معنا. فرجعنا به.

---

(١) أي انتظري علينا. (٢) أي تعود من المراعي. (٣) أي متغير.

هذا هو الطفل العظيم ابن العامين تعود به حليمة إلى وطنها فى بنى سعد بن بكر ، وترعاه وتربيه .

وتقص حليمة قصة جديدة عظيمة ، للطفل العظيم ، فتقول :

— والله إنه — بعد مقدمنا بأشهر — مع أخيه عبد الله لفى غنم لنا خلف بيوتنا ، إذ أتانا أخوه يعدو ، فقال لى ولأبيه : ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعاه فشقا بطنه . فخرجت أنا وأبوه نحوه ، فوجدناه قائما منتقع[١] الوجه ، فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا له: مالك يا بنى؟ قال: جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعانى وشقا بطنى فالتمسا فيه شيئا لا أدرى ما هو ؟ فرجعنا إلى خبائنا ، وقال لى أبوه : يا حليمة ، لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب ، فالحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به . فاحتملناه فقدمنا به على أمه[٢] ، قالت : ما أقدمك به يا حليمة ، وقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك ؟

فقلت : نعم ، قد بلغ الله بابنى وقضيت الذى علىّ ، وتخوفت الأحداث عليه فأديته عليك كما تحبين . قالت آمنة لحليمة : ما هذا شأنك ، فاصدقينى خبرك . فلم تدعنى حتى أخبرتها ، قالت آمنة : أفتخوفت عليه الشيطان ؟ قلت : نعم . قالت : كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل ، وإن لبنى لشأنا . أفلا أخبرك خبره ؟ قلت : بلى . قالت رأيت حين حملت به أنه خرج منى نور أضاء لى قصور بصرى من أرض الشام ، ثم حملت به فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخف ولا أيسر منه ، ووقع حين ولدته وإنه لواضع يده بالأرض رافع رأسه إلى السماء . دعيه عنك يا حليمة ، وانطلقى راشدة .

وعن رسول الله ﷺ :

استرضعت فى بنى سعد بن بكر ، فبينا أنا مع أخ لى خلف بيوتنا نرعى بُهْما[٣] لنا ، أتانى رجلان عليهما ثياب بيض بسطت من ذهب مملوءة ثلجا ، فأخذانى فشقا بطنى واستخرجا قلبى ، فشقاه فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ، ثم غسلا قلبى وبطنى بذلك الثلج حتى أنقياه . ثم قال أحدهما لصاحبه :

زنه بعشرة من أمته . فوزننى بهم فوزنتهم . قال : زنه بمائة من أمته . فوزننى بهم

---

(١) أى متغير .

(٢) قيل : ردته حليمة إلى أمه وهو ابن خمس سنين وشهر ، ولم تره بعد ذلك إلا مرتين : بعد زواجه من خديجة ، ويوم حنين .

(٣) البُهم : الغنم الصغار .

فوزنتهم . قال : زنه بألف من أمته . فوزنني بهم فوزنتهم . فقال : دعه عنك ، فلو وزنته بأمته لوزنها(١) .

وفى رعى الغنم يقوم رسول الله ﷺ : (ما من نبى إلا رعى الغنم) . قيل : وأنت يا رسول؟ قال : (وأنا) .

وكان رسول الله ﷺ ، يقول لأصحابه : أنا أعربكم ، أنا قرشى واسترضعت فى بنى سعد بن بكر .

ويروى أن حليمة السعدية لما قدمت به مكة أضلها فى الناس وهى مقبلة به نحو أهله ، فالتمسته فلم تجده ، فأتت عبد المطلب فقالت له : إنى قد قدمت بمحمد هذه الليلة ، فلما كنت بأعلى مكة أضلنى فوالله ما أدرى أين هو . فقام عبد المطلب عند الكعبة يدعو الله أن يرده ، فوجده ورقة بن نوفل بن أسد ورجل آخر من قريش ، فأتيا به عبد المطلب فقالا له : هذا ابنك وجدناه بأعلى مكة . فأخذه عبد المطلب فجعله على عنقه وهو يطوف بالكعبة يعوذه ويدعو له ، ثم أرسل به إلى أمه آمنة(٢) .

---

(١) وتشير حادثة شق الصدر الشريف إلى أنه حدث فى طفولته ﷺ . ويروى أنه تكرر غير مرة : فقد حصل مرة ثانية عند المبعث . روى أبو نعيم فى دلائل النبوة أن جبريل وميكائيل عليهما السلام شقا صدره وغسلاه ، ثم قال جبريل له : اقرأ باسم ربك .. وحصل مرة ثالثة عند الإسراء والمعراج . وروى مسلم فى صحيحه بسنده عن قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة قال : قال نبى الله ﷺ : (بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان ، إذ سمعت قائلا يقول : أحد الثلاثة بين الرجلين ، فأتيت فانطلق بى ، فأتيت بطست من ذهب فيها من ماء زمزم ، فشرح صدرى إلى كذا وكذا — قال قتادة : قلت للذى معى ؟ قال : إلى أسفل بطنه — ، فاستخرج قلبى فغسل بماء زمزم ثم أعيد مكانه ، ثم حشى إيمانا وحكمة .

وحصل شق صدره الشريف مرة رابعة فيما روى عن أبى هريرة ، قال : سألت رسول الله ﷺ : ما رأيت من أمر النبوة ؟ فاستوى جالسا وقال إنى لفى صحراء ابن عشرين سنة وأشهر ، إذا بكلام فوق رأسى وإذا رجل يقول لرجل : أهو هو ؟ فاستقبلانى بوجوه لم أرها بخلق قط ، وأرواح لم أجدها من خلق قط ، وثياب لم أجدها على أحد قط ، فأقبلا إلى يمشيان حتى إذا دنيا أخذ كل واحد منهما بعضدى لا أجد لأخذهما مسا ، فقال أحدهما لصاحبه : أفلق صدره . فهوى أحدهما إلى صدرى ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع ، فقال له : أخرج الغل والحسد . فأخرج شيئا كهيئة العلقة ثم نبذها ، فقال له : أدخل الرأفة والرحمة . فإذا مثل الذى دخل شبه الفضة ، ثم حز إبهام رجلى اليمنى وقال : اعد واسلم ، فرجعت أعد وبها رأفة على الصغير ، ورحمة على الكبير .

(٢) هذا وحواضنه ﷺ : أمه ، ثم حليمة ، والشيماء ابنة حليمة ، وثويبة ، وأم أيمن .

ويروى أن نفرا من الحبشة من النصارى، رأوا محمدا مع حليمة السعدية حين رجعت به بعد فطامه، فنظروا إليه وسألوها عنه وقبلوه، ثم قالوا لها: لنأخذن هذا الغلام فلنذهبن به إلى ملكنا وبلدنا، فإن هذا غلام كائن له شأن نحن نعرف أمره، فلم تكد تنفلت به منهم.

وعاش رسول الله ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب وجده عبد المطلب بن هاشم فى كلاءة الله وحفظه، ينبته الله نباتا حسنا لما يريد به من كرامته.

فلما بلغ رسول الله ﷺ ست سنين توفيت أمه آمنة بنت وهب بالأبواء بين مكة والمدينة، وكانت قد قدمت به على أخواله[1] من بنى عدى بن النجار تزيره إياهم، فماتت وهى راجعة به إلى مكة.

وعاش رسول الله ﷺ مع جده عبد المطلب بن هاشم، وكان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة — فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحد منهم إجلالا له، وكان رسول الله ﷺ يأتى وهو غلام جفر حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابنى فوالله إن له لشانا. ثم يجلسه معه عليه ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع.

وكانت فاطمة بنت أسد بن هشام أم على بن أبى طالب وزوجة عمه أبى طالب بمثابة الأم لرسول الله بعد وفاة أمه، فلقد ربى الرسول فى حجرها وهو ابن ثمان سنين، وكان يجعلها أما له، ولما توفيت كفنها رسول الله بقميصه.

---

(١) كانت أم عبد المطلب سلمى بنت عمرو النجارية من بنى عدى من بنى النجار، ومن هنا كانت خؤولته ﷺ فى بنى النجار.

وقد توفى عبد الله أبو رسول الله وأمه حامل به. وأما هشام فقال: توفى عبد الله بعدما أتى على رسول الله ثمانية وعشرون شهرا (١ : ٥٧٩ تاريخ الأمم والملوك للطبرى مطبعة الاستقامة). وقيل: إنه توفى بعد ميلاد رسول الله بشهرين (١ : ٢٢١ العقد الثمين للفاسى). ويروى الطبرى أن عبد الله أقبل من الشام فى عير لقريش فنزل بالمدينة وهو مريض، فأقام بها حتى توفى ودفن فى دار النابغة فى الدار الصغرى (١/٥٧٩ طبرى). وقيل إنه توفى بعد ولادة رسول الله بسبعة أشهر.

وتوفى جده عبد المطلب والرسول ابن ثمانى سنين، وكان بعضهم يقول: وهو ابن عشر سنين (١/٥٧٩ طبرى — وراجع ١ : ٢٢ زاد المعاد). وفى وفاة رسول الله ﷺ يقول الفاسى فى كتاب العقد الثمين (١/١٢٢): ماتت أم رسول الله ﷺ وله أربع أو ست أو سبع سنوات. وقيل: وله ست سنوات ومائة يوم (راجع ١ : ٣٢ زاد المعاد) ودفنت بالأبواء. وقيل: إن قبر آمنة فى شعب أبى ذر بمكة (١ : ٥٧٩ الطبرى).

فلما بلغ رسول الله ﷺ ثمانى سنين توفى جده عبد المطلب ، وذلك بعد الفيل بثمانى سنين ، أى عام ٥٧٩ م[١] .

وولى زمزم والسقاية عليها بعد عبد المطلب ابنه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ من أحدث إخوته سنا ، فلم تزل إليه حتى قام الإسلام وهى بيده ، فأقرها رسول الله ﷺ له على ما مضى من ولايته .

وكان رسول الله ﷺ يقول : أنا أعربكم ، أنا قرشى واسترضعت فى بنى سعد بن بكر[٢] .

نشأة رسول الله :

كفل رسول الله ﷺ بعد عبد المطلب عمه أبو طالب ، وكان عبد المطلب فى حياته يوصى به أبا طالب ، لأن أبا طالب ووالد رسول الله — وهو عبد الله — أخوان لأب وأم ، أمهما فاطمة المخزومية .

فكان رسول الله ﷺ — بعد جده — مع عمه أبى طالب .

وقدم مكة رجل ذو فراسة من لهب ، فأتاه رجال قريش بأبنائهم ينظر إليهم ، فأتى أبو طالب بمحمد وهو غلام ، فنظر الرجل إلى رسول الله ﷺ ثم شغله عنه شاغل ، فلما فرغ قال : أين الغلام ؟ ايتونى به . فلما رأى أبو طالب حرصه عليه غيبه عنه ، فجعل الرجل يقول : ويلكم ! ايتونى بالغلام الذى رأيت من قبل ، فوالله ليكونن له شأن .

وخرج أبو طالب فى قافلة تجارية إلى الشام وسافر معه رسول الله ﷺ ، وعمه أبو طالب يقول : والله لأخرجن به معى ولا يفارقنى ولا أفارقه أبدا . وسنه إذ ذاك ﷺ تسع سنين كما يقول الطبرى (٢/٣٢) ، أو اثنتا عشرة كما يقول ابن القيم فى زاد المعاد (١/٢٢) .

فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام ، وبها راهب مسيحى يقال له بحيرى فى دير له نزلوا به ، وكانوا كثيرا ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يفرض لهم .

فلما نزلوا به قريبا من ديره صنع لهم طعاما كثيرا ، ويروى أنه شاهد الركب قادما وهو فى صومعته وفوق الرسول غمامة تظلله من بين القوم ، ونزل الركب فى ظل شجرة فتدلت أغصانها على رسول الله .

---

(١) وقيل إنه توفى ولرسول الله ست أو عشر سنوات (١ : ٣٢ زاد المعاد) .

(٢) سيرة ابن هشام ، جـ ١ ، ص ١٧٨

فلما رأى ذلك بحيرى خرج من صومعته ، وأمر بصنع طعام للركب ، ثم أرسل إليهم وقال :

يا معشر قريش ، قد صنعت لكم طعاما وإنى داعيكم إلى مأدبتى .. صغيركم وكبيركم ، عبدكم وحركم .

فقال رجل من الركب : والله يا بحيرى إن لك لشأنا اليوم ، ما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيرا . فما شأنك اليوم ؟

قال له بحيرى : صدقت قد كان ما تقول ، ولكنكم ضيف وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاما فتأكلوا منه .

فاجتمعوا إليه ، وتخلف رسول الله بين القوم لحداثة سنه[1] ومكث فى رحال القوم تحت الشجرة ، فقال بحيرى لهم : لا ينبغى أن يتخلف أحد منكم عن طعامى .

قالوا له : يا بحيرى ما تخلف عنك أحد ينبغى له أن يأتيك ، إلا غلاما وهو أحدث القوم سنا .

فقال لهم : ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم .

فقال له رجل من قريش . واللات والعزى أن كان للؤم بنا أن أن يتخلف ابن عبد الله ابن عبد المطلب عن طعام من بيننا[2] . ثم مال إليه فأتى به وأجلسه مع القوم . فلما رآه بحيرى جعل يلحظه وينظر إليه ، فلما فرغوا من الطعام وقف بحيرى يتحدث مع ذلك الغلام الصغير قال له :

— يا غلام ، أسألك بحق اللات والعزى التى تعبدونها ، ألا ما أخبرتنى عما أسألك عنه .

فرد عليه رسول الله : (لا تسألنى باللات والعزى شيئا ، فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما) .

فقال له بحيرى : فبالله إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه .

فقال له ﷺ : (سلنى عما بدا لك) ، فجعل يسأله عن أشياء من حاله .. من نومه ، وهيئته ، وأموره .

---

(١) يبدو لى أن تخلفه ﷺ كان لسبب آخر هو خوف أبى طالب عليه من بحيرى ، وكان لبحيرى نفوذه وسلطانه يستطيع بهما أن يصنع ما يشاء له هواه من مكائد بهذا الغلام العظيم ، أو أن يدس له السم فى طعامه .

(٢) ذلك دليل على أنه لم يكن فى القافلة غلام غيره ، وعلى أن ذلك القرشى لا يعرف مقصد أبى طالب من ذلك .

فجعل رسول الله ﷺ يخبره ، فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته .

ثم أقبل بحيرى على أبى طالب فقال له : ماذا تكون من هذا الغلام ؟ قال : هو ابنى . قال بحيرى : ما هو بابنك فما حال أبيه ؟ قال أبو طالب له : مات وأمه حبلى به . قال : صدقت ، فارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم . فأسرع به إلى بلاده ، حيث أنجز أبو طالب شئونه وعاد به سريعا إلى مكة . وقيل إن أبا طالب بعث برسول الله إلى مكة مع بعض غلمانه(١) .

وشب رسول الله ﷺ والله تعالى يكلؤه ويحفظه ، ويحوطه ويرعاه ، ويحميه من أقذار الجاهلية لما يريد به من كرامته ورسالته .

الرسول فى شبابه :

بلغ رسول الله ﷺ مبلغ الشباب ، فصار أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقا ، وأحسنهم جوارا ، وأعظمهم حلما ، وأصدقهم حديثا ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التى تدنس الشباب ، من كرم الحسب ، وعراقة المحتد ، وعظمة النجار .

وصار يلقب فى قريش بالأمين ، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة .

وكان يمتنع عن كثير من أمور الجاهلية تكرما وتنزها ، ويحفظه الله من كثير من أخلاقها اصطفاء وتكريما وإعدادا إلٰهيا لرسالة السماء .

ويحدث رسول الله ﷺ عما كان الله يحفظه فى صغره من أمر جاهليته ، فيقول :

— (لقد رأيتنى فى غلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان . كلنا قد تعرى وأخذ إزاره فجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة ، فإنى لأقبل معهم كذلك وأدبر ، إذ لكمنى لاكم ما أراه لكمة شديدة وقال لى : شد عليك إزارك .

فأخذت الإزار وشددته على ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وإزارى على من بين أصحابى) .

فلما بلغ رسول الله ﷺ أربع عشرة ، أو خمس عشرة سنة ، هاجت حرب الفجار(٢) بين قريش ومن معها من كنانة وبين قيس عيلان ، وشهد رسول الله ﷺ بعض أيامها .. أخرجه أعمامه معهم ، وقال رسول الله ﷺ : (كنت أنبل على أعمامى) . أى أرد عنهم نبل عدوهم إذا رموهم بها .

---

(١) ١ : ٣٢ زاد المعاد لابن القيم

(٢) سميت حرب الفجار لأنها كانت فى الشهر الحرام ، وهى أربع حروب هذه آخرها وكانت عام ٥٨٥ م . ويقول الطبرى : إن حرب الفجار نشبت والرسول ابن العشرين (٢/٤ طبرى طبعة الاستقامة) .

وقال ابن إسحاق (٨٥ — ١٥٢ هـ) : هاجت حرب الفجار ورسول الله ﷺ ابن عشرين سنة ، وكان قائد قريش وكنانة حرب بن أمية بن عبد شمس وكان الظفر فى أول النهار لقيس على كنانة ، حتى إذا كان فى وسط النهار كان الظفر لكنانة على قيس .

فلما بلغ رسول الله ﷺ خمسا وعشرين سنة ، تزوج خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى .

وكانت خديجة امرأة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال فى مالها ، وكانت قريش قوما تجارا .

فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه ، وعظم أمانته ، وكرم أخلاقه ، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج فى مال لها إلى الشام تاجرا — وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار — مع غلام لها يقال له ميسرة . فقبل رسول الله ﷺ ، وخرج فى مالها وخرج معه ميسرة حتى قدم إلى الشام .

ويحدث ميسرة عن غرائب هذه الرحلة فيقول : نزل رسول الله ﷺ فى ظل شجرة قريبا من صومعة راهب من الرهبان ، فاطلع الراهب إلى ميسرة وقال له : من هذا؟ قال له ميسرة : هذا رجل من قريش من أهل الحرم . قال الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبى .

وباع رسول الله ﷺ سلعته التى خرج بها ، واشترى لها ما أراد أن يشترى ، وقفل راجعا إلى مكة ومعه ميسرة . ويقول ميسرة : إنه إذا كانت الهاجرة واشتد الحر يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو يسير على بعيره . وذكر ذلك لخديجة غلامها ميسرة . فذكرت لورقة بن نوفل — وكان ابن عمها — ذلك من قول الراهب ، وما كان يرى منه إذ كان الملكان يظلانه ، فقال ورقة : لئن كان هذا حقا يا خديجة ، إنه لنبى هذه الأمة . وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبى ينتظر هذا زمانه .

فلما قدم مكة على خديجة بما لها باعت ما جاء به ، فبلغ ضعف ثمن شرائه أو نحو ذلك ، وحدثها ميسرة بما رأى وما سمع . كانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة ، مع ما أراد الله بها من كرامته ، فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها بعثت إلى رسول الله ﷺ ، فقالت له : يا ابن عمى ، إنى قد رغبت فيك لقرابتك ولطفك[١] فى قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك .

وكانت خديجة[٢] يومئذ أوسط نساء قريش نسبا ، وأعظمهن شرفا ، وأكثرهن مالا .

---

(١) أى شرفك .

(٢) أبوها خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، وأمها فاطمة بنت زائدة بن الأصم رواحة بن حجر بن عبد معيص بن عامر بن لؤى .

وأم فاطمة هى هالة بنت عبد مناف بن الحرث بن عمرو بن منقذ بن عمرو بن معيص بن عامر بن لؤى .

فوافق رسول الله ﷺ ، وعرض الأمر على أعمامه فخرج معه حمزة بن عبد المطلب حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه ليتزوجها .

وأصدقها رسول الله ﷺ عشرين بكرة ، وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت .

فولدت لرسول الله ﷺ ولده كلهم إلا إبراهيم : « القاسم » وبه كان يكنى ﷺ ، والطاهر ، والطيب ، وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة[١] عليهم السلام ... فأما القاسم والطيب فماتوا فى الجاهلية ، وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام ، فأسلمن ، وهاجرن معه ﷺ ، وأما إبراهيم فأمه مارية أهداها إليه المقوقس .

وكان رسول الله ﷺ يقول فى خديجة : آمنت بى إذ كفر بى الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وآستنى بما لها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها الولد إذ حرمنى أولاد النساء .

الرسول فى رجولته :

لما بلغ رسول الله ﷺ خمسا وثلاثين سنة ، اجتمعت قريش لبنيان الكعبة ، وكانوا يهمون بذلك ليسقفوها ، ويهابون هدمها ، وإنما كانت فوق القامة فأرادوا رفعها وتسقيفها . وذلك أن نفرا سرقوا كنزا للكعبة وإنما كان يكون فى بئر فى جوف الكعبة ، وكان الذى وجد عنده الكنز مولى لبنى مليح من خزاعة ، فقطعت قريش يده .

فلما أجمعوا أمرهم فى هدمها وبنائها ، قام أبو وهب المخزومى[٢] فقال :

يا معشر قريش ، لا تدخلوا فى بنائها من كسبكم إلا طيبا ، لا يدخل فيه مهر بغى ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس .

ثم إن الناس هابوا هدمها وفرقوا منه ، فقال الوليد بن المغيرة : أنا أبدؤكم فى هدمها ، فأخذ المعول ثم قام عليها قائلا : اللهم إنا لا نريد إلا الخير . ثم هدم من ناحية الركنين ، فتربص الناس تلك الليلة فأصبح الوليد غاديا على عمله ، فهدم وهدم الناس .

ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها ، ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن — الحجر الأسود — فاختصموا فيه . كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، فتحاوروا وتحالفوا وأعدوا للقتال ، فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسا .

---

(١) توفيت بعد وفاة رسول الله ﷺ بخمسة أو ستة أشهر ، وعمرها أربع أو خمس أو ثمان أو تسع وعشرون سنة ، وولدت وقريش تبنى الكعبة . وتزوج بها على بعد عرس عائشة بأربعة أشهر ونصف ، وفاطمة يومئذ بنت خمس عشرة سنة وخمسة أشهر ونصف ، وكان دخول الرسول بعائشة فى شوال بعد بدر فى السنة الثانية من الهجرة .

(٢) هو خال والد الرسول ﷺ .

ثم إنهم اجتمعوا فى المسجد وتشاوروا وتناصفوا . فقال أبو أمية المخزومى وكان عندئذ أسن قريش كلها :

يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد[١] يقضى بينكم فيه . ففعلوا ، فكان أول داخل رسول الله ﷺ ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد .

وكانت قريش تسمى رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحى : الأمين .

فلما انتهى إليهم أخبروه الخبر ، فقال ﷺ : هلم إلىّ ثوبا . فأتى به .

فأخذ الركن[٢] فوضعه فيه بيده ، ثم قال :

ـــ لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعا . ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ، ثم بنى عليه .

فلما فرغوا من البنيان وبنوها على ما أرادوا ، قال الزبير بن عبد المطلب :

وقمنا حاشدين إلى بناء ... لنا منه القواعد والتراب

فبوأنا المليك بذاك عزا ... وعند الله يلتمس الثواب

وكانت الكعبة على عهد رسول الله ﷺ ثمانى عشرة ذراعا وكانت تكسى القباطى[٣] ، ثم كسيت البرود[٤] ، وأول من كساها الديباج الحجاج بن يوسف الثقفى المتوفى عام ٩٣ هـ .

وكانت الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى والكهان من العرب ، قد تنبأوا بقرب ظهور رسول من العرب .

فالأحبار والرهبان عرفوه من كتبهم ، وأما الكهان فنبوءاتهم من إلهام الإنسان المتجردة روحه عن المادة .

فلما قرب زمن ظهور رسول الله ﷺ ، وتقارب مبعثه الشريف ، كثرت النبوءة برسول من العرب يبعث برسالة من السماء .

---

(١) هو باب بنى شيبة (باب السلام اليوم) .

(٢) أى الحجر الأسود ـــ وكان الرسول فى الخامسة والثلاثين من عمره .

(٣) ثياب بيض كانت تصنع بمصر .

(٤) ثياب كانت تصنع باليمن ـــ هذا وكان أبو جهم بن حذيفة القرشى ممن بنى البيت فى الجاهلية ، ثم عمر حتى فيه مع ابن الزبير (٢ : ٤٠٠ سير أعلام النبلاء) .

حجة الوداع

جاهد رسول الله ﷺ من أجل تبليغ الرسالة، وهاجر إلى المدينة، وبلغ قمة التوفيق فى السلام والحرب، وانتصاراته المدوية كانت بداية تاريخ إسلامى مجيد.

ولما دخل على رسول الله ذو القعدة، تجهز للحج وأمر الناس بالجهاز له، وخرج من المدينة لخمس ليال بقين من ذى القعدة، واستعمل عليها أبادجانة الساعدى(١)، ويقال بل سباع بن عرفطة الغفارى.

ودخل رسول الله إلى مكة.

وجاء على من نجران فلقى رسول الله بمكة وقد أحرم، وكان قد خلف على جنده الذين معه رجلا من أصحابه، وتعجل هو إلى رسول الله.

ومضى رسول الله على حجه فأرى الناس مناسكهم، وأعلمهم سنن حجهم، وخطب الناس خطبته التى بين فيها ما بين.

ولقد كان مع رسول الله ﷺ فى ذلك العام ما يزيد على عشرة آلاف صحابى، كلهم خرجوا لينالوا الخير والبركة بالاقتداء والتأسى برسول الله عليه السلام فى حجه ونسكه، فكان ذلك الحج الكبير الذى شهدته « عرفة » لأول مرة فى تاريخها من حين البعثة النبوية إلى أن كان ذلك العام. وقد جمع لنا تلك المشاهد والصور الرائعة الصحابىُّ الجليلُ « جابر بن عبد الله » رضى الله عنه وأرضاه، فى حديثه الطويل الذى هو الأصل فى بيان « مناسك الحج »، لأنه أجمع حديث ورد فى بيان صفة الحج وشروطه، وأركانه وطريقة أدائه، وفى المناسك التى ينبغى أن يحرص عليها الإنسان ليكون حجه موافقا لهدى الرسول الكريم وسنته العطرة.

أخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن جعفر بن محمد، عن أبيه محمد بن على بن حسين، قال: دخلنا على جابر بن عبد الله رضى الله عنه وأنا يومئذ غلام شاب فسأل عن القوم حتى انتهى إلى فقلت: أنا محمد بن على بن حسين، فأهوى بيده إلى رأسى فنزع

(١) ثبت يوم أحد، وشارك فى قتل مسيلمة، وتوفى يومئذ سنة ١٢ فى موقعة اليمامة.

زرعى الأعلى ، ثم نزع زرعى الأسفل ، ثم وضع كفه بين ثديى فقال : مرحبا بك يا ابن أخى ، سل عما شئت . فسألته وهو أعمى — وحضر وقت الصلاة فقام فى نساجة ملتحفا بها كلما وضعها على منكبه رجع طرفاها إليه من صغرها ، ورداؤه إلى جنبه على المشجب ، فصلى بنا فقلت : أخبرنى عن حجة رسول الله — ﷺ — فقال بيده ، فعقد تسعا فقال : إن رسول الله — ﷺ — مكث تسع سنين لم يحج ، ثم أذن فى الناس بالعاشرة أن رسول الله — ﷺ — حاج ، فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله — ﷺ — ويعمل مثل عمله .

فخرجنا معه حتى إذا أتينا « ذا الحليفة » ولدت أسماء بنت عميس زوج أبى بكر محمد بن أبى بكر ، فأرسلت إلى رسول الله — ﷺ — كيف أصنع ؟ قال : اغتسلى واستثفرى بثوب واحرمى .

فصلى رسول الله — ﷺ — فى المسجد ، ثم ركب القصواء(١) حتى إذا استوت به ناقته على البيداء ، نظرت مد بصرى بين يديه من راكب وماش ، وعن يمينه مثل ذلك ، وعن يساره مثل ذلك ، ومن خلفه مثل ذلك ، ورسول الله — ﷺ — بين أظهرنا ، وعليه ينزل القرآن ، وهو يعرف تأويله ، وما عمل به من شيء عملنا به ، فأهل(٢) بالتوحيد : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

وأهلّ الناس بهذا الذى يهلون به ، فلم يرد رسول الله — ﷺ — عليهم شيئا منه ، ولزم رسول الله — ﷺ — تلبيته .

قال جابر رضى الله عنه : لسنا ننوى إلا الحج ، لسنا نعرف العمرة ، حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن ، فرحل ثلاثا ، ومشى أربعا ، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام فقرأ : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ .

فجعل المقام بينه وبين البيت ، فكان يقرأ فى الركعتين ﴿ قل هو الله أحد ﴾ و﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ ثم رجع إلى الركن فاستلمه ، ثم خرج من الباب إلى الصفا والمروة من شعائر الله — ابدأ بما بدأ الله به ، فبدأ بالصفا ، فرقى عليه حتى رأى البيت ، فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره قال :

---

(١) القصواء : اسم لناقة النبى ﷺ .

(٢) فاهل : الإهلال رفع الصوت بالتلبية .

— لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، لا إلٰه إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

ثم دعا بين ذلك ، قال مثل هذا ثلاث مرات ، ثم نزل إلى المروة ، حتى إذا انصبت قدماه فى بطن الوادى سعى ، حتى إذا صعدنا مشى ، حتى إذا أتى المروة ففعل على المروة كما فعل على الصفا .

حتى إذا كان آخر طوافه على المروة قال : (لو أنى استقبلت من أمرى ما استدبرت ، لم أسق الهدى وجعلتها عمرة ، فمن كان منكم ليس معه هدى فليحل وليجعلها عمرة . فقام سراقة بن مالك فقال : يا رسول الله ألعامنا هذا أم لأبد ؟ فشبك رسول الله — ﷺ — أصابعه واحدة فى الأخرى وقال : (دخلت العمرة فى الحج مرتين ، لا بل لأبد ، أبد) .

وقدم على من اليمن ببدن للنبى — ﷺ — فوجدنا فاطمة رضى الله عنها ممن حل . ولبست ثوبا صبيغا واكتحلت فأنكر ذلك عليها فقالت : إن أبى أمر بهذا .

قال .. فكان على يقول بالعراق : فذهبت إلى رسول الله — ﷺ — محرشا[1] على فاطمة الذى صنعت ، مستفتيا لرسول الله — ﷺ — فيما ذكرت عنه ، فأخبرته أنى أنكرت ذلك عليها ، فقال : صدقت .. ماذا قلت حين فرضت الحج ؟

قال قلت : اللهم إنى أهل بما أهل به رسولك .. قال : فإن معى الهدى فلا تحل . قال : فكان جماعة الهدى الذى قدم به على اليمن ، والذى أتى به النبى — ﷺ — مائة .

قال : فحل الناس كلهم وقصروا إلا النبى — ﷺ — ومن كان معه هدى .

فلما كان يوم — التروية — توجهوا إلى منى أهلوا بالحج ، وركب رسول الله — ﷺ — فصلى بها الظهر والعصر ، والمغرب ، والعشاء ، والفجر .

ثم مكث قليلا حتى طلعت الشمس ، وأمر بقية من شعر تضرب له بنمرة .

فسار رسول الله — ﷺ — ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام ، كما كانت قريش تصنع فى الجاهلية[2] .

فأجاز[3] رسول الله — ﷺ — حتى أتى عرفه ، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة ،

---

(١) محرشا : أى مغربا الرسول — ﷺ — على عتابها ومؤاخذتها .

(٢) كانت قريش فى الجاهلية لا تقف بعرفة وإنما تقف بالمزدلفة ، لأن مزدلفة من الحرم . وكانوا يقولون نحن أهل حرم الله فلا نخرج منه . وقد ظنت قريش أن النبى سيقف بالمشعر الحرام فى مزدلفة على عادتهم ، فتجاوزه النبى — ﷺ — إلى عرفات ، ولم يقف فيه لأن الله تعالى أمره بذلك .

(٣) فأجاز : أى جاوز المزدلفة .

فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس، أمر بالقصواء فرحلت[1] له، فأتى بطن الوادى فخطب الناس:

ثم أذن ثم أقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر ولم يصل بينهما شيئا ثم ركب رسول الله — ﷺ — حتى أتى الموقف فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات، وجعل جبل المشاة[2] بين يديه، واستقبل القبلة فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس وذهبت الصفوة قليلا حتى غاب القرص، وأردف أسامة خلفه.

ودفع رسول الله — ﷺ — وقد شنق للقصواء الزمام، حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله، ويقول[3] بيده اليمنى: أيها الناس، السكينة السكينة كلما أتى جبلا من الجبال أرخى لها قليلا حتى تصعد، حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يسبح[4] بينهما شيئا.

ثم اضطجع رسول الله — ﷺ — حتى طلع الفجر، حين تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة، فدعا الله وكبره وهلله ووحده، فلم يزل واقفا حتى أسفر جدا، فدفع قبل أن تطلع الشمس، وأردف — الفضل بن عباس — وكان رجلا حسن الشعر أبيض وسيما، فلما دفع رسول الله — ﷺ — مرت به ظعن[5] يجرين، فطفق الفضل ينظر إليهن، فوضع رسول الله — ﷺ — يده على وجه الفضل، فحول الفضل وجهه إلى الشق الآخر ينظر، فحول رسول الله — ﷺ — يده من الشق الآخر على وجه الفضل يصرف وجهه من الشق الآخر حتى أتى بطن محسر، فحرك قليلا ثم سلك الطريق الوسطى التى تخرج على الجمرة الكبرى، حتى أتى الجمرة التى عند الشجرة فرماها بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة منها مثل حصى الحذف رمى من بطن الوادى، ثم انصرف إلى المنحرف فنحر ثلاثا وستين بيده، ثم أعطى عليا فنحر ما غبر[6] وأشركه فى هديه، ثم أمر من كل بدنة ببضعة، فجعلت فى قدر فطبخت فأكلا من لحمها وشربا من مرقها.

ثم ركب رسول الله — ﷺ — فأفاض إلى البيت: فصلى بمكة الظهر.

---

(١) أرحلت: أى جعل عليها الرحل.
(٢) جبل المشاة: المراد به مجتمعهم.
(٣) أى يشير بها قائلا: الزموا السكينة.
(٤) ولم يسبح: أى لم يتنفل بين الصلاتين.
(٥) ظعن: جمع ظعينة: وهى المرأة التى تركب البعير. وأصل الظعينة فى اللغة البعير نفسه، ثم أطلق على المرأة مجازا.
(٦) غبر: أى بقى.

فأتى بنى عبد المطلب يسقون على زمزم ، فقال : انزعوا بنى عبد المطلب ، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم . فناولوه دلوا فشرب منه .

وكذلك رواه مسلم .

٦ ــ وقضى رسول الله الحج ، وقد أراهم مناسكهم وأعلمهم ما فرض الله عليهم من حجهم من الموقف ورمى الجمار وطواف البيت ، وما أحل لهم من حجهم وما حرم عليهم .

فكانت حجة البلاغ وحجة التمام ، كما كانت هى حجة الوداع ، وذلك أن رسول الله لم يحج بعدها . ولقد نعيت إلى رسول الله نفسه فى سورة الفتح الجليلة : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ .

هذا وفى خطبة حجة الوداع قال النبى ﷺ بعد تحريم النسىء : (إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السماوات والأرض) .

العائد العظيم :

وعاد رسول الله صلوات الله عليه من حجة الوداع إلى منزله فى المدينة المنورة بعد منصرفه من مكة المكرمة ، فقضى صلوات الله عليه فى المدينة بقية ذى الحجة ، والمحرم ، وصفر من السنة الحادية عشرة من الهجرة النبوية العاطرة الشريفة .

مرض رسول الله :

١ ــ كان بدء مرض رسول الله فى ليال بقين من صفر ، أو فى أول شهر ربيع الأول من العام الحادى عشر للهجرة الشريفة .

وذلك أنه خرج إلى بقيع الفرقد من جوف الليل يستغفر للموتى ، ثم رجع إلى أهله ، فلما أصبح ابتدئ بوجعه من يومه ذلك .

واصطحب رسول الله معه وهو ذاهب إلى بقيع الغردق مولاه أبا مويهبة فقال رسول الله:

(السلام عليكم يا أهل المقابر ، ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها ، الآخرة شر من الأولى) .

ثم قال لأبى مويهبة : إنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة ، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة .

فقال أبو مويهبة : بأبى أنت وأمى ، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة .

قال رسول الله : لا والله يا أبا مويهبة ، لقد اخترت لقاء ربى والجنة ثم استغفر رسول الله لأهل البقيع ، ثم انصرف .

فبدأ برسول الله وجعه الذى مات فيه .

ولما اشتد به مرضه دعا نساءه وكان عند ميمونة ، فاستأذنهن فى أن يمرض فى بيت عائشة فأذنّ له .

٢ — وحدث عبد الله بن مسعود قال : نعى إلينا نبينا وحبيبنا نفسه قبل موته بشهر ، فلما دنا الفراق جمعنا فى بيت أمنا عائشة ، فنظر إلينا وشدد فدمعت عينه وقال :

(مرحبا بكم ، رحبكم الله ، أراكم الله ، حفظكم الله ، رفعكم الله ، نفعكم الله ، وفقكم الله ، نصركم الله ، سلمكم الله ، رحمكم الله ، قبلكم الله ، أوصيكم بتقوى الله وأوصى الله بكم ، واستخلفه عليكم ، وأؤديكم إليه ، إن لكم نذير وبشير .

لا تعلو على الله فى عباده وبلاده ، فإنه قال لى ولكم ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ﴾ ٨٣ القصص وقال ﴿ أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين ﴾ ٦٠ الزمر .

فقلنا : متى أجلك ؟ قال : (قد دنا الفراق ، والمنقلب إلى الله وإلى سدرة المنتهى) (٤٢٥ : ٢ الطبرى).

زيادة المرض على رسول الله :

١ — لما أذنت أمهات المؤمنين لرسول الله أن يمرض فى بيت عائشة ، خرج يمشى بين رجلين من أهله — الفضل بن العباس، وآخر هو على — عاصبا رأسه، تخط قدماه، حتى دخل بيت عائشة .

ثم غمر رسول الله واشتد به المرض، فصبوا عليه الماء حتى قال: حسبكم، حسبكم .

وعن ابن عباس قال: يوم الخميس وما يوم الخميس، اشتد برسول الله وجعه إلخ[1] .

٢ — وحدث أيوب بن بشير أن رسول الله خرج عاصبا رأسه حتى جلس على المنبر .. ثم قال بعد حمد الله والصلاة على أصحاب أحد والاستغفار لهم .

---

(١) ٢ : ٤٣٦ الطبرى .

إن عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ما عند الله[(١)] .

فعرف أبو بكر أن رسول الله يريد نفسه ، فبكى وقال : بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا .

ويروى أن رسول الله استبطأ الناس فى بعث أسامة ، وهو فى مرضه ، فخرج عاصبا رأسه حتى جلس على المنبر ، وقد كان الناس قالوا فى إمرة أسامة : أمّر غلاما حدثا على جلة المهاجرين والأنصار[(٢)] .

فحمد رسول الله تعالى ، وأثنى عليه بما هو له أهل ، ثم قال :

أيها الناس أنفذوا بعث أسامة ، فلعمرى لئن قلتم فى إمارته لقد قلتم فى إمارة أبيه من قبله ، وإنه لخليق للإمارة ، وإن كان أبوه لخليقا لها .

ثم نزل رسول الله .

واشتغل الناس فى جهاز بعث أسامة .

وغلب المرض رسول الله .

وخرج أسامة بجيشه حتى نزلوا الجرف على فرسخ من المدينة ، فضرب به أسامة عسكره ، وأخذ المسلمون يفدون على الجيش .

---

(١) ويروى أن رسول الله قال فى هذه الخطبة : يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيرا ، فإن الناس يزيدون وإن الأنصار على هيئتها لا تزيد ، وإنهم كانوا عيبتى التى أويت إليها ، فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم .

ويروى الطبرى (٢/٤٣٣) أن رسول الله جاء الفضل بن عباس فخرج إليه الفضل فوجده موعوكا قد عصب رأسه ، فقال : خذ بيدى يا فضل . فأخذ بيده حتى جلس على المنبر ، ثم قال : ناد فى الناس . فاجتمعوا إليه فقال :

أما بعد ، أيها الناس فإنى أحمد الله إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، وأنه قد دنا منى حقوق من بين أظهركم ، فمن كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهرى فليستقد منه ، ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضى فليستقد منه ، ألا وإن الشحناء ليست من طبعى ولا من شأنى ، ألا وإن أحبكم إلى من أخذ منى حقا إن كان له ، أو حللنى فلقيت الله وأنا أطيب النفس ، وقد أرى أن هذا غير مغن حتى أقوم فيكم مرارا .

(٢) يقول الطبرى (٢ : ٤٢٩ — طبعة الاستقامة بالقاهرة) : إن رسول الله ضرب فى المحرم من سنة إحدى عشرة على الناس بعثا إلى الشام ، وأمر عليهم مولاه وابن مولاه أسامة بن زيد بن حارثة ، ولقد أبلى أسامة بلاء حسنا فى سبيل الإسلام ، ومات عام ٥٩ هـ (٢ : ٣٥٥ — ٣٦٢ سير أعلام النبلاء) .

وثقل رسول الله فأقام أسامة والناس لينظروا ما الله قاض فى رسول الله .

٣ — وعن عائشة : كانت آخر كلمة سمعتها من رسول الله :

(بل الرفيق الأعلى من الجنة) .

٤ — صلاة أبى بكر بالناس :

ولما غلب المرض رسول الله قال :

(مروا أبا بكر فليصل بالناس) .

فقالت عائشة : يا نبى الله ، إن أبا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن .

قال : مروه فليصل بالناس .

فعادت عائشة بمثل قولها .

فقال صلوات الله عليه : إنكن صواحب يوسف ، فمروه فليصل بالناس .

وكانت عائشة تحب أن تصرف خلافة رسول الله عن أبى بكر ، لأن الناس لا يحبون رجلا قام مقامه أبدا ، وإنهم سيتشاءمون فى كل حدث كان .

٥ — ولما كان يوم الاثنين الذى قبض الله فيه رسوله — ﷺ — خرج إلى الناس وهم يصلون الصبح ، فرفع الستر وفتح الباب فخرج رسول الله فقام على باب عائشة ، فضج المسلمون بالفرح فرحا برسول الله ، فأشار صلوات الله عليه إليهم أن اثبتوا على صلاتكم . وتبسم رسول الله سرورا لما رأى من هيئتهم فى صلاتهم ، ثم رجع وانصرف الناس وهم يرون أن رسول الله قد أبل من مرضه ، فرجع أبو بكر إلى أهله بالسنح .

ويروى أن رسول الله لما خرج تفرج الناس ، فعرف أبو بكر أن الناس لم يصنعوا ذلك إلا لرسول الله ، فنكص عن مصلاه فدفع رسول الله فى ظهره وقال : صل بالناس . وجلس رسول الله إلى جنبه ، فصلى قاعدا عن يمين أبى بكر .

فلما فرغ من الصلاة أقبل على الناس فكلمهم رافعا صوته فيقول : (أيها الناس سعرت النار ، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، وإنى والله ما تمسكون على بشىء ، إنى لم أحل إلا ما أحل القرآن ، ولم أحرم إلا ما حرم القرآن) .

فلما فرغ من كلامه قال له أبو بكر : يا نبى الله إنى أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما نحب ، واليوم يوم بنت خارجة أفآتيها ؟ قال : نعم .

ثم دخل رسول الله ، وخرج أبو بكر إلى أهله بالسنح .

فتوفى رسول الله حين اشتد الضحاء من ذلك اليوم ، ﷺ ، وهو يوم الاثنين قرب

نصف النهار لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة النبوية ، ﷺ ، وذلك يوافق السابع من يونيو ٦٣٣ هـ . والصحيح ما يقول صاحب كتاب « التوفيقات الإلهامية » أن ذلك يوافق يوم الأحد لا يوم الاثنين .

قالت عائشة : رجع رسول الله من صلاته يومئذ ، فاضطجع فى حجرى فقال ﷺ : أصلى الناس ؟ قلنا : لا ، هم ينتظرونك يا رسول الله . فقال : ضعوا لى ماء فى المخضب . قالت : فقعد فاغتسل ثم ذهب لينوُ فأغمى عليه ثم أفاق ، فقال : أصلى الناس ؟ فقلنا : لا ، هم ينتظرونك يا رسول الله . فقال : ضعوا لى ماء فى المخضب . فقعد فاغتسل ثم ذهب لينوء فأغمى عليه ، ثم أفاق فقال : أصلّى الناس ؟ فقلنا : لا ، هم ينتظرونك يا رسول الله . والناس عكوف فى المسجد ينتظرون النبى عليه السلام لصلاة العشاء الآخرة ، فأرسل النبى ﷺ إلى أبى بكر بأن يصلى بالناس . فأتاه الرسول فقال : إن رسول الله — ﷺ — يأمرك أن تصلى بالناس . فقال أبو بكر ، وكان رجلا رقيقا : يا عمر صل بالناس . فقال له عمر : أنت أحق بذلك . فصلى أبو بكر تلك الأيام ، ثم إن النبى ﷺ وجد فى نفسه خفة ، فخرج بين رجلين أحدهما العباس لصلاة الظهر ، وأبو بكر يصلى بالناس . فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر ، فأومأ إليه النبى ﷺ بأن لا يتأخر . قال : أجلسانى إلى جنبه . فأجلساه إلى جنب أبى بكر . قال فجعل أبو بكر يصلى وهو يأتم بصلاة النبى ﷺ والناس بصلاة أبى بكر والنبى — ﷺ — قاعد . قال عبيد الله : فدخلت على عبد الله بن عباس فقلت له : ألا أعرض عليك ما حدثتنى به عائشة عن مرض النبى ﷺ ؟ قال هات . فعرضت عليه حديثها فما أنكر منه شيئا ، غير أنه قال : أسمت لك الرجل الذى كان مع العباس ؟ قلت لا ، قال : هو على .

وعن عائشة قالت : لما ثقل رسول الله ﷺ ، جاء بلال يؤذن بالصلاة ، فقال : مروا أبا بكر أن يصلى بالناس ، فقلت : يا رسول الله إن أبا بكر رجل أسيف ، وإنه متى ما يقم مقامك لا يسمع الناس ، فلو أمرت عمر ؟ فقال : مروا أبا بكر يصلى بالناس . فقلت لحفصة : قولى له إن أبا بكر رجل أسيف وأنه متى ما يقم مقامك لا يسمع الناس ، فلو أمرت عمر ؟ فدخل على رجل من آل أبى بكر ، وفى يده سواك أخضر ، فنظر رسول الله إليه فى يده نظرا عرفت أنه يريده فقلت : — يا رسول الله ، أتحب أن أعطيك هذا السواك؟ قال : نعم . فأخذته ، ثم أعطيته إياه فاستاك به ثم وضع .

ووجدت رسول الله يثقل فى حجرى فذهبت أنظر فى وجهه ، فإذا بصره قد شخص وهو يقول : بل الرفيق الأعلى من الجنة .

فقلت : خيرت فاخترت والذى بعثك بالحق .

ومات رسول الله ﷺ .

وكان آخر ما عهد رسول الله أن قال : لا يترك بجزيرة العرب دينان . وقال : أجيزوا الوفد بنحو مما كنت أجيزهم(١) .

وما ترك رسول الله دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا أمة ، إلا بغلته البيضاء التى كان يركبها وسلاحه وأرضا جعلها لابن السبيل صدقة . وعن عائشة : توفى رسول الله ودرعه مرهونة عند يهودى بثلاثين صاعا من شعير .

وما مات رسول الله وفى بلاد العرب كلها موضع لم يدخله الإسلام(٢) . وروى عن عبيد الله بن عتبة قال : دخلت على عائشة قلت : ألا تحدثيننى عن مرض رسول الله ﷺ ؟ قالت : بلى ، ثقل النبى ﷺ فقال : أصلى الناس ؟ قلنا : لا ، هم ينتظرونك . قال : ضعوا لى ماء فى المخضب . قالت : ففعلنا . فاغتسل فذهب لينوؤ فأغمى عليه ، ثم أفاق قال : إنكن لأنتن صواحب يوسف ، مروا أبا بكر أن يصلى بالناس . فلما دخل فى الصلاة وجد رسول ﷺ فى نفسه خفة ، فقام يهادى بين رجلين ورجلاه يخطان فى الأرض حتى دخل المسجد . فلما سمع أبو بكر حسه ذهب أبو بكر يتأخر ، فأومأ إليه رسول الله ﷺ . فجاء رسول الله ﷺ حتى جلس عن يسار أبى بكر ، فكان أبو بكر يصلى قائما وكان رسول الله ﷺ قاعدا ، يقتدى أبو بكر بصلاة رسول الله ﷺ ، والناس مقتدون بصلاة أبى بكر رضى الله عنه .

وعن الزهرى قال : أخبرنى أبو سلمة أن عائشة رضى الله عنها زوج النبى ﷺ أخبرته قالت : أقبل أبو بكر رضى الله عنه على فرسه من مسكنه بالسنح حتى نزل فدخل المسجد ، فكلم الناس حتى دخل على عائشة رضى الله عنها ، فتيمم النبى ﷺ وهو مسجى ببرد حبرة فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله ، ثم بكى فقال : بأبى أنت يا نبى الله ، لا يجمع الله عليك موتتين ، أما الموتة التى كتبت عليك فقد ذقتها ، قال أبو سلمة: فأخبرنى ابن عباس رضى الله عنهما أن أبا بكر رضى الله عنه خرج وعمر رضى الله عنه يكلم الناس فقال : أجلس ! فأبى . فقال : أجلس ! فأبى . فتشهد أبو بكر رضى الله عنه ،

---

(١) لما ذهب جيش أسامة إلى الشام وغنموا ، قدم على هرقل موت رسول الله وإغارة أسامة على أرضه فى آن واحد (٢/٣٥٩ سير أعلام النبلاء للذهبى) . وألبس الرسول أسامة حلة ذى يزن (٢/٣٦٠ المرجع السابق) ـــ ومات أسامة عام ٥٩ هـ (٣٥٥ ـــ ٢/٢٦٢ المرجع السابق) .

(٢) ١٧٣ الشفاء للقاضى عياض .

فمال إليه الناس وتركوا عمر . فقال : أما بعد فمن كان منكم يعبد محمدا ﷺ فإن محمدا ﷺ قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت . قال الله تعالى ﴿ وما محمد إلا رسول ... ﴾ إلى ﴿ الشاكرين ﴾ . والله لكأن الناس لم يكونوا يعلمون أن الله أنزل الآية حتى تلاها أبو بكر رضى الله عنه ، فتلقاها منه الناس فما يسمع بشر إلا يتلوها .

بعد وفاة رسول الله ﷺ :

بلغ عمر وفاة رسول الله ، فقال :

إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله قد توفى ، وإن رسول الله والله ما مات ، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات . والله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله قد مات .

وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر ، وعمر يكلم الناس ، فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله ﷺ فى بيت عائشة ، ورسول الله مسجى فى ناحية البيت عليه برد حبرة .

فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله ، ثم أقبل عليه فقبله ثم قال : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدا . ثم رد البرد على وجه رسول الله .

ثم خرج وعمر يكلم الناس فقال : على رسلك يا عمر ، أنصت . فحمد أبو بكر الله وأثنى عليه ثم قال :

أيها الناس ! من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت . ثم تلا هذه الآية : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾ ؟ (آل عمران ١٤٤) .

حديث السقيفة :

ولما قبض رسول الله انحاز الأنصار إلى سعد بن عبادة[١] ، واعتزل على والزبير وطلحة فى بيت فاطمة .

---

(١) أنصارى خزرجى ، سيد الخزرج ، كان ملكا شريفا مطاعا فى قومه ، وكان يرجع إلى أهله بثمانين من أهل الصفة يأكلون معه ، وكان يقول : اللهم هب لى حمدا ومجدا ، اللهم لا يصلحنى القليل ولا أصلح عليه . مات بحوران الشام سنة ١٤ هـ أو ١٦ هـ (سير أعلام النبلاء للذهبى جـ ١ صـ ١٩٦ — ٢٠٢) .

وانحاز بقية المهاجرين إلى أبي بكر وعمر ، ومعهم أسيد بن حضير في بني عبد الأشهل .
فأتى آت إلى أبي بكر وعمر فقال : إن هذا الحي من الأنصار مع سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة قد انحازوا إليه ، فإن كان لكم بأمر الناس حاجة ، فأدركوا الناس قبل أن يتفاقم أمرهم .

فقال عمر لأبي بكر : انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار حتى ننظر ما هم عليه .

فذهبا ، فوجدا خطيبا من الأنصار يخطب ويقول : نحن أنصار الله وكتيبة الإسلام ، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا .

فقام أبو بكر فيهم فقال : لن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش ، هو أوسط العرب نسبا ودارا ، وقد وهبت لكم أحد هذين الرجلين . وأخذ بيد عمر ويد أبي عبيدة[1] ، وقال : فبايعوا أيهما شئتم .

فقال قائل من الأنصار : أنا جذيلها المحكك ، وعذيقها المرجب ، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش .

فكثر اللغط فقال عمر : ابسط يدك يا أبا بكر . فبسط يده فبايعه ، ثم بايعه المهاجرون ، ثم بايعه الأنصار .

ولما بويع أبو بكر في السقيفة ، وكان الغد ، جلس أبو بكر على المنبر ، فقام عمر فتكلم قبل أبي بكر .

ثم تكلم أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه بالذى هو أهله ، ثم قال :
أما بعد أيها الناس : فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني . الضعيف فيكم قوي حتى آخذ الحق له ، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله .

جهاز رسول الله ودفنه :

فلما بويع أبو بكر رضي الله عنه ، أقبل الناس على جهاز رسول الله يوم الثلاثاء .
وولي غسله ﷺ عليّ والعباس[2] والفضل بن العباس وقثم بن العباس وأسامة بن

---

(١) ابن الجراح ، مات عام ١٨ هـ ، وكان من السابقين الأولين وله مكانته في الإسلام ، وكان رسول الله ثم صاحباه يجلان منه . لقي عمر أبا عبيدة فصافحه وقبل يده (١/٩ سير أعلام النبلاء) .
(٢) عاش العباس بعد رسول الله طويلا ، ومات عام ٣٢ هـ عن ٨٠ سنة .

زيد وشقران مولى رسول الله ، ومعهم أوس بن خولى الخزرجى ، وكان علىّ يغسله وقد أسنده ﷺ إلى صدره وهو يقول : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ! طبت حيا وميتا ، وغسلوا النبى وعليه ثيابه قميصه ، يصبون الماء فوق القميص ويدلكونه والقميص دون أيديهم .

ودفن رسول الله حيث توفى ، ثم دخل الناس على رسول الله يصلون عليه أرسالا ، ثم النساء ، ثم الصبيان .

ثم دفن رسول الله ﷺ من وسط الليل ليلة الأربعاء .

وكان الذين نزلوا فى قبر رسول الله : علىّ ، والفضل بن عباس ، وقثم بن عباس ، وشقران مولى رسول الله ، وأوس بن خولى .

المسلمون بعد رسول الله :

١ — لما توفى رسول الله هم أكثر أهل مكة بالرجوع عن الإسلام ، وأرادوا ذلك حتى خافهم عتاب بن أسيد فتوارى ، فقام سهيل بن عمرو وأثنى عليه ، ثم ذكر وفاة رسول الله وقال : إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة ، فمن رابنا ضربنا عنقه ، فتراجع الناس وكفوا عما همّوا به وظهر عتاب بن أسيد .

٢ — وقالت عائشة :

لما توفى رسول الله ﷺ ارتدت العرب ، واشرأبت اليهودية والنصرانية ، ونجم النفاق ، وصار المسلمون كالغنم المطيرة فى الليلة الشاتية لفقد نبيهم ﷺ ، حتى جمعهم الله على أبى بكر .

٣ — وصار أبو بكر خليفة لرسول الله ، وهو الخليفة الأول رضى الله عنه وأرضاه ، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

٤ — ويقول الطبرى : اشتكى رسول الله فوثب الأسود[1] باليمن ومسيلمة باليمامة ،

---

(١) يقول الطبرى : أول ردة كانت على عهد رسول الله على يدى ذوى الخمار عبهلة بن كعب ، وهو الأسود فى عامة مذحج ، خرج بعد الوداع (٢ — ٤٣٠ الطبرى) وفى عهد أبى بكر كتب زيد ابن ثابت (المتوفى عام ٤٥ هـ عن ست وخمسين سنة) جمع القرآن بأمر أبى بكر الصديق (راجع ٢ : ٣٠٥ — ٣١٦ سير أعلام النبلاء) وقد جمع القرآن فى زمن النبى خمسة من الأنصار هم : معاذ ، وعبادة بن الصامت ، وأبىّ ، وأبو أيوب ، وأبو الدرداء عويمر بن زيد (٢/٢ سير أعلام النبلاء) .

وفى عهد عثمان جمع القرآن اثنا عشر رجلا من قريش والأنصار ، منهم أبىّ وزيد بن ثابت (٢٥٩/١ المرجع السابق) وتوفى أبىّ عام ٣٣ هـ فى عهد عثمان (١ : ٢٨٠ — ٢٨٨ المرجع) .

وجاء الخبر عنهما للنبى ، ثم وثب طليحة فى بلاد أسد بعدما أفاق النبى ، ثم اشتكى فى المحرم وجعه الذى توفى فيه (٢/٤٣٠ الطبرى) .

الشعراء يبكون رسول الله :

١ — قال حسان بن ثابت يرثى رسول الله فى قصيدة طويلة منها .

فبوركت يا قبر الرسول وبوركت ... بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد
وبورك لحد منك ضمن طيبا ... عليه بناء من صفيح منضد
لقد غيبوا حلما وعلما ورحمة ... عشية علوه الثرى لا يوسد
وراحوا بحزن ليس فيهم نبيهم ... وقد وهنت منهم ظهور وأعضد
يبكون من تبكى السموات يومه ... ومن قد بكته الأرض فالناس أكمد
وهل عدلت يوما رزية هالك ... رزية يوم مات فيه محمد
تقطع فيه منزل الوحى عنهم ... وقد كان ذا نور يغور وينجد
إمام لهم يهديهم الحق جاهدا ... معلم صدق إن يطيعوه يسعدوا
عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى ... حريص على أن يستقيموا ويهتدوا
لبيانهم فى ذلك النور إذ غدا ... إلى نورهم سهم من الموت مقصد
فبكى رسول الله يا عين عبرة ... ولا أعرفنك الدهر دمعك يجمد
وما فقد الماضون مثل محمد ... ولا مثله حتى القيامة يفقد
رباه وليدا تمامه ... على أكرم الخيرات رب ممجد

٢ — وقال حسان أيضا يرثى رسول الله :

بأبى وأمى من شهدت وفاته ... فى يوم الاثنين النبى المهتدى
يا بكر آمنة المبارك بكرها ... ولدته محصنة بسعد الأسد
أروا أضعاء على البرية كلها ... من يهد للنور المبارك يهتدى

٣ — وقال حسان :

نبّ المساكين إن الخير فارقهم ... مع النبى تولى عنهمو سحرا
كان الضياء وكان النور نتبعه ... بعد الإله وكان السمع والبصرا

٤ — وقال أيضا[1] .

يا أفضل الناس إنى كنت فى نهر ... أصبحت منه كمثل المفرد الصادى

---

(١) عاش حسان نحو مائة وعشرين عاما ، نصفها فى الجاهلية ونصفها فى الإسلام ، ومات عام ٥٤ هـ (٢ : ٣٦٦ — ٣٧٤ سير أعلام النبلاء) .

٥ — وقال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب (٢٠ هـ) ، وهو ابن عم الرسول ، وأخوه رضاعا ، وأحد من يشبه الرسول (وهم أبو سفيان ، والحسن بن على ، وقثم بن العباس) — يقول فى رثاء الرسول[1] :

أرقت فبـــــات ليلى لا يزول ... وليل أخى المصيبة فيـــه طول
وأسعدنى البكـاء ، وذاك فيمـا ... أصيب المسلمـون به قليـــل
فقد عظمت مصيبتنا وجـلت ... عشية قيـل قد قبض الـرسول
فقدنا الوحـى والتنزيـل فينـا ... يروح به ويغـــدو جبرئيـــل
وذاك أحـق ما سالت عليـه ... نفوس الخلق أو كادت تسيـل
نبـى كان يجلـو الشك عنـا ... بما يوحـى إليـه ومـا يقـول
ويهدينـــا فلا نخشى ضلالا ... علينـا ، والـرسول لنـا دليـل
فلم نر مثلـه فى النـاس حيـا ... ولـيس له من الموتى عديـــل
أفاطـــم إن جزعت فذاك عذر ... وإن لم تجزعـى فهـو السبيـل
وقـولى فى أبـيك ولا تملى ... وهل يجزى بفضل أبـيك قيـل
فقبر أبـيك سيـــد كل قبر ... وفيـه سيـد النـاس الـرسول

فاطمة تبكى أباها[2] :

لما ثقل النبى جعل يتغشاه ما يتغشاه ، فقالت فاطمة : واكرب أباه ! فقال لها ﷺ : (ليس على أبيك كرب بعد اليوم) .

فلما مات قالت :

يا أبتاه ، أجاب ربا دعاه ، يا أبتاه ، جنة الفردوس مأواه .

يا أبتاه ، إلى جبريل ننعاه .

فلما دفن قالت فاطمة :

يا أنس ، أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله التراب[3] ؟

---

(١) ١/١٤٩ سير أعلام النبلاء للذهبى .

(٢) ولدت قبل البعثة بقليل ، وتزوجها على فى ذى القعدة من سنة ٢ هـ بعد بدر — وتوفيت بعد رسول الله بستة أشهر عن ٢٩ عاما ، وابناها الحسن والحسين (٧٧ — ٢/٩٧ سير أعلام النبلاء) .

(٣) حدثت عائشة رضى الله عنها ، قالت :

ما رأيت أحدا من الناس كان أشبه بالنبى كلاما ولا حديثا ولا جلسة من فاطمة . وكان إذا =

وابن عباس يحدث :

وعن ابن عباس قال :

يوم الخميس

وما يوم الخميس ؟

ثم جرت دموع ابن عباس تسيل على خديه كأنها نظام اللؤلؤ ، واسترسل فى الحديث يقول :

قال رسول الله ﷺ . ائتونى باللوح والدواة ، أو بالكتف والدواة ، أكتب لكم كتابا لا تضلون بعده .

فتنازعوا — ولا ينبغى عند نبى أن يتنازع — فقالوا : ما شأنه ؟ استفهموه . فذهبوا يعيدون عليه ، فقال : دعونى ، فما أنا فيه خير مما تدعوننى إليه . (٢/٤٢٦ الطبرى) .

وقال أبو ذؤيب الهذلى : بلغنا أن رسول الله عليل فأوجس أهل الحى خيفة عليه ، فبت بليلة ثابتة النجوم طويلة الأناة لا ينجاب ديجورها ولا يطلع نورها ، حتى إذا قرب السحر غفوت ، فهتفت لى هاتف يقول :

خطب أجل أنـــاخ بالإسلام ... بين النخيـل ومقعـد الآطام[1]

قبض النبـــى محمـــد فعيوننـــا ... تذرى الدموع عليه بالتسجام[2]

فوثبت من نومى فزعا ، فنظرت إلى السماء فلم أر إلا سعد الذابح ، فتفاءلت به ذبحا يقع فى العرب ، وعلمت أن النبى ﷺ قد مات أو هو ميت عن علته .

فركبت ناقتى وسرت ثم قدمت المدينة ولأهلها ضجيج ، كضجيج الحجيج أهلوا جميعا بالإحرام . فقلت : مه ؟ قالوا : قبض رسول الله ﷺ . فجئت المسجد فأصبته خاليا . فأتيت رسول الله ﷺ فأصبت بابه مرتجا[3] وقد خلا به أهله ، قلت : أين الناس ؟ فقيل : فى سقيفة بنى ساعدة صاروا إلى الأنصار .

= رآها قد أقبلت رحب بها . ثم قام إليها فقبلها ، ثم أخذ بيدها فجاء بها حتى يجلس فى مكانه . وكانت إذا أتاها رحبت به ثم قامت إليه وقبلته .

وراجع كتاب « تزويج فاطمة بنت الرسول » — تحقيق صلاح الدين المنجد — طبع بيروت ١٩٦٢ .

وميلاد فاطمة قبل البعثة بخمس سنين ، أى فى عام بناء الكعبة ، وذلك سنة ١٨ ق هـ : تزوجت وهى بنت خمسة عشر عاما وخمسة أشهر ونصف ، وتوفيت بعد رسول الله بستة أشهر عن ٢٩ عاما (راجع ١ : ٢٧١ العقد الثمين للفاسى) وقيل إنها توفيت عن ٢٤ عاما (راجع سير أعلام النبلاء) .

(١) الأطم : القصر وكل حصن مبنى بحجارة وكل بيت مربع السطح ، جمعه آطام .

(٢) سجم الدمع : قطر وسال قليلا وكثيرا .

(٣) ارتج الباب : أغلقه .

فجئت السقيفة فوجدت أبـابكر وعمر رضى الله عنهما وأبا عبيدة وسالما وجماعة من قريش، ورأيت الأنصار فيهم سعد بن عبادة ومعهم شعراؤهم، وأمامهم حسان بن ثابت وكعب فى ملأ منهم، فآويت إلى الأنصار فتكلموا فأكثروا، وتكلم أبو بكر فـلله من رجل لا يطيل الكلام ويعلم مواضع الفصل.

والله لقد تكلم بكلام لم يسمعه سامع إلا انقاد له ومال إليه، وتكلم بعده عمر رضى الله عنه بكلام دون كلامه، ومد يده فبايعه. ورجع أبو بكر رضى الله عنه ورجعت معه، فشهدت الصلاة على رسول الله ﷺ وشهدت دفنه.

روايات فى يوم وفاة رسول الله:

١ — لا خلاف فى أن اليوم الذى مات فيه رسول الله كان يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، ويقال بل الأحد.

قيل هو يوم الاثنين لليلتين مضتا من شهر ربيع الأول، وبويع أبو بكر يوم وفاته.

وقيل: بل يوم الاثنين لثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، ودفن من الغد نحو نصف النهار[(١)] حين زاغت الشمس وذلك يوم الثلاثاء[(٢)]. وقال بعضهم: إنما دفن بعد وفاته بثلاثة أيام[(٣)].

وهكذا توفى رسول الله ﷺ لاثنتى عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول فى اليوم الذى قدم فيه المدينة مهاجرا، فاستكملت هجرته عشر سنين كوامل[(٤)]، وذلك يوافق ٨ يونيو ٦٣٢ م.

٢ — واختلف فى سنة ويوم توفى:

(أ) قيل: كان له يومئذ ثلاث وستون سنة، وأقام رسول الله بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه وبالمدينة عشرا، ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة.

(ب) وقال سعيد بن المسيب: أنزل على رسول الله وهو ابن ثلاث وأربعين سنة، وأقام بمكة عشرا وبالمدينة عشرا، وتوفى وهو ابن ثلاث وستين[(٥)].

(جـ) وقيل: توفى رسول الله وهو ابن خمس وستين سنة[(٦)].

---

(١) وقيل: دفن رسول الله من وسط الليل ليلة الأربعاء كما يذكر ابن هشام.

(٢) ٢/٤٤١ و٤٤٢ الطبرى. (٣) ٢/٤٥٠ الطبرى.

(٤) ٢/٤٥٣ المرجع. وذلك يوافق السابع من يونيو ٦٣٢ هـ، وفى كتاب «التوفيقات الإلهامية» أن ذلك كان يوم أحد.

(٥) ٢/٤٥٣ الطبرى. (٦) ٢/٤٥٤ الطبرى.

حوادث دبرت لاغتيال رسول الله :

اليهود وتدبير المؤامرات لاغتيال الرسول :

١ — حاول اليهود قتل رسول الله لما خرج إلى بنى النضير ، يستعينهم فى دية العامرين اللذين قتلهما عمرو بن أمية . فقال بعضهم لبعض : لن تجدوا محمدا أقرب منه الآن . فمن يظهر على هذا البيت فيرميه بصخرة فيريحنا منه ؟

فقال رجل منهم : أنا .

فنزل الوحى على رسول الله بالأمر فانصرف عنهم ، ونزل قول الله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم ﴾ (١١ — المائدة) .

ويروى أنه : عمرو بن جحاش ، وأنه انبعث ليطرح عليه رحى ، فقال النبى وانصرف إلى المدينة ، وأعلمهم بقصتهم[١] .

ويروى أن حيى بن أخطب قال لرسول الله : اجلس يا أبا القاسم حتى نطعمك ونعطيك ما سألتنا . فجلس الرسول مع أبى بكر وعمر ، وتآمر حيى معهم على قتله ، فأعلم جبريل رسول الله بذلك فقام كأنه يريد حاجته ، حتى دخل المدينة .

٢ — وقصة اليهودية التى وضعت السم فى شاة مشوية لرسول الله فأكل منها ، وأكل معه بشر بن البراء معروفة ، فأما بشر فاستمر يأكل ويستسيغ ما أكل فمات . وأما الرسول الأعظم فلفظ ما أكل فمرض ، واستمر يعاوده المرض ، حتى ليروى أنه مات بسبب ذلك .

وقد اعترفت اليهودية بجريمتها فعفا عنها ، فلما مات بشر اقتص رسول الله منها .

وقد سبق تفصيل ذلك — فى حديث مسلم (٢ : ١٧١) أن رسول الله لم يأمر بقتلها ، وأن أثر السم ما زال يعرف فى لهوات رسول الله .

وعن أبى هريرة أن يهودية أهدت لرسول الله ﷺ بخيبر شاة مصلية سمتها ، فأكل رسول الله منها وأكل القوم ، فقال : ارفعوا أيديكم ، فإنها أخبرتنى إنها مسمومة . فمات بشر بن البراء ، وقال لليهودية : ما حملك على ما صنعت ؟ قالت إن كنت نبيا لم يضرك الذى منعت وإن كنت ملكا أرحت الناس منك . فأمر بها فقتلت[٢] .

---

(١) ٢٣٢ الشفاء .

(٢) ٢٠٩ الشفاء ، وراجع فى ذلك حديث مسلم (٢ : ١٧١ مختصر صحيح مسلم) .

وفى حديث أبى هريرة أن رسول الله قال فى وجعه الذى مات فيه : ما زالت أكلة خيبر تعاودنى ، فالآن أوان قطعت أبهرى . وحكى ابن إسحاق إن كان المسلمون ليرون أن رسول الله مات شهيدا مع ما أكرمه الله به من النبوة[1] .

وفى رواية ابن عباس أن رسول الله دفعها لأولياء بشر بن البراء فقتلوها[1] .

وهذه اليهودية هى زينب بنت الحارث ابنة أخى مرحب وامرأة سلام بن مشكم[2] .

وقد لفظ رسول الله ما أكل واحتجم بعد الأكل من الشاة المسمومة ، وأمر من أكل معه منها فاحتجم ، فمات بعضهم[3] .

وقيل : أسلمت المرأة فتركها وعفاها . والناس يقولون : بل قتلها رسول الله[3] .

وعن أبى هريرة لما مات بشر بن البراء بن معرور بعد أكله من الشاة ، قتلها رسول الله[3] .

٣ — عمير بن وهب وصفوان بن أمية :

وكذلك حاول عمير بن وهب قتل رسول الله بعد بدر بتحريض من صفوان بن أمية .. ولم تنجح المحاولة كما سبق أن ذكرناه .

٤ — وقال أنس :

هبط ثمانون رجلا من التنعيم صلاة الصبح ليقتلوا رسول الله ، فأخذوا فأعتقهم رسول الله وعفا عنهم[4] .

٥ — وحاول غورث بن الحارث الفتك برسول الله . والرسول منتبذ تحت شجرة وحده قائلا[5] والناس قائلون فى غزاة[6] ، فلم ينتبه رسول الله إلا وهو قائم والسيف فى يده ، فقال : من يمنعك منى ؟ قال : الله ، فسقط السيف من يده ، فأخذه النبى ، وقال : من يمنعك منى ؟ قال : كن خير آخذ .

فعفا عنه رسول الله[7] فرجع إلى قومه وقال : جئتكم من عند خير الناس[8] .

ويروى أن الأعرابى لما سقط سيفه ضرب برأسه الشجرة حتى سال دماغه ،

---

(١) ٢٠٩ الشفاء ، وراجع فى ذلك حديث مسلم (٢ : ١٧١ مختصر صحيح مسلم) .

(٢) ٢ : ٣٣٩ زاد المعاد .   (٣) ٢ : ٣٤٠ المرجع .

(٤) ٦٤ الشفاء للقاضى عياض — طبعة مصطفى الحلبى — القاهرة .

(٥) من القيلولة : وهى النوم عند الظهر وحرارة الشمس .

(٦) أى غزوة .   (٧) ٦٢ الشفاء .   (٨) ٢٢٨ المرجع .

فنزلت الآية : ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾[١] .

وقد حكيت مثل هذه الحكاية التي جرت له يوم بدر ، وقد انفرد من أصحابه لقضاء حاجته فتبعه رجل من المنافقين . وذُكر مثله[٢] .

وروى أنه وقع له مثلها في غزوة غطفان بذى أمر ، مع رجل اسمه دعثور بن الحارث وأن الرجل أسلم ، فلما رجع إلى قومه الذين أغروه وكان سيدهم وأشجعهم قالوا له : أين ما كنت تقول وقد أمسكتك ؟ فقال : إنى نظرت إلى رجل أبيض طويل دفع فى صدرى فوقعت لظهرى وسقط السيف ، فعرفت أنه ملك[٣] ، وأسلمت[٣] .

٦ — ولما نزلت سورة ﴿ تبت يدا أبى لهب ﴾ وفيها ذكر امرأته ﴿ حمالة الحطب ﴾ ، أتت رسول الله وهو جالس فى المسجد ومعه أبو بكر ، وفى يدها فهر من حجارة ، فلما وقفت عليهما — تريد ضرب رسول الله به — لم تر إلا أبا بكر ، وأخذ الله تعالى ببصرها عن نبيه ﷺ ، فقالت : يا أبا بكر ، أين صاحبك ؟ فقد بلغنى أنه يهجونى ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه[٤] .

٧ — محاولة عند الكعبة :

عن فضالة بن عمرو قال :

أردت قتل النبي عام الفتح وهو يطوف بالبيت ، فلما دنوت منه قال : أفضالة ؟ قال : نعم .

قال رسول الله : ما كنت تحدث به نفسك ؟

قلت : لا شىء .

فضحك واستغفر لى ، ووضع يده على صدرى .. فسكن قلبى ، فوالله ما رفعها حتى ما خلق الله شيئا أحب إلى منه[٥] .

٨ — وسحر لبيد بن الأعصم رسول الله فبطل سحره ، وعفا عنه رسول الله[٦] .

وقيل : اختلف فى قتل الذى سحره . قال الواقدى : وعفوه عنه أثبت عندنا ، وقد روى عنه أنه قتله[٧] .

وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت : سحر رسول الله يهودى من بنى زريق ، يقال له لبيد بن الأعصم ، حتى كان رسول الله يخيل إليه أنه يفعل الشىء وما يفعله[٨] .

---

(١) ٢٦٩ المرجع .

(٢) راجع فى ذلك حديث مسلم ٢ : ٨٧١ مختصر صحيح مسلم للمنذرى .

(٣) ٢٦٩ المرجع .

(٤) ٢٢٩ و٢٣٠ الشفاء .

(٥) ٢٣٣ الشفاء .

(٦) ٦٢ الشفاء .

(٧) ٢١٠ المرجع .

(٨) ٢ : ١٤٠ مختصر صحيح مسلم للمنذرى .

٩ — وعن الحكم بن أبي العاص قال :

تواعدنا على قتل النبى ﷺ ، فلما رأيناه سمعنا صوتا خلفنا ما ظننا أنه بقى بتهامة أحد فوقعنا مغشيا علينا ، فما أفقنا حتى قضى صلاته ورجع إلى أهله .

ثم تواعدنا ليلة أخرى فجئنا حتى إذا رأيناه ، جاءت الصفا والمروة فحالت بيننا وبينه[١] .

١٠ — وعن عمر رضى الله عنه قال :

تواعدت أنا وأبو جهم بن حذيفة ليلة قتل رسول الله ﷺ ، فجئنا منزله فسمعنا له ، فافتتح وقرأ ﴿ الحاقة ما الحاقة ﴾ إلى قوله : ﴿ فهل ترى لهم من باقية ﴾ ؟

فضرب أبو جهم على عضد عمر وقال : انج . وفرا هاربين .

فكانت من مقدمات عمر[٢] .

١١ — ومؤامرة قريش[٣] الكبرى لقتل رسول الله ، وهى مؤامرة ليلة الهجرة مشهورة مذكورة عند جميع المؤرخين .

وحين طافوا بغار ثور قالوا : ندخله : فقال لهم أمية بن خلف : ما أرابكم فيه وعليه من نسج العنكبوت ما أرى إلا أنه قبل أن يولد محمد[٤] .

١٢ — وتبع رسول الله بعد الهجرة فى طريقه إلى المدينة سراقة بن مالك بن جعشم ، وقد جعلت قريش فيه وفى أبى بكر الجعائل . فأنذر به ، فركب فرسه واتبعه ، حتى إذا قرب منه دعا عليه النبى ﷺ فساخت قوائم فرسه فخر عنها ، واستقسم بالأزلام فخرج له ما يكره ، ثم ركب ودنا حتى سمع قراءة النبى ﷺ وهو لا يلتفت ، وأبو بكر رضى الله عنه يلتفت وقال للنبى : أتينا . فقال : لا تحزن إن الله معنا . فساخت ثانية إلى ركبتها وخر عنها ، فزجرها فنهضت ولقوائمها مثل الدخان فناداهم بالأمان .

فكتب له النبى ﷺ أمانا كتبه ابن فهيرة . وقيل : أبو بكر . وأخبرهم بالأخبار ،

---

(١) ٢٣٠ الشفاء . (٢) ٣٣٠ الشفاء .

(٣) لا شك أن بيت عبد شمس كان له دور كبير فى ذلك ، ومن قديم كان يعادى البيت الهاشمى . يروى أنه أصاب قريشا أزمةفخرج هاشم بن عبد مناف بالإبل تحمل الغرائر من الكعك — الخبز اليابس — وجمع ذلك فى الجفان وطبخ لحوم الإبل فصبها عليها ، فكان أول خصبهم . فخرج أمية بن عبد شمس يتكلف بعض ذلك فعجز ، فنافر هاشما فأبى هاشم المنافرة لفضله وسنه ، حتى زمرته قريش — حضته — فأبى إلا على أن ينفى المنفر من الحرم عشر سنين . فنافره على ذلك (١٩٣ الجمان فى تشبيهات القرآن لابن نافيا البغدادى ٤١٠ — ٤٨٥ هـ) .

(٤) ٢٣٠ الشفاء .

وأمره النبى ألا يترك أحدا يلحق بهم ، فانصرف يقول للناس : كفيتم ما هٰهنا[١] .

وقال رسول الله لسراقة : كيف بك إذا لبست سوارى كسرى ؟ فلما أتى بهما عمر ألبسهما إياه وقال : الحمد لله الذى سلبهما كسرى وألبسهما سراقة[٢] .

وفى خبر آخر أن راعيا عرف رسول الله وأبا بكر ، فخرج يشتد يعلم قريشا . فلما ورد مكة ضرب على قلبه فما يدرى ما يصنع ، وأنسى ما خرج له حتى رجع إلى موضعه[٣] .

١٣ — وجاء أبو جهل بصخرة ورسول الله ساجد وقريش ينظرون ليطرحها عليه ، فلزقت يده ويبست يداه إلى عنقه ، وأقبل يرجع القهقرى إلى خلفه . ثم سأله أن يدعو له ففعل فانطلقت يداه . وكان قد تواعد مع قريش بذلك ، وحلف لئن رآه ليدمغنه . فسألوه عن شأنه فذكر أنه عرض لى دونه فحل ما رأيت مثله قط هم بى أن يأكلنى . فقال النبى ﷺ : ذاك جبريل لو دنا لأخذه[٤] .

وهذه الحادثة تروى برواية مقاربة أخرى[٥] .

١٤ — وروى أن رجلا من بنى المغيرة أتى النبى ﷺ ليقتله ، فطمس الله على بصره فلم ير النبى ﷺ ، وسمع قوله . فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه[٦] .

١٥ — ويروى أن شيبة بن عثمان الحجبى أدرك رسول الله يوم حنين ، وكان حمزة قد قتل أباه وعمه ، فقال : اليوم أدرك ثأرى من محمد . فلما اختلط الناس أتاه من خلفه ورفع سيفه ليصبه عليه .

قال شيبة : فلما دنوت منه ارتفع إلىّ شواظ من نار أسرع من البرق فوليت هاربا . وأحس بى النبى فدعانى ، فوضع يده على صدرى وهو أبغض الخلق إلىّ ، فما رفعها إلا وهو أحب الخلق إلى ، وقال لى : ادن فقاتل . فتقدمت أمامه أضرب بسيفى وأقيه بنفسى ، ولو لقيت أبى تلك الساعة لأوقعت به دونه[٧] .

١٦ — وخبر عامر بن الطفيل وأربد بن قيس حين وفدا على النبى ﷺ مشهور . وكان عامر قال لأربد : أنا أشغل عنك وجه محمد فاضربه أنت .

فلم يره فعل شيء ، فلما كلمه فى ذلك قال له : والله ما هممت أن أضربه إلا وجدتك بينى وبينه . أفأضربك ؟[٨] .

---

(١) ٢٣٠ و ٢٣١ الشفاء (٢) ٢٢٦ المرجع .
(٣) ٢٣١ المرجع . (٤) ٢٣١ المرجع .
(٥) ٢٣٢ المرجع . (٦) ٢٣١ الشفاء .
(٧) ٢٣٢ و ٢٣٣ الشفاء . (٨) راجع ٢٣٣ الشفاء .

١٧ — وقد سبق ذكر ما كان قد هم به عمر بن الخطاب قبيل إسلامه من الفتك برسول الله صلوات الله عليه وسلم .

١٨ — كما سبق أن ذكرنا ما عزم عليه جماعة من المنافقين من الفتك برسول الله صلوات الله عليه وهو فى طريقه من تبوك إلى المدينة المنورة ، ولكن الله عز وجل نجاه من شرهم .

وقد أخبر رسول الله بقصة هؤلاء المنافقين الذين تآمروا عليه بعد عودته من تبوك ، وسمى رسول الله بعضهم ، نذكر منهم : عبد الله بن أبى ، وسعد بن أبى سرج ، وأبا خاطر الأعرابى ، وعامرا أو أبا عامر ، والجلاس بن سويد بن الصامت وهو الذى قال : لا ننتهى حتى نرى محمدا من العقبة الليلة ، ومجمع بن حارثة ، ومليحا التيمى وهو الذى سرق طيب الكعبة وارتد عن الإسلام وانطلق محاربا فى الأرض فلا يدرى أين ذهب ، وحصن ابن نمير ، وطعيمة بن أبيرق ، وعبد الله بن عيينة وهو الذى قال لأصحابه : « اسهروا هذه الليلة تسلموا الدهر كله ، فوالله ما لكم أمر دون أن تقتلوا هذا الرجل » ، فدعاه رسول الله فقال : ويحك ما كان ينفعك من قتلى لو أنى قتلت ؟ فقال : والله يا رسول الله لا نزال بخير ما أعطاك الله النصر على عدوك ، إنما نحن بالله وبك . فتركه رسول الله ، ومنهم : مرة ابن الربيع ، وهو الذى قال : « لقتل الواحد الفرد . فيكون الناس عامة بقتله مطمئنين . فدعاه رسول الله فقال : ويحك ما حملك على أن تقول الذى قلت ؟ فقال : يا رسول الله إن كنت قلت شيئا من ذلك إنك لعالم به ، وما قلت شيئا من ذلك .

فجمعهم رسول الله وهم إثنا عشر رجلا . ونزل فيهم قوله تعالى : ﴿ وهموا بما لم ينالوا ﴾ (٩ : ٧٤) وماتوا وهم منافقون .

وكان أبو عامر رأسهم وله بنوا مسجد الضرار ، وهو الذى كان يقال له الراهب فسماه رسول الله : الفاسق . وهو أبو حنضلة غسيل الملائكة ، فانهارت بهم تلك العقبة فى نار جهنم[١] .

ويلاحظ ابن القيم أن عبدا الله بن أبىّ كان قد تخلف عن تبوك ، وأن ابن أبىّ سرح لم يعرف له إسلام قط ، وابنه عبد الله أسلم عام الفتح ولم يكن مع هؤلاء الاثنى عشر . وأن أبا عامر كان قد خرج من المدينة بعد هجرة رسول الله إليها ببضعة عشر رجلا ، فلما فتح رسول الله مكة خرج إلى الطائف ، فلما أسلم أهل الطائف خرج إلى الشام فمات بها طريدا[٢] .

---

(١) ٣ : ١٧ و ١٨ زاد المعاد . (٢) ٣ : ١٩ زاد المعاد .

ولعل منهم ثعلبة بن حاطب[١] .

كان أبو عامر قال لأصحابه : ابنو مسجدكم ـ الضرار ـ واستمدوا ما استطعتم من قوة ومن سلاح ، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتى بجند من الروم فأخرج محمدا وأصحابه .

فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ فقالوا : إنا قد فرغنا من بناء مسجدنا ، فنحب أن تصلى فيه وتدعو بالبركة . فأنزل الله تعالى فيه قوله عز وجل : ﴿لا تقم فيه أبدا﴾[٢] .

ملك غسان يكيد للإسلام :

نحن نعلم قصة كعب بن مالك الذى تخلف عن غزوة تبوك ، وكان كعب من شعراء الإسلام .

ولما جاء رسول الله من تبوك بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ، ثم جلس للناس . فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له ، وكانوا بضعا وثمانين رجلا ، فقبل منهم رسول الله علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله . ويقول كعب : جئت فلما سلمت تبسم الرسول تبسم المغضب فقال لى : ما خلَّفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ قال كعب : والله ما كان لى عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك .

قال رسول الله : أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله فيك . فقمت ولقيه رجلان قالا مثل ما قال : مرارة بن ربيعة العامرى وهلال بن أمية .

ونهى رسول الله المسلمين عن كلام هؤلاء الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبهم الناس وتغيروا لهم . قال كعب : حتى تنكرت لى فى الأرض فما هى بالأرض التى أعرف ، حتى إذا طال على ذلك من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة ، وهو ابن عمى ، وأحب الناس إلى ، فسلمت عليه فوالله ما رد على السلام ، ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار .

وقال كعب : فبينا أنا أمشى فى سوق المدينة ، فإذا نبطى من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة ويقول : من يدل على كعب بن مالك . فطفق الناس يشيرون له إلىّ حتى جاءنى فدفع إلى كتابا من ملك غسان . وكنت كاتبا فقرأته ، فإذا فيه : « أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك . فقال كعب حين قرأ هذه الرسالة : وهذا أيضا من البلاء فتيممت التنور فسجرته بها[٣] .

---

(١) ، (٢) ٣ : ١٩ زاد المعاد .

(٣) راجع ٢ : ٢٦٦ ــ ٢٨٦ مختصر صحيح مسلم للمنذرى .

الباب التاسع

الإعلام الإسلامى والحضارة الطباعية

إن الإعلام الإسلامى قد اعتمد من قبل على الرواية الشفوية السمعية ، وعلى التدوين اعتمادا كبيرا .

ثم ما لبثت الطباعة أن اخترعت لتضيف إلى اللغة المكتوبة بعدا آخر يؤكد النظرة الجزئية ، والإدراك المتجزئ للأشياء . وفى إطار هذه البيئة الجديدة كان الفكر يتخذ شكل التسلسل أو التتابع . ولقد كانت الطباعة بواسطة الحروف المتحركة تمثل أول ميكنة حقيقية لمهنة معقدة على نحو ما يذهب إلى ذلك « ماكلوهان » الذى يضيف أن الطباعة أصبحت نموذجا لكل ضروب الميكنة التى ظهرت بعد ذلك . وقد أدى الانفجار الطباعى إلى تمديد عقول الناس وأصواتهم ، وإعادة تشكيل الحوار الإنسانى على أوسع نطاق ، وهو حوار يتجاوز حدود الزمان . وإذا ما نظرنا إلى الطباعة على أنها مجرد وسيلة لاختزان المعلومات أو الاسترجاع السريع للمعرفة ، فإننا ــ سنجدها بهذا المعنى ــ قد حطمت النزعات الفكرية والقبلية المحدودة النطاق تحطيما سيكولوجيا واجتماعيا ، سواء من حيث المكان أو الزمان .

إحياء التراث والحضارة الطباعية :

ولقد عنيت النهضة الحديثة فى العصر الطباعى بنشر الكتب القديمة وإحيائها ومن أوائل من عنوا بنشر المخطوطات « رفاعة الطهطاوى » متأثرا بطريقة صديقه المستشرق الفرنسى « سلفستر دى ساس » وعن مجهود رفاعة فى إحياء الكتب القديمة يقول على مبارك :

« ولرغبته فى نشر العلوم ، وسعة دائرتها ، وحبه عموم النفع بها ، استدعى مع بعض أفراد الحكومة المصرية من المرحوم سعيد باشا ــ وكان له ميل إلى المترجم رحمه الله ــ صدور الأمر بطبع جملة كتب عربية على طرف الحكومة ، عمَّ الانتفاع بها فى الأزهر وغيره ، منها تفسير الفخر الرازى ، ومعاهد التنصيص ، وخزانة الأدب ، والمقامات الحريرية ، وغير ذلك من الكتب التى كانت عديمة الوجود فى ذلك الوقت فطبعت »[1] .

---

(١) الخطط التوفيقية ــ ترجمة رفاعة ج ١٣ (ص ٥٥ ــ ٥٦)

كما عنى المجمع العلمى الذى أسس على عهد الفرنسيين سنة ١٧٩٨ وألغى عند جلائهم وأعيد فى عصر سعيد ، ينشر المخطوطات مثل : أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير فى خمسة مجلدات ، وتاج العروس من شرح جواهر القاموس ، وتاريخ ابن الوردى ، وشرح التنوير على سقط الزند ، وديوان ابن خفاجة ، وديوان ابن المعتز ، والبيان والتبيين للجاحظ ، وشرح الشيخ خالد على البردة ، وغير ذلك من الكتب التراثية(١) .

وكذلك لقيت جمعية المعارف سنة ١٨٦٨ تشجيعا عظيما ، لما قامت به من طبع طائفة من أمهات الكتب فى التاريخ والفقه والأدب(٢) .

وفى سنة ١٨٩٨ ألفت جمعية جديدة لنشر الكتب التراثية وإحيائها ، وطبعت عدة كتب هامة مثل : كتاب الموجز فى فقه الإمام الشافعى ، وسيرة صلاح الدين الأيوبى ، وفتوح البلدان للبلاذرى ، والإحاطة فى أخبار غرناطة ، وتاريخ دولة آل سلجوق ، وغيرها(٣) . وفى سنة ١٩٠٠ تكونت هيئة أخرى برئاسة الشيخ محمد عبده لإحياء الكتب القديمة النافعة ، فأخرجت كتابى عبد القاهر الجرجانى .. أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز ، ونشرت كتاب المخصص لابن سيده فى سبعة عشر مجلدا ، وابتدأت فى نشر كتاب المدونة للإمام مالك(٤) .

ومنذ ذلك الوقت عنيت دور النشر بإحياء الكتب القديمة ، وكانت فى مقدمتها دار الكتب التى طبعت خلال الحرب الأولى : صبح الأعشى والخصائص لابن جنى ، وديوان ابن الدمينة ، والمكافأة لابن الداية ، والاعتصام للشاطبى ، والأصنام لابن الكلبى . وقد تاسست فى خلال الحرب العالمية الأولى كذلك لجنة التأليف والترجمة والنشر فى سنة ١٩١٤ ، ودأبت منذ ذلك الوقت على إخراج الكتب تأليفا وإحياء وترجمة ، حتى بلغ عدد ما أخرجته فى سنة ١٩٤٨ ما يربو على ثلثمائة كتاب(٥) .

ومن الكتب ذات القيمة التى أخرجتها دار الكتب : نهاية الأرب للنويرى ، ومسالك

---

(١) عمر الدسوقى : فى الأدب الحديث — جـ ١ ، ص ٧٤

(٢) المرجع نفسه ، ص ٧٤

(٣) عمر الدسوقى : فى الأدب الحديث جـ ٢ ، ص ١٧٦

(٤) المرجع نفسه ، ص ١٧٦ ، راجع المنار جـ ٨ ص ٤٩١ ، وتاريخ الإمام جـ ٣ ص ٢٤٧ ، والإسلام والتجديد ص ١٨

(٥) عمر الدسوقى : المرجع السابق ، ص ١٧٦ ، السجل الثقافى ١٩٤٨ ص ٢٠٩ .

الأبصار لابن فضل الله العمرى ، والأغانى للأصفهانى ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، وديوان مهيار الديلمى . وتعددت بجانب دار الكتب الهيئات التى تعنى بالنشر حتى بلغ عددها سنة ١٩٤٨ أربعا وعشرين هيئة ودار نشر(١) .

وقد حمل هذا العبء — إحياء التراث — كثير من المؤسسات الثقافية فى البلاد العربية ، كالمجمع العلمى بدمشق وبغداد ، والهيئات العلمية بتونس والمغرب ، ودور النشر فى جميع البلاد العربية ، إلى جانب الجهود الفردية لعدد من الأساتذة العرب فى مختلف أقطارهم . ومعهد المخطوطات الذى أنشأته الجامعة العربية ، فقام بتصوير دور الكتب من الشرق والغرب ، ونشر بعضها .

وهذا الإحياء للتراث يعنى فى تقديرنا تحقيق الاتصال بين حضارتى التدوين والطباعة ، الذى أدى بالتالى إلى تحقيق الاتصال بين السيرة النبوية فى الحضارتين ، حيث وجدنا أن تدوين السيرة يقف فى عصر التدوين عند تقى الدين أحمد بن على المقريزى فى كتابه « إمتاع الأسماع ، بما للرسول من خولة وحفدة ومتاع » فى القرن التاسع للهجرة أو الخامس عشر الميلادى ، وهذا التوقيت لافت ، حيث يمثل هذا القرن بداية عصر جديد هو عصر الطباعة ، والذى يؤرخ له باختراع « جوتنبرج » الحروف المتفرقة والتى تعد أساس الطباعة الحديثة . وفى القرن السادس عشر أصبحت الطباعة ثابتة الدعائم ، واهتمت المطابع الأوربية بنشر المطبوعات باللغة العربية . وأول كتاب عربى طبع فى « فانوا » بإيطاليا فى عهد البابا ليون العاشر سنة ١٥١٤ هو كتاب دينى — كما هو المنتظر — ، ثم سفر الزبور سنة ١٥١٦ ، وبعد قليل طبع القرآن فى البندقية ، ولكن الطبعة أحرقت خشية أن يؤثر على عقائد المسيحيين ، وطبع كتاب القانون لابن سينا فى روما سنة ١٥٩٣ فى مجلد ضخم ، وتعددت المطابع العربية فى أوربا ، وطبعت فيها مئات من الكتب العربية وغيرها(٢) .

وفى تقديرنا أن الحضارة الطباعية قد جاءت ثمرة من ثمار أثر حضارة التدوين فى عصر النهضة الأوربية ، حيث تدافع الناس للبحث عن العالم والمعرفة فى ظل حضارة التدوين ، وردد الأوربيون ما قاله « روجر بيون » Roger Bacon بجامعة أكسفورد فى مطلع القرن الثالث عشر من أنه لا بد من دراسة التراث العربى وأساليب العلماء العرب .

ومن هنا كان الاعتماد — بداءة — على حضارة التدوين التى يحتل فيها التراث العربى

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ١٧٧ (٢) راجع جورجى زيدان .

مكانة مرموقة ، وقوى اهتمام المستشرقين بدراسة اللغة العربية وآدابها وعلومها — بعد ذلك — فى حضارة الطباعة ، التى أدت إلى تدعيم حركة الاستشراق فى القرن التاسع عشر ، فنشطت جمعياته فى نشر الكتب العربية التى أنتجتها حضارة التدوين ، وعنى المستشرقون بجمع نفائس مخطوطات هذه الحضارة أيام محنة المسلمين بالأندلس وصقلية ، وأيام الحروب الصليبية ، حتى تجمع فى مكتبات الغرب ما يزيد على ربع مليون كتاب .

كتاب الغرب والسيرة النبوية :

وقد شهدت الحضارة الطباعية اهتمام كتاب الغرب بدراسة السيرة النبوية ، وهؤلاء الكتاب يتفاوتون فى قيمة الكتابة ، ولكن تفاوتهم ، « على حسب البواعث والنيات أضعاف تفاوتهم على حسب الدراية والمعرفة ، لأنهم طوائف مختلفة لا تتفق فى الوجهة ولا فى الخلق ولا فى الاستعداد .. فمنهم المبشرون الذين ينحرفون عن الصواب اضطرارا واختيارا بباعث من التعصب ، وباعث من حكم الصناعة أو الحرفة ، لأن التبشير عندهم منفعة يعيشون عليها ويحرصون عليها حرصهم على القوت والجاه »[1] .

ويقول العقاد : إن من يكتبون عن الإسلام من الغربيين « أناس يخدمون السياسة الغالبة على دولهم ، ويصطنعون لغة الدعاية تارة ولغة الدهان أو « الدبلوماسية » تارة أخرى . ويكتب عن الإسلام فى الغرب طلاب المعرفة من المستشرقين الذين نشأوا فى العصر الحديث بمعزل عن دوائر التبشير ودوائر السياسة ، ومنهم من ينشر الرأى خالصا لوجه الحقيقة العلمية ، ولكنه مشوب بالقصور الذى لا مفر منه لمن يكتب عن الأدب فى لغة أخرى ، وليس هو من أبنائها ولا هو من الأدباء فى لغته التى نشأ عليها ، وبعضهم لا رأى له فى أدب بلاده لأنه لم يشتغل به ولم يتأهب له بعدته من الذوق والفطنة التى تؤهله للتخصص فيه ، فليست معرفته بالعربية عدة كافية له فى تقدير الأدب العربى ، لأنه يعرف لغته — لغة الأم — كما يقال — ولا معول على رأيه فى أدبها بين قومه — ويكتب عن الإسلام فى الغرب أناس يتشيعون له بمقدار ثورتهم على سلطة الدين فى بلادهم ، فهم يتطلبون محاسنه ويقابلون بها مساوئ السلطة التى يثورون عليها ، ولا يندر منهم من ينصف الإسلام ويهتدى إلى محاسنه السمحة ، وإن لم يدن به ولم يكن على دين غيره »[2].

(١) العقاد : ما يقال عن الإسلام ، ص ١

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢

وقد عرفت حضارة التدوين تعصبا دينيا ظهر فى الصورة التى رسمتها أوربا للنبى الإسلام فى القرون الوسطى وحتى منتصف القرن الثامن عشر تقريبا، حيث أدت الحضارة الطباعية إلى مراجعة المعتقدات القديمة فى أوربا، ودراسة التراث العربى والإسلامى دراسة علمية. وحينما كتب فولتير (١٦٩٤ — ١٧٧٨ م) مسرحية اسمها « محمد »، وجعل فيها الإسلام وأئمته رموزا للكنيسة ورجالها، وهاجم الكاثوليكية تحت ستار مهاجمته للإسلام، كان متأثرا بالصورة المتحيزة التى رسمتها أوربا فى حضارة التدوين وأواخر الحضارة السمعية. ومن الطريف أن « نابليون بونابرت » يتصدى له فى حديث مع الشاعر الألمانى « جوته » مستنكرا هذه الصورة التى قدمها فولتير عن النبى العربى قائلا: إنها لا تصدق عليه. إن محمدا رجل عظيم، ولا يجعل تصوير الأنبياء بهذا الأسلوب!

ومن الكتاب المنصفين فى الحضارة الطباعية المؤرخ الأمريكى واشنجتون إرفنج (١٧٨٣ — ١٨٥٩ م) الذى أولع بالحضارة العربية، وأنصف النبى ﷺ، وعبر عن تقديره لصنيعه العظيم من أجل الإنسانية جميعا.

ثم يطالعنا فى الحضارة الطباعية الفيلسوف الأسكتلندى الشهير « توماس كارلايل » (١٧٩٥ — ١٨٨٨ م) بكتابه عن « الأبطال »، والذى قال فيه عن النبى عليه السلام: أتريد دليلا ممن يدعى لك أنه بناء، أقوى من أن يبنى لك دارا تسع الملايين الكثيرة من الناس وتدوم قرونا طويلة لا يعتريها تصدع ولا يعتورها أقل خلل.. كذلك هل يطلب طالب من مدعى النبوة دليلا أقوى من أن ينشر دينا بين ملايين من البشر يستمرون عليه قرونا طويلة ويتحمسون له تحمسا كبيرا؟

« فمحمد قال بأنه رسول من عند الله، وبرهن على صدق قوله بدين نشره فى الناس أخذ به مئات من الملايين، ومضى عليهم فى ذلك قرونا طويلة وهم يحبون دينهم هذا ويتحمسون له أكبر تحمس، فماذا يراد من الأدلة على نبوته بعد ذلك؟

ألا فليعلم الناس أن التعاليم كأوراق « البنكنوت »، فالصادقة منها تتداول بين الناس ولا تثير أقل شبهة. والزائفة منها تخدع بعض الناس مرة أو مرتين ثم يفتضح أمرها وتعرف أنها زائفة فتمزق كل ممزق.. ثم يقول كارليل: إنه لا يمكن أن يكون محمد كذوبا، فإنه إن كان كذلك فلا يستطيع أن يأتى بمثل هذا الدين العجيب. والله إن الرجل الكاذب لا يستطيع أن يبنى بيتا من اللبن إذا لم يكن عليما بمواد البناء على اختلاف أنواعها. فما بالك بمواد بناء صرح شامخ البنيان مدعم الأركان مثل دين الإسلام الذى ظل على قوته وعظمته قرونا طوالا.

أما هـ ج . ويلز H. G. Wells فيقول : إن من أدفع الأدلة على صدق « محمد » كون أهله وأقرب الناس إليه يؤمنون به ، فقد كانوا مطلعين على أسراره ولو شكوا فى صدقه لما آمنوا به .

ويقول برناردشو : إننى أعتقد أن رجلا كمحمد لو تسلم زمام الحكم المطلق فى العالم أجمع ، لتم له النجاح فى حكمه ، ولقاده إلى الخير ، ولحل مشاكله على وجه يكفل للعالم السلام والسعادة المنشودة .

وقال « فتلى » فى كتابه : « اليونان تحت حكم الرومان » : إن نجاح محمد بين أقدم الأمم وأثبت البلدان قدما فى القانون مدى أجيال طويلة فى شتى نواحى الهيكل الاجتماعى ، دليل على أن هذا الرجل الخارق قد كون من مزيج من كفايات ممتازة .

وقال العالم الفرنسى « بلانشيه » : إن الفتى « محمدا » يعد من أبرز وأشهر رجال التاريخ . فقد قام بثلاثة أعمال عظيمة دفعة واحدة . وهى أنه أحيا شعبا ، وأنشأ إمبراطورية ، وأسس دينا . وقال الشاعر الفرنسى « لامارتين » : (١٧٩٠ — ١٨٦٩ م) إن حياة مثل حياة « محمد » ، وقوة كقوة تأمله وتفكيره وجهاده ، ووثبته على خرافات أمته وجاهلية شعبه ، وبأسه فى لقاء ما لقيه من عبدة الأوثان ، وإيمانه بالظفر ، وإعلاء كلمته ، ورباطة جأشه ، لتثبت أركان العقيدة الإسلامية . إن كل ذلك أدلة أنه لم يكن يضمر خداعا أو يعيش على باطل ، فهو فيلسوف ، وخطيب ، ورسول ، وهادى الإنسان إلى العقل ، وناشر العقائد المعقولة الموافقة للذهن واللب ، وناشر دين لا فرية فيه ولا صور ولا رقيات ، ومنشئ عشرين دولة فى الأرض ، وفاتح دولة فى السماء من ناحية الروح والفؤاد . فأى رجل أدرك من العظمة الإنسانية مثل ما أدرك ، وأى إنسان بلغ من مراتب الكمال مثلما بلغ .

وفى كتابهما « العالم الشرق » يقول « طوراندريه » و« چورج مارسيه » عن النبى ﷺ : كان شجاعا يخوض المعركة بنفسه ليرد الثبات إلى قلوب الذين يضعفون ، وكان رحيما بالضعفاء يؤوى فى بيته عددا كبيرا من المحتاجين ، وكان مع احتفاظه بهيبته كاملة بسيط الحركات لا يتكلف شيئا ، بشوشا ، سهل المعاملة ، رقيق الحاشية ، لا يثير غضبة أهل الفضول والسماحة . وكان محمد رجلا ، وكان فيه لا شك كثير من الخلال التى اتسم بها رجال عصره . ولكنه حمل إلى هؤلاء الرجال مثلا رفيعا فى الدين والأخلاق ، وسما سموا بالغا عن الآراء القديمة التى كانوا يرزحون تحت ثقلها ، وهو إذ جمعهم عصبة واحدة تحت راية ذلك المثل الرفيع ، قد صنع منهم قوة قدر لها فيما بعد أن تهز أركان العالم القديم .

كما وصف الكاتب الفرنسى إتيان دينيه، مولد الرسول الكريم فى كتابه « حياة محمد » .. ولم يغفل إعجابه بالإسلام وتعاليمه حين قال :

ألمح الآن شعاعا ورديا يتدفق فى الأفق، والنجوم يبهت لونها، ويطرق سمعى لحن موسيقى يتردد صداه فى هدأة الليل .. الله أكبر الله أكبر، لا إلـٰه إلا الله، محمد رسول الله، حى على الصلاة، حى على الفلاح . والألحان الأخيرة من هذا النداء الذى يرسله المؤذن ترتفع من المنارات الشاهقة الرشيقة فوق أعالى البيوت، وذوائب نخيل الغابة ذاهبة إلى حيث تغنى فى جنبات الصحراء اللانهائية . وفى كل يوم كلما غيرت الشمس من ألوان ضوئها فى فجرها الأرجوانى، وفى ظهيرتها المحتدمة، وفى عصرها المذهب، وفى مغربها المخضوب بصفرة الحزن على فراقها، وفى تكفنها أخيرا بأوشحة من ظلام الليل، يرى المسلمون جميعا أنه من المحتم عليهم أن يتجردوا من أعمالهم وشواغلهم، ليس فى المساجد فقط، بل أيضا فى البيوت، وفى الشوارع والأسواق، وفى الحقول والصحارى، وفى كل مكان لكى يمجدوا فيض الخير جل سناه[1] .

وقال الفيلسوف الروسى « تولستوى » : وخلاصة الديانة التى نادى بها محمد ﷺ هى : أن الله واحد لا إلـٰه إلا هو . ولذلك لا يجوز عبادة أرباب كثيرة، وأن الله رحيم عادل، وأن مصير الإنسان النهائى متوقف على الإنسان نفسه، فإذا سار حسب شريعة الله وائتمر بأوامره واجتنب نواهيه فإنه يظفر بالقوة فى الحياة الدنيا، ويؤجر أجرا حسنا فى الحياة الأخرى . وأن كل شىء فى هذه الدنيا زائل ولا يبقى إلا الله ذو الجلال، وأنه بدون الإيمان بالله وإتمام وصاياه لا يمكن أن تكون حياة حقيقية، وأن الله تعالى يأمر الناس بمحبته ومحبة بعضهم، ومحبة الله تكون فى الصلاة، ومحبة الناس فى مشاركتهم فى السراء والضراء، ومساعدتهم والصفح عن زلاتهم، وأن الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر يقضى أن يبذلوا وسعهم لإبعاد كل ما من شأنه إثارة الشهوات النفسية، والابتعاد أيضا عن الملذات الأرضية، وأنه يتحتم عليهم ألا يخدموا الجسد ويعبدوه، بل يجب عليهم أن يخدموا الروح والجسد معا . و« محمد ﷺ » لم يقل عن نفسه أنه نبى الله الوحيد، بل اعتقد أيضا بنبوة موسى وعيسى، وقال إن اليهود والنصارى لا يكرهون على ترك دينهم .

وفى سنى دعوة « محمد ﷺ » احتمل كثيرا من اضطهاد أصحاب الديانات القديمة، شأن كل نبى قبله نادى أمته إلى الحق . ولكن هذه الاضطهادات لم تثن عزمه،

---

(١) زكريا هاشم زكريا : المستشرقون والإسلام، ص ٢٧٣

بل ثابر على دعوته فى قوة وثقة ، وإيمان لا مثيل له فى التاريخ . ومما لا ريب فيه أن النبى محمدا من أعظم الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمات جليلة ، ويكفيه فخرا أنه هدى مئات الملايين إلى نور الحق ، وإلى السكينة والسلام ، وفتح للإنسانية طريقا للحياة الروحية العالية .. وهو عمل عظيم لا يقوم به إلا شخص أوتى قوة وإلهامًا وعونا من السماء[١] .

ومن هذه الصورة السريعة يتضح لنا كيف ألهمت السيرة النبوية العطرة كتاب الغرب معانى عليا ، وفى تقديرنا أن الحضارة الطباعية قد عاونت على تحقيق الاتصال الحضارى بين الشرق والغرب ، وإعادة تشكيل الحوار الإنسانى على نطاق واسع ، وهو « حوار يتجاوز حدود الزمان » كما يقول « ماكلوهان » ، الذى قال أيضا إن الطباعة — حينما ننظر إليها على أنها مجرد وسيلة لاختزان المعلومات ، أو الاسترجاع السريع للمعرفة ، فإننا سنجدها بهذا المعنى — قد حطمت النزعات الفكرية والقبلية المحدودة النطاق تحطيما سيكولوجيا واجتماعيا ، سواء من حيث المكان أو الزمان . ويؤكد ماكلوهان — أن الدافع الذى سيطر على القرنين التاليين على استكشاف الطباعة بالحروف المتحركة ، هو الرغبة فى الاطلاع على الكتب القديمة وكتب العصور الوسطى ، أكثر من الرغبة فى كتابة وقراءة كتب جديدة . وحتى سنة ١٧٠٠ م كان أكثر من ٥٠٪ من الكتب المطبوعة تنتمى إلى العصرين القديم أو الوسيط . لقد أعطى لجمهور الطباعة الأول مؤلفات العصور القديمة والوسطى ليقرأها .

وكان من نتائج هذه الحضارة الطباعية أن درس علماء الغرب تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده على طريقتهم فى النقد والتحليل ، ودرسوا السيرة النبوية المحمدية وفلوها فليا ، ونقوشها بالمناقيش ، وقرأوا القرآن بلغته وقرأوا ما ترجمه به أقوامهم ، وكانوا على علم محيط بكتب العهدين القديم والجديد ، وتاريخ الأديان ، سيما الديانتين اليهودية والنصرانية ، وبما كتبه المتعصبون للكنيسة من الافتراء على الإسلام والنبى والقرآن ، فخرجوا من هذه الدروس كلها بالنتيجة الآتية :

« أن محمدا كان سليم الفطرة ، كامل العقل ، كريم الأخلاق ، صادق الحديث عفيف النفس ، قنوعا بالقليل من الرزق غير طموع بالمال ، ولا جنوح إلى الملك ، ولم يعن بما كان يعنى به قومه من الفخر والمباراة فى تحبير الخطب ولا قرض الشعر ، وكان يمقت

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٢٨

ما كانوا عليه من الشر ، وخرافات الوثنية ، ويحتقر ما يتنافسون فيه من الشهوات البهيمية كالخمر والميسر وأكل أموال الناس بالباطل . وبهذا كله ، وبما ثبت من سيرته ويقينه بع النبوة ، جزموا بأنه كان صادقا فيما ادعاه بعد استكمال الأربعين من سنه من رؤية ملك الوحى ، وإقرائه إياه هذا القرآن ، وإنبائه بأنه رسول من الله لهداية قومه فسائر الناس » .

وزادهم ثقة بصدقه أن كان أول الناس إيمانا به واهتداء بنبوته أعلمهم بدخيْلة أمره ، وأولهم زوجته خديجة المشهورة بالعقل والنبل والفضيلة ، ومولاه زيد بن حارثة الذى اختار أن يكون عبدا له على أن يلحق بوالده وأهل بيته ويكون معهم حرا ، ثم أن كان الذين آمنوا به من أعظم العرب حرية واستقلالا فى الرأى ، ولا سيما أبى بكر وعمر . فأما المؤمنون بالله وملائكته ، وبأن البشر أرواح خالدة من هؤلاء الإفرنج ، فقد آمنوا بنبوة محمد ﷺ على علم وبرهان .

وهم يزيدون عاما بعد عام ، بقدر ما يتاح لهم من العلم بالإسلام .

وأما الماديون فلم يكن لهم بد من تفسير لهذه الحادثة أو الظاهرة التى لا ريب فى صحتها وثبوتها ، وتصويرها بالصورة العلمية التى يقبلها العقل الذى لا يؤمن صاحبه بماوراء المادة أو الطبيعة من عالم الغيب .

الكتاب المسلمون والسيرة النبوية فى الحضارة الطباعية :

وإذا كانت الحضارة الطباعية قد عاونت على دراسة السيرة النبوية فى الغرب ، فقد كان لها أثرها الكبير فى عودة المسلمين أنفسهم إلى دراسة السيرة ، فوجدنا رفاعة الطهطاوى يكتب « نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز » بعد المقريزى بأربعة قرون[١] .

كما نجد أن الشيخ محمد الخضرى يكتب « نور اليقين ، فى سيرة سيد المرسلين » وتظهر أولى طبعاته سنة ١٣١٣ هـ — ١٨٩٥ م[٢] . وفى هذا الكتاب لم يتخلص الخضرى من آثار « حضارة التدوين » ، فجاء كتابه فى السيرة أواخر القرن الماضى ملتزما لطرائق القدامى من المؤرخين العرب والمسلمين[٣] ، ثم جاء كتاب « حياة محمد» للدكتور محمد حسين هيكل بعد الطهطاوى بأكثر من نصف قرن ، ففتح الباب

---

(١) د . حسين فوزى النجار : هيكل وحياة محمد ، ص ٢

(٢) محمد عبد الغنى حسن : سيرة محمد فى الأدب الحديث — فى الهلال اغسطس ١٩٧٨

(٣) المرجع نفسه ، ص ٦٦

على مصراعيه لحركة خصبة نامية ، أقبل الكتاب فيها على التنقيب فى آفاق السيرة النبوية ، فطوعها البعض لروائع من الأدب ، وطوعها آخرون لمناهج فى البحث التاريخى لم يتناولها مؤرخ من قبل[١] .

والسؤال الذى يطرحه التفسير الإعلامى للسيرة النبوية هو : لما حملت السنوات منذ العقد الثالث من القرن العشرين إلى آخر العقد الرابع منه فيضامن كتب السيرة النبوية ، كالذى نجده فى كتاب « محمد المثل الكامل » لمحمد أحمد جاد المولى سنة ١٩٣١ ، وحياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل سنة ١٩٣٥ ، و« محمد » لمحمد رضا سنة ١٩٣٥ ، و«عبقرية محمد» للعقاد سنة ١٩٤٤ ، وغيرها مما يضيق المقام عن ذكره وحصره[٢]؟

قضية التبشير فى الصحافة المصرية :

إن التفسير الإعلامى للسيرة النبوية يكشف عن مرحلة من أخطر المراحل التى مرت بها مصر والأمة الإسلامية ، تزايدت فيها كتابات المستشرقين غير المنصفين ، وحركة التبشير التى ترتبط قضية التبشير بالفترة التى شهدت البطش بالدستور ، وبحرية الرأى والفكر . والتى شهدت كذلك الأزمة الاقتصادية . وكان من نتائج سياسة الوزارة المصرية آنذاك « أن ساعدت الأزمة على التفاقم، ذلك أنها أحدثت انقلابا خطيرا فى البلاد ، وقعدت متحفزة للأمة ، فاضطرب الجوّ وحفل ببواعث القلق ودواعى الخوف من المستقبل — القريب فضلا عن البعيد — واكفهر الأفق واكتظّ بالاحتمالات المخيفة ، فقبض أصحاب الأموال أيديهم ، وركدت الأسواق ووقفت حركة التجارة ، وبدت الوزارة أعجز ما تكون حتى عن علاج حالتها هى فضلا عن حالة البلاد ، وضعفت الثقة واشتد الخطب بما لجأت إليه الوزارة وانصرفت له من إنشاء حزبها وجمع المال له ومطاردة خصومها واضطهادهم »[٣] .

وفى هذه الأجواء شهدت مصر حادثا اهتزت له ، ذلك — كما يروى هيكل —[٤] أن نشاط المبشرين بالمسيحية ظهر فجأة فى ثوب مخوف ، وتناقلت الصحف يومئذ أن الجامعة الأمريكية بالقاهرة هى مصدر هذه الدعايات التبشيرية ، وأن بها أركان الحرب

(١) د . حسين فوزى النجار : المرجع السابق ، ص ٢

(٢) محمد عبد الغنى حسن : المرجع السابق ، ص ٦٥

(٣) هيكل وآخرون : السياسة المصرية والانقلاب الدستورى ص ٦٢

(٤) هيكل : مذكرات جـ ١ ص ٣٢٨

التى تنظم هذه الدعايات . وكان غريبا حقًا أن هذا النشاط الذى أبداه المبشرون والذى لم يسمع بمثيله من عشرات السنين ــ فقد امتد هذا النشاط من القاهرة إلى بورسعيد وإلى غيرها من المدن والأقاليم ، وقد تحدثت الصحف عن وسائل الإغراء التى يلجأ إليها المبشرون لحمل السذج على اعتناق المسيحية ، ولتنصير الأطفال والأبرياء من أبناء المسلمين الفقراء[١] .

ويذكر هيكل أن الناس ارتاعوا لهذه الحملة التبشيرية أيما ارتياع ، وجعلوا ينظرون إلى موقف الحكومة منها نظرة كلّها عدم الرضا . وتألفت جمعية لمقاومة هذا التبشير كانت تجتمع فى دار الشبان المسلمين وكان هيكل من أعضائها ، وكان من أعضائها كذلك الشيخ محمد مصطفى المراغى الذى كان شيخا للأزهر فى سنة ١٩٢٨ ، فلما لم يستطع أن ينفذ آراءه فى إصلاح الأزهر استقال من مشيخته . وكان انضمامه إلى هذه الجمعية التى تقاوم التبشير مما زادها قوة فى نظر الرأى العام ، ومما دعا صدقى ليحسب لهذا الجو الجديد كل حساب[٢] .

وقد اشتركت الصحف المصرية فى مقاومة هذه الحملة ــ عدا صحيفتى الشعب والاتحاد ــ[٣] فقالت صحيفة البلاغ عن حوادث المبشرين :

« لقد كثرت حوادث المبشرين ولم ينس الناس بعد حادث « صمويل زويمر » فى الأزهر ، ولا حادث خطف الفتاة من شبين القناطر ، ولا نظن حكومة مهما ضعفت ترضى لنفسها ولشعبها هذا الهوان بدعوى الامتيازات الأجنبية . ولكن كيف يطمع أحد فى أن تقف الوزارة الحاضرة موقفا جادًا إزاء هذه الحوادث ، وهؤلاء المبشرون يلقون ــ باعتراف صحف الوزارة ــ فى دور الحكومة كل مجاملة وكل مساعدة »[٤].

وقالت صحيفة (الجهاد) « .. الواقع أن التبشير حركة استعمارية وليست بحركة هداية إلى دين إلٰهى أيا كان الذى تدعو إليه ، فإننا لا نعرف دينا من الأديان يوصى بالغدر والخيانة . إنها أحاييل للعيش ينصبها المستعمرون لخدمة المطامع السياسية ، ويتوسلون إليها بأناس يرتزقون من هذه المواد »[٥] .

---

(١) البلاغ فى ٢٥ يناير ١٩٣٢ ــ الجهاد : فى ٢٣ يونيو ١٩٣٢
(٢) هيكل : مذكرات جـ ١ ص ٣٢٨
(٣) أنور الجندى : الصحافة السياسية ص ٦٠٦
(٤) نفس المرجع : البلاغ فى ٢٥ فبراير ١٩٣٢ .
(٥) نفس المرجع : الجهاد فى ٢٣ يونيو ١٩٣٢

وكانت الصحف تنشر كل يوم جديدا عن هذه الحركات التبشيرية ، وكانت تتوجه إلى الحكومة تطالبها بحماية السذج والأطفال من هذه الدعاية الخطرة على حد تعبير هيكل ، الذى كان من أشد أعضاء جمعية مقاومة التبشير تحمسا للمقاومة ، ولعل ذلك يرجع أيضا إلى إدراكه ازدواجية الحركة حينما ارتطمت بأوضاع السياسة ، فلم يعد الهدف من المقاومة للتبشير معارضة صدقى ووزارته ، بقدر ما كان هيكل مقتنعا بأن هذه الحركة يقصد بها إلى إضعاف ما فى النفوس من ثقة بدين الدولة ، ولما تنطوى عليه من قصد سياسى هو إضعاف معنويات الشعب بإضعاف عقيدته ، وإن لم يبلغ هذا الإضعاف حد ارتداده عن دينه إلى دين آخر(١) .

هذا إلى أن هيكل رأى فى هذه الحركة مقاومة لما يؤمن به من حرية الرأى ، « فإغراء الناس بالوسائل المادية لحملهم على تغيير مذهبهم أو عقيدتهم أو رأيهم هو محاربة دنيئة لهذه الحرية ، وهو استغلال للضعف الإنسانى كاستغلال المرابى حاجة مدينه ليقرضه بالربا الفاحش . والتبشير فضلا عن هذا مناف لقواعد الخلق ما دام يتم فى الظلام ، ولا يصارح القائم به الناس برأيه ليناقشوه هذا الرأى وليبينوا ما فيه من زيف أو فساد »(٢) .

وتأسيسا على هذا الفهم وقفت « السياسة » من حركة التبشير موقف المقاومة العنيفة ، وفتحت صفحاتها لحملة عنيفة اشترك فيها رجال الفكر ورجال الدين معا ، فمن ذلك أن على عبد الرازق ألقى محاضرة عن الدين تعرض فيها للتبشير فى جرأة بالغة ، وقال إن الإسلام قوى ولا يؤثر فيه التبشير(٣) . كما نشرت عشرات المقالات فى هذه الحملة على هذا النحو :

— التبشير والسياسة التى تؤازره(٤) .
— حديث المراغى عن التبشير(٥) .
— التبشير بالتعذيب(٦) .
— حديث عن التبشير(٧) .
— حول التبشير(٨) .

---

(١) هيكل : مذكرات جـ ١ ص ٣٢٩
(٢) المرجع السابق ص ٣٢٩
(٣) السياسة : فى ١٣ يونيو ١٩٣٣
(٤) السياسة : فى ١٢ يونيو ١٩٣٣
(٥) السياسة : فى ١٣ يونيو ١٩٣٣
(٦) السياسة : فى ١٤ يونيو ١٩٣٣
(٧) السياسة : فى ١٥ يوينو ١٩٣٣
(٨) السياسة : فى ١٦ يونيو ١٩٣٣

— تصريح الحكومة عن التبشير[١].
— انتشار مآسى التبشير[٢].
— رجال الدين والأزهر وموقفهم من التبشير[٣].
— تغريب الشرق والتبشير[٤].
— حوادث التبشير فى مصر حلقة من سلسلة الغارات على العالم الإسلامى[٥].
— حركة التبشير، حملة على المبشرين ومؤيديهم[٦].
— غزو العقيدة الإسلامية غاية التبشير[٧].
— العذاب فى سبيل العقيدة: حديث الأستاذ الأكبر عن التبشير[٨].
— خطر الحركة التبشيرية وعقد مؤتمر إسلامى[٩].
— تبعاتنا كمصريين عما يقع من التبشير[١٠].
— حديث عن التبشير مع إبراهيم الهلباوى[١١].
— مسئولية الوزارة الحاضرة عن حوادث التبشير[١٢].
— ملايين الجنيهات للهيئات التبشيرية[١٣].
— التبشير والأقليات ... إلخ[١٤].

وقد أشار هيكل فى مذكراته [١٥] إلى أنه واصل حملته ضد التبشير والمبشرين رغم إجراء التحقيق معه فى بعض القضايا الصحفية، وأنه « ألقى على إدارة الأمن العام الأوربى فى وزارة الداخلية المصرية تبعة هذا التبشير، واستمرت الحال شهورا دعى أثناءها إلى النيابة غير مرة، ورفعت الدعوى عليهم أمام محكمة الجنايات بتهمة أن محررى السياسة يحرضون أهل الأديان المختلفة بعضهم على بعض »[١٦].

وكان من أثر هذه الحركة التبشيرية وموقف هيكل منها، أن اندفع التفكير فى

---

(١) السياسة: فى ١٨ يونيو ١٩٣٣
(٢) السياسة: فى ١٩ يونيو ١٩٣٣
(٣) السياسة: فى ١٩ يونيو ١٩٣٣
(٤) السياسة: فى ٢٠ يونيو ١٩٣٣
(٥) السياسة: فى ٢١ يونيو ١٩٣٣
(٦) السياسة: فى ٢٢ يونيو ١٩٣٣
(٧) السياسة: فى ٢٣ يونيو ١٩٣٣
(٨) السياسة: فى ٢٥ يونيو ١٩٣٣
(٩) السياسة: فى ٢٦ يونيو ١٩٣٣
(١٠) السياسة: فى ٢٧ يونيو ١٩٣٣
(١١) السياسة: فى ٢٧ يونيو ١٩٣٣
(١٢) السياسة فى ٢٩ يونيو ١٩٣٣
(١٣) السياسة: فى ٢٨ يونيو ١٩٣٣
(١٤) السياسة: فى ٣٠ يونيو ١٩٣٣
(١٥)، (١٦) جـ ١، ص ٣٥٤

مقاومتها بالطريقة المثلى التى يجب أن تقاوم بها . ورأى أن هذه الطريقة المثلى توجب عليه أن يبحث حياة صاحب الرسالة الإسلامية ومبادئه بحثا علميا ، وأن يعرضه على الناس عرضا يشترك فى تقديره المسلم وغير المسلم[١] .

وقد شرح هيكل فى المذكرات الأحداث التى وجهته نحو المسيرة ، وذلك حين قرأ كتاب الكاتب الفرنسى إميل درمنجيم عن حياة « محمد » فى هذه الآونة ، ونشر عنه بحثا فى السياسة الأسبوعية[٢] ، فلما ظهر العدد الذى نشر فيه أول مقال من هذا البحث تخاطفه الناس ، حتى لقد طلب الباعة ضعف العدد الذى طبع ، فشجعه ذلك على المضى فى بحثه وعلى الاستزادة منه ، وعلى مراجعة المراجع العربية القديمة التى وضعت فى حياة الرسول ، وفى مقدمتها (سيرة ابن هشام)[٣] .

وفى ذلك ما يبين أن حوادث النشاط التبشيرى ، والاهتمام بها من وجهة النظر الصحفية كحوادث شغلت الرأى العام فى حينها ، كانت دافعا لكى يتابع هيكل خلال أربع سنوات تمحيص حياة النبى العربى وتعاليمه[٤]، ولعل ذلك يرجع أيضا إلى إيمان هيكل بوجوب إشعال الثورة فى الحياة الأدبية والصحفية ، وتذكية العاطفة الدينية . قال[٥] : « ليقتحم أدبنا إذن ماضينا ، وليقتحم هذا الماضى بأدوات البحث الأدبى وبأساليب الكتابة الحاضرة .. وليقتحم هذه الميادين غير هياب ولا متردد .. وليقتحمها بروح الثورة التى اقتحم بها الأدب الغربى تراث اليونان ، وليقلب فى هذا الماضى ما شاء له التقليب ، والتنقيب بروح البحث والتمحيص والحرص على الحق لوجه الحق وحده .. الحق فى أسمى صوره التى تلتمس الإنسانية على الأجيال ، فتكاد تلمسه أحيانا حين يكشف عنه أنبياء الإنسانية وشعراؤها وكتابها ، ثم لا يلبث أن يفلت من يدها ما تغريها المادة وتلهيهم عن جادة هذا الحق الصحيح » . وقال : « الحق الذى تقوم الحضارات

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٣٢٩

(٢) ملحق السياسة فى ١٠ يونية ١٩٣١ ، ١٦ فبراير و١٩ مارس و٨ و٢٩ أبريل و٢٣ مايو ١٩٣٢ سلسلة مقالات بعنوان « حياة محمد » عرض ونقد لكتاب درمنجيم)

(٣) هيكل : مذكرات جـ ١ ص ٣٢٩ — ملحق السياسة فى ١٨ أبريل ١٩٣٢ بعنوان « حول حياة محمد » .

(٤) هيكل : مذكرات جـ ١ ص ٣٢٩ — ملحق السياسة فى ٨ أبريل ١٩٣٢ بعنوان « حول حياة محمد .

(٥) السياسة الأسبوعية فى ١١ مايو ١٩٢٩ — أيضا : ثورة الأدب ، ص ٢١٨

على أساسه والذى يدعمه الأدب على أسنة أقلام كبار الموهوبين من الكتاب ، هو الحق فى صلة الإنسان بالوجود كله .. بهذه الأفلاك التى نرى ، وبهذه السماوات التى تغمرها ، وبالروح الفياض بالضياء ، والذى يحيط بذلك كله ويبعث إليه الحياة والنور ، هذا الروح الذى لا نور ولا حياة ولا وجود من دونه . وصلة الإنسان بالوجود ، وبهذا الروح الذى ينتظم الوجود جميعا ، هى الحقيقة العليا التى يجب أن تكون مطمح كل باحث وكل كاتب »[١] .

على أن هيكل[٢] يقرر أن ظروف حياته العملية والصحفية قد أتاحت له أن يرى فى مختلف بلاد المشرق الإسلامى ، نشاط رجال الكنيسة المسيحية فى الطعن على « الإسلام وعلى محمد . والاستعمار الغربى يؤيد بقوته أصحاب هذه المطاعن باسم حرية الرأى ، مع أن أصحاب هذه المطاعن قد أجلوا عن بلادهم وحيل بينهم وبين ما يسمونه تثبيت الإيمان فى نفوس إخوانهم فى الدين . وهذا الاستعمار يؤيد كذلك دعاة الجمود من المسلمين . وكذلك تضافر عمل الاستعمار على تأييد مادسّ على الإسلام مما يبرأ الإسلام منه ، وعلى سيرة الرسول من خرافات لا يسيغها العقل ولا يقبلها الذوق ، وعلى تأييد الطاعنين على الإسلام وعلى محمد بما دسّ على الإسلام وعلى سيرة الرسول » وقد أتاحت له ظروف حياته كذلك أن يتبين » ما يقصد إليه من القضاء على الروح المعنوية فى هذه البلاد بالقضاء على حرية الرأى وحرية البحث ابتغاء الحقيقة[٣] . وقد شعر هيكل بأن عليه أن يقاوم هذا المتعصب الذى يغذى حركة التبشير ، ليفسد الغاية التى ترمى هذه الخطة إليها ، والتى تضر الإنسانية كلها ولا يقف ضررها عند الإسلام والشرق[٤] . وأى أذى يصيب الإنسانية أكبر من العقم والجمود يصيبان نصفها الأكبر والأعرق فى الحضارة على حقب التاريخ ، ولذلك فكرت فى هذا وأطلت التفكير ، وهدانى تفكيرى آخر الأمر إلى دراسة حياة محمد صاحب الرسالة الإسلامية ، وهدف مطاعن المسيحية من ناحية ، وجمود الجامدين من المسلمين من الناحية الأخرى ، على أن تكون دراسة علمية على الطريقة الغربية الحديثة خالصة لوجه الحق ، ولوجه الحق وحده »[٥] .

---

(١) المرجع السابق .
(٢) ، (٣) حياة محمد ص ١٧
(٤) ، (٥) ملحق السياسة : فى ٢٢ مايو ١٩٣٢ — حياة محمد ص ١٨

هيكل والسيرة النبوية :

وفحوى خطة هيكل هى « إظهار الحقيقة ، ومحاربة المغالين من المسلمين بحذف الإضافات التى أضافوها إلى أجزاء من سيرة الرسول ، بحيث أصبح المعقول فيها والممكن غير معقول أو ممكن »[١] . على أن الطريقة التى اتبعها هيكل فى دراسته لحياة الرسول تتسم بطريقته فى البحث العلمى الذى مارسه من قبل ، كما تتسم بقوة ملكته القانونية فى المحاجة التى استفادها من عمله بالمحاماة ، وكذلك بقوة وحرارة الكتابة التى تعبر عن وجهة خاصة كما تمرس بذلك فى الصحافة الحزبية ، ولذا نجده يقول : « لعلى أكون أدنى إلى الحق إذا ذكرت أنى بدأت هذا البحث فى العربية على الطريقة الحديثة ، وقد تأخذ القارئ الدهشة إذا ذكرت ما بين حياة محمد وبين الطريقة الجديدة من شبه قوى ، فهذه الطريقة تقتضيك إذا أردت بحثا أن تمحو من نفسك كل رأى وكل عقيدة سابقة ، وأن تبدأ بالملاحظة والتجربة ثم بالموازنة والترتيب ثم بالاستنباط القائم على هذه المقدمات العلمية . وهذه الطريقة العلمية هى أسمى ما وصلت إليه الإنسانية فى سبيل تحرير الفكر ، وهى مع ذلك طريقة محمد وأساس دعوته[٢] .

وبهذا الأسلوب العلمى ، ومن أجل تلك الدوافع ، مضى هيكل يدفع حملات المبشرين عن الإسلام وعن روح الشرق ، فيكتب فى ملاحق السياسة التى كانت تصدر لهذا الغرض — بعد تعطيل السياستين اليومية والأسبوعية — سلسلة مقالات تتسم بهذا الطابع العلمى ، وتدور فى فلك الدفاع عن الإسلام والكشف عن الروح الخالدة فيه .

ومن هذه المقالات :

حول حياة محمد[٣] .

كيف ولماذا أكتب حياة محمد[٤] ؟

أثر المستشرقين فى البحث الإسلامى[٥] .

بين مصر وبلاد الشرق العربى[٦] .

الاجتهاد والتقليد .. إلخ[٧] .

ومن ذلك ما كتبه عن كتاب « وجهة الإسلام » الذى ألفه : « جب »

---

(١) ، (٢) هيكل : حياة محمد ص ١٥٠

(٣) ملحق السياسة : فى ٨ أبريل ١٩٣٢

(٤) ملحق السياسة : فى ١٣ مايو ١٩٣٢

(٥) ملحق السياسة : فى ٢٣ مايو ١٩٣٢

(٦) ملحق السياسة : فى ١٧ سبتمبر ١٩٣٣

(٧) ملحق السياسة : فى ٧ يناير ١٩٣٣

و« ماسينيون »و« كامبفاير » و« فرار »[1] . وهؤلاء جميعا هم كبار المستشرقين فى أوربا — على حد تعبير هيكل — وقد تولى « جب » نشر هذا الكتاب بوضع مقدمته وخاتمته التى حاول فيها تصوير اتجاه الشعوب الإسلامية فى هذا العصر . أما « ماسنيون » فقد كتب عن شعوب شمال أفريقيا فيما عدا مصر والشرق العربى وتركيا وفارس وأفغانستان وكانت الهند الإسلامية موضع دراسة اللفتنانت كولونيل فرار ، كما كانت إندونيسيا موضع بحث « برج » . وقد « تعاون هؤلاء الأساتذة جميعا فى دراسة العوامل والاتجاهات التى تبدو وتعمل فى الممالك الإسلامية ، وأرادوا على ضوء دراستهم ومباحثهم أن يصوروا موقف الإسلام من أوربا وموقف أوربا من الإسلام ، وما يجب أن تكون صلات الفريقين فى المستقبل بعد أن وصفوا ما كانت عليه فى الماضى »[2] .

ويرى هيكل أن هذا الكتاب سياسى يقوم على أسس من البحث العلمى« وأنت لذلك يجب إذا قرأته أن تقرأه بما يجب من حذر السائر فى مسالك السياسة ، ومن سكينة المطمئن لنزاهة مباحث العلم ويجب عليك كذلك أن تعمل للاستفادة منه كمسلم وكشرق فى مثل الغاية التى وضع لها »[3] .

.ويخلص هيكل من عرض الكتاب ونقده إلى أن الإسلام لم يكن دينا وعبادة وكفى ، منذ اللحظة الأولى ، ولكنه سرعان ما كان ثقافة وحضارة تكونت على أسسه وأصوله التى توطدت فى حياة محمد بخير ما توطدت لحضارة ولثقافة أسسها وأصولها الأولى . لذلك كان طبيعيا أن تتغذى الحضارة الإسلامية وأن تتغذى الثقافة الإسلامية من كل ما غزوا من ميادين البحث والعلم ، على أنه كان كقوى الحياة السليمة دائم النمو ، دائم النشاط ، لا يستقر ولا يهدأ ، بل يريد دائما جديدا يهضمه ويتمثله ليلفظ قديما لم يبق صالحا لدرك الغاية التى ترمى الأصول والأسس لإدراكها . وفى مقدمة ما ترمى هذه الأصول والأسس له — عند هيكل — تحرير الفكر من قيود المادة ، وتصوير العالم فكرة لا آلة ، والعمل للاستزادة من معرفة العالم لزيادة الاتصال به وحسن تمثل فكرته . والغاية التى يرمى الإسلام لها درك كمال النفس فى حسن اتصالها بالله ، وإسلامها له إسلاما صحيحا . وهذا وذاك لا يتحققان إلا بتحقق المعرفة فى أسمى ما تستطيع عقولنا وعواطفنا وأفئدتنا وقلوبنا أن تصل إليه[4] .

---

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) ملحق السياسة : فى ١٤ أكتوبر ١٩٣٣

ويأخذ هيكل على قول جب[1] : ظل علماء الإسلام يعلمون الناس مدى عشرة قرون تباعا — وجوب الإذعان للسلطة سواء كانت هذه السلطة شرعية أم مغتصبة، وقوى المتمسكون هذا الدرس فى النفوس بصورة لا تحتل الريب. وتبدى الجمود السياسى وكأنه متأصل فى الشعوب الإسلامية حتى غزاه الغربيون الذين لاحظوا عظيم تحمل المسلمين للضغط وسوء الحكم إلى العقيدة القدرية فى الإسلام.» ويرى هيكل أن قول جب هذا لا ينصف الإسلام حين يعزو إليه أى حظ من حظوظ هذه القدرة التى أدت بشعوبه إلى الاستكانة، فالإسلام لا يدعو للإذعان إلى أحد إلا الله. والقرآن الكريم أعظم الكتب السماوية دعوة لطاعة الوالدين ورضاهما، يقول فى صدد الكلام عنهما: ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا ﴾[2]. فإذا كان ذلك شأن الوالدين فما بالك بمن يجاهدك لما ليس لك به علم، وأن تصل من الخضوع له حتى تجعله فى السلطان لله شريكا. إن أقل ما يأمر به الإسلام فى هذا الظرف الثورة عليه وتحطيمه وتحطيم تعاليمه. فأما ما جاء بعد ذلك من خضوع واستسلام، فإنما كان أثرا لهذا الانقلاب النفسى فى تصوير أساس الحكم فى الإسلام[3].

وينتهى هيكل من ردوده على المستشرقين إلى أن التبشير ينال أى نجاح أكثر من إثارة الشعوب الإسلامية عليه، وعلى أن الاستعمار لن يكون من أثره إلا إثارة الكراهية والمقت فى قلب الشرق وفى قلب العالم الإسلامى للغرب وحضارته المادية التى هوت بأساسها حرية العقل إلى صور من الأدب ومن الموسيقى ومن الرقص، ومن ألوان الحياة والترف تدل على هذه الحضارة قد آذنت بالأفول، وأنها تخطت جانب الصعود إلى جانب الانحدار والتدهور[4].

ويرى هيكل أن الذين يقومون بأمر الصحف فى الشرق ويؤيدون هذه الأفكار الثائرة على الغرب وعلى استعماره وتبشيره، كثرتهم المساحقة — ومنهم هيكل — من الذين تعلموا علوم الغرب وكانوا يبشرون بحضارته» ومن الذين يؤمنون وما يزالون بأن الأساس الذى قامت عليه حرية العقل والتفكير وحرية البحث العلمى بحثا جامعيا منظما، هو خير أساس تقوم عليه حضارة، على أن لا ينكر هذا الأساس حاجات الروح

(١) ملحق السياسة : فى ١٤ أكتوبر ١٩٣٣

(٢) لقمان : ١٥

(٣)، (٤) ملحق السياسة : فى ١٤ أكتوبر ١٩٣٣

للاتصال بالعالم على أنه فكرة لا على أنه آلة ، وعلى أن لا ينكر كذلك على العاطفة وعلى وحى النفس وإلهام الفؤاد سلطانهما فى الحياة ، وعلى أن ينظر إلى العالم على أنه كل له وحدته العليا ، لا على أنه كم مادى يستطيع العقل أن يصل إلى كنه كل ما فيه بالتحليل والتشريح وبأدوات البحث العلمى الناقصة غاية النقص ما تزال »[١] .

ويرجع هيكل هذا الاتجاه الحديث الذى تأصل فى نواح كثيرة فى الحياة الإسلامية ، إلى الثورة على الجمود والتقليد الأعمى ، وعلى الخرافات والأوهام القديمة ، وعلى هذا الازدراء بالعقل الإنسانى وبروحيته مما امتازت به المدرسة العتيقة التى كانت سببا فى تدهور الإنسان وانهيار الشعوب الإسلامية[٢] . وليس أدل على ذلك من ملاحظة « جب » وزملائه من أن كثيرين من الشباب ــ منهم هيكل ــ الذين حملوا ألوان الحضارة الغربية وأخذوا يبشرون بها ، قد عاد الكثيرون منهم مما يشعرون شعورا قويا صادقا بأنهم فى حاجة إلى أكثر مما تمدهم الحضارة الغربية به ، وأنهم لذلك يجب أن يلجأوا إلى تراث السلف من المسلمين لالتماس ما ينقص هذه الحضارة الجديدة ، وزادهم شعورا بهذا النقص أن رأوا الفكرة القومية تقوم فى الغرب على نضال اقتصادى عنيف لا يعرف هوادة ولا يقف فى وجهه اعتبار من قواعد الخلق . وقد زادت الحضارة التى كانت وما تزال مظهر هذه الحضارة بآلات الحرب بشاعة وقسوة ، فهل ترى يجد العالم الإسلامى فى تراث الماضى ما يشفى غلة روحه مما عجزت الحضارة الغربية عن أن تقوم به ، وما يقيم حضارة جديدة ليس فيها هذا الجشع المادى[٣] ؟

إن هذا التراث قد اختفى تحت طبقات وطبقات من أباطيل عصور الانحلال الذى أصاب العالم الإسلامى قرونا متواصلة . ولذلك يدعو هيكل رجال العالم الإسلامى إلى العمل على إزاحة أكداس هذه الطبقات ، وأن يعيدوا إلى الوجود فى إحدى صور الوجود ــ وعلى طريقة علمية صحيحة ــ ما يشتمل عليه هذا التراث الذى غزا العالم وغذاه بأدوات الحضارة أجيالا وقرونا طويلة[٤] .

ويستشرف هيكل آفاق المستقبل حين يتم ذلك ، حيث يتاح للعالم الإسلامى بموقعه الجغرافى بين الغرب والشرق وبين المسيحية والديانات الآسيوية .. أن يمد يدا إلى ناحية ، ويدا إلى الأخرى ، ليرتفع بهؤلاء وأولئك إلى ميادين الحضارة الصحيحة . الحضارة التى تدرك وحدة الوجود على وجهها الصحيح .. الحضارة التى تقوم على أساس الإخاء

---

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) ملحق السياسة : فى ١٤ أكتوبر ١٩٣٣

وتقول إن المرء لا يكمل إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ... الحضارة التى لا تعرف إسلاما لغير الله ، ولا تعرف للحق حدودا ولا لحرية العقل قيودا »[1] .

وخلاصة القول .. إن هذه الرؤيا العلمية فى الدفاع عن الإسلام عند هيكل ، والتى تجلت فى أتم صورتها على أثر حوادث شغلت الرأى العام فى الصحافة المصرية ، ترتبط — كما قدمنا — بالروح المصرية التى تفرعت حتى شملت الأسس والدعامات والأصول التى تستند إليها الشخصية المصرية ، صار هيكل رويدا رويدا أكبر مدافع عن مكونات الأدب والفكر والثقافة والعقيدة المرتبطة بأرض مصر ، وسخر قلمه وصحافته ومنطقه لدفع كل ما يمس هذا الكيان بسوء . كما أوقف معظم جهوده لبث روح الإيمان والثقة فى نفوس أبناء الشرق العربى ، وأخذ على عاتقه مهمة استيقاظ المشاعر واستنهاض الهمم لدى الشباب الحائر الموزع الأحاسيس ، على النهج الذى دعا رجال العالم الإسلامى إليه .

وفى ذلك يقول بعد طول التنقيب والدرس أن « من يريد أن يفهم حضارة مصر بعد ألف سنة ، ومن يريد أن يفهم حضارة الشرق بعد ألف سنة ، لا غنى له عن أن يرجع إلى كل العهود التى سبقت هذه الحضارة حتى يصل إلى مصر الفرعونية ، وإلى ما قبل مصر الفرعونية إن كشف التاريخ عن شىء كان قبلها ... فإن لقاء الحضارات يجعل منها وحدة أقوى من كل وحدة تدور بخاطر إنسان .. وحدة روحية قوية تنتظم الحاضر والمستقبل وتدفع الناس إلى حضارة تتضاءل أمامها الحضارات التى عرفت حتى اليوم ، لأنها تكون حضارة أوسع أفقا ، وأغزر مادة ، وأغنى بماضيها العريق الأصيل[2] .

طه حسين والسيرة العطرة :

وفى تقديرنا أن هذه الظروف العامة هى التى أملت على العقاد وطه حسين وغيرهما من الكتاب اتجاهاتهم الجديدة فى معالجة السيرة النبوية ، وكان لكل منهم منهجه ، فطه حسين فى « على هامش السيرة » يصرح بأنه لم يكتب فصوله للعلماء والمؤرخين ، ولم يرد العلم والتاريخ .. وإنما هى فصول رأى الخير فى نشرها .

« فهى ترد على الناس أطرافا من الأدب القديم قد أفلتت منهم وامتنعت عليهم .. وإنك لتلتمس الذين يقرأون ما كتب القدماء فى السيرة وحديث العرب قبل الإسلام فلا تكاد وتظفر بهم .

---

(١) ملحق السياسة : فى ١٤ أكتوبر ١٩٣٣ (٢) ملحق السياسة : فى ٢٩ سبتمبر ١٩٣٣

وقد كان لقضية التبشير أثرها الكبير فى اتجاه طه حسين إلى كتابة السيرة النبوية، شأنه فى ذلك شأن هيكل والعقاد وغيرهما، نذكر من ذلك أن طه حسين قد فتح فى « كوكب الشرق » حملة عنيفة اشترك فيها رجال الدين ورجال الفكر معا، وكتب فى مقاله الرئيسى عشرات المقالات فى مقاومة التبشير(١).

وفى تقديرنا أن مقاومة المفكرين المصريين لحملات التبشير، كانت سببا مباشرا فى تدعيم اتجاهاتهم الإيجابية التى أدت إلى دراسة السيرة النبوية، وتعددت بهم هذه المقاومة إلى أن حوكم طه حسين وعبده حسن الزيات رئيس تحرير « كوكب الشرق » ومحمد حسين هيكل وحفنى محمود من (السياسة)، وقدر عليهم جميعا بغرامات مالية، وقضى كذلك بتعطيل « السياسة » شهرًا.

وما أقرب الشبه بين هذه الصورة المعاصرة فى الحضارة الطباعية وأثرها على الكتابة فى السيرة النبوية، والصورة القديمة فى حضارة التدوين عندما اشتدت « وطأة الصراع بين الإسلام والمسيحية على أرض الأندلس، فقد رأى علماء هذه البلاد فى غيرتهم على دينهم ووطنهم أن يبصروا مواطنيهم بالعبر الجليلة التى يمكن أن يستوحوها من سيرة النبى الكريم وجهاد صحابته، إذ كان فى ذلك شحذ للهمم المتقاعسة، وتقوية للعزائم الخائرة. ولعل من خير نماذج هؤلاء العلماء أبا الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاشى البلنسى (٥٦٥ — ٦٣٤) شيخ علماء شرق الأندلس فى القرن السادس الهجرى.. وكان من أئمة الحديث والفقه والتاريخ والأدب، وله فى كل تلك العلوم إنتاج خصب يشهد بتجرده للعلم. على أنه لم يقصر عمله على هذا الجهد العلمى العظيم، بل كانت له مشاركة فعالة فى أمور بلده، فقد ولى الخطبة بالمسجد الجامع ببلنسية، وكان دائم السعى فى إصلاح أحوال المسلمين. واضطلع فى سبيل ذلك بسفارات عديدة جعلت له فى نفوس الشعب الأندلسى مكانة عالية، وحينما اشتدت وطأة حصار النصارى لبلدة بلنسية، كان لا يفتأ حاثا على الجهاد داعيا إلى توحيد الصفوف، بل إنه خرج على رأس عدد من المجاهدين لقتال الأعداء مع أنه كان يناهز السبعين من عمره، واشترك بنفسه فى معركة ضارية وقعت قريبا من بلنسية فى أنيشة، فاستشهد فى هذه الموقعة » مقبلا غير مدبر والراية بيده، وهو ينادى المنهزمين « أعن الجنة تفرون »؟ وكان ذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٦٣٤. وقد رثاه تلميذه العالم الأندلسى ابن الأبار بقصيدة رائعة منها:

---

(١) انظر: عبد العزيز شرف: طه حسين وزوال المجتمع التقليدى، ص ٢٢٦

سقى الله أشلاء بسفح أنيشة ... سوافح يزجيها ثقال الغمائم
وصلى عليها أنفسًا طاب ذكرها ... بطيب أنفاس الرياح النواسم
لقد صبروا فيها كراما وصابروا ... فلا غرو أن فازوا بصفو المكارم
وما بذلوا إلا نفوسا نفيسة ... تحن إلى الأخرى حنين الروائم

ولأبى المطرف بن عميرة وكان من تلاميذه أيضا مرثية أخرى له يقول فيها :

هربت إلى الله فى موطن ... على عاره حصل الهارب
تلقاك ربى برضوانه ... وجادك منه الحيا الساكب
وإن الذى نلت من قربه ... لأفضل ما يطلب الطالب
عليك السلام إلى غاية ... من الموت كل لها ذاهب(١)

وقد اقترنت قضية التبشير بتحامل بعض المستشرقين على نبى الإسلام ، ولكن تصدى قادة الفكر الإسلامى فى الحضارة الطباعية لمفترياتهم ، أدى إلى تصحيح الفهم عند المفكرين الغربيين المنصفين ، فوجدنا الدكتور ميشيل الحائك الأستاذ بالمعهد الكاثوليكى بباريس فى كتاب له بعنوان « المسيح إمام المسلمين » يقول : « إن هناك فرضا قاطعا على عنق المسيحيين ، وهو أن يقبلوا على تفهم الدين الإسلامى بإخلاص لمعتقد الغير ، وانفتاح على ما بينه وبين المسيحيين من قربى ، وإنه لا بد للمؤمنين بإله إبراهيم من أن يقفوا صفا واحدا للدفاع عن قضية الإيمان التى هى قضية الإنسان » .

وتأسيسا على هذا الفهم للحضارة الطباعية يمكننا أن نفسر لماذا نشط عدد من الكتاب المسلمين بعد الطهطاوى مثل هيكل وطه حسين والعقاد وأحمد أمين وشوكت التونى ومحمد جميل وعلى عبد الجليل راضى ومولانا محمد على وعبد العزيز خير الدين ومحمد أحمد جاد المولى ومحمد عزة دروزه ومحمد عبد المنعم خفاجى وخالد محمد خالد وعبد الحميد جودة السحار وعبد الرحمن الشرقاوى وتوفيق الحكيم وغيرهم ، إلى الكتابة فى السيرة النبوية .

يبدأ كتاب هيكل : « حياة محمد » بتعريف « لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى » ، وفى تقديرنا أن هذا التقديم بقلم الشيخ المراغى له دلالته ، ذلك أن الشيخ المراغى كان رئيسا « لجماعة الدفاع عن الإسلام » التى اتخذت مواقف إيجابية فى

(١) د . محمود على مكى : المرجع السابق ، ص ١٠٦

مقاومة التبشير[١]، وقال عنها طه حسين إنها « أقرت الأمور فى نصابها، واصطنعت صراحة لا تدع سبلا إلى الغموض، وحزما لا يمكن أن يتهم معه بالضعف أو الفتور »[٢].

وقد تحدث الشيخ المراغى فى تقديمه لكتاب هيكل عن طريقة البحث العلمى التى توخاها المؤلف، وقال عنها إنها « تقتضيك إذا أردت بحثا أن تمحو من نفسك كل رأى وكل عقيدة سابقة فى هذا البحث، وأن تبدأ بالملاحظة والتجربة، ثم بالموازنة والترتيب، ثم بالاستنباط القائم على هذه المقدمات العلمية » ثم يقول « إن هذه الطريقة العلمية هى أسمى ما وصلت إليه الإنسانية فى سبيل تحرير الفكر، وها هى ذى مع ذلك طريقة محمد وأساس دعوته ».

ويرى الشيخ المراغى أنها طريقة القرآن، وما كانت معجزة محمد « إلا القرآن وهى معجزة عقلية » يستشهد عليها بقول البوصيرى:

لم يمتحنا بما تعيا العقـــول به حرصا علينا فلم نرتب ولم نهم

ويقول: إن الإمام الغزالى قد جرى على الطريقة نفسها، وقد قرر فى أحد كتبه أنه جرد نفسه من جميع الآراء ثم فكر، وقدر ورتب، ووازن وقرب وباعد وعرض الأدلة وهذّبها وحللها، « ليهتدى إلى ما اهتدى إليه من آراء، وليهتدى بعد ذلك كله إلى أن الإسلام حق » وإذا كان « ماكلوهان » عالم الإعلام الشهير يذهب إلى أن أعظم الهدايا التى قدمتها الطباعة للإنسان هى قدرته على التجرد. ومنذ عصر النهضة والعلم يمجد ويعظم هذه القدرة، فإن الطباعة لم تحقق ذلك إلا عن طريق تحقيق التواصل بين الثقافتين الإسلامية والغربية، فأفادت الثقافة فى العالم من هذا المنهج الذى تحدث عنه الشيخ المراغى حين يقول: « إن العلم والكشف عن سنن الوجود وعجائبه سيكون نصير الدين، وسيقرب إلى العقل الإنسانى ما كان غامضا مبهما، وما كان فوق طاقة العقل إدراكه من قبل مصداقا لقوله تعالى: ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ﴾ فقد قربت الكهرباء وما أنشأ عنها من المخترعات إلى العقل فهم إمكان تحول المادة إلى قوة وتحول القوة إلى مادة، وانتفع الدكتور هيكل بشىء من هذا فى تقريب قصة الإسراء فأتى بشىء طريف ».

وفى العصر الطباعى ترتبط الثورة التى حدثت فى مجال التعبير ارتباطا وثيقا بالقوى

---

(١) عبد العزيز شرف: المرجع السابق، ص ٢٣١ وما بعدها.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٣٢

القابلة للتمدد ، كما يقول ماكلوهان . ففى عهد المخطوط كان دور المؤلف غامضا ، شأنه فى ذلك شأن « المنشد المتجول » ، وكان التعبير الذاتى لا يثير أى اهتمام ، غير أن الطباعة قد أوجدت وسيلة كانت تسمح بالكلام بصوت عال وجهورى ، وبالتوجه للعالم ذاته ، كما كانت تتيح التجوال فى عالم الكتب واكتشافه . وكانت هذه الكتب — حتى ذلك الوقت — مغلقا عليها فى العالم التعددى لصوامع الأديرة . لقد أضفت حروف الطباعة على الإنسان شخصية قوية، وأعطته شجاعة التعبير » .

وفى عصر الكهرباء فإن فصل الفكر والشعور — كما يقول ماكلوهان أيضا — يبدو لنا غريبا غرابة تقسيم المعرفة فى المدارس والجامعات . ولقد كانت القدرة على فصل الفكر عن المشاعر .. هذه القدرة على الفعل دون التفاعل التى انتزعت الإنسان فى حياته الخاصة ، كما فى حياته الاجتماعية ، من الروابط الأسرية الوشيجة للعالم القبلى .

وقد أدرك طه حسين هذا الأثر الطباعى حينما تصدى للكتابة فى السيرة النبوية . يتضح ذلك من قوله :

« وأنا أعلم أن قوما سيضيقون بهذا الكتاب لأنهم محدثون يكبرون العقل ولا يثقون إلا به ، ولا يطمئنون إلا إليه ، وهم لذلك يضيقون بكثير من الأخبار والأحاديث التى لا يسيغها العقل ولا يرضاها . وهم يشكون ويلحون فى الشكوى حين يرون كلف الشعب بهذه الأخبار وجده فى طلبها وحرصه على قراءتها والاستماع لها، وهم يجاهدون فى صرف الشعب عن هذه الأخبار والأحاديث واستنقاذه من سلطانها الخطر المفسد للعقول . هؤلاء سيضيقون بهذا الكتاب بعض الشىء، لأنهم سيقرأون فيه طائفة من هذه الأخبار والأحاديث التى نصبوا أنفسهم لحربها ومحوها من نفوس الناس . وأحب أن يعلم هؤلاء أن العقل ليس كل شىء، وأن للناس ملكات أخرى ليست أقل حاجة إلى الغذاء والرضا . من العقل ، وأن هذه الأخبار والأحاديث إذا لم يطمئن إليها العقل ولم يرضها المنطق ، ولم تستقم لها أساليب التفكير العلمى ، فإن قلوب الناس وشعورهم وعواطفهم وخيالهم وميولهم إلى السذاجة واستراحتهم إليها من جهد الحياة وعنائها ، ما يحبب إليهم هذه الأخبار ويرغبهم فيها ، ويدفعهم إلى أن يلتمسوا عندها الترفيه على النفس حين تشق عليهم الحياة . وفرق عظيم بين من يتحدث بهذه الأخبار إلى العقل على أنها حقائق يقرها العلم وتستقيم لها مناهج البحث ، ومن يقدمها إلى القلب والشعور على أنها مثيرة لعواطف الخير صارفة عن بواعث الشر ، معينة على إنفاق الوقت واحتمال أثقال الحياة وتكاليف العيش » .

وفى تقديرنا أن طه حسين بهذا المنهج كان مبشرا بحضارة إعلامية جديدة ، هى الحضارة الإذاعية مسموعة ومرئية .

الباب العاشر

الإعلام الإسلامى والحضارة السمعية ــ المرئية

وفى هذه الحضارة الجديدة التى تشمل السينما والراديو والتليفزيون نجد أن الجمهور يشعر بنوع من المشاركة ، والاقتراب الشخصى ، والإحساس بالواقعية التى تدنو كثيرا من الاتصال الشخصى المواجهى . يضاف إلى ذلك أن الوسائل الإذاعية تصل إلى جماهير عريضة للغاية ، من الكبار والصغار ، والمثقفين وقليلى الحظ من الثقافة ، والمتعلمين والأميين ، وهى جماهير ذات قابلية للاستهواء بسهولة . وقد وجد الباحثون أن الاستماع الإذاعى للعناصر البسيطة يساعد على التذكر أكثر من التعرض للقراءة ، ولكن هذا التعميم لا ينطبق إلا على المعلومات السهلة البسيطة فقط ، لأن الميدان الحقيقى للموضوعات الصعبة أو المعقدة هو المطبوعات . وكما كان جمهور الإذاعة يتكون عادة من ذوى الثقافة المتواضعة ، فإن قابليتهم للاستهواء تبدو مرتفعة .

ومن ناحية أخرى يلاحظ أن العناصر الإعلامية الإذاعية أقل تهيكلا فى بنيتها من العناصر الإعلامية التلفزيونية ، بمعنى أن الإذاعة المسموعة تعطى مجالا للتخيل والتصور والتفكير أكثر من الصورة التليفزيونية المكتملة . والإذاعة المسموعة أكثر انتشارا من معظم وسائل الإعلام الأخرى .. ولكن الاستماع الإذاعى يكون عادة استماعا عرضيا ، أو انه استماع بأذن واحدة ــ على حد قول البعض ، لأن المستمع يشغل نفسه عادة بأعمال أخرى بحيث يعتبر الصوت الإذاعى مجرد خلفية أو جو ترفيهى ، وبذلك لا يظفر بالانتباه والتركيز اللذين يظفر بهما الكتاب أو الصحيفة مثلا .

ويعلل دوب Doob سر القوة الإيحائية للإذاعة بأنها وسيلة سريعة النشر ، فهى تتفوق بذلك على الصحافة ومعظم وسائل النشر الأخرى .. وبذلك تنفرد الإذاعة بالسبق وأولوية النشر . والأثر الأول للخبر أو الرأى لا يمحى بسهولة كما تصعب معارضته(1) .

والواقع أن الإحساس الجمعى من أهم مميزات الإذاعة . فقد يستطيع المستمع أن يشارك فى البرامج فعلا ــ كما هو الحال بالنسبة لبعض البرامج الجماعية ــ أو أنه على الأقل

---

(1) د . إبراهيم إمام : الإعلام والاتصال بالجماهير ص ١٧٧ ــ ١٧٩

يحس وهو فى بيته أنه عضو فى جمهور كبير من المستمعين ، وهذا الإحساس الجمعى يعمق من القابلية للاستهواء . ولما كانت الغالبية العظمى من مستمعى الإذاعة من الأميين ومتوسطى الثقافة ، فإن الاستهواء يكون أسرع وأقوى أثرا — فلا غرابة إذن أن تلعب بعد ، ويتضح أيضا فى الحديث الإذاعى المأخوذ عن المقال ، والخبر الإذاعى المنقول عن الصحافة ، هذا الإعداد ، أو هذه الملاءمة للفنون الموجودة فى المجتمع لكى تصبح صالحة إذاعيا ، أو صالحة للنقل عن طريق الراديو ، هو فن الإذاعة(١) .

والمقصود هنا بكلمة الإذاعة ليس هو الاتصال اللاسلكى ، وإنما النشر المنظم بواسطة الراديو للموسيقى والأحاديث والدراما والفكاهة والنشرات الإخبارية وغيرها من المواد التى يمكن أن تتذوقها جماهير متفرقة مبعثرة من المستمعين ، سواء كانت هذه الجماهير أفرادا أو جماعات ، طالما أن لديها جهاز الاستقبال الصالح . والمقصود هنا بعبارة جهاز الاستقبال الصالح لا ينطبق على مجرد الصلاحية الهندسية ، إنما يمتد إلى صفات أخرى مثل رخص الثمن ، وسهولة الاستعمال ، وسهولة الحصول عليه(٢) .

على أن فن الإذاعة المسموعة يختلف عن غيره من الفنون ، وهو اختلاف ينبع من مميزاته وخصائصه التى ينفرد بها . فهو يختلف عن فن المسرح فى مشكلة الحضور ، فالحضور فى المسرح حضور مادى مباشر ، إذ يتجمع المتفرجون داخل المسرح لمشاهدة المسرحية .

ومن الموافقات أن يدخل الوطن العربى والإسلامى فى الحضارة الإذاعية فى نفس المرحلة التى شهدت ازدهار كتابة السيرة النبوية فى الحضارة الطباعية فى أعقاب حملات التبشير فى الثلاثينات ، حيث صدر مرسوم إنشاء الإذاعة الرسمية فى مصر فى سنة ١٩٣٢ ، وفى الساعة السادسة من مساء الحادى والثلاثين من مايو سنة ١٩٣٤ استمع الناس إلى صوت الإذاعة الرسمى .

ومن الموافقات كذلك أن هذه المرحلة شهدت المعالجات المسرحية للسيرة النبوية ، كما شهدت المعالجة القصصية لها عند طه حسين والحكيم ، وهذه المعالجة الدرامية هى التى هيأت للحضارة الجديدة أن تستلهم السيرة النبوية فى أعمال فنية تقدم من خلال الراديو والتليفزيون ، بل والسينما كذلك ، لا سيما وأن هذه الوسائل الثلاث قد اعتمدت على المسرح فى بداياتها قبل أن تستقل كل وسيلة بخصائصها المميزة ، وكانت

(١) ، (٢) المرجع السابق ، ص ٤٦

السينما هى أول هذه الوسائل الثلاث ، وبظهورها تحطّم ذلك الحاجز الفراغى الذى كان يتكون من لبنات مدى ألفين من السنين ، وكان فى وسع العدسة المتفحصة المستقصية أن تتلمس أدق العواطف وأشدها إرهاقا وتكبرها فوق شاشة واسعة ، كما بلغ فن الممثل فى تعبيره بقسمات وجهه واستعماله وقفة التردد مستوى جديدا رفيعا . أما جمهور النظارة فظل كما هو .. محتشدا إلى بعضه البعض ويستجيب لما يرى استجابة الجماعة الواحدة ، بيد أن الاستجابة الدورية بين الممثلين الأحياء وبين جمهور النظارة تلاشت واختفت ، ومن ثمة كان على الكاتب الدرامى أن يغير فى فنه الكتابى مرة أخرى(١) .

السينما والسيرة العطرة :

وقد استلهمت السينما السيرة العطرة ، وقدمت عددا من الأفلام التى عالجت السيرة النبوية سينمائيا ، مثل : « فجر الإسلام » و« انتصار الإسلام » الذى دار حول تعرض المؤمنين للأذى على أيدى الكفار ، وحياة المسلمين بعد الإسلام وتسامحهم ، وهى كما ترى صورة من صور السيرة النبوية قدمتها السينما ، التى قدمت صورة أخرى فى فيلم « هجرة الرسول » وفى « الشيماء » وغيره من الأفلام التى عالجت السيرة النبوية معالجة سينمائية .

الإذاعة والسيرة النبوية :

ثم ظهرت وسيلة الإذاعة المسموعة ، ومن هنا نشأ مسرح التخيل الذهنى ، وتفتت أخيرا جمهور القرن العشرين إلى أفراد أصبحت أذهانهم هى المنصة التى يكتب لها المؤلف الدرامى ، كما أصبحت أصوات الآلات وأصوات الممثلين والموسيقى حافزها المستثير . واكتشف الكاتب الدرامى فنا كتابيا جديدا للربط بين الفعل والشخصيات فى تمثيلياته وبين الأذن الإنسانية المدركة(٢) .

فإذا كان مسرح الحكيم قد ذهب النقاد إلى أن الطابع الذهنى أغلب عليه ، فإن ذلك يعنى أن الحكيم كان مبشرا بحضارة الإذاعة التى تتوسل إلى « ذهن » المستمع ، كما فعل طه حسين فى على هامش السيرة حين بشر بحضارة التليفزيون ، ولعل فى ذلك ما يفسر الاهتمام المبكر عند الحكيم بمسرحية « محمد » حيث يذكر الدكتور إسماعيل أدهم

---

(١) روجزم بسفيليد (ترجمة درينى خشبة) فن الكتاب المسرحى ص ٤٦

(٢) المرجع نفسه ، ص ٤٧

والدكتور إبراهيم ناجى أن الحكيم بدأ يفكر فى كتابة السيرة النبوية فى أسلوب مسرحى عام ١٩٢٧ حين كان بفرنسا ، غير أنه لم يشرع فى الكتابة إلا فى عام ١٩٣٤ حينما طلب الأستاذ أحمد حسن الزيات صاحب « الرسالة » إليه أن يكتب فصلا حول السيرة لينشر فى عددها الممتاز الذى تصدره فى مستهل كل عام هجرى . فرجع الحكيم إلى سيرة ابن هشام فى تفسيرها للسهيلى ، وطبقات ابن سعد ، وتاريخ الطبرى ، وكتب للرسالة فصلا من حياة الرسول فى قالب تمثيلى صادف نجاحا عند قراء الرسالة ، الأمر الذى شجعه على مواصلة كتابة السيرة النبوية فى أسلوب مسرحى نشر فى فبراير عام ١٩٣٦ .

مسرح الحكيم وحياة محمد :

ومن ذلك يتضح أن مسرحية « محمد » للحكيم ترتبط بظهور الإذاعة المسموعة فى مصر من جهة ، كما ترتبط بالملابسات العامة التى دفعت قادة الفكر إلى الاهتمام بالسيرة من جهة أخرى ، وفى مقدمة هذه الملابسات أحداث التبشير .

يقول الحكيم :

« قرأت لسنوات خلت قصة فولتير التمثيلية « محمد » ، فخجلت أن يكون كاتبها معدودا من أصحاب الفكر الحر ، فقد سب فيها النبى سبا قبيحا عجبت له وما أدركت له علة ... لكن عجبى لم يطل فقد رأيته يهديها إلى البابا بنوا الرابع عشر بهذه العبارات :

« فلتستغفر قداستك لعبد خاضع من أشد الناس إعجابا بالفضيلة ، إذا تجرأ فقدم إلى رئيس الديانة الحقيقية ما كتبه ضد مؤسس ديانة كاذبة بربرية . وإلى من غير وكيل رب السلام والحقيقة أستطيع أن أتوجه بنقدى قسوة نبى كاذب وأغلاطه ، فلتأذن لى قداستك أن أضع عند قدميك الكتاب ومؤلفه ، وأن أجرؤ على سؤالك الحماية والبركة . وإنى مع الإجلال العميق أجثو وأقبل قدميك القدسيتين » (فولتير ١٧ أغسطس ١٧٤٥) .

وعلمت فى ذلك الحين أن روسو كان يتناول بالنقد أعمال فولتير التمثيلية ، فاطلعت على ما قاله فى قصة « محمد » علنى أجد ما يرد الحق إلى نصابه ، فلم أر هذا المفكر الحر أيضا يدفع عن النبى ما ألصق به كذبا وكأن الأمر لا يعنيه ، وكأن ما قيل فى النبى لا غبار عليه ولا حرج فيه ، ولم يتعرض للقصة إلا من حيث هى أدب وفن ...

ولقد قرأت بعد ذلك رد البابا بنوا على فولتير ، فألفيته ردا رقيقا كيسا لا يشير بكلمة واحدة إلى الدين ، وكله حديث فى الأدب . فعظم عجبى لأمر فولتير ، وسألت نفسى

طويلا : أيستطيع عقل مثقف كعقل هذا الكاتب العظيم أن يعتقد ما يقول .. ؟ دين تبعه آلاف الملايين من البشر على مدى الأجيال ، هو فى نظره حقًا دين كاذب ؟ ومبادئ إنسانية كالتى جاء بها الإسلام هى عنده حقا مبادئ بربرية ؟ أم أنه التملق والزلفى والنفاق ؟ وأن الزمن والتاريخ يضعان أحيانا أقنعة زائفة على نفوس تزعم أنها خلقت للدفاع عن حرية الفكر ..

منذ ذلك اليوم وأنا أحس كأنى فجعت فى شىء عزيز لدى : الإيمان بنزاهة الفكر الحر . ولقد كنت أحيانا ألتمس الأعذار لفولتير وأزعم أنه قال ما قال لا عن مجاملة أو ملق ، بل عن عقيدة وحسن طوية استنادا على علم خاطئ بأخبار النبى ، ولكن كتابه إلى البابا كان يتهمه اتهاما صارخا لا يدع مجالا للشك فى دخيلة أمره .

إنى قرأت لفولتير كتبا أخرى كانت تكشف عن آراء حرة حقا فى مسائل الأديان ، وتنم عن روح واسعة الآفاق تكره التعصب الذميم ، فما باله عندما عرض لذكر « محمد » والإسلام كتب شيئا هو التعصب بعينه ، تعصب لدينه ، ذهب فيه إلى حد السجود وتقبيل الأقدام ، لا لرب العزة والخلق بل لبشر هو رئيس الكنيسة التى ما أرى أن فولتير كان فى ذات يوم خدامها المخلصين ؟!.

هى الأطماع التى كانت تدفع فولتير فيما أرى إلى التمسح بأعتاب الملوك والبابوات ، ولقد يدفع ثمنا لذلك أفكاره الحرة أحيانا .. منذ ذلك الحين وفولتير عندى متهم ، ولن أبرئه أبدا ولن أعده أبدا من بين أولئك العظام الذين عاشوا بالفكر وحده وللفكر ، وأحسب أن التاريخ العادل سوف يحكم عليه هذا الحكم ، فينتقم للحق بما افتراه على نبى كريم ظلما وزورا ..

على أن الذى يدعو إلى الدهش أكثر من كل هذا ، أن الشرق والإسلام وقفا من الأمر موقف النائم الذى لا يعى ولا يشعر بما يحدث حوله ، فلم أر كاتبا من كتاب الإسلام قام فى ذلك الوقت يدفع عن دينه هذا الهراء الذى قال فولتير ، ويقذف فى وجه هذا الكاتب بالحقائق الباهرة القاطعة ، أو أن مؤلفا وضع كتابا يبرز فيه شخصية النبى الخيرة العظيمة واضحة جلية ، لقد كان الشرق فى ليل هادئ بهيم لم تثر فيه حركة فولتير يومئذ ساكنا ، ولكن اليوم قد تغير الأمر ولاحت فى أفق الشرق خيوط الفجر ، وقام فى هذا القرن كتّاب يمجدون عقيدتهم ، وهم يعلمون أن فى ذلك تمجيدًا للحق وللشرق ، فإن المسألة ليست دين فقط ، إنما هى أيضا مسألة جنس وقومية ، وإذ تقول أوربا « الإسلام » فإنما تعنى فى غالب الأحيان « الشرق » . إن الحروب الصليبية فى حقيقتها لم تكن إلا

حرب الغرب على الشرق ، وأن الفتح الإسلامى عندما بلغ فرنسا وهدد أوربا لم يكن فى الواقع إلا حرب الشرق على الغرب . هذا المد والجزر بين الغرب والشرق يفهمه مفكرو الأوربيين تمام الفهم ، ويحسبون له الحساب ، ويعملون دائما على أن تكون الغلبة لهم آخر الأمر ، أو أن يطيلوا على الأقل أمد غلبتهم إن كان لا بد من تبدل الحال ومن دوران الفلك طبقا لناموس أعلى لا قبل لهم به .

فالدفاع عن شخصيتنا وعقيدتنا دفاع عن حياتنا ، وإن الكتابات التى توجه لهذا الغرض النبيل ينبغى أن يكون لها علينا حق المؤازرة والتعضيد ، وإنى لست بناقد منقطع للنظر فى أعمال المؤلفين وتقدير قيم ما يكتبون ، ولكنى أريد أن أشير إشارة سريعة إلى ثلاثة أساليب مختلفة من أساليب الكتابة اتجهت فى العصر الحديث إلى هذه الغاية ، كل فى دائرته .

ففى الكتابة الدينية : « الرد على هانوتو » للأستاذ الإمام محمد عبده ، فلقد نشر جابرييل هانوتو الكاتب والوزير الفرنسى يوما مقاله جاء فيها :

« قد أصبحنا اليوم إزاء الإسلام والمسألة الإسلامية ، اخترق المسلمون أبناء آسيا شمال القارة الإفريقية بسرعة لا تجارى ، حاملين فى حقائبهم بعض بقايا تمدين البيزنطيين « يونان الشرق » ثم تراموا بها على أوربا ، ولكنهم وجدوا فى نهاية انبعاثهم هذا مدنية يرجع أصلها إلى آسيا ، بل أقرب فى الصلة إلى المدنية البيزنطية مما حملوه معهم ، ألا وهى المدنية الآرية المسيحية ، ولذلك اضطروا إلى الوقوف عند الحد الذى إليه وصلوا ، وأكرهوا على الرجوع إلى أفريقية حيث ثبت فيها أقدامهم أحقابا متعاقبة »

ثم قال فى موضع آخر : « وقصر فريق منا بحثه وحكمه على ما شاهده من المناقضات والخلافات بين الدينين المسيحى والإسلامى ، فرأى فى الإسلام العدو الألد والخصم الأشد . قال المسيو كيمون فى كتابه « باتولوجيا الإسلام » : إن الديانة المحمدية جذام فشا بين الناس وأخذ يفتك فيهم فتكا ذريعا ، بل هى شلل عام وجنون ذهولى يبعث الإنسان على الخمول والكسل ، ولا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء ويدمن معاقرة الخمور ويجمح فى القبائح » .

أمثال هذا الكاتب يعتقدون أن المسلمين وحوش ضارية وحيوانات مفترسة « كالفهد والضبع » كما يقول المسيو كيمون ، « وأن الواجب إبادة خمسهم » كما يقول أيضا « والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة ، وتدمير الكعبة » ... وهذا أيضا قوله « وهو حل بسيط وفيه مصلحة للجنس البشرى .. أليس كذلك ؟ » ولكن قد برح عن

خاطر الكاتب أنه يوجد نحو ١٣٠ مليون مسلم، وأن من الجائز أن يهب هؤلاء « المجانين » للدفاع عن أنفسهم والذود عن بيضة دينهم .. إلخ إلخ.

فما ظهر هذا الكلام فى صحيفة المؤيد حتى قام الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده لساعته مجردا قلمه، وكتب نحو أربع مقالات هى أقوى ما قرأت دفاعا عن الإسلام وإظهارا الحقيقة مبادئه الخافية على أغلب الأوربيين .. وقد رد على هانوتو فيما أوردنا صائحا : « ما هذا التمدين الآرى الذى كانت عليه أوربا عندما انتقص أطرافها المسلمون ؟؟

« هل كانت تلك المدنية هى التسافك فى الدماء وإشهار الحرب بين الدين والعلم، وبين عبادة الله وبين الاعتراف بالعقل ؟ نعم، هذا هو الذى كان معروفا عند الغربيين وقت ما ظهر الإسلام ... » ماذا حمل الإسلام إلى أوربا، وما هى المدنية التى زحف عليهم بها فردوها ؟ زحف عليهم بما استفاد من صنائع الفرس وسكان آسيا من الآريين، زحف عليهم بعلوم أهل فارس والمصريين والرومانيين واليونانيين .. نظف جميع ذلك ونقاه من الأدران والأوساخ التى تراكمت عليه بأيدى الرؤساء فى الأمم الغربية لذلك التاريخ، وذهب به أبلج ناصعا بهر به أعين أولئك الغافلين المتسكعين الذين كانوا فى ظلمات الجهالة لا يدرون أين يذهبون.

« إنى أكيل لمسيو هانوتو إجمالا بإجمال، والتفصيل لا يجهله قومه، وكثير من منصفيهم لم يستطع إلا الاعتراف به.

« إن أول شرارة ألهبت نفوس الغربيين فطارت بها إلى المدنية الحاضرة كانت من تلك الشعلة الموقدة التى كان يسطع ضوؤها من بلاد الأندلس على ما جاورها، وعمل رجال الدين المسيحى على إطفائها مدة قرون فما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . واليوم يرعى أهل أوربا ما نبت فى أرضهم بعد ما سقيت بدماء أسلافهم المسفوكة بأيدى أهل دينهم فى سبيل مطاردة العلم والحرية وطوالع المدنية الحاضرة ».

ثم رد الإمام فى موضع آخر : « يجب على الباحث فى الإسلام أن يطلبه فى كتابه، كما يجب عليه أن يطلب آثاره .. والإسلام إسلام، والمسلمون مسلمون، ولو استشم مسيو « كيمون » الذى استشهد هانوتو بكلامه ريح العلم لما استفرغ ذلك القذر من فيه، ولا حاجة إلى الكلام فيه فسخافة رأيه وقلة أدبه تكفيه ...

« من أين أتى المسلمين وكيف دخل عليهم فى عقائدهم بالتشبيه، وفى عوائدهم بالتمويه ؟ وممن تعلموا الافتراس، وعمن أخذوا الضراء بالضهوات ؟ أنا أعلم ذلك وأهل العلم يعلمون، والله من ورائهم محيط ..

« اتبع المسلمون سنن من قبلهم شبرًا بشبر ، وذراعا بذراع ، حتى سقطوا فى مساقطهم ، وطارحوا الأوهام حتى انجروا إلى مطارحهم ، وباءوا بما كان لهم وما عليهم .

« حدثت فى الدين بدع أكلت الفضائل وحصدت العقائل ، وترامت بالناس إلى حيث يصب عليهم ما استفرغه « كيمون » .

« أما لو رجع المسلمون إلى كتابهم واسترجعوا باتباعه ما فقدوه من آدابهم لسلمت نفوسهم من العيب ، وطلبوا من أسباب السعادة ما هداهم الله إليه فى تنزيله على لسان نبيه ، ومهده لهم سلفهم وخطه لهم أهل الصلاح منهم ، واستجمعت لهم القوة ودبت فيهم روح الفتوة ، وكان ما يلقاه هانوتو وكيمون من دين صحيح شرا عليهما مما يخشونه من دين شوهته البدع .

« يرى كيمون أن يخلى وجه الأرض من الإسلام والمسلمين ويستحسن رأيه هانوتو لولا ما يقف فى طريق ذلك كثرة عدد المسلمين ، وبئسما اختارا لسياسة بلدهما أن يظهرا ضغنهما ويعلنا خطل رأيهما وضعف حلمها .

« أما فليعلم كل من يخدع نفسه ويمثل حلمهما أن الأسلام إن طالت به غيبة ، فله أوبة ، وإن صدعته النوائب فله نوبة ، وقد يقول فيه المنصفون من الإنكليز مثل « إسحق طيار » وهو قس ورئيس كنسية :

« إنه يمتد فى أفريقيا ومعه تسير الفضائل حيث سار ، فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره ، والشجاعة والإقدام من أنصاره » .

بهذا القلم وهذه المعرفة وهذا الذهن ، وقف رجل الإسلام الحديث محمد عبده يذود عن بيضته أمام عدوان جهابذة الفكر والقلم من الأوربيين ..

أما فى الكتابة الأدبية فأذكر « على هامش السيرة » للدكتور طه حسين ، ففى هذا الكتاب دفاع عن الإسلام كما يستطيع الأدب البحت أن يدافع . فهو لا يسلك الطريق المستقيم فى الكلام عن الإسلام ، ولا يلجأ إلى التدليل العقلى ، إنما يخلق جوا شعريا يحبب إلى النفس سيرة النبى وبيئته . وقد عمد الدكتور طه حسين إلى الأساطير ينسج منها هذا الجوّ الأدبى الجميل ، وتلك وسيلة الأدب والفن ، ومن ذا يقرأ هذا الوصف لبلاد النبى ولا تأخذه روعته ؟ :

« هناك دعت « آمنة » إليها من حضرها من نساء بنى هاشم ، فأسرعن إليها وقضين معها ليلة لا كالليالى ، أنكرن فيها كل شىء وأعجبن فيها بكل شىء ، أنكرن حتى أنفسهن ، فقد رأين ما لم ير أحد ، وسمعن ما لم يسمع أحد ، وأحسسن ما لم يحس به أحد .

ولم تكن آمنة أقلهن إنكارا وإكبارا وإعجابا — فقد كانت ترى وهى يقظة غير نائمة أن نورا ينبعث منها فيملأ الأرض من حولها، ويزيل الحجب عن عينيها . وكانت تنظر فترى قصور بصرى فى أطراف الشام، وكانت تنظر فترى أعناق الإبل تردى فى أقصى الصحراء، وكانت لا تتحدث إلى من حولها بما ترى مخافة أن ينكرن ما تقول، وأن يظن بها الظنون، وكانت هذه من صاحباتها لا تمد طرفها إلى شىء حتى تراه نورا كله لا ظلمة فيه، وإنما هو مشرق مضىء، أو هو الإشراق الخالص، وكانت هذه الأخرى من صاحباتها تنظر فإذا نجوم السماء تدنو من الأرض وتمد إليها أشعة قوية نقية باهرة ساحرة، وإنها لتدنو وتدنو حتى يخيل إلى الرائية أنها توشك أن تمسها وتقع عليها » .

لقد دافع طه حسين عن الإسلام فى كتابه « على هامش السيرة » مَوظِّفًا فنه الأدبى لهذا الغرض النبيل، فى إطار الظروف الخاصة بالتبشير والغزو الفكرى التى تعرضت لها مصر فى الثلاثينات .

أما فى الكتابة العلمية فها هو ذا كتاب « حياة محمد » للدكتور محمد حسين هيكل . ولو أنى أعتقد أن أسلوب الدكتور هيكل فى « حياة محمد » يدخل أيضا فى منطقة الكتابة الأدبية، فإن هذا الكتاب يعتبر فى نظرى من كتب « التراجم والسير » التى يضعها الكتاب الأدباء، لا من البحوث العلمية التى يؤلفها المؤرخون العلماء ويعنون فيها بإضافة شىء جديد إلى العالم المعروف، أو استكشاف وثيقة من الوثائق التحريرية أو الآدمية، أو تحقيق مصدر من المصادر . على أن كتاب هيكل هو بلا نزاع أول سيرة نبوية خليقة أن تمثل تطور العقلية الإسلامية فى هذا العصر الحديث ...

وما أشق انتظارنا هذه الأجيال الطويلة لهذه السيرة الحديثة نضعها إلى جانب سيرة ابن هشام والسيرة الحلبية وطبقات ابن سعد وغيرها من السير القديمة، حتى يستطيع عصرنا أن يجهر بأنه فعل شيئا من أجل الإسلام ...

ولو أن الأستاذ الشيخ محمد عبده عاش حتى اليوم، لاستقبل هذا الكتاب بمثل ما استقبله به الأستاذ الشيخ المراغى، فرحا بهذا القلم الجديد ينهض لخدمة الحق والإسلام .

ولقد ذكرت هذه الكتب وهذه الأساليب الثلاثة بالذات، لما رأيته فيها من نظرة جديدة إلى محمد والإسلام . نظرة ملؤها الإكبار الصادر عن فكر حر لا عن تعصب .

ولقد جاء فى كتاب هيكل : « لما جهد المسلمون عطشا أثناء مسيرة جيش العسرة إلى غزوة تبوك ثم أمطرتهم السماء، ذهب بعضهم إليه « إلى النبى » يقول إنها معجزة،

فكان جوابه : (إنما هى سحابة مارة) ، ولما كسفت الشمس يوم اختار الله ابنه إبراهيم إلى جواره ، قال الناس : « إن هذا الكسوف معجزة » فكان جوابه : (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته) .

هذا جواب محمد الذى قيل إنه نبى كاذب ! فهل يمكن أن يكون هذا جواب نبى كاذب ؟

إن فى كتاب هيكل صفحات تصلح ردا بليغا على فولتير . إن محمدا عليه السلام هو أعظم من فهم حقيقة النبوة ، ووعى معنى الحقيقة العليا ، وأدرك أن أكبر معجزة فى هذا الكون هى أنه لا يوجد فى الكون معجزات ، وأن كل شىء يسير طبقا لنظام دقيق . وإذا قيل نظام قيل قانون ، وإذا قيل قانون قيل عقل مدبر ، وهذا العقل واحد تبدو سمته فى إدارة الأجسام غير المحدودة فى العِظَم كما تبدو فى إدارة اليد العلوية وعين أثرها فى كل شىء ، يد واحدة لا تتغير وقانون واحد لا يتغير .

إن محمدا كما يبدو فى وصف الدكتور هيكل قد تأمل الطبيعة كثيرا ، وفكر مليا فى نظامها العجيب ، فكشف عن بصيرته وبصره ، فامتلأ قلبه بالله ، كما اقتنع عقله بوجوده ، فجاء دينه دينا كاملا ، صادقا فى نظر القلب والعقل معا . ولئن كان على الأرض نبى أحب العلم ولم يخش دينه العلم ، ولم يضطهد العلماء ، فهو « محمد » الذى قال : « فضل العلم خير من فضل العبادة » « اطلبوا العلم ولو فى الصين » وكثيرا من الأحاديث التى تثنى على العلم وتحض عليه . ذلك أن مصدر اقتناع العلم ومصدر اقتناع محمد واحد : الكون وملاحظة ما فيه من إبداع ينم عن يد الخلاق العظيم .

فى كتاب حديث للعالم « أينشتين » فصل ذكر فيه رأيه فى الدين ، فقال إنه يعتنق ما يسميه « الديانة الكونية » ، تلك الديانة التى تملأ قلب كل عالم انقطع لتأمل « ذلك التناسق العجيب بين قوانين الطبيعة ، وما يخفى من عقل جبار لو اجتمعت كل أفكار البشر إلى جانبه لما كونت غير شعاع ضئيل أقرب القول فيه أنه لا شىء » ..

لا ريب عندى أن إحساس « أينشتين » نحو الكون والله هو عين إحساس محمد يوم كان يتحنث فى غار حراء قبل نزول الوحى . إنما الأنبياء والعلماء قلوب واعية تشعر بجلال الله . ولا يمكن لنبى أن يكون نبيا إلا أن يشعر من تلقاء نفسه بعظمة الخليقة ويتحرق شوقا إلى معرفة صانعها ، ولا يزال الشوق بقلبه حتى يكشف له الصانع الأعظم عن بعض نوره ، ويوحى إليه بنشر هذا النور على الإنسانية .

إنى كلما تأملت شخصية محمد مجردة ، ثبت إيمانى بأن الخصومة المعروفة بين العلم

والدين ليس لها فى الحقيقة وجود ، وأن الدين الحق لا يتعارض والعلم الحق ... بل إن الدين والعلم شىء واحد ، كلاهما يطلب نور الله ويريد وجهه ، وكلاهما يعى ويؤمن ويلهج بتناسق الوجود ووحدة قوانينه ودلالة ذلك كله على وحدة الخالق . ولم يظهر نبى حق ولا عالم حق شعر بغير ذلك . إنما الفارق بين العلم والدين فى السبل التى يسلكها كل فى الدنو من الله . ومن قال إن وسائل العلم ينبغى أن تمايل الفن أو وسائل الدين ؟

إن الطرائق والسبل يجب أن تظل مختلفة مميزة لا يختلط بعضها ببعض ، إنما المصدر واحد دائما والغاية واحدة . فما الدين والعلم والفن إلا خيوط ثلاثة كتب على بشريتنا القاصرة العمياء أن تتمسك بها لتهتدى إلى ذلك النور الذى لا بداية له ولا نهاية : الله .

إن الإسلام وهو أحدث الأديان ، وهو الذى لم يخاصم العلم ، وهو الذى اتسع صدره لكل شىء يصلح فيما يرى الدكتور هيكل لمعالجة أزمات العالم الحاضر .. الروحية والاجتماعية والاقتصادية . وهو رأى صادق إذا قيض الله للإسلام رجالا ذوى نظرة نافذة وذهن مستنير واطلاع واسع ، ويرون فضائله بأساليب جديدة ، ويتولون إذاعته والدفاع عنه بأقلام ذكية قديرة .

وفى مسرحية الحكيم ، عن النبى عليه السلام ، استكشاف لخصائص الوسيلة الإذاعية . فالراديو ، كالكلمة المطبوعة ، لا يعرض على العين وإنما يوحى إلى الذهن ، ومناظره وأحداثه تدور فى مخيلة جمهوره . ومن هنا كان ما فى الراديو والكلمة المطبوعة من سهولة الاستقبال ، بينما يعوق السينما عدم قدرتها على التخلص من فكرة المنظر .

« وللرواية » فى الراديو — كما فى الكلمة المطبوعة — حرية التحدث من داخل زمان ومكان معينين أو من غير ما زمان أو مكان . فالراديو — كما يقول علماء الإعلام — وسيلة قوامها الرواية ، وكان الراديو فى أول أمره رواية كله .. على الأقل من ناحية الشكل الفنى . وهو الأمر الذى يسر للراديو تقديم السيرة النبوية من بعد لأسباب فنية أهمها ما يجب فى نظر الهيئة الاجتماعية من تقديس للنبى عليه السلام يمنع تعريض شخصيته لاجتهادات الفنانين .

وقد قدم الحكيم نموذجا للحوار الذى ينبغى أن تسير عليه المعالجات الدرامية فى الراديو والتليفزيون للسيرة النبوية ، فهو يحول الأخبار والروايات إلى حوار ، ويريها بما يتفق مع فكرة التتابع المزمنى للوقائع وحوادث الحياة . يقول الحكيم فى مقدمة كتابه :
« فعكفت على الكتب المعتمدة والأحاديث الموثوق بها ، واستخلصت منها ما حدث بالفعل وما قيل بالفعل وحاولت على قدر الطاقة أن أضع كل ذلك فى موضعه كما وقع فى

الأصل ، وأن أجعل القارئ يتمثل كل ذلك كأنه واقع أمامه فى الحاضر غير مبيح لأى فاصل — حتى الفاصل الزمنى — أن يقف حائلا بين القارئ وبين الحوادث ، وغير مجيز لنفسى التدخل بأى تعقيب أو تعليق ، تاركا الوقائع التاريخية والأقوال الحقيقية ترسم بنفسها الصورة » .

ويقول الحكيم كذلك :

« كل ما صنعت هو الصب والصياغة فى هذا الإطار الفنى البسيط ، شأن الصائغ الحذر الذى يريد أن يبرز الجوهرة النفيسة فى صفائها الخالص ، فلا يخفيها بوش متكلف ، ولا يفرقها بنقش مصنوع ، ولا يتدخل إلا بما لا بد منه لتثبيت أطرافها فى إطار دقيق لا يكاد يرى » .

وهكذا يمكن القول إن مسرحية « محمد » للحكيم ، تعد العمل الدرامى الرائد الذى يتقدم كل معالجات السيرة النبوية فى الحضارة الإذاعية ، على نحو ما نجد بعد ذلك فى المعالجات التى قدمتها الإذاعة للسيرة ، واتجهت منها إلى استلهام قصص القرآن الكريم فى تصوير جهاد الرسل والأنبياء وكفاحهم فى سبيل نشر الدعوات والقيم الخالدة لتحرير الإنسان من الضلال والوثنية ، وهداية الإنسان منذ خلقه إلى طريق الخير والحق والسلام . فقدمت الإذاعة المصرية قصص الرسل والأنبياء نابعة من القرآن الكريم مسلسلة بترتيب بعثات الرسل والأنبياء من عهد آدم إلى سيدنا محمد ﷺ ، يعرض فيها معانى الآيات مدعمة بنصوص الشواهد القرآنية فى مختلف مواضيعها من السور القرآنية . وأعدت هذه القصص القرآنية فى برنامج تمثيلى أذيعت حلقاته ثلاثين مرة كل عام فى برنامج يومى خلال شهر رمضان .

كما عنيت الأحاديث الدينية باستلهام السيرة النبوية فى الموضوعات التى تحدث فيها المتحدثون ، إلى جانب المنهج المفصل فى الإذاعة لخدمة السنة النبوية ، والذى تضمن : من هدى السنة النبوية — قال الرسول — من وصايا الرسول — الرسول يبنى المجتمع السليم — مبادئ اجتماعية من السنة — من هدى الرسول فى بناء الأسرة — مبادئ اجتماعية من حياة الرسول — أخلاق الرسول — الرسول المثل الأعلى .

التليفزيون والسيرة النبوية :

وإذا كانت الإذاعة قد بعثت الحضارة السمعية من جديد ، فقد أفادت منها فائدة كبرى فى موادها الإذاعية السمعية ، وفى مقدمتها الأغانى الدينية التى تؤثر فى النفس تأثيرا عميقا . إذ تشترك معانى كلماتها مع لحنها وأدائها وتترك فى نفس المستمع أثرا طيبا . وتقدم هذه الأغانى فى الأوقات المختلفة والمناسبة لها يوميا فى البرامج الإذاعية ، وخاصة فى المناسبات الدينية كالمولد النبوى والهجرة وغيرها .

وإذا كانت مسرحية الحكيم قد مهدت معالجة السيرة النبوية فى الإذاعة المسموعة ، فإن على هامش السيرة لطه حسين قد مهدت الطريق للإذاعة المرئية التى حققت التزاوج بين العناصر البصرية لشاشة الصور المتحركة ، وبين قدرات الإلكترونات فى اجتياز المسافات .

وفى هامش السيرة نجد الخصائص التى تميز بها التليفزيون من بعد فى معالجاته الدرامية ، حينما يتصور القصة من عدة زوايا وأبعاد مختلفة ، ذلك أن جمهورا ألف الانتقالات المتوالية لن يظل ساكنا راضيا حيال منظر جامد خال من الحركة . كما أن التليفزيون الحى الذى يتطلب تمثيلا متواصلا دون توقف ، لا يسمح بتقسيم التصوير إلى أجزاء منفردة منفصلة كما هو الأمر فى الفيلم السينمائى . كما أن التليفزيون « الحى » قدم شيئا لم تسبق رؤيته فى الأفلام أبدا ، ذلك هو الزمن الحقيقى .

وهذه الخصائص نجدها أوضح ما تكون فى « على هامش السيرة » . يقول طه حسين :

« وأحب أن يعلم الناس أيضا أنى وسعت على نفسى فى القصص ، ومنحتها من الحرية فى رواية الأخبار واختراع الحديث ما لم أجد به بأسا إلا حين تتصل الأحاديث والأخبار بشخص النبى ، أو بنحو من أنحاء الدين ، فإنى لم أبح لنفسى فى ذلك حرية ولا سعة ، وإنما التزمت ما التزمه المتقدمون من أصحاب السيرة والحديث ورجال الرواية وعلماء الدين » .

السحار والإعلام الإسلامى :

ويمثل العمل الرائد للأستاذ عبد الحميد جودة السحار : « محمد رسول الله » علامة متميزة فى شق أرض البلاغة الجديدة ، ذلك أن السحار يمثل حضارة هذه البلاغة الجديدة أصدق تمثيل فى أعماله الروائية والدرامية ؛ فقد تمثل حضارة الطباعة والحضارة الإذاعية وحضارة السينما ، والتليفزيون ؛ وجاء حواره الدرامى فى سياق أعماله الروائية مؤكدا أستاذية فن الحوار ؛ التى عرفناها فى الجيل الأسبق عند الأستاذ توفيق الحكيم .

والحوار هو صلب البلاغة الجديدة ؛ ولا سيما حينما توظفه وسائل الاتصال لتقديم أعمال فنية رفيعة المستوى .

ولقد جاء مسلسل « محمد رسول الله » والذى قدمته شاشة التليفزيون ، عملا رائدا من أعمال الإعلام الإسلامى ؛ التى تجلو السيرة وتقدمها فى ثوب جديد ؛ يختلف عن ثوبها القديم فى الحضارة السمعية أو حضارة التدوين ، ولقد وجد الشاعر الراحل عبد الفتاح مصطفى رحمه الله ؛ فى النص الأدبى الذى كتبه السحار مادة خصبة ؛ ومعالجة جديدة فرضت نفسها على السيناريو ؛ وعلى السياق الدرامى الذى قدمه التليفزيون . ووجد الأستاذ صبرى سلامة فى الجزء الثالث هذه السمات الفنية التى أظهرها العمل الدرامى فى التليفزيون .

وهذه السمات الفنية هى التى تجعلنا نؤرخ للإعلام الإسلامى فى معالجاته للسيرة النبوية ؛ بالعمل الكبير الذى كتبه السحار ؛ وهو عمل متصل بأعمال أدبية أخرى ؛ أثرت الإعلام الإسلامى ؛ وتغذى الأعمال الدرامية فى حضارة البلاغة الجديدة ومنها :

١ — إبراهيم أبو الأنبياء	١١ — الهجرة
٢ — هاجر المصرية أم العرب	١٢ — غزوة بدر
٣ — بنو إسماعيل	١٣ — غزوة أحد
٤ — العدنانيون	١٤ — غزوة الخندق
٥ — قريش	١٥ — صلح الحديبية
٦ — مولد الرسول	١٦ — فتح مكة
٧ — اليتيم	١٧ — غزوة تبوك
٨ — خديجة بنت خويلد	١٨ — عام الوفود
٩ — دعوة إبراهيم	١٩ — حجة الوداع
١٠ — عام الحزن	٢٠ — وفاة الرسول

(مطبوعات مكتبة مصر)

ويمثل السحار وعلى أحمد باكثير مدرسة متميزة فى الإعلام الإبداعى الإسلامى المعاصر ؛ فقد وجدنا لباكثير أعماله التى توسلت بالمسرح ، وقدمت فى السينما ، مثل : الشيماء « شادية الإسلام » ؛ ملحمة عمر فى تسعة عشر جزءا ؛ وا إسلاماه ؛ هكذا لقى الله عمر .

ونحب أن نتوقف هنا عند الملحمة الإسلامية الكبرى عمر ؛ والتى نرجو أن تفيد منها وسائل الإعلام المعاصرة فى أداء رسالة الإعلام الإسلامى ؛ وقد نشرتها مكتبة مصر بالفجالة فى ثمانية عشر جزءا :

١ — على أسوار دمشق	١٠ — مكيدة من هرقل
٢ — معركة الجسر	١١ — عمر وخالد
٣ — كسرى وقيصر	١٢ — سر المقوقس
٤ — أبطال اليرموك	١٣ — عام الرمادة
٥ — تراب من أرض فارس	١٤ — حديث الهرمزان
٦ — رستم	١٥ — شطا وأرمانوسة
٧ — أبطال القادسية	١٦ — الولاة والرعية — فتح الفتوح
٨ — مقاليد بيت المقدس	١٧ — القوى الأمين
٩ — صلاة فى الإيوان	١٨ — غروب الشمس

وكم نتمنى أن يقدم التليفزيون هذه الأعمال ؛ وأن يواصل تقديم محمد رسول الله للسحار ؛ والتى كتبها فى عشرين جزءا يصور فيها قصة الإسلام منذ أيام إبراهيم الخليل إلى أن لحق محمد رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى . وقد كتب المؤلف الحقائق التاريخية فى أسلوب قصصى أخاذ .

وفى هذه الأجزاء يستقصى المؤلف تاريخ العرب قبل الإسلام ، وكتب لأول مرة تاريخ العرب ما بين إبراهيم ونشأة العدنانيين ، معتمدا على ما كشفت عنه الحفريات الأخيرة فى بلاد العراق وسورية وأرض العرب ، وهى حقبة لم يتعرض لها الإخباريون ولا المؤرخون الإسلاميون .

وقد فسر السحار التاريخ تفسيرا روحيا من خلال تصويره الأدبى للحقائق التاريخية ، الأمر الذى يجعل من هذه الموسوعة العربية الإسلامية أساسا من أسس الإعلام الإسلامى المعاصر .

أمينة الصاوى والإعلام الإسلامى :

وهكذا يمكن القول أن طه حسين لم يمهد إلى استلهام السيرة النبوية فى الأدب العربى الحديث شعرا ونثرا فحسب ، وإنما مهد إلى استلهامها فى الحضارة الجديدة المسموعة والمرئية ، ولذلك وجدنا أن « على هامش السيرة » حينما أعدتها الأستاذة أمينة الصاوى للتليفزيون قد حققت نجاحا حقيقيا ، ذلك أن المُعدَّة قد أدركت الخصائص الدرامية

فى عمل طه حسين ، ووفقت بينها وبين الوسيلة التليفزيونية على النحو الذى يثير عددا من التساؤلات حول علاقة السيرة النبوية بالأشكال الاتصالية الجديدة .

كيف يصل أثر أدبى معين إلى الجمهور ؟ وأية وسيلة اتصال أو مجموعة وسائل اتصال جماهيرية أجدى لنوع معين من الأنواع الأدبية ؟

حول هذا السؤال وغيره من التساؤلات يسعى التفسير الإعلامى للأدب أن يفسر التجربة الإبداعية ويلقى عليها الضوء .. وتنحصر هذه التساؤلات فى العبارة الإعلامية المشهورة : من — يقول ماذا — فى أية قناة أو وسيلة — لمن — ما هى النتيجة أو الأثر ؟

ذلك أن التفسير الإعلامى للأدب يقوم على أساس من الجوهر الاتصالى للأدب ، الذى لا يخرج من « كونه أداة تواصل بين الأفراد ، يتحقق عن طريقها ضرب من الاتحاد العاطفى أو التناغم الوجدانى فيما بينهم » على حد تعبير (تولستوى) .

فأساس التفسير الإعلامى إذن يتمثل فى الجوهر الاتصالى للأدب ، ذلك أن معظم خصائص العقل البشرى التى تميزه عن غيره ترجع — كما يقول ريتشاردز — إلى كونه أداة للاتصال : ولقد جعل قانون الانتقاء الطبيعى القدرة على الاتصال لدى الإنسان عاملا ذا أهمية بالغة ، وأهمية الاتصال أكثر ما تكون فى ميدان الفنون ، ففى الفنون تظهر عملية التوصيل فى أسمى صورها . ولا شك أن أكثر المسائل الفنية صعوبة وأشدها تعقيدا ستتضح لنا طبيعته فى الحال إن نظرنا إليه من ناحية عامل التوصيل » .

فالاتصال إذن هو حقيقة أساسية للوجود الإنسانى والعملية الاجتماعية . والميزة الرئيسية للأدب والفن بوجه عام — كما يقول تولستوى ، « إنما تنحصر فى قدرته على محو شتى الفواصل بين الناس ، لكى يحقق ضربا من الاتحاد الحقيقى بين الجمهور والفنان . فإذا ما وجدنا أنفسنا بإزاء « عمل » لا نشعر بأننا متحدون مع صاحبه « مرسله » ومع غيره من الناس الذين يوجه إليهم هذا العمل ، كان معنى ذلك أننا لسنا بإزاء « عمل فنى » بمعنى الكلمة . أما إذا شعرنا بأن ثمة رابطة حقيقية تجمع بيننا وبين صاحب العمل ، كان معنى ذلك أننا بإزاء عمل فنى يصدق عليه لفظ الفن بحق » .

وإذن فإن محك صدق العمل الفنى عند « تولستوى » إنما هو مدى انتشاره عن طريق العدوى Contagion لأنه كلما كانت العدوى أقوى كان الفن أصدق بوصفه فنا . ودرجة العدوى الفنية — عنده — تتوقف على شروط ثلاثة تفيدنا فى التفسير الإعلامى :

أولا : الأصالة أو الفردية أو الجد فى العواطف المعبر عنها .

ثانيا : درجة الوضوح فى التعبير عن هذه العواطف .

ثالثا : إخلاص الفنان ، أو شدة العواطف التى يعبر عنها .

وهذه الشروط الثلاثة لا تكفى للتناغم بين المرسل والمستقبل من وجهة نظر التفسير الإعلامى للأدب ، بل ينبغى أن تكون « الخبرات » مشتركة أيضا بين « المرسل » و« المستقبل » . فالمستمع باللغة العربية من نظرية النسبية « لأينشتين » ، لن تسعفه معرفته للغة العربية فى فهم المضمون ما لم يكن قد درس شيئا من علم الطبيعة والرياضيات حتى يتمكن من متابعة المحاضرة . وهذا ما يعبر عنه بالإطار الدلالى .

وتأسيسا على هذا الفهم يدفعنا الاستطراد إلى تجربة فنية قدمها التليفزيون خلال شهر رمضان ، ونعنى بها تحويل « على هامش السيرة » من عمل أدبى كتبه طه حسين لجمهور قارئ إلى عمل درامى أعدته الأديبة أمينة الصاوى لجمهور مشاهدى التليفزيون .

ذلك أن هذه التجربة الفنية تطرح تساؤلا هاما أمام التفسير الإعلامى للأدب ، وهو هل من الممكن ترجمة أثر فنى يصطنع وسيلة خاصة به إلى أثر فنى آخر ؟

إن أمينة الصاوى حينما أقدمت على هذه التجربة الفنية ، قد تجاوزت خصوصية التجربة لتؤكد ما يذهب إليه التفسير الإعلامى من أن الأدب وسيلة حيوية وهامة من وسائل الاتصال بين الناس . فاللغة الفنية على مبدعيه أو منشئيه أو صاغته ، ولكنه « يستهدف فى المقام الأول انتزاع البقاء من عوامل الاضمحلال والذبول ، ويستهدف فى المقام الثانى نقل خبرة إنسانية وشعور إنسانى إلى آخرين .

ولقد أثبتت أمينة الصاوى أن ترجمة « على هامش السيرة » من لغة الكتاب إلى لغة التليفزيون ، أمر فنى يكشف عن موهبة فنية ، قال عنها طه حسين نفسه فى رسالة إليها سنة ١٩٤٣ : « وأول ما أسجله لك أنك تحسنين الحوار على نحو الأستاذ توفيق الحكيم ، وأنك بالغة شأوا عظيما ، وأنى أنصحك بدراسة فن التمثيل » .

وقد نشرت هذه الرسالة فى كتابها آدم وحواء معتزة بما جاء بها من عميد الأدب العربى ومن حقها أن تعتز .

كما أثبتت وحدة اللغة الفنية فى عصر وسائل الاتصال بالجماهير ، وقدرتها على الترجمة من لهجة فنية إلى لهجة أخرى ، فقد ظهر الراديو الذى « أعاد اللسان مكانته ، وأكد أن الكتابة التى كدنا نستغنى بها عن التلفظ المجهور ليست إلا وسيلة تعسفية لنقل

المسموع إلى منظور ، وإعادة تمثله بتلك المصطلحات الخطية . وظهرت الصورة المتحركة التى خلصت تسجيل المنظور من التلخيص والتركيز إلى حكاية السباق الواقعى على تعبير الدكتور يونس .

ولذلك يتعين على من يتصدى لعلم أدبى لكاتب روائى معروف ، أن يصل إلى السرد الحقيقى فى العمل الروائى ولا يتناوله تناولا عشوائيا ، ناظرا إلى الحدث دون أن ينظر إلى ما وراء هذا الحدث .

وينبغى عليه أولا وقبل كل شىء أن يعرف لماذا كتب الروائى روايته ، وإلا أصبح العمل الروائى المأخوذ عنها نوعا من اللغو والخبط فى الظلام . وينبغى أيضا أن يكون كل اعتداء على النص الأصلى مبررا بأسباب درامية مشتقة من طبيعة الوسيلة التى ينقل إليها النص المطبوع ، وينبغى أن يكون لهذا الاعتداء أسبابه الفنية التى لا يستطيع المعد أن يتجاهلها .

وعودا إلى هامش السيرة فينبغى أن نوضح حقيقة قد تكون غائبة عن البعض ، فقد سمعنا مثقفين يعلقون على أحداث التمثيلية التليفزيونية وكأنما أحداث تاريخية محققة ، والواقع أن أستاذنا الدكتور طه حسين قد نبه إلى أن هذه الأحداث دارت بها ألسنة الرواة دون تحقيق ، ولعله قد أراد بكتابتها أن يدخل الأسطورة الأدبية إلى عالمنا العربى .

وتدفعنا تجربة « على هامش السيرة » إلى الدعوة إلى وصل الجماهير بالآثار الأدبية القيمة التى انتشرت فى حدود وسيلة « الكتاب » . ذلك أن وسائل الاتصال الحديثة تتيح لهذه الآثار انتشارا يتمناه مبدعوها أنفسهم .

فطه حسين مثلا كان ينظر إلى هذه الوسائل على أنها تجعل التحول العصرى جماهيريا ، وليس تحولا طبقيا ، فقال فى مجلة الهلال سنة ١٩٤٣ محددا الوظيفة الاجتماعية للاتصال بالجماهير على أنها لا تقتصر « على لون من ألوان المعرفة دون لون ، وإنما هى تتناول كل ما يتاح لأوساط الناس أن يذوقوه » . كما أنها ليست « جامدة ولا راكدة ولا واقفة عند حد ، وإنما هى متصلة نشطة متجددة تجرى فى اطراد كما يجرى النهر أو كما يجرى الغدير » .

وفى ١٩٦١ بعد انتشار وسائل الإعلام الحديثة حدد ، وظيفة الكاتب بانه « مكلف أن ينشر ثقافته بين الناس من جهة ، ومكلف من جهة أخرى أن يضىء للناس سبل الحياة بما أتيح له من الثقافة » .

وتأسيسا على هذا الفهم يذهب طه حسين إلى توظيف الاتصالب الجماهيرى

للمعرفة والتثقيف والتنشئة الاجتماعية ، يقول : « المطابع تنشر الكتب لجميع الطبقات ، والصحف تذيع المعرفة فى جميع الطبقات ، والراديو يقدم المعرفة إلى جميع الطبقات » . فالوسائل الجماهيرية عند طه حسين يجب أن توظف فى إطار الاستراتيجية الحضارية ، لأنها كما قال فى مجلة الثقافة ١٩٣٩ : « تدخل البيوت كلها ، والأندية كلها ، والميادين كلها » . وقال فى « مستقبل الثقافة » إن هذه الوسائل « أشمل نفعا وأبعد أثرا من التعليم الشعبى » . لما تقوم به من نشر أفكار التحرك الاجتماعى والتغيير .

ولعل أمينة الصاوى حين قامت بترجمة « على هامش السيرة » إلى لغة التليفزيون التى تخاطب جمهورا عريضا من المشاهدين ، قد تمثلت قول طه حسين فى مقدمة الكتاب : « فإذا استطاع هذا الكتاب أن يحبب إلى الشباب قراءة كتب السيرة خاصة ، وكتب الأدب العربى عامة ، والتماس المتاع الفنى فى صحفها الخصبة فأنا سعيد حقا ، موفق حقا لأحب الأشياء إلىّ ، وآثرها عندى ... » .

ذلك أن طه حسين فضلا عن إدراكه لقدرة الوسائل الجماهيرية ، كان معنيا بتحقيق وظيفة الكاتب فى رأب الصدع ، وسد الهوة السحيقة بين الثقافة الجادة والإنسان العادى ، بين المتخصص وعامة القراء أو جمهور المتلقين . متوسلا بكل الوسائل الفنية التى تخلص الأحداث من تجريدها والمعلومات من صعوبتها . وخاصة حين لاحظ طه حسين بين قرائه من يجهل التراث القديم أو يزدريه ، نتيجة لانقطاع الصلة بينهم وبين الشعر القديم مثلا كما يقول صاحبه وهو يحاوره فى « حديث الأربعاء » :

« إن الصلة انقطعت أو كادت تنقطع بيننا وبينهم ، ولا سيما بعد أن أقبل العصر الحديث وحمل إلينا الحضارة الحديثة وما تفرض على الناس من أساليب الحياة والتفكير ، فباعد بيننا وبين القدماء وغير طبائعنا وأمزجتنا وأذواقنا » .

فليس من قبيل المصادفة إذن أن تقدم أمينة الصاوى لجمهور اليوم عملا من أعمال طه حسين الذى شهد لها فى مطلع حياتها الأدبية بالقدرة الحوارية ، هذه القدرة التى تميز بها طه حسين نفسه ، فقدم لنا فى كثير من أعماله أسلوبا حواريا يذكرنا بحوار « سقراط » حين أحس أن فى نفسه شيئا يخالف ما فى أنفس الأثينيين ، وأن له ميولا تخالف ميولهم ، وأهواء تخالف أهواءهم ، وأخذ يحاور السوفسطائيين من جهة والشبان من جهة أخرى ، لا يصرفه ذلك عن واجباته الوطنية » .

وما أحوجنا اليوم أن تتجه وسائل الإعلام بعامة إلى محاورة السوفسطائيين المحدثين المصابين بجهل الحضارة الحديثة ، ومسخ المعنى الصحيح لكلمة التجديد فى نفوس الناس ، لتصحح للناس معنى التجديد وإحياء القديم وأخذ ما يصلح منه للبقاء .

فرسان الله والإعلام الإسلامى :

ولقد قدم لنا التليفزيون بعد ذلك عملا مستلهما من السيرة النبوية كذلك وهو « فرسان الله » الذى قدم جديدا فى السيرة ، ذلك أن هناك من المواقف فى سير الصحابة التى تفسر لنا الكثير من مواقف الرسول عليه السلام ، وتلقى الضوء على مواقفه الكريمة ، والتى تعرض لها السيرة المركزة ، عرضا ، وهذا المنهج الجديد فى تناول السيرة يقترن — فى تقديرنا على الأقل — بالحضارة الاتصالية الجديدة ، حيث نعيش فى عالم أقرب إلى التكتل والتكامل ، وهو الأمر الذى أدركته أمينة الصاوى فى عملها الجديد ، حيث تقدم لنا السيرة النبوية تليفزيونيا ، فتعيد إلينا الصورة الأولى للسيرة إلى تكاملها ، بحيث نشهد السيرة النبوية كما لو كنا شهود عيان بآذاننا وأعيننا وحواسنا ، حيث نستقبل الصورة التليفزيونية ونكملها بأنفسنا ونضيف إليها عن طريق المعايشة والمعاناة ، من خلال الوسيلة الجديدة التى خلقت إحساسا وجدانيا فى عصر المشاركة الإيجابية .

وقد أدركت أمينة الصاوى هذه الحقيقة فى الحضارة الجديدة ، حين ألقت على عاتقها مهمة تقديم السيرة فى الوقت المحدد والصورة البنائية للتليفزيون ، فقدمت لنا السيرة التى نحب — دائما — أن تروى ، والشخصيات التى تستحق أن تقدم لنا فى تصوير مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية، ثم فى تصوير مواقف السيرة العطرة بعد ذلك، بحيث أصبحت السيرة من خلال التليفزيون عملا فنيا عليه قول ألمر رايس عن العمل الفنى وأنه « مجرد محاولة الفنان تصوير الحقيقة باستعمال الرموز . وهو ينجح تماما بالدرجة التى يستطيع اختياره وترتيبه لرموزه أن يجعل المعنى الذى يقصده شيئا واضحا مفهوما .

ويقصد رايس أن يقول أن ما نريد أن نقوله عن عمل أمينة الصاوى الجديد « إن سيطرة الفنان على مادته فهى التى تجعل منه فنانا » .

ففى « فرسان الله » مثلا نجد هذه المقدرة الفنية المتميزة من خلال تصوير الشخصيات التى اعتمدت عليها أمينة الصاوى فى تصوير جوانب السيرة العطرة ، وهى تقدم لنا هذه الشخصيات سواء قبل البعثة المحمدية أو بعدها وهى فى حالة الفعل، وهى فى صراعها فيما بينها، كما وجدنا مثلا فى تصوير شخصية « رباح » وتصوير شخصية زوجته التى كانت أميرة من أميرات الحبشة ، والصراع الذى دار بينهما وبين نفسيهما ، وبين سيدها وبين البيئة الجديدة من حولهما .. إلخ . على النحو

الذى يجعلنا نرى فى « فرسان الله » عملا متميزا من حيث رسم الشخصيات وتجسيمها تجسيما كاملا يشوق الجمهور ويثير اهتمامه ، ولكن من خلال استخدام وظيفى يؤدى فى النهاية إلى توظيف الشخصيات لخدمة السيرة العطرة وجلائها فى نهاية الأمر .

ومن الأمور التى اتسم بها استلهام السيرة النبوية فى الحضارة المرئية والمسموعة « الحوار » الذى يميز العمل الدرامى من سائر الصور الأدبية ، ذلك أن الحوار أداة ينتقل عن طريقها كل شىء ، أو هو — كما يقول راشيل كروثروس عن الحوار : انه الشىء السحرى الذى يعد الزهرة المتفتحة لكل ما فى « المسرحية من عناصر » ، فالحوار فى التليفزيون لا يقف ساكنا لكى لكى يحلل ويعلل بل هو الحوار الذى « يحمل المعانى الكثيرة فى الكلمات القليلة ، وهو فى يد الممثل كالأداة الضخمة التى يستطيع أن يجعل الجمهور يعرف عن طريقها أعماق كيانه وأغوار نفسه ، ونعود ونحن نشاهد — فرسان الله — فنقتبس عن كروتروس قولها فى ذلك : « إن الحور الرائع المبدع هو أندر المواهب وأعلاها وأغلاها .. الزهرة فى شجرة المسرحية .. واللمسة الأخيرة التى تتوج الصورة » .

وهناك أمر آخر يتعلق بالحوار ونعنى به المشكلة اللغوية التى قتلت بحثا ، وهى مشكلة العامية والفصحى ، وهنا نجد فى حوار السيرة النبوية الفصيح سندا قويا لأن الفصحى ، حيث لم تصبح اللغة عائقا — كما يتوهم أيضا العامية — وإنما أتاحت الفصحى للحوار من خلال الاستخدام الواعى للألفاظ فى العمل التليفزيونى ، ثراء وتنوعا ، وإخصابا صوتيا ، إن جاز هذا التعبير . كمنا يتيح الحوار تعبيرا عن الشخصيات ، وتتحقق تلك العلاقة الإيقاعية الموزونة بين الجزء والجزء ، وبينها وبين الإطار الدرامى الكلى .

وبعد ، فهذه الهوامش على استلهام السيرة النبوية فى الحضارة الإعلامية الجديدة يجعلنا نبحث من جديد فى صيغة الأشكال الاتصالية الجديدة لحضارتنا ، ذلك أن هذه الأشكال يجيب على كل التساؤلات التى يطرحها النقاد اليوم عن أزمة القراءة وأزمة الجمهور والإبداع بل وأزمة النقد ذاته ، إلخ ما يشتق من لفظ « أزم » .

فهذه الوسيلة الجديدة التليفزيونية ، تقتضى الفهم فى حد ذاتها ، بحيث يتسنى لنا أن نستخدمها الاستخدام الأمثل فى الاتصال الأدبى والفنى بالجمهور ، ومن ذلك أنه بفضل التليفزيون عادت الصورة الأولى الفطرية إلى تكاملها ، فأصبحنا الآن نشهد

البعد الكلى وشكله ، فهى عودة إلى ما قبل الطباعة والكتابة ، بل إلى ما قبل اللغة الصوتية بحروفها المجردة ، التى أخذت تبتعد عن المدركات الكلية والانطباعات المتكاملة . ولذلك فإن العمل التليفزيونى أشبه شيء بالكتابة الهيروغليفية ، وإن وظيفة الفنان هنا أشبه شيء — كما يقول آندرسون « بتوضيح نظرته إلى العالم بسلسلة من الكتابات التصويرية التى تحمل المعانى إلى ما وراء البيان المباشر . وهناك من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أنه ليس ثمة طريقة أخرى لتوصيل التصورات الجديدة اللهم إلا طريقة الفنان » .

رجاء جارودي

وحضارة الإسلام

بقلم

أمينه الصاوي - د. عبد العزيز شرف

الثمن ٢٥٠ قرشا

البيان والتعريف

في أسباب ورود

الحديث الشريف

في ثلاثة أجزاء

تأليف
السيد الشريف إبراهيم بن محمد بن كمال الدين
الشهير بابن حمزة الحسيني الحنفي الدمشقي

حققه وعلق عليه
الدكتور الحسيني عبد المجيد هاشم
وكيل الأزهر الشريف

رقم الإيداع ٣٣٨٩ / ٨٦
الترقيم الدولى ١ — ٠٢٢٨ — ١١ — ٩٧٧